

THE INTERNATIONAL BESTSELLER

JAMES CLAVELL

جیمس کلایوئل



2

將軍

SHOGUN

شوغون



مكتبة

ترجمة: محمد عاطف

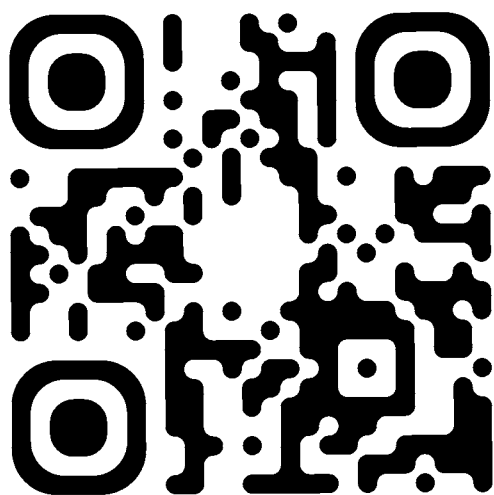
2

將軍

S H Ō G U N
شَوْجُون

عظيمة
الكتب

ترجمة: محمد عاطف



سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR



للنشر والتوزيع

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email: P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

● تأليف: جيمس كلافيل

● ترجمة: عهد عاطف

● تحرير: أحمد حسين

● تدقيق لغوي: نرمين عياد

● تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

● رقم الإيداع: 2024/32644م

● الترخيم الدولي: 9-493-992-977-978

● العنوان الأصلي: SHŌGUN

● العنوان العربي: شُوجُن 2

● حقوق النشر:

Copyright © 1975 by James Clavell

● الطبعة الأولى: يناير / 2025م

● حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

11 8 2025

مكتبة
t.me/soramnqraa

THE INTERNATIONAL BESTSELLER

JAMES CLAVELL

جيمس كلاڤيل

مكتبة

t.me/soramnqraa

2

將軍

SHOGUN
شوجن

عظير
الكتب

ترجمة: محمد عاطف

الفصل السادس والثلاثون

قال تورانا: «لقد دعوتك للصيد يا ناجا سان، وليس لتكرار آراء قد سمعتها بالفعل».

- أتوسل إليك يا والدي، للمرة الأخيرة: أوقف التدريب وامنع الأسلحة ودمر الهمجي، وأعلن فشل التجربة وتخلص من هذا الفعل الشنيع.
- لا. للمرة الأخيرة.

تحرك الصقر المقنع على يد تورانا المغطاة بالقفاز باضطراب، إذ لم يعتد على التهديد في صوت سيده، وأصدر هسهسة منفعلة. كانا في الأدغال، الصقارون والحراس بعيدًا عن مرمى السمع، الجو شديد الحرارة ورطب وملبد بالغيوم.

رفع ناجا ذقنه وقال: «حسنًا. ولكن لا يزال من واجبي أن أذكرك بأنك في خطر هنا، وأن أطلبك مجددًا وبكل أدب، الآن للمرة الأخيرة، بأن تغادر أنجيرو اليوم».

مكتبة

t.me/soramnqraa

- لا. أيضًا للمرة الأخيرة.
- إذن، خذ رأسي.
- أنا بالفعل أمتلك رأسك.
- إذن خذه اليوم، الآن، أو دعني أنه حياتي، ما دمت لن تقبل النصيحة الجيدة.
- تعلم الصبر، أيها الجرو.
- كيف يمكنني أن أكون صبورًا بينما أراك تدمر نفسك؟ إن من واجبي أن أوضح لك ذلك. أنت تبقى هنا تصطاد وتضيع الوقت بينما يدمر أعداؤك العالم كله عليك. اجتمع المجلس غدًا. أربعة أخماس جميع الدايميو في اليابان إما في أوساكا بالفعل وإما في طريقهم إليها. أنت الوحيد المهم الذي رفض. الآن ستُعزل. عندها لن ينقذك شيء. على الأقل يجب

أن تكون في منزلك في إيدو محاطًا بالجيوش. هنا أنت عار. لا يمكننا حمايتك. نحن بالكاد نملك ألف رجل، ألم يحشد يابو سان جميع قوات إيزو؟ لديه أكثر من ثمانية آلاف رجل في نطاق عشرين ري، وستة آلاف آخرين يغلقون حدوده. أنت تعلم أن الجواسيس يقولون إنه يملك أسطولًا ينتظر في الشمال لإغراقك إذا حاولت الهروب بالقادس. أصبحت سجينه مجددًا، ألا ترى ذلك؟ حمامة زاجلة واحدة من إيشيدو ويستطيع يابو تدميرك متى شاء. كيف تعلم أنه لا يخطط للخيانة مع إيشيدو؟

- أنا متأكد من أنه يفكر في ذلك. لو كنت مكانه، لفعلت الشيء نفسه، ألن تفعل أنت ذلك؟

- لا، لن أفعل.

- إذن ستموت قريبًا، وهو ما تستحقه تمامًا، ولكن ستموت أيضًا عائلتك كلها وعشيرتك وجميع أتباعك، وهو ما لا يُغتفر تمامًا. أنت أحق عنيد وغبي. لا تستخدم عقلك ولا تستمع ولا تتعلم ولا تكبح لسانك أو أعصابك. تدع نفسك تتلاعب بك بأكثر طريقة طفولية وتعتقد أن كل شيء يمكن حله بحد السيف. السبب الوحيد الذي يمنعني من أخذ رأسك الغبي أو السماح لك بإنهاء حياتك الحالية عديمة القيمة هو أنك ما زلت صغيرًا، لأنني كنت أعتقد أنك قد تمتلك بعض الإمكانيات، وأخطأك ليست خبيثة، ولا يوجد مكر في داخلك، ولا شك في ولائك. ولكن إذا لم تتعلم الصبر والانضباط الذاتي بسرعة، سأسلب منك رتبة الساموراي وأرسلك أنت وجميع أجيالك إلى طبقة الفلاحين.

ضرب توراناغا قبضته اليمنى على سرجه، فأطلق الصقر صرخة حادة ومتوترة.

- هل تفهم؟

كان ناجا في حالة صدمة. لم يرَ ناجا في حياته كلها والده يصرخ بغضب أو يفقد أعصابه، أو حتى سمع عنه أنه يفعل ذلك. شعر بالكلام على طرف لسانه عدة مرات، لكنه كان دائمًا يبرره. كان ناجا يعلم أنه ارتكب أخطاء كثيرة، لكن والده كان دائمًا يحول الأمور حتى لا تبدو غبية كما كانت في البداية. على سبيل المثال، عندما أوضح توراناغا له كيف وقع في فخ أومي أو يابو بشأن جوزين، كان يجب منعه جسديًا من الاندفاع لقتلهما في الحال.

لكن تورانا جا أمر حراسه الشخصيين بصب الماء البارد على ناجا حتى استعاد عقله، وشرح له بهدوء أنه -ناجا- ساعد والده مساعدة لا حد لها بالقضاء على تهديد جوزين. هكذا نصحه تورانا جا: «لكن كان من الأفضل لو أنك علمت أنهما تلاعبا بك للقيام بذلك. كن صبورًا يا بني، فكل شيء يأتي بالصبر. ستتمكن قريبًا من التلاعب بهم. ما فعلته كان جيدًا جدًا. ولكن يجب أن تتعلم أن تستنتج ما يدور في عقل الرجل إذا أردت أن تكون ذا فائدة لنفسك أو لسيدك. أنا أحتاج إلى قادة. لدي ما يكفي من المتعصبين».

كان والده دائمًا حكيماً ومسامحاً، ولكن اليوم... قفز ناجا عن حصانه وجثا بتذلل: «رجاءً سامحني يا والدي. لم أقصد قط إغضابك... إنه فقط بسبب قلقي الشديد على سلامتك. رجاءً اعذرني على إزعاج الانسجام...».

صرخ تورانا جا مما جعل حصانه يرتعد: «اصمت».

أمسك تورانا جا بفرسه بشدة بركبتيه وسحب اللجام بإحكام في يده اليمنى، فتشتت الحصان باضطراب. بدأت الصقر التي اختل توازنها تنفض أجنحتها بعنف محاولة القفز من على قبضته، مطلقة صرخات مدوية، منزعة من الاضطراب غير المألوف وغير المرغوب فيه حولها.

- اهدئي يا جميلتي، اهدئي...

حاول تورانا جا يائساً تهدئتها والسيطرة على الحصان بينما قفز ناجا نحو رأس الحصان. أمسك باللجام وتمكن بالكاد من منع الحصان من الفرار. كانت الصقر تصرخ بغضب. في النهاية استقرت الصقر بتردد على قفاز تورانا جا، ممسكة به بإحكام بواسطة أربطتها. لكن أجنحتها كانت لا تزال ترتجف بتوتر وأجراس قدميها ترن بصخب.

صرخت للمرة الأخيرة.

قال تورانا جا بصوت مهدئ، ووجهه ما زال مليئاً بالغضب: «اهدئي، اهدئي يا جميلتي. كل شيء بخير».

ثم التفت إلى ناجا محاولاً إخفاء العداء في صوته من أجل الصقر وقال: «إذا كنت قد أفسدت حالتها اليوم، سوف... سوف...».

في هذه اللحظة، صرخ أحد الصقارة محذراً. نزع تورانا جا غطاء الصقر بيده اليمنى في الحال، وأعطاهها لحظة لتكيف مع محيطها، ثم أطلقها.

كانت ذات جناح طويل، من نوع الشاهين، واسمها تيتسو كو -سيدة الصلب-. وانطلقت في السماء، تحلق حول مركزها على ارتفاع مائة وثمانين مترًا فوق تورانا، تنتظر فريستها لتُطلق، وقد نسيت توترها. ثم عندما كانت تحلق في الاتجاه المواجه للريح، رأت الكلاب تُطلق وتفرق سربًا من طيور التدرج وأجنحته ترفرف باضطراب. حدّدت فريستها، انحنت واتجهت بقوة نحوها -أغلقت جناحيها وانقضت بلا هوادة- ومخالبها مستعدة لقتلها.

اندفعت بسرعة فائقة لكن طائر التدرج المسن الذي كان ضعف حجمها انحرف من جانبها، واندفع في زعر بسرعة باتجاه مجموعة من الأشجار على بعد مائة وخمسين مترًا. استعادت تيتسو كو توازنها، فتحت أجنحتها واندفعت بسرعة خلف طريدتها. ارتفعت في السماء ثم انحنت عمودياً مجدداً فوق الطائر وانقضت بعنف، وفشلت مجدداً. صاح تورانا بحماس مشجعاً ومحذراً من الخطر القادم، ناسياً ناجا.

بفوضى محمومة من رفرقة الأجنحة، كان الطائر يندفع نحو حماية الأشجار. بينما كانت الشاهين تحلق عاليًا فوقه مجدداً، ثم انقضت واندفعت إلى الأسفل. لكنها كانت متأخرة. فقد اختفى الطائر الماكر. اقتحمت الصقر الأوراق والأغصان بشراسة بحثًا عن فريستها غير مبالية بسلامتها، ثم استعادت توازنها واندفعت مجدداً إلى السماء، تصرخ بغضب بينما تتجه بسرعة عاليًا فوق مجموعة الأشجار.

في تلك اللحظة، أطلقوا سرب من طيور الحجل وحلقوا بعيداً، محاولين البقاء قريباً من الأرض بحثاً عن الأمان، مندفعين هنا وهناك ومتتبعين بذكاء تضاريس الأرض. حددت تيتسو كو أحدهم، وثنت جناحيها وانقضت كالحجر. هذه المرة لم تخطئ هدفها. كسرت عنق الحجل بضربة عنيفة بمخالبها الخلفية في أثناء مرورها. سقط الطائر على الأرض وحوله سحابة من الريش المتطاير. ولكن بدلاً من أن تتابع فريستها إلى الأرض أو تمسك بها وتهبط معها، فقد انطلقت صارخة في السماء بينما تحلق أعلى وأعلى.

أخرج تورانا الطعم بتوتر، وهو طائر ميت صغير مربوط بحبل رفيع، وبدأ بلفه حول رأسه. لكن تيتسو كو لم تُغر للعودة. أصبحت الآن نقطة صغيرة في السماء، وكان تورانا متأكداً من أنه قد فقدها، وأنها قررت أن تتركه، وتعود إلى البراري، لتقتل كما تشاء وليس كما يشاء هو، ولتأكل عندما

تريد وليس عندما يقرر هو، ولتطير حيثما تحملها الرياح أو يأخذها خيالها، بلا سيد، وحررة إلى الأبد.

شاهدها توراناها، ليس بحزن ولكن بشعور طفيف من الوحدة. كانت مخلوقاً برياً، وتوراناجا مثل كل الصقارين، كان يعلم أنه مجرد سيد مؤقت على الأرض. لقد تسلق وحده إلى عشاها في جبال «هاكوني» وأخذها من العش عندما كانت صغيرة، ودرّبها واعتنى بها ومنحها أول صيد لها. الآن كان بالكاد يستطيع رؤيتها تدور هناك، تحلق في التيارات الهوائية الدافئة بغطرسة، وتمنى بحسرة أن يكون بإمكانه هو أيضاً التحليق في السماء العليا بعيداً عن آثام الأرض.

ثم خرج طائر التدرج المسن بهدوء من بين الأشجار ليأكل مجدداً. وانقضت تيتسو كو من الأعالي، تبدو كسلاح انسيابي صغير للموت، مخالباها جاهزة لتوجيه الضربة القاضية.

مات الطائر في الحال وتناثر ريشه مع تأثير الضربة، لكنها تمسكت به وسقطت معه لتتركه وجناحها يشقان الهواء بعنف لتوقف نفسها في اللحظة الأخيرة. ثم أطبقت جناحيها واستقرت على فريستها.

أمسكت بالفريسة بمخالباها وبدأت تنزع الريش بمنقارها قبل أن تأكل. ولكن وصل توراناها قبل أن تبدأ في الأكل. توقفت بانتباه مشتت. كانت عيناها البنيتان القاسيتان المحاطتان بحواف صفراء تراقبانه وهو ينزل عن حصانه، وأذناها تستمعان إلى مدحه اللطيف لمهارتها وشجاعتهما. ثم سمحت له بالاقتراب لأنها كانت جائعة ولأنه هو الذي يمنحها الطعام ولأنه كان صبوراً ولم يقم بأي حركة مفاجئة ولكن جثا على ركبتيه بلطف.

كان توراناها يثني عليها بلطف. أخرج سكينه للصيد وشق رأس الطائر ليسمح لتيتسو كو بأن تتغذى على المخ. عندما بدأت تتغذى على هذا الجزء، قطع الرأس بالكامل وصعدت هي بسهولة على قبضته حيث اعتادت أن تأكل.

خلال هذا الوقت كله، كان توراناها يمدحها، وعندما أنهت هذه اللقمة، كان يربت عليها برفق ويثني عليها بسخاء. كانت تهز رأسها وتصدر صوتاً هادئاً يعبر عن رضاها، سعيدة بعودتها الآمنة إلى القبضة مجدداً حيث يمكنها أن تأكل، لأنها بالطبع منذ أن أخذت من العش، كانت القبضة هي المكان الوحيد الذي سُمح لها فيه بتناول الطعام، وكان طعامها دائماً يُقدّم لها من قبل توراناها شخصياً. بدأت تهيب نفسها مستعدة لقتل آخر.

ولأن تيتسو كو طارت بشكل جيد، قرر توراناغا أن يتركها تتغذى ولا يطيرها مجددًا اليوم. أعطاه طائرًا صغيرًا كان قد نزع ريشه وفتح لها. وعندما كانت في منتصف وجبتها، وضع عليها الغطاء. واصلت تناول الطعام بسعادة تحت الغطاء. وعندما انتهت وبدأت في تهية نفسها مجددًا، التقط توراناغا طائر التدرج ووضعه في حقيبة، وأشار إلى الصقارين الذين كانوا ينتظرون مع الصيادين. ثم تناقشوا وهم في حالة من الابتهاج عن روعة الصيد وعدد الفرائس. كان يوجد أرنب بري وزوجان من السمان وطائر التدرج. صرف توراناغا الصقارين والصيادين، وأرسلهم إلى المخيم مع جميع الصقور. بينما انتظر حراسه في اتجاه الريح.

الآن حوّل انتباهه إلى ناجا: «إذن؟».

جثا ناجا بجوار حصانه وانحنى: «أنت محق تمامًا يا سيدي... فيما قلته عني. أعتذر عن إهانتك».

- ولكن ليس عن تقديمك نصيحة سيئة لي؟

- أنا... أتوسل إليك لتضعني مع شخص يستطيع أن يعلمني حتى لا أكرر ذلك. لا أريد أن أقدم لك نصيحة سيئة، مطلقًا.

- جيد. ستقضي جزءًا من كل يوم تتحدث مع أنجين سان، لتتعلم ما يعرفه. يمكن أن يكون أحد معلميك.

- هو؟

- نعم. قد يعلمك ذلك بعض الانضباط. وإذا استطعت أن تدخل فكرة الاستماع إلى ذلك الحجر الذي بين أذنيك، ستتعلم بالتأكيد أشياء قيمة لك. قد تتعلم حتى شيئًا ذا قيمة لي.

نظر ناجا بتجهم إلى الأرض.

- أريدك أن تعرف كل ما يعرفه عن الأسلحة والمدافع والحروب. ستصبح خبيرًا في ذلك. نعم. وأريدك أن تصبح خبيرًا محترفًا.

لم يقل ناجا شيئًا.

- وأريدك أن تصبح صديقه.

- كيف يمكنني فعل ذلك يا سيدي؟

- لماذا لا تفكر في طريقة؟ لماذا لا تستخدم عقلك؟

- سأحاول. أقسم إنني سأحاول.

- أريدك أن تفعل ما هو أفضل من ذلك. أنت مُلزم بالنجاح. استخدم بعض «المحبة المسيحية». يجب أن تكون قد تعلمت ما يكفي للقيام بذلك. أليس كذلك؟

عبس ناجا: «هذا مستحيل تعلّمه مهما حاولت. هذه هي الحقيقة. كل ما تحدث عنه تسوكو سان كان عقائد وهراء تجعل أي رجل يتقيأ. المسيحية للفلاحين وليست للساموراي. لا تقتل ولا ترتبط بأكثر من امرأة واحدة، وخمسين حماقة أخرى. لقد أطعك آنذاك وسأطيعك الآن... أنا دائماً أطيع. لماذا لا تدعني فقط أفعل الأشياء التي أستطيع فعلها يا سيدي؟ سأصبح مسيحياً إذا كان هذا ما تريده ولكن لا أستطيع أن أومن بها. إنها كلها هراء و... أعتذر عن الكلام. سأصبح صديق أنجين سان. سأفعل».

- جيد. وتذكر أنه يساوي عشرين ألف مرة من وزنه في الحرير الخام ولديه معرفة تفوق ما ستحصل عليه في عشرين حياة. تمالك ناجا نفسه وأوماً بالموافقة مطيعاً.

- جيد. ستقود اثنين من الكتائب، وأومي سان اثنين، وواحدة ستبقى كاحتياط تحت قيادة بونتارو.

- وماذا عن الأربعة الأخرى يا سيدي؟

قال توراناغا وهو يلقي إلى ابنه قطعة من المعلومات: «ليس لدينا ما يكفي من الأسلحة لهم. كان ذلك تمويهاً لإبعاد يابو عن الحقيقة».

- سيدي؟

- كان ذلك مجرد عذر لجلب ألف رجل آخرين إلى هنا. ألن يصلوا غداً؟ يمكنني حصار أنجيرو والهروب مع ألفي رجل، إذا لزم الأمر. أليس كذلك؟

- لكن يابو سان يمكنه أن...

امتنع ناجا عن التعليق مدرّكاً أنه كان على وشك ارتكاب حكم خاطئ مجدداً. سأل بمرارة: «لماذا أنا غبي بهذا الشكل؟ لماذا لا أستطيع رؤية الأمور كما تراها أنت؟ أو كما يراها سودارا سان؟ أريد أن أساعد، أن أكون ذا فائدة. لا أريد أن أستفرك طوال الوقت».

- إذن تعلم الصبر يا بني، واكبح جماح غضبك. سيحين وقتك قريبًا.

- سيدي؟

شعر تورانا جا بالتعب فجأة من التحلي بالصبر. نظر إلى السماء وقال: «أعتقد أنني سأنام لبعض الوقت».

في الحال، نزع ناجا السرج وغطاء الحصان ووضعهما على الأرض كسرير للساموراي. شكره تورانا جا وشاهده وهو يضع الحراس. وعندما تأكد أن كل شيء صحيح وآمن، استلقى وأغمض عينيه.

ولكنه لم يكن يرغب في النوم، رغب فقط في التفكير. كان يعلم أن فقدانه لأعصابه علامة سيئة للغاية. قال لنفسه: أنت محظوظ أنه كان فقط أمام ناجا الذي لا يعلم شيئًا. لو حدث ذلك بالقرب من أومي أو يابو، لأدركا على الفور أنك تكاد تكون مذعورًا من القلق. ومثل هذه المعرفة قد تحفزهم بسهولة على الخيانة. كنت محظوظًا هذه المرة. لقد وضعت تيتسو كو كل شيء في نصابه. لولاها لربما سمحت للآخرين برؤية غضبك وكان ذلك سيكون جنونًا.

يا لها من رحلة رائعة! تعلم منها: يجب التعامل مع ناجا مثل الصقر. ألا تصرخ ويشتاط مثل أفضلهم؟ مشكلته الوحيدة هي أنه يطير نحو الطريدة الخطأ. طريدته هي القتال والموت المفاجئ، وسيحصل على ذلك قريبًا جدًا.

بدأ قلق تورانا جا يعود. ما الذي يجري في أوساكا؟ لقد أسأت التقدير فيما يتعلق بالدايميو... من سيقبل ومن سيرفض الاستدعاء. لماذا لم أسمع شيئًا؟ هل خانوني؟ يوجد الكثير من الأخطار حولي...

ماذا عن أنجين سان؟ هو أيضًا صقر. لكنه لم يُروض بعد كما يزعم يابو وماريكو. ما هي طريدته؟ طريدته هي السفينة السوداء والأنجين رودريجز والقبطان القبيح الصغير المغرور الذي لن يعيش طويلًا في هذه الأرض، وجميع الكهنة ذوي الزي الأسود وجميع الكهنة ذوي الشعر الكريه، وجميع البرتغاليين وجميع الإسبان والتركمان أيًا كانوا، والإسلاميين أيًا كانوا، دون أن ننسى أومي ويابو وبونتارو وإيشيدو وأنا.

تقلّب تورانا جا ليصبح مرتاحًا أكثر وابتسم لنفسه. لكن أنجين سان ليس صقرًا طويل الجناح يتبع الطعم، تطلقه ليطيّر حرًا فوقك ليهاجم طريدة معينة. بل هو أشبه بصقر قصير الجناح، صقر القبضة، تطلقه مباشرة من القبضة ليقفل أي شيء يتحرك، كصقر الباز الذي يصطاد حجل أو أرنب يزيد

وزنه على ثلاثة أضعاف وزنها، الجرذان والقطط والكلاب والدجاج والزراريز والغربان، يتفوق عليهم باندفاعات بسرعة مدهشة ليقتلهم بضربة واحدة من مخالفته. الصقر الذي يكره الغطاء ويرفضه، يجلس فقط على معصمك مغرورًا وخطرًا ومكتفياً بذاته وبلا رحمة، بعينين صفراوين، وصديق جيد سريع الغضب إذا لم تكن حالته المزاجية جيدة.

نعم، أنجين سان هو صقر قصير الجناح. على من سأطلقه؟

أومي؟ ليس بعد.

يابو؟ ليس بعد.

بونتارو؟

لماذا ذهب أنجين سان حقًا وراء بونتارو بالمسدسات؟ بسبب ماريكو، بالطبع. لكن هل أقاما علاقة؟ لقد كانت لديهما فرص كثيرة. أعتقد نعم. قالت في ذلك اليوم الأول أنه «سخي». جيد. لا شيء خاطئ في علاقتهما - كان يُعتقد أن بونتارو مات - بشرط أن يظل الأمر سرًا دائمًا. لكن أنجين سان كان غيبًا لأنه خاطر بالكثير من أجل امرأة رجل آخر. ألا يوجد آلاف النساء الأخرى، حرائر وغير مرتبطات، ويتمتعن بالقدر نفسه من الجمال، ونفس الصغر أو الكبر أو الحسن أو الرفع أو النبيل أو أيًا كان، دون مخاطرة الانتماء إلى شخص آخر؟ لقد تصرف كهمجي غيور. هل تتذكر الأنجين رودريجيز؟ ألم يبارز ويقتل همجيًا آخر وفقًا لعاداتهم، فقط ليرتبط بابنة تاجر من الطبقة الدنيا التي تزوجها فيما بعد في ناجازاكي؟ ألم يترك التايكو هذه الجريمة تمر دون عقاب، على عكس نصيحتي، لأنها كان جريمة قتل همجي فقط وليس واحدًا منّا؟ من الغباء وجود قانونين، واحد لنا وواحد لهم. يجب أن يكون هناك قانون واحد فقط.

لا، لن أطلق أنجين سان على بونتارو، أحتاج إلى ذلك الأحمق. ولكن سواء كانت لديهم علاقة أم لا، أمل ألا تخطر هذه الفكرة على بال بونتارو. حينئذٍ سأضطر إلى قتل بونتارو بسرعة، لأنه لا توجد قوة على الأرض ستمنعه من قتل أنجين سان وماريكو سان وأنا أحتاجهما أكثر من بونتارو. هل يجب أن أقضي على بونتارو الآن؟

حالما أفاق بونتارو، أرسل تورانا جا لاستدعائه. قال: «كيف تجرؤ على وضع مصالك أمام مصالحي. كم من الوقت ستظل ماريكو سان غير قادرة على الترجمة؟».

- قال الطبيب بضعة أيام يا سيدي. أعذر عن كل هذه المتاعب.
- لقد أوضحت لك أنني بحاجة إلى خدماتها لعشرين يومًا آخر. ألا تتذكر؟
- نعم. أنا آسف.
- لو أنها أغضبتك، فبضع صفعات على الأرداف ستكون أكثر من كافية. كل النساء يحتجن إلى ذلك من وقت لآخر، ولكن أكثر من ذلك يكون تصرفًا همجيًا. لقد عرضت التدريب للخطر بتصرفك الأناني كفلاح غبي. لا أستطيع التواصل مع أنجين سان دونها.
- نعم. أعلم يا سيدي، أنا آسف. إنها المرة الأولى التي أضربها فيها. الأمر فقط... أحيانًا تدفعني إلى الجنون لدرجة تجعلني لا أستطيع الرؤية بوضوح.

- لماذا لا تطلقها إذن؟ أو ترسلها بعيدًا؟ أو تقتلها، أو تأمرها بقطع حلقها عندما لا أحتاج إليها بعد الآن؟

قال بونتارو: «لا أستطيع. لا أستطيع يا سيدي. إنها... لقد أردتها منذ اللحظة الأولى التي رأيته فيها. عندما تزوجنا، في المرة الأولى كانت كل شيء يمكن أن يتمناه الرجل. اعتقدت أنني كنت مباركًا. هل تتذكر كيف أرادها كل دايميو في المملكة. ثم... ثم أرسلتها بعيدًا لحمايتها بعد الاغتيال القذر، متظاهراً باشمئزازي منها من أجل سلامتها، وبعدها عندما أمرني التايكو بإعادتها بعد سنوات، أثارتني أكثر من ذي قبل. الحقيقة أنني كنت أتوقع منها أن تكون ممثلة، وجامعتها كما يجامع الرجل زوجته، ولم أهتم بالأشياء الصغيرة التي ترغب بها المرأة مثل القصائد والزهور. لكنها تغيرت. كانت مخلصه كما كانت دائماً، ولكنها كالجليد دائماً تطلب الموت، تطلب مني أن أقتلها». كان بونتارو مذعوراً وهو يضيف: «لا أستطيع قتلها أو السماح لها بقتل نفسها. لقد لطخت ابني وتجعلني أكره النساء الأخريات ولكن لا أستطيع التخلص منها. لقد... حاولت أن أكون لطيفاً لكن دائماً ما تكون كالجليد الذي يدفعني إلى الجنون. عندما عدت من كوريا وسمعت أنها اعتنقت هذا الدين المسيحي السخيف كنت مستمتعاً، لأن ما أهمية أي دين غبي؟ كنت سأمازحها

بشأنه ولكن قبل أن أدرك ما كان يحدث، وجدت نفسي أضع السكين على حلقها وأقسمت إنني سأقتلها إذا لم تتخلَّ عن الدين. بالطبع لم تتخلَّ عن الدين، لن يفعل أي ساموراي تحت مثل هذا التهديد، أليس كذلك؟ نظرت إليَّ بعينها وقالت لي أن أكمل. قالت: «رجاءً اقتلني يا سيدي. هيا، دعني أرفع رأسي لأجلك. أدعو الرب أن أنزف حتى الموت». لم أقتلها يا سيدي. بل جامعته. لكنني قطعت شعر وأذان بعض نساء اللاتي شجعنها على أن تصبح مسيحية وطردتهن من القلعة. وفعلت الشيء نفسه مع أمها الحاضنة، وقطعت أنفها أيضًا، تلك العجوز الخبيثة! ثم قالت ماريكو، لأن... لأنني عاقبتُ نساءها، المرة القادمة التي سأقترب فيها من فراشها دون دعوة، ستقوم بالسيبوكو بأي طريقة على الفور... رغم واجبها نحوك، رغم واجبها نحو العائلة، حتى رغم... وصايا إلهها المسيحي».

كانت دموع الغضب تسيل على وجنتيه دون أن يلاحظها وأكمل: «لا أستطيع قتلها مهما أردت ذلك. لا أستطيع قتل ابنة أكييتشي جينساي مهما كانت تستحق ذلك...».

تركة توراناغا يواصل الثرثرة حتى أفرغ كل ما بداخله، ثم عجله بالمغادرة وأمره بالبقاء بعيدًا تمامًا عن ماريكو حتى يتخذ قرارًا بشأن ما يجب القيام به. وأرسل طبيبه الخاص لفحصها. وكان التقرير إيجابيًا: كدمات ولكن لا توجد أضرار داخلية.

قرر توراناغا زيادة على الجميع من أجل سلامته الخاصة لأنه كان يتوقع الخيانة ولأن الوقت بدأ ينفد. فأمر ماريكو بالانتقال إلى منزل أومي مع تعليمات بالراحة والبقاء داخل حدود المنزل والابتعاد تمامًا عن طريق أنجين سان. بعد ذلك استدعى أنجين سان وتظاهر بالانزعاج عندما أصبح واضحًا أن التواصل بينهما كان بالكاد ممكنًا، فأمره بالمغادرة. زادت جميع التدريبات حدة. أرسلت الفرق في مسيرات قسرية. وأمر ناغا بأخذ أنجين سان وجعله يمشي حتى ينهك، ولكن ناغا لم ينجح في إنهاك أنجين سان.

لذا جرب ذلك بنفسه. قاد كتيبة في مسيرة استمرت إحدى عشرة ساعة فوق التلال. تابع أنجين سان، لم يكن في الصفوف الأولى لكنه استمر في المتابعة. عندما عادوا إلى أنجيرو قال أنجين سان بكلمات شبه غير مفهومة، وبالكاد قادرٌ على الوقوف: «توراناغا ساما، أستطيع المشي. أستطيع تدريب البنادق. آسف جدًا، لا يمكنني الجمع بين الأمرين في الوقت نفسه، حسنًا؟».

ابتسم تورانا جا الآن وهو مستلق تحت السماء الغائمة منتظرًا المطر، مستمتعًا بلعبة كبح جماح بلاكتورن. إنه حقًا صقر قصير الجناح. ماريكو تتمتع بالصلابة نفسها والذكاء نفسه لكنها أكثر تألقًا، ولديها قسوة لن يمتلكها هو أبدًا. إنها مثل الشاهين، مثل تيتسو كو. الأفضل. لماذا دائمًا ما يكون الصقر الأنثى أكبر وأسرع وأقوى من الذكر، دائمًا أفضل من الذكر؟

إنهم جميعًا صقور. هي وبونتارو ويابو وأومي وفوجيكو وأوتشيبا وناجا وكل أبنائي وبناتي ونسائي وأتباعي، وجميع أعدائي. كلهم صقور، أو فرائس للصقور.

يجب أن أضع ناجا في موقع مرتفع فوق فريسته وأتركه ينقض عليها. من يجب أن يكون؟ أومي أم يابو؟

ما قاله ناجا عن يابو كان صحيحًا.

سأله في اليوم الثاني: «إذن يا يابو سان، ما الذي قررته؟».

- لن أذهب إلى أوساكا إلا بعد أن تذهب أنت يا سيدي. لقد أمرت بتأهب كل إيزو.

- سيعزلك إيشيدو.

- سيعزلك أنت أولاً يا سيدي، وإذا سقطت الكانتو، ستسقط إيزو. لقد عقدت معك اتفاقًا مقدسًا. أنا في صفك. عائلة كاسيجي تفي بووعدها.

- أنا أتشرف بالقدر نفسه بأن تكون حليفًا لي.

كذب تورانا جا، سعيدًا بأن يابو قد نفذ مجددًا ما خطط له أن يقوم به. في اليوم التالي جمع يابو جيشًا وطلب منه أن يختبره، ثم جثا رسميًا في حضور جميع رجاله وعرض نفسه تابعًا.

سأل تورانا جا: «هل تعترف بي كزعيمك الإقطاعي؟».

- نعم. وكل رجال إيزو. ورجاء يا سيدي أن تقبل هذه الهدية كرمز للواجب البنوي.

قدم له سيفه موراساما وهو لا يزال على ركبتيه: «هذا هو السيف الذي قتل جدك».

- هذا غير ممكن.

أخبره يابو بتاريخ السيف، وكيف وصل إليه عبر السنين، وكيف أنه لم يعلم هويته الحقيقية إلا مؤخرًا. استدعى سوو. وقال الرجل المسن ما شاهده عندما كان لا يزال صبيًا صغيرًا.

قال سوو بفخر: «هذا صحيح يا سيدي، لم يشهد أحد كسر والد أوباتا للسيف أو رميه في البحر. وأقسم على أمل إعادة ولادتي كساموراي أنني خدمت جدك الزعيم تشيكي تادا. خدمته بإخلاص حتى ذلك اليوم الذي مات فيه. كنت هناك، أقسم بذلك».

قبل تورانا جا السيف. بدا وكأنه يرتجف بيبغض بين يديه. كان دائمًا يسخر من الأسطورة التي تقول إن بعض السيوف تمتلك رغبة قتل خاصة بها، وإن بعض السيوف تحتاج إلى الخروج من غمدها لتشرب الدماء، لكنه الآن أصبح يؤمن بذلك.

ارتجف متذكرًا ذلك اليوم. لماذا تكرهنا شفرات موراساما؟ واحدة قتلت جدي. وأخرى كادت أن تقطع ذراعي عندما كنت في السادسة، حادث غير مفسر، لم يكن يوجد أحد بالقرب مني، لكن مع ذلك جُرحت ذراعي التي أحمل بها السيف وكدت أن أنزف حتى الموت. وثالثة قطعت رأس ابني البكر.

قال يابو: «سيدي، لا ينبغي السماح لمثل هذا السيف الملوث بالبقاء، أليس كذلك؟ دعني أخذه إلى البحر وأغرقه حتى لا يستطيع هذا السيف ع الأقل تهديدك أو تهديد ذريتك».

تمتم ممتنًا لأن يابو قد قدم الاقتراح: «نعم... نعم، افعل ذلك الآن».

وفقط عندما غرق السيف في أعماق البحر واختفى عن الأنظار، على مرأى من رجاله، بدأ قلبه ينبض بشكل طبيعي. شكر يابو وأمر بتثبيت الضرائب عند ستين جزءًا للفلاحين وأربعين لأسيادهم، ومنح يابو إيزو كإقطاعية. لذا كل شيء عاد كما كان من قبل، باستثناء أن كل السلطة في إيزو أصبحت الآن ملكًا لتوراناجا إذا أراد استعادتها.

انقلب تورانا جا ليخفف من ألم ذراعه، واستقر مجددًا ليصبح أكثر راحة مستمتعًا بقربه من الأرض، مستمدًا القوة منها كما اعتاد أن يفعل.

لقد ذهب ذلك السيف ولن يعود أبدًا. فكر: جيد، لكن تذكر ما تنبأ به العراف الصيني المسن، أنك ستموت بالسيف. لكن بسيف من؟ وهل سيكون بيدي أو بيد شخص آخر؟

قال لنفسه بلا خوف: سأعلم عندما يحين الوقت.

الآن نم. الكارما هي الكارما. كن من أهل الزن. تذكر في السكينة أن الوجود المطلق -الطاو- بداخلك، وأنه لا يوجد كاهن أو طائفة أو عقيدة أو كتاب أو قول أو تعليم أو معلم يقف بينك وبينه. اعلم أن الخير والشر لا صلة لهما بالأمر، وأنا وأنت لا صلة لنا، الداخل والخارج كذلك، مثلما هو الحال مع الحياة والموت. ادخل إلى النطاق حيث لا يوجد خوف من الموت ولا أمل في الحياة الآخرة، حيث تتحرر من معوقات الحياة أو حاجات الخلاص. أنت نفسك الطاو. كن الآن كصخرة ترتطم بها أمواج الحياة بلا جدوى...

أخرج الصياح الخافت تورانا جا من تأمله وقفز على قدميه. كان ناجا يشير بحماس نحو الغرب. تتبعت كل الأعين إشارته.

كانت الحمامة الزاجلة تطير في خط مستقيم نحو أنجيرو قادمة من الغرب. طارت إلى شجرة بعيدة لتستريح للحظة، ثم أقلعت مجددًا مع بداية تساقط المطر.

بعيدًا في الغرب، كانت أوساكا في أعقابها.

الفصل السابع والثلاثون

حمل المدرب في حظيرة الحمام الزاجل الطائر برفق لكن بحزم بينما كان توراناغا ينزع ملابسه المبتلة. لقد عاد مسرعًا خلال العاصفة. كان ناجا وساموراي آخرون متجمهرين بقلق عند مدخل الباب الصغير غير أبهين بالأمطار الدافئة التي كانت لا تزال تتساقط بغزارة وتقرع على السطح المبلط. جفف توراناغا يديه بحذر. قدم له الرجل الحمامة الزاجلة. كانت توجد أسطوانتان صغيرتان من الفضة المسكوكة مثبتتان في كل من رجليها. من المعتاد إرسال واحدة. اضطر توراناغا إلى العمل بجِد لمنع أصابعه من الاهتزاز بتوتر. فك الأسطوانتين وحملهما إلى ضوء النافذة المفتوحة ليفحص الأختام الدقيقة. تعرف على الشيفرة السرية الخاصة بكيري. ناجا والآخرون يراقبون بتوتر. لم يكشف وجهه شيئًا.

لم يكسر توراناغا الأختام في الحال رغم رغبته الشديدة في ذلك. انتظر بصبر حتى أحضروا كيمنونو جاف. حمل خادم مظلة كبيرة من الورق المشمع له، وسار إلى حجرته الخاصة في القلعة. كان الحساء والشاي ينتظرانه. شرب بعضًا منهما واستمع إلى صوت المطر. ثم عندما شعر بالهدوء، وضع حراسًا وذهب إلى غرفة داخلية. وكسر الأختام في خصوصية تامة. أوراق اللفائف الأربعة رقيقة جدًا والأحرف صغيرة والرسالة طويلة ومشفرة. كانت عملية فك التشفير شاقة. عندما انتهى منها، قرأ الرسالة ثم أعاد قراءتها مرتين. ثم أطلق العنان لعقله.

حل الليل. وتوقف المطر. دعا: يا بوذا، ليكن الحصاد جيدًا. كان هذا هو الموسم الذي تُغمر فيه حقول الأرز بالماء، وفي جميع أنحاء البلاد تُزرع شتلات الأرز الخضراء الباهتة في الحقول الخالية من الأعشاب والتي تكاد تكون سائلة تقريبًا حتى تُحصَد بعد أربعة أو خمسة أشهر، اعتمادًا على الطقس. وفي جميع أنحاء البلاد كان الفقراء والأغنياء والإيتا والإمبراطور والخدم والساموراي، الجميع يصلون من أجل أن تأتي الأمطار وأشعة الشمس

والرطوبة بالقدر المناسب وفي الوقت المناسب. وكل رجل وامرأة وطفل يحصون الأيام حتى وقت الحصاد.

فكر توراناغا: سنحتاج إلى حصاد كبير هذا العام.

- ناجا، ناجا سان.

أتى ابنه راکضاً: «نعم يا أبي؟».

- في الساعة الأولى بعد الفجر، أحضر لي يابو سان وكبار مستشاريه إلى الهضبة. وأيضاً بونتارو وقادتنا الثلاثة الكبار. وماريكو سان. أحضرهم جميعاً إلى الهضبة عند الفجر. يمكن أن تقدم ماريكو سان الشاي. نعم. وأريد أنجين سان أن يكون جاهزاً في المعسكر. واجعل الحراس يحيطوا بنا على بعد مائة وخمسين متراً.

- حسناً يا أبي.

استدار ناجا لتنفيذ الأوامر. لكنه لم يستطع تمالك نفسه وقال فجأة: «هل هي الحرب؟ هل هي كذلك؟».

لأن توراناغا كان بحاجة إلى دلالة على التفاؤل في القلعة، لم يوبخ ابنه على سوء انضباطه.

قال: «نعم. نعم... ولكن بشروطي».

أغلق ناجا الباب بسرعة واندفع خارجاً. علم توراناغا أنه رغم أن وجه ناجا وتصرفاته سيكونان هادئين ظاهرياً الآن، فإن لا شيء يخفي الحماسة في مشيته أو النار المتقدة خلف عينيه. وهكذا ستنتشر الشائعات والشائعات المضادة بسرعة في أنجيرو، لتمتد سريعاً في جميع أنحاء إيزو وخارجها إذا غدت النيران بشكل صحيح.

قال بصوت مسموع للزهور التي كانت تقف بهدوء في التوكوناما، وظلالها تومض في ضوء الشموع اللطيف: «أنا ملتزم الآن».

كتبت كيري: «سيدي، أصلي لبودا أن تكون بخير وفي أمان. هذه هي الحمامة الزاجلة الأخيرة لدينا، لذلك أصلي أيضاً أن يرشدها بودا إليك. فقد قتل الخونة جميع الحمام الآخر الليلة الماضية عن طريق إشعال النار في الحظيرة، ونجت هذه الحمامة فقط لأنها كانت مريضة وكنت أرهاها بنفسي.

استقال الزعيم سوجياما فجأة صباح أمس تمامًا كما خططنا. ولكنه وقع في كمين نصبه رونين إيشيدو في ضواحي أوساكا قبل أن يتمكن من الهرب. ولسوء الحظ، قُبِضَ على بعض أفراد عائلة سوجياما معه. سمعت أن أحد رجاله خانه. يُشاع أن إيشيدو عرض عليه صفقة: إذا أخرج سوجياما استقالته حتى يجتمع مجلس الوصاية (غداً)، حتى تُعزل قانونياً، فإن إيشيدو في المقابل يضمن أن المجلس سيمنح سوجياما كل الكانتو، وكإجراء يثبت حسن النية، سيطلق سراحه هو وعائلته على الفور. لكن رفض سوجياما خيانتك. أمر إيشيدو على الفور الإيتا بإقناعه. عذبوا أطفال سوجياما ثم زوجته أمامه، لكنه أصر على رفض خيانتك. ماتوا جميعاً ميتة سيئة. وكان موته الأخير الأسوأ.

بالطبع لا يوجد شهود على هذه الخيانة، وكلها مجرد أقاويل، لكنني أصدقها. بالطبع أنكر إيشيدو أي معرفة بالجرائم أو مشاركته فيها، وتعهد بأنه سيلاحق «القتلة». ادعى إيشيدو في البداية أن سوجياما لم يستقل فعلياً قط، وبالتالي فإن المجلس لا يزال بإمكانه الاجتماع في رأيه. أرسلت نسخاً من استقالة سوجياما إلى الأوصياء الآخرين، كياما وإيتو وأونوشي، وأرسلت نسخة أخرى علانية إلى إيشيدو، ووزعت أربع نسخ أخرى بين الدايميو. (كم أنت ذكي يا تورا تشان، لعلمك أن النسخ الإضافية ستكون ضرورية). لذا من الأملس لم يعد المجلس قانونياً بعد الآن تمامًا كما خططت مع سوجياما. وبهذا تكون قد نجحت تمامًا.

أخبار جيدة: الزعيم موجامي عاد بأمان مع عائلته والساموراي خارج المدينة. الآن أصبح حليفاً لك علانية، لذا أصبح جناحك الشمالي الأقصى آمناً. الزعماء مايدا وكوكوشيما وأسانو وإيكيدا وأوكودايرا خرجوا بهدوء من أوساكا الليلة الماضية بأمان، وأيضاً الزعيم المسيحي أودا.

أخبار سيئة فهي أن عائلات مايدا وإيكيدا وأودا وعشرات الدايميو المهمين الآخرين لم ينجحوا في الهروب وهم الآن رهائن هنا، وكذلك عائلات خمسين أو ستين من الزعماء الذين لم يتخذوا موقفاً بعد.

أخبار سيئة هي أنه بالأمس أخوك غير الشقيق زاتاكي، زعيم شينانو، أعلن علانية تأييده للوريث يامون ضدك، مُتهماً إياك بالتآمر مع سوجياما لإسقاط مجلس الوصاية عن طريق خلق الفوضى. لذا فإن حدودك الشمالية الشرقية

أصبحت مخترقة الآن وزاتاكى وجيشه المكون من خمسين ألف متعصب سيعارضونك.

أخبار سيئة هي أن جميع الدايميو تقريبًا قبلوا «دعوة» الإمبراطور.

أخبار سيئة هي أن بعضًا من أصدقائك وحلفائك هنا غاضبون لأنك لم تخبرهم مسبقًا خطتك ليتمكنوا من التحضير للانسحاب. صديقك القديم الزعيم العظيم شيمازو هو واحد منهم. سمعت هذا المساء أنه طالب علنًا بأن يأمر الإمبراطور جميع الزعماء بالجنو أمام الصبي يايمون الآن.

أخبار سيئة هي أن السيدة أوتشيبا تغزل شبكتها ببراعة، واعدةً بالإقطاعيات والألقاب والمناصب في البلاط لأولئك الذين لم يتخذوا قرارًا بعد. يا تورا تشان، يا للأسف الشديد أنها ليست في صفك، إنها عدوة تستحق التقدير. السيدة يودوكو وحدها تدعو للصلاة والهدوء لكن لا أحد يستمع، والسيدة أوتشيبا تريد التعجيل بالحرب الآن لأنها تعتقد أنك ضعيف ومعزول. أسفة يا سيدي، لكنك معزول وأعتقد أنك تعرضت للخيانة.

الأسوأ من ذلك كله هو أن الأوصياء المسيحيين كياما وأونوشي، أصبحا الآن متحدين علنًا ويعارضانك بشدة. أصدرنا بيانًا مشتركًا هذا الصباح يدينان فيه «انشقاق» سوجياما، ويقولان إن تصرفه قد وضع المملكة في حالة من الفوضى، وإنه «علينا جميعًا أن نكون أقوىاء من أجل الإمبراطورية. يتحمل الأوصياء المسؤولية العليا. يجب أن نكون مستعدين لسحق أي زعيم أو مجموعة من الزعماء الذين يرغبون في الإطاحة بوصية التايكو أو الخلافة القانونية». (هل يعني هذا أنهم يخططون للاجتماع كمجلس من أربعة أوصياء؟) وقد همس أحد جواسيسنا المسيحيين في مقر الرداء الأسود هنا بأن الكاهن تسوكو سان غادر أوساكا سرًا قبل خمسة أيام، لكننا لا نعلم ما إذا كان قد توجه إلى إيدو أو إلى ناجازاكي، حيث من المتوقع أن تصل السفينة السوداء. هل كنت تعلم أنها ستصل مبكرًا هذا الموسم؟ ربما في غضون عشرين أو ثلاثين يومًا؟

سيدي: لطالما ترددت في إبداء آراء سريعة بناءً على شائعات أو جواسيس أو حدس امرأة (أترى يا تورا تشان، لقد تعلمت منك!) ولكن الوقت ينفد وقد لا أتمكن من التحدث إليك مجددًا: أولًا، يوجد الكثير من العائلات المحتجزة هنا. لن يسمح لهم بإشيدو بالذهاب أبدًا (مثلما لن يسمح لنا بالذهاب). هؤلاء الرهائن يشكلون خطرًا كبيرًا عليك. قلة من الزعماء يمتلكون إحساس

سوجياما بالواجب أو الصمود. أعتقد أن الكثيرين سينضمون الآن إلى إيشيدو -ولكن بتردد بسبب هؤلاء الرهائن. بعد ذلك، أعتقد أن مايدا سيخونك، وربما أسانو أيضًا. إذا حسبنا جميع الدايميو البالغ عددهم مائتان وأربعة وستون في أرضنا، يوجد أربعة وعشرون فقط مؤكدين في ولائهم لك، وخمسون آخرين محتملين. هذا ليس كافيًا بأي حال. سيؤثر كياما وأونوشي على جميع أو معظم الدايميو المسيحيين، وأعتقد أنهم لن ينضموا إليك الآن. كما أن الزعيم موري، الأغنى والأعظم، يعارضك شخصيًا، كما هو الحال دائمًا، وسيسحب أسانو وكوباياكاوا وربما أودا إلى شباكه. مع وجود أخيك غير الشقيق الزعيم زاتاكي ضدك، فإن موقفك خطرٌ للغاية. أنصحك بإعلان السماء القرمزية فورًا والتوجه نحو كيوتو. إنها فرصتك الوحيدة.

بالنسبة إلى السيدة سازوكو وأنا، فنحن بخير وراضون. ينمو الطفل بشكل جيد وإذا كانت الكارما الخاصة به أن يولد، فسيحدث ذلك. نحن آمنون في زاويتنا في القلعة، الباب مغلق بإحكام والقفل موصل. الساموراي مخلصين لك ولقضيتك، وإذا كانت الكارما هي مغادرة هذه الحياة، فسنغادر بسلام. سيدتك تفتقد كثيرًا، كثيرًا جدًا. أما بالنسبة لي يا تورا تشان، فأنا أشتاق لرؤيتك والضحك معك ورؤية ابتسامتك. ندمي الوحيد عند الموت هو أنني لن أتمكن من فعل هذه الأشياء والاعتناء بك. إذا كان توجد حياة بعد الموت وإذا كان يوجد الرب أو بوذا أو الكامي، فأعدك بأنني سأقنعهم جميعًا بطريقة ما ليكونوا إلى جانبك... رغم أنني قد أطلب منهم أولًا أن يجعلوني نحيفة وشابة ومثمرة من أجلك، وكذلك يتركون لي استمتاعي بالطعام. سيكون ذلك حقًا جنة، أن أتمكن من الاستمرار في الأكل ومع ذلك أظل شابة ونحيفة إلى الأبد. أبعث إليك ضحكاتي. ليباركك بوذا وبيبارك عائلتك».

قرأ توراناغا لهم الرسالة، باستثناء الجزء الخاص بكيري والسيدة سازوكو. نظروا إليه وإلى بعضهم بعضًا بعدم تصديق عندما انتهى من القراءة، ليس فقط بسبب محتوى الرسالة، بل لأنه جعلهم جميعًا موضع ثقة علانية.

كانوا جالسين على الحصائر في نصف دائرة حوله في وسط الهضبة دون حراس، بعيدين عن المتنصتين. بونتارو ويابو وإيجوراشي وأومي وناجا والقادة وماريكو. كان الحراس متمركزين على بعد مائة وخمسين مترًا.

قال توراناغا: «أريد بعض النصائح. مستشاري في إيدو، وهذه المسألة عاجلة. أريد منكم جميعاً أن تتصرفوا بدلاً منهم. ماذا سيحدث؟ وماذا يجب أن أفعل؟ يابو سان؟».

كان يابو مضطرباً. بدا له أن كل مسار يؤدي إلى الكارثة. فقال: «أولاً يا سيدي، ما هي بالضبط «السماء القرمزية»؟».

- إنه الاسم الرمزي لخطة معركتي النهائية، اندفاع عنيف واحد نحو كيوتو مع جميع جيوشي، معتمداً على الحركة والمفاجأة للاستيلاء على العاصمة من القوى الشريرة التي تحيط بها الآن، وانتزاع الإمبراطور من القبضة القذرة لأولئك الذين خدعوه بقيادة إيشيدو. وحالما يتحرر ابن السماء من قبضتهم، سألتمس منه إلغاء التفويض الممنوح للمجلس الحالي الذي من الواضح أنه خائن أو يسيطر عليه الخونة، ومنحي تفويضاً لتشكيل مجلس جديد يضع مصالح المملكة والوريث قبل الطموح الشخصي. سأقود ثمانين إلى مئة ألف رجل، تاركاً أراضياً بلا حماية، وأجنتحتي بلا حراسة، ومن دون تأمين لطريق العودة.

رأهم توراناغا ينظرون إليه بذهول. لم يذكر فرق نخبة الساموراي التي كان قد زرعها سرّاً في العديد من القلاع والمقاطعات المهمة على مر السنين، والتي كانت ستنفجر في وقت واحد في ثورات لخلق الفوضى الضرورية للخطة.

اندفع يابو قائلاً: «لكن سيتعين عليك القتال في كل خطوة على الطريق. سيسيطر إيكوا جيكيو على طريق توكايدو لمسافة مائة ري. ثم يوجد المزيد من المعازل التابعة لإيشيدو التي تسيطر على بقية الطريق».

- نعم، لكن خطتي هي الاندفاع شمال غرب على طول طريق كوشو كايدو، ثم الهجوم على كيوتو وتجنب الأراضي الساحلية.

بدأ كثيرون يهزون رؤوسهم في الحال ويتحدثون، لكن يابو قاطعهم: «لكن يا سيدي، تنص الرسالة على أن قريبك زاتاكي سان قد انضم بالفعل إلى العدو! الآن طريقك شمالاً مغلق أيضاً. إقليمه يقف عائقاً أمام طريق كوشو كايدو. ستضطر إلى القتال عبر كل شينانو، إنها منطقة جبلية وصعبة للغاية، ورجاله متعصبون في إخلاصهم له. ستقطع إلى أشلاء في تلك الجبال».

- هذه هي الطريقة الوحيدة، الفرصة الوحيدة المتاحة لي. أتفق أنه يوجد الكثير من الأعداء على الطريق الساحلي.
- ألقي يابو نظرة على أومي متمنيًا لو كان يستطيع التشاور معه، وماقتًا الرسالة وكل هذه الفوضى في أوساكا، وكارهاً كونه أول من يتحدث، وكارهاً تمامًا لوضع التابع الذي قبل به بناءً على توصلات أومي.
- هكذا حثه أومي: «إنها فرصتك الوحيدة يا يابو ساما. الطريقة الوحيدة لتجنب فخ توراناغا وترك مجالاً للمناورة....».
- لكن إيجوراشي قاطعه بغضب قائلاً: «من الأفضل أن تنقض على توراناغا اليوم بينما ليس لديه سوى عدد قليل من الرجال هنا. من الأفضل قتله وأخذ رأسه إلى إيشيدو بينما لا يزال هناك متسع من وقت».
- من الأفضل الانتظار، من الأفضل أن نتحلى بالصبر.
- صاح إيجوراشي: «ماذا سيحدث إذا أمر توراناغا سيدنا بالتخلي عن إيزو؟ كزعيم إقطاعي لتابعه، يحق لتوراناغا ذلك».
- لن يفعل ذلك أبدًا. إنه بحاجة إلى سيدنا الآن أكثر من أي وقت مضى. إيزو تحمي باباه الجنوبي. لا يمكنه أن يعادي إيزو. يجب أن يكون سيدنا في...
- ماذا لو أمر الزعيم يابو بالخروج؟
- سنتمرد. سنقتل توراناغا إذا كان هنا أو نقاتل أي جيش يرسله ضدنا. لكنه لن يفعل ذلك أبدًا، ألا ترى؟ بصفته تابعًا له، يجب على توراناغا أن يحمي...
- سمح يابو لهما بالجدال وفي النهاية رأى حكمة أومي. ابتهج مأخوذًا كليًا بالخطة الماكرة: «حسنًا، أوافق. وتقدير سيف موراساما الخاص بي لإتمام الصفقة فكرة عبقرية يا أومي سان. نعم. عبقرية. سيف يوشيتومو الخاص به يحل مكانه أكثر من اللازم. وبالطبع أصبحت أكثر قيمة لتوراناغا الآن من أي وقت مضى. أومي على حق يا إيجوراشي. ليس لدي خيار. أنا ملتزم لتوراناغا من الآن فصاعدًا. تابع».
- قال أومي متعمدًا: «حتى تبدأ الحرب».
- بالطبع. بالطبع فقط حتى تبدأ الحرب. ثم أستطيع تغيير جانبي أو القيام بعشرات الأمور. أنت على حق يا أومي سان، مجددًا.

قال لنفسه: أومي هو أفضل مستشار حظيت به على الإطلاق، لكنه الأخطر أيضًا. إنه ذكي بما يكفي ليأخذ إيزو إذا مت. لكن ما أهمية ذلك. جميعنا أموات.

قال لتوراناجا: «أنت محاصر تمامًا. أنت معزول».

سأل توراناجا: «هل هناك أي بديل؟».

قال أومي: «اعذرني يا سيدي، ولكن كم من الوقت سيستغرق تجهيز هذا الهجوم؟».

- إنه جاهز الآن.

قال يابو: «إيزو جاهزة أيضًا يا سيدي. جيشك المكون من مئة ألف وجيشي المكون من ستة عشر ألفًا وكتيبة البنادق، هل هذا كافٍ؟».

- لا. السماء القرمزية هي خطة يائسة... كل شيء مرهون بهجوم واحد.

أصر يابو: «عليك المخاطرة، حالما تتوقف الأمطار ويصبح بإمكاننا الحرب. ما الخيار الذي تملكه؟ سيشكل إيشيدو مجلسًا جديدًا في الحال، لا يزال لديهم التفويض. لذا ستُعزل اليوم أو غداً أو في اليوم التالي. لماذا الانتظار حتى يُقضى عليك؟ استمع، ربما تستطيع الكتيبة شقَّ طريقٍ عبر الجبال. لتكن السماء القرمزية! حيث يخوض كل الرجال هجومًا واحدًا عظيمًا. إنها طريقة المحاربين، شيء يستحقه الساموراي يا توراناجا ساما. الأسلحة، أسلحتنا، ستفجر زاتاكي وتبعده من طريقنا، وإذا نجحت أو فشلت، ما أهمية ذلك؟ المحاولة ستعيش إلى الأبد».

قال ناجا: «نعم. لكننا سنفوز... سنفوز».

أوماً بعض القادة برؤوسهم موافقين، مطمئنين لأن الحرب قد حانت. ولم يقل أومي شيئاً.

كان توراناجا ينظر إلى بونتارو: «ماذا عنك؟».

- أرجو أن تعفيني من إبداء رأيي يا سيدي. أنا ورجالي نفعل ما تقررته أنت. هذه هي مهمتي الوحيدة. رأيي لا قيمة له لأنني أفعل فقط ما تقررته وحدك.

- كنت سأقبل ذلك عادةً، ولكن ليس اليوم.

- الحرب إذن. ما يقوله يابو سان صحيح. لنذهب إلى كيوتو. اليوم أو غداً أو عندما تتوقف الأمطار. السماء القرمزية. لقد سئمت من الانتظار. سأل توراناغا: «أومي سان؟».

- يابو ساما على حق يا سيدي. سيحرف إيشيدو وصية التايكو قريباً لتعيين مجلس جديد. سيكون لدى المجلس الجديد تفويض من الإمبراطور. سيصفق أعداؤك، وسيتردد معظم أصدقائك وبالتالي سيخونونك. سيقوم المجلس الجديد بعزلك فوراً. وبعد ذلك... قاطع يابو: «ثم ستحين السماء القرمزية؟».

- إذا أمر بها الزعيم توراناغا، فستحين. ولكنني لا أعتقد أن أمر العزل له أي قيمة. يمكنك نسيانه.

سأل توراناغا بينما كان الجميع يوجهون انتباههم إلى أومي: «لماذا؟». كان أومي يسير بحذر في الرمال المتحركة التي كان يعلم أنها قد تبتلعه: «أوافقك الرأي يا سيدي. إيشيدو شرير، أليس كذلك؟ أي داييميو يوافق على خدمته هو أيضاً شرير. الرجال الحقيقيون يعرفون حقيقة إيشيدو، ويعرفون أيضاً أن الإمبراطور خُدع مجدداً. أعتقد أنه ارتكب خطأ دائماً عندما قتل الزعيم سوجياما. وبسبب تلك الجرائم القذرة، أعتقد أن جميع الداييميو الآن سيشتبهون في خيانة إيشيدو، ولن يخضع لأوامر «مجلسه» إلا قليلون من خارج قبضته المباشرة. أنت بأمان لبعض الوقت».

- إلى متى؟

- الأمطار في صفنا لمدة شهرين تقريباً. عندما تتوقف الأمطار، سيخطط إيشيدو لإرسال إيكافا جيكيو والزعيم زاتاكى لمهاجمتك في وقت واحد، ليحاصرك في كماشة، وسيدعمهما جيش إيشيدو الرئيسي عبر طريق توكايدو. وفي هذه الأثناء حتى تتوقف الأمطار، سيكتفي كل داييميو بحمل ضغينة ضد داييميو آخر بالتظاهر بتأييد إيشيدو حتى يقوم بالخطوة الأولى، ثم أعتقد أنهم سينسونه وسينتقمون أو يستولون على الأراضي كما يشاؤون. ثم ستمزق الإمبراطورية كما كانت قبل التايكو. لكنك يا سيدي، بينك وبين يابو ساما، مع الحظ، لديك ما يكفي من القوة لحماية الممرات إلى الكانتو وإيزو من الموجة الأولى والتغلب عليها. لا أعتقد أنه بإمكان إيشيدو شن هجوم آخر... ليس

هجومًا عظيمًا. وعندما يستنفد إيشيدو والآخرون طاقاتهم، يمكنك أنت والزعيم يابو الخروج بحذر من خلف جبالنا والاستيلاء تدريجيًا على الإمبراطورية.

- ومتى سيكون ذلك؟

- في زمن أبنائك يا سيدي.

سأل يابو بازدراء: «أقول أن نخوض معركة دفاعية؟».

- أعتقد أن كليكما آمنٌ خلف الجبال. انتظر يا تورانا جا ساما. انتظر حتى يكون لديك المزيد من الحلفاء. حافظ على الممرات. هذا يمكن تحقيقه. إن القائد إيشيدو شرير، لكنه ليس غيبيًا بما يكفي ليحشد كل قواته في معركة واحدة. سيظل متخفيًا داخل أوساكا. لذا لا ينبغي لنا استخدام كتيبتنا في الوقت الحالي. يجب علينا تشديد الأمن والاحتفاظ بهم كسلاح سري، متأهب وجاهز على الدوام، حتى تأتي من خلف جبالك. لكنني الآن لا أعتقد أنني سأراهم يستخدمون أبدًا.

كان أومي واعيًا بالأعين التي تراقبه. انحنى أمام تورانا جا وأضاف: «أرجوك اعذرني على حديثي المطول يا سيدي».

درس تورانا جا كلامه ثم نظر إلى ابنه. ورأى حماسة الشاب المكبوتة وعلم أن الوقت قد حان لدفعه نحو فريسته: «ناجا سان؟».

أجابه ناجا في الحال ببهجة: «ما قاله أومي سان صحيح، معظمه. لكنني أرى أن أستغل الشهرين لتجميع الحلفاء ولعزل إيشيدو أكثر، وعندما تتوقف الأمطار، أهاجم دون سابق إنذار... السماء القرمزية».

سأل تورانا جا: «أنت لا تتفق مع رأي أومي سان حول الحرب الطويلة؟».

- بلى. ولكن أليس هذا...

توقف ناجا.

- هيا يا ناجا سان. تكلم بصراحة.

توقف ناجا وشحب وجهه.

- أنت مأمور بالمتابعة.

- حسنًا يا سيدي، خطر لي أن... (توقف مجددًا ثم قال بسرعة): أليس هذه فرصتك العظيمة لتصبح شوجن؟ إذا نجحت في الاستيلاء على كيوتو

مكتبة

t.me/soramnqraa

والحصول على التفويض، لماذا تشكل مجلسًا؟ لماذا لا تلتمس من الإمبراطور أن يجعلك شوَجَن؟ سيكون هذا أفضل لك وللإمبراطورية.

حاول ناجا أن يبعد الخوف عن صوته لأنه كان يتحدث عن خيانة يايمون ومعظم الساموراي هنا -خصوصًا يابو وأومي وإيجوراشي وبونتارو- كانوا مخلصين له علانية. استدار ناجا بدفاعية نحو الآخرين وقال: «أقول إنك يجب أن تصبح شوَجَن. إذا فانتك هذه الفرصة... أنت على حق بشأن الحرب الطويلة يا أومي سان لكنني أرى أن الزعيم توراناغا يجب أن يحصل على السلطة حتى يستطيع منحها. ستدمر الحرب الطويلة الإمبراطورية وتقسّمها إلى ألف جزء مجددًا. مَنْ يريد ذلك؟ يجب أن يصبح الزعيم توراناغا شوَجَن. لإعطاء الإمبراطورية ليايمون، للزعيم يايمون، يجب تأمين المملكة أولًا. لن تكون هناك فرصة أخرى...».

توقفت كلماته تدريجيًا. استقام ظهره خائفًا لأنه قال هذا الشيء، وسعيًا لأنه عبّر علنًا عما كان يفكر فيه منذ زمن.

تنهد توراناغا: «لم أسع قط لأن أصبح شوَجَن. كم مرة يجب أن أقول ذلك؟ أنا أويد ابن أخي يايمون ووصية التايكو».

نظر إليهم جميعًا، واحدًا تلو الآخر. ثم نظر أخيرًا إلى ناجا. ارتعد الشاب. لكن حدثه توراناغا بلطف، داعيًا إياه للعودة إلى السيطرة: «حماسك وشبابك وحدهما يعذرانك. للأسف يعتقد الكثيرون ممن هم أكبر منك سنًا وأكثر حكمة أن هذا هو طموحي. لكنه ليس كذلك. الطريقة الوحيدة لإنهاء هذا الهراء هي وضع الزعيم يايمون في السلطة. وهذا ما أنوي فعله».

أجاب ناجا بيأس: «نعم يا أبي. شكرًا لك. شكرًا لك».

حول توراناغا نظره إلى إيجوراشي: «ما نصيحتك؟».

حك الساموراي الأعور رأسه قائلًا: «أنا... أنا مجرد جندي ولست مستشارًا، ولكنني لن أنصح بالسماء القرمزية، ليس إذا كان بإمكاننا الحرب بشروطنا مثلما يقول أومي سان. لقد قاتلت في شينانو منذ سنوات. تلك بلدة سيئة، وكان الزعيم زاتاكي معنا. لن أريد القتال في شينانو مجددًا وبالأخص إذا كان زاتاكي يعاديننا. وإذا كان الزعيم مايدا مشبوهًا، حسنًا، كيف يمكنك التخطيط لمعركة إذا كان أكبر حليف لك قد يخونك؟ سيضع الزعيم إيشيدو مائتين أو ثلاثمائة ألف رجل لمهاجمتك وسيحتفظ بمائة ألف رجل لحراسة أوساكا».

حتى مع الأسلحة، ليس لدينا ما يكفي من الرجال للهجوم. لكن خلف الجبال ومع الأسلحة، يمكنك الصمود إلى الأبد إذا حدث ما قاله أومي سان، يمكننا الدفاع عن الممرات. لديك ما يكفي من الأرز - ألا يزود إقليم الكانتو نصف الإمبراطورية؟ حسنًا، ثلث على الأقل - ويمكننا أن نرسل إليكم كل السمك الذي تحتاجونه. ستكون بأمان. دع الزعيم إيشيدو والشيطان جيكيو يأتوا إلينا إذا حدث كما قال أومي سان، أن الأعداء سيلتزمون بعضهم بعضًا قريبًا. وإذا لم يحدث، فأبقى السماء القرمزية جاهزة. يمكن أن يموت الرجل من أجل زعيمه مرة واحدة فقط في هذه الحياة».

سأل توراناغا: «هل لدى أحدكم ما يضيفه؟».

لم يجبه أحد.

- ماريكو سان؟

أجابت: «ليس من حقي التحدث هنا يا سيدي. أنا متأكدة أن كل ما يجب أن يُقال قد قيل. لكن هل يمكنني أن أسأل نيابةً عن جميع مستشاريك هنا، ما الذي تعتقد أنه سيحدث؟».

اختار توراناغا كلماته متعمدًا: «أعتقد أن ما تنبأ به أومي سان سيحدث. مع استثناء واحد: لن يصبح المجلس عاجزًا. سيملك المجلس ما يكفي من النفوذ لتجميع قوة حلفاء لا تقهر. عندما تتوقف الأمطار، ستلقى بها على الكانتو، متجاوزة إيزو. عندها سيُقضى على الكانتو ثم إيزو. وسيبدأ جميع الدايميو في القتال فيما بينهم بعد موتي».

خاطر أومي في السؤال: «لكن لماذا يا سيدي؟».

- لأن لدي الكثير من الأعداء، أنا أملك الكانتو، لقد خضت الحروب لأكثر من أربعين عامًا ولم أخسر معركة قط. هم جميعًا يخافون مني. أعلم أن النسور ستجتمع أولاً لتدميري. ولاحقًا سيدمرون أنفسهم، ولكن أولاً سيتحدون لتدميري إذا استطاعوا. اعرفوا جميعكم جيدًا أنني أنا التهديد الحقيقي الوحيد ليايمون، رغم أنني لست تهديدًا على الإطلاق. هذه هي المفارقة. يعتقد جميعهم أنني أريد أن أصبح شوجن. لكني لا أريد. هذه حرب أخرى ليست ضرورية على الإطلاق.

كسر ناغا الصمت: «إذن ماذا ستفعل يا سيدي؟».

- ماذا؟

- ماذا ستفعل؟

قال تورانا جا: «بوضوح، السماء القرمزية».

- لكنك قلت إنهم سيقضون علينا؟

- كانوا سيفعلون ذلك... إذا أعطيتهم أي وقت. لكنني لن أعطيهم أي وقت. سنذهب إلى الحرب في الحال.

- ولكن الأمطار... ماذا عن الأمطار؟

- سنصل إلى كيوتو مبتلئين. حارئين وكريهين ومبتلئين. لكن المفاجأة والحركة والجرأة والتوقيت هي ما تفوز بالحروب، أليس كذلك؟ يابو سان كان على حق. الأسلحة ستفتح طريقاً عبر الجبال.

لمدة ساعة، ناقشوا الخطط وإمكانية شن حرب واسعة النطاق في موسم الأمطار، وهي استراتيجية غير مسبقة. ثم طلب تورانا جا منهم المغادرة، ما عدا ماريكو، وأمر نا جا بإحضار أنجين سان إلى هنا. شاهدتهم وهم يغادرون. كانوا جميعاً متحمسين ظاهرياً فور إعلان القرار، وبخاصة نا جا وبونتارو. فقط أومي كان متحفزاً ومتآملاً وغير مقتنع. استبعد تورانا جا إيجوراشي لأنه كان يعلم أن الجندي سيفعل فقط ما يأمره به يابو، وتجاهل يابو لأنه مجرد بيدق، خائن بالتأكيد، لكنه لا يزال بيدقاً. فكر: أومي هو الوحيد الذي يستحق الاهتمام. أتساءل إذا كان قد توصل إلى ما أنوي فعله حقاً؟

- يا ماريكو سان. اكتشفي بلباقة كم سيكلف عقد المحظية.

رمشت عينيها: «كيكو سان يا سيدي؟».

- نعم.

- الآن يا سيدي؟ في الحال؟

نظر إليها بهدوء: «الليلة سيكون جيداً جداً. عقدها ليس ضرورياً لي، ربما لأحد ضباطي».

- أعتقد أن السعر سيعتمد على هويته يا سيدي.

- أعتقد أنه كذلك. لكن حدي سعرًا. الفتاة بالطبع لها الحق في الرفض إذا رغبت، عندما تعلم هوية الساموراي، ولكن أخبرني سيدتها أنني لا أتوقع أن يكون لدى الفتاة الوقاحة لتسيء الظن في اختياري لها.

أخبريها أيضًا أن كيكو هي سيدة من الدرجة الأولى في ميشيما وليست
في إيدو أو أوساكا أو كيوتو.
أضاف توراناغا بلطف: «لذا أتوقع أن أدفع أسعار ميشيما وليست أسعار
إيدو أو أوساكا أو كيوتو».

- نعم يا سيدي، بالطبع.

حرك توراناغا كتفه لتخفيف الألم، مغيرًا وضعية سيفيه.

- هل تسمح لي بتدليكه لك يا سيدي؟ أو أستدعي سوو؟

- لا، شكرًا لك. سأرى سوو لاحقًا.

نهض توراناغا وقضى حاجته بسرور كبير، ثم جلس مجددًا. كان يرتدي
كيمونو حريريًا خفيفًا وقصيرًا مزخرفًا بالأزرق، ونعالًا بسيطًا من القش.
وكانت مروحة زرقاء ومزينة بشعاره.

كانت الشمس منخفضة، والسحب الممطرة تتراكم بكثافة.

قال بسعادة: «من الرائع أن تكون حيًا، أكاد أسمع صوت المطر ينتظر
أن يُولد».

قالت: «نعم».

توقف توراناغا هنيهة، ثم قال كأنه يلقي قصيدة:

«السما»

التي تحرقها الشمس،

تبكي

دموعًا مثمرة».

رُكّزت ماريكو ذهنها لتواصل لعبة إلقاء القصائد معه، والتي تحظى بشعبية
كبيرة بين معظم الساموراي، حيث تقوم تلقائيًا بتغيير كلمات القصيدة التي
ارتجلها وتكييفها ونظم قصيدة أخرى من كلماته. أجابت بعد لحظة:

«أما الغابة»

التي جرحتها الرياح،

- أحسنت القول. نعم، أحسنت للغاية.

نظر تورانا جا إليها برضا مستمتعًا بما رآه. كانت ترتدي كيمونو أخضر فاتحًا بنقوش من الخيزران، وحزامًا أخضر داكنًا ومظلة برتقالية. وهناك بريق رائع لشعرها الأسود المزرق المرفوع تحت قبعتها واسعة الأطراف. تذكر بحدين كيف كانوا جميعًا -حتى الطاغية جورودا نفسه- يرغبون فيها عندما كانت في الثالثة عشرة من عمرها وقدمها والدها أكييتشي جينساي لأول مرة كابنته الكبرى في بلاط جورودا. وكيف أن التايكو المستقبلي ناكامورا توسل إلى الطاغية ليمنحها له، وكيف ضحك جورودا علنًا ووصفه بـ«القائد القرد الصغير الشهواني»، وأمره بأن «يستمر في خوض المعارك، ولا يحاول خوض معركة مع النبلاء».

احتقر أكييتشي جينساي ناكامورا علنًا، وكان منافسه على إرضاء جورودا، وكان هذا هو السبب الرئيسي الذي جعل ناكامورا يستمتع بتدميره. وأيضًا السبب وراء استمتاعه بمشاهدة بونتارو يعاني سنواتٍ، بونتارو الذي أُعطيت له الفتاة لتوطيد التحالف بين جورودا وتودا هيرو ماتسو. سأل تورانا جا نفسه بخبث وهو ينظر إليها: أتساءل إذا كان بونتارو ميتًا، هل سترضى أن تكون واحدة من خيلاتي؟ لطالما فضل تورانا جا النساء ذوات الخبرة، الأرامل أو المطلقات، لكن ليس الجميلات منهن أو الحكيمات أو الصغيرات أو ذوات الأصول النبيلة، وذلك لتجنب المشكلات وحتى يكن ممتنات.

ضحك في نفسه وفكر: لن أطلب ذلك منها أبدًا لأنها كل ما لا أريده في خلية، باستثناء أن عمرها مثالي.

سألته: «سيدي؟».

قال بنبرة أكثر هدوءًا: «كنت أفكر في قصيدتك يا ماريكو سان».

ثم أضاف:

«لماذا الشتاء بهذه البرودة؟
فالصيف لم يأت بعد،

ولا حتى تساقطت أوراق
الخریف المجید».

ردت قائلة:

«إذا كان بإمكانی استخدام الكلمات
مثل الأوراق المتساقطة،
لأصبحت قصائدي
ساحرة».

- ضحك وانحنى لها بتواضع زائف: «أعترف بالهزيمة يا ماريكو ساما. ما
الجائزة التي ترغبين بها؟ مروحة؟ أم وشاح لشعرك؟».
- قالت: «شكرًا لك يا سيدي. نعم، ما يروق لك».
- قال: «عشرة آلاف كوكو سنويًا لابنك».
- يا سيدي، لا نستحق مثل هذا الفضل.
 - لقد انتصرتِ. النصر والواجب يجب أن يُكافأ. كم عمر ساروجي الآن؟
 - خمسة عشر... يكاد يبلغ الخامسة عشرة.
 - نعم... لقد خُطب مؤخرًا لإحدى حفيدات الزعيم كياما، أليس كذلك؟
 - بلى يا سيدي. كان ذلك في الشهر الحادي عشر من العام الماضي،
شهر الصقيع الأبيض. إنه الآن في أوساكا مع الزعيم كياما.
 - جيد. عشرة آلاف كوكو بدءًا من الآن. سأرسل القرار مع بريد الغد. الآن
كفانا من القصائد، أريد رأيك.
- قالت: «رأيي يا سيدي، هو أننا جميعًا آمنون بين يديك، مثلما الأرض آمنة
بين يديك».
- قال: «أريدك أن تكوني جادة».

قالت: «لكنني جادة يا سيدي. أشكرك على الفضل الذي منحته لابني. هذا يجعل كل شيء مثاليًا. أومن أن ما تفعله سيكون صائبًا. أقسم بال... نعم، أقسم بمريم العذراء إنني أومن بذلك».

- جيد. لكنني ما زلت أريد رأيك.

أجابت على الفور دون أدنى تردد، وكأنها تتحدث معه كندٌ لندٌ: «أولاً: يجب أن تعيد الزعيم زاتاكي سرًا إلى صفك. أفترض أنك تعرف كيفية القيام بذلك بالفعل، أو على الأرجح أن لديك اتفاقًا سرّيًا مع أخيك غير الشقيق، وحرضت انشقاقه الأسطوري في المقام الأول لإيهام إيشيدو بموقف زائف. ثانيًا: لن تهاجم أولاً. لم تفعل ذلك قط، لطالما نصحت بالصبر وتهاجم فقط عندما تكون متأكدًا من النصر، لذلك فإن أمرك العلني بـ«السماء القرمزية» هو مجرد تمويه آخر. ثالثًا، التوقيت: رأيي هو أن تفعل ما ستفعله، وتتظاهر بإعطاء الأمر للمعركة ولكن لا تلتزمه. سيؤدي هذا إلى إرباك إيشيدو لأن الجواسيس هنا وفي إيدو سيبلغون عن خطتك بالطبع، وسيتعين عليه نشر قواته بتشتت كقطع من الحجل في طقس عاصف، استعدادًا لتهديد لن يتحقق أبدًا. وفي هذه الأثناء ستقضي الشهرين المقبلين في جمع الحلفاء، لتقويض تحالفات إيشيدو وتفكيك ائتلافه، وهو ما يجب عليك فعله بأي وسيلة. وبالطبع عليك استدراج إيشيدو للخروج من قلعة أوساكا. إذا لم تفعل يا سيدي، فسيفوز إيشيدو، أو على الأقل ستخسر الشوجنية. أنت...».

قاطعها توراناغا بغضب، ولم يعد مستمتعًا: «لقد أوضحت موقفك من ذلك بالفعل. وقد نسيت نفسك».

قالت ماريكو بلا مبالاة وسعادة: «يجب أن أحدث عن الأسرار اليوم يا سيدي، بسبب الرهائن. إنهم سكين في قلبك».

- ماذا عنهم؟

- تحلّ بالصبر معي رجاءً يا سيدي. قد لا أتمكن من التحدث معك بطريقة إنجليزية خاصة ومفتوحة» كما يطلق عليها أنجين سان مجددًا أبدًا... فأنت لن تكون بمفردك مجددًا كما نحن الآن. أرجوك أن تعذر سوء أدبي.

جمعت ماريكو شجاعتها واستمرت في الحديث كما لو كانت ندًا له: «رأيي المطلق هو أن ناجا سان كان محقًا. يجب أن تصبح شوجن، وإلا ستكون قد فشلت في أداء واجبك تجاه الإمبراطورية وتجاه عشيرة مينووارا».

- كيف تجرئين على قول مثل هذا الشيء؟

ظلت ماريكو هادئة تمامًا، ولم يمسهها غضبه العلني على الإطلاق. قالت: «أنصحك بأن تتزوج بالسيدة أوتشيبا. لا يزال أمام يايمون ثماني سنوات ليصبح بالغًا قانونيًا لوراثة الحكم. وهذا وقت طويل. من يدري ما يمكن أن يحدث خلال ثمانية أشهر، ناهيك بثمانية سنوات».

- يمكن أن تُباد عائلتك بأكملها في غضون ثمانية أيام.

- نعم يا سيدي. لكن هذا لا علاقة له بك أو بواجبك، ولا بالمملكة. ناجا سان محق. عليك أن تحصل على السلطة حتى تستطيع منحها.

ثم أضافت بجدية زائفة: «والآن، هل يمكن لمستشارك المخلص القيام بالسيبوكو، أم يجب أن أفعل ذلك لاحقًا؟».

وتظاهرت بالإغماء.

نظر إليها توراناغا في دهشة من وقاحتها المذهلة، ثم انفجر ضاحكًا وضرب قبضته على الأرض. وعندما استطاع التحدث، قال بصعوبة وهو يختنق من الضحك: «لن أفهمك أبدًا يا ماريكو سان».

قالت وهي تمسح العرق من جبينها: «لكنك تفهمني يا سيدي. أنت لطيف كفاية لسماحك لهذه التابعة المخلصة بأن تجعلك تضحك، وتستمع إلى طلباتها، وتقول ما يجب أن يُقال، ما كان لا بد من قوله. أرجو أن تغفر لي وقاحتي».

قال توراناغا وهو يبتسم بلطف الآن: «ولماذا أغفر لك، ها؟ لماذا؟».

أجابت ببساطة: «بسبب الرهائن يا سيدي».

قال وأصبح جدًّا أيضًا: «الرهائن!».

- نعم. يجب أن أذهب إلى أوساكا.

قال: «نعم، أعلم».

الفصل الثامن والثلاثون

سار بلاكتورن بخطى متناقلة برفقة ناجا إلى أسفل التل نحو الشخصين الجالسين على الفوتونات في وسط حلقة الحراس. خلف الحراس كانت توجد سفوح الجبال المتصاعدة التي ترتفع نحو سماء ملبدة بالغيوم. كان اليوم شديد الحرارة والرطوبة. رأسه يؤلمه من الحزن الذي استمر خلال الأيام القليلة الماضية ومن القلق على ماريكو ومن عدم قدرته على التحدث إلا باليابانية لفترة طويلة. والآن هو تعرف عليها وزال عنه بعض من بؤسه.

ذهب عدة مرات إلى بيت أومي ليرى ماريكو أو يستفسر عن حالها، لكن الساموراي كانوا يردونه دائماً بأدب لكن بحزم. أخبره أومي كصديق: «إنها بخير. لا تقلق يا أنجين سان. هل تفهم؟». وكان يجيب بنعم، لكنه كان يفهم فقط أنه لا يستطيع رؤيتها.

ثم استدعاه توراناكا وكان يريد أن يخبره الكثير، لكن بسبب افتقاره للكلمات لم يفعل شيئاً سوى إثارة غضبه. ذهب فوجيكو عدة مرات لرؤية ماريكو. وعندما كانت تعود، كانت تقول دائماً أن ماريكو بخير، مضيفاً العبارة المعتادة: «لا تقلق يا أنجين سان، هل تفهم؟».

كان الأمر كما لو أن شيئاً لم يحدث قط مع بونتارو. كانا يتبادلان التحيات المهذبة عندما يلتقيان خلال النهار. وباستثناء استخدامه للحمام من حين لآخر، كان بونتارو مثل أي ساموراي آخر في أنجيرو، لا ودوداً ولا عدائياً.

كان بلاكتورن مُنهكاً من التدريب المكثف من الفجر إلى الغسق. كان عليه أن يكبح إحباطه في أثناء محاولته التعليم وسعيه الجاهد لتعلم اللغة. وبحلول الليل، كان دائماً منهكاً وحاراً ومتعرقاً وغارقاً في مياه المطر. ووحيداً. لم يشعر من قبل بهذا القدر من الوحدة، ولم يكن يوماً بهذا القدر من الإدراك بأنه لا ينتمي إلى هذا العالم الغريب.

ثم راوده الرعب الذي بدأ منذ ثلاثة أيام. كان يومًا طويلًا ورطبًا جدًا. عاد مرهقًا إلى منزله عند غروب الشمس وشعر على الفور بوجود مشكلة في بيته. استقبلته فوجيكو بتوتر.

- ما الخطب؟

أجابت بهدوء وبتفصيل، وعيناها منخفضتان.

سأل مجددًا بنفاد صبر والتعب يجعله انفعاليًا: «لا أفهم. ما الخطب؟».

ثم أشارت إليه أن يتبعها إلى الحديقة. أشارت إلى الإفريز، لكن السقف بدا له سليمًا. المزيد من الكلمات والإشارات، وأخيرًا أدرك أنها كانت تشير إلى المكان الذي علق فيه الطائر.

- آه، لقد نسيت ذلك. أنا...

لكنه لم يستطع تذكر كيفية قول ذلك، فاكتفى بهز كتفيه بتعب وقال: «فهمت. ماذا عن الطائر؟».

كان الخدم ينظرون إليه من الأبواب والنوافذ، وهم مرعوبون بوضوح. تحدثت فوجيكو مجددًا. ركز لكنه لم يتمكن من فهم كلماتها.

- لا أفهم يا فوجيكو سان.

أخذت نفسًا عميقًا، ثم قلدت بتوتر شخصًا ينزع الطائر ويحمله بعيدًا ويدفنه.

سأل: «فهمت يا فوجيكو سان. فهمت. هل كان يرتفع؟».

لم يكن يعرف الكلمة اليابانية، لذا أمسك أنفه وتظاهر بأن الرائحة كريهة.

- نعم، نعم يا أنجين سان. رجاءً سامحني، أنا آسفة.

أصدرت صوت الذباب، ورسمت بيديها صورة لسحابة تطن.

- حسنًا، فهمت.

لو كان ذلك في الماضي، لكان قد اعتذر. ولو كان يعرف الكلمات، لقال: «أنا آسف جدًا على الإزعاج». لكنه بدلًا من ذلك اكتفى بهز كتفيه، وخفف من آلام ظهره، وتمتم قائلاً: «لا يمكن فعل شيء حيال ذلك»، راغبًا فقط في الانغماس في نشوة الحمام والتدليك، المتعة الوحيدة التي جعلت الحياة محتملة. قال بالإنجليزية وهو يستدير مبتعدًا: «فليذهب ذلك إلى الجحيم. لو كنت هنا خلال النهار، لكنت لاحظت الأمر. فليذهب ذلك إلى الجحيم».

- عذراً يا أنجين سان؟

كرر بصوت أعلى: «لا يمكن فعل شيء حيال ذلك».

- حسنًا. شكرًا جزيلاً.

- من أخذها؟

- أوكي يا.

- ذلك العجوز التافه!

أوكي يا، البستاني العجوز الطيب الذي لا أسنان له، والذي كان يعتني بالنباتات بأيدي محبة ويجعل حديقته جميلة. أضاف: «جيد. أحضره».

هزت فوجيكو رأسها وشحب وجهها. همست: «لقد مات أوكي يا، مات».

- أوكي يا مات؟ كيف؟ لماذا؟ كيف مات؟

أشارت بيدها إلى المكان الذي كان فيه الطائر وتحدثت بالكثير من الكلمات اللطيفة غير المفهومة. ثم قلدت ضربة سيف واحدة.

- يا إلهي! قتلت ذلك الرجل العجوز من أجل طائر نتن ملعون؟

هرع جميع الخدم إلى الحديقة على الفور وجثوا على الأرض. وضعوا رؤوسهم في التراب وتوقفوا عن الحركة، حتى أطفال الطباخ.

كان بلاكتورن على وشك أن يصاب بالجنون: «ماذا يجري بحق الجحيم؟».

انتظرت فوجيكو بصبر حتى حضر الجميع، ثم جثت هي أيضًا وانحنى كساموراي وليس كفلاح.

- أنا آسفة، رجاءً سامحني.

بدأ يسبها ببذاءة: «اللعة على اعتذارك! ما الحق الذي تملكينه لفعل ذلك؟

ماذا؟ لماذا لم تسأليني أولاً؟».

حاول السيطرة على نفسه مدرّكاً أن جميع خدمه يعرفون أنه قانونياً يستطيع تقطيع فوجيكو وجميعهم إلى قطع هنا في الحديقة بسبب ما سببوه له من إزعاج، أو دون سبب على الإطلاق، وأنه حتى توراناها نفسه لا يستطيع التدخل في شؤون منزله.

رأى أحد الأطفال يرتجف من الخوف والفرع. أمسك بإحدى الأعمدة ليتوازن: «يا يسوع المسيح في السماء، امنحني القوة...».

أضاف مختنقًا وغير مدرك أنه لم يكن يتحدث باليابانية: «إنه ليس خطأكم، إنه خطأها! إنه أنت، أيتها القاتلة اللعينة».

نظرت فوجيكو إليه ببطء. رأت إصبعه الاتهامية والكراهية على وجهه. لذا همست بأمر لخادمتها نيجاتسو.

هزت نيجاتسو رأسها وبدأت تتوسل.

- الآن.

فرت الخادمة. ثم عادت مع سيف القتل والدموع تتدفق على وجهها. أخذت فوجيكو السيف وقدمته لبلاكثورن بكلتا يديها. تحدثت، ورغم أنه لم يعرف كل الكلمات، كان يعلم أنها كانت تقول: «أنا المسؤولة، رجاء خذ حياتي لأنني أغضبتك».

أمسك بالسيف ورماه بعيدًا وقال: «لا، هل تعتقد أن ذلك سيعيد أوكي يا إلهي الحياة؟».

ثم أدرك فجأة ما فعله، وما كان يفعله الآن. قال: «يا إلهي...».

غادرهم، ثم ذهب في حالة من اليأس إلى الصخرة العالية فوق القرية بجانب الضريح بجوار شجرة السرو القديمة المتشابكة وبكى.

بكى لأن رجلًا صالحًا مات دون داعٍ، ولأنه كان يعلم الآن أنه هو من قتله: «يا إلهي اغفر لي. أنا المسؤول... وليست فوجيكو. أنا قتلتها. أمرت بألا يمس أحد الطائر سواي. سألتها إن كان الجميع قد فهم، وقالت «نعم». أمرت بذلك بطريقة ساخرة لكن هذا لا يهم الآن. أنا الذي أصدرت الأوامر رغم معرفتي بقوانينهم وعاداتهم. الرجل العجوز خالف أمري الغبي، فماذا كان بإمكان فوجيكو سان أن تفعل غير ذلك؟ أنا المُلَام».

كان الليل قد حل عندما نفدت دموعه. لذا عاد إلى منزله.

كانت فوجيكو تنتظره كعادتها ولكن وحدها. كان السيف في حضنها. قدمته له قائلة: «رجاء... رجاء يا أنجين سان».

قال وهو يأخذ السيف كما يجب أن يؤخذ السيف: «لا، لا يا فوجيكو سان. لا يمكن فعل شيء حيال ذلك، أليس كذلك؟ الكارما، أليس كذلك؟».

لمسها بيده كاعتذار. كان يعلم أنها تحملت أسوأ جوانب غبائه.

انسابت دموعها. قالت بانكسار: «شكرًا، شكرًا جزيلاً يا أنجين سان. أنا آسفة...».

شعر قلبه بالتعاطف تجاهها.

فكر بلاكتورن بحزن شديد: نعم، نعم لقد تعاطف، لكن ذلك لا يعذرك أو يزيل عنها الإذلال... ولا يعيد أوكي يا إلى الحياة. أنت المُلام. كان يجب أن تكون أكثر إدراكًا...

قال ناجا: «أنجين سان».

- نعم؟ نعم يا ناجا سان؟

انتشل نفسه من ندمه، نظر إلى الشاب الذي يسير بجانبه وقال: «عذرًا، ماذا قلت؟».

- قلت إنني آمل أن أصبح صديقك.

- آه، شكرًا.

- نعم، وربما...

كان هناك خليط من الكلمات التي لم يفهما بلاكتورن لذا سأل: «عذرًا؟».

- تعليم، حسنًا؟ تفهم كلمة «تعليم»؟ تعليم عن العالم؟

- آه، نعم، فهمت الآن. نعم، سأحاول.

كانوا بالقرب من الحراس الآن. قال: «نبدأ غداً يا أنجين سان. أصدقاء، أليس كذلك؟».

- بلى يا ناجا سان. سأحاول.

- جيد.

أوماً ناجا شاعرًا بالرضا. وعندما اقتربوا من الساموراي، أمر ناجا الحراس بالتحرك جانبًا، مشيرًا إلى بلاكتورن بالمضي قدمًا بمفرده. أطاع وهو يشعر بالوحدة الشديدة في دائرة الرجال.

قال وهو ينضم إليهما: «مرحبًا يا توراناغا ساما. مرحبًا يا ماريكو سان».

- مرحبًا يا أنجين سان، تفضل اجلس.

ابتسمت ماريكو له وقالت: «مرحبًا يا أنجين سان. كيف حالك؟».

نظر بلاكتورن إليها وهو سعيدُ برؤيتها وقال: «بخير، شكرًا لك».

ثم أضاف باللاتينية: «وجودك يملؤني بالبهجة، بهجة عظيمة».

- وأنت كذلك... من الرائع رؤيتك. لكن تحيط بك هالة من الحزن. لماذا؟
سأل تورانا جا: «ما الأمر؟».

أخبرته ما قيل. همهم تورانا جا ثم تحدث.

- يقول سيدي إنك تبدو متعبًا يا أنجين سان. وأنا أتفق معه. يسأل عما يزعجك.

- لا شيء. شكرًا يا تورانا جا ساما. لا شيء.

سأله تورانا جا مباشرة: «ما الأمر؟ ما الأمر؟».

أجاب بلاكتورن على الفور بطاعة. قال بلا حول: «أوكي يا. نعم، أوكي يا».
- حسنًا.

تحدث تورانا جا مطولًا إلى ماريكو.

- يقول سيدي إنه لا داعي للحزن على البستاني العجوز. ويطلب مني أن أخبرك أن الأمر قد تم التعامل معه رسميًا. البستاني العجوز كان يعرف تمامًا ما كان يفعله.

- لا أفهم.

- نعم، سيكون من الصعب عليك أن تفهم، لكن كما ترى يا أنجين سان، كان الطائر يتعفن تحت الشمس. والذباب يتجمع بكثرة. كانت صحتك وصحة خليلتك وصحة منزلك بأكمله مهددة. أيضًا مع الأسف كانت هناك بعض الشكاوى الخاصة والحذرة من الخادم الرئيسي لأومي سان... وآخرين. إحدى أهم قواعدنا هي أنه لا يجوز للفرد أن يعكس صفو «الوا» أو انسجام المجموعة، هل تتذكر؟ لذا كان لا بد من فعل شيء ما. كما ترى أن التعفن، رائحة التعفن مقززة بالنسبة لنا. إنها أسوأ رائحة في العالم بالنسبة لنا. حاولت إخبارك ولكن... حسنًا، إنها أحد الأسباب التي تجعلنا نصاب بالجنون قليلًا. خادمك الرئيسي...

سأل بلاكتورن: «لماذا لم يأتني أحد في الحال؟ لماذا لم يخبرني أحد ببساطة؟ لم يكن الطائر يعني لي شيئًا».

- ما الذي كان يجب إخبارك إياه؟ لقد أعطيت أوامر. أنت رئيس المنزل. لم يكونوا يعرفون عاداتك أو ما يجب فعله، سوى حل المشكلة حسب عاداتنا.

تحدثت مع تورانا جا للحظة موضحة ما قاله بلاكتورن، ثم وجهت انتباهها له مجددًا: «هل يزعجك هذا؟ هل ترغب أن أستمرك؟».

- نعم رجاءً يا ماريكو سان.

- هل أنت متأكد؟

- نعم.

- حسنًا، خادمك الرئيسي -الطباخ ذو السن الصغيرة- عقد اجتماعًا مع خدمك يا أنجين سان. كما أنه طُلب من مورا رئيس القرية الحضور رسميًا. وتقرر أنه لا يمكن طلب مساعدة الإيتا في القرية لنقله، لأن المشكلة كانت تخص المنزل فقط. كان يجب على أحد الخدم أن يتولى الأمر ويدفنه، رغم أنك كنت قد أعطيت أوامر صارمة بعدم تحريكه. وبالتالي كانت خليلتك ملزمة بتنفيذ أوامرك. طلب البستاني العجوز أن يُسمح له بالتخلص منه. في الآونة الأخيرة كان يعيش وينام في ألم شديد من بطنه، وكان يجد الجثو على ركبتيه وإزالة الأعشاب والزرع مرهقًا جدًّا، ولم يكن قادرًا على أداء عمله كما يرضيه. كذلك عرض مساعد الطباخ الثالث أن يقوم بالمهمة، قائلًا إنه صغير في السن وأحمق، ويعتقد أن حياته لا تساوي شيئًا مقارنة بمسألة خطيرة كهذه. في النهاية مُنح البستاني العجوز الشرف. كان شرفًا عظيمًا حقًا يا أنجين سان. انحنوا له جميعًا باحترام وبإدلهم الانحناء، ثم حمل الطائر ودفنه بكل سرور، مما جلب راحة كبيرة للجميع. ذهب مباشرة إلى فوجيكو سان عندما عاد وأخبرها ما فعل، وأنه خالف أوامرك، أليس كذلك؟ شكرته على إزالة الخطر ثم طلبت منه الانتظار. جاءت إليّ طالبة نصيحتي، وسألتني عما يجب فعله. بما أن الأمر قد تم بطريقة رسمية، كان لا بد من التعامل معه بطريقة رسمية أيضًا. أخبرتها أنني لا أعلم يا أنجين سان. سألت بونتارو سان، لكنه لم يكن يعلم أيضًا. كان الوضع معقدًا بسببك. لذا استشار الزعيم تورانا جا. قابل الزعيم تورانا جا خليلتك بنفسه.

التفتت ماريكو نحو توراناها وأخبرته ما وصلت إليه في القصة كما طلب منها.

تحدث توراناها بسرعة. كان بلاكتورن يراقبهما، المرأة صغيرة وجميلة ومنتبهة، أما الرجل فمكتنز الجسد قوي البنية ببطن كبير مشدود تحت حزامه. لم يكن توراناها يتحدث مستخدماً يديه كما يفعل البعض، بل أبقاهما ثابتتين، يده اليسرى مستندة إلى فخذه، والأخرى ممسكة بمقبض سيفه كالعادة.

- حسناً يا توراناها ساما. حسناً.

نظرت ماريكو إلى بلاكتورن وتابعت بالرسمية نفسها: «سيدي يطلب مني أن أوضح لك أنه، معذرة، لو كنت يابانياً لما كان هناك أي مشكلة يا أنجين سان. كان البستاني العجوز سيذهب ببساطة إلى المقبرة لتلقي حكمه. عذراً لكن بما أنك أجنبي، رغم أن الزعيم توراناها جعلك هاتاموتو -أحد أتباعه الشخصيين- كان الأمر يتعلق بتحديد ما إذا كنت تُعتبر ساموراي من الناحية القانونية أم لا. يشرفني أن أخبرك أن الزعيم توراناها حكم بأنك ساموراي، وأن لك حقوق الساموراي. لذلك تم حل الأمر على الفور وبكل سهولة. لقد ارتكبت جريمة وأوامرك عُصيت عمداً. القانون واضح، ولا يوجد خيار آخر».

كانت جادة الآن أضافت: «لكن الزعيم توراناها يعلم حساسيتك تجاه القتل، ولذلك أمر شخصياً أحد الساموراي بمساعدة البستاني العجوز على الموت لتجنبيك الألم».

- ولكن لماذا لم يسألني أحدٌ أولاً؟ ذلك الطائر لم يكن يعني لي شيئاً.

شرحت: «الطائر ليس له علاقة بالأمر يا أنجين سان. أنت رب البيت. القانون ينص على أنه لا يجوز لأي فرد من منزلك عصيانك. البستاني العجوز خالف القانون عمداً. سينهار العالم كله إذا سُمح للناس بانتهاك القانون. إن...».

قاطعها توراناها وتحدث إليها. استمعت وأجابت عن بعض الأسئلة، ثم أشار لها بيده لتواصل.

- حسناً. الزعيم توراناها يريدني أن أؤكد لك أنه حرص شخصياً على أن ينال البستاني العجوز موتاً سريعاً خالياً من الألم وشريفاً كما يستحق. حتى إنه أعار الساموراي سيفه الشخصي وهو حاد جداً. ويجب أن أخبرك أن البستاني العجوز كان فخوراً جداً بأنه في أيامه الأخيرة استطاع مساعدة بيتك يا أنجين سان، وكان فخوراً لأنه ساهم

في ترسيخ مكانتك كساموراي أمام الجميع. والأهم من ذلك أنه فخور بالشرف الذي حصل عليه. لم تُستخدم مشنقات الإعدام العامة يا أنجين سان. الزعيم توراناغا يريدني أن أوضح لك ذلك.

- شكرًا لك يا ماريكو سان. شكرًا لتوضيحك.

التفت بلاكثورن لتوراناغا منحنيًا له بدقة وقال باليابانية: «شكرًا يا توراناغا ساما، شكرًا جزيلاً. فهمت. شكرًا».

بادله توراناغا الانحناء بموافقة: «جيد يا أنجين سان. الآن لا تقلق، حسنًا؟ ماذا يمكنك أن تفعل؟».

- لا شيء.

أجاب بلاكثورن عن الأسئلة التي طرحها توراناغا عليه بشأن تدريب البنادق، ولكنه لم يستوعب شيئًا مما كانوا يقولونه. كان عقله مضطربًا تحت تأثير ما قيل له. لقد أهان فوجيكو أمام جميع خدمه وخان ثقة بيته بالكامل، في حين أن فوجيكو لم تفعل سوى ما كان صوابًا، وكذلك فعلوا هم.

فوجيكو لا لوم عليها. إنهم جميعًا لا لوم عليهم. سواي.

لا أستطيع تغيير ما حدث. لا لأوكي يا ولا لها. ولا لهم.

كيف يمكنني العيش مع هذا العار؟

جلس متربعا أمام توراناغا، والنسيم البحري الطفيف يشد الكيمونو الخاص به، والسيوف في حزامه. كان يستمع بفتور ويجيب، لكن لم يكن أي شيء مهماً. كانت تقول إن الحرب قادمة، كانت تقول. ويسألها: متى؟ وتجيب بأنها قريبة جدًا لذا عليك أن تغادر فورًا معي، عليك أن ترافقني في جزء من الطريق يا أنجين سان، لأنني ذاهبة إلى أوساكا، أما أنت فستذهب إلى إيدو برًا لتعد سفينتك للحرب...

عم الصمت فجأة.

ثم بدأت الأرض تهتز.

شعر بأن رثتيه على وشك الانفجار، وكل ذرة في كيانه تصرخ خوفًا. حاول الوقوف لكنه لم يستطع، ورأى أن جميع الحراس كانوا عاجزين مثله. تشبث توراناغا وماريكو بالأرض بأيديهم وأقدامهم. كان الهدير المفجع يصدر من الأرض والسماء. ويحيط بهم من كل جانب، ويستمر في التزايد

حتى بدت طبلية آذانهم على وشك التمزق. أصبحوا جزءًا من الاضطراب. توقف الاضطراب لحظةً، لكن الصدمة استمرت. انتابه الشعور بالغثيان، وعقله غير المصدق يصرخ أن هذه هي اليابسة حيث الثبات والأمان وليس البحر حيث يتمايل العالم في كل لحظة. بصق ليزيل الطعم المر وتمسك بالأرض المرتجفة مُتَقَيِّئًا مرة بعد مرة.

بدأ انهيار الصخور من الجبل في الشمال وهوى إلى الوادي أسفلهم، مما زاد من الاضطراب. اختفى جزء من معسكر الساموراي. حاول الوقوف على يديه وركبتيه، وفعل توراناغا وماريكو الشيء نفسه. سمع نفسه يصرخ لكنه لم يسمع صوتًا يخرج من شفتيه أو شفاههم. توقفت الهزة الأرضية.

عادت الأرض ثابتة مرة أخرى كما اعتادت أن تكون وكما يجب أن تكون دائمًا. كانت يداه وركبته وكل جسده يرتجف بشكل لا إرادي. حاول تهدئتهم والتقاط أنفاسه.

ثم زمجرت الأرض مرة أخرى. وبدأت الهزة الثانية. التي كانت أشد عنفًا. ثم انشقت الأرض في الطرف البعيد من الهضبة. اندفع هذا الصدع الفاجر نحوهم بسرعة كبيرة، ومر على بُعد أربعة أمتار منهم ثم تابع نحو الأمام. رأى بعينيه المذهولتين توراناغا وماريكو يتأرجحان على حافة الصدع حيث كان يجب أن تكون هناك أرض صلبة. وكأنه في كابوس، رأى توراناغا الأقرب إلى الحافة يبدأ في السقوط فيها. خرج من ذهوله واندفع إلى الأمام. قبضت يده اليمنى على حزام توراناغا، بينما كانت الأرض تهتز كورقة في مهب الريح.

كان الصدع بعمق خمسة عشر مترًا وعرضه سبعة أمتار، تفوح منه رائحة الموت. تدفق الطين والصخور للأسفل ساحبة معها توراناغا وبلاكتورن. حارب بلاكتورن من أجل العثور على مكان يتشبث به بيده أو بقدمه، وهو يهتف لتوراناغا ليساعده، وكان على وشك أن يُسحب إلى الهاوية. توراناغا الذي كان لا يزال مصدومًا غرز أصابعه في جدار الصدع، وشق طريقه للخارج وهو نصف مسحوب ونصف محمول من قبل بلاكتورن. ثم استلقى كلاهما يلهث بأمان.

في تلك اللحظة حدثت هزة أخرى.

انشقت الأرض مرة أخرى. صرخت ماريكو وحاولت الابتعاد من طريقه لكن الصدع الجديد ابتلعها. زحف بلاكتورن نحو الحافة بجنون، بينما أفقدته

الهزات اللاحقة توازنه. وعندما وصل إلى الحافة، نظر إلى الأسفل. كانت ماريكو ترتجف على حافة صخرية على بعد عدة أمتار إلى الأسفل، بينما كانت الأرض تدور من حولهم والسماء تشاهد بصمت. كان الصدع بعمق ثلاثة وعشرين مترًا وعرضه سبعة. تداعت الحافة من تحته بشكل مقلق. سمح لنفسه بالانزلاق، وكاد الطين والحجارة يعميان، أمسك بها وسحبها إلى حافة أخرى أكثر أمانًا. حاربًا معًا للحفاظ على توازنهما. هزة جديدة ضربت الأرض. وانهارت معظم الحافة وكانا على وشك السقوط. ثم أمسكت يد توراناها الحديدية بحزامه، موقفاً انزلاقهما نحو الجحيم.

صاح بلاكتورن: «بحق المسيح...».

وذراعه تكاد تتمزق من مكانها بينما كان يتمسك بها ويبحث عن مكان ليتشبث به بقدمه ويده الحرة. ظل توراناها يقاوم حتى استطاع العودة إلى حافة ضيقة أخرى. ثم انقطع الحزام. توقفت الهزات لفترة وجيزة مما منح بلاكتورن فرصة لوضع ماريكو على الحافة، بينما كانت الحطام تتساقط عليهما. قفز توراناها إلى مكان آمن وهو يصرخ عليه للإسراع. كان الصدع يعوي ويبدأ في الانغلاق، بينما كان بلاكتورن وماريكو لا يزالان في أعماقه. لم يعد توراناها يستطيع المساعدة. أعطى الرعب بلاكتورن قوة غير بشرية، وبطريقة ما تمكن من سحب ماريكو من القبر ودفعها إلى الأعلى. أمسك توراناها بمعصمها وسحبها فوق الحافة. حاول بلاكتورن اللحاق بها لكنه ترنح للخلف عندما انهار جزء من الجدار الذي كان يتمسك به. أصدر الجدار المقابل صوتًا مقلقًا وهو يقترب. وتساقط الطين والصخور منه. ظن أنه محاصر لحظة لكنه استطاع انتزاع نفسه من الفخ ونصفه خارج قبره. استلقى على الحافة المرتجفة وهو يلهث غير قادرٍ على الزحف بعيدًا، وساقاه لا تزالان في الصدع. كان الصدع يغلق ببطء. ثم توقف... أربعة أمتار عبر الفوهة، وبعمق ستة.

توقف كل الضجيج. استقرت الأرض. وعاد الصمت.

كانوا على أيديهم وركبهم عاجزين، ينتظرون أن يبدأ الرعب من جديد. بدأ بلاكتورن في النهوض وعرقه يتصبب.

- لا.

أشار إليه توراناها بالبقاء منخفضًا، كان وجهه في حالة من الفوضى، وجرح قاسٍ في صدغه حيث اصطدم رأسه بصخرة.

كانوا جميعًا يلهثون، صدورهم ترتفع وتنخفض، ومرارة في أفواههم. كان الحراس يلتقطون أنفسهم عن الأرض. وبعضهم بدأ بالركض نحو تورانا. صاح: «لا. انتظروا».

أطاعوا وجثوا على أيديهم وركبهم مجددًا. بدأ الانتظار وكأنه يدوم إلى الأبد. ثم انطلق طائر من شجرة وحلّق في الهواء وهو يصرخ. وتبعه طائر آخر. هز بلاكتورن رأسه ليزيل العرق من عينيه. كان يرى أظفاره المكسورة النازفة تتشبث بالعشب. ثم رأى نملة تتحرك في العشب. تلاها الكثير من النمل. وبدؤوا في البحث عن طعام.

جلس على عقبيه بينما كان لا يزال خائفًا وقال: «متى سيكون الوضع آمنًا؟». لم تجب ماريكو. كانت مدهوشة بالصدع في الأرض. زحف نحوها وسألها: «هل أنت بخير؟».

قالت لاهثة: «نعم... نعم».

كان وجهها ملطخًا بالطين. والكيمونو الخاص بها ممزقًا ومتسخًا. ونعالها وأحد جواربها مفقودين. وكذلك مظلتها. ساعدها على الابتعاد عن الحافة. كانت لا تزال في حالة من الصدمة.

ثم نظر إلى تورانا وسأله: «هل أنت بخير؟».

لم يستطع تورانا التحدث، كان صدره يتألم، وذراعه وساقاه مليئة بالخدوش. أشار بيده نحو الصدع الذي كاد أن يبتلعه، والذي أصبح الآن مجرد خندق ضيق في التربة. امتد الخندق شمالًا ليصبح واديًا، لكنه لم يعد واسعًا أو عميقًا كما كان من قبل.

هز بلاكتورن كتفيه قائلاً: «كارما».

تجشأ تورانا بصوت عالٍ، ثم بصق وتجشأ مجددًا. هذا ساعد صوته على العمل، وانهمر سيل من الشوائب على الخندق. كانت أصابعه الحادة تشير نحوه، ورغم أن بلاكتورن لم يفهم كل الكلمات، فإنه كان واضحًا أن تورانا يقول كما يقول اليابانيون: «اللعة على الكارما، اللعة على الزلزال، واللعة على الخندق... لقد فقدت سيوفي واللعة على ذلك».

انفجر بلاكتورن ضاحكًا، وسيطر عليه ارتياحه لبقائه على قيد الحياة وسخافة الموقف كله. وبعد لحظة ضحك تورانا أيضًا، ثم انتقل ابتهاجهما إلى ماريكو.

نهض تورانا جا على قدميه. ثم بدأ في تقديم عرض كوميدي محاكيًا نفسه والزلازل وقد غمرته بهجة الحياة. توقف وأشار إلى بلاكثورن لينضم إليه، وقفز فوق الخندق، ثم فتح سرواله الداخلي وسيطر عليه الضحك مرة أخرى وطلب من بلاكثورن أن يفعل الشيء نفسه. أطاع بلاكثورن، وحاولا التبول في الخندق. لكن لم يخرج شيء، ولا حتى قطرة. بذلا جهدًا كبيرًا مما زاد من ضحكهما وحال دون ذلك أكثر. في النهاية نجحا وجلس بلاكثورن ليستجمع قوته، مستندًا إلى يديه. عندما استعاد بعض قوته، استدار إلى ماريكو وسأل: «هل انتهى الزلزال للأبد يا ماريكو سان؟».

استمرت في تنظيف يديها والكيمنو من الطين وأجابت: «حتى الهزة التالية، نعم».

- هل الوضع هكذا دائمًا؟

- لا. في بعض الأحيان يكون طفيفًا جدًا. وأحيانًا تحدث سلسلة أخرى من الهزات بعد فترة زمنية قصيرة أو يوم أو نصف عود من الوقت أو نصف يوم. وأحيانًا تحدث هزة واحدة فقط... لا تدري مطلقًا يا أنجين سان. ينتهي الأمر حتى يبدأ من جديد. كارما، أليس كذلك؟

كان الحراس يراقبونهم دون حراك، ينتظرون أمرًا من تورانا جا. في الشمال كانت النيران مشتعلة في المعسكر المؤقت البدائي. كان الساموراي يكافحون الحرائق ويحفرون في الانهيار الصخري للعثور على المدفونين. وفي الشرق كان يابو وأومي وبونتارو يقفون مع الحراس الآخرين بجانب نهاية الصدع، سالمين ما عدا بعض الكدمات، ينتظرون أن يُستدعوا أيضًا. أما إيجوراشي فقد اختفى، ابتلعتة الأرض.

ترك بلاكثورن نفسه ينجرف. زال شعوره بالازدراء تجاه نفسه وشعر بسلام تام والكمال. كان عقله الآن يفكر بفخر في كونه ساموراي والذهاب إلى إيدو وسفينته والحرب والسفينة السوداء، ثم التفكير في كونه ساموراي مرة أخرى. نظر إلى تورانا جا وكان يود أن يسأله عشرات الأسئلة، لكنه لاحظ أن الدايميو كان غارقًا في أفكاره، وكان يعلم أنه سيكون من غير اللائق إزعاجه. فكر برضا: يوجد وقت كافٍ. نظر نحو ماريكو. كانت ترتب شعرها ووجهها، فأبعد نظره. استلقى بكامل طوله ونظر إلى السماء، يشعر بدفع الأرض على ظهره، وينتظر بصبر.

تحدث تورانا جا بجدية الآن: «شكرًا لك يا أنجين سان، شكرًا».

- رجاء يا تورانا جا ساما. لم يكن شيئاً يذكر. بل واجبي فقط.

ثم بسبب عدم معرفته بما يكفي من الكلمات ورغبته في أن يكون دقيقاً، قال بلاكثورن: «هل يمكن أن تشرحي نيابة عني يا ماريكو سان: يبدو أنني أفهم الآن ما كنت تقصدين وما كان يقصده الزعيم تورانا جا بشأن الكارما وسخافة القلق حول ما هو موجود. تبدو الكثير من الأمور أكثر وضوحاً الآن. لا أعلم لماذا... ربما لأنني لم أكن خائفاً هكذا من قبل، ربما هذا هو السبب في أن رأسي أصبح أكثر صفاءً. إنه... حسناً، إنه مثل ما حدث مع البستاني العجوز. نعم، كان ذلك خطئي بالكامل وأنا آسف حقاً، لكن ذلك كان خطأ، لم يكن اختياراً متعمداً من جانبي. لقد كان كذلك. لذا لا يمكن فعل أي شيء حيال ذلك. قبل لحظات كنا جميعاً على وشك الموت. لذا كل ذلك القلق والحزن كان مضيعة للوقت، أليس كذلك؟ كارما. بلى، أعلم الآن ما تعنيه كلمة كارما. هل تفهمين؟».

- نعم.

ترجمت لتورانا جا.

- يقول: جيد يا أنجين سان. الكارما هي بداية المعرفة. التالي هو الصبر. الصبر مهم جداً. الأقوياء هم الصابرون يا أنجين سان. الصبر يعني التحكم في ميولك تجاه المشاعر السبع: الكراهية والإعجاب والفرح والقلق والغضب والحزن والخوف. إذا لم تخضع لهذه المشاعر السبع، تكون صبوراً، عندها ستفهم قريباً كل الأشياء وتكون في تناغم مع الأبدية.

- هل تؤمنين بذلك يا ماريكو سان؟

- نعم. جداً. أحاول أيضاً أن أكون صبورة، لكن الأمر صعب.

- أوافقك الرأي. هذا أيضاً الوا، انسجامك، هدوؤك، أليس كذلك؟

- بلى.

- أخبريه أنني أشكره حقاً لما فعله من أجل البستاني العجوز. لم أشكره من قبل، ليس من قلبي. أخبريه ذلك.

- لا داعي يا أنجين سان. لقد كان يعلم بالفعل أنك كنت فقط تحاول أن تكون مؤدباً.

- كيف علم بذلك؟

- أخبرتك أنه أحكم رجل في العالم.

ابتسم.

قالت: «ها أنت ذا، تبدو أصغر سنًا مجددًا». ثم أضافت باللاتينية: «أصبحت نفسك من جديد، وأفضل من ذي قبل».

- لكنك جميلة مثلما كنتِ دائمًا.

أصبحت نظراتها أكثر دفئًا لذا أشاحت عينيها عن تورانا. رأى بلاكتورن هذا ولاحظ حذرًا. نهض على قدميه وحقق داخل الصدع المتعرج. قفز بحذر داخله واختفى.

نهضت ماريكو بسرعة، شاعرة بالخوف لحظة، لكن بلاكتورن عاد سريعًا إلى السطح. وفي يديه سيف فوجيكو. كان لا يزال في غمده رغم كونه متسخًا ومخدوشًا. وكان سيفه القصير قد اختفى.

جثا أمام تورانا. وقدم سيفه كما يجب أن يُقدّم السيف. قال ببساطة: «رجاء يا تورانا ساما، من ساموراي إلى ساموراي، حسنًا؟».

- شكرًا يا أنجين سان.

أخذ زعيم الكانتو السيف وأدخله في حزامه. ثم ابتسم وانحنى إلى الأمام وصفع بلاكتورن مرة واحدة على كتفه بقوة وقال: «صديق؟».

- شكرًا.

نظر بلاكتورن بعيدًا وتلاشت ابتسامته. كانت تتصاعد سحابة من الدخان فوق التل حيث كان من المفترض أن تكون القرية. وعلى الفور سأل تورانا: إذا كان بإمكانه المغادرة للتأكد أن فوجيكو بخير.

- يقول نعم يا أنجين سان. وسنراه في القلعة عند غروب الشمس لتناول العشاء. توجد بعض الأمور التي يرغب في مناقشتها معك.

عاد بلاكتورن إلى القرية. كانت مدمرة تمامًا ومسار الطريق منحرفًا بشكل لا يمكن التعرف عليه وسطحه محطمًا. لكن القوارب كانت آمنة. كانت توجد العديد من الحرائق التي لا تزال مشتعلة. وكان القرويون يحملون دلاء من الرمال والمياه. انعطفت عند الزاوية، كان منزل أومي مائلًا على جانبه. أما منزله فقد تحول إلى أنقاض محترقة.

الفصل التاسع والثلاثون

أصيب فوجيكو وماتت خادمتها نيجاتسو. الهزة الأولى أسقطت أعمدة المنزل الرئيسية، مبعثرة جمرات النار في المطبخ. فوجيكو ونيجاتسو كانتا محاصرتين تحت إحدى العوارض الساقطة، والنيران حولت نيجاتسو إلى مشعل. أما فوجيكو فقد سُحِبَتْ إلى الخارج. وقُتِلَ أحد أطفال الطاهي أيضًا، لكن بقية الخدم لم يصابوا سوى بجروح طفيفة والتواءات. كانوا جميعًا سعداء للغاية عندما وجدوا أن بلاكتورن كان حيًّا ولم يُصب بأذى.

كانت فوجيكو مستلقية على فوتون مُنْقَذَ بالقرب من سور الحديقة السليم، وكانت نصف واعية. كادت تبكي عندما رأت أن بلاكتورن لم يصب بأذى. قالت بضعف: «أشكر بوذا أنك لم تُصب بأذى يا أنجين سان».

حاولت النهوض وهي لا تزال تحت تأثير الصدمة لكنه أمرها ألا تتحرك. كانت ساقاها وأسفل ظهرها مصابين بحروق شديدة. كان أحد الأطباء يعتني بها بالفعل، يلف الضمادات المنقوعة في الشاي وأعشاب أخرى حول أطرافها لتهدئتها. أخفى بلاكتورن قلقه وانتظر حتى انتهى الطبيب، ثم قال له على انفراد: «هل ستكون فوجيكو سان بخير؟».

هز الطبيب كتفيه مبتسمًا من بين أسنانه البارزة وقال: «نعم، إنها الكارما، أليس كذلك؟».

- بلى.

لقد رأى بلاكتورن ما يكفي من البحارة المحترقين يموتون ليدرك أن أي حرق سيئ كان خطرًا، حيث تبدأ الجروح المفتوحة بالتعفن في غضون أيام قليلة ولا يمكن إيقاف انتشار العدوى. قال: «لا أريدها أن تموت».

- معذرة؟

قالها باليابانية، وهز الطبيب رأسه وأخبره أن السيدة ستكون بخير بالتأكيد. كانت شابة وقوية.

قال الطبيب: «لا يوجد شيء يمكن فعله».

ثم أمر الخادmates بإبقاء ضماداتها رطبة، وأعطى بلاكتورن بعض الأعشاب لجروحه، وأخبره أنه سيعود قريبًا، ثم تسلق التل باتجاه منزل أومي المحطم في الأعلى.

وقف بلاكتورن عند بوابته الرئيسية التي كانت سليمة. كانت سهام بونتارو لا تزال مغروزة في العمود الأيسر. لمس أحدهم بغير وعي، فكر بحزن: كانت الكارما الخاصة بها هي احتراقها.

عاد إلى فوجيكو وأمر أحد الخدم بإحضار الشاي. ساعدها على الشرب وأمسك بيدها حتى غلبها النوم، أو بدا أنها نامت. كان خدمه ينقذون كل ما يمكنهم إنقاذه، ويعملون بسرعة بمساعدة بعض القرويين. كانوا يعرفون أن الأمطار ستتهطل قريبًا. لذا كان يحاول أربعة رجال إقامة مأوى مؤقت.

- تفضل يا أنجين سان.

كان الطاهي يقدم له شايًا طازجًا، محاولًا إخفاء حزنه. كانت الطفلة التي قُتلت ابنته المفضلة.

أجاب بلاكتورن: «شكرًا لك. أنا آسف».

- شكرًا لك يا أنجين سان. إنها الكارما، أليس كذلك؟

أوما بلاكتورن برأسه وقبل الشاي وتظاهر بعدم ملاحظة حزن الطاهي حتى لا يحرجه. بعد ذلك جاء ساموراي إلى التل حاملًا رسالة من توراناغا مفادها أن بلاكتورن وفوجيكو سيبيتان في القلعة حتى يُعاد بناء المنزل. وصلت محفتان. حملها بلاكتورن برفق إلى واحدة منهما وأرسلها مع الخادmates. ثم صرف محفته الخاصة وأخبرها أنه سيلحق بها قريبًا.

بدأ المطر في الهطول لكنه لم يوليه أي اهتمام. جلس على حجر في الحديقة التي كانت تمنحه الكثير من السعادة. الآن كانت في حالة يرثى لها. كان الجسر الصغير مكسورًا والبركة محطمة وجدول الماء اختفى.

قال دون أن يخاطب أحد بالتحديد: «لا يهم. الصخور لم تمت».

أخبره أوكي يا أن الحديقة يجب أن تستقر حول صخورها، وأنه من دونها تكون الحديقة فارغة، مجرد مكان للنمو.

كانت إحدى الصخور مسننة وعادية لكن أوكي يا زرعها بطريقة تجعلك إذا نظرت إليها طويلاً وبتمعن قرب غروب الشمس والتوهج الأحمر يلمع من خلال عروق والبلور المدفون فيها ستتمكن من رؤية سلسلة كاملة من الجبال مع وديان مترامية وبحيرات عميقة ومن بعيد أفق أخضر يتجمع فيه الليل.

لمس بلاكتورن الصخرة وقال: «سأطلق عليك أوكي يا ساما».

أسعده هذا وكان يعلم أنه لو كان أوكي يا حيًا، لكان الرجل العجوز سعيدًا جدًا أيضًا. قال بلاكتورن لنفسه: حتى لو كان ميتًا، ربما سيعلم. ربما يكون الكامي الخاص به هنا الآن. يعتقد أتباع الشنتو أنه عندما يموت الشخص يصبح كامي...

- ما هو الكامي يا ماريكو سان؟

- الكامي شيء لا يمكن تفسيره يا أنجين سان. إنه مثل الروح ولكنه ليس كذلك، مثل النفس ولكنه ليس كذلك. ربما هو الجوهر غير المادي لشيء أو شخص... يجب أن تعلم أن الإنسان يصبح كامي بعد موته، ولكن الشجرة أو الصخرة أو النبات أو اللوحة تصبح أيضًا كامي. الكامي يُبجل ولا يُعبد. إنهم موجودون بين السماء والأرض ويزورون أرض الآلهة هذه أو يغادرونها، كل ذلك في الوقت نفسه.

- والشنتو؟ ما هو الشنتو؟

- هذا لا يمكن تفسيره أيضًا، آسفة. إنه يشبه الدين ولكنه ليس دينًا. في البداية لم يكن له اسم حتى... فقط أطلقنا عليه اسم شنتو -طريقة الكامي- قبل ألف سنة لتمييزه عن البوذية -طريقة بوذا-. ورغم أنه لا يمكن تعريفه فإن الشنتو هو جوهر اليابان واليابانيين، ورغم أنه لا يمتلك أي لاهوت ولا إله ولا إيمان ولا نظام أخلاقي فإنه تبريرنا للوجود. الشنتو هو عبادة الطبيعة المليئة بالخرافات والأساطير التي لا يؤمن بها أحد بإخلاص ومع ذلك فإن الجميع يبجلها بالكامل. يُولد الإنسان شنتو كما يُولد يابانيًا.

- هل أنت شنتو أيضًا إلى جانب كونك مسيحية؟

- نعم، نعم جدًا، بالطبع...

لمس بلاكتورن الصخرة مجددًا وقال: «أرجوك يا كامي أوكي يا، ابق في حديقتي».

ثم ترك عينيه تأخذانه إلى داخل الصخرة غير مبالٍ بالمطر، عابراً الأودية الخسبة والبحيرة الهادئة متجهاً نحو الأفق الأخضر حيث تجتمع الظلام.

حشته أذناه على العودة إلى الواقع. رفع بصره ووجد أومي يراقبه وهو جالس القرفصاء على فخذه بصبر. كانت السماء لا تزال تمطر، وأومي كان يرتدي كيمونو مكويًا حديثاً تحت معطفه المصنوع من قش الأرز، وقبعة عريضة مخروطية الشكل من الخيزران. وشعره مغسول للتلو.

قال وهو يشير إلى الانقراض المحترقة: «إنها الكارما يا أنجين سان».

مسح بلاكتورن المطر عن وجهه: «نعم، كيف حالك؟».

- جيد.

أشار أومي نحو منزله وقال: «لم يتضرر حمامي. هل ترغب في استخدامه؟».

- حسنًا. شكرًا يا أومي سان، نعم، شكرًا.

تبع بلاكتورن أومي بامتنان في الطريق المتعرج وصولاً إلى فناء منزله. كان الخدم والحرفيون من القرية تحت إشراف مورا بالفعل يطرقون وينشرون ويصلحون. كانت الأعمدة المركزية قد أُعيدت إلى مكانها بالفعل وسقف المنزل استقر في مكانه تقريبًا.

شرح أومي بإشارات وكلمات بسيطة وكثير من الصبر أن خدمه تمكنوا من إخماد الحرائق في الوقت المناسب. أخبر بلاكتورن: «في غضون يوم أو يومين سيصبح المنزل كما كان سابقاً، لذلك لا داعي للقلق. أما منزلك يا أنجين سان، فسوف يستغرق وقتاً أطول، قرابة أسبوع. لا تقلق، إن فوجيكو سان مدبرة ماهرة، ستتولى كل التكاليف بالتنسيق مع مورا في وقت قصير وسيصبح منزلك أفضل من ذي قبل. سمعت أنها احترقت؟ حسنًا، هذا يحدث أحياناً، لكن لا تقلق فإن أطباءنا خبراء جداً في معالجة الحروق... لا بد أن يكونوا كذلك، أليس كذلك؟ بلى يا أنجين سان، لقد كان زلزالاً سيئاً لكنه ليس بهذا السوء. بالكاد تأثرت حقول الأرز، ونظام الري الأساسي لم يتضرر. وكذلك القوارب لم تتضرر وهذا أمر مهم جداً أيضاً. ولم يُقتل سوى مائة وأربعة وخمسين ساموراي فقط في الانهيار الجبلي، وهذا ليس عدداً كبيراً، أليس كذلك؟ أما بالنسبة للقرية، ففي غضون أسبوع لن تشعر بحدوث الزلزال

تقريبًا. قُتل خمسة فلاحين وبضعة أطفال... لا شيء. كانت أنجيرو محظوظة جدًا، أليس كذلك؟ سمعت أنك أنقذت تورانا جا ساما من فخ الموت. نحن جميعًا شاكرون لك يا أنجين سان. جدًا. لو فقدناه... قال الزعيم تورانا جا إنه قبل سيفك... أنت محظوظ، هذا شرف عظيم. نعم، الكارما الخاصة بك قوية وجيدة وغنية جدًا. نعم، نشكرك كثيرًا. اسمع، سنواصل الحديث بعد أن تستحم. أنا سعيد بكونك صديقًا لي».

نادى أومي خدَم الحمام: «أسرعوا!».

رافق الخدم بلاكتورن إلى الحمام الذي كان يقع داخل بستان صغير من أشجار القيقب ومتصلًا بالمنزل الرئيسي بممر متعرج أنيق، عادةً ما يكون مسقوفًا. كان الحمام أكثر فخامة من حمامه الخاص. كان أحد الجدران متصدعة بشدة، لكن كان القرويين يعيدون ترميمها بالفعل. كان السقف سليمًا رغم فقدانه لبعض البلاطات وكان المطر يتسرب هنا وهناك، لكن هذا لم يكن مهمًا.

نزع بلاكتورن ملابسه وجلس على المقعد الصغير. قام خدمه بغسل جسده وشعره تحت المطر. ثم دخل إلى الحمام البخاري بعد أن نظفوه. وذابت كل همومه.

فوجيكو ستكون بخير. أنا رجل محظوظ... محظوظ أنني كنت هناك لإنقاذ تورانا جا، ومحظوظ لإنقاذ ماريكو، ومحظوظ أنه كان هناك لينقذ كلينا. جددته لمسات سوو السحرية كالمعتاد. لاحقًا سمح لسوو بعلاج كدماته وجروحه، وارتدى الملابس الداخلية النظيفة والكيمنو وجوارب التابي التي تُركت له، وخرج. كان المطر قد توقف.

أنشأوا مأوى مؤقت في أحد أركان الحديقة. كان يحتوي على أرضية مرتفعة مرتبة ومفروش بأفرشة فوتون نظيفة ومزهرة صغيرة مزينة بالزهور. كان أومي ينتظره ومعه امرأة عجوز بلا أسنان وقاسية الملامح.

قال أومي: «تفضل بالجلوس يا أنجين سان».

أجابه بيابانية متعثرة: «شكرًا لك، وشكرًا على الملابس».

- لا داعي لذكر ذلك. هل تريد الشاي أم الساكي؟

- شاي. شكرًا لك.

قرر بلاكثورن معتقداً أنه من الأفضل أن يحافظ على صفاء ذهنه قبل مقابله مع تورانا جا.

قال أومي برسمية وكان من الواضح حبه لها: «هذه والدتي».

انحنى بلاكثورن. ابتسمت العجوز وشهقت.

قالت: «إنه شرف لي يا أنجين سان».

- شكراً لك، لكن الشرف لي.

كرر بلاكثورن تلقائياً سلسلة من عبارات الأدب الرسمية التي علمته إياها ماريكو.

- كنا حزينين جداً لرؤية منزلك يحترق يا أنجين سان.

- ماذا كان بالإمكان فعله؟ إنها الكارما، أليس كذلك؟

- بلى، كارما.

أشاحت العجوز بنظرها بعيداً وعبست: «أسرعي، أنجين سان يريد شايه دافئاً».

الفتاة التي كانت تقف بجانب الخادمة التي تحمل الصينية أذهلت بلاكثورن. ثم تذكرها. أليست هذه الفتاة التي رآها مع أومي في المرة الأولى، عندما كان يمر عبر ساحة القرية في طريقه إلى القادس؟

قال أومي باقتضاب: «هذه زوجتي».

قال بلاكثورن بينما أخذت الفتاة مكانها، جثت وانحنى: «الشرف لي».

قالت والدته أومي: «يجب أن تعذرها على بطئها. هل الشاي دافئ بما يكفي لك؟».

- شكراً لك، إنه جيد جداً.

لاحظ بلاكثورن عدم استخدام العجوز لاسم الزوجة كما ينبغي. لكنه لم يتفاجأ، فقد أخبرته ماريكو بالفعل عن المكانة المهيمنة لأم الزوج في المجتمع الياباني.

قال لها: «الحمد للرب إنه ليس الوضع نفسه في أوروبا».

- لا يمكن أن تخطئ أم الزوج... فبعد كل شيء يا أنجين سان، الآباء هم من يختارون الزوجة منذ البداية، وأي أب يختار دون استشارة زوجته

أولاً؟ بالطبع، على زوجة الابن أن تطيع، والابن دائماً يفعل ما يريده أبوه وأمه.

- دائماً؟

- دائماً.

- وماذا إذا رفض الابن؟

- هذا غير ممكن. على الجميع طاعة رب البيت. أول واجب للابن هو تجاه والديه. بالطبع. الأمهات يعطين كل شيء لأبنائهن، الحياة والطعام والحنان والحماية. إنها ترعاهم طوال حياتهم. لذلك من الطبيعي أن يستجيب الابن لرغبات والدته. وزوجة الابن... يجب أن تطيع. هذا واجبها.

- الوضع ليس هكذا لدينا.

- من الصعب أن تكون المرأة زوجة ابن جيدة، صعب جداً. كل ما يمكنها فعله هو أن تأمل في العيش طويلاً بما يكفي لإنجاب أبناء لتصبح أم الزوج.

- وماذا عن والددة زوجك؟

- لقد ماتت يا أنجين سان. ماتت منذ سنوات طويلة. لم أعرفها قط. لم يتخذ الزعيم هירו ماتسو بحكمته زوجة أخرى.

- بونتارو سان هو ابنه الوحيد؟

- نعم. زوجي لديه خمس أخوات أحياء، لكن ليس لديه إخوة. (ثم مازحت) بطريقة ما نحن أقارب الآن يا أنجين سان. فوجيكو هي ابنة أخت زوجي. ما الأمر؟

- أنا مدهوش لأنك لم تخبريني من قبل، هذا كل شيء.

- حسناً، إنه أمر معقد يا أنجين سان.

ثم شرحت ماريكو أن فوجيكو كانت في الواقع ابنة بالتبني لنوماتا أكينوري، الذي تزوج أصغر أخوات بونتارو، وأن والد فوجيكو الحقيقي كان حفيد الطاغية جورودا من خليلته الثامنة، وأن فوجيكو قد تبنتها نوماتا وهي طفلة بأمر من التايكو لأنه أراد روابط أوثق بين أحفاد هירו ماتسو وجورودا...

ضحكت ماريكو وهي تقول له إن العلاقات الأسرية في اليابان معقدة جدًا لأن التبني أمر طبيعي، وأن الأسر غالبًا ما تتبادل الأبناء والبنات، ويتطلقون ويتزوجون مرة أخرى وتتداخل الزيجات طوال الوقت. ومع وجود العديد من الخيليات الشرعيات وسهولة الطلاق - خاصة إذا كان بأمر من الزعيم الإقطاعي - فإن جميع العائلات سرعان ما تصبح متشابكة جدًا.

- لكشف الروابط الأسرية للزعيم توراناغا بدقة، سيستغرق الأمر أيامًا يا أنجين سان. فقط فكر في التعقيدات: في الوقت الحالي لديه سبع خيليات رسمية على قيد الحياة، أنجب له خمسة أبناء وثلاث بنات. بعض الخيليات كنَّ أرامل أو متزوجات من قبل ولديهن أبناء وبنات آخرون... بعض هؤلاء الأبناء تبناهم توراناغا، وبعضهم لم يفعل. في اليابان لا تسأل ما إذا كان الشخص متبنًى أم لا. حقًا، ما الفرق؟ الميراث دائمًا يعتمد على رغبة رب البيت، لذلك سواء كان الابن متبنًى أم لا، فهو الشيء نفسه، أليس كذلك؟ حتى والدته توراناغا كانت مطلقة. وتزوجت مجددًا لاحقًا وأنجبت ثلاثة أبناء آخرين وابنتين من زوجها الثاني، وكلهم الآن متزوجون أيضًا. الابن الأكبر من زواجها الثاني هو زاتاكى، زعيم شينانو.

فكر بلاكتورن في ذلك ثم قال: «الطلاق غير ممكن بالنسبة لنا. غير ممكن».

- هذا ما يقوله الآباء القديسون لنا. آسفة جدًا، لكن هذا ليس معقولًا يا أنجين سان. الأخطاء تحدث والناس يتغيرون، هذه هي الكارما، أليس كذلك؟ لماذا ينبغي لرجل أن يتحمل زوجة سيئة، أو لامرأة أن تتحمل زوجًا سيئًا؟ من الحماسة أن نكون عالقين إلى الأبد، رجل أو امرأة، أليس كذلك؟

- بلى.

- في هذا نحن حكماء جدًا بينما الآباء القديسون غير حكماء. كان هذا أحد السببين الرئيسيين اللذين جعلوا التايكو يرفض اعتناق المسيحية، هذا الهراء المتعلق بالطلاق... والوصية السادسة «لا تقتل». أرسل الأب الزائر طلبًا إلى روما لطلب إعفاء خاص لليابانيين بشأن الطلاق. لكن قداسة البابا بحكمته رفض. لو وافق قداسته، لكان التايكو قد اعتنق

المسيحية، وكان الدايميو يتبعون الإيمان الحقيقي الآن، وكانت الأرض ستصبح مسيحية. مسألة «القتل» كانت ستصبح غير مهمة لأن لا أحد يهتم بها حقًا، أقلهم المسيحيون. تنازل صغير كهذا مقابل الكثير، أليس كذلك؟

قال بلاكثورن: «بلى».

بدا الطلاق معقولاً جداً هنا. لماذا كان يُعتبر خطيئة مميتة في وطنه، محرماً من قبل كل كاهن في العالم المسيحي، سواء كاثوليكي أو بروتستانتي، باسم الرب؟

- كيف هي زوجة توراناغا؟

سأل راغباً في جعلها تواصل التحدث. في معظم الأحيان كانت تتجنب الحديث عن توراناغا وتاريخ عائلته، وكان من المهم لبلاكثورن أن يعرف كل شيء.

أظلم وجه ماريكو وقالت: «إنها ميتة. كانت زوجته الثانية وتوفيت قبل عشرة أو أحد عشر عاماً. كانت أخت التايكو غير الشقيقة. لم يكن توراناغا ناجحاً قط مع زوجاته يا أنجين سان».

- لماذا؟

- كانت الثانية مسنة ومتعبة وجشعة، تعبد الذهب بينما تتظاهر بالعكس مثل أخيها التايكو نفسه. كانت عقيمة وسيئة المزاج. كان زواجاً سياسياً بالطبع. اضطررت إلى أن أكون إحدى خادوماتها لفترة من الزمن. لم يكن شيء يرضيها، ولم يستطع أي من الشباب أو الرجال أن يحل العقدة في جناحها الذهبي.

- ماذا؟

- بوابتها اليشمية يا أنجين سان. مع رؤوس سلاحفهم... أعضائهم. ألا تفهم؟ الشيء الخاص بها.

- فهمت. نعم.

- لم يستطع أحد حل عقدها... لم يستطع أحد إرضاءها.

- ولا حتى توراناغا؟

قالت مصدومة تمامًا: «لم يجامعها قط يا أنجين سان. بالطبع لم يكن له علاقة بها بعد الزواج باستثناء إعطائها قلعة وخدم ومفاتيح خزانته... فلماذا يفعل ذلك؟ كانت مسنة وتزوجت مرتين من قبل، لكن أخاها التايكو فسخ الزواجين. كانت امرأة مزعجة جدًا... ارتاح الجميع عندما ماتت، حتى التايكو وكل زوجات أبنائها وخليلات توراناغا أحرقن البخور بفرح سرًا».

- وماذا عن زوجة توراناغا الأولى؟

- السيدة تاتشييانا. زواجًا سياسيًا آخر. كان الزعيم توراناغا في الثامنة عشرة من عمره، وهي في الخامسة عشرة. كبرت لتصبح امرأة مروعة. قبل عشرين عامًا أمر توراناغا بإعدامها لأنه اكتشف أنها كانت تخطط سرًا لاغتيال زعيمهما الإقطاعي الطاغية جورودا الذي كانت تكرهه. كثيرًا ما أخبرني والدي أنه كان يعتقد أنهم جميعًا محظوظون لأنهم لم يفقدوا رؤوسهم - هو وتوراناغا وناكامورا وكل القادة - لأن جورودا كان عديم الرحمة وقاسيًا وكان يشك خاصة في المقربين منه. كانت بإمكان تلك المرأة تدميرهم جميعًا بغض النظر عن براءتهم. لقد أعدم ابنها الوحيد نوبوناغا أيضًا بسبب مؤامرتها ضد الزعيم جورودا يا أنجين سان. لقد قتلت ابنها بنفسها. فكر في ذلك، كم هو حزين، كم هو مروع. نوبوناغا المسكين، كان الابن المفضل لتوراناغا ووريثه الرسمي، كان شجاعًا وقائدًا عن جدارة ومخلصًا تمامًا. كان بريئًا لكنها ورطته في مؤامرتها. كان عمره تسعة عشر عامًا فقط عندما أمره توراناغا بالانتحار بالسيبوكو.

- توراناغا قتل ابنه؟ وزوجته؟

- نعم، أمرهم بالموت، لكنه لم يكن لديه خيار آخر يا أنجين سان. إذا لم يفعل، لكان الزعيم جورودا قد افترض أن توراناغا كان جزءًا من المؤامرة، وكان قد أمره على الفور بشق بطنه. نعم، كان توراناغا محظوظًا لأنه نجا من غضب جورودا وكان حكيماً بجعلها تموت سريعًا. وعندما ماتت، كانت زوجة ابنها وكل زوجات توراناغا سعيدات للغاية. كان ابنها قد اضطر إلى إعادة زوجته الأولى إلى بيت أهلها في خزي بناء على أوامرها بسبب إهانة وهمية... بعدما أنجبت له طفلين. انتحرت الفتاة بالسيبوكو. هل أخبرتك أن السيدات يقمن بالسيبوكو بقطع حناجرهن يا أنجين سان وليس بطونهن مثل الرجال؟ لكنها

ذهبت إلى الموت بامتنان، سعيدة لأنها تحررت من حياة مليئة بالدموع، بينما كانت الزوجة التالية تتمنى الموت، حيث كانت حياتها أيضًا بائسة على يد حماتها...

الآن بالنظر إلى حمات ميدوري والشاي يسيل على ذقنها، علم بلاكتورن أن هذه العجوز الشمطاء تملك سلطة الحياة أو الموت والطلاق أو الإهانة على ميدوري، بشرط موافقة زوجها رب البيت. ومهما كان قرارها فإن أومي سيطيع. قال لنفسه: كم هو أمر مروع.

كانت ميدوري رشيقة وشابة كما لم تكن تلك المرأة العجوز، بوجه بيضاوي وشعر كثيف. كانت أجمل من ماريكو، لكن دون حماسها وقوتها، مرنة كنبات السرخس وهشة كخيوط العنكبوت.

قالت العجوز: «أين المقبلات؟ لا بد أن أنجين سان جائع بالطبع، أليس كذلك؟».

أجابت ميدوري على الفور: «أسفة جدًا». ثم قالت للخادمة: «أحضري بعضًا منها في الحال. أسرع! أسفة حقًا يا أنجين سان».

قالت العجوز: «عذرًا يا أنجين سان». قال بلاكتورن لميدوري: «رجاء لا تعتذري».

أدرك خطأه على الفور. كانت الأخلاق الحميدة تقتضي بأن يعترف فقط بحماتها، خاصة إذا كانت تملك سمعة سيئة. قال: «عذرًا، أنا لست جائعًا. يجب أن أتناول العشاء الليلة مع الزعيم توراناغا».

قالت العجوز: «حسنًا. لقد سمعنا أنك أنقذت حياته. يجب أن تعلم مدى امتناننا لك... كل أتباعه».

- كان هذا واجبي. لم أفعل شيئًا.
- لقد فعلت كل شيء يا أنجين سان. أومي سان والزعيم يابو يقدران ما فعلته بقدر ما نقدره جميعًا.

رأى بلاكتورن العجوز تنظر إلى ابنها. فكر: ليتني أستطيع فهمك أيتها العجوز اللعينة. هل أنت شريرة مثل تلك الأخرى، تاتشيبانا؟

قال أومي: «أنا محظوظ لأن لدي صديقًا مثل أنجين سان يا أمي».

قالت: «كلُّنا محظوظ».

أجاب بلاكتورن: «لا، أنا المحظوظ. أنا محظوظ لأن لديَّ أصدقاء مثل عائلة كاسيجي أومي سان».

فكر بلاكتورن: نحن جميعًا نكذب، لكن لا أعلم لماذا تكذِّبين أنت. أنا أكذب لحماية نفسي ولأن هذا هو العرف. لكني لم أنسَ... انتظر لحظة. بكل صدق، ألم تكن تلك الكارما؟

ألم تكن لتفعل ما فعله أومي؟ كان ذلك منذ زمن طويل... في حياة سابقة، أليس كذلك؟ إنه بلا معنى الآن.

صعدت مجموعة من الفرسان على التل، ويتقدمهم ناجا. ترجل ودخل الحديقة. توقف جميع القرويين عن العمل وجثوا على ركبهم. أشار لهم بمواصلة العمل.

- عذرًا لإزعاجك يا أومي سان، لكن الزعيم توراناغا أرسلني.

قال أومي: «أنت لا تزعجني. رجاء انضم إلينا».

أعطت ميدوري فورًا وسادتها له، وهي تنحني باحترام شديد وتقول: «هل ترغب في الشاي أم الساكي يا ناجا ساما؟».

جلس ناجا: «لا، شكرًا. لست عطشان».

ألح عليه أومي بأدب، وتابع الطقوس الطويلة الضرورية، رغم أنه كان واضحًا كون ناجا في عجلة من أمره. قال: «كيف حال الزعيم توراناغا؟».

- في أحسن حال. أنجين سان، لقد قدمت لنا خدمة عظيمة. نعم. أشكرك شخصيًا.

- كان هذا واجبي يا ناجا سان. لكني لم أفعل الكثير. لقد أنقذني الزعيم توراناغا أيضًا.

- نعم. لكن ذلك كان لاحقًا. أشكرك كثيرًا.

سأل أومي بعد أن سمحت له أخيرًا آداب السلوك بالدخول في صلب الموضوع: «هل يوجد شيء يمكنني القيام به للزعيم توراناغا يا ناجا سان؟».

- يريد رؤيتك بعد العشاء. سيكون هناك اجتماع كامل لجميع الضباط.

- سيكون لي الشرف.

- يجب أن تأتي معي الآن يا أنجين سان، إذا كان يناسبك.

- بالطبع. إنه شرف لي.

مزيدٌ من الانحناءات والتحيات، ثم امتطى بلاكثورن حصانه وانطلقوا إلى أسفل التل. عندما وصلت كتيبة الساموراي إلى الساحة، شد ناجا اللجام.

- أنجين سان.

- نعم؟

- أشكرك من أعماق قلبي لإنقاذك الزعيم توراناغا. اسمح لي بأن أكون صديقك...

وتابع ببعض الكلمات التي لم يفهمها بلاكثورن.

- عذراً، لم أفهم «Karite iru».

- آه، عذراً، «Karite iru» تعني رجل Karite iru لرجل آخر بأشياء...
مثل «الدين». هل تفهم «الدين»؟

قفزت كلمة «يدين» إلى عقل بلاكثورن: «آه، حسناً! فهمت».

- جيد. قلت فقط إنني مدين لك بدين.

- كان ذلك واجبي، أليس كذلك؟

- بلى. ومع ذلك، أنا مدين لك بحياة.

- يقول توراناغا ساما إن كل بارود المدافع والذخيرة قد أُعيدت إلى سفينتك يا أنجين سان، هنا في أنجيرو قبل أن تغادر إلى إيدو. ويسألك كم من الوقت ستحتاج إلى الاستعداد للإبحار؟

- ذلك يعتمد على حالتها، إذا كان الرجال قد أصلحوها واعتنوا بها واستبدلوا الصارية وما إلى ذلك. هل يعلم الزعيم توراناغا حالتها؟

- يقول إن السفينة تبدو بحالة جيدة، ولكنه ليس بحارًا فلا يمكنه أن يكون متأكدًا. لم يصعد على متنها منذ أن سُحِبَت إلى ميناء إيدو لأول مرة وأعطى تعليماته للعناية بها. بافتراض أنها صالحة للإبحار، يسألك كم من الوقت ستحتاج لتكون جاهزًا للحرب؟

خفق قلب بلاكثورن للحظة وسأل: «من سأحارب يا ماريكو سان؟».

- يسألك: من ترغب أن تحارب؟

- السفينة السوداء لهذا العام.

أجاب بلاكثورن على الفور متخذًا قرارًا مفاجئًا، أملًا بشدة أن يكون هذا هو الوقت المناسب لعرض خطته التي وضعها سرًا على مدار الأيام. كان يُراهن على أن إنقاذه لحياة تورانا جا هذا الصباح قد يمنحه امتيازًا خاصًا يساعده على تجاوز العقبات.

تفاجأت ماريكو: «ماذا؟».

- السفينة السوداء. أخبرني الزعيم تورانا جا أن كل ما عليه فعله هو أن يمنحني تصاريح التفويض. وسأهتم بالباقي. مع سفينتي وقليل من المساعدة... نقتسم الحمولة، كل الحرير والسبائك.

ضحكت ماريكو، لكن تورانا جا لم يضحك.

- يقول... يقول سيدي إن هذا سيكون عملًا حربيًا لا يُغتفر ضد دولة صديقة. البرتغاليون ضروريون لليابان.

- بلى، هم كذلك... في الوقت الحالي. لكنني أعتقد أنهم أعداؤه كما هم أعدائي، ومهما كانت الخدمات التي يقدمونها، يمكننا أن نقدم أفضل منها وبتكلفة أقل.

- يقول ربما. لكنه لا يعتقد أن الصين ستتاجر معك. لا يملك الإنجليز ولا الهولنديون قوة كافية في آسيا بعد، ونحن بحاجة إلى الحرير الآن وإلى إمدادات مستمرة.

- إنه محق بالطبع. لكن خلال عام أو عامين سيتغير ذلك، وسيحصل على دليله حينها. لذا إليك اقتراحًا آخر. أنا بالفعل في حالة حرب مع البرتغاليين. تقع المياه الدولية خارج حدود خمسة كيلومترات. لذا مع تصاريح التفويض، يمكنني أخذها قانونيًا كغنيمة والإبحار بها إلى أي ميناء وبيعها هي وحمولتها. مع سفينتي وطاقم، سيكون الأمر سهلًا. يمكنني إيصال السفينة السوداء وكل ما تحمله إلى إيدو في غضون بضعة أسابيع أو أشهر. يمكنني بيعها في إيدو. ستكون حصته نصف القيمة... ضريبة ميناء.

- يقول إنه لا يهتم بما يحدث في البحر بينك وبين أعدائك. فالبحر ملك للجميع. لكن هذه الأرض ملكنا، وهنا تحكم قوانيننا ولا يجوز خرقها.

- نعم.

أدرك بلاكتورن أن مساره كان خطراً، لكن حدسه أخبره أن الوقت مثالي وأن تورانا جا سيبتلع الطعم. وماريكو أيضاً. قال: «كان مجرد اقتراح. لقد سألني مَنْ أرغب أن أحارب. أرجو المَعذرة، لكن من الجيد أحياناً التخطيط لأي احتمال. لأنني أعتقد أن مصالح الزعيم تورانا جا هي مصالحنا».

ترجمت ماريكو ما قاله. تتمتع تورانا جا بعبارة قصيرة.

- يقدر الزعيم تورانا جا الاقتراحات العقلانية يا أنجين سان، مثل اقتراحك حول الأسطول البحري، ولكن هذا سخيف. حتى لو كانت مصالحنا متطابقة، وهي ليست كذلك، فكيف لك أنت وتسعة رجال مهاجمة سفينة ضخمة كهذه تحمل ما يقرب من ألف شخص؟

- لن أفعل. سأحتاج إلى طاقم جديد يا ماريكو سان. ثمانون أو تسعون رجلاً، بحارة ومدفعية مدربون. سأجدهم في ناجازاكي على السفن البرتغالية.

تظاهر بلاكتورن بعدم ملاحظة صدمتها أو توقف مروحياتها اليدوية وأضاف: «لا بد أنه يوجد بعض الفرنسيين، وربما إنجليزٍ أو اثنان إذا كنت محظوظاً، وبعض الألمان أو الهولنديين... سيكون معظمهم متمردين أو مجبرين على العمل. سأحتاج إلى تصريح مرور آمن إلى ناجازاكي وبعض الحماية وقليل من الفضة أو الذهب. يوجد دائماً بحارة في أساطيل الأعداء مستعدون للانضمام مقابل المال الفوري وحصة من الغنائم».

- يقول سيدي إن أي قائد يثق بمثل هؤلاء الخونة في هجوم يكون مجنوناً.

قال بلاكتورن: «أنا أوافقك الرأي. لكنني بحاجة إلى طاقم للإبحار».

- يسألك إن كان بالإمكان تدريب الساموراي والبحارة لدينا ليصبحوا مدفعية وبحارة؟

- بسهولة. مع الوقت الكافي. لكن ذلك سيستغرق شهوراً. سيصبحون جاهزين بالتأكيد بحلول العام القادم. لن تكون هناك فرصة لمهاجمة السفينة السوداء لهذا العام.

- يقول الزعيم تورانا جا: لا أخطط لمهاجمة السفينة السوداء للبرتغاليين، لا هذا العام ولا العام القادم. إنهم ليسوا أعدائي ولست في حالة حرب معهم.

- أعلم. لكنني في حالة حرب معهم. أرجو المَعذرة. بالطبع، هذه مجرد مناقشة، لكن سأحتاج إلى بعض الرجال للإبحار، لأكون في خدمة الزعيم توراناغا إذا أراد.

كانوا يجلسون في الجناح الخاص بتوراناغا المطل على الحديقة. بالكاد تضررت القلعة من الزلزال. كان الليل رطبًا وخاليًا من الهواء، وتساعد دخان البخور بهدوء ليطرده البعوض.

قالت ماريكو: «يريد أن يعلم سيدي لو كانت سفينتك بحوزتك الآن وكان معك أفراد الطاقم القليلين الذين جاؤوا معك، هل كنت ستبحر بها إلى ناجازاكي للحصول على الرجال الإضافيين الذين تحتاجهم؟».

- لا. سيكون ذلك خطرًا جدًّا. سأكون مفتقرًا إلى طاقم كافٍ لدرجة تسمح للبرتغاليين أن يأسروني. سيكون من الأفضل بكثير الحصول على الرجال أولًا وإحضارهم إلى مياهنّا، إلى إيدو، أليس كذلك؟ حالما يكون لديّ طاقم كامل ومسلح، لن يكون للعدو أي شيء في هذه البحار ليمسني.

- لا يعتقد أنك تستطيع الاستيلاء على السفينة السوداء بمساعدة تسعين رجلًا فقط.

- يمكنني التفوق عليها وإغراقها بواسطة إيراسموس. بالطبع أعلم أن كل هذا مجرد افتراض يا ماريكو سان، ولكن إذا سُمح لي بمهاجمة عدوي، فسأبحر مع المد إلى ناجازاكي حالما أكون قد جهزت الطاقم. وإذا كانت السفينة السوداء بالفعل في الميناء، سأرفع رايات المعركة وأقف في البحر لحصارها. سأدعها تنهي تجارتها، وعندما تكون الرياح مناسبة لرحلتها إلى الوطن، سأدعي أنني بحاجة إلى الإمدادات وأدعها تغادر الميناء. ثم سأمسك بها على بُعد بضعة فراسخ لأننا أسرع منها، ومدفعي سيتكفل بالباقي. حالما تستسلم سأضع طاقمًا للغنائم على متنها وأعيدها إلى إيدو. سيكون على متنها ما يقارب من ثلاثمائة إلى أربعمائة طن من سبائك الذهب.

- لكن لماذا لن يقوم قبطانها بإغراق سفينته حالما تهزمه، إن هزمته، قبل أن تتمكن من الصعود على متنها؟

- عادةً...

كان بلاكتورن سيقول: «عادة ما يتمرد الطاقم إذا كان القبطان متعصبًا، لكنني لم أعرف قبطانًا بهذا الجنون. في معظم الأوقات تعقد صفقة مع القبطان: تنقذ حياتهم وتمنحهم حصّة صغيرة وتأمّن لهم مرسى آمنًا إلى أقرب ميناء. لكن هذه المرة سأتعامل مع رودريجز، وأنا أعرفه وأعرف ما سيفعله».

لكنه قرر التراجع عن ذلك أو الكشف عن خطته بالكامل. قال لنفسه: من الأفضل ترك الطرق الهمجية للهمج. قال بدلًا من ذلك: «عادةً ما تستسلم السفينة المهزومة يا ماريكو سان. هذا تقليد... أحد تقاليدنا في الحروب البحرية... لتجنب خسائر غير ضرورية في الأرواح».

- يقول الزعيم توراناغا: معذرةً يا أنجين سان، إن هذا تقليد مقزز. لو كانت لديه سفن لما كان يوجد استسلام.

احتست ماريكو بعض الشاي ثم واصلت: «وإذا لم تكن السفينة قد وصلت إلى الميناء بعد؟».

- حينها ساجتاح الممرات البحرية لأمسك بها على بُعد بضعة فراسخ في المياه الدولية. سيكون من السهل الاستيلاء عليها وهي محملة بالبضائع وتتمايل في المياه، ولكن سيكون من الصعب إحضارها إلى إيدو. متى من المتوقع أن ترسو؟

- سيدي لا يعلم. يقول: ربما خلال ثلاثين يومًا. ستكون السفينة مبكرة هذا العام.

علم بلاكتورن أنه قريب جدًا من الجائزة، قريب جدًا. فقال: «إذن سنحاصرها ونستولي عليها في نهاية الموسم».

ترجمت ذلك، واعتقد بلاكتورن أنه رأى خيبة أمل عابرة على وجه توراناغا. توقف قليلًا وكأنه يفكر في بدائل ثم قال: «لو كنا في أوروبا، لكانت توجد طريقة أخرى. يمكنك الإبحار ليلاً والاستيلاء عليها بالقوة. هجوم مفاجئ».

أحكم توراناغا قبضته على مقبض سيفه.

- يقول إنك تجرؤ على شن حرب على أرضنا ضد أعدائك؟

كانت شفتا بلاكتورن جافتين: «لا، بالطبع لا يزال هذا مجرد افتراض، ولكن إذا وُجدت حالة حرب بينه وبين البرتغاليين، وإذا أراد الزعيم توراناغا إيذائهم، فهذا هو السبيل لذلك. إذا كان لديّ مائتان أو ثلاثمائة مقاتل

منضبطين وطاقم جيد وسفينة إيراسموس، فسيكون من السهل الاقتراب من السفينة السوداء والاستيلاء عليها وسحبها إلى البحر. يمكنه اختيار توقيت الهجوم المفاجئ... إذا كنا في أوروبا».

ساد صمتٌ طويلٌ.

- يقول الزعيم توراناغا إن هذه ليست أوروبا، ولا توجد حالة حرب بينه وبين البرتغاليين ولن توجد أبدًا.
 - بالطبع. نقطة أخيرة يا ماريكو سان: ناجازاكي ليست تحت سيطرة الزعيم توراناغا، أليس كذلك؟
 - نعم يا أنجين سان. يمتلك الزعيم هاريمان الميناء والأراضي المحيطة به.
 - لكن ألا يسيطر اليسوعيون عمليًا على الميناء وكل التجارة؟
- لاحظ بلاكثورن تردها في الترجمة لكنه واصل الضغط: «أليست هذه هي الحقيقة يا ماريكو سان؟ وأليس الزعيم هاريمان كاثوليكيًا؟ أليست معظم كيوشو كاثوليكية؟ وبالتالي ألا يسيطر اليسوعيون إلى حد ما على الجزيرة بأكملها؟».

قالت ماريكو من نفسها: «المسيحية ديانة. الداييمو يتحكمون في أراضيهم الخاصة يا أنجين سان».

- لكن قيل لي إن ناجازاكي تعد أرضًا برتغالية. قيل لي إنهم يتصرفون كما لو كانت كذلك. ألم يبع والد الزعيم هاريمان الأرض إلى اليسوعيين؟
- احتد صوت ماريكو: «نعم. ولكن التايكو استعاد الأرض. ولا يسمح لأي أجنبي بامتلاك أرض هنا الآن».

- لكن ألم يسمح التايكو بانقضاء مراسيمه، لذا اليوم لا يحدث شيء هناك دون موافقة اليسوعيين؟ ألا يتحكم اليسوعيون في جميع عمليات الشحن في ناجازاكي وكل التجارة؟ ألا يتفاوض اليسوعيون في جميع صفقات التجارة لكم ويعملون كوسطاء؟

قالت بحدة: «أنت على دراية تامة بأحوال ناجازاكي يا أنجين سان».

- ربما يجب على الزعيم توراناغا أن يسيطر على الميناء من العدو. ربما...

قالت وهي تبتلع الطعام أخيرًا: «إنهم أعداؤك يا أنجين سان، وليسوا أعداءنا. إن اليسوعيين...».

- ما الأمر؟

التفتت ماريكو إلى تورانا جا معذرة وشرحت ما دار بينهما. وعندما انتهت، تحدث بلهجة صارمة في توبيخ واضح. قالت ماريكو «حسنًا» عدة مرات وانحنت بأدب.

قالت ماريكو: «الزعيم تورانا جا يذكرني بأن آرائي لا قيمة لها، وأن المترجم يجب أن يترجم فقط، أليس كذلك؟ أرجو المعذرة».

كان بلاكتورن في الماضي سيعتذر لإيقاعها في الفخ، لكن الآن لم يخطر بباله ذلك. ولكن بما أنه قد أوضح وجهة نظره فقد ضحك وقال باليابانية: «نعم، أيتها السيدة الجميلة المترجمة».

ابتسمت ماريكو بامتعاض، غاضبة من نفسها لأنها وقعت في الفخ، وعقلها في صراع بسبب ولاءاتها المتضاربة.

قال تورانا جا بلطف: «جيد يا أنجين سان».

- ماريكو سان أجمل من السيد تسوكو المسن، أليس كذلك، ورائحتها أكثر تطيبًا؟

ضحك تورانا جا: «بلى».

احمر وجه ماريكو وصبت الشاي، وقد هدأت قليلًا. ثم تحدث تورانا جا بجدية.

- يقول سيدي: لماذا كنت تسأل كل هذه الأسئلة أو تدلي بتلك التصريحات عن الزعيم هاريماناجازاكي؟

- فقط لأوضح أن ميناء ناجازاكي في الحقيقة خاضع لسيطرة الأجانب. من قبل البرتغاليين. وبموجب قانوني، لدي الحق القانوني في مهاجمة العدو في أي مكان.

- يقول: ولكن هذا ليس «أي مكان»، هذه أرض الآلهة، وهجوم كهذا لا يمكن تصوره.

- أنا أوافقك الرأي تمامًا. ولكن إذا أصبح الزعيم هاريمو عدائيًا في يوم من الأيام، أو أصبح اليسوعيون الذين يقودون البرتغاليين عدائيين، فهذا هو السبيل لإيذائهم.

- يقول الزعيم توراناغا إنه لا هو ولا أي داييمو سيسمح بهجوم أمة أجنبية على أخرى على الأراضي اليابانية، أو قتلهم لأي من أبناء شعبنا. أما ضد أعداء الإمبراطور، فهذا أمر مختلف. أما بخصوص الحصول على مقاتلين وطاقم، فسيكون من السهل على شخص ما إن يحصل على أي عدد إذا كان يتحدث اليابانية. يوجد الكثير من الواكو في كيوشو.

- واكو يا ماريكو سان؟

- معذرة. نحن نطلق على القراصنة اسم «واكو» يا أنجين سان. اعتادوا أن يكون لديهم الكثير من المخابئ حول كيوشو، ولكن قضي على معظمهم بواسطة التايكو. ومع ذلك، لا يزال بإمكانك العثور على بعض الناجين للأسف. الواكو أهربوا سواحل الصين لعدة قرون. وبسببهم أغلقت الصين موانئها أمامنا.

شرحت لتوراناجا ما قيل. تحدث مجددًا بتأكيد أكثر: «يقول إنه لن يسمح أبدًا أو يخطط أو يوافق على أن تشن هجومًا بريًا، رغم أنه سيكون من الصواب لك أن تهاجم أعداء ملكتك في أعالي البحار. ويكرر أن هذه ليست أي مكان. هذه أرض الآلهة. يجب أن تكون صبورًا كما أخبرك سابقًا».

- نعم. أنوي محاولة التحلي بالصبر على طريقته. أنا فقط أريد مهاجمة العدو لأنهم العدو. أعتقد بكل قلبي أنهم أعداؤه أيضًا.

- يقول الزعيم توراناغا إن البرتغاليين أخبروه أنك عدوه، وتسوكو سان والزائر العام واثقون تمامًا بذلك.

- إذا تمكنت من أسر السفينة السوداء في البحر وأحضرتها كغنيمة قانونية إلى إيدو، تحت علم إنجلترا، فهل سيُسمح لي ببيعها هي وكل محتوياتها في إيدو، وفقًا لعاداتنا؟

- يقول الزعيم توراناغا إن ذلك يعتمد.

- إذا اندلعت الحرب فهل سيسمح لي بمهاجمة العدو، عدو الزعيم توراناغا، بأفضل طريقة ممكنة؟

- يقول إن ذلك واجب الهاتاموتو. والهاتاموتو بالطبع يخضع لأوامره الشخصية في جميع الأوقات. يريدني سيدي أن أوضح أن الأمور في اليابان لن تُحلَّ بأي طريقة أخرى غير الطريقة اليابانية.
- نعم. أفهم تمامًا. أودُّ أن أشير بتواضع شديد إلى أنه كلما عرفت أكثر عن مشكلاته، زادت قدرتي على مساعدته.
- يقول إن واجب الهاتاموتو هو مساعدة سيده دائمًا يا أنجين سان. ويقول إنه سيجيب عن أي أسئلة معقولة قد تراودك لاحقًا.
- شكرًا. هل يمكنني سؤاله، هل يود أن يكون لديه أسطول بحري خاص به؟ كما اقترحت على متن القادس؟
- لقد قال بالفعل إنه يرغب في أسطول بحري، أسطول حديث يا أنجين سان، يديره رجاله. وأي داييميو لن يرغب في ذلك؟
- إذن أخبريه: إذا كنتُ محظوظًا بما يكفي لأسر سفينة العدو، سأحضرها إلى إيدو لتجديدها وإحصاء الغنيمة. ثم سأنقل نصيبي من السبائك إلى إيراسموس وأبيع السفينة السوداء للبرتغاليين أو أقدمها كهدية لتوراناجا ساما أو أحرقها، أيًا كان ما يشاء. ثم سأبحر إلى الوطن. وسأعود خلال عام بأربع سفن حربية كهدية من ملكة إنجلترا للزعيم توراناجا.
- يسأل: أين سيكون ربك من هذا؟
- الحقيقة هي، سيتبقى لي الكثير يا ماريكو سان، بعد أن تدفع جلالتها ثمن السفن. علاوة على ذلك، أرغب في أن أصطحب معي أحد مستشاريه الموثوقين كسفير إلى ملكتي. ربما قد يهتم بمعاهدة صداقة بين بلدينا.
- يقول الزعيم توراناجا إن ذلك سيكون كرمًا زائدًا من ملكتك. (ويضيف) لكن إذا حدثت مثل هذه المعجزة وعدتَ ومعك السفن الجديدة، من سيدرب البحارة والساموراي والقباطنة على إدارتها؟
- سأقوم بذلك في البداية، إذا كان ذلك يرضيه. سيكون لي الشرف، ثم يمكن لأخرين أن يتبعوني.
- يقول ماذا تعني بـ«في البداية»؟
- عامان.

ابتسم تورانا جا للحظة.

- يقول سيدنا إن سنتين لن تكونا كافيتين «في البداية». لكنه يضيف أن هذا كله وهم. إنه ليس في حالة حرب مع البرتغاليين أو الزعيم هاريما من ناجازاكي. ويكرر أن ما تفعله خارج المياه اليابانية على سفينتك الخاصة مع طاقمك الخاص هو الكارما الخاصة بك. (بدت ماريكو مضطربة) يقول: أنت أجنبي خارج مياهنا، ولكن هنا أنت ساموراي.
- نعم. أعلم الشرف الذي منحني إياه. هل يمكنني أن أسأل كيف يقترض الساموراي المال يا ماريكو سان؟
- من مُقرض مال يا أنجين سان. من أين غير ذلك؟ من تاجر مُقرض قذر.

ترجمت لتورانا جا ثم سألت: «لماذا تحتاج إلى المال؟».

- هل يوجد مُقرضو أموال في إيدو؟
- نعم. مقرضو الأموال في كل مكان، أليس كذلك؟ أليس الأمر نفسه في بلدك؟ اسأل خليلتك يا أنجين سان، ربما يمكنها مساعدتك. هذا جزء من واجبها.
- قلت إننا سنغادر إلى إيدو غدا؟
- نعم، غدا.
- للأسف لن تتمكن فوجيكو سان من السفر حينها.
- تحدثت ماريكو مع تورانا جا.
- يقول الزعيم تورانا جا إنه سيرسلها على متن القادس عندما تغادر. ويسألك عن حاجتك إلى اقتراض المال؟
- سأحتاج إلى طاقم جديد يا ماريكو سان... للإبحار إلى أي مكان، ولخدمة الزعيم تورانا جا، كيفما شاء. هل هذا مسموح؟
- طاقم من ناجازاكي؟
- نعم.
- سيعطيك إجابة عندما تصل إلى إيدو.
- شكرًا يا تورانا جا ساما. ماريكو سان، إلى أين سأذهب عندما أصل إلى إيدو؟ هل سيكون هناك من يرشدني؟

- لا يجب أن تقلق أبدًا بشأن مثل هذه الأمور يا أنجين سان. أنت أحد هاتاموتو الزعيم توراناغا.
كانت هناك طرق على الباب الداخلي.
- ادخل.

فتح ناغا باب الشوجي وانحنى: «عذرًا يا أبي، ولكنك أردتني أن أخبرك عندما يكون جميع ضباطك حاضرين».
- شكرًا لك، سأتي بعد قليل.

فكر توراناغا لوهلة ثم أشار إلى بلاكثورن بأسلوب ودي وقال: «يا أنجين سان، اذهب مع ناغا سان. سيرشدك إلى مكانك. شكرًا لك على آرائك».

- حسنًا يا سيدي. شكرًا على استماعك. وشكرًا على كلماتك. نعم. سأحاول جاهدًا أن أكون صبورًا ومتقنًا.
- شكرًا لك يا أنجين سان.

راقب توراناغا انحناءه ومغادرته. ثم التفت إلى ماريكو عندما أصبحتا وحدهما وقال: «حسنًا، ما رأيك؟».

- شيئان يا سيدي. أولًا: كراهيته لليسوعيين لا حدَّ لها، تتجاوز حتى كراهيته للبرتغاليين، لذا هو أداة يمكن استخدامها ضد أي منهما، إذا أردت أداة. نحن نعلم أنه شجاع لذا سيستغل شجاعته في صد أي هجوم بحري. ثانيًا: المال هو هدفه الأساسي. في دفاعه ومن ما تعلمته عنه فإن المال هو الوسيلة الحقيقية الوحيدة التي يمتلكها الهمج للحصول على السلطة المستدامة. إنهم يشتررون الأراضي والمناصب، حتى إن ملكتهم تاجرة و«تبيع» الأراضي لزعمائها، وتشتري السفن والأراضي على الأرجح. إنهم لا يختلفون عنَّا كثيرًا يا سيدي إلا في ذلك، وأيضًا في أنهم لا يفهمون القوة، أو أن الحرب هي الحياة والحياة هي الموت.
- هل اليسوعيون أعدائي؟

- لا أعتقد ذلك.

- البرتغاليون؟

- أعتقد أنهم يهتمون فقط بالأرباح والأراضي ونشر كلمة الرب.

- هل المسيحيون أعدائي؟

- لا يا سيدي. رغم أن بعض أعدائك قد يكونون مسيحيين، كاثوليك أو بروتستانت.
- هل تعتقد أن أنجين سان عدوي؟
- لا يا سيدي. لا، أعتقد أنه يحترمك، ومع الوقت سيصبح تابعًا حقيقيًا لك.
- ماذا عن المسيحيين لدينا؟ من هم الأعداء؟
- الزعيم هاريمان وكياما وأونوشي وأي ساموراي آخر ينقلب ضدك.
- ضحك توراناغا وقال: «نعم، ولكن هل يسيطر عليهم الكهنة كما يوحى أنجين سان؟».
- لا أعتقد ذلك.
- هل سينقلب هؤلاء الثلاثة ضدي؟
- لا أعلم يا سيدي. في الماضي كانوا جميعًا عدائيين ووديين لك في آن واحد. ولكن إذا انضموا إلى إيشيدو فستصبح الأمور سيئة للغاية.
- أوافقك الرأي. نعم. أنت مستشارة قيمة. إنه صعب عليك أن تكوني مسيحية كاثوليكية، صديقة لعدو وتستمعين إلى أفكار العدو.
- نعم يا سيدي.
- لقد أوقعك في الفخ، أليس كذلك؟
- بلى. لكن في الحقيقة كان على حق. لم أكن أفعل ما أمرتني به. كنت أضع نفسي بين أفكاره النقية وبينك. رجاء اقبل اعتذاراتي.
- سيظل الأمر صعبًا. وربما سيزداد صعوبة.
- نعم يا سيدي. ولكن من الأفضل أن تعرف كلا جانبي العملة. لقد ثبتت صحة الكثير مما قاله، على سبيل المثال، عن تقسيم العالم بين الإسبان والبرتغاليين، وعن تهريب الكهنة للأسلحة... رغم استحالة تصديق ذلك. لا يجب أن تقلق أبدًا بشأن ولائي يا سيدي. مهما ساء الأمر، سأظل دائمًا أقوم بواجبي تجاهك.
- شكرًا لك. حسنًا، ما قاله أنجين سان كان مثيرًا للاهتمام، أليس كذلك؟
- مثير للاهتمام ولكنه هراء. نعم، شكرًا لك يا ماريكو سان، أنت مستشارة قيمة. هل أمرك بتطليقك من بونتارو؟

- سيدي؟

- إذن؟

غنت روحها: أوه، لأكن حرة. أوه يا مريم، لأكن حرة.

تذكرني من أنت يا ماريكو، تذكرني ما أنت عليه. وتذكرني أن «الحب» كلمة همجية.

كان توراناغا يراقبها بصمت. في الخارج كانت البعوضات تتجه نحو دخان البخور ثم تبتعد إلى الأمان. تأملها: نعم، إنها صقر. لكن أي فريسة يجب أن أدفعها نحوها؟

قالت ماريكو أخيرًا: «لا يا سيدي. شكرًا لك يا سيدي، لكن لا».

- أنجين سان رجل غريب، أليس كذلك؟ رأسه مليء بالأحلام. من السخف أن يفكر في مهاجمة أصدقائنا البرتغاليين أو سفينتهم السوداء. ومن الهراء أن نصدق ما يقوله عن أربع سفن أو عشرين.

ترددت ماريكو: «إذا قال إن الأسطول ممكن يا سيدي، فأنا أومن بأنه ممكن».

قال توراناغا بحزم: «لا أوافقك الرأي، ولكنك على حق في أنه يمثل توازنًا ضد الآخرين، هو وسفينته القتالية. كم هو غريب... لكن كم هو مفيد! إنه كما قال أومي: في الوقت الحالي نحتاج إلى الهمج لتتعلم منهم. وما زال يوجد الكثير لتتعلمه، خاصة منه، أليس كذلك؟».

- بلى.

- حان الوقت لفتح الإمبراطورية يا ماريكو سان. سيغلقها إيشيدو بإحكام كالمحارة. لو كنت رئيسًا لمجلس الوصاية مرة أخرى، لكنت أبرمت معاهدات مع أي دولة، ما دامت ودودة. كنت سأرسل رجالًا ليتعلموا من الأمم الأخرى، نعم وسأرسل سفراء. ملكة هذا الرجل ستكون بداية جيدة. لملكة ربما يجب أن أرسل سفيرة، إذا كانت ذكية بما يكفي.

- يجب أن تكون قوية جدًا وذكية جدًا يا سيدي.

- نعم. ستكون رحلة خطيرة.

قالت ماريكو: «جميع الرحلات خطيرة يا سيدي».

- نعم.

غير توراناها الموضوع فجأة مجدداً دون سابق إنذار: «إذا أبحر أنجين سان بعيداً بسفينته المحملة بالذهب، فهل سيعود؟ هو نفسه؟».

قالت بعد فترة: «لا أعلم».

قرر توراناها ألا يضغط عليها الآن. قال وهو يصرفها بودية: «شكراً لك يا ماريكو سان. أريدك أن تكوني حاضرة في الاجتماع لترجمي ما سأقوله لأنجين سان».

- كل شيء يا سيدي؟

- نعم. والليلة عندما تذهبن إلى بيت الشاي لشراء عقد كيكو، اصطحبي أنجين سان معك. وأخبري خليلته لترتب الأمور. يحتاج إلى مكافأة، أليس كذلك؟

- بلى.

عندما كانت عند الشوجي قال توراناها: «فور حل المشكلة بيني وبين إيشيدو، سأصدر أمراً بتطليقك».

اشتدت قبضة يدها على الباب. أومأت برأسها قليلاً اعترافاً بذلك لكنها لم تنظر إلى الخلف. وأغلق الباب خلفها.

راقب توراناها الدخان للحظة، ثم نهض وسار في الحديقة إلى المرحاض وجلس القرفصاء. عندما انتهى واستخدم المناديل، سمع خادماً يسحب الحاوية من أسفل الفتحة ليستبدلها بأخرى نظيفة. كان البعوض يحوم فصفعه بشروء. كان يفكر في الصقور والباز، مدرّكاً أن حتى أعظم الصقور ترتكب أخطاءً، مثلما أخطأ إيشيدو وكيري وماريكو وأومي، وحتى أنجين سان.

كان الضباط المائة والخمسون مصطفىين في صفوف منظمة، ويتقدمهم يابو وأومي وبونتارو. جلست ماريكو بالقرب من بلاكتورن جانباً. دخل توراناها مع حراسه الشخصيين وجلس على الوسادة الوحيدة مواجهاً لهم. أقر بانحناءاتهم، ثم أبلغهم بإيجاز بجوهر الرسالة وكشف لهم لأول مرة علناً عن خطته النهائية للمعركة. لكنه حجب مجدداً الجزء المتعلق بالتمردات السرية والمخطط لها بعناية، وأيضاً حقيقة أن الهجوم سيسلك الطريق الساحلي الشمالي وليس الجنوبي. ولينال الاستحسان العام -لأن جميع

محاربيه كانوا سعداء لوجود نهاية للشكوك أخيرًا- أخبرهم أنه عندما تتوقف الأمطار سيصدر كلمات السر «السماء القرمزية» التي ستكون إشارة لبدء هجومهم. قال: «في هذه الأثناء، أتوقع أن يعقد إيشيدو بشكل غير قانوني مجلس وصاية جديدًا. وأتوقع أن أعزل زورًا. وأتوقع أن يعلن الحرب عليّ، خلافًا للقانون».

انحنى إلى الأمام، وقبضته اليسرى موضوعة على فخذيه بتميز والأخرى مشدودة على سيفه. واصل حديثه: «اسمعوا. أنا أدمع وصية التايكو وأعترف بابن أخي يايمون كوامباكو ووريث التايكو. لا أرغب في أراضٍ أخرى. ولا أريد ألقابًا أخرى. ولكن إذا هاجمني الخونة فلا بد لي من الدفاع عن نفسي. إذا خدع الخونة صاحب السمو الإمبراطوري وحاولوا الاستيلاء على السلطة في البلاد فمن واجبي الدفاع عن الإمبراطور ونفي الشر. أليس كذلك؟».

استقبل هذا بهتاف الموافقة. واجتاحت صيحات المعركة «كاسيجي» و«توراناجا» الغرفة لتتردد في جميع أنحاء القلعة.

- ستكون كتيبة الهجوم مستعدة للانطلاق على متن القوادس إلى إيدو بقيادة تودا بونتارو سان، وكاسيجي أومي سان كقائد سان خلال خمسة أيام. وأنت يا كاسيجي يابو سيتوجب عليك تهيئة قوات إيزو وأمر ستة آلاف رجل بالتوجه إلى معابر الحدود في حال هاجم الخائن إيكافا جيكيو الجنوب لقطع خطوط اتصالاتنا. عندما تتوقف الأمطار سيهاجم إيشيدو الكانتو...

وافق كل من أومي ويابو وبونتارو بصمت على حكمة توراناجا في حجب المعلومات حول قراره هذا اليوم بشأن الهجوم في موسم الأمطار، في الحال. قال أومي لنفسه: هذا سيثير ضجة. اضطربت أمعاؤه من فكرة شن الحرب في موسم الأمطار عبر جبال شينانو.

قال يابو بحماس بعد ظهر هذا اليوم: «ستشق بناقنا طريقًا عبرها». وافق أومي: «نعم».

لم يكن واثقًا في الخطة ولكن لم يملك بديل ليقدمه. قال لنفسه رغم أنه كان سعيدًا لأنه ترقى إلى رتبة قائد ثان: هذا جنون. لا أفهم كيف يمكن أن يتصور توراناجا أنه توجد أي فرصة للنجاح في الطريق الشمالي.

قال لنفسه مجددًا: لا توجد أي فرصة. أغلق أذنيه جزئيًا عن خطبة تورانا جا المثيرة لكي يسمح لنفسه بالتركيز مرة أخرى على مشكلة انتقامه. من المؤكد أن الهجوم على شينانو سيمنحك عشرات الفرص للتلاعب بيابو ليكون في الصف الأمامي دون أي خطر على نفسك. الحرب -أي حرب- ستكون في صالحك، شريطة ألا تخسر الحرب...

ثم سمع تورانا جا يقول: «اليوم كدت أن أموت. اليوم سحبني أنجين سان من الأرض. هذه هي المرة الثانية وربما الثالثة التي أنقذ فيها حياتي. حياتي لا تساوي شيئًا أمام مستقبل عشيرتي، ومن يدري إذا كنت سأعيش أو أموت دون مساعدته؟ ولكن رغم أن البوشيدو تنص على أن الأتباع لا يجب أن يتوقعوا مكافأة على أي خدمة، فإنه من واجب الزعيم أن يمنح الفضل من حين لآخر».

قال تورانا جا وسط استحسان عام: «اجلس هنا يا أنجين سان. أنت كذلك يا ماريكو سان».

راقب أومي بغيرة الرجل الشاهق وهو ينهض ويجلس في المكان الذي أشار إليه تورانا جا، بجانبه، ولم يوجد رجل في الغرفة لم يتمن أن يحظى هو نفسه بالحظ الجيد ليفعل ما فعله الهمجي.

- سيُمنح أنجين سان إقطاعية بالقرب من قرية الصيد يوكوهاما إلى الجنوب من إيدو بقيمة ألفي كوكو سنويًا، وحق تجنيد مائتي ساموراي كأتباع، وحقوق كاملة كساموراي وهاتاموتو لعائلة يوشي تورانا جا نو تشيكي تادا مينووارا. علاوة على ذلك، سيحصل على عشرة خيول وعشرين كيمونو، بالإضافة إلى معدات قتالية كاملة لأتباعه، ورتبة قائد أميرال وربان الكانتو.

انتظر تورانا جا حتى ترجمت ماريكو ثم نادى: «ناجا سان».

أطاع ناجا وأحضر الحزمة المغطاة بالحرير إلى تورانا جا. أزال تورانا جا الغطاء ليكشف عن سيفين متطابقين، أحدهما قصير والآخر سيف قتل. قال: «لاحظ أنجين سان أن الأرض قد ابتلعت سيفي وأنني كنت أعزل، فنزل مجددًا إلى الصدع ليجد سيفه ليعطيني إياه. أعطيك هذين السيفين في المقابل يا أنجين سان. لقد صنعهما الحرفي الماهر يوريا. تذكر أن السيف هو روح الساموراي. إذا نسيه أو فقداه فلن يُعذر أبدًا».

وسط استحسان متزايد وحسد خفي، أخذ بلاكثورن السيفين وانحنى باحترام ووضعهما في حزامه، ثم انحنى مجددًا.

- شكرًا لك يا تورانا جا ساما. لقد منحتني شرفًا عظيمًا. شكرًا لك.

بدأ في التحرك بعيدًا لكن تورانا جا طلب منه البقاء: «لا، اجلس هنا بجانبني يا أنجين سان».

نظر تورانا جا إلى وجوه ضباطه المتحاربة والمتعصبة.

كان يريد أن يصيح: يا لكم من حمقى! ألا تفهمون أن الحرب سواء كانت الآن أو بعد انتهاء موسم الأمطار، ستكون كارثية؟ أي حرب مع إيشيدو وأوتشيبا ويايمون وحلفائهم الحاليين ستنتهي بمذبحة لجميع جيوشي، وجميعكم، وبإبادة لي ولكل نسلي؟ ألا تدركون أنني لا أملك فرصة سوى الانتظار والأمل بأن إيشيدو سيخنق نفسه؟

بدلاً من ذلك، حثهم بشكل أكبر، لأنه كان من الضروري إرباك عدوه.

- استمعوا يا ساموراي: قريبًا ستتاح لكم الفرصة لإثبات شجاعتكم، رجل لرجل، كما أثبت أجدادنا شجاعتهم. سأدمر إيشيدو وجميع الخونة، وسيكون إيكوا جيكيو أولهم. سأعطي بموجب هذه الاتفاقية جميع أراضيهم ومقاطعات سوروجا وتوتومي التي تقدر بثلاثمائة ألف كوكو إلى تابعي المخلص الزعيم كاسيجي يابو. وبالإضافة إلى إيزو، أؤكد أنه هو ونسله كزعماء لهم.

انطلقت هتافات مدوية. كان يابو متورد الوجه من الحماسة. وكان أومي يضرب الأرض ويهتف بحماس لا يقل عنهم. الآن أصبحت جائزته غير محدودة حيث إن وريث يابو سيرث كل أراضيهم وفقًا للتقاليد. كيف يمكنني قتل يابو دون انتظار الحرب؟

ثم ثبتت عيناه على أنجين سان الذي كان يهتف بحماس. سأل نفسه: لماذا لا تدع أنجين سان يفعل ذلك لك؟ وضحك بصوت عالٍ على الفكرة السخيفة. انحنى بونتارو وربت على كتفه معتقدًا ببراءة أن الضحك كان سعادة من أجل يابو. صاح بونتارو وسط الضوضاء: «قريبًا ستحصل على الإقطاعية التي تستحقها، أليس كذلك؟ أنت تستحق التقدير أيضًا. أفكارك ونصائحك قيمة».

- شكرًا لك يا بونتارو سان.

- لا تقلق، سنتمكن من عبور أي جبال.

- نعم.

كان بونتارو قائد معارك شرّاً وكان أومي يعلم أنهما متكافئان بشكل جيد: أومي الاستراتيجي الجريء وبونتارو القائد الهجومي الشجاع. إذا كان هناك من يستطيع أن يعبر بنا الجبال، فهو يستطيع. انطلقت جولة أخرى من الهتافات عندما أمر توراناغا بإحضار الساكي، منهياً الاجتماع الرسمي.

شرب أومي الساكي الخاص به وراقب بلاكثورن يشرب كأساً أخرى، وهو يرتدي الكيمونو بأناقة وسيوفه في مكانها الصحيح، ولا تزال ماريكو تتحدث. فكر برضا: لقد تغيرت كثيراً يا أنجين سان منذ ذلك اليوم الأول. ورغم أن العديد من أفكارك الغريبة لا تزال راسخة، فإنك تكاد تصبح متحضرًا...

- ما الأمر يا أومي سان؟

- لا شيء... لا شيء يا بونتارو سان...

- لقد بدوت وكأن إيتا حشر مؤخرته في وجهك.

- لا شيء من هذا القبيل... على الإطلاق! بل العكس تمامًا. بدأت تتكون لدي فكرة. اشرب! نعم، يا زهرة الخوخ، أحضري مزيدًا من الساكي، كأس الزعيم بونتارو فارغة.

الفصل الأربعون

قالت ماريكو: «طُلب مني الاستفسار عما إذا كانت كيكو سان متاحة هذا المساء».

قالت الماما سان جيوكو -المسؤولة عنها- بتملق: «عذرًا يا سيدة تودا لكنني لست متأكدة. هل يمكنني أن أسأل عما إذا كان العميل الموقر يرغب في أن تكون السيدة كيكو معه طوال المساء أو جزءًا منه، أو ربما حتى صباح الغد، إذا لم تكن مرتبطة بالفعل؟».

كانت الماما سان امرأة طويلة وأنيقة في أوائل الخمسينات من عمرها، بابتسامة جميلة. لكنها تشرب الكثير من الساكي، وقلبها كالعداد، وتمتلك أنفًا يمكنه شم قطعة فضية واحدة عن بُعد خمسين ري.

كانت المرأتان جالستين في غرفة مكونة من ثماني حصائر، مجاورة لغرفة توراناغا الخاصة. وقد خصصت لماريكو، وكانت تطل من الجانب الآخر على حديقة صغيرة محاطة بأول دفاعات السور الداخلي. المطر يهطل مجددًا وقطراته تتلألأ في الضوء.

قالت ماريكو بلباقة: «هذا يعود للعميل ليقرره. ربما يمكن ترتيب اتفاق الآن يشمل كل الاحتمالات».

- أعتذر، أرجو أن تعذريني لأنني لا أعلم إن كانت متاحة في الحال. الطلب على كيكو سان كبير جدًا يا سيدة تودا. أنا واثقة بأنك تتفهمين.
- نعم بالطبع. نحن محظوظون جدًا لوجود سيدة بهذه الجودة هنا في أنجيرو.

شدت ماريكو على كلمة «أنجيرو». كانت قد أرسلت لاستدعاء جيوكو بدلًا من زيارتها كما كان بإمكانها أن تفعل. وعندما وصلت المرأة متأخرة بما يكفي لتوضيح نقطة مهمة لكن ليس بما يكفي لتكون وقحة، كانت ماريكو سعيدة بفرصة التصادم مع خصم جدير بذلك.

سألت: «هل تضرر بيت الشاي كثيرًا؟».

- لا، لحسن الحظ، بخلاف بعض الفخاريات الثمينة والملابس، رغم أن إصلاح السقف وإعادة تهيئة الحديقة سيكلف ثروة صغيرة. دائمًا ما يكون الأمر مكلفًا جدًا لإنجاز الأمور بسرعة، أليس كذلك؟

- بلى. إنه أمر شاق جدًا. في إيدو أو ميشيما أو حتى في هذه القرية.
- من المهم جدًا أن يكون لديك محيط هادئ، أليس كذلك؟ هل يمكن للعمل أن يشرفنا بحضوره في بيت الشاي؟ أم هل يفضل أن تزوره كيكو سان هنا، إن كانت متاحة؟

زمت ماريكو شفقتها بتفكير ثم قالت: «بيت الشاي».
- حسنًا.

كان الاسم الحقيقي للماما سان هو هيكو إيتشي، الابنة الأولى لصانع الجدران. كان والدها ووالده قبله متخصصين في صنع جدران الحدائق. كانت محظية في ميشيما عاصمة إيزو لسنوات عديدة، ووصلت إلى رتبة الدرجة الثانية. ولكن الآلهة ابتسمت لها، وبمساعدة هدايا من راعيها مقترنة بحس تجاري ذكي، تمكنت من جمع ما يكفي من المال لشراء عقدها بنفسها في الوقت المناسب، وبالتالي أصبحت مديرة للفتيات في بيت شاي خاص بها عندما لم تعد مطلوبة لجسدها الجميل وروحها الجريئة التي وهبها لها الآلهة. الآن تطلق على نفسها اسم جيوكو سان، سيدة الحظ. عندما كانت محظية مبتدئة في الرابعة عشرة من عمرها، أطلق عليها اسم تسوكايكو، السيدة ساحرة الأقاعي. أوضح لها مالکها أن ذلك الجزء الخاص من الرجل يمكن تشبيهه بالأفعى، وأن الأفعى كانت جالبة للحظ، وأنه إذا استطاعت أن تصبح ساحرة الأقاعي بذلك المعنى، فإنها ستصبح ناجحة للغاية. وأيضًا كان الاسم سيُضحك العملاء، والضحك عنصر أساسي في هذا العمل. ولم تنسَ جيوكو قط أهمية الضحك.

- هل تريدان الساكي يا جيوكو سان؟

- شكرًا لك، نعم، شكرًا يا سيدة تودا.

سكبت الخادمة الشراب، ثم صرفتها ماريكو.

شربتا بصمت للحظة، ثم أعادت ماريكو ملء الأكواب.

قالت جيوكو: «يا له من فخار جميل. أنيق جدًا».

- إنه رديء للغاية. أعذر لأننا مضطرون إلى استخدامه.
- إذا تمكنت من إتاحة كيكو سان، هل خمسة كوبان ستكون مقبولة؟
- كانت الكوبان عملة ذهبية تزن ثمانية عشر جرامًا. والكوبان الواحد يعادل ثلاثة كوكو من الأرز.
- معذرةً، ربما لم أكن واضحة في كلامي. لكنني لم أرغب في شراء بيت الشاي كله في ميشيما، فقط خدمات السيدة لليلة واحدة.
- ضحكت جيوكو: «أنت تستحقين سمعتك عن جدارة يا سيدة تودا. ولكن هل يمكنني الإشارة إلى أن كيكو سان من الدرجة الأولى. منححتها النقابة هذا الشرف العام الماضي».
- صحيح، وأنا واثقة بأن تلك الرتبة مستحقة. ولكن ذلك كان في ميشيما. حتى في كيوتو... لكنك بالطبع كنت تمزحين، آسفة جدًا.
- ابتلعت جيوكو الإهانة التي كانت على لسانها وابتسمت بوداعة: «للأسف سيتعين عليّ تعويض العملاء الذين تذكرت أنهم حجزوها بالفعل. يا للمسكينة، لقد تضررت أربعة من الكيمونو الخاصين بها عندما أخدمت المياه الحرائق. الأوقات العصيبة قادمة إلى البلاد يا سيدة، أنا واثقة بأنك تفهمين. الخمسة لن تكون غير معقولة».
- بالطبع لا. الخمسة ستكون عادلة في كيوتو لأسبوع من المرح مع سيدتين من الدرجة الأولى. لكن هذه ليست أوقاتاً طبيعية ويجب على المرء أن يتساهل. نصف كوبان. هل تريدين الساكي يا جيوكو سان؟
- شكرًا لك، شكرًا. الساكي جيد جدًا... جودته جيدة، جيدة جدًا. فقط كوب واحد آخر إذا سمحت، ثم يجب أن أذهب. إذا لم تكن كيكو سان متاحة هذا المساء، فسأكون سعيدة بالاتفاق مع واحدة من السيدات الأخريات... ربما لكيكو. أم ربما سيكون الغد مرضياً؟ أو ربما بعد غد؟
- لم تجب ماريكو للحظة. كانت خمسة كوبان مبلغًا باهظًا جدًا، كمبلغ يُدفع لمحظية شهيرة من الدرجة الأولى في إيدو. نصف كوبان سيكون أكثر من معقول بالنسبة لكيكو. كانت ماريكو تعرف أسعار المحظيات لأن بونتارو كان يستخدمهن من حين لآخر، بل واشترى عقد إحداهن، واضطرت إلى دفع الفواتير التي كانت تأتي لها بطبيعة الحال. كانت عيناها تفحصان جيوكو. كانت المرأة ترتشف الساكي بهدوء بيد ثابتة.

قالت ماريكو: «ربما، ولكن لا أظن ذلك، لا سيدة أخرى ولا ليلة أخرى.. لا، إن لم يكن بالإمكان الاتفاق الليلة، فأخشى أن بعد غد سيكون متأخرًا جدًا، أسفة. وبالنسبة لإحدى السيدات الأخريات...».

ابتسمت ماريكو وهزت كتفها.

وضعت جيوكو كوبها بحزن: «سمعت أن الساموراي العظام سيغادروننا. كم هو مؤسف! الليالي جميلة جدًا هنا. أما في ميشيما فلا نحصل على نسيم البحر كما هو الحال هنا. سأكون حزينة للمغادرة أيضًا».

- ربما كوبان واحد. إذا كان هذا الاتفاق مرضيًا، فسأرغب بعد ذلك في مناقشة تكلفة عقدها.

- عقدها!

- نعم. هل تريدان الساكي؟

- شكرًا لك، نعم. عقد... عقدها؟ حسنًا، هذا شيء آخر. خمسة آلاف كوكو.

- هذا مستحيل.

وافقتها جيوكو الرأي: «نعم، لكن كيكو سان مثل ابنتي. إنها ابنتي بل وأفضل من ابنتي. لقد دربتها منذ كانت في السادسة. هي السيدة الأكثر إنجازًا في عالم الصفصاف في إيزو بأكملها. أوه، أعلم أنه لديكم في إيدو سيدات أعظم وأكثر دهاء وخبرة، لكن ذلك فقط لأن كيكو سان لم تحظَ بالحظ الجيد لمخالطة النوعية نفسها من الأشخاص. ولكن حتى الآن لا أحد يمكنه منافستها في الغناء أو العزف على الساميسن. أقسم بذلك بكل الآلهة. امنحوها سنة في إيدو مع الراعي المناسب ومصادر المعرفة الصحيحة، وستتنافس كما ينبغي مع أي محظية في الإمبراطورية. إن خمسة آلاف كوكو مبلغ زهيد مقابل مثل هذه الزهرة».

كان العرق يتصبب على جبين المرأة وهي تضيف: «يجب أن تعذريني لكنني لم أفكر قط في بيع عقدها من قبل. بالكاد بلغت الثامنة عشرة، بلا عيوب، وهي السيدة الوحيدة من الدرجة الأولى التي حظيت بشرف إدارتها. لا أعتقد حقًا أنني أستطيع بيع عقدها حتى بالسعر المذكور. لا، أعتقد أنني سأضطر إلى إعادة النظر، أسفة. ربما يمكننا مناقشة هذا غدًا. خسارة كيكو سان؟ صغيرتي كيكو تشان؟».

تجمعت الدموع في زوايا عينيها وفكرت ماريكو: إن كانت تلك الدموع حقيقية، إذًا أنتِ يا جيوكو لم تجربي مجامعة رجل نبيل.
ماريكو قالت بأدب: «آسفة جدًا، لكن لا يوجد شيء يمكن فعله، أليس كذلك؟».

وتركت المرأة تنتحب وتبكي، وأعادت ملء كوبها بين الحين والآخر. كانت تسأل نفسها: كم يساوي العقد حقًا؟ خمسمائة كوكو ستكون أكثر من عادلة. الأمر يعتمد على قلق الرجل، ومَن لن يكون قلقًا في هذه الحالة. بالتأكيد ليس الزعيم توراناغا. لمن يشتريها؟ أومي؟ ربما. لكن لماذا أمر توراناغا بإحضار أنجين سان هنا؟

كانت قد سألته في وقت سابق بضحكة عصبية وسط صخب الضباط السكاري: «هل توافق يا أنجين سان؟».

- أنتِ تقولين إن الزعيم توراناغا قد رتب لي سيدة؟ كجزء من مكافأتي؟
- نعم. كيكو سان. لا يمكنك الرفض. أنا... أنا مكلفة بالترجمة.
- مكلفة؟

- أوه، سأترجم لك. ولكن لا يمكنك حقًا الرفض يا أنجين سان. سيكون ذلك من الفظاظة بعد كل هذه التكريمات، أليس كذلك؟

ابتسمت له متحدية إياه، وهي فخورة جدًا ومسرورة بكرم توراناغا المذهل: «رجاء. لم يسبق لي أن رأيت بيت الشاي من الداخل من قبل... سأحب أن ألقى نظرة بنفسني وأتحدث مع سيدة حقيقية من عالم الصفصاف».

- ماذا؟

- يُطلق عليهن هذا الاسم لأن السيدات يُفترض أن يكن رشيقات مثل الصفصاف. أحيانًا يُطلق عليه العالم العائم لأنهن يُشبهن الزنابق العائمة في بحيرة. هيا يا أنجين سان، رجاء وافق.

- ماذا عن بونتارو ساما؟
- إنه يعلم أنني سأرتب لك ذلك. أخبره الزعيم توراناغا. كل شيء رسمي بالطبع. أنا مكلفة. وكذلك أنت. رجاء وافق.

ثم قالت له باللاتينية وهي شاكرة لأن لا أحد في أنجيرو يتحدث اللغة: «يوجد سبب آخر سأخبرك إياه لاحقًا».

- أخبريني الآن.
- لاحقًا. ولكن وافق بابتسامة. لأنني أطلب منك.
- أنت... كيف يمكنني رفض طلبًا لك؟
- لكن بابتسامة. يجب أن يكون بابتسامة. عدني.
- بضحكة. أعدك. سأحاول. لا أعدك بشيء سوى أنني سأحاول الوصول إلى القمة.
- ثم تركته لترتيب الأمور.
- كانت جيوكو تئن قائلة: «أنا منهارة فقط لمجرد التفكير في بيع عقد جميلتي. نعم، شكرًا لك، فقط القليل من الساكي ثم يجب أن أذهب حقًا». أفرغت الكوب وحملته بتعب ليُعاد ملؤه على الفور: «هل نقول اثنان كوبان لهذه المسية... كمعيار لرغبتني في إرضاء سيدة يمثل هذه الجدارة؟».
- واحد. إذا اتفقنا على هذا، ربما يمكننا التحدث أكثر عن العقد هذا المساء في بيت الشاي. أسفة على العجلة، ولكن كما تفهمين فإن الوقت ضيق...
- لوحث ماريكو بيدها بإبهاام نحو غرفة الاجتماعات وقالت: «شؤون الدولة والزعيم توراناغا ومستقبل المملكة، أنتِ تفهمين يا جيوكو سان».
- بدأت جيوكو في النهوض: «نعم يا سيدة تودا، بالطبع. هل نتفق على كوبان ونصف لهذه الليلة؟ جيد، إذن هذا متفق عليه...».
- واحد.
- يا سيدة، إن النصف مجرد مبلغ رمزي ولا يستحق حتى النقاش.
- انتحبت جيوكو شاكرة الآلهة على فطنتها، ومحافضة على تعابير الوجع المصطنعة على وجهها. الكوبان ونصف أجّر مضاعف ثلاث مرات. ولكن، أكثر من المال، كانت هذه أول دعوة من أحد نبلاء اليابان الحقيقيين التي كانت تتطلع إليها أخيرًا، ولأجلها كانت ستنصح كيوكو سان بأن تفعل كل شيء بلا مقابل، مرتين. أضافت: «أقسم بكل الآلهة يا سيدة تودا، إنني ألقى بنفسي تحت رحمتك، كوبان ونصف. رجاءً فكري في أبنائي الآخرين الذين يجب أن يُلبسوا ويُدرَّبوا ويُطعموا لسنوات، والذين لن يصبحوا ذوي قيمة مثل كيوكو سان ولكن يجب أن يُعتنوا بهم مثلها».

- كوبان واحد من الذهب، غداً. حسناً؟

رفعت جيوكو القارورة الخزفية وصبت كوبين. قدمت واحداً إلى ماريكو، واحتست الآخر ثم أعادت ملأه على الفور. قالت وهي تكاد تختنق: «واحد».

ارتشفت ماريكو نبيذها بتأنٍ وقالت: «شكراً لك، أنت لطيفة ومتفهمة. نعم، الأوقات عصيبة. سنكون أنا وأنجين سان في بيت الشاي قريباً».

- ماذا؟ ماذا قلت؟

- إن أنجين سان وأنا سنكون في بيت الشاي قريباً. سأتولى الترجمة له.

شهقت كيكو: «الهمجي؟».

- الهمجي. وسيكون هنا في أي لحظة إلا إذا أوقفناه... معها، أكثر امرأة وحشية وطمعاً قد قابلتها في حياتي، عسى أن تولد مجدداً كعاهرة حقيرة من الرتبة الخامسة عشر.

ضحكت كيكو بصوت عالٍ رغم خوفها: «أوه يا ماما سان، رجاءً لا تقلقي. لقد بدت سيدة لطيفة جداً وكوبان كامل... لقد قمت باتفاق رائع حقاً! تفضلي، تفضلي، لدينا الكثير من الوقت. بعض الساكي أولاً سيزيل كل حرقه قلبك. اذهبي بسرعة يا أكو».

اختفت أكو.

كادت جيوكو تختنق مجدداً: «نعم، العميل هو أنجين سان».

قامت كيكو بتهويتها، وقامت هانا المتدربة الصغيرة بتهويتها ووضعت أعشاباً عطرة بالقرب من أنفها. قالت: «ظننت أنها كانت تتفاوض من أجل الزعيم بونتارو... أو الزعيم توراناغا نفسه. بالطبع عندما قالت أنجين سان سألتها على الفور لماذا لم تقم خليلته السيدة فوجيكو بالتفاوض كما تنص الآداب الصحيحة، ولكن كل ما قالته هو أن خليلته مصابة بحروق شديدة وأنها هي نفسها أمرها الزعيم توراناغا نفسه بالتحدث معي».

- أوه، كم كنت سأكون محظوظة جداً لخدمة الزعيم العظيم.

- ستفعلين يا عزيزتي، ستفعلين إذا تأمرنا. ولكن الهمجي! ماذا سيظن جميع عملائك الآخرين؟ ماذا سيقولون؟ بالطبع تركت الأمر غير

محسوم، وأخبرت السيدة تودا أنني لا أعلم إن كنت متاحة، لذا يمكنكِ
الرفض إذا أردتِ، دون إهانة.

أخفت كيكو قلقها وقالت: «ماذا يمكن أن يقول العملاء الآخرون؟ أمر
الزعيم تورانا جا بذلك. لا يوجد شيء يمكن فعله، أليس كذلك؟».

- يمكنكِ الرفض بسهولة. ولكن يجب أن تكوني سريعة يا كيكو تشان.
كان يجب أن أكون أكثر ذكاءً... كان يجب أن أكون.

- لا تقلقي يا جيوكو ساما. سيكون كل شيء على ما يرام. ولكن يجب أن
نفكر بوضوح. إنها مخاطرة كبيرة، أليس كذلك؟

- بلى. جدًا.

- لن يمكننا التراجع أبدًا إذا وافقنا.

- نعم. أعلم.

- انصحيني.

- لا أستطيع يا كيكو تشان. أشعر بأنني كنت محاصرة من قبل كامى.
يجب أن يكون هذا قرارك.

راعت كيكو جميع الأحوال. ثم راعت الفوائد وقالت: «دعينا نغامر. دعينا
نقبله. فبعد كل شيء هو ساموراي وهاتاموتو والتابع المفضل للزعيم
تورانا جا. لا تنسى ما قاله العراف: أنني سأساعدك لتصبحين غنية وشهيرة
للأبد. ادعي أن يُسمح لي بذلك لأرد لك كل إحسانك».

ربت جيوكو شعر كيكو الجميل وقالت: «أوه يا صغيرتي، أنت لطيفة
جدًا، شكرًا لك، شكرًا. نعم، أعتقد أنك حكيمة. أوافقك الرأي. دعيه يزورنا».
قرصت وجنتها بمحبة: «لطالما كنتِ المفضلة لدي. ولكني كنت سأطالب
بالضعف من الأميرال الهمجي لو كنت أعلم».

- لكننا حصلنا على الضعف يا ماما سان.

- كان يجب أن نحصل على ثلاثة أضعاف.

ربت كيكو يد جيوكو وقالت: «لا تقلقي، هذه بداية حظك الجيد».

- نعم، وصحيح أن أنجين سان ليس همجيًا عاديًا بل ساموراي وهاتاموتو
همجي. أخبرتني السيدة تودا إنه حصل على إقطاعية بقيمة ألفين

كوكو وعين أميرالاً لكل سفن تورانا، ويستحم كشخص متحضر ولم تعد رائحته كريهة...

وصلت آكو لاهثة وصبت النبيذ دون أن تريق قطرة واحدة. اختفت أربعة أكواب في تتابع سريع. ثم بدأت جيوكو تشعر بتحسن. قالت: «يجب أن تكون الليلة مثالية. نعم. إذا أمر الزعيم تورانا بذلك، فبالطبع يجب أن تكون. لن يأمر بذلك شخصياً إلا إذا كان الأمر مهماً له شخصياً، أليس كذلك؟ وأنجين سان مثل دايميو حقاً. ألفين كوكو سنوياً... أقسم بكل الكامي إننا نملك الكثير من الحظ الجيد. استمعي يا كيكو سان».

اقتربت منها واقتربت آكو وكلها أعين متأملة. واصلت حديثها: «سألت السيدة تودا، بما أنها تتحدث لغتهم البذيئة، إذا كانت تعرف أي عادات غريبة أو طرق أو قصص أو رقصات أو أوضاع أو أغاني أو آلات أو أشياء خاصة يفضلها أنجين سان».

قالت كيكو بخوف من أنها وافقت، ومتمنية لو أنها امتلكت الحكمة لرفض ذلك: «سيكون ذلك مفيداً جداً، جداً».

- لم تخبرني شيئاً. إنها تتحدث لغتهم لكنها لا تعلم شيئاً عن عاداتهم في الجماع. سألتها إن كانت قد سألته عن ذلك من قبل، فقالت نعم، ولكن كانت النتائج كارثية.

روت جيوكو ما حدث في قلعة أوساكا وقالت: «هل يمكنك تخيل كم كان ذلك محرّجاً».

- على الأقل نعلم أنه لا يجب أن نقترح عليه الأمر... ذلك شيء يُذكر.
- بخلاف ذلك، ليس لدينا إلا الخادمة في منزله لنعتمد عليها.
- هل لدينا وقت لاستدعاء الخادمة؟
- ذهبت بنفسني. مباشرة من القلعة. ولا حتى راتب شهر كامل تمكن من فتح فم الفتاة، تلك السوسة الصغيرة الحمقاء.
- هل كانت مقبولة الشكل؟
- نعم، بالنسبة لخادمة هاوية غير مدربة. كل ما أضافته هو أن السيد كان رجولياً وليس ثقيلاً، وأنه كان يجامع بوفرة في أكثر الأوضاع العادية. وأنه كان موهوباً من الناحية الجسدية.

- هذا لا يساعد كثيرًا يا ماما سان.

- أعلم. ربما أفضل شيء يمكننا فعله هو أن نكون مستعدين لكل شيء، في حالة حدوث أي شيء، حسنًا؟ لكل شيء.

- نعم. يجب أن أكون حذرة جدًا. من المهم أن يكون كل شيء مثاليًا. سيكون من الصعب -إن لم يكن مستحيلًا- أن أمتعته بالطريقة الصحيحة إذا لم أتمكن من التحدث إليه.

- قالت السيدة تودا إنها ستترجم لك وله.

- كم هذا لطف منها. سيساعد ذلك كثيرًا، رغم أنه بالتأكيد ليس الشيء نفسه.

- صحيح، صحيح. المزيد من الساكي يا آكو. بلطافة يا صغيرة، اسكبيه بلطافة. لكن يا كيكو سان، أنت محظية من الدرجة الأولى. ارتجلي. الأميرال الهمجي أنقذ حياة الزعيم توراناغا اليوم، ويحتمي الآن في ظله. مستقبلنا يعتمد عليك. أعلم أنك ستنجحين ببراعة. يا آكو.

- نعم يا سيدتي.

- تأكدي من أن تكون أفرشة الفوتون مثالية، أن يكون كل شيء مثاليًا. تأكدي من أن الزهور... لا. سأهتم بالزهور بنفسي. والطباخ، أين الطباخ؟ (ربت ركة كيكو): ارتدي الكيمونو الذهبي مع الأخضر تحته. علينا أن نثير إعجاب السيدة تودا الليلة.

هرعت لتبدأ في ترتيب المنزل، وانشغلت جميع السيدات والخادومات والمتدربات والخدم بسعادة، ينظفون ويساعدون، فخورين بالحظ الجيد الذي حل على منزلهم.

عندما استقر كل شيء، وأُعيد ترتيب جداول الفتيات الأخريات، ذهب جيوكو إلى غرفتها واستلقت للحظة لتستجمع قواها. لم تخبر كيكو بعد بعرض العقد.

فكرت: سأنتظر وأرى، فكرت. إذا تمكنت من إجراء الاتفاق الذي أريده، ربما سأسمح لجميلتي كيكو بالذهاب. ولكن ليس قبل أن أعرف لمن. أنا سعيدة أنه كان لدي البصيرة لأوضح ذلك للسيدة تودا قبل أن أغادر. لماذا تبكين، أيتها المرأة العجوز الحمقاء؟ هل ثملت مجددًا؟ استعدي رشداً! ما فائدة التعاسة لك؟

- هانا تشان.

- نعم يا أمي ساما؟

جاءت الطفلة راکضة إليها. كانت قد بلغت من العمر ست سنوات، بعينين بنيتين كبيرتين وشعر طويل وجميل، ترتدي كيمونو حريراً قرمزيًا جديدًا. اشترتها جيوکو قبل يومين عبر سمسار الأطفال المحلي ومورا.

- ما رأيك في اسمك الجديد يا صغيرة؟

- أحبه جدًا، كثيرًا جدًا. إنه لشرف لي يا أمي ساما.

الاسم يعني «زهرة صغيرة» - مثلما كان اسم كيكو يعني «زهرة الأقحوان» - وقد أطلقتها جيوکو عليها في اليوم الأول. «أنا أمك الآن»، هكذا قالت لها جيوکو بلطف ولكن بحزم عندما دفعت ثمنها وأخذتها، متعجبة كيف يمكن أن يخرج مثل هذا الجمال المحتمل من صياد فظ مثل المرأة الممتلئة تاماساكي. وبعد أربعة أيام من المساومات المكثفة، دفعت كوبان مقابل خدمات الطفلة حتى سن العشرين، وهو ما يكفي لإطعام عائلة تاماساكي لمدة عامين. قالت: «أحضري لي بعض الشاي، ثم أحضري مشطي وبعض أوراق الشاي العطرية لإزالة رائحة الساكي من أنفاسي».

- حسنًا يا أمي ساما.

اندفعت مسرعة على غير هدى وهي تلهث متلهفة لإرضائها، واصطدمت بتنورة كيكو عند الباب. «أوه، أوه، أوه، آسفة جدًا...»

«نعم، أمي ساما». هرعت بصورة عمية، وهي تلهث، متلهفة للإرضاء، واصطدمت بفساتين كيكو عند الباب. قالت: «أوه، أوه، أوه، آسفة جدًا...».

- يجب أن تكوني حذرة يا هانا تشان.

كانت هانا تشان على وشك البكاء: «آسفة جدًا، آسفة جدًا يا أختي الكبرى...».

قالت كيكو وهي تمسح دموعها بلطف: «لماذا أنت حزينة يا زهرتي الصغيرة؟ نحن نتجنب الحزن في هذا البيت. تذكرني، نحن من عالم الصفصاف، لا نحتاج أبدًا إلى الحزن يا صغيرة، فما الفائدة من ذلك؟ الحزن

لا يرضي أبدًا. واجبنا هو أن نرضي الآخرين وأن نكون مبتهجين. اركضي يا صغيرة ولكن بلطف، بلطف، كوني رشيقة».

استدارت كيكو وأظهرت نفسها للمرأة الأكبر سنًا وابتسامتها مشرقة: «هل يرضيك هذا يا سيدة سان؟».

نظر إليها بلاكتورن وتمتم: «هلويا».

قالت ماريكو برسمية وهي مبتهجة برد فعل بلاكتورن: «هذه هي كيكو سان».

دخلت الفتاة إلى الغرفة مع صوت احتكاك الحرير وجثت وانحنى وقالت شيئًا لم يفهمه بلاكتورن.

- إنها تقول إنك مرحب بك، وإنك تشرف هذا البيت.
قال: «شكرًا».

قالت كيكو: «على الرحب. عل تريد بعض الساكي يا أنجين سان؟».

- نعم، شكرًا.

راقب يديها المثاليتين وهي تجد القارورة دون تردد، وتتحقق من درجة حرارتها، ثم تصبها في الكأس التي رفعها نحوها كما علمته ماريكو، برشاقة أكثر مما كان يعتقد أنه ممكن.

- أتعديني بأنك ستتصرف كاليابانيين حقًا؟

سألت ماريكو بينما كانا يغادران القلعة، وهي تمتطي المحفة وهو يسير بجانبها، على الطريق الذي يتجه نحو القرية والساحة التي تطل على البحر. تقدم حملة المشاعل أمامهم وخلفهم. وكان يرافقهم عشرة من الساموراي كحرس شرف.

قال بلاكتورن: «سأحاول، نعم. ماذا يجب أن أفعل؟».

- أول شيء يجب أن تفعله هو أن تنسى ما عليك فعله وتتذكر أن هذه الليلة هي فقط من أجل متعتك.

كان يفكر: هذا اليوم كان أفضل يوم في حياتي. والليلة... ماذا عن الليلة؟ كان متحمسًا للتحدي وعازمًا على محاولة أن يكون يابانيًا، أن يستمتع بكل شيء وألا يشعر بالإحراج.

سأل: «ما... ما تكلفة الأمسية؟».

نهرته: «هذا غير ياباني تمامًا يا أنجين سان. ما علاقة ذلك بأي شيء؟ وافقت فوجيكو سان على أن الاتفاق كان مرضيًا».

كان قد رأى فوجيكو قبل مغادرته. زارها الطبيب وغيّر الضمادات وقدم لها الأدوية العشبية. كانت فخورة بالتكريمات والإقطاع الجديد وكانت تثرثر بسعادة دون أن تظهر أي ألم، وكانت سعيدة لأنه ذهب إلى بيت الشاي، بالطبع كانت ماريكو سان قد استشارتها ورُتّب كل شيء، كم كانت ماريكو سان جيدة! كانت آسفة لأنها أصيبت بالحروق ولم تتمكن من إجراء الاتفاق بنفسها. لمس يد فوجيكو قبل مغادرته، معجبًا بها. شكرته واعتذرت مجددًا وتمنت له أمسية رائعة.

كانت جيوكو والخادمت في انتظارهما رسميًا عند بوابة بيت الشاي لاستقبالهما.

- هذه جيوكو سان، هي الماما سان هنا.

- إنه لشرف لي يا أنجين سان، شرف كبير.

- ماما سان؟ تقصدين ماما؟ والدة؟ إنها نفس الكلمة بالإنجليزية يا ماريكو سان. ماما، مامي، أمي.

- حقًا! إنها تقريبًا نفسها، لكن معذرة. إن «ماما سان» تعني فقط «زوجة الأب» أو «أم بالتبني» يا أنجين سان. الأم هي «هاها سان» أو «أوبا سان».

استأذنت جيوكو بعد لحظة وسارعت بالابتعاد. ابتسم بلاكثورن لماريكو. كانت تبدو كطفلة تتأمل في كل شيء. قالت «يا أنجين سان، لطالما رغبتُ في رؤية هذه الأماكن من الداخل. الرجال محظوظون جدًا، أليس جميلًا؟ أليس رائعًا، حتى في قرية صغيرة؟ لا بد أن جيوكو سان قد جدته بالكامل على يد حرفيين ماهرين. انظر إلى جودة الأخشاب و... أوه، كم أنت لطيف جدًا لتسمح لي بأن أكون معك. لن تسنح لي فرصة أخرى... انظر إلى الزهور... يا لها من مزهرية رائعة... انظر إلى الحديقة...».

كان بلاكثورن غاية في السرور والأسف في آن واحد لوجود خادمة في الغرفة ولأن باب الشوجي مفتوح، لأنه حتى هنا في بيت الشاي كان من غير اللائق ومن المهلك أن تكون ماريكو وحدها معه في غرفة.

قال باللاتينية: «أنت جميلة».

كان وجهها مبتهجًا: «وأنت أيضًا. أنا فخورة جدًا بك يا أميرال السفن. وفوجيكو... كانت فخورة جدًا لدرجة أنها بالكاد استطاعت أن تبقى ساكنة».

- بدت حروقها سيئة.

- لا تخف. الأطباء متمرسون جيدًا وهي شابة وقوية وواثقة. الليلة أخرج كل همومك من ذهنك. لا مزيد من الأسئلة عن إيشيدو أو إيكوا جيكو أو المعارك أو كلمات السر أو الإقطاعات أو السفن. الليلة لا هموم... الليلة فقط أشياء سحرية لك.

- أنت سحرية لي.

ررفت بمروحتها وصبّت النبيذ ولم تقل شيئًا. راقبها ثم ابتسما معًا. قالت: «لأن الآخرين هنا والألسنة تتكلم، يجب علينا أن نكون حذرين. ولكن، أنا سعيدة جدًا من أجلك».

- وأنت. ما السبب الآخر؟ قلت إنه يوجد سبب آخر يجعلك تريدني أن أوجد هنا الليلة؟

انتشر العطر الثقيل نفسه حوله: «نعم، السبب الآخر. إنها عادة قديمة لدينا يا أنجين سان. عندما تهتم سيدة تنتمي إلى شخص آخر برجل آخر، وترغب في أن تعطيه شيئًا ذا قيمة يُحظر إعطاؤه، فإنها ستنظم لأخرى بأن تحل محلها -هدية- أفضل محظية تستطيع أن تقدمها».

- قلت «عندما تهتم سيدة بشخص آخر». هل تعنين «الحب»؟

- نعم. ولكن فقط لهذه الليلة.

- أنت.

- أنت يا أنجين سان.

- لماذا الليلة يا ماريكو سان، لماذا ليس قبل ذلك؟

- الليلة هي ليلة سحرية والكامي يسير معنا. أنا أرغب فيك.

ثم ظهرت كيكو عند الباب. «هللويا» استقبلته وقدمت له الساكي.

- كيف أقول إن السيدة جميلة على نحو استثنائي؟

أخبرته ماريكو فكرر الكلمات. ضحكت الفتاة بفرح وقبلت الإطراء وبادلته.

- كيكو سان تسأل إذا كنت تود منها أن تغني أو ترقص من أجلك.

- ما الذي تفضليته؟

- هذه السيدة هنا من أجل متعتك يا ساموراي، وليس من أجلي.

- ماذا عنك؟ هل أنت هنا أيضًا من أجل متعتي؟

- نعم، بطريقة ما... بطريقة خاصة جدًا.

- إذن رجاءً اطلبني منها أن تغني.

صَفَّقَت كيكو برفق وأحضرت آكو الساميسن. كان طويلًا يشبه الجيتار إلى حد ما وثلاثي الأوتار. وضعت آكو الآلة في مكانها على الأرض وسلمت الريشة العاجية لكيكو.

قالت كيكو: «سيدة تودا، رجاءً أخبري ضيفنا الموقر أنني سأغني أولاً أغنية اليعسوب».

- كيكو سان، سأكون ممتنة إذا ناديتني اليوم هنا بماريكو سان.

- أنت لطيفة جدًا تجاهي يا سيدتي. أرجو أن تعذريني. لا أستطيع أن أكون غير مهذبة.

- رجاءً.

- سأفعل إذا كان يرضيك، رغم...

كانت ابتسامتها رائعة وهي تضيف: «شكرًا لك يا ماريكو ساما».

عزفت وترًا. كانت جميع حواسها مركزة منذ لحظة دخول الضيوف عبر البوابة إلى عالمها. كانت تراقبهما سرًا في أثناء وجودهما مع جيوكو سان وعندما كانا بمفردهما، باحثة عن أي دليل يوجهها لكيفية إرضائه أو إبهار السيدة تودا.

لم تكن مستعدة لما اتضح لها: يبدو أن أنجين سان يرغب في السيدة تودا، رغم أنه كان يخفي ذلك بأفضل ما يمكن لأي شخص متحضر أن يفعل. لم يكن هذا في حد ذاته مفاجئًا لأن السيدة تودا كانت غاية في الجمال والبراعة، والأهم من ذلك أنها كانت وحدها القادرة على التحدث معه. ولكن ما أدهشها هو أنها كانت متأكدة أن السيدة تودا ترغب فيه بالقدر نفسه، إن لم يكن أكثر.

الساموراي الهمجي والسيدة الساموراي، الابنة النبيلة للقاتل أكيوشي جينساي، زوجة الزعيم بونتارو. يا للرجل المسكين والمرأة المسكينة. كم هو أمر محزن. من المؤكد أن هذا سينتهي بمأساة.

شعرت كيكو بأنها على وشك البكاء وهي تفكر في حزن الحياة وعدم عدالة الأمور. أوه، كم أتمنى لو كنت ولدت ساموراي وليست فلاحا حتى أتمكن من أن أكون حتى خلية لأومي ساما، وليس مجرد لعبة مؤقتة. سأكون سعيدة أن أضحي بألمي في الولادة من جديد مقابل ذلك.

ضعي الحزن جانبا. قدمي المتعة، هذا هو واجبك.

عزفت أصابعها على وتر آخر، وتر مليء بالحزن. ثم لاحظت أن ماريكو كانت مفتونة بموسيقاها بينما لم يكن أنجين سان كذلك.

لماذا؟ علمت كيكو أن السبب لم يكن عزفها، لأنها كانت متأكدة أن الأداء كان تقريبا مثاليا. مهارة مثل مهارتها تُمنح لقلة قليلة.

عزفت وترًا ثالثًا أجمل كتجربة. قالت لنفسها على عجل: لا شك في ذلك، إنه لا يرضيه. سمحت للوتر بالتوقف وبدأت بالغناء دون مرافق، وصوتها يرتفع مع التغيرات المفاجئة في الإيقاع التي استغرق إتقانها سنوات. كانت ماريكو منبهرة مجدداً، لكنه لم يكن منبهراً، لذا توقفت كيكو في الحال وأعلنت: «الليلة ليست للموسيقى أو الغناء. الليلة للسعادة. ماريكو سان، كيف أقول «رجاء اعذرني» بلغته؟».

- Per favor.

- Per favor يا أنجين سان، الليلة يجب علينا أن نضحك فقط، حسناً؟

- شكراً يا كيكو سان. نعم.

- من الصعب الترفيه دون استخدام الكلمات، لكنه ليس مستحيلاً، أليس كذلك؟ أعلم!

قفزت وبدأت بأداء تمثيلات صامتة كوميدية مقلدة الدايميو والحمال والصياد والبائع المتجول والساموراي المتفاخر، وحتى مزارع قديم يجمع دلوًا مملوءًا. أدت كل هذه الأدوار بإتقان ومرح لدرجة أن ماريكو وبلاكثورن سرعان ما ضحكا وصفقا. ثم رفعت يدها. وبحركات ماكرا بدأت تحاكي رجلاً يتبول، ممسكاً بنفسه أو يخطأ في الإمساك، باحثاً عن الأمور التافهة أو مثقلاً بأمور لا تصدق، عبر جميع مراحل حياته، بدءاً من طفل صغير يبيل

فراشه ويصيح، إلى شاب في عجلة من أمره، إلى آخر مضطر إلى الإمساك عن التبول، وآخر بحجم كبير، وآخر بحجم صغير يصل إلى حد «أين اختفى؟»، وفي النهاية إلى رجل مسن جدًا يئن في نشوة من قدرته على التبول.

انحنيت كيكو لتصفيقهما وشربت الشاي، ومسحت العرق عن جبينها. لاحظت أنه كان يحني كتفيه وظهره.

- رجاءً اعذرني يا سيدي.

جثت خلفه وبدأت في تدليك عنقه.

أصابعها الخبيرة عثرت في الحال على نقاط المتعة. قال: «يا إلهي، هذه... نعم... هناك».

فعلت ما طلب منها وقالت: «سيتحسن عنقك قريبًا. الكثير من الجلوس يا أنجين سان».

- هذا جيد جدًا يا كيكو سان. يكاد يجعل سوو يبدو سيئًا.

- شكرًا لك. يا ماريكو سان، أكتاف أنجين سان عريضة للغاية، هلا ساعدتني؟ فقط الكتف اليسرى بينما أعتني باليمنى؟ آسفة لكن يديّ ليستا قويتين بما يكفي.

سمحت ماريكو لنفسها بأن تُقنع وفعلت ما طلب منها. أخفت كيكو ابتسامتها وهي تشعر بتوتره تحت أنامل ماريكو، وكانت سعيدة بارتجالها. الآن كان العميل مستمتعًا من خلال فنها ومعرفتها، ويوجه كما ينبغي.

- هل هذا أفضل يا أنجين سان؟

- جيد، جيد جدًا، شكرًا.

- على الرحب والسعة. إنه من دواعي سروري. لكن السيدة تودا أكثر براعة مني.

شعرت كيكو بالانجذاب بينهما رغم محاولتهما إخفاءه. قالت وحضر بعدها الطعام على الفور: «ربما بعض الطعام الآن؟».

وأضافت حينها بفخر: «لك يا أنجين سان».

كان الطبق يحتوي على طائر تدرج صغير مُقطع إلى قطع صغيرة ومشوي على الفحم مع صلصة الصويا الحلوة. قدمته له.

قال وكان بالفعل كذلك: «إنه لذيذ، جدًا».

- ماريكو سان؟

- شكرًا.

أخذت ماريكو قطعة رمزية لكنها لم تأكلها.

أخذت كيكو قطعة بشوكتها ومضغتها بتلذذ وقالت: «إنه جيد، أليس كذلك؟».

- لا يا كيكو سان، إنه جيد جدًا. جيد جدًا.

أخذت قطعة ثانية وقالت: «رجاءً يا أنجين سان، تناول المزيد. يوجد الكثير».

أشار إلى الصلصة البنية السمكية: «شكرًا لك. رجاءً. كيف... كيف هذه؟». ترجمت ماريكو لها: «تقول كيكو إنها من السكر والصويا مع القليل من الزنجبيل. وتساءل إن كان لديكم السكر والصويا في بلدك؟».

- السكر في البنجر، نعم، لكن الصويا لا يا كيكو سان.

- كيف يمكن للمرء أن يعيش دون الصويا؟ (أصبحت كيكو جدية):

رجاءً أخبرني أنجين سان أن السكر موجود لدينا هنا منذ ألف سنة. جلبه الراهب البوذي جانجين لنا من الصين. جاءت كل أفضل الأشياء لدينا من الصين يا أنجين سان. جاء إلينا الشاي قبل نحو خمسمائة عام. أحضر الراهب البوذي إيساي بعض البذور وزرعها في مقاطعة تشيكوزن، حيث وُلدت. كما جلب لنا أيضًا البوذية الزن.

ترجمت ماريكو بنفس الجدية، ثم أطلقت كيكو ضحكة وقالت: «آسفة يا ماريكو ساما، لكنكما بدوتما غاية في الجدية. كنت فقط أظهار بالجدية بشأن الشاي، كما لو كان مهمًا. ذلك فقط لتسليتكما».

راقبا بلاكتورن وهو ينهي الطائر. قال: «جيد، جيد جدًا. رجاءً اشكري جيوكو سان».

- ستتشرف بذلك.

سكبت كيكو المزيد من الساكي لكليهما. ثم قالت ببراءة بعدما أدركت أن الوقت قد حان: «هل لي أن أسأل عما حدث اليوم في الزلزال؟ سمعت أن أنجين سان أنقذ حياة الزعيم توراناغا؟ سأعتبره شرفًا لي أن أعرف من المصدر الأصلي».

جلست بصبر مما أتاح لبلاكثورن وماريكو الاستمتاع بسرد القصة، مضيفة «أوه» أو «ماذا حدث بعد ذلك؟» أو تسكب الساكي دون أن تقاطع لتكون مستمعة مثالية.

وعندما انتهيا، أعربت كيكو عن دهشتها لشجاعتها ولحظ توراناها الجيد. تحدثوا لبعض الوقت، ثم نهض بلاكثورن وأمرت الخادمة بإرشاده للطريق.

كسرت ماريكو الصمت: «لم تأكلي اللحم من قبل يا كيكو سان، أليس كذلك؟».

- من واجبي أن أفعل كل ما بوسعي لإرضائه، ولو لفترة قصيرة، أليس كذلك؟

- لم أعلم قط كيف يمكن أن تكون السيدة مثالية. أفهم الآن لماذا يجب أن يوجد عالم عائم -عالم الصفصاف- وكيف أن الرجال محظوظون، وكيف أنني غير كافية.

- لم يكن ذلك هدفي قط، قط يا ماريكو ساما. وليس غايتنا. نحن هنا فقط للإرضاء، للحظة عابرة.

- نعم. كنت أعني فقط أنني معجبة بك كثيرًا. أود أن تكوني أختي.

انحنت كيكو: «لن أكون جديرة بهذا الشرف». كان بينهما دفء: «هذا مكان سري جدًا والجميع هنا يمكن الوثوق به، لا توجد أعين متطفلة. غرفة المتعة في الحديقة مظلمة جدًا إذا أراد المرء أن تكون مظلمة. والظلام يحفظ كل الأسرار».

قالت ماريكو بخفة وهي بحاجة إلى وقت لتقرر: «الطريقة الوحيدة لحفظ سر هي أن تكوني وحدك وتهمسين به في بئر فارغة عند الظهيرة، أليس كذلك؟».

- لا حاجة للأبار بين الأخوات. لقد صرفت خادمتي حتى الفجر. غرفة المتعة مكان خاص جدًا.

- يجب أن تكوني وحدك معه هناك.

- يمكنني أن أكون وحدي دائمًا، دائمًا.

- أنت لطيفة جدًا معي يا كيكو تشان، مراعية جدًا.

- إنها ليلة سحرية، أليس كذلك؟ ومميزة جدًا.
- الليالي السحرية تنتهي سريعًا يا أختي الصغرى. الليالي السحرية للأطفال، أليس كذلك؟ أنا لست طفلة.
- من يدري ما يحدث في الليلة السحرية؟ الظلام يحتوي كل شيء.
- هزت ماريكو رأسها بحزن ولمستها بلطف: «نعم. ولكن بالنسبة له، إذا احتواكِ أنتِ، سيكون ذلك كل شيء».
- تركت كيكو الأمر وشأنه. ثم قالت: «أنا هدية للأنجين سان؟ لم يطلبني هو بنفسه؟».
- إذا كان قد رآك، فكيف يمكنه ألا يطلبك؟ بصدق، إنه لشرف له أن ترحبي به. أفهم ذلك الآن.
- لكنه رأي مرة يا ماريكو سان. كنت مع أومي سان عندما مر في طريقه إلى السفينة للذهاب إلى أوساكا لأول مرة.
- لكن أنجين سان قال إنه رأى ميدوري سان مع أومي سان. كانت أنتِ؟ بجانب الهودج؟
- نعم، في الساحة. نعم، كنت أنا يا ماريكو سان، وليست السيدة زوجة أومي ساما. قال «مرحبًا» لي. ولكنه بالطبع لن يتذكر. كيف يمكنه أن يتذكر؟ كان ذلك في حياته السابقة، أليس كذلك؟
- لكنه تذكرها... الفتاة الجميلة مع المظلة الخضراء. قال إنها أجمل فتاة رآها في حياته. أخبرني عنها عدة مرات.
- دققت ماريكو في ملامحها من كُتب وأضافت: «نعم يا كيكو سان، يمكن بسهولة أن يخلط المرء بينك وبينها في مثل ذاك يوم، وتحت مظلة».
- سكبت كيكو الساكي وكانت ماريكو مفتونة بأناقته التلقائية. قالت بسعادة لأنه تذكرها: «كانت مظلتي ماثلة إلى الزرقة».
- كيف بدا أنجين سان آنذاك؟ مختلف جدًا؟ لا بد أن ليلة الصرخات كانت مروعة.
- نعم، نعم كانت كذلك. وكان أكبر سنًا آنذاك، ببشرة وجه مشدودة... لكننا أصبح جديين جدًا يا أختي الكبرى. لا تعلمين كم يشرفني أن

يُسمح لي بمناداتك بهذا الاسم. الليلة هي ليلة متعة فقط. لا مزيد من الجدية، حسنًا؟

- نعم. أوافقك الرأي. أرجو أن تسامحيني.
- الآن لنتطرق إلى أمور أكثر عملية، هلا أعطيتني بعض النصائح رجاء؟
- قالت ماريكو بود: «أي شيء».

- بخصوص مسألة الجماع، هل يفضل الناس في بلاده أي أدوات أو أوضاع أنتِ على دراية بها؟ أعذر عن السؤال، لكن ربما يمكنك توجيهي.

تطلب الأمر كل تدريب ماريكو لتبقى غير خجلة وقالت: «لا، ليس بقدر ما أعلم. إن أنجين سان حساس جدًا بشأن أي شيء يتعلق بالجماع».

- هل يمكن أن يُسأل بطريقة غير مباشرة؟
- لا أعتقد أنه يمكنك أن تسألي شخصًا أجنبيًا بذلك الشكل. بالتأكيد ليس أنجين سان. و... معذرة، لا أعلم ما هي الأدوات... بالطبع باستثناء الهاريجاتا.

حدس كيكو أرشدها مجددًا وسألتهاببرة: «هل تودين رؤيتها؟ يمكنني أن أريك إياها كلها، ربما بحضوره هنا، وبالتالي لا داعي لسؤاله مباشرة. يمكننا أن نرى من رد فعله».

ترددت ماريكو، إذ طغى فضولها على حكمها وقالت: «إذا كان من الممكن القيام بذلك بروح الدعابة...».

سمعا بلاكثورن يقترب. رحبت كيكو بعودته وسكبت النبيذ. ارتشفت ماريكو كأسها وهي سعيدة لأنها لم تعد بمفردها، وكانت متأكدة بقلق من أن كيكو تستطيع قراءة أفكارها.

تجاذبوا أطراف الحديث ولعبوا ألعابًا سخيفة ثم عندما رأت كيكو أن الوقت مناسب، سألتهما عما إذا كانا يرغبان في رؤية الحديقة وغرف المتعة. خرجوا إلى الليل. كانت الحديقة تتلألأ تحت أضواء المشاعل حيث ما زالت قطرات المطر عالقة. كان الممر يتعرج بجانب بركة صغيرة وشلال مائي متدفق. كان يوجد المنزل الصغير المنعزل في نهاية الممر في وسط بستان الخيزران. كان المنزل مرتفعًا عن الأرض المشذبة وله أربع درجات تؤدي إلى

الشرفة المحيطة به. كان كل شيء في هذا المسكن المكون من غرفتين ينبض بالذوق الرفيع والفخامة. أفضل أنواع الخشب وأفضل النجارة وأفضل حصير التاتامي وأفضل الوسائد الحريرية، وأكثر الستائر أناقة في حُجر الاستقبال التوكونوما.

قالت ماريكو: «إنه جميل للغاية يا كيكو سان».

- بيت الشاي في ميشيما أجمل بكثير يا ماريكو سان. رجاء كن على راحتك يا أنجين سان. هل يرضيك هذا يا أنجين سان؟
- نعم، للغاية.

لاحظت كيكو أنه ما زال مرتبكًا بسبب الليل والساكي، لكنه واعيًا تمامًا لماريكو. كانت ميالة جدًا إلى النهوض ودخول الغرفة الداخلية حيث أفرشة الفوتون مقلوبة، ثم العودة إلى الشرفة والمغادرة. لكنها كانت تعلم أنها إذا فعلت ذلك، ستكون قد خالفت القانون. بالإضافة إلى أنها شعرت بأن مثل هذا التصرف سيكون تصرفًا غير مسؤول، لأنها كانت تعلم في قرارة نفسها أن ماريكو مستعدة وعلى وشك أن تصبح غير مبالية تمامًا.

فكرت: كلا، يجب ألا أدفعها إلى مثل هذا الطيش المأسوي، حتى وإن كان ذلك قد يكون ذا قيمة لمستقبلي. لقد عرضتُ عليها لكن أصرت ماريكو سان على الرفض. بحكمة. هل هما عاشقان؟ لا أعلم. هذه هي الكارما الخاصة بهما.

انحنى إلى الأمام وضحكت بتأمر: «اسمعي يا أختي الكبرى، رجاء أخبري أنجين سان أن لدينا بعض الأدوات الخاصة بالجماع هنا. هل لديه مثلها في بلاده؟».

- يقول لا يا كيكو سان. معذرةً لكنه لم يسمع بها من قبل.
- حقًا! هل يسره أن يراها؟ إنها في الغرفة التالية، يمكنني إحضارها... إنها مثيرة للغاية.

- هل تود أن تراها يا أنجين سان؟ تقول إنها ممتعة جدًا.
غيرت ماريكو الكلمة عمدًا.

أجاب بلاكتورن: «لم لا؟».

- شعر بانقباض حلقة، وكيانه كله مشحوناً بوعي لعطرهما وأنوثتهما. سأل: «هل... هل تستخدمون أدوات للجماع؟».
- تقول كيكو سان أحياناً يا أنجين سان. تقول -وهذا صحيح- إنه من عادتنا دائماً أن نحاول إطالة لحظة «السحب والمطر» لأننا نعتقد أن تلك اللحظة القصيرة تجعلنا نحن البشر واحداً مع الآلهة. (راقبته ماريكو): لذا من المهم جعلها تدوم لأطول وقت ممكن، حسناً؟ كأنه واجب.
- نعم.
- نعم. تقول: أن تكون واحداً مع الآلهة هو أمر أساسي للغاية. إنه اعتقاد جيد وممكن جداً، ألا تعتقد؟ شعور العاصفة روحي وإلهي، أليس كذلك؟ لذا فإن أي وسيلة للبقاء واحداً مع الآلهة لأطول وقت ممكن هي واجبنا، أليس كذلك؟
- جداً، بلى.
- هل تريد الساكي يا أنجين سان؟
- شكراً لك.
- أخذت تهوئي نفسها بالمروحة وقالت: «هذا الأمر الذي يخص العاصفة والسحب والمطر أو النار والسيول، كما نطلق عليه أحياناً، هو شيء ياباني للغاية يا أنجين سان. من المهم جداً أن تكون يابانياً في أمور الجماع، أليس كذلك؟».
- شعرت بالارتياح عندما ابتسم وانحني لها كأنه أحد رجال البلاط وقال: «نعم. جداً. أنا ياباني يا ماريكو سان. حقاً».
- عادت كيكو ومعها صندوق مبطن بالحريز. فتحت وأخرجت أداة مصنوعة من العاج، وأخرى مصنوعة من مادة أكثر ليونة ومرونة لم يرها بلاكثورن من قبل. وضعتها جانباً بإهمال.
- قالت ماريكو بلا مبالاة وعيناها ملتصقتان بالأشياء الأخرى: «هذه بالطبع أدوات هاريجاتا عادية يا أنجين سان».
- قال بلاكثورن وهو لا يعلم ما يقوله غير ذلك: «هل هذا حقيقي؟ يا إلهي».
- لكنها مجرد أدوات هاريجاتا عادية يا أنجين سان. بالتأكيد لدى نساءكم مثلاً.
- أضاف محاولاً تذكر الدعابة: «بالطبع لا، لا، ليس لديهن».

لم تصدق ماريكو ذلك. شرحت لكيكو التي بدت مدهوشة أيضًا. تحدثت
كيكو مطولاً ووافقت ماريكو.

- تقول كيكو سان أن هذا غريب جدًا. يجب أن أوافقها الرأي يا أنجين
سان. تقريبًا كل فتاة هنا تستخدم واحدًا للترويح العادي دون تردد.
وإلا فكيف يمكن للفتاة أن تحافظ على صحتها عندما تكون مقيدة في
مكان لا يستطيع الرجل أن يكون فيه؟ هل أنت متأكد يا أنجين سان؟
أنت لا تمازحنا؟

- لا... أنا، أعني، أنا متأكد أن نساءنا لا يمتلكنه. سيكون ذلك... يا إلهي،
ذلك... حسنًا، لا، نحن... هن لا يمتلكنه.

- لا بد أن الحياة صعبة جدًا دونه. أنجين سان، لقد وعدت، أتتذكر؟ روح
الدعابة.

ابتسم بلاكثورن وقال: «أنت محقة. يا إلهي، أنت محقة. اعذريني».

- هل سبق لك أن استخدمتها يا ماريكو سان؟

- لا يا أنجين سان، لم أرها من قبل. هذه... الزوجات لسن للمتعة بل
لإنجاب الأطفال والعناية بالمنزل.

- ألا يتوقعن الزوجات الحصول على المتعة؟

- لا. هذا ليس شائعًا. المتعة للنساء في عالم الصفصاف.

قالت ماريكو وهي تحرك مروحتها ثم شرحت لكيكو ما قيل: «تقول
بالتأكيد الأمر هو نفسه في عالمكم؟ إن واجب الرجل هو إرضاء المرأة كما
هو واجبها إرضاءه».

- رجاء أخبريها: آسف ولكنه ليس نفسه، بل هو العكس تمامًا.

- تقول إن هذا أمر سيئ للغاية. هل تريد الساكي؟

- رجاء أخبريها أننا تعلمنا أن نخجل من أجسادنا ومن الجماع ومن
العري و... وكل هذه الأمور السخيفة. وجودي هنا فقط هو ما جعلني
أدرك ذلك. الآن، أصبحت أعرف أفضل الآن بعد أن أصبحت أكثر تمدنًا.

ترجمت ماريكو. أفرغ هو كوبه. وأعادت كيكو ملاءه على الفور، حيث
انحنى وأمسكت بكمها الطويل بيدها اليسرى حتى لا يلمس الطاولة
المنخفضة المطلية في أثناء صبها بيدها اليمنى.

- شكرًا لك.

- على الرحب والسعة يا أنجين سان.

- تقول كيكو سان إنه يجب أن نتشرف جميعًا لأنك تقول مثل هذه الأشياء. وأنا أوافقها الرأي يا أنجين سان. لقد جعلتني أشعر بفخر كبير. لقد كنتُ فخورة بك جدًا اليوم. ولكن بالتأكيد الأمر ليس بالسوء الذي تصفه.

- إنه أسوأ. من الصعب فهمه، ناهيك بشرحه، إذا لم تكن قد عشتِ أو تربيتِ هناك. في الحقيقة...

رأى بلاكتورن المرأتين تراقبانه، تنتظران بصبر، ترتديان ثيابًا متعددة الألوان، جميلتان جدًا ونظيفتان، الغرفة فارغة ومُنظمة وهادئة. فجأة بدأ ذهنه يقارن ذلك مع الرائحة الدافئة والودية التي كانت تنبعث من منزله الإنجليزي، الأعشاب على الأرض، والدخان المنبعث من النار المكشوفة من الطوب إلى فتحة السقف... يوجد ثلاث فقط من المدافئ الجديدة مع مداخن في قريته بأكملها، وتلك فقط للأثرياء جدًا. غرفتان صغيرتان للنوم ثم الغرفة الكبيرة غير المرتبة في الكوخ للأكل والمعيشة والطبخ والحديث. تمشي في الكوخ بحذائك البحري صيفًا أو شتاءً، دون أن يلاحظ الوحل أو الروث، وتجلس على كرسي أو مقعد، طاولة البلوط مزدحمة مثل الغرفة، ثلاثة أو أربعة كلاب والطفلين -ابنه وابنة أخيه الميت آرثر- يتسلقون ويسقطون ويلعبون بفوضوية، فيليسييتي تطبخ، وفستانها الطويل يتدلى في الأعشاب والأوساخ، والخادمة تشمشم وتعيق طريقها، وماري -أرملة آرثر- تسعل في الغرفة المجاورة التي بناها لها، وهي تحتضر كالعادة، ولكنها لا تموت أبدًا.

فيليسييتي. عزيزتي فيليسييتي. استحمام مرة واحدة في الشهر ربما، ثم في الصيف بخصوصية شديدة في الحوض النحاسي، ولكن تغسل وجهها ويديها وقدميها كل يوم، دائمًا مخفية حتى العنق والمعصمين ومكسوة بطبقات من الصوف الثقيل طوال العام والتي لم تُغسل لأشهر أو سنوات، تنبعث منها رائحة مثل الجميع، ومصابة بالقمل مثل الجميع، ومصابة بالحكة مثل الجميع. وكل المعتقدات السخيفة الأخرى والخرافات، أن النظافة يمكن أن تقتل، أن النوافذ المفتوحة يمكن أن تقتل، أن الماء يمكن أن يقتل ويشجع على انتشار الزحار أو يجلب الطاعون، أن القمل والبراغيث والذباب والأوساخ والأمراض كانت عقوبات الرب على الخطايا على الأرض.

براغيث وذباب وأعشاب جديدة كل ربيع، ولكن نذهب كل يوم إلى الكنيسة ومرتين في أيام الأحد لسماع الكلمة وهي تُغرس فيك بقوة: لا شيء يهم، فقط الرب والخلاص.

مولود في الخطيئة، تعيش في العار، من نسل الشيطان، محكوم عليك بالجحيم، تصلي من أجل الخلاص والمغفرة، فيليسييتي ورعة جدًا وشديدة الخوف من الرب ورعب الشيطان، وتتوق للجنة. ثم العودة إلى المنزل لتناول الطعام. قطعة من اللحم من الشواية وإذا سقطت قطعة على الأرض تلتقطها وتزيل الأوساخ وتأكلها إن لم تلتقطها الكلاب أولاً، لكنك تُعطيهم العظام على أي حال. مسبوكات على الأرض. وفضلات مدفوعة على الأرض لتُجرف ربما أو تُلقى في الطريق ربما. تنام معظم الوقت في ملابسك النهارية وتحك مثل كلب سعيد، تحك طوال الوقت. كبير السن في شبابك وقبيح في شبابك وتموت في شبابك. فيليسييتي. الآن في التاسعة والعشرين عامًا، شاحبة لم يبقَ من أسنانها إلا القليل، عجوز ذات وجه متجدد وجافة.

صرخ غاضبًا: «قبل أوانها، امرأة مسكينة لعينة. يا إلهي، كم هو غير ضروري. يا لها من مضيعة لعينة».

قالت كلتا المرأتين في الوقت نفسه وتلاشت سعادتهما: «ما الخطب يا أنجين سان؟».

- أنا آسف... كانت فقط... أنتم جميعًا نظيفون ونحن قذرون وكل هذا مضيعة، ملايين لا تحصى، أنا أيضًا، طوال حياتي... وفقط لأننا لا نعرف كيف نتصرف. يا إلهي، يا لها من مضيعة. إنهم الكهنة... إنهم المتعلمون والمعلمون، الكهنة يمتلكون كل المدارس ويقومون بكل التعليم، دائمًا باسم الرب، القذارة باسم الرب... هذه هي الحقيقة.

قالت ماريكو بلهجة ملطفة متأثرة بألمه: «نعم، بالطبع، رجاء لا تشغل بالك الآن يا أنجين سان. هذا للغد...».

ارتسمت على وجه كيكو ابتسامة ولكنها كانت غاضبة من نفسها. قالت لنفسها: كان يجب أن تكوني أكثر حذرًا. غبية غبية غبية! لقد حذرتك ماريكو سان! الآن سمحت بتخريب الأمسية، والسحر ذهب ذهب ذهب.

في الحقيقة، لقد تلاشت الأجواء المشحونة شبه الملموسة التي لمست الجميع. فكر: ربما هذا للأفضل. على الأقل ماريكو وأنجين سان محميّين الليلة أخرى.

يا له من رجل مسكين، ويا لها من امرأة مسكينة. يا للحنن. راقبتهما يتحدثان ثم شعرت بتغيير في النبرة بينهما.
قالت ماريكو باللاتينية: «الآن يجب أن أتركك».
- دعينا نغادر معًا.

- أتوسل إليك أن تبقى. من أجل شرفك وشرفها. وشرفي يا أنجين سان.
قال: «لا أريد هديتك، أريدك أنت».
- أنا لك، صدقني يا أنجين سان. رجاءً ابق، أتوسل إليك، واعلم أنني الليلة لك.
لم يُصر على بقائها.

بعد أن ذهب استلقى ووضع ذراعيه تحت رأسه وحقق إلى النافذة نحو الليل. رذاذ المطر على البلاط، والريح تهب برقة من البحر.
كانت كيكو جاثية بلا حراك أمامه. وساقاها متصلبتان. كانت تود أن تستلقي بنفسها لكنها لم ترغب في تعكير مزاجه بأي حركة طفيفة. قالت لنفسها: أنت لست متعبة. ساقاك لا تؤلمانك. استمعي إلى المطر وفكري في أشياء جميلة. فكري في أومي سان وفي بيت الشاي في ميشيما، وأنت على قيد الحياة وأن زلزال الأمس كان مجرد زلزال آخر. فكري في توراناغا ساما والسعر الباهظ الذي تجرأت جيوكو سان على طلبه في البداية مقابل عقدك. كان العراف محقًا، إنه حظك الجيد أن تجعلها غنية أكثر مما تتخيل. وإذا صدق هذا الجزء، فلم لا يصدق البقية؟ أن تتزوجي يومًا من ساموراي تحترمينه وتنجبي منه ابنًا، وأن تعيشي وتموتي في سن متقدمة، وتصبحين جزءًا من منزله، غنية ومُكرّمة، وكمعجزة من المعجزات، سيكبر ابنك ليصل إلى نفس المكانة - ساموراي - مثلما سيفعل أبنائوه.

بدأت كيكو تتحمس وهي تتأمل مستقبلها الرائع والمذهل.
تمدد بلاكتورن بعد فترة في ترف، وقد استحوذ عليه إرهاق ممتع. رآها وابتسم.

- ما الخطب يا أنجين سان؟

هزّ رأسه برفق، ثم نهض وفتح باب الشوجي إلى الغرفة المجاورة. لم تكن هناك خادمة جاثية بجانب أفرشة الفوتون المغطاة بالشبك. كان هو وكيكو بمفردهما في المنزل الصغير الجميل.

دخل غرفة النوم وبدأ بنزع الكيمونو. أسرع لمساعدته. وخلع ملابسه بالكامل، ثم ارتدى كيمونو النوم الحريري الخفيف الذي أعطته له. فتحت الناموسية له واستلقى.

ثم غيّرت كيكو ملابسهما هي الأخرى. رأى كيف خلعت الحزام والكيمونو الخارجي والكيمونو الأصغر ذي الحواف القرمزية باللون الأخضر الفاتح، وأخيرًا التنورة الداخلية. ارتدت كيمونو النوم بلون الخوخ، ثم أزالَت الباروكة الرسمية المعقدة وأطلقت شعرها الطويل والناعم ذو اللون الأسود المزرق.

جثت خارج الشبكة وقالت: «معذرةً يا أنجين سان؟».

قال: «شكرًا».

همست: «شكرًا جزيلاً لك».

انزلقت تحت الشبكة واستلقت بجانبه. كانت الشموع ومصابيح الزيت تضيء بشدة. كان سعيدًا بوجود النور لأنها كانت جميلة للغاية.

اختفى احتياجه الملح رغم أن الشعور بالألم بقي. فكر: لا أرغب فيكِ يا كيكو تشان. حتى لو كنتِ ماريكو، لكان الأمر نفسه. رغم أنكِ أجمل امرأة رأيتها في حياتي، أجمل حتى من ميدوري سان، التي كنت أعتقد أنها أجمل من أي آلهة. لا أرغب فيكِ. ربما في وقت لاحق، لكن ليس الآن، آسف.

امتدت يدها ولمسته: «هل تسمح لي؟».

قال برفق هازًا رأسه: «لا».

أمسك بيدها، ثم وضع ذراعه تحت كتفها. فهمت في الحال وبطاعة اقتربت منه. امتزج عطرها برائحة الأغطية والفوتون. فكر: نظيف جدًا، كل شيء نظيف جدًا.

ماذا قال رودريجيز؟ «اليابان هي الجنة على الأرض يا إنجليزي، إذا علمت أين تبحث عنها» أو «هذه هي الجنة يا إنجليزي» لا أنكر. أعلم فقط أنها ليست هناك، عبر البحر، حيث ظننت أنها كانت. ليست هناك.

الجنة على الأرض هي هنا.

الفصل الحادي والأربعون

انطلق الرسول في الطريق في الظلام مسرعًا نحو القرية النائمة. كانت السماء مصطبغة بألوان الفجر، وقوارب الصيد الليلية التي تصطاد بالقرب من المياه الضحلة بدأت تعود إلى الميناء. كان قد قطع رحلته دون توقف من ميشيما عبر الممرات الجبلية والطرق الوعرة، مستعيرًا خيولًا جديدة أينما استطاع.

انطلق حصانه عبر شوارع القرية -وتراقبه أعين سرية الآن- عبر الساحة وعلى الطريق المؤدي إلى القاعة. كانت رايته تحمل شارة توراناغا ويعرف كلمة السر الحالية. ومع ذلك، تم إيقافه والتحقق من هويته أربع مرات قبل أن يُسمح له بالدخول ومقابلة ضابط الحراسة.

- رسائل عاجلة من ميشيما يا ناجا سان، من الزعيم هيرو ماتسو.

أخذ ناجا اللفافة وسارع بالدخول. توقف عند الشوجي شديد الحراسة وقال: «أبي؟».

- نعم؟

فتح ناجا الباب وانتظر. عاد سيف توراناغا إلى غمده، وأحضر أحد الحراس مصباحًا زيتيًا.

جلس توراناغا داخل الناموسية وفتح الختم. كان قد أمر هيرو ماتسو قبل أسبوعين بقيادة كتيبة من النخبة سرًا إلى ميشيما، وهي مدينة القلعة الواقعة على طريق توكايدو التي تحرس المدخل إلى الممر المؤدي عبر الجبال إلى مدينتي أتامى وأوداوارا على الساحل الشرقي لإيزو. كانت أتامى بوابة أوداوارا إلى الشمال، وأوداوارا هي مفتاح الدفاع عن الكانتو بأكملها.

كتب هيروماتسو: «سيدي، وصل أخوك غير الشقيق زاتاكي -زعيم شينانو- اليوم من أوساكا طالبًا طريقًا آمنًا لرؤيتك في أنجيرو. إنه يسافر رسميًا برفقة مئة من الساموراي والحاملين تحت شارة مجلس الوصاية

الجديد. يؤسفني أن أبلغك أن أخبار السيدة كيريتسوبو كانت صحيحة. زاتاكي أصبح خائناً ويجابهر بولائه لإيشيدو. لكن ما لم تكن تعرفه هو أن زاتاكي أصبح الآن وصياً بدلاً من الزعيم سوجياما. لقد أراني تعيينه الرسمي الموقع من قبل إيشيدو وكياما وأونوشي وإيتو. كان كل ما استطعت فعله هو كبح جماح رجالي أمام غطرسته واتباع أوامرك بترك أي رسول من إيشيدو يمر. أردت قتل اللعين بنفسه. كان يرافقه الكاهن الهمجي تسوكو سان الذي وصل بحرًا إلى ميناء نومازو قادمًا من ناجازاكي. طلب الإذن لزيارتك لذا أرسلته مع القافلة نفسها. أرسلت مائتين من رجالي لمرافقتهم. سيصلان في غضون يومين إلى أنجيرو. متى ستعود إلى إيدو؟ يقول الجواسيس أن جيكيو يحشد قواته سرًا وتأتي الأخبار من إيدو بأن العشائر الشمالية مستعدة للانضمام إلى إيشيدو الآن بعد أن أصبحت شينانو التابعة لزاتاكي تعاديك. أتوسل إليك أن تغادر أنجيرو في الحال، تراجع عبر البحر. دع زاتاكي يتبعك إلى إيدو حيث يمكننا التعامل معه بالطريقة المناسبة».

ضرب توراناغا قبضته بالأرض بشدة.

- ناجا سان، أحضر بونتارو سان ويابو سان وأومي سان إلى هنا في الحال.

وصلوا بسرعة. قرأ لهم توراناغا الرسالة وقال: «من الأفضل إلغاء جميع التدريبات. أرسلوا كتيبة البنادق وكل رجل إلى الجبال. لا نريد أي تسريبات أمنية الآن».

قال أومي: «أرجو أن تعذرني يا سيدي، لكن ربما ترغب في التفكير في اعتراض القافلة عبر الجبال. على سبيل المثال، في يوكوسي. ادعُ الزعيم زاتاكي» -اختار لقبه بعناية- «إلى الاستمتاع بمياه أحد المنتجعات القريبة، لكن اجعل اللقاء في يوكوسي. ثم يمكننا إعادته هو وجميع رجاله إلى الحدود بعد أن يوصل رسالته، أو القضاء عليهم، وفقًا لرغبتك».

- لا أعرف يوكوسي.

قال يابو بأهمية: «إنها جميلة، تقع تقريبًا في وسط إيزو يا سيدي، فوق الجبال في وادٍ ضيق. إنها بجانب نهر كانو. يتدفق نهر كانو شمالًا، وفي النهاية عبر ميشيما ونومازو حتى يصب في البحر، أليس كذلك؟ يوكوسي تقع عند تقاطع الطرق، تمتد الطرق من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب. نعم، يوكوسي ستكون مكانًا جيدًا للاجتماع يا سيدي. منتجع

شوزينجي قريب -ميايه ساخنة جدًا وجيدة- واحد من أفضل منتجاتنا. يجب أن تزوره يا سيدي. أعتقد أن أومي سان قدم اقتراحًا جيدًا».

- هل يمكننا الدفاع عنه بسهولة؟

أجاب أومي بسرعة: «نعم يا سيدي. يوجد جسر. الأرض تنحدر بشدة من الجبال. سيتعين على أي مهاجمين القتال عبر طريق متعرج. يمكن السيطرة على كلا الممرين بعدد قليل من الرجال. لن يمكن أن تقع في كمين. لدينا ما يكفي من الرجال لحمايتك وذبح عشرة أضعاف عددهم... إن لزم الأمر».

قال بونتارو بازدرء: «سندبحهم مهما حدث، حسنًا؟ لكن من الأفضل أن نفعل ذلك هناك وليس هنا. سيدي، رجاءً دعني أؤمن المكان. خمسمائة من الرماة، دون جنود البنادق. جميعهم فرسان. بالإضافة إلى الرجال الذين أرسلهم والدي، سيكون لدينا ما يكفي وأكثر».

تفحص توراناغا تاريخ الرسالة وقال: «متى سيصلون إلى مفترق الطرق؟».

نظر يابو إلى أومي للتأكد: «في وقت مبكر من هذه الليلة؟».

- نعم، وربما ليس حتى فجر الغد.

قال توراناغا: «غادر في الحال يا بونتارو سان. احتجزهم في يوكوسي لكن أبقيهم على الجانب الآخر من النهر. سأغادر عند الفجر مع مائة رجل آخرين. يجب أن نصل هناك بحلول الظهيرة. وأنت يا يابو سان، ستتولى مسؤولية كتيبة البنادق مؤقتًا وتحمي انسحابنا. ضعها في كمين على طريق هيكاو، على خط الأفق، حتى نتمكن من التراجع عبركم إذا لزم الأمر».

بدأ بونتارو في المغادرة لكنه توقف حينما قال يابو بتردد: «كيف يمكن أن تكون هناك خيانة يا سيدي؟ ليس لديهم سوى مائة رجل».

قال توراناغا: «أتوقع الخيانة. ما كان الزعيم زاتاكي ليضع رأسه بين يدي دون وجود خطة، فأنا بالطبع سأقتله إذا استطعت. فستكون لدينا فرصة أفضل للعبور عبر جباله إذا لم يُقد متعصبيه. لكن لماذا يخاطر بكل شيء؟ لماذا؟».

قال أومي بحذر: «هل يمكن أن يكون مستعدًا لأن يصبح حليفًا مجددًا؟». كانوا جميعًا يعلمون بالتنافس القديم الذي كان موجودًا بين الأخوين غير الشقيقين. تنافس ودي حتى الآن.

- لا، ليس هو. لم أثق به قط من قبل. هل يمكن لأي منكم الوثوق به الآن؟
هزوا رؤوسهم جميعاً.

قال يابو: «بالتأكيد لا يوجد ما يزعجك يا سيدي. الزعيم زاتاكي وصي، نعم، لكنه مجرد رسول، أليس كذلك؟».

أراد توراناجا أن يصرخ: أحق، ألا تفهم أي شيء؟ لكنه قال: «سنعلم قريباً. اذهب في الحال يا بونتارو سان».

- حسناً يا سيدي. سأختار مكان اللقاء بعناية، لكن لا تدعه يقترب أكثر من مسافة سبعة أمتار. كنت معه في كوريا، إنه سريع جداً بسيفه.

- نعم.

سارع بونتارو بالمغادرة. قال يابو: «ربما يمكن إغراء زاتاكي لخيانة إيشيدو... ربما جائزة ما؟ ما هو طعمه؟ إن جبال شينانو وعرة حتى دون قيادته».

قال توراناجا: «الطعم واضح، الكانتو. أليست هذه ما يريدها، لطالما أرادها؟ أليست هذه ما يريدها كل أعدائي؟ أليست هذه ما يريدها إيشيدو نفسه؟».

لم يجيبوه. لم تكن هناك حاجة لذلك.

قال توراناجا بجدية: «ليساعدنا بوذا. لقد انتهى سلام التايكو. وبدأت الحرب».

سمعتُ أننا بلاكثورن الحادثان ضجيجَ حوافر حصان قادمة وشعرت بالخطر. استيقظ من نومه في الحال، جاهزاً للهجوم أو التراجع وتأهبت كل حواسه. مرت الحوافر، ثم اتجهت على التل نحو القلعة، ثم اختفت مجدداً.

انتظر. لكنه لم يسمع صوت موكب يتبعه. فكر: ربما كان رسولاً وحيداً. من أين؟ هل بدأت الحرب بالفعل؟

كان الفجر وشيئاً. الآن استطاع بلاكثورن رؤية جزء صغير من السماء. كانت ملبدة بالغيوم ومحملة بالمطر، والهواء دافئاً يحمل رائحة البحر، يحرك الناموسية من حين لآخر. كان صوت طنين البعوض خافتاً في الخارج. كان

سعيدًا جدًا لأنه في الداخل، آمنًا للحظة. قال لنفسه: تمتع بالأمان والهدوء ما دامًا.

كانت كيكو نائمة بجانبه، ملتفة مثل قطة صغيرة. شعر بأن جمالها يزداد وهو يرى خصلات شعرها المبعثرة من النوم. استرخى بحذر مجددًا في نعومة الأغشية على أرضية التاتامي.

هذا أفضل بكثير من السرير. أفضل من أي سرير... يا إلهي، كم هو أفضل! لكن قريبًا سأعود على متن السفينة، أليس كذلك؟ قريبًا سأسيطر على السفينة السوداء وأستولي عليها، أليس كذلك؟ أعتقد أن توراناغا وافق، حتى لو لم يقل ذلك علانية. ألم يوافق على الطريقة اليابانية؟ «لا يمكن حل أي شيء في اليابان إلا بالطرق اليابانية». نعم، أعتقد أن هذه هي الحقيقة.

أردت أن أكون على دراية أكبر. ألم يخبر ماريكو بترجمة كل شيء وشرح مشكلاته السياسية لي؟

كنت أريد المال لشراء طاقمي الجديد. ألم يعطني ألفي كوكو؟ طلبت مائتين أو ثلاثمائة قرصان. ألم يعطني مائتي ساموراي بكل القوة والرتبة التي أحتاجها؟ هل سيطيعونني؟ بالطبع. لقد جعلني ساموراي وهاتاموتو. لذا سيطيعونني حتى الموت وسأجلبهم على متن إيراسموس، وسيصبحون فريق الهجوم الخاص بي وسأقود الهجوم.

كم أنا محظوظ جدًا! لدي كل ما أريده. باستثناء ماريكو. لكني أملكها أيضًا. أملك روحها السرية وحبها. وامتلكت جسدها الليلة الماضية، تلك الليلة السحرية التي لم تكن تحدث قط. لقد أحببنا دون أن نحب. هل هذا مختلف كثيرًا؟

لا يوجد حب بيني وبين كيكو، فقط رغبة ازدهرت. كانت رائعة بالنسبة لي. أمل أن تكون كذلك لها أيضًا. حاولت أن أكون يابانيًا تمامًا وأن أقوم بواجبي، لأرضيها كما أرضتني.

تذكر كيف استخدم خاتم اللذة. كان يشعر بعدم ارتياح وخجل شديدين، وقد أدار ظهره ليضعه وهو مرتعب من أن قوته ستختفي، لكنها لم تختف. ثم عادا ليتعانقا مجددًا بعدما وضعه في مكانه. ارتجف جسدها وشعر هو بشعور لم يشعر به من قبل.

بدأ يضحك بعدها عندما استطاع التنفس مجدداً، همست له قائلة: «لماذا تضحك؟». فأجابها: «لا أعلم، سوى أنك تجعليني سعيداً».

لم يسبق لي أن ضحكت في تلك اللحظة، قط. لقد جعل كل شيء مثالياً. لا أحب كيكو سان... أنا أقدرها. أنا أحب ماريكو سان دون تحفظ ومعجب بفوجيكو سان تماماً.

هل ستجتمع فوجيكو؟ لا. على الأقل، لا أعتقد أنني أستطيع.

أليس هذا واجب؟ إذا قبلت امتيازات الساموراي وطلبت من الآخرين معاملتك كلياً كساموراي بكل ما يعنيه ذلك، فعليك قبول المسؤوليات والواجبات، أليس كذلك؟ هذا عادل، أليس كذلك؟ ومن الشرف، أليس كذلك؟ من واجبك أن تمنح فوجيكو ابناً.

وفيليسييتي، ما رأيها في ذلك؟

وعندما تبحر بعيداً، ماذا عن فوجيكو سان، وماذا عن ماريكو سان؟ هل ستعود حقاً إلى هنا، تاركاً الفروسية والامتيازات الأعظم التي ستُمنح لك بالتأكيد، بشرط أن تعود محملاً بالكنوز؟ هل ستبحر إلى الخارج مجدداً في الأعماق المعادية، لتخترق رعب ممر ماجلان المتجمد، وتتحمل العواصف والبحر وداء الإسقربوط والتمرد لمدة ستمائة وثمانية وتسعين يوماً أخرى لتصل إلى اليابان مجدداً؟ لتعود إلى هذه الحياة؟ قرراً!

ثم تذكر ما قالته له ماريكو عن تقسيمات العقل: «كن يابانياً يا أنجين سان، يجب عليك ذلك لتنجو. افعل مثلنا، استسلم لإيقاع الكارما دون خجل. كن راضياً بالقوى التي لا تستطيع التحكم بها. ضع كل شيء في قسمه الخاص واستسلم للـ«وا»، انسجام الحياة. استسلم يا أنجين سان، الكارما هي الكارما، أليس كذلك؟».

بلى. سأقرر عندما يحين الوقت.

يجب أولاً أن أحصل على الطاقم. ثم أستولي على السفينة السوداء. ثم أبحر مسافة نصف العالم إلى إنجلترا. ثم أشتري وأجهز السفن الحربية. وبعدها سأقرر. الكارما هي الكارما.

تحركت كيكو قليلاً، ثم غاصت أعمق في الأغشية، متشبثة به أكثر. شعر بدفع جسدها من خلال الكيمونو الحريري الذي يرتديانه. وأحس بشعلة تنقد داخله.

تمتت وهي لا تزال نائمة: «أنجين تشان».

- نعم.

لم يوقظها. كان سعيدًا باحتضانها بين ذراعيه والراحة، مستمتعًا بالسكينة التي منحه إياها الاستسلام. ولكن قبل أن يخلد إلى النوم، شكر ماريكو لتعليمها له.

قالت جيوكو: «نعم يا أومي ساما، بالتأكيد. سأذهب في الحال لإحضار أنجين سان. أرجوك اعذرني. تعالي معي يا أكو».

أرسلت جيوكو أكو لتحضير الشاي، ثم أسرعَت إلى الحديقة وهي تتساءل عن الأخبار المهمة التي جلبها رسول الليل الذي وصل مسرعًا، فقد سمعت أيضًا حوافر الحصان. سألت نفسها: ولماذا يبدو أومي غريبًا اليوم؟ لماذا هو بارد وقاسٍ وخطِرٌ؟ ولماذا جاء بنفسه لمهمة تافهة كهذه؟ لماذا لم يرسل أي ساموراي؟

مَن يدري؟ إن أومي رجل. كيف يمكن فهمهم، خصوصًا الساموراي؟ ولكن يوجد شيء خاطئ، خاطئ جدًا. هل جلب الرسول إعلان حرب؟ أعتقد ذلك. إذا كانت حربًا فهي حرب، والحرب لم تؤدِّ أعمالنا من قبل. سيظل الدايميو والساموراي بحاجة إلى الترفيه، كالمعتاد - بل أكثر في وقت الحرب - وفي الحرب، يصبح المال أقل أهمية لهم أقل من أي وقت مضى. جيد، جيد، جيد.

ابتسمت جيوكو لنفسها. أتذكرين أيام الحرب منذ أكثر من أربعين سنة عندما كنت في السابعة عشرة وكنت نجمة ميشيما؟ أتذكرين كل الضحك والمجامعة والليالي الفخورة التي تحولت إلى أيام؟ أتذكرين عندما خدمت العجوز الأصلع نفسه، والد يابو، ذلك الرجل اللطيف الذي كان يغلي المجرمين مثلما يفعل ابنه من بعده؟ أتذكرين كيف عملتِ بجِد معه... على عكس ابنه! ضحكت جيوكو. لقد قضينا ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ معًا، ثم أصبح راعيًا لي لمدة عام كامل. كانت أوقاتًا رائعة، رجل رائع. كم كانت الأيام جميلة!

الحرب أو السلام، لا يهم. لا يوجد شيء يمكن فعله. لدي ما يكفي من المال مع المرابين وتجار الأرز، القليل هنا والقليل هناك. ويوجد مصنع الساكي في أوداوارا، وبيت الشاي في ميشيما يزدهر، واليوم سيشتري الزعيم توراناغا عقد كيكو.

نعم، تنتظرنا أوقاتٌ مثيرة للاهتمام، وكما كانت الليلة السابقة رائعة. لقد كانت كيكو متألفة، وكان انفعال أنجين سان محرّجًا. لكن كيكو تعافت ببراعة كأبي محظية في البلاد. وبعد ذلك، عندما غادرت السيدة تودا، جعلت كيكو كل شيء مثاليًا والليلة مليئة بالنعيم.

الرجال والنساء. كم هم متوقعون. خاصة الرجال.

دائمًا كالأطفال. متغطرسون وصعبو المراس ورهيبون وعنيفون وعنيدون وبغيضون... ونادرًا ما يكونون مُدهشين. لكنهم جميعًا يولدون بذلك الشيء الرائع الذي نسميه في مهنتنا: جذر اليشم أو رأس السلحفاة أو قمة اليانج أو العمود المتصاعد أو الصاروخ الذكوري أو ببساطة «قطعة اللحم».

كم هو مهين! لكن كم هو مناسب!

ضحكت جيوكو وسألت نفسها للمرة العشرة الآلاف: بحق الآلهة الأحياء والأموات ومن لم يولدوا بعد، ماذا كنا سنفعل في هذا العالم دون قطعة اللحم؟ ثم أسرعَت مجددًا بخطى عالية بما يكفي لتعلن حضورها. صعدت الدرجات المصقولة من خشب الأرز. وكان طرقها على الباب متمرسًا.

- أنجين سان... أنجين سان، أعذر بشدة ولكن الزعيم توراناغا قد استدعاك. أنت مأمور بالتوجه إلى القلعة حالًا.

- ماذا؟ ماذا قلت؟

كررت كلامها بلغة أبسط.

سمعته يقول بلهجته المضحكة: «آه! فهمت. حسنًا... أنا هناك سريعًا».

- أعذر، أرجو أن تعذرني. كيكو سان؟

- نعم يا ماما سان؟

فُتِحَ الباب في لحظة. ابتسمت كيكو لها، والكيمونو ملتحف حول جسدها وشعرها مرتبًا رغم فوضويته. تابعت: «صباح الخير يا ماما سان، هل راودتك أحلام سعيدة؟».

- نعم، نعم، شكرًا لك. أعذر لإزعاجك. هل ترغبين في شاي طازج يا كيكو تشان؟

- أوه!

اختفت ابتسامة كيكو. كانت هذه الجملة رمزًا تستخدمه جيوكو بحرية أمام أي ضيف لتخبر كيكو أن ضيفها الأكثر أهمية، أومي سان، كان في بيت الشاي. وبذلك يمكن لكيكو إنهاء قصتها أو أغنيتها أو رقصتها بسرعة والتوجه إلى أومي سان إذا أرادت. كانت كيكو نادرًا ما تشارك الفراش مع أحد، رغم أنها كانت ترفّه عن الكثيرين... إذا دفعوا الرسوم. لكن كانت قلة قليلة جدًا تستطيع تحمّل خدماتها كافّة.

سألت جيوكو بحدة: «ما الأمر؟».

- لا شيء يا ماما سان.

ثم نادى بمرح: «يا أنجين سان. معذرة، هل تود بعض الشاي؟».

- نعم، رجاءً.

قالت جيوكو: «سيكون هنا في الحال. آكو! أسرع يا فتاة».

- حسنًا يا سيدتي.

أحضرت آكو صينية الشاي وكوبين وصبت الشاي، ثم غادرت جيوكو مجددًا وهي تعتذر عن إزعاجه.

قدمت كيكو الكوب بنفسها لبلاكلثورن. شربه بنهم، ثم ساعدته في ارتداء ملابسه. وضعت آكو كيمونو جديدًا لها. كانت كيكو منتبهة جدًا ولكنها كانت مشغولة بالتفكير في أنها قريبًا ستضطر إلى مرافقة أنجين سان إلى البوابة لتودعه. كان ذلك من مكارم الأخلاق. بالإضافة إلى أنه كان امتيازًا وواجبًا لها. فقط محظيات الدرجة الأولى كن يُسمح لهن بتجاوز العتبة لتقديم هذا الشرف النادر؛ أما الأخريات فعليهن البقاء داخل الفناء. كان من غير المقبول أن تنهي الليل دون أن تؤدي ما كان متوقعًا منها، سيكون ذلك إهانة رهيبة لضيفها ومع ذلك...

لأول مرة في حياتها، لم ترغب كيكو في توديع ضيف أمام ضيف آخر.

لا أستطيع، ليس أنجين سان أمام أومي سان.

سألت نفسها: لماذا؟ هل لأن أنجين سان همجي وأنتِ تشعرين بالخجل من أن يعرف الجميع أن همجي امتلك؟ لا. كل أنجيرو تعرف بالفعل والرجل مثل أي رجل آخر، في معظم الأحيان. هذا الرجل ساموراي وهاتاموتو وأميرال سفن الزعيم توراناغا. لا، ليس الأمر كذلك.

ما هو إذن؟

لأنني اكتشفت في أثناء الليل أنني شعرت بالخجل مما فعله أومي سان له. كما يجب أن نخجل جميعًا. لم يكن ينبغي لأومي سان أن يفعل ذلك. لقد وُسم أنجين سان، وبدأت أصابعي تشعر بالوسم من خلال حرير الكيمونو الخاص به. أشعر بالخجل من أجله، إنه رجل جيد ما كان ينبغي أن يحدث له ذلك.

هل أنا مُدَنِّسَة؟ مكتبة سر من قرأ

لا، بالطبع لا، فقط أشعر بالخجل منه. وأشعر بالخجل من أومي سان لأنني أشعر بالخجل.

ثم سمعت ماما سان تقول ثم في أعماق عقلها مجددًا: «يا طفلة، اتركي أمور الرجال للرجال. الضحك هو بلسمنا ضدهم وضد العالم والآلهة وحتى الشيخوخة».

- كيكو سان؟

- نعم يا أنجين سان؟

- الآن سأذهب.

قالت: «نعم. دعنا نذهب معًا».

أمسك وجهها برفق بين يديه الخشنتين وقبّلها قائلاً: «شكرًا لك. لا توجد كلمات تكفي للشكر».

- أنا من يجب أن يشكر. رجاءً دعني أشكر يا أنجين سان. دعنا نغادر الآن.

سمحت لأكو بوضع اللمسات الأخيرة على شعرها الذي تركته متدليًا بحرية، وربطت حزام الكيمونو الجديد، وذهبت معه.

سارت كيكو بجانبه كما كان من حقها، وليس خلفه ببضع خطوات كما هو واجب على الزوجة أو الخلية أو الابنة أو الخادمة. وضع يده على كتفها للحظة، وكان ذلك مزعجًا لها لأنهما لم يكونا في خصوصية الغرفة. ثم انتابها هاجس رهيب بأنه سيقبلها علنًا - كما ذكرت ماريكو أن هذه عادة همجية - عند البوابة. فكرت وهي تكاد يغشي عليها من الخوف: يا بوذا، لا تدع ذلك يحدث.

كانت سيوفه في غرفة الاستقبال. كانت جميع الأسلحة تُترك تحت الحراسة خارج غرف المتعة وفقًا للتقاليد لتجنب المشاجرات القاتلة مع الضيوف الآخرين، وأيضًا لمنع أي سيدة من إنهاء حياتها. لم تكن جميع سيدات عالم الصفصاف سعيدات أو محظوظات.

وضع بلاكثورن سيوفه في حزامه. وانحنت كيكو له عند العتبة حيث انتعل نعاله، بينما تجمعت جيوكو والأخريات لتوديعه كضيف مكرم. توجد وراء البوابة ساحة القرية والبحر. كان العديد من الساموراي يتجمعون هناك من بينهم بونتارو. لم تتمكن كيكو من رؤية أومي، رغم أنها كانت متأكدة من أنه يراقب من مكان ما.

بدا أنجين سان طويل القامة للغاية، وهي صغيرة جدًا بجانبه. كانا الآن يعبران الفناء. رأى كلاهما أومي في اللحظة نفسها. كان يقف بالقرب من البوابة.

توقف بلاكثورن وقال كصديق وانحنى كصديق: «صباح الخير يا أومي سان».

غير عالم أن أومي وكيكو كانا أكثر من مجرد أصدقاء. فكرت: كيف له أن يعلم؟ لم يخبره أحد... لماذا ينبغي لأحد أن يخبره؟ وما أهمية ذلك على أي حال؟

- صباح الخير يا أنجين سان.

كان صوت أومي وديًا أيضًا، لكنها لاحظت أنه انحنى بأدب كافٍ فقط. ثم تحول نظره الحاد إليها مجددًا، وانحنت هي وقالت بابتسامة مثالية: «صباح الخير يا أومي سان. هذا البيت مشرف بوجودك».

- شكرًا لك يا كيكو سان. شكرًا.

شعرت بنظراته الفاحصة لكنها تظاهرت بعدم ملاحظتها، وأبقت عينيها منخفضتين بتواضع. بينما جيوكو والخادومات والمحظيات اللواتي كن متاحات، كن يراقبن من الشرفة.

قال بلاكثورن: «أنا ذاهب إلى القلعة يا أومي سان. هل كل شيء على ما يرام؟».

- نعم. لقد استدعاك الزعيم توراناغا.

- اذهب الآن. أمل أن أراك قريبًا.

- حسنًا.

رفعت كيكو نظرها. كان أومي ما زال يحدق إليها. ابتسمت له بأفضل ابتسامة لديها ثم نظرت إلى أنجين سان. كان يراقب أومي بانتباه، ثم شعر بنظرتها فالتفت نحوها وبادلها الابتسام. بدا لها أن ابتسامته كانت متوترة. قال وانحنى لأومي: «معذرة يا كيكو سان وأومي سان، يجب أن أذهب الآن».

بادل أومي الانحناء. عبر البوابة وتبعته كيكو وهي بالكاد تتنفس. توقفت الحركة في الساحة. رأته يستدير في وسط الصمت، وللحظة مرعبة أدركت أنه كان على وشك احتضانها. ولكنها شعرت بارتياح لأنه لم يفعل ذلك، بل وقف هناك فقط منتظرًا كما ينتظر الشخص المتحضر.

انحنى له بكل الرقة التي استطاعت إظهارها، بينما كان نظر أومي يخترقها.

قالت وابتسمت له وحده: «شكرًا لك يا أنجين سان». سرت تنهيدة عبر الساحة. ثم أضافت العبارة التقليدية: «شكرًا لك. نرجو زيارتنا مرة أخرى. سأعد اللحظات حتى نلتقي مجددًا».

انحنى هو بالقدر المناسب من اللامبالاة، ثم انطلق بغرور كما يفعل الساموراي من الطبقة الرفيعة. ولأنه عاملها باحترام كبير، ولكي ترد على أومي البرود غير المبرر في انحنائه، بدلًا من العودة إلى منزلها على الفور، بقيت في مكانها تراقب أنجين سان لتمنحه شرفًا أكبر. انتظرت حتى وصل إلى الزاوية الأخيرة. ورأته ينظر إلى الخلف. لوح بيده مرة واحدة. انحنى له باحترام شديد وهي سعيدة الآن بالاهتمام المُنصَّب عليها في الساحة، متظاهرة بعدم ملاحظته. وعندما تأكدت أنه ذهب فعلاً، عادت بخطوات مليئة بالفخر والأناقة. حتى أغلقت البوابة، كان جميع الرجال يراقبونها مبهورين بجسمالها، وحاسدين أنجين سان الذي لا بد أنه رجل عظيم لكي تنتظره مثل هذه المرأة.

قال أومي: «أنت جميلة جدًا».

قالت بثنائي أفضل ابتسامة لديها: «أتمنى لو كان ذلك صحيحًا يا أومي سان. هل ترغب في بعض الشاي يا أومي ساما؟ أو الطعام؟».

- معك، نعم.

انضمت إليهما جيوكو بتملق: «أرجو أن تعذرني على سوء أخلاقي يا أومي ساما. أرجو أن تتناول الطعام معنا الآن، رجاء. هل تناولت أول وجبة لك اليوم؟».

- لا... ليس بعد، لكنني لست جائعًا.

ألقي أومي نظرة على كيكو وسألها: «هل تناولت الطعام؟».

قاطعته جيوكو بحماسة: «دعنا نقدم لك شيئًا لن يكون غير مكلفٍ يا أومي ساما. ستنضمين إلينا بعدما تغيرين ملابسك يا كيكو سان، أليس كذلك؟».

- بالطبع، أرجو أن تسامحني يا أومي ساما، على الظهور بهذا الشكل. آسفة جدًا.

ركضت الفتاة بعيدًا، متظاهرة بسعادة لم تكن تشعر بها، وتبعتها آكو. قال أومي باقتضاب: «أود أن أكون معها الليلة، من أجل الطعام والترفيه». أجابت جيوكو بانحناءة مدركة أنها لن تكون حرة: «بالطبع يا أومي ساما، أنت تشرف منزلي وتمنحنا الكثير من الشرف. كيكو سان محظوظة جدًا لأنك تفضلها».

قال توراناغا بذهول: «ثلاثة آلاف كوكو؟».

أجابت ماريكو: «نعم يا سيدي».

كانا يجلسان على الشرفة الخاصة في الحصن. بدأت الأمطار تتساقط بالفعل لكنها لم تخفف من حرارة اليوم. شعرت بالكسل والإرهاق، وتاقت إلى برودة الخريف. تابعت: «آسفة لكنني لم أستطع التفاوض مع المرأة لتخفيض السعر أكثر من ذلك. تحدثت معها حتى قبل الفجر بقليل. آسفة جدًا يا سيدي، لكنك أمرتني بإتمام الصفقة الليلة الماضية».

- لكن ثلاثة آلاف يا ماريكو سان. هذا ربا.

في الواقع، كان توراناغا مسرورًا بوجود مشكلة جديدة تشغله عن القلق الذي يؤرقه. فالكاهن المسيحي تسوكو سان الذي كان يسافر مع زاتاكي -الوصي المغرور- لم يكن ينذر بشيء سوى المتاعب. لقد فكر في كل طرق الهروب والانسحاب والهجوم الممكنة التي يمكن لأي شخص أن يتخيلها، وكانت الإجابة دائمًا هي نفسها: سأخسر إذا تحرك إيشيدو بسرعة.

يجب أن أكسب المزيد من الوقت. لكن كيف؟

لو كنت مكان إيشيدو، لبدأت الآن، قبل أن تتوقف الأمطار.

كنت سأضع الرجال في مواقعهم تمامًا كما فعلت أنا والتايكو لتدمير عشيرة بيبو. ستفوز الخطة نفسها دائمًا، إنها بسيطة للغاية. لا يمكن أن يكون إيشيدو غيبًا لدرجة ألا يرى أن الطريقة الوحيدة لحماية الكانتو هي امتلاك أوساكا، وكل الأراضي بين إيدو وأوساكا. ما دامت أوساكا غير ودية، فإن الكانتو في خطر. كان التايكو يعلم ذلك، وإلا لماذا منحني إياها؟ دون كياما وأونوشي والكهنة الهمج...

حاول توراناغا جاهدًا وضع تفكير الغد جانبًا وركز بالكامل على هذا المبلغ المالي المستحيل. قال: «ثلاثة آلاف كوكو مبلغ غير مقبول».

- أوافقك الرأي يا سيدي. أنت محق. إنه خطئي بالكامل. ظننت أن حتى خمسمائة كوكو سيكون مبالغًا فيه، لكن المرأة جيوكو لم تخفض المبلغ. رغم أنه يوجد تنازل واحد.

- ما هو؟

- توسلت جيوكو شرف تخفيض السعر إلى ألفين وخمسمائة كوكو إذا قبلت أن تشرفها بالموافقة على مقابلتها على انفراد لمدة عود من الوقت.

- هل ستتنازل ماما سان عن خمسمائة كوكو فقط لمجرد التحدث معي؟

- نعم يا سيدي.

سأل بريبة: «لماذا؟».

- أخبرتني سببها يا سيدي، لكنها توسلت بتواضع أن يُسمح لها بشرح الأمر لك بنفسها. أعتقد أن اقتراحها سيكون مثيرًا لاهتمامك يا سيدي. وخمسمائة كوكو... سيكون توفيرًا. أشعر بالهلع من عدم قدرتي على التوصل إلى اتفاق أفضل، رغم أن كيكو سان من الرتبة الأولى وتستحق هذه المكانة تمامًا. أعلم أنني خذلتك.

قال توراناغا بنبرة مريرة: «أوافقك الرأي. حتى ألف كوكو سيكون أكثر من اللازم. هذه إيزو وليست كويتو».

- أنت محق تمامًا يا سيدي. قلت للمرأة إن السعر كان سخيًّا لدرجة أنني لا أستطيع الموافقة عليه بنفسى، رغم أنك أعطيتنى أوامر مباشرة بإتمام الصفقة الليلة الماضية. أمل أن تسامحني على عصياني، لكنني قلت إنني سأضطر أولاً إلى التشاور مع السيدة كاسيجي والدة أومي سان التي هي أهم سيدة هنا، قبل تأكيد الاتفاق.

أشرق وجه توراناغا ونسي همومه الأخرى: «إذن الصفقة قد تمت ولم تتم؟».

- نعم يا سيدي. لا شيء ملزم حتى أتمكن من التشاور مع السيدة. قلتُ إنني سأعطي إجابة عند ظهر اليوم. أرجو أن تسامحني على عصياني.
- كان يجب عليك إتمام الصفقة كما أمرتك.

كان توراناغا سعيدًا سرًّا لأن ماريكو منحته بذكاء فرصة ليوافق أو يرفض دون أن يخسر ماء وجهه. كان من غير المعقول أن يجادل بنفسه بشأن مسألة مالية. لكن ثلاثة آلاف كوكو... قال: «هل تقولين إن عقد الفتاة يساوي ما يكفي من الأرز لإطعام ألف عائلة لمدة ثلاث سنوات؟».

- تستحق كل حبة أرز، للرجل المناسب.

نظر إليها توراناغا بدهاء وقال: «حقًا؟ أخبريني عنها وعن ما حدث».

أخبرته كلَّ شيء، ما عدا مشاعرها تجاه أنجين سان وعمق مشاعره نحوها، أو عرض كيكو لها.

قال توراناغا: «جيد. نعم، جيد جدًا. كان ذلك ذكيًّا. نعم. لا بد أنه أسعدها كثيرًا لتقف عند البوابة هكذا في المرة الأولى».

كان معظم سكان أنجيرو ينتظرون تلك اللحظة، ليروا كيف سيتصرف الاثنان، الهمجي وسيدة الصفصاف من الرتبة الأولى.

- نعم.

- كانت الثلاثة كوكو التي استثمرت فيه تستحق العناء. سمعته ستسبقه الآن.

وافقته ماريكو الرأي وهي تشعر بالفخر بنجاح بلاكتورن: «نعم، إنها سيدة استثنائية يا سيدي».

كان توراناڭا مفتوناً من ثقة ماريكو باتفاقها. لكن خمسمائة كوكو للعقد كانت مبلغاً عادلاً. خمسمائة كوكو كانت أكثر مما تكسبه معظم الماما سان طوال حياتهن، لذا حتى تفكر واحدة منهن في التخلي عن خمسمائة... قال: «تقولين إنها تستحق كل حبة أرز؟ بالكاد أستطيع تصديق ذلك».

- للرجل المناسب يا سيدي. أنا أومن بذلك. لكن لم أستطع أن أحكم من سيكون الرجل المناسب.

كان هناك طرق على باب الشوجي.

- نعم؟

- أنجين سان عند البوابة الرئيسية يا سيدي.

- أحضره إلى هنا.

- حسناً يا سيدي.

بدأ توراناڭا يلوح بمروحته. كان يراقب ماريكو خلصة، وقد لاحظ كيف أشرق وجهها للحظة. تعمد ألا يخبرها أنه قد طلب استدعاءه.

ما الذي يجب فعله؟ كل ما خُطِّطَ له لا يزال ساريًا. لكن الآن أحتاج إلى بونتارو وأنجين سان وأومي سان أكثر من أي وقت مضى. وأحتاج إلى ماريكو، جدًا.

- صباح الخير يا توراناڭا ساما.

بادله توراناڭا الانحناء، ولاحظ الدفء المفاجئ عندما رأى الرجل ماريكو. تبادلوا تحيات رسمية وردود، ثم قال توراناڭا: «ماريكو سان، أخبريه أنه سيفادر معي عند الفجر. أنتِ أيضًا. ستواصلين إلى أوساكا».

ارتجفت: «حسناً يا سيدي».

سأل بلاكتورن: «هل أذهب إلى أوساكا يا توراناڭا ساما؟».

- لا يا أنجين سان. أخبريه يا ماريكو سان أنني ذاهب إلى منتجع شوزينجي ليوم أو يومين. أنتما الاثنان سترافقاني إلى هناك. ستذهبن إلى أوساكا. سيواصل هو الرحلة معك إلى الحدود، ثم يذهب وحده إلى إيدو.

كان يراقبهما بتمعن بينما كان بلاكتورن يتحدث إليها بسرعة وبإلحاح.

- معذرةً يا تورانا جا ساما، لكن أنجين سان يتوسل بتواضع أن يستعيرني لبضعة أيام أخرى. رجاءً اعذرني لكنه يقول إن وجودي معه سيسرع كثيرًا في أمر سفينته. ثم، إذا سمحت، سأأخذ إحدى سفنك الساحلية وينقلني إلى أوساكا، ثم يذهب بنفسه إلى ناجازاكي. يقترح أن هذا قد يوفر الوقت.

- لم أقرر شيئًا بعد بشأن سفينته، أو بشأن الطاقم. قد لا يحتاج إلى الذهاب إلى ناجازاكي. اجعلي هذا واضحًا جدًا. لا، لم أتخذ أي قرار بعد. لكنني سأفكر في طلبه بشأنك. سأعطيك قراري غدًا. يمكنكم الذهاب الآن... نعم، أخيرًا يا ماريكو سان، أخبريه أنني أريد معرفة نسبه. يمكنه كتابته وستترجمينه وتؤكدين صحته.

- حسنًا يا سيدي. هل تريده في الحال؟

- لا. عندما يصل إلى إيدو سيكون الوقت كافيًا.

شرحت ماريكو لبلاتكثورن.

سأل: «لماذا يريد ذلك؟».

حدقت ماريكو إلى وجهه وقالت: «بالطبع يجب على جميع الساموراي أن يسجلوا مواليدهم ووفياتهم يا أنجين سان، وكذلك أراضيهم ومنح الأراضي. وإلا فكيف يمكن لزعيم أن يحافظ على كل شيء متوازنًا؟ أليس الأمر كذلك في بلدك؟ هنا كل مواطنينا مسجلون رسميًا بحكم القانون، حتى الإيتا: المواليد والوفيات والزيجات. كل نجع أو قرية أو شارع في المدينة له سجله الرسمي. وإلا فكيف يمكنك التأكد إلى أين تنتمي وإلى من؟».

- نحن لا نسجل ذلك. ليس دائمًا. وليس رسميًا. هل الجميع مسجل؟ الجميع؟

- نعم، حتى الإيتا يا أنجين سان. إنه أمر مهم، أليس كذلك؟ عندها لا يتمكن أحد أن يدّعي ما ليس هو عليه، ويمكن القبض على المخالفين بسهولة أكبر، ولا يستطيع الرجال والنساء أو الآباء الغش في الزواج، أليس كذلك؟

وضع بلاتكثورن هذا الموضوع جانبًا للنظر فيه لاحقًا، ولعب ورقة أخرى في اللعبة التي اشترك فيها مع تورانا جا، على أمل أن تؤدي إلى تدمير السفينة السوداء.

استمعت ماريكو بانتباه، واستجوبته للحظة، ثم التفتت إلى تورانا جا وقالت: «يا سيدي، إن أنجين سان يشكرك على معروفك وعطاياك الكثيرة. ويطلب منك أن تشرفه باختيار مائتي تابع له. يقول إن إرشادك في هذا الأمر سيكون ذا قيمة لا تُقدر».

سأل تورانا جا على الفور: «هل يستحق ذلك ألف كوكو؟».

رأى دهشتها ودهشة أنجين سان. فكر: أنا سعيد لأنك ما زلتَ واضحًا يا أنجين سان، رغم مظهرك المتحضر. لو كنتُ مقامرًا، لراهنْتُ على أن هذه لم تكن فكرتك أن تطلب إرشادي.

قال بلاكثورن بحزم: «نعم».

أجاب بوضوح: «جيد. بما أن أنجين سان كريم للغاية، سأقبل عرضه. ألف كوكو. سيساعد ذلك بعض الساموراي المحتاجين الآخرين. أخبريه أن رجاله سينتظرونه في إيدو. سأراك عند فجر الغد يا أنجين سان».

- حسنًا. شكرًا لك يا تورانا جا ساما.

- استشيرني السيدة كاسيجي على الفور يا ماريكو سان. بما أنك وافقتَ على المبلغ، أتصور أنها ستوافق على اتفاقك بغض النظر عن مدى سخافته، رغم أنني أعتقد أنها ستحتاج حتى فجر الغد حتى تفكر في هذا المبلغ السخيف. أرسلني أحد الخدم ليأمر المرأة جيوكو بالحضور عند غروب الشمس. يمكنها إحضار المحظية معها. يمكن لكيكو سان أن تغني بينما نتحدث، حسنًا؟

صرفهم وهو مسرور بأنه قد وفر ألفًا وخمسمائة كوكو. فكر بلطف: الناس مسرفون للغاية.

سأل بلاكثورن: «هل سيكفيني ذلك للحصول على طاقم؟».

قالت ماريكو: «نعم يا أنجين سان. لكنه لم يوافق بعد على السماح لك بالذهاب إلى ناجازاكي. خمسمائة كوكو ستكون أكثر من كافية لتعيش عليها لمدة عام، والخمسمائة الأخرى ستمنحك نحو مئة وثمانين كوبان من الذهب لشراء البحارة. هذا مبلغ كبير جدًا من المال».

نهضت فوجيكو بصعوبة وتحدثت إلى ماريكو.

- تقول خليلتك إنه لا يجب أن تقلق يا أنجين سان. يمكنها إعطاؤك خطابات اعتماد لبعض المقرضين الذين سيقدمون لك بكل ما تحتاجه. سنرتب كل شيء.

- نعم، لكن أليس عليّ أن أدفع لكل خدامي؟ كيف أدفع تكاليف منزلي يا فوجيكو سان، وتكاليف معيشتي؟

شعرت ماريكو بالصدمة: «رجاءً اعذرني، لكن هذا بالطبع ليس من شأنك. لقد أخبرتك خليلتك أنها ستعتني بكل شيء. هي...».

قاطعتها فوجيكو وتحدثت المرأتان معًا للحظة.

- حسنًا فهمت يا فوجيكو سان.

التفتت ماريكو إلى بلاكتورن وقالت: «تقول إنه لا يجب أن تضيع وقتك في التفكير في هذا. وتتوسل إليك أن تشغل وقتك فقط في التفكير في مشكلات الزعيم تورانا. لديها مالها الخاص الذي يمكنها أن تستعين به إذا لزم الأمر».

رمش بلاكتورن بعينه وقال: «ستقرضني مالها الخاص؟».

شرحت ماريكو: «لا يا أنجين سان، بالطبع ستعطيك إياه إذا كنت بحاجة إليه يا أنجين سان. لا تنس أن مشكلتك هي فقط هذا العام، ستصبح غنيًا العام القادم يا أنجين سان. أما بالنسبة لخدمك، فسيتقاضى كل واحد منهم اثنتين كوكو لمدة عام. لا تنس أن تورانا ساما قد منحك جميع أسلحتهم وخيولهم، واثنتان كوكو كفيان لإطعامهم وأسرهم وخيولهم. ولا تنس أيضًا أنك أعطيت الزعيم تورانا نصف دخلك السنوي لضمان اختيارهم من قبله شخصيًا. هذا شرف عظيم يا أنجين سان».

- أعتقد ذلك؟

- بالتأكيد. فوجيكو سان توافق تمامًا. كنت ذكيًا للغاية لتفكيرك في ذلك.

- شكرًا لك.

سمح بلاكتورن للقليل من سعادته بالظهور. قال لنفسه بسعادة: أنت تستعيد رشدك مجددًا وبدأت تفكر مثلهم. نعم، كان التعاون مع تورانا ذكيًا جدًا. ستحصل الآن على أفضل الرجال، ولم تكن لتستطيع فعل ذلك بمفردك. ما قيمة ألف كوكو أمام السفينة السوداء؟ إذن يوجد أمرٌ آخر صحيح مما قالته ماريكو: إن إحدى نقاط ضعف تورانا هي كونه بخيلًا. بالطبع

لم تقل ذلك مباشرةً لكنها أشارت إلى أن تورانا جا كان يجعل ثروته الهائلة تزيد على أي دايميو آخر في المملكة. هذه المعلومة، بالإضافة إلى ملاحظاته الشخصية - أن ملابس تورانا جا كانت بسيطة مثل طعامه، وأسلوب حياته لا يختلف كثيرًا عن أي ساموراي عادي - أعطاه مفتاحًا آخر لفهم شخصية تورانا جا.

الحمد للرب على وجود ماريكو والكاهن دومينجو العجوز.

عاد بلاكثورن بذاكرته إلى السجن وتذكر كيف كان قريبًا من الموت حينذاك، وكيف أنه الآن - رغم كل امتيازاته - ما زال قريبًا من الموت. ما يعطيه تورانا جا يمكنه أن يسلبه. تعتقد أنه صديقك، لكن إذا كان سيغتال زوجة ويقتل ابنًا مفضلًا، فكيف ستقيم صداقته أو حياتك؟ أنا لا أفعل. قال بلاكثورن لنفسه وهو يجدد قسمه: هذه هي الكارما. لا يمكنني فعل شيء حيال الكارما، ولطالما كنت أعيش بالقرب من الموت طوال حياتي، لذا لا شيء جديد. أنا أستسلم للكارما بكل جمالها. وأقبل الكارما بكل جلالتها. وأثق بالكارما لتساعدني على تخطي الأشهر الستة المقبلة. وبعدها، بحلول هذا الوقت من العام القادم، سأكون أعبر مضيق ماجلان متجهًا إلى لندن، بعيدًا عن متناول يده...

كانت فوجيكو تتحدث. نظر إليها. كانت الضمادات لا تزال متغيرة اللون. كانت تستلقي بألم على الفوتون، وخادمة تقوم بتهويتها.

قالت ماريكو: «سترتب كل شيء لك بحلول الفجر يا أنجين سان. تقترح خليلتك أن تأخذ حصانين وحصانًا للأمتعة. وخادمًا واحدًا وخادمة...».

- خادم واحد سيكون كافيًا.
- معذرةً لكن الخادمة يجب أن تذهب لتخدمك. وبالطبع طاهٍ ومساعد للطاهي.

- ألن تكون هناك مطابخ يمكننا... أعني يمكنني استخدامها؟
- نعم. لكنك لا تزال بحاجة إلى طهارة خاصين بك يا أنجين سان. أنت هاتاموتو.

- علم أنه لا جدوى من الجدل. لذا قال: «سأترك كل شيء لك».
- هذا تصرف حكيم منك يا أنجين سان، حكيم جدًا. الآن يجب أن أذهب لأحزم أمتعتي، أرجو المعذرة.

غادرت ماريكو بسعادة. لم يتحدثا كثيرًا، فقط بما يكفي باللاتينية ليعلم كل منهما أنه رغم عدم حدوث الليلة السحرية قط وكانت، ومثلها مثل الليلة السابقة، لن تُناقش أبدًا، لكنَّ كليهما سيعيش في مخيلته إلى الأبد.

- أنتِ.

- أنتِ.

- شعرت بالفخر عندما سمعت أنها وقفت عند البوابة لفترة طويلة. سُمعتك جيدة جدًا الآن يا أنجين سان.

- كدتُ أنسى للحظة ما أخبرتني إياه. كدت أقبّلها في العلن.

- يا إلهي يا أنجين سان، كان ذلك سيكون فظيعةً.

- أنت محقة! لولاك لكنتُ الآن ذا سمعة سيئة... دودة تتلوى في التراب.

- بدلًا من ذلك، أصبحت معروفًا وذا سمعة جيدة، وقوتك لا جدال فيها. هل استمتعت بأحد تلك الأجهزة الغريبة؟

- يا سيدتي الفاضلة، لدينا تقليد قديم في بلدي ينص على أن الرجل لا يناقش العادات الحميمة لسيدة مع أخرى.

كانت ابتسامتها دافئة: «لدينا التقليد نفسه. لكني سألت إن كنت استمتعت، وليس إن كنت استخدمت. نعم، لدينا التقليد نفسه. أنا سعيدة لأن الأمسية أرضتكم. أن تكون يابانيًا في اليابان هو أمر حكيم، أليس كذلك؟».

قال: «لا يمكنني شكرك بما يكفي على تعليمك لي وإرشادك لي وفتح عيني و...».

كان على وشك أن يقول: على حبك لي، لكنه قال بدلًا من ذلك: «على وجودك».

- لم أفعل شيئًا. أنت هو نفسك.

- أشكرك، على كل شيء... وعلى هديتك.

- أنا سعيدة لأن متعتك كانت عظيمة.

- أنا حزين لأن متعتك كانت معدومة. أنا سعيد جدًا لأنك أُمّرت أيضًا بالذهاب إلى المنتجع. لكن لماذا إلى أوساكا؟

- لم أُوْمَر بالذهاب إلى أوساكا. لقد سمح لي الزعيم توراناغا بالذهاب. لدينا ممتلكات ومسائل عائلية يجب العناية بها. وأيضًا ابني هناك الآن.

كما أنني يمكنني حمل رسائل خاصة إلى كيريتسوبو سان والسيدة سازوكو.

- أليس ذلك خطرًا؟ تذكرني كلماتك... الحرب قادمة وإيشيدو هو العدو. ألم يقل الزعيم توراناغا الشيء نفسه؟

- نعم. لكن لا توجد حرب بعد يا أنجين سان. والساموراي لا يحاربون نساءهم، إلا إذا كانت النساء هن من بدأت الحرب.

- وماذا عنك؟ ماذا عن الجسر في أوساكا، عبر الخندق؟ ألم ترافقيني لخداع إيشيدو؟ كان سيقتلني. وتذكرني سيفك في القتال الذي حدث على متن السفينة.

- كان ذلك فقط لحماية حياة زعمي الإقطاعي وحياتي عندما كانت مهددة. كان ذلك واجبي يا أنجين سان، لا أكثر. لا يوجد خطر عليّ. لقد كنت وصيفة للسيدة يودوكو أرملة التايكو وحتى السيدة أوتشيبا والدة الوريث. أنا تشرفت بأن أكون صديقتهم. أنا بأمان تام. لهذا السبب يسمح لي الزعيم توراناغا بالذهاب. لكن بالنسبة لك في أوساكا لا يوجد أمان، بسبب هروب الزعيم توراناغا وما حدث للزعيم إيشيدو. لذلك يجب ألا تطأ قدمك هناك أبدًا. ناجازاكي ستكون آمنة لك.

- إذن لقد وافق على أن أذهب؟

- لا. ليس بعد. لكن عندما يفعل ستكون آمنة. لديه سلطة في ناجازاكي. كان يريد أن يسأل: هل هي أعظم من سلطة اليسوعيين؟ لكنه بدلًا من ذلك قال فقط: «أدعو أن يأمر الزعيم توراناغا بالسفر إلى أوساكا بالسفينة».

رأها ترتجف قليلًا وسأل: «ما الذي يزعجك؟».

- لا شيء، إلا... إلا أن البحر لا يعجبني.

- هل سيأمر بذلك؟

- لا أعلم. لكن...

عادت إلى روحها المداعبة، وتحدثت بالبرتغالية: «ولكن من أجل صحتك، يجب أن نصطحب كيكو سان معنا، أليس كذلك؟ الليلة، هل ستذهب مجددًا إلى غرفتها القرمزية؟».

ضحك معها وقال: «سيكون ذلك جيدًا، رغم أن...».

ثم توقف فجأة حيث تذكر نظرة أومي بوضوح وقال: «أتعلمين يا ماريكو سان، عندما كنت عند البوابة، أنا متأكد أنني رأيت أومي سان ينظر إليها نظرة خاصة جدًا، كما ينظر العاشق. عاشق غيور. لم أكن أعلم أنهما عاشقان».

- أفهم أنه أحد عملائها، عميل مفضل، نعم. لكن لماذا قد يقلقك ذلك؟
- لأنها كانت نظرة خاصة جدًا. نظرة مميزة للغاية.

- لا يمكنه المطالبة بها يا أنجين سان. إنها من الرتبة الأولى. لها الحرية في قبول أو رفض من تشاء.

- لو كنا في أوروبا، وأنا شاركت فراش عشيقته... هل تفهمين يا ماريكو سان؟

- أعتقد أنني أفهم يا أنجين سان، لكن لماذا قد يقلقك ذلك؟ أنت لست في أوروبا يا أنجين سان، ولا يمكنه المطالبة بها. إذا أرادت أن تقبلك أنت وهو، أو حتى ترفضك أو ترفضه، فما علاقة ذلك بأي شيء؟

- كنت أقول إنه عشيقها، بمعنى الكلمة لدينا. هذا له علاقة بكل شيء، أليس كذلك؟

- لكن ما علاقة ذلك بمهنتها، أو الجماع؟

في النهاية، شكرها مجددًا وترك الأمر عند هذا الحد. لكن عقله وقلبه أخبراه أن يحذر. الأمر ليس بهذه البساطة كما تظنين يا ماريكو سان، حتى هنا. يعتقد أومي أن كيكو سان أكثر من مميزة، حتى لو لم تكن تشعر بالمثل. أتمنى لو كنت أعرف أنه عشيقها. كنت لأفضل أن يكون أومي صديقًا لي على أن يكون عدوي. هل يمكن أن تكون ماريكو على حق مجددًا؟ هل الجماع لا علاقة له بالحب بالنسبة لهم؟

يا إلهي ساعدني، أنا مشوش جدًا. أصبح جزء مني شرقيًا الآن، ولكن معظمي غربي. يجب أن أتصرف مثلهم وأفكر مثلهم لأبقى على قيد الحياة. والكثير مما يؤمنون به أفضل بكثير من طريقتنا لدرجة أنه من المغري أن أرغب في أن أصبح واحدًا منهم تمامًا، ومع ذلك... الوطن هناك عبر البحار حيث وُلد أجدادي، وحيث تعيش عائلتي، فيليسييتي وتيودور وإليزابيث. أليس كذلك؟

- أنجين سان؟

- نعم يا فوجيكو سان؟

- أرجوك ألا تقلق بشأن المال. لا أستطيع تحمل رؤيتك قلقًا. أنا آسفة جدًا لأنني لا أستطيع الذهاب إلى إيدو معك.
- سنلتقي قريبًا في إيدو، أليس كذلك؟
- بلى. يقول الطبيب إنني أتعافى جيدًا، وأم أومي توافقه الرأي.
- متى يأتي الطبيب؟
- عند الغروب. آسفة جدًا لعدم قدرتي على الذهاب معك غدًا. اعذرني رجاءً.

تساءل مجددًا عن واجبه تجاه زوجته، ثم أعاد تلك الفكرة إلى مكانها المخصص بينما اندفعت فكرة جديدة في ذهنه. فحص هذه الفكرة ووجدها جيدة وملحة. قال: «سأذهب الآن، وسأعود قريبًا. ارتاحي... هل تفهمين؟».

- نعم. أرجو أن تعذرني على عدم تمكني من النهوض، وعلى... آسفة جدًا.

تركها وذهب إلى غرفته الخاصة. أخرج مسدسًا من مخبئه، فحص البارود وأخفاه تحت الكيمونو. ثم سار وحيدًا إلى منزل أومي. لم يكن أومي موجودًا. رحبت به ميدوري وعرضت عليه الشاي لكنه رفض بأدب. كانت تحمل طفلها البالغ من العمر عامين بين ذراعيها. اعتذرت له وقالت إن أومي سيعود قريبًا. وسألته إذا كان يرغب في الانتظار؟ كانت تبدو غير مرتاحة رغم أنها كانت مهذبة ومنتهبة. رفض مجددًا وشكرها، وقال إنه سيعود لاحقًا، ثم توجه نحو منزله.

كان القرويون قد أخلوا الأرض بالفعل واستعدوا لإعادة بناء كل شيء. لم ينقذوا أي شيء من الحريق سوى أدوات الطهي. لم تخبره فوجيكو بتكلفة إعادة البناء. قالت إن التكلفة كانت قليلة جدًا. كما أخبرته بألا يقلق.

قال أحد القرويين: «إنها الكارما يا أنجين ساما».

- نعم.

- ماذا يمكن للمرء أن يفعل؟ لا تقلق، سيصبح منزلك جاهزًا قريبًا... بل أفضل من السابق.

رأى بلاكتورن أومي يصعد التل بقوة وصرامة. ذهب للقاءه. عندما رآه أومي، بدا أنه فقد بعضاً من غضبه. قال بود: «أنجين سان. سمعت أنك ستغادر أيضاً مع الزعيم توراناغا ساما عند الفجر. هذا جيد جداً، يمكننا الركوب معاً». كان بلاكتورن حذراً جداً رغم ودية أومي الظاهرة.

أشار نحو الهضبة: «اسمع يا أومي سان، سأذهب إلى هناك الآن. رجاء رافقني، حسناً؟».

- لا يوجد تدريب اليوم.

- أفهم. رجاء رافقني، حسناً؟

لاحظ أومي أن يد بلاكتورن كانت على قبضة سيفه القاتل بأسلوب مميز، مثبتاً إياه. ثم لاحظ بعينه الحادثتين الانتفاخ تحت الحزام، وأدرك في الحال من شكله الواضح جزئياً أنه كان مسدساً مخفياً. سأله برقة: «الرجل الذي يُسمح له بحمل السيوفين يجب أن يعرف كيف يستخدمهما، وليس فقط حملهما، أليس كذلك؟».

- ماذا؟ لم أفهم؟

أعاد أومي الجملة بطريقة أبسط.

- فهمت. نعم، هذا أفضل.

- نعم. الزعيم يابو قال -الآن بعد أن أصبحت ساموراي بالكامل- يجب أن تبدأ في تعلم الكثير مما نعتبره أمراً بديهياً. كيف تكون مساعداً في السيوكو على سبيل المثال، وحتى أن تكون مستعداً للسيوكو الخاص بك كما هو واجب علينا جميعاً. نعم يا أنجين سان، يجب أن تتعلم كيف تستخدم السيوف. من الضروري جداً للساموراي أن يعرف كيف يستخدم ويحترم سيفه، أليس كذلك؟

لم يفهم بلاكتورن نصف الكلمات لكنه أدرك ما يقصده أومي. على الأقل، صحح لنفسه باضطراب: أعلم ما يقوله ظاهرياً.

قال: «نعم. صحيح. مهم. رجاء، يوماً ما تُعلمني... عذراً، تُعلمني ربما؟ رجاء؟ سأتشرف».

- حسناً... سأحب أن أعلمك يا أنجين سان.

انتابت بلاكثورن قشعريرة عندما شعر بالتهديد الضمني في صوت أومي. حذر نفسه: انتبه. لا تبدأ في تخيل أشياء. ثم قال: «شكرًا لك. الآن نمشي هناك، رجاء؟ لا وقت. ترافقني؟ حسنًا؟».

- حسنًا يا أنجين سان. لكن سنركب الخيل. سأنضم إليك بعد قليل.

سار أومي إلى أعلى التل، إلى فناء منزله.

أمر بلاكثورن أحد الخدم بوضع السرج على حصانه وامتنطاه بصعوبة من الجانب الأيمن، كما هي العادة في اليابان والصين. ثم قال لنفسه: لا أعتقد أنه يوجد فائدة كبيرة في جعله يعلمني كيفية استخدام السيف. شعر بالطمأنينة عندما لمس المسدس المخفي بأمان، لكن هذه الثقة تلاشت عندما ظهر أومي مجددًا ومعه أربعة من الساموراي.

انطلقوا جميعًا على الطريق المحطم نحو الهضبة. مروا بالعديد من فرق الساموراي المجهزة بعتاد كامل تحت قيادة ضباطهم، وحيث ترفرف رايات الرماح. وعندما وصلوا إلى قمة التل، وجدوا كتيبة البنادق بأكملها مصطفة خارج المعسكر في تشكيل المسير، كل رجل يقف بجانب حصانه المسلح، وفي المؤخرة يوجد قافلة الأمتعة، بينما كان يابو وناجا وضباطهم في الشاحنة. بدأت الأمطار تتساقط بغزارة.

سأل بلاكثورن بقلق وهو يحاول كبج جماح حصانه: «هل كل القوات ذاهبة؟».

- نعم.

- هل نذهب إلى المنتجع مع توراناغا ساما يا أومي سان؟

- لا أعلم.

غريزة البقاء الخاصة ببلاكثورن حذرته من طرح مزيد من الأسئلة. لكنه كان يحتاج إلى معرفة إجابة سؤال واحد. لذا سأل بلا مبالاة: «وبونتارو ساما؟ هل سيكون معنا غدًا يا أومي سان؟».

- لا. لقد غادر بالفعل. كان في الساحة هذا الصباح عندما غادرت بيت الشاي. ألم تره بالقرب من بيت الشاي؟

لم يتمكن بلاكثورن من قراءة أي شيء مريب على وجه أومي. قال: «لا، لم أره، عذرًا. هل نذهب إلى المنتجع أيضًا؟».

- أظن ذلك. لست متأكدًا.

كانت الأمطار تتساقط على قبعة أومي المخروطية، المربوطة تحت ذقنه. كانت عيناه مخفيتين تقريبًا. تابع: «الآن أخبرني لماذا أردتني أن أرافقك إلى هنا؟».

- لكي أريك المكان، كما قلت.

قبل أن يتمكن أومي من قول المزيد، اندفع بلاكثورن بحصانه إلى الأمام. وباستخدام حسه الملاحي الدقيق، استعاد بلاكثورن الاتجاهات الدقيقة من ذاكرته وسرعان ما وصل إلى النقطة المحددة فوق الصدع. ترجل من حصانه وأشار لأومي: «رجاء».

كان صوت أومي حادًا: «ما الخطب؟».

- رجاء، هنا يا أومي سان. وحدك.

أشار أومي لحراسه بالابتعاد ثم تقدّم للأمان حتى أصبح يعلو بلاكثورن. وسأله بينما كانت قبضته تشد على سيفه: «ما الأمر؟».

لم يتمكن بلاكثورن من التفكير في الكلمات لذا حاول الشرح مستخدمًا يديه: «هنا، تورانا جا ساما...».

- هنا أخرجته من الأرض، أليس كذلك؟ إذن؟

نظر بلاكثورن إليه، ثم نظر إلى سيفه عمداً، ثم أعاد نظره إليه ولم يقل شيئاً. مسح المطر عن وجهه.

كرر أومي بغضب أكبر: «ما الأمر؟».

لم يجب بلاكثورن، نظر أومي إلى الصدع ومجددًا إلى وجه بلاكثورن. ثم أضاءت عيناه وقال: «حسنًا، فهمت».

فكر أومي للحظة ثم نادى أحد الحراس: «أحضِر مورا هنا على الفور مع عشرين رجلًا ومجارف».

انطلق الساموراي مسرعًا، وأمر أومي الآخرين بالعودة إلى القرية، ثم ترجل ووقف بجانب بلاكثورن.

قال: «نعم يا أنجين سان، إنها فكرة ممتازة. فكرة جيدة».

سأله بلاكثورن ببراءة: «فكرة؟ أي فكرة؟ أردت أن أريك المكان فقط. اعتقدت أنك تريد أن تعرف المكان، أليس كذلك؟ عذرًا، لم أفهم».

قال أومي: «توراناجا ساما فقد سيفيه هنا. السيوف قيمة جدًا. سيكون سعيدًا جدًا باستعادتهما. سعيدًا جدًا، أليس كذلك؟».

قال بلاكثورن: «بلى. لكنها ليست فكرتي يا أومي سان. بل فكرة أومي سان».

- بالطبع. شكرًا لك يا أنجين سان. أنت صديق جيد وتفكيرك سريع. كان يجب أن أفكر في ذلك بنفسي. نعم، أنت صديق جيد وسنحتاج جميعًا إلى الأصدقاء في الأشهر القليلة القادمة. الحرب معنا الآن سواء أردناها أم لا.

- ماذا؟ عذرًا. لم أفهم، أنت تتحدث بسرعة كبيرة. رجاء اعذرني.

- سعيد بأننا أصدقاء... أنا وأنت. هل تفهم؟

- نعم. قلت حرب؟ الحرب الآن؟

- قريبًا. ماذا يمكننا أن نفعل؟ لا شيء. لا تقلق، توراناجا ساما سيهزم إيشيدو والخونة. هذه هي الحقيقة، هل تفهم؟ لا تقلق، حسنًا؟

- فهمت. سأذهب الآن إلى بيتي. حسنًا؟

- نعم. سأراك عند الفجر. أشكرك مجددًا.

أومًا بلاكثورن لكنه لم يغادر. «إنها جميلة، أليس كذلك؟».

- ماذا؟

- كيكو سان.

كانت ساقا بلاكثورن متباعدين قليلًا وكان مستعدًا للقفز إلى الخلف، وسحب مسدسه والتصويب وإطلاق النار. تذكر بوضوح تام السرعة المذهلة التلقائية التي استخدمها أومي لقطع رأس القروي الأول منذ زمن بعيد، وكان مستعدًا قدر الإمكان. كان يعتقد أن وسيلته الوحيدة للنجاة هي تعجيل مسألة كيكو. أومي لن يفعل ذلك أبدًا؛ سيعتبر أومي مثل هذا السلوك السيئ غير مقبول. ولشعوره بالخجل من ضعفه، سيحبس أومي غيرته غير اليابانية في مكان سري داخل نفسه. ولأنها كانت غريبة وملينة بالخزي، ستتفاقم هذه الغيرة حتى ينفجر أومي في وقت غير متوقع بعنف أعمى.

قال أومي: «كيكو سان؟».

كان بإمكان بلاكتورن رؤية تأثير أومي، ولكنه كان سعيدًا لأنه اختار التوقيت والمكان المناسبين. قال: «نعم، إنها جميلة، أليس كذلك؟».

- جميلة؟

- نعم.

اشتد هطول المطر، وتساقطت القطرات الغزيرة على الوحل. كانت خيولهما ترتجف إلى حد غير مريح. كان كلا الرجلين مبللًا، ولكن المطر كان دافئًا وسال منهما.

قال أومي: «نعم، كيكو سان جميلة جدًا».

ثم تبع ذلك بسيل من الكلمات التي لم يفهمها بلاكتورن.

قال بلاكتورن: «لا توجد كلمات كافية الآن يا أومي سان... ليست كافية للحدث بوضوح الآن. فيما بعد، نعم. لكن ليس الآن. هل تفهم؟».

بدا أن أومي لم يسمع. ثم قال: «هناك وقت كافٍ يا أنجين سان، وقت كافٍ للحديث عنها وعني وعنك وعن الكارما. لكنني أوافقك الرأي، الآن ليس الوقت المناسب، أليس كذلك؟».

قال بلاكتورن مواصلاً الضغط عليه: «أعتقد أنني فهمت. نعم. بالأمس لم أكن أعلم أنك وكيكو سان أصدقاء جيدون».

- إنها ليست ملكي.

- الآن أعلم أنك وهي أصدقاء جيدون. الآن...

- الآن غادر. هذه المسألة انتهت. المرأة لا شيء. لا شيء.

- ظل بلاكتورن في مكانه بعناد: «في المرة القادمة أنا...».

- هذه المحادثة انتهت. ألم تسمع؟ انتهت.

- لا، لا، بحق الرب.

توجهت يد أومي نحو سيفه، وقفز بلاكتورن إلى الخلف خطوتين دون أن يدرك. لكن أومي لم يسحب سيفه، وبلاكتورن لم يسحب مسدسه. استعد كلا الرجلين رغم عدم رغبة أي منهما في البدء. سأل أومي: «ماذا تريد أن تقول يا أنجين سان؟».

- في المرة القادمة، سأسأل أولاً... عن كيكو سان. إذا قال أومي سان نعم... نعم. وإذا قال لا... لا. هل تفهم؟ صديق لصديق، حسنًا؟

أرعى أومي قبضته على السيف قليلاً وقال: «أكرر... إنها ليست ملكي. شكرًا لك على إرشادي إلى هذا المكان يا أنجين سان. وداعًا».

- صديق؟

- بالطبع.

توجه أومي نحو حصان بلاكتورن وأمسك باللجام. امتطى بلاكتورن السرج.

نظر إلى أسفل نحو أومي. لو كان بإمكانه أن ينجو بفعلته، لكان قد فجّر رأس الساموراي في تلك اللحظة. كانت تلك ستكون أكثر الطرق أمانًا له. قال: «وداعًا يا أومي سان، وشكرًا لك».

- وداعًا يا أنجين سان.

راقب أومي بلاكتورن وهو يبتعد ولم يدر ظهره حتى تجاوز التل. ثم وضع بعض الحجارة لتحديد المكان في الصدع، ثم جلس على عقبيه باضطراب منتظرًا وغافلًا عن الطوفان.

وصل مورا والفلاحون بعد قليل، ملطخين بالطين.

- توراناغا ساما سقط في الصدع عند هذه النقطة بالضبط يا مورا. سيفاه مدفونان هنا. أحضرهما لي قبل غروب الشمس.

- حسنًا يا أومي ساما.

- لو كان لديك أي عقل، ولو كنت مهتمًا بي، زعيمك الإقطاعي، لكنت قد فعلت ذلك بالفعل.

- أرجو أن تسامحني على غباثي.

امتطى أومي حصانه ورحل. راقبوه لفترة وجيزة ثم انتشروا في دائرة حول الحجارة، وبدؤوا في الحفر.

خفض مورا صوته قائلًا: «ستذهب مع قافلة الأمتعة يا يو».

- حسنًا يا مورا سان. لكن كيف؟

- سأقدمك إلى أنجين سان. لن يعرف الفرق.

همس يو: «لكن خليلته ستعرف».

- لن تذهب معه. سمعت أن حروقها سيئة. ستذهب بالسفينة إلى إيدو لاحقًا. هل تعرف ما عليك فعله؟

- ابحث عن الأب المقدس على انفراد، وأجيب عن أي أسئلة.

استرخى مورا وبدأ يتحدث بطبيعية: «نعم، يمكنك الذهاب مع أنجين سان يا يو، سيدفع جيدًا. اجعل نفسك مفيدًا، لكن ليس مفيدًا جدًا وإلا سيأخذك معه إلى إيدو».

ضحك يو: «مهلاً، سمعت أن إيدو غنية لدرجة أن الجميع يتبولون في أوعية من الفضة... حتى الإيتا. والنساء لديهن بشرة ناعمة مثل رغوة البحر، ولا يمتلكن شعرًا في أجسامهن على الإطلاق».

سأل قروي آخر: «هل هذا صحيح يا مورا سان؟ هن لا يمتلكن شعرًا قصيرًا؟».

أجابهم مورا دون أن يتوقف عن الحفر: «كانت إيدو مجرد قرية صيد صغيرة نتنة، لا شيء يضاهي أنجيرو عندما زرتها لأول مرة. كان ذلك مع توراناغا ساما عندما كنا جميعًا نطارد عشيرة البيبو. أخذنا أكثر من ثلاثة آلاف رأس فيما بيننا. أما بالنسبة للشعر، فكل الفتيات اللاتي عرفتهن كان لديهن، باستثناء واحدة من كوريا، لكنها قالت إنها نتفت الشعر شعرة شعرة». قال أحدهم: «ما الذي قد تفعله بعض النساء لجذب انتباهنا، أليس كذلك؟». قال نينجين بلا أسنان: «بلى، لكنني أرغب في رؤية ذلك، نعم، أرغب في رؤية بوابة يشمية بلا شعر».

صفر يو قائلاً: «أراهن على حمولة قارب من الأسماك مقابل دلو من القذارة أنه كان مؤلماً نزع تلك الشعيرات».

- عندما أصبح كامى، سأعيش في جناح كيكو سان السماوي. يقولون إنها وُلدت معطرة وخالية من الشعر.

سأل يو وسط ضحكاتهم: «هل أحدث ذلك فرقًا يا مورا سان، في مهاجمة البوابة اليشمية من دون الشعر؟».

- كان ذلك أقرب ما وصلت إليه. نعم! لقد اقتربت أعمق وأكثر من أي وقت مضى وهذا مهم، أليس كذلك؟ لذلك أعلم أنه من الأفضل دائمًا للفتاة أن تزيل الشعر، رغم أن البعض يتشائم من ذلك والبعض يشتكين من الحكمة. لا يزال أقرب لك وأقرب لها... والاقتراب هو ما يصنع الفارق دائمًا، أليس كذلك؟

ضحكوا ووضعوا مزيدًا من الجهد في الحفر. اتسعت الحفرة تحت المطر.

قال يو: «أراهن أن أنجين سان اقترَب كثيرًا الليلة الماضية حتى تقف هي عند البوابة هكذا. آه، ما الذي لم أكن لأفعله لكي أكون مكانه».

مسح يو العرق عن جبينه. كان يرتدي مثل الجميع مجرد لباس داخلي وقبعة مخروطية من الخيزران، وكان حافي القدمين.

- نعم، لقد كنتُ هناك يا يو، في الساحة، ورأيت كل شيء. رأيت ابتسامتها وشعرت بها من رأسي إلى أخمص قدمي.

قال آخر: «نعم، عليّ أن أعترف أن ابتسامتها فقط جعلتني أتأثر».

ضحك يو قائلاً: «لكنك لن تصبح بحجم أنجين سان، أليس كذلك يا مورا سان؟ هيا، أخبرنا القصة مجددًا».

استجاب مورا بسعادة وأخبرهم عن الليلة الأولى والحمام. كانت قصته قد تحسنت مع تكرارها عدة مرات، لكن لم يمانع أحد منهم ذلك.

- كم أتمنى أن أكون بهذا الحجم.

قلّد أوو حمل شيء ضخم أمامه وضحك بشدة لدرجة أنه انزلق في الوحل. استند مورا إلى مجرفته للحظة محاولاً التقاط أنفاسه: «من كان يظن أن الغريب الهمجي سينتقل من الحفرة إلى الجنة؟ لم أكن لأصدق ذلك... يشبه الأساطير القديمة. الكارما، أليس كذلك؟».

- ربما كان واحدًا منا -في حياة سابقة- وعاد بالعقل نفسه ولكن بجلد مختلف.

أوماً نينجين: «هذا ممكن. لا بد أن يكون كذلك... لأنني ظننت بناءً على كلام الأب المقدس أنه سيحترق في فرن الشيطان الجحيمي منذ زمن. ألم يقل الأب أنه ألقى عليه لعنة خاصة؟ سمعت أنه استدعى انتقام المسيح العظيم كامي نفسه على أنجين سان، حتى أنا شعرت بالخوف الشديد». رسم إشارة الصليب على نفسه، وبالكاد لاحظته الآخرون. «لكن إله يسوع والمسيح ومريم يعاقب أعداءه بطرق غريبة جدًا إن سألتني».

قال يو: «حسنًا، أنا لست مسيحيًا كما تعلم، ولكن اعذرني فإن أنجين سان يبدو لي رجل جيد، أرجو المعذرة، وأفضل من الأب المسيحي الذي كان يسب ويلعن ويخيف الجميع. وقد كان جيدًا معنا، أليس كذلك؟ يعامل عائلته جيدًا... يقول البعض إنه صديق الزعيم تورانا، لا بد من ذلك بالنظر لكل تلك الامتيازات، أليس كذلك؟ ولا تنسوا أن كيكو سان أكرّمته بواديها الذهبي».

- إنه ذهبي بالفعل. سمعت أن الليلة كلفته خمسة كوبان.

تفاجأ نينجين: «خمسة عشر كوكو مقابل ليلة واحدة؟ كم هو محظوظ أنجين سان. الكارما الخاصة به عظيمة بالنسبة لرجل عدو الأب الرب والابن والعذراء».

قال مورا: «لقد دفع كوبان واحد، ثلاثة كوكو. ولكن إن كنت تعتقد أن ذلك كثير...».

توقف ونظر حوله بعناية ليتأكد من عدم وجود متنصتين، رغم أنه كان يعلم أنه لن يكون هناك أحد في هذا المطر... وحتى إن كان، فما أهمية ذلك؟ توقف الجميع واقتربوا منه: «نعم يا مورا سان؟».

- لقد سمعت للتو أن الزعيم توراناغا سيجعلها خليلته. لقد اشترى عقدها هذا الصباح مقابل ثلاثة آلاف كوكو.

كان هذا الرقم ضخماً، أكثر مما كسبته قريتهم من السمك والأرز خلال عشرين عاماً. ازداد احترامهم لها إن كان ذلك ممكناً. ولأنجين سان أيضاً، الذي كان بالتالي آخر رجل في العالم استمتع بها كمحظية من الدرجة الأولى. تمتم يو متحدثاً بصعوبة: «كل هذا المال... لا أعلم إن كنت أريد التقيؤ أو التبول أو إطلاق الريح».

قال مورا باقتضاب: «لا تفعل أيّاً منها. احفر. دعونا نجد السيفين».

أطاعوه، وكل واحد غارق في أفكاره. كانت الحفرة تتعمق بلا هوادة.

سرعان ما لم يستطع نينجين الذي تملكه القلق أن يتمالك نفسه لذا توقف عن الحفر وسأل: «أرجو المعذرة يا مورا سان، لكن ماذا قررت بشأن الضرائب الجديدة؟».

توقف الآخرون.

واصل مورا الحفر بوتيرته الثابتة والقوية وقال: «ماذا هناك لأقرره؟ يابو ساما يقول ادفعوا، إذن سندفع، أليس كذلك؟».

- لكن توراناغا ساما خفض ضرائبنا إلى أربعة أجزاء من عشرة، وهو الآن زعيمنا الإقطاعي.

- صحيح. لكن الزعيم يابو استعاد إيزو وسوروجا وتوتومي أيضاً. وأصبح سيدنا مجدداً، إذًا من هو زعيمنا الإقطاعي؟

- توراناجا ساما. بالتأكيد يا مورا سان، تورا...

- هل ستشكو له يا نينجين؟ ها؟ استيقظ، إن يابو ساما هو السيد كما كان دائماً. لم يتغير شيء. وإذا رفع الضرائب، ندفع مزيداً من الضرائب. انتهى.

كان صوت نينجين مزعجاً، لكن كان الجميع يعلم حقيقة ما قاله: «لكن ذلك سيأخذ كل مخزوننا الشتوي. كله. حتى مع الأرز الذي سرقناه...».

همس يو مصححاً إياه: «الأرز الذي ادخرناه».

- حتى مع ذلك، لن يكون هناك ما يكفيننا حتى نهاية الشتاء. سنضطر إلى بيع قارب أو اثنين...

- لن نبيع قوارب.

قال مورا. غرز مجرفته في الوحل ومسح العرق عن عينيه، ثم أعاد ربط رباط قبعته بإحكام. ثم بدأ في الحفر مجدداً. تابع: «اعمل يا نينجين. هذا سيشغل بالك عن التفكير في الغد».

- كيف سنصمد في الشتاء يا مورا سان؟

- لا يزال يتعين علينا تجاوز الصيف.

وافقه نينجين الرأي بمرارة: «نعم، لقد دفعنا ضرائب أكثر من عامين مقدماً، ولا يزال ذلك غير كافٍ».

قال يو: «إنها الكارما يا نينجين».

قال آخر: «الحرب قادمة. ربما نحصل على زعيم جديد يكون أكثر عدلاً، أليس كذلك؟».

- لا يمكن أن يكون أسوأ... لا يمكن لأحد أن يكون أسوأ.

أخبرهم مورا: «لا تراهنوا على ذلك. أنتم أحياء... ويمكنكم أن تكونوا أمواتاً بسرعة كبيرة، وعندها لن يكون هناك المزيد من الوديان الذهبية، سواء كان بها غابة أم لا». (اصطدمت مجرفته بصخرة فتوقف) «ساعدني يا يو، يا صديقي القديم».

قاما معاً بإخراج الصخرة من الوحل. همس يو بقلق: «مورا سان، ماذا إذا سأل الأب المقدس عن الأسلحة؟».

- أخبره. وأخبره أننا جاهزون... أن أنجيرو جاهزة.

الفصل الثاني والأربعون

وصلوا إلى يوكوسي بحلول الظهر. كان بونتارو قد التقى زاتاكي في الليلة السابقة، ورحب به بقدر كبير من الرسمية كما أمره توراناغا. قال بونتارو: «طلبت منه أن يخيم خارج القرية في الشمال يا سيدي، حتى يُجهز مكان الاجتماع. سيُعقد الاجتماع الرسمي هنا بعد ظهر اليوم، إذا كان ذلك مناسباً لك». وأضاف دون فكاهاة: «اعتقدت أن ساعة الماعز ستكون مباركة».

- جيد.

- أَرَادَ مقابلتك الليلة لكنني رفضت ذلك. أخبرته أنك ستكون «مشرقاً» بلقائه اليوم أو غداً، حسب رغبته، ولكن ليس بعد حلول الظلام.

همهم توراناغا بالموافقة لكنه لم يترجل بعد عن حصانه المغطى بالعرق. كان يرتدي درعاً للصدر وخوذة ودرعاً خفيفاً من الخيزران، مثل مرافقيه الملتحين من السفر. نظر حوله مجدداً بحذر. أُخْتُيرَت هذه المنطقة الخالية بعناية لتجنب أي فرصة لكمين. لم توجد أشجار أو منازل ضمن النطاق يمكن أن تخفي الرماة أو المسلحين بالبنادق. كانت الأرض الواقعة إلى الشرق من القرية مسطحة ومرتفعة قليلاً. كان الشمال والغرب والجنوب محميين بالقرية والجسر الخشبي الذي يعبر النهر المتدفق بسرعة. وهنا عند المضيق كانت المياه تدور في دوامات ومليئة بالصخور. وإلى الشرق، خلفه وخلف راكبيه المتعبين المتصبين عرقاً، كان المسار يعلو متسلقاً نحو القمة المغطاة بالضباب، على بعد خمسة ري. كانت الجبال شاهقة من كل جانب، العديد منها بركاني، ومعظم قممها نائمة في السماء الملبدة بالغيوم. أما في وسط الخلاء، نُصِبَت منصة من اثنتي عشرة حصيرة على أعمدة منخفضة. وقد غطتها مظلة طويلة. لم يظهر التسرع في جودة الحرفية. كانت هناك وسادتان من القطيفة تواجهان بعضهما بعضاً على الحصائر.

تابع بونتارو وهو يشير بقوسه إلى جميع التلال المطلة: «لدي رجال هناك وهناك وهناك. يمكنك الرؤية لمسافة عدة ري في جميع الاتجاهات

يا سيدي. إنها مواقع دفاعية جيدة... الجسر والقرية بأكملها محمية. وأمّن طريق انسحابك شرقًا من قبل مزيد من الرجال. وبالطبع الجسر محكم الإغلاق بالحراس، وقد تركت «حرس شرف» من مائة رجل في معسكره».

- هل الزعيم زاتاكي هناك الآن؟

- لا يا سيدي. لقد اخترت نزلًا له ولخدمه على أطراف القرية شمالًا يناسب رتبته، ودعوته للاستمتاع بالحمامات هناك. ذلك النزل معزول ومؤمن. لقد لمحت إلى أنك ستتوجه إلى منتجع شوزينجي غدًا، وأنه سيكون ضيفك.

أشار بونتارو إلى نزل أنيق من طابق واحد على حافة المنطقة الخالية يطل على أفضل منظر، بالقرب من ينبوع حار يتدفق من الصخور إلى حمام طبيعي. قال: «هذا النزل لك يا سيدي».

أمام النزل كانت توجد مجموعة من الرجال، جميعهم جاثن على ركبهم ورؤوسهم منخفضة جدًا منحنيين بلا حراك تجاههم. تابع: «إنهم رئيس القرية وشيوخها. لم أعرف إذا كنت ترغب في رؤيتهم في الحال».

- لاحقًا.

سهل حصان توراناجا بتعب وهز رأسه فتحرك اللجامين. هدا توراناجا الحصان، وبعد أن تأكد تمامًا من الأمن، أشار إلى رجاله وترجل عن حصانه. أمسك أحد الساموراي التابعين لبونتارو بلجام الحصان. كان الساموراي مثل بونتارو وجميعهم، مدرعين ومسلحين ومستعدين للقتال.

تمدّد توراناجا بامتنان وأرخى عضلات ظهره وساقيه المتشنجة. كان قد قاد الطريق بنفسه في مسيرة متواصلة من أنجيرو، ولم يتوقف إلا لتبديل الخيول. كانت بقية قافلة الأمتعة تحت قيادة أومي -الهوادج والحمالين- لا تزال بعيدة جدًا، منتشرة على الطريق الذي ينحدر من القمة. كان الطريق من أنجيرو يتعرج بمحاذاة الساحل ثم يتفرع. سلكوا الطريق الغربي الداخلي وصعدوا بثبات عبر الغابات الوارفة المليئة بالطرائد. عن يمينهم جبل أومورا، وعن يسارهم قمم سلسلة جبال أماجبي البركانية التي ترتفع لما يقرب من ألف وخمسمائة متر. كانت الرحلة ممتعة له... وأخيرًا بعض الإثارة! مر جزء من الرحلة عبر مناطق صقور جيدة لدرجة أنه وعد نفسه بأنه سيصطاد يومًا ما في جميع أنحاء إيزو.

قال تورانا جا وسط ضجيج رجاله الذين كانوا يترجلون ويثرثرون وينظمون أنفسهم: «جيد. نعم، جيد جدًا. لقد أبليت حسنًا».

- إذا كنت تريد تكريمي يا سيدي، أرجو أن تسمح لي بالقضاء على الزعيم زاتاكي ورجاله في الحال.

- هل أهانك؟

- لا، بل على العكس، كانت أخلاقه جديرة بأن تكون من رجال البلاط، لكن الراية التي يسافر تحتها تُعد خيانة لك.

قال تورانا جا بطريقة ليست غير لطيفة: «الصبر. كم مرة عليّ إخبارك بذلك؟».

أجاب بونتارو بخشونة: «أخشى أنك ستخبرني إلى الأبد يا سيدي. رجاء أعذرني».

- اعتدت أن تكون صديقه.

- اعتاد أن يكون حليفك.

- أنقذ حياتك في أوداوارا.

قال بونتارو بمرارة: «كنا في الجانب نفسه في أوداوارا». ثم انفجر قائلاً: «كيف يمكنه فعل هذا بك يا سيدي؟ أخوك! ألم تفضله، وحاربت في صفه... طوال حياته؟».

- الناس يتغيرون.

صب تورانا جا كل انتباهه على المنصة. عُلِّقَت ستائر حريرية رقيقة من السقف فوق المنصة للزينة. وشُرَّابَات الحرير المزخرفة التي تتناسب مع الوسائد شكلت إفريزًا مبهجًا، وتوجد شُرَّابَات أكبر على أعمدة الزوايا الأربعة. قال: «إنها غنية جدًا وتضفي على الاجتماع أهمية كبيرة. اجعلها بسيطة. أزل الستائر وكل الشُرَّابَات والوسائد، أعدهم إلى التجار، وإذا رفضوا إرجاع المال لأمين المخزن، فقل له أن يبيعهم. أحضر أربع وسائد وليس اثنتين... بسيطة وملأى بالقش».

- حسنًا يا سيدي.

وقع نظر تورانا جا على ينبوع، ثم اتجه نحوه. كان الماء يخرج من شق في الصخور، ينبعث منه البخار والكبريت. كان جسده بحاجة ماسة إلى حمام. سأل: «وماذا عن المسيحي؟».

- ماذا؟

- تسوكو سان، الكاهن المسيحي؟

- هو! إنه في مكان ما في القرية، ولكن في الجانب الآخر من الجسر. ممنوع عليه أن يأتي إلى هذا الجانب دون إذنك. لماذا؟ هل الأمر مهم؟ قال شيئاً عن أنه سيكون مشرفاً برؤيتك، عندما يكون ذلك مناسباً. هل ترغب في رؤيته الآن؟

- هل كان وحده؟

قال بونتارو بسخرية: «لا. كان معه مرافقة من عشرين مساعداً، جميعهم حليقو الرأس مثله، كلهم رجال من كيوشو يا سيدي. وكلهم نبلاء وساموراي. كانوا جميعاً على ظهور خيول جيدة ولكن دون أسلحة. لقد فتشتهم جيداً».

- وماذا عنه؟

- بالطبع، هو أكثر من أي شخص آخر. وجدنا بين أمتعته أربع حمامات زاجلة. وصادرتها.

- جيد. دمرها... لقد فعل ذلك أحد الحمقى عن طريق الخطأ، آسف جداً، حسناً؟

- أفهم. هل تريدني أن أستدعيه الآن؟

- لاحقاً. سأراه لاحقاً.

عبس بونتارو قائلاً: «هل كان من الخطأ تفتيشه؟».

هز تورانا جا رأسه ونظر بشروء إلى القمة غارقاً في التفكير. ثم قال: «أرسل بعض الرجال الذين يمكننا الوثوق بهم لمراقبة كتيبة البنادق».

أضاء وجه بونتارو برضا متجههم: «لقد فعلت ذلك بالفعل يا سيدي. وحراس الزعيم يابو الشخصيين يضمون بعضاً من أعيننا وأذاننا. لن يكون قادراً على فعل أي شيء دون علمك، إن كان ذلك ما تريده».

- جيد.

ظهرت مقدمة قافلة الأمتعة التي كانت لا تزال بعيدة وهي تدور حول منعطف في الطريق المتعرج. استطاع تورانا جا رؤية ثلاث هواجج، وأومي في المقدمة كما أمره، وأنجين سان بجواره، يمتطي حصانه بسهولة أيضًا. أدار ظهره لهم وقال: «أحضرت زوجتك معي».

- حسنًا يا سيدي.

- إنها تطلب إذنني للذهاب إلى أوساكا.

حدّق بونتارو إليه ولم يقل شيئًا، ثم حدق إلى الأشكال التي بالكاد يمكن تمييزها.

- لقد منحتها موافقتي... بالطبع شريطة أن توافق أنت أيضًا.

قال بونتارو: «أيًا كان ما توافق عليه يا سيدي، فأنا أوافق عليه».

- يمكنني السماح لها بالذهاب برًا من ميشيما، أو يمكنها مرافقة أنجين سان إلى إيدو، ومن هناك تذهب إلى أوساكا عبر البحر. وقد وافق أنجين سان على أن يكون مسؤولًا عنها... إذا وافقت أنت.

قال بونتارو وهو يشتعل غضبًا: «سيكون البحر أكثر أمانًا».

- كل هذا يعتمد على رسالة الزعيم زاتاكى. إذا أعلن إيشيدو الحرب عليّ رسميًا، فسأمنعها بالطبع. أما إذا لم يحدث ذلك، فيمكن لزوجتك الذهاب غدًا أو بعد غد، إذا كنت توافق.

- أي قرار تتخذه، أوافق عليه.

- سلم مهامك إلى ناجا سان بعد ظهر اليوم. هذه لحظة جيدة لعقد سلام بينك وبين زوجتك.

- رجاءً اعدرنى يا سيدي. يجب أن أبقى مع رجالي. أتوسل إليك أن تتركني مع رجالي حتى تبعد بأمان.

- ستسلم مهامك الليلة إلى ابني. ستنضم أنت وزوجتك إليّ على العشاء. ستبقيان في النزل. وستعقدان السلام.

حدّق بونتارو في الأرض. ثم قال بنبرة أكثر صرامة: «حسنًا يا سيدي».

قال تورانا جا: «أنت مأمور بمحاولة عقد السلام».

كان يفكر في إضافة: «السلام المشرف أفضل من الحرب، أليس كذلك؟». لكن لم يكن يعتقد أن ذلك صحيح، وقد يثير جدلاً فلسفيًا، وكان متعبًا ولا

يريد أي جدال الآن، بل كان بحاجة إلى حمام وراحة. لذا قال: «والآن أحضر رئيس القرية».

سقط رئيس القرية والشيخ في عجلة من أمرهم لينحنوا أمامه مرحبين به بأكثر الطرق نفاقاً. أخبرهم تورانا جا بصراحة أن الفاتورة التي سيقدمونها إلى أمين المخزن عند مغادرته ستكون بالطبع عادلة ومعقولة: «أليس كذلك؟».

أجابوا بصوت واحد بتواضع: «بلى».

وهم يباركون الآلهة على حظهم السعيد المفاجئ والغنائم الوفيرة التي ستجلبها هذه الزيارة لهم بلا شك. أرشده رئيس القرية المسن النشيط إلى النزل بالكثير من الانحناءات والمجاملات، قائلاً كم هم فخورون ومتشرفون بأنهم سُمح لهم بخدمة أعظم دايميو في الإمبراطورية.

تفقد تورانا جا بالكامل وسط حشود من الخادmates المنحنيات المبتسمات من جميع الأعمار، وكانوا أفضل ما في القرية. كانت هناك عشر غرف تحيط بحديقة بسيطة بها بيت شاي صغير في الوسط، ومطابخ في الخلف، وإلى الغرب يوجد حمام كبير في وسط الصخور يتغذى على الينابيع الطبيعية. كان النزل بأكمله محاطاً بسياج -ممر مغطى يؤدي إلى الحمام- ومن السهل الدفاع عنه.

قال وهو يقف مجدداً على الشرفة: «لا أحتاج إلى النزل بأكمله يا بونتارو سان. ثلاث غرف ستكون كافية. واحدة لي وواحدة لأنجين سان وواحدة للنساء. خذ أنت غرفة رابعة. لا داعي لدفع ثمن باقي الغرف».

- أخبرني أمين المخزن أنه عقد صفقة جيدة للنزل بأكمله يا سيدي، يوماً بيوم، أفضل من نصف السعر، ولا يزال خارج الموسم. وافقت على التكلفة من أجل سلامتك.

وافق تورانا جا على مضض: «حسناً، ولكن أريد رؤية الفاتورة قبل أن تغادر. لا حاجة لإهدار المال. من الأفضل أن تملأ الغرف بالحراس، أربعة في كل غرفة».

- حسناً يا سيدي.

كان بونتارو قد قرر بالفعل القيام بذلك. شاهد تورانا جا وهو يبتعد برفقة حارسين شخصيين ومحاطاً بأربع من أجمل الخادmates ليذهب إلى غرفته

في الجناح الشرقي. كان يتساءل بلا حماس: أي نساء؟ أي نساء يحتاجن إلى الغرفة؟ فوجيكو؟ فكر بتعب: لا يهم، سأعلم قريبًا.

مرّت خادمة بجانبه، ابتسمت له بإشراق، فبادلها بابتسامة آلية. كانت شابة جميلة ببشرة ناعمة، وقد جامعها الليلة الماضية. ولكن ذلك اللقاء لم يجلب له أي متعة، ورغم أنها كانت بارعة وحماسية ومُدربة جيدًا، فإن شهرته سرعان ما تلاشت... لم يشعر قط بالرغبة تجاهها. وفي النهاية تظاهر بالمتعة من باب الأدب، كما تظاهرت هي، ثم غادرت.

خرج من الفناء ليحرق إلى الطريق وهو لا يزال غارقًا في التفكير.
لماذا أوساكا؟

عند تمام ساعة الماعز، تنحى الحراس على الجسر جانبًا. وبدأ الموكب بالعبور. تقدم أولًا المبشرون حاملو رايات مزينة بشعارات الأوصياء القوية، تلاهم الهودج الفاخر، وأخيرًا المزيد من الحراس.

انحنى القرويون. كانوا جميعًا على ركبهم وهم منبهرين في سرهم من هذا الثراء والعظمة. كان رئيس القرية قد سأل بحذر عما إذا كان يجب عليه تجميع كل أهل القرية لتكريم هذه المناسبة. فأرسل تورانا رسالة تفيد بأن أولئك الذين ليس لديهم عمل يمكنهم المشاهدة بإذن أسيادهم. لذلك اختار رئيس القرية بحذر أكبر وقد شمل في الغالب كبار السن والشباب المطيعين، وهو عدد كافٍ لعمل استعراض -رغم أن كل بالغ كان يود الحضور- لكن ليس بما يكفي ليعارض أوامر الدايميو العظيم. وكان جميع من استطاعوا يشاهدون سرًا من نقاط مراقبة في النوافذ والأبواب.

سايجاوا زاتاكي زعيم شينانو، كان أطول من تورانا و أصغر منه بخمس سنوات، بنفس عرض الكتفين والأنف البارز. لكن بطنه كان مسطحًا ولحيته كثيفة وسوداء، وعيناه مجرد شقوق في وجهه. ورغم وجود تشابه غريب بين الأخوين غير الشقيقين عندما يكونان منفصلين، فإنهما بدوا مختلفين تمامًا حين اجتماعا الآن. كان كيمونو زاتاكي ثمينًا ودرعه يلمع وسيفه بيدوان مستخدمين جيدًا.

نزل تورانا من المنصة وانحنى. كان يرتدي أبسط أنواع الكيمونو وصنادل القش التي يرتديها الجنود. وحمل سيوفًا. قال: «مرحبًا بك يا أخي.

أرجو أن تعذرني على استقبالك بهذا الشكل غير الرسمي، لكنني جئت بأسرع ما أستطيع».

أجاب زاتاكي وهو يخرج من المحفة وينحني بدوره، ويبدأ في الإجراءات الرسمية الدقيقة التي لا تنتهي من المراسم التي تحكمهما الآن: «أرجو أن تعذرني على إزعاجك. تبدو بحالة جيدة يا أخي. جيدة جدًا».

- رجاء اجلس على هذه الوسادة يا زعيم زاتاكي.

- أرجو أن تعذرني، سأتشرف إذا جلست أنت أولاً يا زعيم توراناغا.

- أنت لطيف جدًا. لكن رجاء شرفني بالجلوس أولاً.

واصل لعب اللعبة التي لعبها مرارًا وتكرارًا من قبل، مع بعضهما بعضًا ومع الأصدقاء والأعداء، يتسلقان سلم السلطة، ويستمتعان بالقواعد التي تحكم كل حركة وكل جملة، والتي تحمي شرفهما الفردي حتى لا يخطئ أي منهما ويعرض نفسه أو مهمته للخطر.

جلسا أخيرًا مقابل بعضهما بعضًا على الوسائد، بعيدين عن بعضهما بمسافة طول سيفين. كان بونتارو خلف توراناغا يسارًا. وكان تابع زاتاكي الرئيسي خلفه يسارًا، وهو ساموراي مسن أشيب الشعر. وكان على بعد خمسة عشر مترًا حول المنصة يجلس صفوف من الساموراي التابعين لتوراناغا، وكانوا جميعًا لا يزالون يرتدون الملابس التي سافروا بها، لكن أسلحتهم كانت في حالة مثالية. كان أومي جالسًا على الأرض عند حافة المنصة، وناجا على الجانب المقابل. كان رجال زاتاكي يرتدون ملابس رسمية ثمينة، ومعافهم الضخمة ذات الأكتاف المجنحة مربوطة بأحزمة فضية. لكنهم كانوا مسلحين بالكفاءة نفسها. واستقروا أيضًا على بعد خمسة عشر مترًا.

قدمت ماريكو مراسم الشاي، ودار حديث رسمي غير مؤذٍ بين الأخوين. ثم انحنت ماريكو في الوقت المناسب وغادرت، بينما كان بونتارو مدرجًا لوجودها وفخورًا بجمالها ورشاقتها. ثم سرعان ما قال زاتاكي بفضاضة: «أحمل أوامر من مجلس الوصاية».

ساد صمت مفاجئ في الساحة. كان الجميع -حتى رجال زاتاكي- مذهولين من قلة أدبه، ومن الطريقة المتعجرفة التي قال بها «أوامر» بدلًا من «رسالة»، ومن عدم انتظاره حتى يسأل توراناغا: «كيف يمكنني خدمتك؟» كما تتطلب المراسم.

ألقي ناجا نظرة سريعة بعيداً عن يد زاتاكي التي تحمل السيف نحو والده. رأى احمراراً في رقبة توراناغا، وهي علامة مؤكدة على انفجار وشيك. لكن وجه توراناغا كان هادئاً، ودُهِش ناجا عندما سمع الرد المكظوم: «عذراً، هل لديك أوامر؟ ولمن يا أخي؟ بالتأكيد لديك رسالة؟».

أخرج زاتاكي لفافتين صغيرتين من كفه. كادت يد بونتارو تسحب سيفه المنتظر بسبب الحركة غير المتوقعة، إذ إن الطقوس كانت تستدعي أن تكون كل الحركات بطيئة ومتأنية. لكن توراناغا لم يتحرك.

كسر زاتاكي ختم اللفافة الأولى وقرأ بصوت عالٍ ومروع: «بأمر من مجلس الوصاية وباسم الإمبراطور جو نيجو ابن السماء: نُحْيِي تابِعنا الموقر يوشي توراناغا نو مينووارا وندعوه للمثول أمامنا في أوساكا على الفور، وندعوه لإبلاغ سفيرنا الموقر الوصي الزعيم سايجاوا زاتاكي إذا كان سيقبل دعوتنا أو يرفضها، في الحال». رفع نظره وتابع بالنبرة العالية نفسها: «إنها موقَّعة من جميع الأوصياء ومختومة بالختم العظيم للمملكة».

وضع اللفافة أمامه بتعجرف. أشار توراناغا إلى بونتارو الذي تقدم وانحنى باحترام لزاتاكي ثم التقط اللفافة والتفت إلى توراناغا وانحنى مجدداً. قبل توراناغا اللفافة وأشار إلى بونتارو ليعود إلى مكانه.

فحص توراناغا اللفافة لوقت طويل.

قال زاتاكي: «كل التوقعات حقيقية. هل تقبل أم ترفض؟».

قال توراناغا بصوت خافت بحيث لا يسمعه سوى من كانوا على المنصة وأومي وناجا: «لماذا لا أقطع رأسك لسوء أخلاقك؟».

أجاب زاتاكي: «لأنني ابن أُمي».

- ذلك لن يحميك إذا واصلت على هذا النحو.

- إذن ستموت قبل أوانها.

- ماذا؟

- السيدة والدتنا في تاكاتو. أخشى أن جسدها سيظل هناك إلى الأبد.

تاكاتو هي القلعة المنيعّة الواقعة وعاصمة شينانو، إقليم زاتاكي.

- خداع! أنت تحترمها بقدر ما أحترمها.

- أقسم بروحها الخالدة يا أخي، بقدر ما أحترمها، أكره ما تفعله أنت بالمملكة أكثر.
- لا أسعى لمزيد من الأراضي ولا...
- أنت تسعى للإطاحة بالخلافة.
- أنت مخطئ مجدداً، وسأظل أحمي ابن أخي من الخونة.
- أنت تسعى إلى إطاحة الوريث، هذا ما أؤمن به، لذا قررت البقاء على قيد الحياة وإغلاق شينانو والطريق الشمالي في وجهك، مهما كان الثمن، وسأستمر في القيام بذلك حتى تصبح الكانتو في أيدي آمنة... مهما كان الثمن.
- في يدك يا أخي؟
- في أيادي آمنة... وهذا يستثنى يديك. أخي.
- هل تثق بإيشيدو؟
- لا أثق بأحد، لقد علمتني ذلك. إيشيدو هو إيشيدو، لكن ولاءه لا جدال فيه. حتى أنت ستعترف بذلك.
- سأعترف بأن إيشيدو يحاول تدميرني وتفريق المملكة، وأنه اغتصب السلطة وأنه يخالف وصية التايكو.
- لكنك تأمرت مع الزعيم سوجياما لتدمير مجلس الوصاية. أليس كذلك؟ كان العرق في جبهة زاتاكي يخفق كالودودة السوداء. قال: «ماذا يمكنك أن تقول؟ اعترف مستشاروه بالخيانة: أنك تأمرت مع سوجياما ليقبل الزعيم إيتو مكانك، ثم يستقيل في اليوم السابق للاجتماع الأول ويهرب ليلاً، وبالتالي يربك المملكة. لقد سمعت الاعتراف... يا أخي».
- هل كنت أحد القتلة؟
- احمر وجه زاتاكي وقال: «لقد قتل رونين مفرط الحماسة سوجياما، وليس أنا، ولا رجال إيشيدو».
- من الغريب أنك أخذت مكانه كوصي بهذه السرعة، أليس كذلك؟
- نعم. نسبي قديم بقدر قدم نسبك. لكنني لم أصدر الأمر بالقتل، ولا إيشيدو... لقد أقسم على شرفه كساموراي. وأنا أيضاً. الرونين قتل سوجياما، لكنه استحق الموت.

- بالتعذيب، مهاناً في قبو قدر، مع تقطيع أطفاله وخليلاته أمامه؟
 - هذه شائعة نشرها الحاقدون القذرون -ربما جواسيسك- لتشويه سمعة الزعيم إيشيدو وبالتالي سمعة السيدة أوتشيبا والوريث. لا يوجد دليل على ذلك.
 - انظر إلى جثثهم.
 - أشعل الرونين النار في المنزل. لا توجد جثث.
 - كم هذا مريح، أليس كذلك؟ كيف يمكنك أن تكون ساذجاً إلى هذا الحد؟ أنت لست فلاحاً غيباً.
- انحنى زاتاكي للأمام وقال: «أرفض أن أجلس هنا وأستمع إلى هذا الهراء. أعطني إجابتك الآن. ثم إما أن تأخذ رأسي وتموت هي وإما تتركني أذهب. في غضون لحظات من مغادرة رأسي لكثفي، ستنتطلق عشر حمامات زاجلة إلى الشمال باتجاه تاكاتو. لدي رجال جديرون بالثقة في الشمال والشرق والغرب، على مسافة مسيرة يوم واحد بعيداً عن متناولك، وإذا فشلوا، فيوجد المزيد في أمان عبر حدودك. إذا أخذت رأسي أو أمرت باغتيالي أو إذا مت في إيزو -أيّاً كان السبب- ستموت هي أيضاً. الآن إما أن تأخذ رأسي وإما ننهي تسليم اللقافات وسأغادر إيزو في الحال. اختر».
- لقد قتل إيشيدو الزعيم سوجياما. يمكنني الحصول لك على دليل في الوقت المناسب. وهذا مهم، أليس كذلك؟ كل ما أحтаجه هو القليل من الوقت...
- قال: «لم يعد لديك المزيد من الوقت. الرسالة قالت في الحال. بالطبع سترفض الطاعة، وهذا جيد، إذن انتهى الأمر. ها هو ذا». وضع زاتاكي اللقافة الثانية على الحصير: «ها هو قرار عزلك الرسمي وأمر السيوكو، والذي ستتعامل معه بالازدراء نفسه... عسى أن يغفر لك الرب بوذا. الآن انتهى كل شيء. سأغادر على الفور، وفي المرة القادمة التي نلتقي فيها ستكون في ساحة المعركة، وأقسم بالرب بوذا، قبل غروب الشمس في اليوم نفسه، وعدت نفسي أن أرى رأسك على رأس رمح».
- ظل توراناغا يحدق إلى خصمه وقال: «الزعيم سوجياما كان صديقك وصديقي. رفيقنا، أحد أكثر الساموراي شرفاً الذين عاشوا على الإطلاق. يجب أن تكون الحقيقة حول وفاته ذات أهمية لك».

- موتك أكثر أهمية يا أخي.

- لقد امتصك إيشيدو مثل طفل جائع على صدر أمه.

استدار زاتاكي إلى مستشاره وقال: «اقسمُ بشرفك كساموراي، هل أرسلت رجالاً وما هي الرسالة؟».

شعر الساموراي المسن المبجل أشيب الشعر -تابع زاتاكي الرئيسي المعروف لدى توراناغا بأنه رجل شريف- بالاشمئزاز والخجل من العرض الفاضح للكرامية، كما كان حال الجميع في المكان. قال بصوت مبوح وهو ينحني لتوراناغا: «عذرًا يا زعيم، ولكن سيدي بالطبع يقول الحقيقة. كيف يمكن التشكيك في هذا؟ وأرجو المذرة، ولكن من واجبي أن أشير إلى كليكما بكل شرف وتواضع بأن هذا... هذا الافتقار المذهل والمخزي للأدب بينكما لا يليق بمقامكما ولا بوقار هذه المناسبة. إذا كان أتباعكما -إذا كان بإمكانهم أن يسمعو- فأنا أشك في أن أيًا منكما كان ليتمكن من منعهم. لقد نسيتم واجبكما كساموراي وواجبكما تجاه رجالكما. أرجو المذرة». -انحنى لكليهما- «ولكن كان لا بد من قول ذلك». ثم أضاف: «كانت جميع الرسائل متشابهة يا زعيم توراناغا، وتحمل الختم الرسمي للزعيم زاتاكي: «اقتل السيدة أمي على الفور»».

سأل توراناغا أخاه: «كيف يمكنني إثبات أنني لا أحاول الإطاحة بالوريث؟».

- تنازل في الحال عن جميع ألقابك وسلطتك لابنك ووريثك الزعيم سودارا وانتحر بالسيبوكو اليوم. ثم ساعد سودارا أنا ورجالي -حتى آخر رجل- كزعيم للكانتو.

- سأفكر فيما قلته.

- ماذا؟

كرر توراناغا كلامه بحزم: «سأفكر فيما قلته. سنلتقي غدًا في هذا الوقت، إذا كان ذلك يناسبك».

التوى وجه زاتاكي: «هل هذه خدعة أخرى من خدعك؟ ما الذي يجب أن نلتقي بشأنه؟».

رفع توراناغا اللفافة التي كانت في يده وقال: «بشأن ما قلته، وبشأن هذه. سأعطيك إجابتي غدًا».

أشار زاتاكي إلى اللفافة الثانية وقال: «رجاءً سلم هذه إلى سيدك يا بونتارو سان».

تردد صوت توراناغا في الخلاء ثم قال بصوت جهوري مع مراعاة للمراسم: «لا! يشرفني أن أقبل رسالة المجلس رسمياً وسأقدم إجابتي إلى سفيرهم الموقر أخي زعيم شينانو غداً في هذا الوقت».

نظر إليه زاتاكي بريبة وقال: «ما الإجابة المحتملة...».

قاطعته الساموراي المسن بهدوء وجلال مجدداً للحفاظ على خصوصية المحادثة: «رجاءً اعذرني يا سيدي، لكن الزعيم توراناغا على حق تماماً في اقتراحه. لقد قدمت له خياراً جاداً، خياراً غير موجود في اللفائف. إنه من العدل والشرف أن يُمنح الوقت الذي يحتاجه».

التقط زاتاكي اللفافة الثانية ووضعها مجدداً في كمّه وقال: «حسناً. أوافقك الرأي. أرجو أن تعذر سوء أدبي يا زعيم توراناغا. وأخيراً، أرجو أن تخبرني بمكان وجود كاسيجي يابو؟ لدي لفافة له. واحدة فقط في حالته؟».

- سأرسله إليك.

أطبقت الصقر جناحيها وسقطت من ارتفاع ثلاثمائة متر من السماء المسائية، واندفعت نحو الحمامة الهاربة محدثة انفجار من الريش. ثم أمسكتها بمخالبها وحملتها نحو الأرض وهي لا تزال تسقط كالحجر، حتى أفلتت فريستها الميتة الآن على بُعد أمتار قليلة من الأرض، ثم كبحت سرعتها بجنون وهبطت عليها بمثالية. صاحت الصقر وهي ترفرف بريش عنقها في فخر، وتمزق رأس الحمامة بمخالبها في نشوة انتصارها.

اندفع توراناغا مع ابنه ناجا كمرافق له. تزلج الدايميو عن حصانه، وناداه بلطف لتصعد على قبضته. صعدت الصقر على قفازه بطاعة، ومباشرةً كافأها بقطعة لحم من فريسة سابقة. وضع الغطاء على رأسها مشدداً الأربطة بأسنانه. التقط ناجا الحمامة ووضعها في حقيبة الصيد التي كانت نصف مملوءة والمعلقة على سرج والده، ثم أشار إلى الصقارين والحرس البعيدين.

عاد توراناغا إلى السرج، والصقر مستقرة على قفازه، ممسوكة بأربطة الجلد الرقيقة. نظر إلى السماء لحساب ما تبقى من ضوء النهار.

كانت الشمس قد اخترقت السحب في وقت متأخر من بعد الظهر، واليوم يمر سريعاً الآن في الوادي، حيث غربت الشمس منذ زمن خلف القمة الغربية، وأصبح الجو بارداً ومنعشاً. السحب قد اندفعت شمالاً بفعل رياح سائدة تحوم حول قمم الجبال وتخفي الكثير منها. الهواء نقياً وعذباً على هذا الارتفاع حيث الأرض محاطة بالجبال.

- يجب أن نحظى بيوم جميل غداً يا ناجا سان. أتصور أن السماء ستكون صافية. أظن أنني سأخرج للصيد فجرًا.
- حسناً يا أبي.

راقبه ناجا في حيرة خائفاً من طرح الأسئلة كعادته، لكنه رغب في معرفة كل شيء. لم يستطع فهم كيف يمكن لوالده أن يبدو منفصلاً عن الواقع بعد اجتماع مروع كهذا. كيف استطاع أن يودع زاتاكي بكل المراسم الرسمية، ثم على الفور يدعو صقوره وصقاروه لينطلقوا إلى التلال خلف الغابة؟ كان الأمر بالنسبة لناجا عرضاً خارقاً لضبط النفس. مجرد التفكير في زاتاكي جعل جسد ناجا يقشعر، وكان يعلم أن المستشار المسن كان محقاً؛ لو سُمعت عُشر المحادثة، لكان الساموراي قد قفزوا للدفاع عن شرف سيدهم. لولا التهديد الذي يحيط برأس جدته العزيزة، لكان قد انقضَّ على زاتاكي بنفسه. فكر: أظن أن هذا هو السبب وراء كون والدي على ما هو عليه، وحيث هو الآن...

وقعت عيناه على فرسانٍ يخرجون من الغابة أدناه مندفعين نحوهم عبر سفوح التلال المتدحرجة. ما وراء الغابة ذات اللون الأخضر الداكن، كان النهر عبارة عن شريطٍ ملتبسٍ من اللون الأسود، وأضواء النُّزل تومض مثل اليراعات. قال: «أبي».

- ماذا؟ آه نعم، أراهم الآن. من هم؟
 - يابو سان وأومي سان... وثمانية حراس.
 - عيناك أفضل من عيني. نعم، الآن أراهم.
- قال ناجا دون تفكير: «لم أكن لأدع يابو سان يذهب بمفرده إلى الزعيم زاتاكي دون...». ثم توقف وتلعثم: «أرجو المَعذرة».
- لماذا لم تكن لترسل يابو سان بمفرده؟

لعن ناجا نفسه لفتح فمه وارتجف تحت نظرات تورانا. قال: «أرجو المَعذرة، لأنني بذلك لن أتمكن من معرفة الترتيبات السرية التي قد يتوصلون إليها. يمكنه ذلك بسهولة يا أبي. كنت سأبقيهم بعيدين عن بعضهما بعضًا... أرجو المَعذرة. لا أثق به».

- إذا خطط يابو سان وزاتاكى سان للخيانة من ورائي، فسيفعلان ذلك سواء أرسلت شاهدًا أم لا. أحيانًا يكون من الحكمة إعطاء الفريسة خطأ إضافيًا... هذه هي الطريقة لصيد السمك، أليس كذلك؟
- بلى، أرجو المَعذرة.

أدرك تورانا أن ابنه لم يفهم، ولن يفهم أبدًا، وأنه سيكون دائمًا مجرد صقر ليقذفه نحو عدو، سريعًا وحادًا وقاتلًا.

قال له ليشجعه، مدرِّكًا لصفاته الجيدة ومقدِّرًا لها: «أنا سعيد لأنك تفهم يا بني». ثم أضاف وهو يعني كلامه: «أنت ابن جيد».

رد ناجا شاعرًا بالفخر لهذا الإطراء النادر: «شكرًا لك يا أبي. أمل فقط أن تغفر لي حماقاتي وتعلمني كيف أخدمك بشكل أفضل».

- أنت لست أحقق.

كان على وشك أن يضيف: «يابو هو الأحق». كلما قل عدد من يعرفون، كان ذلك أفضل. ليس من الضروري أن تجهد عقلك يا ناجا. فأنت صغير السن... الأصغر من بين أبنائي باستثناء أخيك غير الشقيق تاداتيرو. كم عمره؟ سبع سنوات، نعم، سيكون في السابعة.

راقب الفرسان القادمين للحظة ثم سأل: «كيف حال والدتك يا ناجا؟».

- كما هي دائمًا، أسعد امرأة في العالم. لا تزال تسمح لي برؤيتها مرة واحدة فقط في العام. ألا يمكنك إقناعها بتغيير ذلك؟

قال تورانا: «لا، لن تتغير أبدًا».

كان تورانا يشعر بالدفء حينما يتذكر شانو تسوبوني، خليلته الرسمية الثامنة ووالدة ناجا. ضحك مع نفسه وهو يتذكر حسها الفكاهي الواقعي وغمازات وجهها وقوامها الممتلئ والطريقة التي كانت تتحرك بها بحماس في الفراش.

كانت أرملة مزارع بالقرب من إيدو قد لفتت انتباهه قبل عشرين عامًا. بقيت معه لثلاث سنوات ثم طلبت السماح لها بالعودة إلى الأرض. وقد سمح لها بالرحيل. والآن هي تعيش في مزرعة جيدة بالقرب من المكان الذي ولدت فيه، سمينية وراضية، أرملة راهبة بوذية يحترمها الجميع ولا تدين بالفضل لأحد. كان يذهب لرؤيتها من حين لآخر ويضحكان معًا بلا سبب، كأصدقاء.

قال توراناغا: «إنها امرأة جيدة».

وصل يابو وأومي وترجلا على بعد سبعة أمطار ثم انحنيا.

قال يابو بغضب ملوحًا بلقافة: «لقد أعطاني لقافة، تقول: ندعوك لمغادرة إيزو في الحال إلى أوساكا، اليوم، وتقديم نفسك في قلعة أوساكا لجلسة استماع، وإلا فستُصادر جميع أراضيكَ وتُعلن خارجًا عن القانون». سحق اللقافة بيده وألقاها على الأرض: «اليوم».

قال توراناغا وقد تغير مزاجه فجأة بسبب عناد وغباء يابو: «إذن يجب عليك المغادرة في الحال».

بدأ أومي يتحدث بسرعة وهو يجثو على ركبتيه بتذل: «أتوسل إليك يا سيدي. الزعيم يابو هو تابعك المخلص، وأتوسل إليك بكل تواضع ألا تستهزئ به. سامحني على وقاحتي، ولكن الزعيم زاتاكي... سامحني على وقاحتي».

قال توراناغا وهو يلعن خطأه: «أرجوك اعذرني على الملاحظة يا يابو سان... كانت مقصودة بنية حسنة. يجب أن نتحلى جميعًا بروح الدعابة تجاه مثل هذه الرسائل، أليس كذلك؟».

ثم نادى صقاره وأعطاه الصقر من قبضته وأمره بالانصراف مع الصقارين. بعدها أشار إلى جميع الساموراي بالخروج من نطاق السمع باستثناء ناجا. جلس القرفصاء وأمرهما بفعل الشيء نفسه وقال: «ربما من الأفضل أن تخبرني ما حدث».

قال يابو: «ليس هناك الكثير لأخبرك إياه. ذهب لرويته. استقبلني بأقل قدر ممكن من الاحترام. أولًا كانت هناك «تحيات» من الزعيم إيشيدو ودعوة صريحة للتحالف معه سرًا، للتخطيط لاغتيالك الفوري، وقتل كل ساموراي تابع لتوراناغا في إيزو. بالطبع رفضت الاستماع، وعلى الفور -على الفور- دون أي احترام على الإطلاق، أعطاني هذه». وأشار بغضب نحو اللقافة وتابع:

«لولا أمرك المباشر بحمايته لكنت قطعتة إربًا على الفور! أطالبك بإلغاء هذا الأمر. لا أستطيع العيش مع هذا العار. يجب أن أنتقم».

- هل هذا كل ما حدث؟

- أليس هذا كافيًا؟

تجاهل تورانا جا وقاحة يابو وحقق بغضب إلى أومي: «أنت المسؤول، أليس كذلك؟ لماذا لم تتحلَّ بالذكاء لحماية زعيمك بشكل أفضل؟ من المفترض أن تكون مستشارًا. كان يجب أن تكون درعه. كان عليك أن تستدرج الزعيم زاتاكى، وتحاول معرفة ما يدور في ذهن إيشيدو، وما هي الرشوة، وما الخطط التي وضعوها. من المفترض أن تكون مستشارًا قيمًا. أتيت لك فرصة مثالية وأهدرتها كغبي غير متمرس».

أحنى أومي رأسه وقال: «رجاءً اعذرني يا سيدي».

- ربما أسامحك، لكنني لا أرى لماذا يجب أن يسامحك الزعيم يابو. الآن قبل زعيمك اللقافة. الآن هو ملتزم. الآن يجب عليه أن يتصرف بطريقة أو بأخرى.

قال يابو: «ماذا؟».

رد تورانا جا: «لماذا تعتقد أنني فعلت ما فعلته؟ للتأجيل... بالطبع للتأجيل».

سأل يابو: «ولكن ليوم واحد؟ ما فائدة يوم واحد؟».

- من يعلم؟ يوم لك هو يوم أقل للعدو.

عادت عينا تورانا جا إلى أومي وسأله: «هل كانت رسالة إيشيدو شفوية أم مكتوبة؟».

أجاب يابو بدلاً منه: «شفوية، بالطبع».

أبقى تورانا جا نظراته الثاقبة على أومي وقال: «لقد أخفقت في أداء واجبك تجاه زعيمك وتجاهي».

- رجاءً اعذرني...

- ماذا قلت بالضبط؟

لم يجب أومي.

- هل نسيت آدابك أيضًا؟ ماذا قلت؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

- لم أقل شيئاً يا سيدي. لم أقل شيئاً.

- ماذا؟

تبحج يابو: «لم يقل شيئاً لزاتاكي لأنه لم يكن حاضراً. طلب زاتاكي التحدث معي بمفردي».

- حقاً؟

حاول توراناغا إخفاء سروره لأنه كان على يابو الاعتراف بما كان قد افترضه بالفعل وأن جزءاً من الحقيقة قد كُشف الآن. قال: «أرجو المَعذرة يا أومي سان. لقد افترضت بطبيعة الحال أنك كنت حاضراً».

قال أومي: «كان خطئي يا سيدي. كان يجب أن أصر. أنت على حق، لقد أخفقت في حماية زعيمِي. كان يجب أن أكون أكثر قوة. أرجو المَعذرة. أرجو العذرة يا يابو ساما».

قال توراناغا قبل أن يتمكن يابو من الرد: «بالطبع أنت معذور يا أومي سان. إذا كان زعيمك قد عارضك، فهذا حقه. هل عارضته يا يابو ساما؟».

- نعم... نعم، لكنني لم أظن أن الأمر مهم. هل تعتقد أنني...

- حسناً، لقد حدث الضرر الآن. ماذا تنوي أن تفعل؟

كان يابو مرتبباً: «بالطبع أرفض الرسالة لما هي عليه يا سيدي. هل تعتقد أنه كان بإمكانني تجنب استلامها؟».

- بالطبع. كان بإمكانك التفاوض معه ليوم. ربما أكثر. أسابيع حتى.

وأضاف وهو يزيد من قلقه، مستمتعاً بخبث بسذاجة يابو التي وضعته في هذا الموقف الحرج، وغير مكترث على الإطلاق بالخيانة التي لا شك أن يابو قد تلقى رشوة ليقدم عليها، أو أجبر عليها بالتملق أو الإغراء أو التخويف: «مَعذرةً لكنك الآن ملتزم. لا بأس، كما قلت بنفسك: «كلما أسرع الجميع في اختيار جانب، كان ذلك أفضل»». نهض وتابع: «لا حاجة إلى العودة للكتيبة الليلية. انضموا إليّ كلاكما في وجبة العشاء. لقد رتبت حفلة ترفيهية». ثم أضاف بصوت خافت وبقدر كبير من الرضا: «لجميع».

عزفت أنامل كيكو الماهرة وترّاً، متمسكة بريشة العزف بإحكام. ثم بدأت في الغناء، فامتلأت الليلة الهادئة بنقاء صوتها. جلسوا مسحورين في الغرفة

الكبيرة المفتوحة على الشرفة والحديقة خلفها، مفتونين بالتأثير الاستثنائي التي أحدثته تحت أضواء المشاعل الوامضة، بينما التقطت خيوط الكيمونو الذهبية الضوء وهي تنحني على الساميسن.

ألقي تورانا نا نا نظرة خاطفة حوله مدرِّكًا التيارات الليلية. جلست ماريكو بين بلاكثورن وبونتارو على أحد جانبيه، بينما على الجانب الآخر جلس أومي ويابو جنبًا إلى جنب. كان مقعد الشرف لا يزال فارغًا. دُعي زاتاكي لكنه بالطبع اعتذر بأدب بسبب سوء صحته، رغم أنه شوهد وهو يركض فوق التلال الشمالية وكان حاليًا يجمع مستخدمًا قوته الأسطورية. كان نا نا وحراس مختارون بعناية منتشرين في المكان من حوله، بينما جيوكو تحوم في مكان ما في الخلفية بهدوء. جثت كيكو سان في الشرفة مواجهة لهم وظهرها مواجهًا للحديقة، تبدو صغيرة وحيدة ونادرة للغاية.

فكر تورانا نا نا: ماريكو محقة. هذه المحظية تستحق المال. روحه مسحورة بها، وقلَّ قلقه تجاه زاتاكي. هل أطلبها مجددًا الليلة أم أناام وحدي؟ استثار عندما تذكر الليلة الماضية.

كان قد سأل في مقر إقامته الخاص في القلعة: «إنن يا جيوكو سان، هل أردتِ رؤيتي؟».

- نعم يا سيدي.

أشعل عود من بخور الوقت وقال: «تفضلني ابدئي».

انحنى جيوكو لكنه بالكاد كان يراها. كانت هذه أول مرة يرى فيها كيكو عن قرب. كان قربها يُحسن من ملامحها الرائعة التي لم تتأثر بعد بقسوة مهنتها. قال لها متفاجئًا أن جيوكو كانت مستعدة للحدث أمامها: «اعزفي بعض الموسيقى في أثناء حديثنا».

أطاعت كيكو على الفور، لكن موسيقاها حينها لم تكن مثل الليلة. كانت البارحة لتلطيف الجو العام، كمرافقة للأعمال الجارية. أما الليلة فكانت للإثارة والإبهار والوعد.

بدأت جيوكو حديثها الرسمي: «سيدي، أولًا أود أن أتقدم بالشكر الجزيل لك على الشرف الذي تمنحه لي ولبيتي المتواضع ولكيكو سان، أولى سيداتي في عالم الصفصاف. أعلم أن السعر الذي طلبته للعقد يعد جريئًا، بل ومستحيلًا. لكنه غير مُتفق عليه حتى الفجر غدًا، حين تقرر كل من السيدة

كاسيجي والسيدة تودا بحكمتهما. ولو كان الأمر بيدك، لكان القرار قد اتخذ منذ زمن طويل، فما قيمة المال الدنيء لأي ساموراي، ناهيك بأعظم دايميو في العالم؟».

توقفت جيوكو لإحداث تأثير. لكنه لم يقع في الفخ بل حرَّك مروحته قليلًا، وهي حركة يمكن أن تُفسر على أنها إشارة إلى الانزعاج من حديثها الطويل أو قبول للمجاملة أو حتى رفض قاطع للسعر المطلوب، حسب مزاجه داخله. وكلاهما يدرك بوضوح من الذي وافق بالفعل على السعر.

تابعت: «ما هو المال؟ لا شيء سوى وسيلة للتواصل، مثل موسيقى كيكو سان. فما الذي نفعله نحن في عالم الصفصاف سوى التواصل والترفيه، لإنارة روح الرجل وتخفيف عبئه».

كبح تورانا جاردًا حادًا، مذكرًا نفسه بأن هذه المرأة اشترت عودًا من الزمن مقابل خمسمائة كوكو، وخمسمائة كوكو تستحق استماعًا منتبهاً. لذا سمح لها بالاستمرار واستمع بإحدى أذنيه، بينما سمح للأخرى بالاستمتاع بتدفق الموسيقى المثالية التي لامست أعماق كيانه، لتملأه بإحساس من النشوة. ثم انتزع بعنف إلى عالم الواقع بفعل شيء قالته جيوكو. سأل: «ماذا؟».

- كنت أقترح فقط أن تتولى حماية عالم الصفصاف، وأن تغير مسار التاريخ.

- كيف؟

- بأن تفعل ما فعلته دائمًا يا سيدي، بالاهتمام بمستقبل الإمبراطورية بأسرها قبل مستقبلك الخاص.

ترك المبالغة السخيفة تمر مرور الكرام، وأمر نفسه بأن يغلق أذنيه عن الموسيقى، فقد سقط في الفخ الأول حين أخبر جيوكو بإحضار الفتاة، والثاني حين سمح لنفسه بالاستمتاع بجمالها وعطرها، والثالث حين سمح لها بالعزف بإغراء بينما تحدثت السيدة.

- عالم الصفصاف؟ ماذا عن عالم الصفصاف؟

- هناك أمران يا سيدي. أولاً أن عالم الصفصاف مختلط حاليًا بالعالم الحقيقي، وهذا يؤثر سلبًا على كليهما. وثانيًا أن نساءنا لا يمكنهن الوصول إلى الكمال الذي يحق لكل رجل أن يتوقعه.

- حقًا؟

تسلل عبيرٌ من عطر كيكو إليه، وهو عطر لم يستنشقه من قبل. كان اختيارها للعطر مثاليًا. نظر إليها دون أن يشعر. كانت تزين شفتيها نصف ابتسامة موجهة له وحده. أغمضت عينها بهدوء وداعبت أصابعها أوتار الساميسن وشعر بلمساتها مباشرة عليه بحميمية.

حاول التركيز: «عذرًا يا جيوكو سان. ماذا كنت تقولين؟».

- أرجو أن تعذرني لعدم وضوح كلامي يا سيدي. أولًا: يجب أن يكون عالم الصفصاف منفصلًا عن العالم الحقيقي. بيت الشاي الخاص بي في ميشيما يقع في شارع واحد في الجنوب، والبقية منتشرة في جميع أنحاء المدينة. وكذلك الحال في كيوتو ونارا، وفي جميع أنحاء الإمبراطورية. حتى في إيدو. لكنني فكرت أن إيدو يمكن أن تحدد نمطًا للعالم. كيف؟

خفق قلبه عندما صدحت نغمة مثالية.

- جميع الحرف الأخرى لديها شوارع خاصة بها، ومناطق خاصة بها. يجب أن يُخصص لنا مكاننا الخاص يا سيدي. إيدو مدينة جديدة؛ قد تفكر في تخصيص قسم لعالم الصفصاف. اجلب جميع بيوت الشاي داخل أسوار هذا القسم وامنع أي بيت شاي -مهما كان متواضعًا- من الوجود خارجه. الآن ركز عقله تمامًا فقد كانت الفكرة ضخمة. كانت جيدة لدرجة أنه لام نفسه لعدم التفكير فيها من قبل. كل بيوت الشاي وجميع المحظيات داخل سياج، وبالتالي يمكن مراقبتها وضبطها وفرض الضرائب عليها، وجميع عملائهم سهل مراقبتهم وضبطهم وفرض الضرائب عليهم بالقدر نفسه. أذهلته بساطة الأمر. وكان يعلم أيضًا التأثير القوي الذي تملكه سيدات الدرجة الأولى. لكن وجهه لم يظهر أي حماس. بل قال: «ما الفائدة من ذلك يا جيوكو سان؟».

- سنمتلك نقابتنا الخاصة يا سيدي، مع كل الحماية التي توفرها النقابة، نقابة حقيقية في مكان واحد، وليست منتشرة هنا وهناك، كما يقال، نقابة يطيعها الجميع...

- يجب أن يطيعوها؟

- نعم يا سيدي. يجب أن يطيعوها، من أجل مصلحة الجميع. ستتولى النقابة مسؤولية ضمان الأسعار العادلة والحفاظ على المعايير. لماذا،

خلال بضع سنوات، ستصبح سيدة الدرجة الثانية في إيدو مساوية
لنظيرتها في كيوتو وهكذا. وإذا كانت الخطة ناجحة في إيدو، فلماذا لا
تُطبق في كل مدينة ضمن نطاق سلطتك؟

- لكن ملاك تلك الأماكن سيسيطرون على كل شيء داخل السياج، إنهم
احتكاريون، أليس كذلك؟ يمكنهم فرض رسوم دخول باهظة، أليس
كذلك. وقد يمنعون الكثيرين ممن يحق لهم العمل في عالم الصفصاف،
أليس كذلك؟

- بلى، هذا ممكن يا سيدي. وقد يحدث في بعض الأماكن والأوقات. ولكن
يمكن وضع قوانين صارمة لضمان العدالة، ويبدو أن الفوائد تفوق
السلبات، لنا ولزبائننا ولعملائنا الكرام. ثانيًا: النساء في...

قال توراناغا ببرود: «دعينا ننه النقطة الأولى يا جيوكو سان. إذن هذه
نقطة مخالفة لاقتراحك، أليس كذلك؟».

- بلى يا سيدي. هذا ممكن. ولكن أي دايميو يمكنه بسهولة إصدار أمر
بخلاف ذلك. وسيكون عليه التعامل مع نقابة واحدة في مكان واحد.
أما أنت يا سيدي، فلن تواجه أي مشكلة. كل منطقة ستكون مسؤولة
بالطبع عن حفظ السلام فيها. وعن الضرائب.

- نعم، الضرائب. سيكون جمع الضرائب أسهل بكثير بالتأكد. هذه نقطة
قوية لصالح الاقتراح.

كانت عينا جيوكو على عود البخور. فقد احترق أكثر من نصفه. قالت:
«قد تقرر بحكمته أن يكون عالم الصفصاف العالم الوحيد الذي لا يُفرض
عليه ضرائب إلى الأبد أبدًا، أبدًا، أبدًا». رفعت بصرها إليه بوضوح وصوتها
بريء: «فبعد كل شيء يا سيدي، ألا يُعرف عالمنا أيضًا بالعالم العائم؟ أليست
عروضنا الوحيدة هي الجمال؟ أليس جزء كبير من الجمال هو الشباب؟ ألا
يُعد الشباب الذي هو زائل وسريع الفناء هدية من الآلهة ومقدسًا؟ أنت من
بين جميع الرجال يا سيدي، يجب أن تدرك كم أن الشباب نادر وسريع الزوال،
وكذلك المرأة».

توقفت الموسيقى. اتجهت أنظاره إلى كيكو سان. كانت تراقبه بانتباه
وعبوس صغير يعلو جبينها.

قال بصدق وهو يحتسي الشاي: «نعم، أعلم كم يمكن أن يزول ذلك. سأفكر فيما قلته. ثانيًا؟».

استجمعت جيوكو أفكارها: «ثانيًا. النقطة الثانية والأخيرة يا سيدي، هي أنه بإمكانك وضع ختمك على عالم الصفصاف إلى الأبد. انظر إلى بعض سيداتنا: كيكو سان على سبيل المثال، درست الغناء والرقص والعزف على الساميسن منذ أن كانت في السادسة. كانت تعمل بجد في كل لحظة في حياتها لتتقن فنها. وبالفعل، استحققت أن تصبح سيدة من الدرجة الأولى كما يستحق فنها الفريد. لكنها لا تزال محظية، ويتوقع بعض العملاء أن يستمتعوا بها في الفراش كما يستمتعون بفنها. أعتقد أنه يجب إنشاء طبقتين من السيدات. الأولى، المحظية كالعادة: مرحلة وسعيدة وحميمية. والثانية طبقة جديدة، قد نصفها بالجيشا: فنانون، أشخاص مكرسون بالكامل للفن. لن يتوقع من الجيشا الذهاب إلى الفراش كجزء من واجبهن. بل سيكون مخصصات للترفيه والرقص والغناء والعزف فقط. دع الجيشا يُسلّين عقول وأرواح الرجال بجمالهن ورشاقتهن وفنهن، والمحظيات لتلبية رغبات الجسد بجمالهن ورشاقتهن وفنهن المماثل».

أذهلته بساطة فكرتها مجددًا وإمكاناتها الواسعة. قال: «كيف ستختارين جيشا؟».

- بناءً على قدرتها. سيقدر مالکها عند البلوغ مسار مستقبلها. ويمكن للنقابة أن توافق أو ترفض المتدربة، أليس كذلك؟
- إنها فكرة استثنائية يا جيوكو سان.

انحنت المرأة قليلًا وارتجفت قائلة: «أرجو أن تسامحني على الإطالة يا سيدي، ولكن بهذه الطريقة، عندما يتلاشى الجمال ويثمن الجسد، يمكن للفتاة أن تجد لنفسها مستقبلًا نادرًا وقيمة حقيقية. لن تضطر إلى السير في الطريق الذي تسلكه جميع المحظيات اليوم. أناشذك من أجل الفنانات بينهن، كيكو سان واحدة منهن. أطلب منك أن تمنح هؤلاء المختارات مستقبلًا ومكانة يستحققنها في البلاد. إن تعلم الغناء والرقص والعزف يتطلب سنوات من التدريب المستمر. الجماع يحتاج إلى الشباب، ولا يوجد مثير للشهوة أكثر من الشباب، أليس كذلك؟».

راقبها توراناها: «نعم. هل يجوز للجيشا أن يجامعن؟».

- لن يكون هذا جزءاً من واجب الجيشا، مهما كان المال المعروض. لن تكون الجيشا ملزمة بالجماع يا سيدي. وإذا رغبت جيشا في مجامعة رجل معين، سيكون ذلك شأنًا خاصًا بها... أو ربما يجب ترتيب ذلك بموافقة سيدتها، والسعر يكون فقط في حدود قدرة ذلك الرجل. أما واجب المحظية فسيكون الجماع بفن. أما الجيشا والمتدربات منهن سيكُنَّ من المحظر مسَّهن. أرجو المَعذرة على الإطالة.

انحنت كلا من جيوكو وكيكو. لم يتبَقَّ إلا جزء صغير من عود البخور. استمر تورانا جا في استجوابهما ضعف الوقت المخصص، مسرورًا بفرصة التعرف على عالمهما، ومستكشفًا أفكارهما وآمالهما ومخاوفهما. ما تعلمه أثار حماسه. سجل المعلومات لاستخدامها في المستقبل، ثم أرسل كيكو إلى الحديقة. قال: «الليلة يا جيوكو سان، أود أن تبقى إذا كانت ترغب في ذلك، حتى الفجر إذا كانت مباحة. هل يمكنك أن تسألها رجاءً؟ بالطبع أدرك أنها قد تكون متعبة الآن. فبعد كل شيء، لقد عزفت بروعة لفترة طويلة وسأتفهم تمامًا. ولكن ربما تفكر في الأمر. سأكون ممتنًا إذا طلبت منها ذلك».

- بالطبع يا سيدي، لكنني أعلم أنها ستتشرف بدعوتك. إنه واجبنا أن نخدم بأي طريقة ممكنة، أليس كذلك؟

- بلى. لكنها مميزة للغاية كما أشرت. سأفهم تمامًا إذا كانت متعبة جدًا. رجاءً اسألها بعد قليل.

قدم لجيوكو حقيبة صغيرة من الجلد تحتوي على عشرة كوبان، نادمًا على البذخ لكنه يعلم أن مكانته تتطلب ذلك. تابع: «ربما يعوزك هذا عن الأمسية المرهقة، ويكون تعبيرًا صغيرًا عن شكري لأفكارك».

قالت جيوكو، رآها تحاول إيقاف أصابعها عن العد من خلال الجلد الناعم لكنها فشلت: «واجبنا هو الخدمة يا سيدي. شكرًا لك يا سيدي. أرجو المَعذرة، سأطلب منها». ثم امتلأت عيناها بالدموع بغتة وبغرابة وتابعت: «أرجو أن تقبل شكر امرأة مسنة فظة على حسن استقبالك واستماعك. الأمر فقط أن كل ما نقدمه من متعة يكافئ بنهر من الدموع. في الحقيقة يا سيدي، من الصعب تفسير كيف تشعر المرأة... أرجو أن تعذرني...».

- اسمعي يا جيوكو سان، أنا أتفهم. لا تقلقي. سأفكر في كل ما قلت. وأجل، ستغادران معي بعد الفجر بفترة قصيرة. سيساعد قضاء بضعة

أيام في الجبال على تغيير المزاج. أتوقع أن يُوافق على سعر العقد،
أليس كذلك؟

انحنت جيوكو شاكرةً له، ثم مسحت دموعها وقالت بحزم: «هل يمكنني
إذن أن أسأل عن اسم الشخص الموقر الذي سيُشترى العقد من أجله؟».

- يوشي توراناغا نو مينووارا.

الآن تحت ليل يوكوسي والهواء باردٌ ومنعشٌ، ترك توراناغا عقله يهيم
بينما كانت موسيقى كيكو سان وصوتها يمتلكان عقولهم وقلوبهم. تذكر
توهج الفخر الذي غمر وجه جيوكو وتساءل مجددًا عن السذاجة المحيرة
للبشر. كم هو محير أن حتى أذكى الناس وأكثرهم دهاءً يرون فقط ما
يريدون رؤيته، ونادرًا ما ينظرون إلى ما وراء أرق الواجهاة. أو يتجاهلون
الواقع ويعتبرونه الواجهاة. ثم عندما ينهار عالمهم ويجدون أنفسهم على
ركبهم يمزقون بطونهم أو يقطعون حناجرهم، أو يُلقون في العالم المتجمد،
فإنهم يمزقون خصلاتهم المرفوعة أو يشقون ملابسهم وينوحون على الكارما
الخاصة بهم، ويلقون اللوم على الآلهة أو الكامي أو الحظ أو زعمائهم أو
أزواجهم أو أتباعهم - أي شيء أو أي شخص - إلا أنفسهم.
كم هو غريب جدًا.

نظر إلى ضيوفه ورأى أنهم ما زالوا يراقبون الفتاة، منغمسين في أسرارهم،
عقولهم منفتحة بفنها، ما عدا أنجين سان الذي كان متوترًا ومضطربًا. فكر
توراناغا باستمتاع: لا بأس يا أنجين سان، إنه فقط قلة تحضرك. نعم، لا
تقلق، ستكتسبه بمرور الوقت، والأمر لا يهم حتى ذلك الحين ما دمت تطيع.
أما في الوقت الحالي، أحتاج إلى حساسيتك وغضبك وعنفك.

نعم، أنتم جميعًا هنا. أنتم يا أومي ويابو وناجا وبونتارو، وأنتن يا ماريكو
وكيكو سان وحتى جيوكو، وجميع صقور إيزو الخاصة بي، مدربة وجاهزة.
الجميع هنا باستثناء واحد... الكاهن المسيحي. وسرعان ما سيأتي دورك يا
تسوكو سان. أو ربما دوري.

كان الأب مارتن ألفيتو من جمعية اليسوعيين غاضبًا. تمامًا عندما علم أنه
يجب أن يستعد للاجتماع مع توراناغا، حيث سيحتاج إلى كل ذكائه، واجه هذه

الفاحشة الجديدة التي لم يكن بالإمكان تأجيلها. صاح بغضب في المتدرب الياباني الذي كان يركع خاضعاً أمامه: «ماذا لديك لتقوله عن نفسك؟».

وقف باقي الإخوة في الغرفة الصغيرة على شكل نصف دائرة.

تمتم الرجل في بؤس تام: «أرجوك اغفر لي يا أبت. لقد أثمت. أرجوك اغفر...».

- أكرر: إن الرب هو الوحيد القادر بحكمته على أن يغفر، وليس أنا. لقد ارتكبت خطيئة مميتة. لقد انتهكت قسمك المقدس. حسناً؟

كان الرد بالكاد مسموعاً: «أنا آسف يا أبت».

كان الرجل نحيفاً وضعيفاً. كان اسم معموديته يوسف وكان في الثلاثين من عمره. كان يتراوح عمر زملائه المتدربين -جميعهم إخوة من الجمعية- بين الثامنة عشرة والأربعين. جميعهم حليقو الرأس من طبقة الساموراي النبيلة من مقاطعات كيوشو، جميعهم تدربوا بصرامة للكهانة لكن لم يُرسم أحد منهم بعد.

قال الأخ يوسف مع إبقاء رأسه منخفضاً: «لقد اعترفت يا أبت».

- هل تعتقد أن هذا يكفي؟

استدار ألفيتو مبتعداً بغضب متجهاً نحو النافذة. كانت الغرفة عادية، الأفرشة مقبولة والشاشات الورقية لأبواب الشوجي مرممة بشكل سيئ. كان النزل متواضعاً ومن الدرجة الثالثة، لكنه أفضل ما استطاع أن يجده في يوكوسي، حيث استولى الساموراي على البقية. نظر إلى الليل في الخارج، مستمعاً قليلاً لصوت كيكو البعيد وهو يرتفع فوق ضجيج النهر. كان يعلم أنه لن يُستدعى من قبل توراناغا حتى تنتهي المحظية من عزفها. تمت لنفسه تقريباً: «عاهرة قذرة».

حيث أزعجه النحيب المزعج للغناء الياباني أكثر من المعتاد، مما زاد من غضبه تجاه خيانة يوسف.

التفت ألفيتو إلى الإخوة الآخرين وقال: «استمعوا يا إخوة، نحن هنا نحكم على الأخ يوسف، الذي ذهب مع عاهرة من هذه المدينة الليلة الماضية، وانتهك قسمه المقدس للعفة، وانتهك قسمه المقدس للطاعة، ودنس روحه الخالدة ومكانته كيسوعي ومكانته في الكنيسة وكل ما تمثله. أسألكم جميعاً أمام الرب... هل فعلتم مثله؟».

هزوا رؤوسهم جميعاً.

- هل فعلتم مثله من قبل؟

- لا يا أبت.

- أنت أيها الآثم! هل تعترف أمام الرب بخطيئتك؟

- نعم يا أبت، لقد اعترفت بالفعل...

- أمام الرب، هل هذه هي المرة الأولى؟

قال يوسف: «لا، لم تكن المرة الأولى. لقد... لقد ذهبت مع أخرى قبل أربعة أيام... في ميشيما».

- لكن... لكننا صلينا القداس بالأمس! ماذا عن اعترافك بالأمس واللييلة الماضية والتي قبلها، ألم... لقد صلينا القداس بالأمس! بحق الرب، لقد تناولت القربان المقدس دون اعتراف، وأنت تعلم تمام العلم بخطيئتك المميتة؟

كان وجه الأخ يوسف شاحبًا من العار. لقد كان مع اليسوعيين منذ أن كان في الثامنة من عمره. قال: «كانت هذه هي المرة الأولى يا أبت. قبل أربعة أيام فقط. كنت بلا خطيئة طوال حياتي. أغويت... ولتسامحني مريم المباركة، هذه المرة فشلت. أنا في الثلاثين. أنا رجل... نحن جميعًا رجال. رجاء، لقد غفر الرب يسوع للخطاة... لماذا لا تستطيع أن تغفر لي؟ نحن جميعًا رجال...».

- نحن جميعًا كهنة.

قال يوسف بتجهم: «نحن لسنا كهنة حقيقيين. لم نتعهد بعد... نحن حتى لم نرسم بعد! نحن لسنا يسوعيين حقيقيين. لا يمكننا أن نؤدي القسم الرابع مثلك يا أبت. تتولى الطوائف الأخرى ترسيم أعضائها، لكن ليس اليسوعيون. لماذا لا يجب أن...».

- اصمت.

انفجر يوسف: «لن أصمت. أرجوك اعذرني يا أبت، ولكن لماذا لا يجب أن يرسم بعضنا ككهنة؟».

أشار إلى أحد الإخوة، رجل طويل بوجه مستدير، يراقب بهدوء. وتابع: «لماذا لا يرسم الأخ مايكل؟ لقد درس منذ أن كان في الثانية عشرة من عمره. الآن هو في السادسة والثلاثين وهو مسيحي مثالي، يكاد يكون قديسًا. لقد جعل آلاف الأشخاص يعتنقون المسيحية لكنه لم يرسم بعد...».

- باسم الرب، ست...

كان يوسف واقفًا على قدميه الآن: «باسم الرب يا أبت، لماذا لا يمكن أن يُرسم أحدنا؟ يجب أن يجرؤ شخص ما على سؤالك. لقد تدرّبت لمدة ستة عشر عامًا، والأخ ماتيو لمدة ثلاثة وعشرين، وجولياو أكثر من ذلك، طوال حياتنا، سنوات لا تحصى. نحن نعرف الصلوات والتعليمات والبرنيمات أفضل منك، وأنا ومايكل نتحدث اللاتينية كما نتحدث البرتغالية...».

- توقف.

- ... البرتغالية، ونقوم بمعظم الوعظ والنقاشات مع البوذيين وجميع عبدة الأوثان الآخرين ونعمل على جعلهم يعتنقون المسيحية. نحن نفعل! بحق الرب والعذراء المباركة، ما الخطأ فينا؟ لماذا لسنا جيدين بما يكفي بالنسبة لليسوعيين؟ هل الأمر فقط لأننا لسنا برتغاليين أو إسبانيين، أو لأننا لسنا مشعرين أو ذوي أعين مستديرة؟ بحق الرب يا أبت، لماذا لا يوجد يسوعي ياباني مرسوم؟

- الآن ستصمت.

انفجر يوسف: «لقد ذهبنا حتى إلى روما، أنا ومايكل وجولياو. أنت لم تذهب إلى روما ولم تقابل الأب العام أو قداسة البابا مثلنا...».

- وهذا سبب آخر يجعلك تعلم أنه من الأفضل عدم الجدل. لقد تعهدت بالعفة والفقر والطاعة. لقد أُخترت من بين الكثيرين، وفضّلت على الكثيرين، والآن سمحت لروحك بأن تفسد إلى درجة...

- عذرًا يا أبت، لكنني لا أعتقد أننا كنا مفضلين لنقضي ثماني سنوات في الذهاب والإياب إذا كان بعد كل تعلّمنا وصلاتنا ووعظنا وانتظارنا لم يُرسم أي واحد منا رغم وعدنا. كنت في الثانية عشرة عندما غادرت. وجولياو كان في الحادية عش...

- أمنعك من قول المزيد. أمرك بالتوقف.

ثم نظر ألفيتو إلى الآخرين في وسط الصمت المروع، كانوا يصطفون على طول الجدران يراقبون ويستمعون بانتباه. قال: «ستُرسَمون جميعًا في الوقت المناسب. لكنك يا يوسف، أمام الرب س...».

انفجر يوسف: «أمام الرب، في أي وقت؟».

قال ألفيتو بقسوة، مدهوشًا من هذا التمرد العلني، وغضبه يشتعل: «متى يشاء الرب. اجثُ على ركبتك الآن».

حاول الأخ يوسف التحديق إليه ولكنه لم يستطع، ثم عندما انتهت نوبة غضبه، زفر وجثًا على ركبتيه وانحنى برأسه.

- ليكون الرب رحيماً بك. لقد اعترفت بنفسك بخطيئة مميتة بشعة، مذنباً بانتهاك قسمك المقدس للعفة، وقسمك المقدس بالطاعة لرؤسائك. ومذنب بوقاحة لا تصدق. كيف تجرؤ على التشكيك في أوامر قائدنا أو سياسة الكنيسة؟ لقد عرضت روحك الخالدة للخطر. أنت عار على إلهك وطائفتك وكنيستك وعائلتك وأصدقائك. قضيتك خطرة للغاية بحيث سيتعين على الأب الزائر التعامل معها بنفسه. وحتى ذلك الحين، لن تتناول القربان المقدس، ولن تعترف أو تستمع إلى اعتراف ولن تشارك في أي قداس...

بدأت أكتاف يوسف ترتجف من عذاب الندم الذي استحوز عليه.

- كعقاب أولي، يمنع عليك التحدث، ولن تأكل سوى الأرز والماء لمدة ثلاثين يوماً، وستقضي كل ليلة من الثلاثين ليلة القادمة على ركبتك في الصلاة للعدراء المباركة طلباً للمغفرة عن خطاياك البشعة، وبالإضافة إلى ذلك، ستُجلد ثلاثون جلدة. اخلع رداك.

توقفت أكتافه عن الارتجاج. نظر يوسف إلى الأعلى وقال: «أقبل كل ما أمرت به يا أبت، وأعتذر من كل قلبي ومن كل روحي. أرجو أن تغفر لي كما سأطلب غفرانه إلى الأبد. لكنني لن أجلد كأني مجرم عادي».

- ستُجلد.

قال يوسف: «أرجوك اعذرني يا أبت. باسم العذراء المباركة، المشكلة ليست في الألم. الألم لا يعني لي شيئاً، الموت لا يعني لي شيئاً. قد تكون الكارما الخاصة بي أنني ملعون وسأحترق في الجحيم إلى الأبد، وسأتحمل ذلك. لكنني ساموراي. أنا من عائلة الزعيم هاريم».

- كبرياؤك تجعلني أشعر بالاشمئزاز. أنت لن تُعاقب من أجل الألم، بل لإزالة كبرياؤك المقززة. مجرم عادي؟ أين تواضعك؟ لقد تحمل الرب المسيح الإذلال. ومات مع مجرمين عاديين.

- نعم. هذه هي مشكلتنا الرئيسية هنا يا أبت.

- ماذا؟

- أرجو أن تعذر صراحتي يا أبت، ولكن لو لم يمت ملك الملوك كأبي مجرم عادي على الصليب، لكان الساموراي قد قبلوا...
- توقف.

- ... المسيحية بسهولة أكبر. كانت الجمعية حكيمة بتجنب الوعظ بالمسيح المصلوب مثل الطوائف الأخرى...

رفع ألفيتو صليبه كدرع أمامه مثل منتقم وقال: «باسم الرب، اصمت وأطع أو ستُحرَم كنسيًا. أمسكوه وانزعوا عنه ثيابه».

تحرك الآخرون للأمام لكن يوسف قفز على قدميه. ظهر سكين من تحت رداءه. وضع ظهره إلى الحائط. توقف الجميع في أماكنهم باستثناء الأخ مايكل. تقدم مايكل ببطء وهدوء ماديًا يده وقال بلطف: «رجاءً أعطني السكين يا أخي».

- لا. رجاءً اعذرني.

- إذن صلّ من أجلي يا أخي، كما سأصلي من أجلك.

وصل مايكل بهدوء إلى السلاح.

تراجع يوسف بضع خطوات للخلف، ثم استعد للطعنة المميتة وقال: «سامحني يا مايكل».

واصل مايكل التقدم.

أمر ألفيتو: «توقف يا مايكل، اتركه وشأنه».

أطاع مايكل، متوقفًا على بعد سنتيمترات من الشفرة المعلقة.

ثم قال ألفيتو بوجه شاحب: «ليكن الرب رحيماً بك يا يوسف. لقد حُرمت كنسيًا. لقد استحوذ الشيطان على روحك في الدنيا كما سيستحوذ عليها بعد الموت. اغرب عن وجهي».

صرخ يوسف: «أنا أتخلى عن رب المسيحية. أنا ياباني... أنا شنتو. روحي ملك لي الآن. لست خائفًا. نعم، نحن نمتلك كبرياء... على عكس الهمج. نحن يابانيون ولسنا همجًا. حتى فلاحونا ليسوا همجًا».

رسم ألفيتو إشارة الصليب كحماية لهم جميعًا بجديّة، وأدار ظهره للسكين بلا خوف وقال: «دعونا نُصلّ معًا يا إخوة. فإن الشيطان في وسطنا».

استدار الآخرون أيضًا، الكثير منهم بحزن، وبعضهم لا يزال في حالة من الصدمة. بينما ظل مايكل فقط في مكانه ناظرًا إلى يوسف. نزع يوسف مسبحة وصليبه. كان على وشك رميها بعيدًا، لكن مد مايكل يده مجددًا وقال: «رجاءً يا أخي، أعطني إياهما... إنهما هدية بسيطة للغاية».

نظر يوسف إليه طويلًا ثم أعطاه إياهما وقال: «رجاءً اعذرني».

قال مايكل: «سأصلي من أجلك».

- ألم تسمع؟ لقد تخلّيت عن الرب.

- سأصلي حتى لا يتخلّى عنك الرب يا أوراجا نو تاداماسا سان.

قال يوسف: «سامحني يا أخي».

أدخل السكين في حزامه ثم فتح الباب بعنف وسار بعشوائية على طول الممر نحو الشرفة. كان الناس يراقبونه بفضول، ومن بينهم يو الصياد الذي كان ينتظر بصبر في الظلال. عبر يوسف الفناء واتجه نحو البوابة. وقف ساموراي في طريقه. - قف.

توقف يوسف.

- إلى أين أنت ذاهب؟

- أنا آسف، أرجو المعذرة لكني لا... لا أعلم.

- أنا في خدمة الزعيم توراناغا. اعذرني لكني لم أستطع إلا أن أسمع ما جرى هناك. لا بد أن النزل كله قد سمع. وقاحة صادمة... صادمة لقائئك أن تصرخ بهذه الطريقة ويعكر صفو السلام. وأنت أيضًا. أنا في الخدمة هنا. أعتقد أنه من الأفضل أن تقابل ضابط دوريتي.

- أعتقد... شكرًا لك، سأذهب في الاتجاه الآخر. أرجو المعذرة...

- عذرًا لكنك لن تذهب إلى أي مكان. إلا لمقابلة ضابطي.

حاول يوسف جعل عقله يعمل: «ماذا؟ آه... نعم. نعم، أنا آسف، بالطبع».

- جيد. شكرًا لك.

استدار الساموراي عندما اقترب ساموراي آخر من الجسر وألقى التحية.

- أنا هنا لاستدعاء تسوكو سان للزعيم توراناغا.

- جيد. أنت متوقع حضورك.

الفصل الثالث والأربعون

راقب توراناكا الكاهن الطويل وهو يقترب عبر الساحة، برزت ملامح وجهه النحيل أكثر فوق سواد لحيته تحت ضوء المشاعل. كان رداء الكاهن البوذي البرتقالي أنيقًا، ويتدلى من خصره مسبحة وصليب. توقف الأب ألفيتو على بعد سبعة أمتار وجثًا منحنيًا احترامًا، وبدأ في الإجراءات المعتادة.

توراناجا جالسًا بمفرده على المنصة، وحوله حراس يقفون في نصف دائرة، بعيدين عن نطاق السمع. بلاكثورن هو الوحيد القريب منه، يتكئ على المنصة كما أمر، وعيناه تخرقان الكاهن. بدأ ألفيتو وكأنه لم يلاحظ وجوده. قال الأب ألفيتو عندما كان الوقت مناسبًا للحدث: «تسرُّني رؤيتك يا سيدي».

- وتسرُّني رؤيتك يا تسوكو سان.

أشار توراناكا للكاهن ليجلس على الوسادة التي وُضعت على التاتامي أمام المنصة وتابع: «لقد مضى وقت طويل منذ أن رأيتك».

- نعم يا سيدي، يوجد الكثير لأخبرك إياه.

كان ألفيتو مدرِّكًا تمامًا أن الوسادة وُضعت على الأرض وليس على المنصة. كما أنه كان مدرِّكًا أيضًا لسيوف الساموراي التي يحملها بلاكثورن بالقرب من توراناكا والطريقة التي كان يتكئ بها بتلك اللامبالاة. تابع حديثه: «أحمل رسالة سرية من رئيسي الأب الزائر، الذي يحييك باحترام».

- شكرًا لك. لكن أولاً أخبرني عنك.

قال ألفيتو وهو يشعر أن توراناكا كان حكيماً لذا لن يفوته ملاحظة الندم الذي يعتريه رغم محاولته جاهداً التخلص منه قال: «الليلة أدرك تمامًا إخفاقاتي. الليلة أودُّ أن يُسمح لي بتأجيل واجباتي الدنيوية والتفرغ للاعتكاف للصلاة والتضرع من أجل فضل الرب».

كان يشعر بالخجل من افتقاره للتواضع. رغم أن خطيئة يوسف كانت مروعة، فإن ألفيتو تصرف بتهور وغضب وحماسة. كان يشعر أنه المسؤول عن طرد روح لتضيق إلى الأبد. أكمل: «لقد قال ربنا ذات يوم: «يا أبت، إن أمكن، فلتعبر عني هذه الكأس». ولكن حتى هو كان عليه أن يحتفظ بالكأس. في هذا العالم، نحن علينا محاولة اتِّباع خُطاه بقدر ما نستطيع. أرجو أن تعذرني للسماح لمشكلتي بالظهور».

- ماذا كانت «كأسك» يا صديقي القديم؟

أخبره ألفيتو. كان يعلم أنه لا فائدة من إخفاء الحقيقة، لأن بالطبع كان توراناغا سيعلمها قريبًا إن لم يكن يعرفها بالفعل، وكان من الأفضل سماع الحقيقة مباشرة بدلًا من نسخة مشوهة منها. قال: «إنه من المحزن أن تفقد أخًا، ومن الفظيع أن تجعل أحدهم منبوذًا، مهما كانت جريمته. كان يجب أن أتحدى بالصبر أكثر. كان هذا خطئي».

- أين هو الآن؟

- لا أعلم يا سيدي.

استدعى توراناغا حراس وقال: «ابحث عن المسيحي المرتد وأحضره لي عند الظهيرة غدًا».

أسرع الساموراي بالمغادرة.

قال ألفيتو بسرعة: «ألتمس الرحمة له يا سيدي».

كان يعني ما قال. لكنه كان يعلم أن ما يقوله لن يغير كثيرًا من قرار توراناغا الذي يبدو أنه قد اتخذه بالفعل. تمنى مجددًا لو أن الجمعية كانت تملك سلطة مدنية خاصة بها لاعتقال ومعاقة المرتدين، كما هو الحال في أماكن أخرى من العالم. كان قد أوصى مرارًا وتكرارًا بإنشاء هذه السلطة، لكن لطالما كان يُرفض طلبه، هنا في اليابان، وأيضًا في روما من قبل قائد الطائفة. فكر بتعب: ولكن من دون السلطة المدنية، لن نتمكن أبدًا من فرض الانضباط الحقيقي على إخوتنا وقطيعنا.

- لماذا لا يوجد كهنة مُرسمون داخل جمعيتكم يا تسوكو سان؟

- لأنه يا سيدي، لا يوجد حتى الآن أيُّ من تلاميذنا قد تدرب بما فيه الكفاية. على سبيل المثال، اللاتينية ضرورية للغاية لأن طائفتنا تتطلب

من أي أخ أن يسافر إلى أي مكان في العالم في أي وقت، واللاتينية للأسف صعبة جدًا في التعلم. لا يوجد أحد منهم مُدرب بعد، أو جاهز.

كان ألفيتو يؤمن بهذا تمامًا. كما كان يعارض بشدة وجود كهنوت يسوعي مرسوم لليابانيين، خلافًا لرأي الأب الزائر. وكان دائمًا يقول: «يا صاحب النيافة، رجاءً لا تنخدع بمظهرهم المتواضع والمهذب. فإن تحت هذا المظهر توجد شخصيات غير موثوقة، وكبرياؤهم وهويتهم اليابانية ستظل دومًا تهيمن عليهم. لن يصبحوا أبدًا خدامًا حقيقيين للجمعية، أو جنودًا موثوقين لخدمة البابا، نائب المسيح على الأرض، مطيعين له وحده. أبدًا».

ألقي ألفيتو نظرة خاطفة على بلاكثورن، ثم عاد بنظره إلى توراناغا الذي قال: «لكن اثنين أو ثلاثة من هؤلاء الكهنة المتدربين يتحدثون اللاتينية، أليس كذلك، والبرتغالية أيضًا؟ هل ما قاله هذا الرجل صحيح؟ لماذا لم يُختيروا؟».

- عذرًا لكن قائد جمعيتنا لا يعتبرهم مستعدين بما فيه الكفاية. ربما يكون انهيار يوسف المأسوي مثالًا على ذلك.

قال توراناغا: «إنه من السيئ انتهاك قسم مقدس».

تذكر العام الذي أبحر فيه الأولاد الثلاثة من ناجازاكي على متن السفينة السوداء ليُحتفى بهم في بلاط ملك إسبانيا وفي بلاط كبير الكهنة المسيحيين، وهو العام نفسه الذي أُغتيل فيه جورودا. عادوا بعد تسع سنوات، لكن كل وقتهم في الخارج كان تحت المراقبة والتحكم. لقد غادروا كمتعصبين مسيحيين ساذجين وعادوا ضيقى الأفق تقريبًا كما كانوا عندما غادروا. فكر توراناغا: يا لها من مضيعة غبية، مضيعة لفرصة لا تصدق والتي رفض جورودا استغلالها رغم أنه نصحه بذلك.

قال جورودا: «لا يا تورا سان، نحن بحاجة إلى المسيحيين ضد البوذيين. العديد من الرهبان والكهنة البوذيين هم جنود، أليس كذلك؟ معظمهم كذلك. المسيحيون ليسوا كذلك. دع الكاهن العملاق يأخذ الأولاد الثلاثة الذين يريدهم، إنهم مجرد حمقى من كيوشو. أخبرك أن تشجع المسيحيين. لا تزعجني بخطة مدتها عشر سنوات، لكن أحرق كل دير بوذي في متناول يدك. البوذيون مثل الذباب على الجيفة، والمسيحيون ليسوا سوى كيس من الريح».

فكر توراناغا بانزعاج متزايد: الآن لم يعودوا كذلك. الآن هم دبابير.

قال بصوت عالٍ: «نعم، إنه من السيئ جدًا انتهاك قسم والصراخ وتعكير صفو الانسجام في النزل».

- أرجو أن تعذرني يا سيدي، وأن تسامحني على ذكر مشكلاتي. شكرًا لاستماعك. كما هو الحال دائمًا فإن اهتمامك يجعلني أشعر بتحسن. هل يمكن السماح لي بتحية الربان؟

وافق تورانا جا.

قال الأب ألفيتو بالبرتغالية: «أهنئك يا ربان، سيوفك تناسبك».

أجاب بلاكتورن: «شكرًا لك يا أبت، أنا أعلم استخدامهما، لكن للأسف لست ماهرًا فيها بعد. سأظل أستخدم المسدسات أو سيوف البحارة أو المدافع عندما أضطر إلى القتال».

- أصلي ألا تضطر إلى القتال مجددًا يا ربان، وأن تفتح عينيك لرؤية رحمة الرب اللامتناهية.

- عينا ي مفتوحتان. بينما عينك مغلقتان.

- من أجل خلاص روحك يا ربان، أبقِ عينيك وعقلك مفتوحين. ربما تكون مخطئًا. ومع ذلك، عليّ أن أشكرك لإنقاذك حياة الزعيم تورانا جا.

- من أخبرك ذلك؟

لم يجب ألفيتو، ثم التفت إلى تورانا جا مجددًا.

سأل تورانا جا كاسرًا الصمت: «ماذا قيل؟».

أخبره ألفيتو، وأضاف: «رغم أنه عدو لإيماني وقرصان، فإنني سعيد لأنه أنقذك يا سيدي. الرب يعمل بطرق غامضة. لقد شرفته كثيرًا بجعله ساموراي».

- إنه هاتاموتو أيضًا.

استمتع تورانا جا بملاحظة دهشة الكاهن العابرة. قال: «هل أحضرت قاموسًا؟».

- نعم يا سيدي، مع الكثير من الخرائط التي طلبتها، والتي تظهر بعض القواعد البرتغالية في الطريق من جوا. الكتاب موجود في أمتعتي. هل يمكنني إرسال شخص لإحضاره، أم هل يمكنني تسليمه له بنفسني لاحقًا؟

- سلمه له لاحقًا. الليلة أو غدا. هل أحضرت التقرير أيضًا؟
- بخصوص الأسلحة المزعومة التي يُقال إنها جاءت من ماكاو؟ الأب الزائر يقوم بإعداده يا سيدي.
- وماذا عن أعداد المرتزقة اليابانيين الذين يعملون في كل قاعدة من قواعدكم الجديدة؟
- طلب الأب الزائر تقريرًا محدثًا من جميع القواعد يا سيدي، وسيقدمه لك حال اكتماله.
- جيد. الآن أخبرني كيف عرفت عن إنقاذي؟
- قلما يحدث شيء لتوراناجا نو مينووارا ولا يصبح حديث الشائعات والأساطير. سمعنا أنك كنت على وشك أن تُبتلع في زلزال في أثناء قدومنا من ميشيما، ولكن «الهمجي الذهبي» أنقذك. سمعنا أيضًا أنك فعلت الشيء نفسه معه ومع سيدة... أفترض أنها السيدة ماريكو؟
- أوما توراناجا بإيجاز وقال: «نعم. إنها هنا في يوكوسي». فكر للحظة ثم أضاف: «إنها ترغب في الاعتراف غداً، وفقاً لعاداتكم. ولكن فقط الأمور التي لا علاقة لها بالسياسة. أفترض أن ذلك يستبعد كل ما يتعلق بي وبالهاتاموتو، أليس كذلك؟ لقد شرحت ذلك لها أيضًا».
- انحنى ألفيتو تعبيرًا عن تفهمه وقال: «إذا أذنت، هل يمكنني إقامة قداس لجميع المسيحيين هنا يا سيدي؟ سيكون ذلك بسرية تامة بالطبع. غداً؟».
- سأفكر في الأمر.
- واصل توراناجا الحديث عن أمور غير مهمة لبعض الوقت ثم قال: «هل لديك رسالة لي؟ من كبير الكهنة؟».
- أرجو أن أخبرك كلَّ تواضع يا سيدي أنها رسالة خاصة.
- تظاهر توراناجا بالتفكير في الأمر رغم أنه قد حدد بالفعل كيف ستسير الأمور في هذا الاجتماع، وأعطى أنجين سان تعليمات محددة حول كيفية التصرف وما يجب قوله. قال: «حسنًا». ثم التفت إلى بلاكثورن وقال: «أنجين سان، يمكنك الذهاب الآن وسنتحدث أكثر لاحقًا».
- أجاب بلاكثورن: «حسنًا يا سيدي، عذرًا لكن السفينة السوداء. هل وصلت إلى ناجازاكي؟».

أجاب تورانا جا بسرور من أن سؤال أنجين سان لم يبدو مُعَدًّا مسبقًا: «نعم. شكرًا لك. هل رست بالفعل يا تسوكو سان؟».

تفاجأ ألفيتو من لغة بلاكتورن اليابانية وشعر بالقلق الشديد من سؤاله. أجاب: «نعم يا سيدي. رست قبل أربعة عشر يومًا».

قال تورانا جا: «أربعة عشر؟ هل تفهم يا أنجين سان؟».

- نعم. شكرًا لك.

- جيد. يمكنك سؤال تسوكو سان عن أي شيء آخر لاحقًا، حسنًا؟

- حسنًا يا سيدي. رجاءً اعذرني.

نهض بلاكتورن وانحنى وغادر.

راقبه تورانا جا وهو يغادر ثم قال: «رجل مثير للاهتمام... بالنسبة لقرصان. الآن أخبرني أولاً عن السفينة السوداء».

أجاب ألفيتو محاولاً أن يبدو متحمسًا: «وصلت بأمان يا سيدي، محملة بأكبر شحنة من الحرير على الإطلاق. الاتفاق الذي تم بين الزعماء هاريمان وكياما وأونوشي وبينك أصبح في حيز التنفيذ. ستصبح خزانة أغنى بعشرات الآلاف من الكوبان بحلول هذا الوقت من العام المقبل. جودة الحرير هي الأفضل يا سيدي. لقد أحضرت نسخة من بيان الشحنة لتسليمها إلى أمين المخزن. قائد الأسطول فيريرا يُرسل تحياته آملاً في رؤيتك قريباً. كان هذا هو سبب تأخري في الحضور لرؤيتك. أرسلني الزائر العام على وجه السرعة من أوساكا إلى ناجازاكي للتأكد من أن كل شيء كان مثاليًا. سمعنا أنك غادرت إيدو متجهاً إلى إيزو قبل مغادرتي ناجازاكي، لذا جئت إلى هنا بأسرع ما يمكن عن طريق البحر إلى ميناء نومازو بواسطة أحد أسرع قواربنا، ثم برًا. التقيت بالزعيم زاتاكي في ميشيما وطلبت الإذن بالانضمام إليه».

- سفينتك لا تزال في نومازو؟

- نعم يا سيدي. ستنتظرني هناك.

- جيد.

تساءل تورانا جا لوهلة ما إذا سيرسل ماريكو على متن تلك السفينة إلى أوساكا، ثم قرر التعامل مع ذلك لاحقًا. قال: «أرجو أن تسلم بيان الشحنة إلى أمين المخزن الليلة».

- حسنًا يا سيدي.
- هل الاتفاق بخصوص شحنة هذا العام مؤكد؟
- نعم. تمامًا.
- جيد. الآن لنتطرق إلى الجزء الآخر. الجزء المهم.
- جفت يدا ألفيتو وقال: «لن يوافق كلا من الزعيم كياما والزعيم أونوشي على التخلي عن القائد إيشيدو. أعذر. لن يوافقوا على الانضمام إلى رايته الآن رغم أقوى اقتراحاتنا».
- أصبح صوت توراناجا منخفضًا وقاسيًا: «لقد أوضحت بالفعل أنني كنت بحاجة إلى أكثر من اقتراحات».
- أعذر لجلب الأخبار السيئة في هذا الشأن يا سيدي، لكن لن يوافق كلاهما على الانضمام علنًا إلى...
- أتقول علنًا؟ ماذا عن سر... خفية؟
- حتى سرًا كانوا مصرين بالقدر نفسه مثل على...
- هل تحدثت معهم على حدة أم معًا؟
- بالطبع معًا، وأيضًا على حدة، وبأقصى درجات السرية، لكن لم ينجح أي اقتراح قدمناه...
- هل اقتصرنا فقط على تقديم اقتراحات؟ لماذا لم تأمرهم؟
- لأنه كما قال الأب الزائر يا سيدي، لا يمكننا إصدار الأوامر لأي دايميو أو أي...
- لكن يمكنك إصدار الأوامر لأحد إخوتك، أليس كذلك؟
- بلى يا سيدي.
- هل هددت بنفيهم أيضًا؟
- لا يا سيدي.
- لماذا؟
- قال ألفيتو بحزم كما اتفق مع ديل أكوا ولكن قلبه كان يخفق بشدة: «لأنهم لم يرتكبوا أي خطيئة مميتة».

كره أن يكون حاملاً للأخبار السيئة التي أصبحت أسوأ الآن لأن الزعيم هاريم الذي يملك ناجازاكي قانونياً أخبرهم سرّاً أن ثروته الهائلة ونفوذه سينتقلان إلى إيشيدو. تابع: «أرجو أن تعذرني يا سيدي لكنني لا أضع القواعد الإلهية، كما أنك لم تضع قانون بوشيدو، طريق المحارب. نحن ملزمون بالامتثال لما...».

- أنت تجعل الأحمق المسكين منبوءاً بسبب فعل طبيعي كالجماع، ولكن عندما يتصرف اثنان من معتنقي دينك على نحو غير طبيعي... نعم وحتى بغدر. عندما أطلب مساعدتك، مساعدة عاجلة، وأنا صديقك... فأنت فقط تقدم «اقتراحات». أنت تفهم خطورة هذا، أليس كذلك؟
- أنا آسف يا زعيم. أرجوك اعذرني لكن...
- قال توراناغا: «ربما لن أعذرک يا تسوكو سان. كما قيل من قبل: الآن يجب على الجميع اختيار جانب».
- بالطبع نحن إلى جانبك يا سيدي. لكن لا يمكننا أن نأمر الزعيم كياما أو الزعيم أونوشي بفعل أي شيء.
- لحسن الحظ يمكنني أن أمر المسيحي الخاص بي.
- عذراً؟
- يمكنني أن أمر بإطلاق سراح أنجين سان. مع سفينته. مع مدافعه.
- احذر منه يا سيدي. إن الربان يتمتع بذكاء شيطاني لكنه هرطوقي وقرصان ولا يمكن الوثوق به...
- هنا أنجين سان ساموراي وهاتاموتو. ربما يكون قرصان في البحر. إذا كان قرصان، أتصور أنه سيجذب الكثير من القراصنة الآخرين والواكو إليه... الكثير منهم. ما يفعله الأجنبي في البحر المفتوح هو شأنه الخاص، أليس كذلك؟ لطالما كانت هذه سياستنا. أليس كذلك؟
- حافظ ألفيتو على صمته وحاول جعل عقله يعمل. لم يتوقع أحد أن يصبح الإنجليزي بهذا القرب من توراناغا.
- لن يلتزم هذان الداييميو المسيحيان بأي شيء، حتى سرّاً؟
- لا يا سيدي. حاولنا كل...
- لا تنازل، إطلاقاً؟

- لا يا سيدي...

- لا مقايضة، لا اتفاق، لا تسوية، إطلاقاً؟

علم ألفيتو أنه كان محاصرًا، وظهر بعض اليأس في صوته وهو يقول: «لا يا سيدي. جربنا كل وسيلة للإقناع والإغراء. أرجوك صدقني. لو كان الأمر بيدي، نعم، كنت سأهددهم بالحرمان الكنسي، رغم أن ذلك سيكون تهديدًا زائفًا لأنني لن أستطيع تنفيذه إلا إذا ارتكبوا خطيئة مميتة ولم يعترفوا بها أو يتوبوا ويخضعوا. ولكن حتى التهديد من أجل مكسب دنيوي سيكون خطأ جسيمًا مني يا سيدي، خطيئة مميتة. سأخاطر بالهلاك الأبدي».

- هل تقول إنه إذا أخطأوا في حق عقيدتك، حينها ستنتقمهم؟

- نعم. لكنني لا أقترح أن ذلك يمكن أن يُستخدم لجعلهم ينضمون إلى جانبك يا سيدي. أرجو أن تعذرني لكنهم... إنهم معارضون لك تمامًا في الوقت الحالي. أعتذر ولكن هذه هي الحقيقة. لقد جعل كلاهما ذلك واضحًا، معًا وفي السر. أدعو أن يغيرا رأيهما أمام الرب. لقد أعطيناك أنا والأب الزائر كلماتنا للمحاولة أمام الرب. أوفينا بوعدنا. وفشلنا أمام الرب.

قال تورانا: «إذن سأخسر. أنت تعرف ذلك، أليس كذلك؟ سينحاز جميع الداييمو المسيحيين إلى إيشيدو إذا ظلوا متحالفين معه. حينها سأخسر. عشرون ساموراي مقابل واحد من رجالي. أليس كذلك؟».

- بلى.

- ما خطتهما؟ متى سيهاجمانني؟

- لا أعلم يا سيدي.

- هل كنت ستخبرني إذا كنت تعلم؟

- نعم... نعم كنت سأخبرك.

فكر تورانا: أشك في ذلك. أشاح بنظره نحو الليل، مثقلًا بعبء القلق الذي يكاد يسحقه. سأل نفسه بعجز: هل ستحدث السماء القرمزية في نهاية المطاف؟ ذلك الهجوم الغبي المقدر بالفشل على كيوتو؟

كره القفص المخزي الذي وجد نفسه فيه. مثله مثل التايكو وجورودا قبله، كان عليه تحمل الكهنة المسيحيين لأنهم كانوا جزءًا لا يتجزأ من التجار

البرتغاليين، كما هي الذباب للحصان، يتمتعون بسلطة دنيوية وروحية مطلقة على قطيعهم الجامح. لن توجد تجارة من دون الكهنة. وكانت حسن نيتهم كمفاوضين ووسطاء في عملية السفينة السوداء ضرورية لأنهم يتحدثون اللغة وموثوق بهم من كلا الجانبين، وإذا ما حُظر الكهنة من الوجود في الإمبراطورية تمامًا، فسيغادر جميع الهمج طواعيةً ولن يعودوا أبدًا. تذكر تلك المرة الوحيدة التي حاول فيها التايكو التخلص من الكهنة مع تشجيع استمرار التجارة. لم يكن هناك وجود لأي سفن سوداء لمدة عامين. أفاد الجواسيس كيف أن كبير الكهنة الضخم -جالسًا كعنكبوت أسود سام في ماكاو- قد أمر بوقف التجارة انتقامًا لقرارات الطرد الصادرة عن التايكو، عالمًا أن التايكو في النهاية يجب أن يخضع. وفي السنة الثالثة، استسلم التايكو للواقع ودعا الكهنة للعودة، متجاهلاً أوامره الخاصة والخيانة والتمرد اللذين كان الكهنة يحرضون عليهما.

فكر توراناغا: لا يوجد مهرب من هذا الواقع. على الإطلاق. لا أصدق ما يقوله أنجين سان بأن التجارة ضرورية للهمج كما هي لنا، وأن جشعهم سيدفعهم إلى التجارة مهما فعلنا بالكهنة. المخاطر كبيرة جدًا على التجربة وليس لدي الوقت أو القوة. لقد جربنا مرة وفشلنا. من يدري؟ ربما يستطيع الكهنة الانتظار لعشر سنوات؛ فهم قساة بما فيه الكفاية. أعتقد أن التجارة ستوقف إذا أمر الكهنة بوقفها. لا يمكننا الانتظار لعشر سنوات. ولا حتى خمس سنوات. وإذا طردنا كل الهمج، فقد يستغرق الأمر عشرين عامًا حتى يملأ الهمجي الإنجليزي الفجوة، إذا افترضنا أن أنجين سان يقول الحقيقة كاملة، وإذا افترضنا -وهي فرضية كبيرة- إذا وافق الصينيون على التجارة معهم بدلًا من الهمج الجنوبيين. لا أعتقد أن الصينيين سيغيرون نمطهم. لم يفعلوا ذلك قط. عشرون عامًا مدة طويلة جدًا. عشر سنوات مدة طويلة جدًا.

لا مهرب من هذا الواقع. أو من أسوأ واقع على الإطلاق، الطيف الذي أُرعب جورودا والتايكو سرًا ويظهر الآن برأسه القبيح مجددًا: إذا دُفعوا الكهنة المسيحيين المتطرفين الشجعان إلى أبعد الحدود، فسيضعون كل نفوذهم وقوتهم التجارية والبحرية خلف أحد الدايميو المسيحيين العظماء. علاوة على ذلك، سيخططون لقوة غزو من الغزاة المتعصبين الأقوياء والمسلحين بأحدث البنادق لدعم هذا الدايميو المسيحي... مثلما كادوا يفعلون في المرة السابقة. بمفردهم، لا يشكل أي عدد من الهمج الغزاة وكهنتهم تهديدًا

أمام قواتنا المشتركة الهائلة. لقد سحقنا جحافل قبلاي خان ويمكننا التعامل مع أي غاز. لكن إذا تحالفوا مع أحد منا، دايميو مسيحي عظيم مع جيوش من الساموراي، وفي ظل الحروب الأهلية التي تعم البلاد، فقد يُمنح هذا الدايميو في النهاية السلطة المطلقة علينا جميعاً.

كياما أم أونوشي؟ أصبح الأمر واضحاً الآن، هذا هو مخطط الكهنة. التوقيت مثالي. لكن أي دايميو؟

كلاهما في البداية، مدعومين بهاريما من ناجازاكي. لكن من سيرفع الراية الأخيرة؟ كياما... لأن أونوشي المُصاب بالجذام لن يطول به العمر في هذه الأرض، ومكافأة أونوشي الواضحة لدعم عدوه اللدود وخصمه كياما ستكون حياة أبدية مضمونة خالية من الألم في الجنة المسيحية مع مقعد دائم على يمين الرب المسيحي.

لديهم الآن أربعمئة ألف ساموراي. قاعدتهم هي كيوشو وتلك الجزيرة خارج متناولي. يمكنهما معاً بسهولة إخضاع الجزيرة بأكملها، ثم يصبح لديهم قوات لا حصر لها وطعام لا حصر له وكل السفن اللازمة للغزو وكل الحرير وناجازاكي. يوجد تقريباً خمسمئة أو ستمئة ألف مسيحي آخر في جميع أنحاء البلاد. من بينهم، أكثر من نصفهم -معتنقين المسيحية اليسوعية- هم ساموراي، موزعون جيداً بين قوات جميع الدايميو، وهي مجموعة هائلة من الخونة المحتملين والجواسيس أو القتلة... إذا أمرهم الكهنة بذلك. ولم لا يفعلون؟ سيحصلون على ما يريدونه فوق الحياة نفسها: السلطة المطلقة على جميع أرواحنا، وبالتالي على روح أرض الآلهة هذه -ليراثوا أرضنا وكل ما تحتويها- تماماً كما شرح أنجين سان أنه قد حدث خمسين مرة بالفعل في هذا العالم الجديد الخاص بهم... إنهم يجعلون ملكاً يعتنق المسيحية ثم يستخدمونه ضد شعبه حتى تُبتلع الأرض بأكملها.

من السهل جداً على هذه المجموعة الصغيرة من الكهنة الهمج أن يغزونا. كم عددهم في اليابان كلها؟ خمسون أو ستون؟ لكنهم يمتلكون القوة. وهم مؤمنون. إنهم مستعدون للموت بكل سرور من أجل معتقداتهم، بفخر وشجاعة، واسم إلههم على شفاههم. رأينا ذلك في ناجازاكي عندما أثبتت تجربة التايكو أنها خطأ كارثي. لم يتراجع أي من الكهنة، وشاهد عشرات الآلاف عمليات الحرق، واعتنق عشرات الآلاف المسيحية، وهذا «الاستشهاد»

منح الديانة المسيحية هيبة هائلة تغذى عليها الكهنة المسيحيون منذ ذلك الحين.

بالنسبة لي، لقد فشل الكهنة، لكن ذلك لن يثنىهم عن مسارهم المستمر. وهذا هو الواقع أيضًا.

إذن، إنه كياما.

هل الخطة قد حُسمت بالفعل، وإيشيدو مجرد أداة، والسيدة أوتشيبا ويايمون أيضًا؟ هل تحالف هاريمان معهم سرًا بالفعل؟ هل يجب أن أطلق أنجين سان نحو السفينة السوداء وناجازاكي على الفور؟ ماذا أفعل؟

لا شيء أكثر من المعتاد. تحلّ بالصبر، والتمس الانسجام، وتجاوز كل المخاوف المتعلقة بالأنا أو الآخر، والحياة أو الموت، والفناء أو الحياة بعد الموت، والآن أو المستقبل، وضَعْ خطة جديدة في حيز التنفيذ. أراد أن يصرخ بياس: أي خطة؟ لا توجد واحدة.

- يحزنني أن هذين الاثنين يقفان إلى جانب العدو الحقيقي.

- أقسم إننا حاولنا يا سيدي.

راقبه ألفيتو بعين الشفقة، ملاحظًا الثقل الذي يعتري روحه.

- نعم. أصدق ذلك. أصدق أنكما أنت والأب الزائر أوفيتما بوعدكما الرسمي، لذا سأفي بوعدي. يمكنك البدء في بناء معبدك في إيدو على الفور. لقد خُصِّصَت الأرض. لا أستطيع منع الكهنة أو المشعرين الآخرين من دخول الإمبراطورية، لكن على الأقل يمكنني أن أجعلهم غير مرحب بهم في نطاق حكمي. وسيكون الهمج الجدد غير مرحب بهم أيضًا، هذا إن وصلوا في الأساس. أما بالنسبة لأنجين سان...

هز توراناكا كتفيه وتابع: «لكن إلى متى سيستمر كل هذا... حسنًا، إنها الكارما، أليس كذلك؟».

كان ألفيتو يشكر الرب بحرارة على رحمته وعطفه بعد العفو غير المتوقع. قال وهو بالكاد يستطيع التحدث: «شكرًا لك يا سيدي. أعلم أنك لن تندم على ذلك. أدعو أن يتفرق أعداؤك كالقش وأن تجني مكافآت الجنة».

نهض تورانا جا ببطء وقال: «أعتذر عن كلماتي القاسية. لقد قيلت في لحظة غضب. يوجد الكثير... لديك إذني بإقامة قداسك غدًا، يا صديقي القديم».

قال ألفيتو منحنياً باحترام، ومشفقاً على الرجل الذي كان عادةً عظيم الهيبة: «شكرًا لك يا سيدي، أشكر من أعماق قلبي. ليباركك الرب ويرعاك». توجه تورانا جا نحو النزل وحراسه يتبعونه. قال: «ناجا سان».

قال الشاب وهو يهرع نحوه: «نعم يا أبي».

- أين السيدة ماريكو؟

أشار ناجا إلى بيت الشاي الصغير المضاء بالفوانيس داخل أسواره في الحديقة، حيث ظهرت أشكال ظلّية بداخله وقال: «هناك يا سيدي مع بونتارو سان. هل يجب أن أقطع الـ «تشا نو يو»؟».

كان الـ «تشا نو يو» حفل شاي رسمي وطقوسي.

- لا. لا يجب التدخل في ذلك أبدًا. أين أومي ويابو سان؟

- إنهما في نزلهما يا سيدي.

وأشار ناجا إلى المبنى المنخفض المترامي الأطراف على الجانب الآخر من النهر، بالقرب من الضفة البعيدة.

- مَن اختار ذلك المكان؟

- أنا يا سيدي. أرجو أن تعذرني، لقد طلبت مني أن أجد لهما نزلًا على الجانب الآخر من الجسر. هل أسأت فهمك؟

- ماذا عن أنجين سان؟

- إنه في غرفته يا سيدي. ينتظر في حال كنت ترغب في رؤيته.

هز تورانا جا رأسه مجددًا: «سأراه غدًا».

وبعد هنيهة قال بالصوت الشارد نفسه: «سأستحم الآن. ثم لا أريد أن أزعج حتى الفجر، إلا إذا...».

انتظر ناجا بقلق وهو يراقب والده الذي كان يحرق بشرود إلى الفضاء، مشوشًا بشدة من سلوكه. سأل: «هل أنت بخير يا أبي؟».

- ماذا؟ أوه، نعم... نعم، أنا بخير. لماذا؟

- لا شيء... أرجو أن تعذرني. هل ما زلت ترغب في الصيد عند الفجر؟
- الصيد؟ نعم، هذه فكرة جيدة. شكرًا لاقتراحك، نعم، سيكون ذلك جيدًا جدًا. اعتنِ بالأمر. حسنًا، تصبح على خير... نعم، لدى تسوكو سان إذني لإقامة قداس خاص غدًا. يمكن لجميع المسيحيين الحضور. اذهب أنت أيضًا.

- عذرًا؟

- ستصبح مسيحيًا في أول يوم من العام الجديد.

- أنا؟

- نعم. بمحض إرادتك. أخبر تسوكو سان ذلك سرًا.

- عذرًا؟

استدار توراناغا نحوه وقال: «هل أنت أصم؟ ألا تفهم أبسط الأمور بعد الآن؟».

- أرجوك سامحني. نعم يا أبي. أنا أفهم.

- جيد.

عاد توراناغا إلى حالة الشرود ثم تجول مبتعدًا متبوعًا بحارسه الشخصي. انحنى جميع الساموراي بصرامة لكنه لم يلتفت إليهم.

تقدم ضابط نحو ناجا وسأله وهو يشعر بالقلق ذاته: «ما خطب زعيمنا؟».

- لا أعلم يا يوشيناكا سان.

نظر ناجا إلى الساحة. كان ألفيتو يغادر لتوه متجهًا نحو الجسر مع حارس ساموراي يرافقه. قال: «لا بد أن له علاقة به».

- لم أرَ الزعيم توراناغا يمشي بهذا الثقل من قبل. قط. يقولون... يقولون إن هذا الكاهن الهمجي ساحر، مشعوذ. يجب أن يكون كذلك ليتحدث لغتنا بهذه الطلاقة، أليس كذلك؟ هل من الممكن أن يكون قد ألقى تعويذة على زعيمنا؟

- لا. أبدًا. ليس على والدي.

- الهمج يجعلون ظهري يقشع أيضًا يا ناجا سان. هل سمعت عن الشجار... تسوكو سان وجماعته كانوا يصيحون ويتشاجرون مثل الإيتا سيئي الخلق؟

- نعم. مقزز. أنا متأكد من أن هذا الرجل قد دمر انسجام والدي.
- إذا سألتني، فإن سهماً في حنجرة ذلك الكاهن سيُجنب سيدنا الكثير من المتاعب.
- نعم.
- ربما ينبغي أن نخبر بونتارو سان عن الزعيم توراناغا؟ إنه قائدنا الأعلى.
- أوافقك الرأي... ولكن لاحقاً. قال لي والدي بوضوح ألا أقاطع التشا نو يو. سأنتظر حتى ينتهي.

في هدوء وسكينة المنزل الصغير، فتح بونتارو بعناية فائقة علبة الشاي الفخاري الصغير من عهد تانغ، وبذات العناية تناول الملعقة المصنوعة من الخيزران ليبدأ الجزء الأخير من مراسم الشاي. وضع ببراعة الكمية المناسبة تماماً من المسحوق الأخضر في الكوب الخزفي الخالي من المقبض. كانت غلاية قديمة من الحديد الصلب تغني فوق الفحم. وبالرشاقة الهائلة نفسها، صب بونتارو الماء المغلي في الكوب، وأعاد الغلاية إلى موضعها على الحامل، ثم بدأ في خفق المسحوق والماء برفق بمضرب الخيزران حتى يمتزجا تماماً. أضاف ملعقة من الماء البارد وانحنى لماريكو التي كانت جاثية أمامه وقدم لها الكوب. انحنى هي أيضاً وتناولته بأناقة مماثلة معجبة بالسائل الأخضر، ثم ارتشفته ثلاث مرات، واستراحت، ثم ارتشفت مجدداً حتى أنهته. أعادت الكوب إليه. كرر التماثل نفسه في تحضير الشاي الرسمي مجدداً وقدم لها كوباً آخر. توسلت إليه لتذوق الشاي بنفسه كما كان من المتوقع منها. ارتشف هو، ثم ارتشف مجدداً حتى أنهى الكوب. ثم أعد كوباً ثالثاً ورابعاً. ورفض المزيد بأدب.

وبحرص شديد، غسل وجفف الكوب على نحو طقوسي مستخدماً القماش القطني الفاخر، ووضع كلاهما في مكانهما. انحنى لها وبادلته هي الانحناء. ثم انتهت مراسم التشا نو يو.

شعر بونتارو بالرضا لأنه قد بذل قصارى جهده، وأنه الآن -على الأقل في هذه اللحظة- يوجد سلام بينهما. بينما هذا المساء لم يكن الحال كذلك.

كان قد قابلها عند وصول هودجها. وكالعادة شعر في الحال بأنه قبيح وفظ مقارنةً بكمالها الرقيق، مثل أحد رجال قبائل الأينو المشعرين الوحشيين المحترقين، الذين كانوا يسكنون الأرض ذات يوم لكنهم الآن طُردوا إلى الشمال البعيد عبر المضائق إلى جزيرة هوكايدو المجهولة. كل كلماته المدروسة بعناية تركته فجأة ودعاها بتلعثم إلى التشا نو يو، مضيئاً: «لقد مضت سنوات منذ... لم أقم قط بواحدة من أجلك، لكن الليلة ستكون مناسبة». ثم تفوه دون قصد مدرّكاً أنه كان حماقة وغباء وخطأً فادحاً: «قال الزعيم توراناغا إنه حان الوقت لتتحدث».

- لكنك لا تريد ذلك يا سيدي؟

احمر وجهه وارتعش صوته رغم عزمه: «أرغب في أن يكون هناك انسجام بيننا، نعم، وأكثر من ذلك. لم أغير قط، أليس كذلك؟».

- بالطبع يا سيدي، ولماذا يجب أن تتغير؟ إذا كان يوجد أي خطأ، فليس من شأنك أن تتغير، بل أنا. إذا كان يوجد أي خطأ، فهو بسببي، أرجو أن تعذرني.

قال: «سأعذك».

كان يقف شامخاً فوقها بجانب الهودج، مدرّكاً تماماً أن الآخرين يشاهدون، من بينهم أنجين سان وأومي. كانت جميلة جداً وصغيرة وفريدة من نوعها، شعرها مرفوع عالياً، وعيناها الموجهتان إلى الأرض تبدوان خاضعتين، ولكن بالنسبة له كانت مليئة بذلك الجليد الأسود الذي دائماً ما يدفعه إلى جنون أعمى ونوبة عجز تجعله يرغب في القتل والصراخ والتهشيم والتحطيم والتصرف بطريقة لا يجب أن يتصرف بها الساموراي.

قال لها: «لقد حجزت بيت الشاي لليلة. الليلة بعد العشاء. لقد أمرنا بتناول العشاء مع الزعيم توراناغا. سأتشرف إذا أصبحت ضيفتي بعد ذلك».

- أنا من سأتشرف.

انحنى وانتظرت بالعينين الموجهتين بنفسيهما إلى الأرض، وشعر برغبة في تحطيمها حتى الموت على الأرض، ثم الذهاب وطعن بطنه بالسكين وترك الألم الأبدي يُظهر العذاب من روحه.

رأها ترفع عينيها نحوه بحذر.

سألت بهدوء شديد: «هل يوجد شيء آخر يا سيدي؟».

كان العرق يتصبب على ظهره وفخذه ملطخًا الكيمونو، وصدره يؤلمه كما يؤلمه رأسه. قال: «أنت... أنتِ ستبقيين في النُّزل الليلة».

ثم تركها وأجرى الترتيبات اللازمة لقافلة الأمتعة بأكملها. ثم سلم مهامه إلى ناجا بأسرع ما يمكن وسار بعيدًا بتعنت مُصطنع على ضفة النهر، وعندما أصبح وحيدًا، قفز عاريًا في التيار غير مبالٍ بسلامته، وقاوم النهر حتى صفا ذهنه واختفى الألم النابض.

كان قد استلقى على ضفة النهر ليستجمع قواه. والآن عليه أن يبدأ بعدما وافقت. لا يوجد الكثير من الوقت. استجمع قوته وسار عائداً إلى بوابة الحديقة البسيطة التي كانت داخل الحديقة الرئيسية، ووقف هناك للحظة يعيد التفكير في خطته. أراد أن يكون كل شيء مثاليًا الليلة. من الواضح أن الكوخ كان بعيدًا عن المثالية، تمامًا مثل حديقته، محاولة ريفية فظة لإقامة بيت شاي حقيقي. فكر: لا بأس، سيحجب الليل الكثير من العيوب وسيتعين على الأضواء خلق الشكل الذي يفتقر إليه.

جلبوا الخدم بالفعل الأشياء التي طلبها سابقًا، التاتامي ومصابيح الزيت الفخارية وأدوات التنظيف. أفضل ما في يوكوسي، كل شيء جديد تمامًا ولكنه متواضع، غير لافت ومتواضع.

نزع الكيمونو الخاص به ووضع سيفيه جانبًا وبدأ في التنظيف. بدأ بغرفة الاستقبال الصغيرة والمطبخ والشرفة، ثم الممر المتعرج والأحجار الصخرية المدمجة في الطحالب، وأخيرًا الصخور وحدود الحديقة. فرك وكنس ونظف حتى أصبح كل شيء بلا عيب، وغمر نفسه في تواضع العمل اليدوي الذي كان بداية التشا نو يو، حيث كان المضيف وحده مطالبًا بجعل كل شيء مثاليًا. وكانت أولى درجات الكمال هي النظافة المطلقة.

كان قد انتهى من معظم التحضيرات بحلول الغسق. ثم استحم بعناية فائقة، وتحمل وجبة العشاء والغناء. وغير ملابسه مجددًا حالما استطاع إلى ثياب داكنة ثم سارع بالعودة إلى الحديقة. أغلق بوابة الحديقة. أولًا أشعل فتيل المصابيح الزيتية. ثم رش الماء بحذر على الأحجار الصخرية والأشجار التي كانت مضادة هنا وهناك الآن بفعل الأضواء المتلاثلة، حتى أصبحت الحديقة الصغيرة كأنها أرض خيالية تتراقص فيها قطرات الندى في دفء نسيم الصيف. أعاد ترتيب بعض الفوانيس. وأخيرًا عندما شعر بالرضا، فتح بوابة الحديقة واتجه إلى الرواق. كانت قطع الفحم المنتقاة بعناية ووُضعت

بدقة في شكل هرم على الرمال البيضاء تحترق جيداً. بدت الأزهار مناسبة في التكوينوما. نظف الأدوات التي كانت بالفعل لا تشوبها شائبة مجدداً. بدأت الغلاية تصفر وكان سعيًا بالصوت الذي أُثري بقطع صغيرة من الحديد وضعها بدقة في القاع.

كان كل شيء جاهزاً، أولى درجات الكمال في التشا نو يو هي النظافة، والثانية هي البساطة التامة. والأخيرة والأعظم هي الملاءمة للضيف أو الضيوف المحددين.

سمع خطواتها على الأحجار الصخرية، وصوت غمر يديها طقوسياً في حوض مياه النهر الجارية وتجفيفها. ثلاث خطوات هادئة صعوداً إلى الشرفة. ثم خطوتان إضافيتان إلى مدخل الباب المحجوب بالستارة. حتى هي اضطرت إلى الانحناء للدخول من الباب الصغير الذي صُمم عمداً ليُجعل الجميع متواضعين. كان الجميع متساوين في مراسم التشا نو يو، المضيف والضيف، الدايـميو الأعظم وأبسط الساموراي. حتى الفلاح إذا دُعي.

تأملت في البداية الأزهار التي وضعها زوجها. اختار زهور وردة بيضاء برية ووضع قطرة واحدة من الماء على ورقتها الخضراء، ووضعها على أحجار حمراء. كان يقترح من خلال الزهرة ويتحدث من خلال الزهرة: الخريف قادم، لا تبكي على زمن الخريف، زمن الموت عندما تبدأ الأرض في النوم. استمتعي بوقت البداية من جديد، واشعري بالبرودة الرائعة في الهواء الخريفي في هذه الأمسية الصيفية... قريباً ستتلاشى الدمعة وستختفي الوردية، ولن يبقى سوى الأحجار... قريباً سنختفي أنتِ وأنا، ولن يبقى سوى الأحجار.

كان يراقبها وكأنه منفصل عن نفسه، في حالة من الانسجام العميق التي أحياناً ما يكون سيد مراسم التشا محظوظاً لتجربتها، حيث يصبح في انسجام تام مع محيطه. انحنى أمام الزهرة تقديرًا لها ثم جاءت وجئت أمامه. كان الكيمونو الخاص بها بني داكن بخيط من الذهب المحترق عند الحواف يبرز عنقها الأبيض ووجهها، والحزام أغمق درجات الأخضر الذي يطابق الكيمونو السفلي، وشعرها بسيط ومرفوع للأعلى وغير مُزيّن.

قال بانحناء ليبدأ الطقوس: «أهلاً وسهلاً بك».

أجابت متقبلة دورها: «إنه شرف لي».

قدم الوجبة الصغيرة على صينية مطلية لا تشوبها شائبة، مع عيدان طعام موضوعة عليها، وشرائح سمك على الأرز التي أعدها كجزء من النمط، ولكي يكتمل التأثير، نثر بضع زهور برية وجدها بالقرب من ضفة النهر بعشوائية مثالية. ثم رفع الصينية عندما انتهت من تناول الطعام وهو بدوره انتهى أيضًا، كانت كل حركة رسمية، لتراقب وتُقيم وتُدون. أخذ الصينية عبر الباب المنخفض إلى المطبخ.

استرخت ماريكو عندما أصبحت بمفردها وجلست تراقب النار بإمعان، بينما كان الفحم المتوهج يشكل جبلًا على بحر من الرمال البيضاء تحت الحامل الثلاثي، وأذنيها تستمعان إلى هسيس النار المتمزج مع تنهد الغلاية التي تكاد تغلي، وصوت القماش على الفخار والماء التي تنظف ما هو مُنظف بالفعل في المطبخ غير المرئي. مع مرور الوقت، تجولت عيناها على العوارض الخام الملتوية وعلى الخيزران والبوص التي كانت تشكل السقف المصنوع من القش. كانت الظلال التي ألقتها المصابيح القليلة التي وضعها بشكل يبدو عشوائيًا جعلت المكان الصغير يبدو واسعًا، وجعلت الأشياء غير المهمة تبدو نادرة، وجعلت المكان بالكامل في انسجام مثالي. عادت إلى الحديقة بعد أن تفحصت كل شيء وقيمت روحها أمامه، إلى الحوض الضحل الذي شكلته الطبيعة بمرور الزمن في الصخر. طهرت يديها وفمها مجددًا بالماء البارد العذب، وجففتهما بمنشفة جديدة.

قال بعد أن استقرت مجددًا في مكانها: «ربما ترغبين الآن في تناول الشاي؟».

- سيكون شرفًا لي. ولكن رجاءً لا تكلف نفسك كل هذا العناء من أجلي.

- إنه شرف لي. أنتِ ضيفتي.

وهكذا قدم لها الشاي. والآن كان وقت النهاية.

لم تتحرك ماريكو للحظة في الصمت وظلت في هدوئها، غير راغبة في الاعتراف بالنهاية بعد أو إزعاج السلام المحيط بها. لكنها شعرت بقوة نظراته المتزايدة. انتهت مراسم التشا نو يو والآن يجب أن تبدأ الحياة من جديد.

همست بصوت مفعم بالحزن الذي غمرها، وانزلقت دمعة من عينيها، وشعر بالدمعة كأنها اقتلعت قلبه من صدره: «لقد أعددت المراسم بمثالية».

قال وقد فوجئ بهذا الثناء غير المتوقع: «لا... لا. أرجو أن تعذريني... أنتِ المثالية... كان الأمر عادياً».

أجابت متأثرة بالصدق في صوته: «لقد كان أفضل ما رأيت على الإطلاق».

- لا. لا، أرجو أن تعذريني، إذا كان جيداً فهو بسببك يا ماريكو سان. كان عادياً... أنتِ من جعلته أفضل.

قالت وعيناها تلمعان في الضوء المتلألئ: «كان مثالياً بالنسبة لي. كل شيء. كم هو محزن أن الآخرين الذين هم أكثر استحقاقاً مني لم يتمكنوا من مشاهدته أيضاً».

- لقد شاهدته أنتِ. وهذا كل شيء. لقد كان فقط من أجلك. الآخرون لن يفهموا.

شعرت ماريكو بالدموع الساخنة الآن على وجنتيها. عادةً كانت ستشعر بالخجل منها لكنها الآن لم تزعجها. قالت: «شكراً لك، كيف يمكنني شكرك؟».

التقط بونتارو غصناً صغيراً من الزعتر البري، ثم انحنى والتقط إحدى دموعها بلطف بأصابع مرتجفة. نظر بصمت إلى الدمع والغصن الصغير الذي بدا ضئيلاً في قبضته الضخمة. قال: «إن عملي -أي عمل- هو غير كافٍ أمام هذا الجمال. شكراً لك».

ظل يراقب الدمع على الورقة. سقطت قطعة من الفحم من الجبل، ودون تفكير التقط الملقط وأعادها إلى مكانها. تراقصت بعض الشرارات في الهواء من قمة الجبل وأصبح كأنه بركان يثور.

انجرف كلاهما في حالة من الحزن العذب، منضم إليه بساطة الدموع، شاعرين بالرضا معاً في الهدوء ومتحدين في التواضع، مدركين أن ما قُدم قد أُعيد بنقاء. قال في وقت لاحق: «لو لم يمنعنا واجبنا، لكنت سأطلب منك مرافقتي إلى الموت. الآن».

أجابت على الفور: «سأذهب معك. بكل سرور. دعنا نذهب إلى الموت. الآن».

- لا يمكننا. إن واجبنا تجاه الزعيم تورانا جا.

أخرجت ماريكو الخنجر الصغير الذي كان في حزامها ووضعتة باحترام على التاتامي وقالت: «إذن رجاءً دعني أهيئ الطريق».

- لا. سيكون ذلك فشلاً في واجبنا.

- ما مُقدر له أن يكون سيكون. لا أنت ولا أنا يمكننا قلب الموازين.

- نعم. ولكن لا يمكننا الرحيل قبل سيدنا. لا أنت ولا أنا. إنه يحتاج إلى كل تابع جدير بالثقة لفترة أطول قليلاً. رجاءً اعذريني لكن يجب عليّ منعه.

أجابت بابتسامة مترددة: «سأكون سعيدة بالرحيل الليلة. أنا مستعدة. كما أنني أرغب تمامًا في الانتقال إلى العالم الآخر. نعم. روعي تفيض بالفرح. رجاءً سامحني على أنايتي. أنت محق تمامًا بشأن واجبنا».

تلاأت الشفرة الحادة تحت ضوء الشمعة، كان يراقبها غارقين في التأمل. ثم قطع السكون.

- لماذا أوساكا يا ماريكو سان؟

- توجد أمور يجب أن تُنجز هناك ولا يمكن لأحد غيري القيام بها. ازداد عبوس وجهه وهو يراقب الضوء المنبعث من الفتيل المُذاب وهو يلتقط الدمع ويتحول إلى مليار لون.

- ما هذه الأمور؟

- أمور تتعلق بمستقبل بيتنا التي يجب أن أنجزها بنفسي. نظر إليها بعمق وقال: «إذا كان الأمر كذلك، فيجب عليك الذهاب. لكن وحدكِ؟».

- نعم. أرغب في التأكد أن كل الترتيبات العائلية بيننا وبين الزعيم كياما بشأن زواج ساروجي مثالية. المال والمهر والأراضي وكل شيء. يوجد أيضاً زيادة يجب توثيقها في إقطاعيته. الزعيم هيرو ماتسو والزعيم توراناغا يتطلبان ذلك. أنا المسؤولة عن البيت.

قال بونتارو بتأن وعيناه تحديقان إلى عينيها: «نعم، هذا هو واجبك. إذا قال الزعيم توراناغا أنه بإمكانك الذهاب، فذهبي، ولكن من غير المحتمل أن يُسمح لك بالدخول إلى هناك. وحتى لو سُمح... يجب أن تعودني بسرعة. بسرعة كبيرة. سيكون من الخطر البقاء في أوساكا أكثر من اللازم».

- نعم.

- عن طريق البحر سيكون أسرع من الطريق البري. لكنك لطالما كرهت البحر.

- ما زلت أكره البحر.

- هل يجب أن تكوني هناك بسرعة؟

- لا أعتقد أن نصف شهر أو شهر سيهم. ربما، لا أعلم. أشعر فقط أن علي الذهاب في الحال.

- إذن سنترك التوقيت ومسألة الذهاب إلى الزعيم تورانا... إذا سمح لك بالذهاب من الأساس. مع وجود الزعيم زاتاكي هنا واللفافتين، فإن هذا يعني الحرب. سيكون من الخطر جدًا الذهاب.

- نعم، شكرًا لك.

نظر بونتارو حول الغرفة الصغيرة برضا مسرورًا بأن هذا انتهى، غير مكترث الآن بأن حجمه الكبير القبيح هيمن على المكان، حيث كان كل فخذ من أفخاذه أكبر من خصرها، وذراعاها أضخم من عنقها. وقال: «كانت هذه غرفة رائعة، أفضل مما كنت أتمنى. لقد استمتعت بوجودي هنا. تذكرت مجددًا أن الجسد ليس إلا كوخًا في البرية. شكرًا لوجودك هنا. أنا سعيد جدًا أنك جئت إلى يوكوسي يا ماريكو سان. لولاك لما فكرت في إقامة تشا نو يو هنا ولما شعرت بأنني واحد مع الأبدية».

ترددت ماريكو ثم التقطت بخجل علبة الشاي من عهد تانج. كانت عبارة عن جرة بسيطة مغطاة دون أي زخارف. كان الطلاء اللامع البرتقالي-البنّي قد انتهى قبل القاع تاركًا حافة غير متساوية من الخزف العاري في الأسفل، مما يبرز عفوية الخزّاف ورفضه إخفاء بساطة المواد الخاصة به. كان بونتارو قد اشتراه مقابل عشرين ألف كوكو من سين ناكادا، أشهر سيد مراسم تشا على الإطلاق. همست مستمتعة بملمسه: «إنه جميل جدًا، مثالي جدًا للمراسم».

- نعم.

كان صوتها خافتًا وموجهًا، انحنت قليلًا إلى الأمام وهي تقول: «لقد كنت سيدًا حقًا الليلة يا بونتارو سان. لقد منحنتني الكثير من السعادة. كان كل شيء مثاليًا بالنسبة لي، الحديقة وكيف استخدمت الفن للتغلب على العيوب بالإضاءة والظلال. وهذا...». لمست علبة الشاي مجددًا وتابعت: «كل شيء

مثالي، حتى الحرف الذي كتبته على المنشقة، «أي» المودة. بالنسبة لي الليلة، كانت المودة الكلمة المثالية». تساقطت الدموع مجددًا على وجنتيها. قالت وهي تمسحها: «رجاء سامحني».

انحنى محرّجًا من هذا الثناء. ولإخفاء إحراجة، بدأ في لف علبة الشاي في أقمشته الحريريّة. ثم وضعه في صندوقه عندما انتهى ووضعه أمامها بعناية. قال: «ماريكو سان، إذا كانت لدينا مشكلات مالية في بيتنا، خذي هذا. قومي ببيعه».

- أبدًا! سيكون ذلك آخر شيء أبيعته على الإطلاق.

لقد كان الملكية الوحيدة التي يقدرها في حياته، إلى جانب سيفيه وقوسه الطويل.

- أرجو أن تعذريني، ولكن إذا كانت رواتب أتباعي تشكل مشكلة، فخُذيه.

- يوجد ما يكفي للجميع، مع قليل من العناية. وأفضل الأسلحة وأفضل الخيول. في النهاية بيتنا قوي. لا يا بونتارو سان، إن علبة التانج ملكك.

- لم يتبقّ لنا الكثير من الوقت. لمن يجب أن أتركه؟ لساروجي؟

نظرت إلى الفحم والنار التي تلتهم البركان، مقللة من شأنه. قالت: «لا. ليس حتى يصبح سيدًا ماهرًا في التشا نو يو يضاهي أباه. أنصحك بأن تتركها للزعيم توراناغا، فهو يستحقها، وتطلب منه قبل أن يموت أن يحكم ما إذا كان ابننا سيستحق الحصول عليه يومًا ما».

- وإذا هُزم الزعيم توراناغا ومات قبل الشتاء، كما أنا متأكد أنه سيُهزم؟

- ماذا؟

- يمكنني إخبارك الحقيقة هنا في هذه الخصوصية دون أي تصنع. أليس جزءًا مهمًا من التشا نو يو أن نكون بلا تصنع؟ نعم، سينهزم، ما لم يحصل على دعم كياما وأونوشي... وزاتاكى.

- في هذه الحالة، اكتب في وصيتك بأنه يجب إرسال علبة التانج مع موكب إلى سمو الإمبراطور، واطلب منه أن يقبلها. بالتأكيد علبة التانج تستحق الألوهية.

تمعن النظر في الخنجر ثم قال بكآبة: «نعم، سيكون ذلك الخيار المثالي. يا ماريكو سان، لا يوجد شيء يمكن القيام به من أجل الزعيم توراناغا. الكارما الخاصة به مكتوبة. ستحدث مجزرة سواء انتصر أو هُزِمَ».

- نعم.

أبعد عينيه عن خنجرها بعبوس وأخذ يتأمل في غصن الزعتر البري، والدمعة التي ما زالت نقية. ثم قال بعد فترة: «إذا هُزِم، قبل أن أموت -أو إذا كنت ميتًا بالفعل- سأقتل أنجين سان أو سيقوم أحد رجالي بذلك».

كان وجهها يبدو خياليًا في الظلام. وحرك النسيم اللطيف خصلات من شعرها مما جعلها تبدو كتمثال. سألت: «أرجو أن تعذرني لكن هل يمكنني أن أسأل عن السبب؟».

- إنه خطرٌ للغاية بحيث لا يمكن تركه على قيد الحياة. معرفته وأفكاره التي سمعتها حتى من خلال طرف خامس... سيصيب البلاد بسمومه، حتى الزعيم يايمون. الزعيم توراناغا بالفعل تحت تأثيره، أليس كذلك؟

قالت ماريكو: «الزعيم توراناغا يستمتع بمعرفته».

- اللحظة التي يموت فيها الزعيم توراناغا ستكون أيضًا أمر إعدام أنجين سان. لكن أمل أن تتفتح عينا زعيمنا قبل ذلك الوقت.

تذبذب المصباح المتدلي وانطفأ ثم نظر إليها وسألها: «هل أنت تحت تأثيره أيضًا؟».

- إنه رجل مذهل. لكن عقله مختلف جدًا عنا... وقيمه... نعم، مختلفة في الكثير من الجوانب لدرجة أنه من الصعب فهمه في بعض الأحيان. حاولت مرة أن أشرح له مفهوم التشا نو يو، لكنه كان خارج نطاق فهمه.

قال بونتارو: «لا بد أنه من المروع أن تولد همجيًا... مروع».

- نعم.

وقعت عيناه على شفرة خنجرها وقال: «يعتقد بعض الناس أن أنجين سان كان يابانيًا في حياة سابقة. إنه ليس مثل بقية الهمج، وهو... يحاول بجد أن يتحدث ويتصرف مثلنا، لكنه يفشل، أليس كذلك؟».

- أتمنى لو كنت قد رأيته وهو يكاد ينفذ السيوكو يا بونتارو سان. لقد كان شيئاً استثنائياً. رأيت الموت يزوره، ليُصد بعدها بيد أومي. إذا كان يابانياً في حياة سابقة، أعتقد أن ذلك سيفسر الكثير. يعتقد الزعيم توراناغا أنه قيم جداً بالنسبة لنا الآن.

- حان الوقت لتتوقفي عن تدريبه وتصبحي يابانية مجدداً.

- عذراً؟

- أعتقد أن الزعيم توراناغا تحت تأثيره. وأنتِ كذلك.

- رجاءً سامحني لكني لا أعتقد أنني كذلك.

- تلك الليلة في أنجيرو، عندما ساءت الأمور، شعرت أنكِ كنتِ في صفه، ضدي. بالطبع كانت فكرة شريرة، لكنني شعرت بها.

ابتعد نظرها عن الشفرة. نظرت إليه بثبات ولم تجب. تذبذب مصباح آخر وانطفأ، ولم يبقَ في الغرفة سوى ضوء واحد.

واصل بونتارو بالصوت الهادئ نفسه: «نعم، كرهته تلك الليلة، وأردت موته... وموتكِ أنتِ وفوجيكو سان. همس لي قوسي، كما يفعل أحياناً، طالباً مني القتل. وعندما رأيته في الفجر التالي ينزل من التل ممسكاً بمسدساته الصغيرة الجبابة، توسلت سهامي لتذوق دمه. لكنني أجلت قتله وأذلت نفسي، كارهة أخلاقي السيئة أكثر من كرهني له، وخجلاً من أخلاقي السيئة ومن الساكي». ظهر تعبه الآن وتابع: «الكثير من الخزي لتحمله، أنا وأنتِ. أليس كذلك؟».

- بلى.

- ألا تريدني أن أقتله؟

قالت: «يجب أن تفعل ما تعتقد أنه واجبك، كما سأفعل دائماً واجبي».

قال: «سنبقى في النزل الليلة».

- نعم.

ثم، ولأنها كانت ضيفة مثالية والتشانونيو كان أفضل مراسم قدمها على الإطلاق، غيّر رأيه ومنحها الراحة والوقت كما تلقاه منها من قبل. قال ويده التقطت الخنجر وقدمه لها: «أذهبني إلى النزل. نامي. عندما تتساقط أوراق شجر القيقب -أو عندما تعودين من أوساكا- سنبدأ من جديد. كزوج وزوجة».

- نعم. شكرًا لك.

- هل توافقين بحرية يا ماريكو سان؟

- نعم. شكرًا لك.

- أمام إلهك؟

- نعم. أمام الرب.

انحنى ماريكو وقبلت الخنجر، ثم أعادته إلى مخبئه، وانحنى مجددًا وغادرت.

تلاشى صوت خطواتها. نظر بونتارو إلى الغصن الصغير الذي لا يزال في قبضته، والدمعة التي لا تزال محبوسة في ورقة صغيرة. ارتعشت أصابعه وهو يضع الغصن بلطف على آخر الجمرة. بدأت الأوراق الخضراء النقية تلتف وتتفحم. ثم اختفت الدمعة مع صوت هسيس.

ثم بدأ ييكي بغضب في صمت، متأكدًا فجأة في أعماق روحه أنها قد خانته مع أنجين سان.

رأها بلاكتورن تخرج من الحديقة وتعبّر الفناء المضاء جيدًا. حبس أنفاسه من جمالها الناصع. كان الفجر يتسلل إلى السماء الشرقية.

- مرحبًا يا ماريكو سان.

- أوه... مرحبًا يا أنجين سان. أنت... آسفة للغاية، لقد أفزعني... لم أرك هناك. أنت مستيقظ في وقت متأخر.

ابتسم وأشار إلى نور الصباح الذي لم يكن بعيدًا وقال: «لا. عذرًا، أنا مستيقظ في الوقت المناسب. إنها عادة اكتسبتها في البحر، أن أستيقظ قبل الفجر بقليل، في الوقت المناسب للصعود والتجهز لقياس الشمس». تعمقت ابتسامته وتابع: «أنت مستيقظة في وقت متأخر».

- لم أدرك أن... أن الليل قد انتهى.

الساموراي واقفين عند البوابات وجميع المداخل يراقبون بفضول، وناجا بينهم. أصبح صوتها بالكاد مسموعًا بينما تحدثت باللاتينية: «احفظ عينيك، أتوسل إليك. حتى ظلام الليل يحتوي على نذير هلاك».

- أطلب المغفرة.

ألقيا نظرة بعيدًا عندما هرعت الخيول إلى البوابة الرئيسية. صقارون وحاشية الصيد والحراس. خرج توراناغا من الداخل بوجه كئيب.

قال ناجا: «كل شيء جاهز يا سيدي. هل لي أن أرافقك؟».

- لا، لا، شكرًا. احصل على قسط من الراحة. كيف كان التشا نو يو يا ماريكو سان.

- كان جميلًا جدًا يا سيدي. جميل جدًا.

- بونتارو سان سيد حقيقي. أنتِ محظوظة.

- نعم يا سيدي.

- هل ترغب في الذهاب إلى الصيد يا أنجين سان؟ أود أن أتعلم كيف تطير الصقر.

- عذرًا؟

ترجمت ماريكو على الفور.

قال بلاكتورن: «نعم، شكرًا لك».

أشار توراناغا له ليركب الحصان وقال: «جيد، تعال معي».

- حسنًا يا سيدي.

راقبتهم ماريكو وهم يغادرون. ثم توجهت إلى غرفتها عندما ساروا على الطريق. ساعدتها خادمتها في خلع ملابسها وإزالة مستحضرات تجميلها وفك تصفيفة شعرها. ثم أمرت الخادمة بأن تبقى في الغرفة، وألا تُزعج حتى الظهيرة.

- حسنًا يا سيدتي.

استلقت ماريكو وأغلقت عينيها وسمحت لجسدها أن يغرق في نعومة الألحفة. كانت مرهقة ومبتهجة في آن واحد. لقد دفعها التشا نو يو إلى مستوى غريب من السلام، مما طهرها، ومن هناك القرار المجيد المليء بالبهجة بالذهاب إلى الموت دفعها إلى قمة جديدة لم تصل إليها من قبل. العودة من هذه القمة إلى الحياة مجددًا تركتها بإحساس غريب ولا يصدق بجمال كونها على قيد الحياة. بدت وكأنها خارج جسدها بينما تجيب بونتارو بصبر، متأكدة أن إجاباتها وأدائها كانا مثاليين بالقدر نفسه. انكمشت في الفراش سعيدة بأن السلام موجود الآن... حتى تتساقط أوراق الشجر.

صلت بحماس: يا مريم العذراء، أشكرك على رحمتك في منحي هذا العفو
المجيد. أشكرك وأعبدك بكل قلبي وبكل روحي وللأبد.
كررت تلاوة صلاة على مريم بتواضع، طالبة المغفرة وفقاً لعاداتها وطاعة
لزعيمها الإقطاعي، ثم وضعت إلهها في جانب من عقلها ليوم آخر.
تأملت قبل أن يغلبها النوم: ماذا كنت سأفعل، إذا طلب بونتارو مشاركتي
الفراش؟

كنت سأرفض.

ثم، إذا أصر، كما هو حقه؟

كنت سأفي بوعدني له. نعم، بالتأكيد. لم يتغير شيء.

الفصل الرابع والأربعون

عبر الموكب الجسر مجددًا عند ساعة الماعز. كل شيء كما كان من قبل، باستثناء أن زاتاكي ورجاله كانوا الآن يرتدون ثيابًا خفيفة للسفر... أو للاشتباك. كانوا جميعًا مدججين بالأسلحة، ورغم أنهم منضبطين جيدًا، فإنه كان واضحًا أنهم يتشوقون للقتال حتى الموت إذا دعت الحاجة. جلسوا بتناسق أمام قوات توراناغا التي تفوقهم عددًا بكثير. كان الأب ألفيتو يقف إلى جانب المتفرجين، ومن بينهم بلاكثورن.

استقبل توراناغا زاتاكي بالهدوء الرسمي نفسه، متعمدًا إطالة مراسم الجلوس الرسمية. كان كلا الدايميو وحدهما على المنصة اليوم، والوسائد متباعدة أكثر تحت سماء منخفضة. يابو وأومي وناجا وبونتارو يقفون على الأرض المحيطة بتوراناغا، بينما اصطف خلف زاتاكي أربعة من مستشاريه العسكريين.

أخرج زاتاكي اللقافة الثانية في اللحظة المناسبة وقال: «لقد جئت لأسمع ردك الرسمي».

أجاب توراناغا بلهجة ثابتة وهو ينحني: «أوافق على الذهاب إلى أوساكا والخضوع لإرادة المجلس».

بدأ زاتاكي الحديث بوجه ملتوٍ غير مصدق: «ستخضع؟ أنت، توراناغا نو مينووارا، ستخضع...».

قاطعه توراناغا بصوته الرنان المهيّب الذي ارتد صداه في الأرجاء دون أن يبدو عاليًا: «استمع. يجب إطاعة مجلس الوصاية. حتى لو كان غير قانوني، فهو موجود وليس لأي دايميو واحد الحق في تمزيق المملكة، مهما كانت الحقيقة في صفه. المملكة تأتي أولًا. وإذا تمرد دايميو واحد، فمن واجب الجميع القضاء عليه. لقد أقسمت للتايكو ألا أكون أول من يخرق السلام، ولن أفعل، حتى لو كان الشر يسود الأرض. أقبل الدعوة. سأغادر اليوم».

كانت الصدمة بادية على كل الساموراي الذين حاولوا تخمين ما قد يعنيه هذا التراجع المفاجئ وغير المتوقع. كانوا جميعًا متيقنين من أن معظمهم -إن لم يكن جميعهم- سيضطرون إلى أن يصبحوا رونين، مع كل ما يحمله ذلك من فقدان الشرف والدخل والعائلة والمستقبل.

كان بونتارو يعلم أنه سيرافق توراناغا في رحلته الأخيرة وسيشاركه مصيره، وهو الموت مع كل أفراد عائلته من جميع الأجيال. كان إيشيدو عدوًا شخصيًا له ولا يمكن أن يسامحه، وبكل الأحوال من يريد أن يبقى حيًا بينما يتخلى زعيمه عن القتال الحقيقي بمثل هذه الطريقة الجبانة. فكر بونتارو بمرارة: إنها الكارما. امنحني القوة يا بوذا! أصبحت الآن ملتزمًا بقتل ماريكو وابننا قبل قتل نفسي. متى؟ عندما ينتهي واجبي ويذهب زعيمنا بشرف وسلام إلى العدم. سيحتاج إلى مساعد مخلص، أليس كذلك؟ الكل سيمضي، مثل أوراق الخريف، كل المستقبل والحاضر، السماء القرمزية والمصير. هذا جيد أيضًا، أليس كذلك؟ الآن سيتولى الزعيم يايمون الحكم بلا شك. لا بد أن الزعيم توراناغا يتمنى الحصول على السلطة في أعماق قلبه، مهما أنكر ذلك. ربما سيعيش التايكو مجددًا من خلال ابنه، وفي الوقت المناسب سنخوض حربًا ضد الصين مجددًا وننتصر هذه المرة، لنقف على قمة العالم كما هو واجبنا الإلهي. نعم، السيدة أوتشيبا ويايمون لن يغدرا بنا في المرة القادمة كما فعل إيشيدو وداعموه الجبناء في الماضي...

كان ناغا في حيرة من أمره. لا سماء قرمزية؟ لا حرب نبيلة؟ لا قتال حتى الموت في جبال شينانو أو على سهول كيوتو؟ لا موت نبيل في المعركة مدافعًا ببسالة عن راية والده، لا أكوام من جثث الأعداء ليعتليها في موقف نهائي مجيد، أو في نصر إلهي؟ لا هجوم حتى بالأسلحة القذرة؟ لا شيء من ذلك... فقط سي بوكو، ربما على عجل أيضًا، دون أي ضجة أو احتفال أو شرف، ورأسه معلق على رمح ليشاهده العامة بسخرية. مجرد موت ونهاية لسلالة يوشي. لأنه بالطبع سيموت كل واحد منهم، والده وجميع إخوته وأخواته وأبناء عمومته وأبناؤهم وبناتهم وأعمامهم وعماتهم. ركزت عيناه على زاتاكي. بدأت رغبة الدماء تغمر عقله...

كان أومي يراقب توراناغا بعينين نصف مغلقتين، وشعور الكراهية يمزقه من الداخل. فكر: لقد جن سيدنا تمامًا. كيف له أن يكون بهذا الغباء؟

لدينا مئة ألف رجل وكتيبة بنادق، وخمسون ألفاً آخرين حول أوساكا. السماء القرمزية أفضل بمليون مرة من قبر مهجور قذر.

كانت يده ثقيلة على مقبض سيفه، وفي لحظة غامرة تخيل نفسه يقفز للأمام لضرب عنق توراناغا، ليقدم رأسه إلى الوصي زاتاكي، وبذلك ينهي هذه التمثيلية الهزلية. ثم يقتل نفسه بشرف، هنا أمام الجميع. فما فائدة العيش الآن؟ الآن وقد أصبحت كيكو بعيدة عن متناوله، وقد اشترى عقدها وامتلكت من قبل توراناغا الذي خانهم جميعاً. كان جسده يشتعل في أثناء غنائها ليلة البارحة، وكان يعلم أن أغنيتهما كانت سرّاً له. وهو وحده. نار غير متبادلة، هو وهي. انتظر... لماذا لا ننتحر معاً؟ أن نموت معاً بجمال، ونبقى معاً للأبد. أوه، كم سيكون ذلك رائعاً! أن نخلط أرواحنا في الموت كشهادة أبدية على حبنا للحياة. لكن الخائن توراناغا أولاً، أليس كذلك؟

سحب أومي نفسه من الحافة بجهد كبير.

فكر: كل شيء انقلب رأساً على عقب، لا سلام في بيتي، يوجد غضب وشجار دائم، وميدوري دائماً تبكي. لم أقترب من انتقامي من يابو. لم يتم التفاوض على أي صفقات خاصة وسرية مع زاتاكي على مدار ساعات الليلة الماضية سواء مع يابو أو من دونه. لا صفقة من أي نوع. لا شيء يسير كما ينبغي. حتى عندما وجد مورا السيفين، كانا مشوهين جداً بفعل قوة الأرض لدرجة أنني أعلم أن توراناغا كرهني لأنني أظهرتهما له. والآن أخيراً هذا... هذا الاستسلام الجبان والخائن.

يبدو الأمر وكأنني مسحور... تحت تأثير تعويذة شريرة. هل ألقاها أنجين سان؟ ربما. لكن كل شيء لا يزال ضائعاً. لا سيوف ولا انتقام ولا مخرج سري ولا كيكو ولا مستقبل. انتظر. يوجد مستقبل معها. الموت هو المستقبل والماضي والحاضر، وسيكون نظيفاً وبسيطاً...

صرخ يابو مدرّكاً أن موته وموت ذريته أصبحا الآن مضمونين: «أنت تستسلم؟ لن نذهب إلى الحرب؟».

أجاب توراناغا: «أنا أقبل دعوة المجلس. كما ستقبل أنت دعوة المجلس».

- لن أفعل...

خرج أومي من شروده وهو يدرك أنه كان عليه أن يقاطع يابو ويحميه من الموت الفوري الذي سيأتي جراء أي مواجهة مع توراناغا. لكنه تعمد أن

يظل صامتًا، صارخًا لنفسه ببهجة من هذه الهدية السماوية، منتظرًا وقوع كارثة ليابو.

سأل تورانا: «لن تفعل ماذا؟».

صرخت روح يابو من الخطر. تمكن من التلعثم قائلًا: «أنا... أنا... بالطبع سيُطيعك أتباعك. نعم... إذا قررت... أي شيء تقرره، أنا... أنا سأفعله».

لعن أومي في داخله وسمح لتعبير وجهه المذهول بالعودة، بينما كان عقله لا يزال متهاكًا بسبب استسلام تورانا غير المتوقع تمامًا.

ترك تورانا يابو يتلعثم لبعض الوقت، مما زاد من قوة الاعتذار. ثم قطع عليه الحديث بازدراء قائلًا: «جيد». ثم استدار إلى زاتكي ولكنه لم يخفف من حذره: «إذن يا أخي، يمكنك أن تضع اللقافة الثانية جانبًا. لا يوجد شيء آخر...». رأى وجه نانا يتغير من زاوية عينه، فاستدار نحوه بسرعة: «نانا!». قفز الشاب من شدة الفزع، لكن يده ابتعدت عن سيفه وتلعثم: «نعم يا أبي؟».

- اذهب أحضر لي أدوات الكتابة الخاصة بي، الآن.

تنفس تورانا الصعداء عندما أصبح نانا بعيدًا عن مرمى السيف، مرتاحًا لأنه منع الهجوم على زاتكي قبل أن يبدأ. راقبت عيناه بونتارو بعناية. ثم أومي. وأخيرًا يابو. كان يعتقد أن الثلاثة الآن تحت السيطرة بما يكفي لعدم القيام بأي خطوة طائشة تؤدي إلى شغب فوري ومذبحة كبيرة.

تحدث إلى زاتكي مجددًا: «سأعطيك إجابتي الرسمية المكتوبة على الفور. هذا سيعيد المجلس لزيارتي الرسمية». خفض صوته وتحدث لأذني زاتكي وحده: «أنت آمن داخل إيزو يا وصي. وآمن خارجها. أنت آمن حتى تخرج والدتي من قبضتك. فقط حتى ذلك الحين. انتهى هذا الاجتماع».

قال زاتكي بازدراء علني: «جيد. «زيارة رسمية»؟ يا للنفاق! لم أعتقد أنني سأرى اليوم الذي يخضع فيه يوشي تورانا نو مينووارا للقائد إيشيدو. أنت مجرد...».

قال تورانا: «ما الأهم يا أخي؟ استمرارية نسلي... أم استمرارية المملكة؟».

خيم الظلام على الوادي. كانت الأمطار تتساقط بغزارة، وقاعدة السحب لا تبعد أكثر من تسعمائة متر عن الأرض، حاجبةً تمامًا طريق العودة عبر الممر. كانت الساحة وفناء النُّزل الأمامي مكتظين بالساموري المتذمرين الذين يدفع بعضهم بعضًا. الخيول تضرب أقدامها باضطراب. والضباط يصرخون بالأوامر بقسوة زائدة. والحمالون المذعورون يهرعون في كل اتجاه لتحضير قافلة المغادرة. لم يتبق سوى ساعة واحدة قبل حلول الظلام.

كان توراناغا قد كتب الرسالة المنمقة ووقعها، وأرسلها عبر رسول إلى زاتاكي، رغم توسلات بونتارو وأومي ويابو في اجتماع خاص. لقد استمع إلى حججهم بصمت.

عندما انتهوا، قال: «لا أريد المزيد من الحديث. لقد قررت مساري. أطيعوا». أخبرهم أنه سيعود إلى أنجيرو فورًا لجمع بقية رجاله. وسيتجه غدًا عبر الطريق الساحلي الشرقي نحو أتاامي وأوداوارا، ثم عبر الممرات الجبلية إلى إيدو. سيقود بونتارو مرافقته. ستنتقل كتيبة البنادق غدًا على متن القوادم في أنجيرو ليبجروا في انتظار توراناغا في إيدو، تحت قيادة يابو. وفي اليوم التالي أمر أومي بالتوجه إلى الحدود عبر الطريق المركزي مع كل محاربي إيزو المتاحين. كان عليه مساعدة هيرو ماتسو الذي كان يتولى القيادة العامة، وكان عليه ضمان أن العدو إيكافو جيكيو لن يتدخل في حركة المرور العادية. كان على أومي التمرکز في ميشيما في الوقت الحالي لحماية هذا القسم من طريق توكايدو، وإعداد محفات وخيول بكميات كافية لتوراناغا والحاشية الكبيرة اللازمة للزيارة الرسمية. قال: «نبه كل المحطات على طول الطريق وتأكد أن كل شيء جاهزٌ بالقدر نفسه، هل تفهم؟».

- نعم يا سيدي.

- تأكد أن كل شيء مثالي.

- حسنًا يا سيدي. يمكنك الاعتماد عليّ.

حتى أومي جفل تحت وطأة نظراته الحادة.

خرج توراناغا من غرفته إلى الشرفة عندما أصبح كل شيء جاهزًا لمغادرته. انحنى الجميع له. أشار لهم بحدة للاستمرار واستدعى صاحب النُّزل. تملق الرجل بينما يقدم الفاتورة وهو جاث على ركبته، فحصها توراناغا بنداً بنداً. كانت الفاتورة عادلة جدًّا. أوماً برأسه وألقى بها على

أمين خزانته لدفعها، ثم استدعى ماريكو وأنجين سان. حصلت ماريكو على الإذن للذهاب إلى أوساكا. قال لها: «لكن أولاً ستتوجهين مباشرةً من هنا إلى ميشيما. قدمي هذه الرسالة الخاصة إلى هيرو ماتسو سان، ثم تابعي إلى إيدو مع أنجين سان. ستكونين مسؤولة عنه حتى وصولك. ربما ستبحران إلى أوساكا... سأقرر ذلك لاحقًا. هل حصلت على القاموس من الكاهن سان يا أنجين سان؟».

- عذرًا؟ آسف، لم أفهم.

ترجمت ماريكو.

- عذرًا. نعم، كتاب حصلت.

- عندما نلتقي في إيدو، ستتحدث بيابانية أفضل مما تفعل الآن. هل تفهم؟

- نعم. أعتذر.

خرج توراناغا من الساحة بيأس، وساموراي يحمل له مظلة كبيرة لتحميه من المطر. انحنى جميع الساموراي والحمالون والقرويون جميعًا في آن واحد مجددًا. لم يعرفهم توراناغا أي اهتمام، بل ركب في المحفة المغطاة في مقدمة القافلة وأغلق الستائر.

رفع الحمالون الستة شبه العراة المحفة في الحال وبدؤوا يركضون بخطوات سريعة، أقدامهم العارية القاسية ترش الماء الموحل. قادهم ساموراي مرافقون على الخيول، وحراسة أخرى على الخيول تحيط بها. تبعهم الحمالون الاحتياطيون وقافلة الأمتعة، وكلهم في عجلة من أمرهم، متوترين وشاعرين بالخوف. كان أومي يقود المقدمة. وكان بونتارو مكلفًا بحراسة المؤخرة. أما يابو وناجا فقد غادرا بالفعل للانضمام إلى كتيبة البنادق التي كانت لا تزال على الطريق في كمين بانتظار توراناغا عند القمة؛ لينضموا إليهم مشكلين حرسًا خلفيًا. سأل يابو أومي بغضب خلال اللحظات القليلة من الخصوصية التي حظيا بها قبل أن ينطلق مسرعًا: «حرس خلفي في مواجهة مَنْ؟».

عاد بونتارو نحو البوابة العالية المنحنية للنزل، غير مبالي بالأمطار الغزيرة. قال: «ماريكو سان».

أسرعت إليه بطاعة وهي تحمل مظلتها الورقية البرتقالية التي كانت تُضرب بقوة بقطرات المطر وقالت: «نعم يا سيدي؟».

نظر إليها من تحت حافة قبعته المصنوعة من الخيزران، ثم انتقلت نظراته إلى بلاكتورن الذي كان يراقب من الشرفة. قال: «أخبريه...». ثم توقف.

- عذرًا؟

حذق إليها وقال: «أخبريه أنني أحمله مسؤولية حمايتك».

قالت: «حسنًا يا سيدي، لكن رجاءً اعذرني، أنا مسؤولة عن نفسي».

استدار بونتارو وقاس المسافة إلى مقدمة القافلة. وعندما عاد بنظره إليها، ظهرت لمحة من عذابه على وجهه. قال: «لن توجد أوراق متساقطة لأعيننا الآن، أليس كذلك؟».

- ذلك بيد الرب يا سيدي.

قال بازدرء: «لا، ذلك بيد الزعيم توراناجا».

نظرت إليه بثبات تحت وطأة نظراته. كان المطر يتساقط بغزارة، والقطرات تتساقط من حافة مظلتها كستار من الدموع. وكان الطين يتناثر على حافة الكيمونو الخاص بها. ثم قال: «وداعًا... حتى ألقاك في أوساكا».

تفاجأت وقالت، «اعذرني، لكن ألن أراك في إيدو؟ ستكون هناك بالتأكيد مع الزعيم توراناجا، وستصل تقريبًا في الوقت نفسه، أليس كذلك؟ سأراك حينها».

- نعم. لكن في أوساكا، عندما نلتقي هناك أو عندما تعودين من هناك، حينها سنبدأ من جديد. حينها سأراك حقًا، أليس كذلك؟

- فهمت. أسفة جدًا.

قال: «وداعًا يا ماريكو سان».

- وداعًا يا زيمي.

انحنى ماريكو. بادلها بونتارو التحية بصرامة ثم سار عبر الوحل نحو حصانه. صعد إلى السرج وانطلق مسرعًا دون أن ينظر خلفه.

قالت وهي تراقبه يبتعد: «اذهب في رعاية الرب».

رأى بلاكتورن عينيها تتبعان بونتارو. انتظر تحت مأوى السقف، وقد خفت حدة المطر. وسرعان ما اختفت مقدمة القافلة في السحب، ثم محفة تورانا، وأصبح يتنفس بسهولة أكبر، رغم أنه لا يزال محطماً بسبب تورانا وكل ما حدث في ذلك اليوم المشؤوم.

كان الصيد قد بدأ جيداً في الصباح. اختار بلاكتورن صقراً صغيراً طويل الجناح، مثل البويو، ونجح في إطلاقه على طائر قبرة. انحدرت وارتفعت المطاردة متجهة جنوباً خلف حزام من الأشجار بفعل رياح قوية. قاد المطاردة كما كان من حقه، واندفع عبر الغابة على طريق ممهد، كان الباعة المتجولون والمزارعون يتفرقون بسرعة. لكن اعترض طريقه بائع زيت متهاك على ظهر حصان متهاك مثله ولم يتحرك. في خضم إثارة المطاردة، صرخ بلاكتورن في الرجل ليبعد، لكن البائع رفض التحرك، فسبّه بلاكتورن بقسوة. رد البائع عليه بوقاحة وصاح في وجهه، وفجأة ظهر تورانا وأشار لحارسه الشخصي قائلاً: «أعطه سيفك للحظة يا أنجين سان».

وقال بعض الكلمات الأخرى التي لم يفهمها بلاكتورن. نفذ بلاكتورن الأمر فوراً، وقبل أن يدرك ما يحدث، هجم الساموراي على البائع. كانت ضربته وحشية للغاية ومثالية لدرجة أن بائع الزيت مشى خطوة قبل أن يسقط منقسماً إلى نصفين عند الخصر.

ضرب تورانا مقبض حصانه في فرح لحظي، ثم عاد إلى حزنه بينما كان الساموراي الآخرون يهتفون. نظف الحارس الشخصي السيف بعناية، مستخدماً حزامه الحريري لحماية النصل، غمد السيف برضا وأعاده قائلاً شيئاً فسّرتة ماريكو لاحقاً: «قال للتو يا أنجين سان، إنه فخور بأنه سُمح له باختبار مثل هذا السيف. يقترح الزعيم تورانا أن تسمي السيف «بائع الزيت» لأن مثل هذه الضربة ومثل هذه الحدة يجب أن تُذكر بشرف. لقد أصبح سيفك أسطورة الآن، أليس كذلك؟».

تذكر بلاكتورن كيف أوماً برأسه مُخفياً عذابه. كان يرتدي «بائع الزيت» الآن -سيحمل اسم «بائع الزيت» إلى الأبد- السيف نفسه الذي قدمه له تورانا. فكر: أتمنى لو أنني لم أحصل على هذا السيف قط. لكنه لم يكن خطأهم بالكامل؛ بل كان خطئي أيضاً. لقد صرخت في الرجل، وبادلني هو الوقاحة، لا يُسمح معاملة الساموراي بوقاحة. ما الخيار الآخر. علم بلاكتورن أنه لا يوجد خيار آخر. وعلى ذلك، فإن قتل الرجل أفسد متعة الصيد عليه،

رغم أنه كان مضطراً إلى إخفاء ذلك بعناية لأن تورانا جا كان في مزاج متقلب وصعب طوال اليوم.

عادوا إلى يوكوسي قبل الظهر بقليل، ثم اجتمع تورانا جا مع زاتاكي. بعد ذلك، وبعد حمام ساخن وتدليك، وجد بلاكثورن فجأة الأب ألفيتو واقفاً في طريقه مثل شبح انتقامي، يرافقه تلميذان معاديان. قال بلاكثورن: «باسم المسيح، ابتعد عني».

قال ألفيتو: «لا داعي للخوف، أو للتجديف».

قال بلاكثورن محاولاً السيطرة على نفسه، وهو يدرك أنه في أراضى العدو: «ليلعنك الرب أنت وكل الكهنة».

كان قد رأى في وقت سابق العشرات من الساموراي الكاثوليك يتوجهون إلى القديس الذي أخبرته ماريكو أنه يُقام في فناء النزل الذي يقيم فيه ألفيتو. تحسس بلاكثورن مقبض سيفه، لكنه لم يكن يرتديه مع رداء الحمام، ولم يحمله كالمعتاد، فلحن غباءه وكره أن يكون غير مسلح.

- ليغفر الرب لك تجديفك يا ربان. نعم، ليغفر لك ويفتح عينيك. لا أحمل لك أي ضغينة. جئت لأحضر لك هدية. ها هي ذي، هدية من الرب يا ربان.

تلقى بلاكثورن الهدية بحذر. وعندما فتحها ورأى القاموس البرتغالي اللاتيني الياباني، شعر بفرحة عارمة. قلب بعض الصفحات. كانت أفضل طباعة رآها في حياته بلا شك، وكانت جودة المعلومات وتفصيلها مذهلة. قال: «نعم، هذه حقاً هدية من الرب، ولكن الزعيم تورانا جا هو من أمرك بإعطائها لي».

- نحن نطيع أوامر الرب فقط.

- هل طلب منك تورانا جا أن تعطيهها لي؟

- نعم. كان ذلك بناءً على طلبه.

- وهل طلب تورانا جا لا يُعد أمراً؟

أشار ألفيتو إلى الكتاب وقال: «ذلك يعتمد يا ربان، على من أنت، وما أنت، ومدى قوة إيمانك. قضى ثلاثة من إخوتنا سبعة وعشرين عاماً في تحضيره».

- لماذا تعطونه لي؟

- لقد طُلب منا ذلك.

- لماذا لم تتجنبوا طلب الزعيم تورانا جا؟ أنتم أكثر دهاءً بما يكفي للقيام بذلك.

هز ألفيتو كتفيه. قلب بلاكتورن الصفحات بسرعة متفقدًا الكتاب. كان الورق ممتازًا والطباعة واضحة للغاية. والصفحات كلها متسلسلة.

قال ألفيتو مستمتعًا: «إنه مكتمل. نحن لا نتعامل مع أنصاف كتب».

- هذا الكتاب أثمن من أن تقدمه مجانًا. ماذا تريدون مقابلته؟

- لقد طُلب منا إعطاؤه لك. ووافق الأب الزائر. لذا أعطيناك لك. لقد طُبع هذا العام، بعد طول انتظار. إنه جميل، أليس كذلك؟ نحن نطلب فقط أن تعتني به، وأن تعامل الكتاب معاملة حسنة. إنه يستحق ذلك.

- إنه يستحق أن يُحرس بحياة. هذه معرفة لا تُقدر بثمن، مثل أحد دلائلكم البحرية. لكن هذا أفضل. ماذا تريدون مقابلته؟

- نحن لا نطلب شيئًا مقابلته.

قال بلاكتورن وهو يزن الكتاب في يده ويزداد شغًا: «لا أصدقك. لا بد أنك تعلم أن هذا يجعلني مساويًا لكم. إنه يعطيني كل معرفتكم ويوفر علينا عشر أعوام، ربما عشرين عامًا. بهذا سأتمكن قريبًا من التحدث مثلكم. وحين أتمكن من ذلك، يمكنني تعليم الآخرين. هذا هو المفتاح لليابان، أليس كذلك؟ اللغة هي المفتاح لأي بلد أجنبي، أليس كذلك؟ في غضون ستة أشهر سأتمكن من التحدث مباشرة إلى تورانا جا ساما».

- نعم، ربما ستفعل. إذا كان لديك ستة أشهر.

- ماذا يعني ذلك؟

- لا شيء أكثر مما تعرفه بالفعل. سيموت الزعيم تورانا جا قبل مرور ستة أشهر.

- لماذا؟ ما الأخبار لتي أحضرتها له؟ منذ أن تحدث معك وهو أصبح ثورًا قد تمزق نصف حلقه. ماذا قلت له؟

- رسالتي كانت خاصة، من صاحب النياقة إلى الزعيم تورانا جا. عذرًا، أنا مجرد رسول. لكن القائد إيشيدو يسيطر على أوساكا كما تعلم

بالتأكيد، وعندما يذهب توراناغا ساما إلى أوساكا سينتهي كل شيء بالنسبة له. وبالنسبة لك.

شعر بلاكتورن بالبرودة تتسرب إلى نخاعه. سأل: «لماذا أنا؟».

- لا يمكنك الهروب من مصيرك يا ربان. لقد ساعدت توراناغا ضد إيشيدو. هل نسيت؟ لقد أذيت إيشيدو. وقدت الهروب من ميناء أوساكا. أنا آسف، لكن قدرتك على التحدث باليابانية أو سيوفك أو مكانتك كساموراي لن تساعدك على الإطلاق. ربما الأمر أسوأ الآن لأنك ساموراي. الآن ستؤمر بالقيام بالسيبوكو، وإذا رفضت... (أضف ألفيتو بالصوت الهادئ نفسه): لقد أخبرتك من قبل، إنهم شعب بسيط. قال بشجاعة زائفة: «نحن الإنجليز شعب بسيط أيضًا. عندما نموت، نموت، ولكن قبل ذلك نضع ثقتنا في الرب ونبقي سلاحنا جاهزًا. لدي بعض الحيل المتبقية، لا تخف».

- أنا لا أخاف يا ربان. لا أخاف منك ولا من هرطقتك ولا من بنادقك. كلها فاسدة... كما أنت فاسد.

قال بلاكتورن وهو يشعر بالارتباك: «هذه هي الكارما - في يد الرب - سمها ما شئت. لكنني أقسم بالرب إنني سأستعيد سفينتي، وبعدها خلال عامين، سأقود سربًا من السفن الإنجليزية إلى هنا وأرسلكم جميعًا إلى الجحيم بعيدًا عن آسيا».

تحدث ألفيتو مرة أخرى بهدوء العميق المزعج: «هذا في يد الرب يا ربان. لكن هنا ألقى النرد ولن يحدث أي شيء مما تقول. أي شيء». نظر ألفيتو إليه كما لو كان ميتًا بالفعل وتابع: «ليرحمك الرب، لأنني أقسم بالرب يا ربان، أعتقد أنك لن تغادر هذه الجزر أبدًا».

ارتجف بلاكتورن وهو يتذكر القناعة التامة التي تحدث بها ألفيتو.

- هل تشعر بالبرد يا أنجين سان؟

كانت ماريكو تقف بجانبه على الشرفة الآن، تهز مظلتها لتجف في الشفق. قال: «عذرًا، لا، لا أشعر بالبرد... كنت أفكر فقط».

نظر إلى الممر. اختفت القافلة بأكملها في السحب. خف المطر قليلًا وأصبح لطيفًا وناعمًا. كان بعض القرويين والخدم يسرون فوق الماء الموحد عائدين إلى منازلهم. كان الفناء الأمامي فارغًا والحديقة مغمورة بالمياه.

كانت الفوانيس الزيتية تُضاء في جميع أنحاء القرية. لم يعد يوجد حراس عند البوابة أو على جانبي الجسر. سيطر شعور كبير بالفراغ على الغسق. قالت: «أليس المنظر أجمل في الليل؟». أجاب: «بلى».

كان يدرك تمامًا أنهما وحدهما الآن، وفي أمان، إذا كانا حذرين وإذا كانت ترغب كما يرغب هو.

جاءت خادمة وأخذت مظلتها، وأحضرت جوارب تابي جافة. جثت على ركبتها وبدأت تجفف قدمي ماريكو.

- سنبدأ رحلتنا غداً عند الفجر يا أنجين سان.

- كم من الوقت ستستغرق؟

- عدة أيام يا أنجين سان. قال الزعيم تورانا جا...

نظرت ماريكو بعيداً عندما ظهرت جيوكو وهي تتسلل من داخل النزل بتملق. تابعت: «أخبرني الزعيم تورانا جا أنه يوجد متسع من الوقت».

انحنّت جيوكو بعمق وقالت: «مساء الخير يا سيدة تودا، أرجو أن تعذريني على المقاطعة».

- كيف حالك يا جيوكو سان؟

- بخير، شكرًا لك، رغم أنني أتمنى أن يتوقف هذا المطر. لا أحب هذا الطقس الرطب. لكن عندما يتوقف المطر، تبدأ الحرارة، وهي أسوأ بكثير، أليس كذلك؟ لكن الخريف ليس بعيداً... نحن محظوظون لأن لدينا الخريف لتطلع إليه، وكذلك الربيع السماوي، أليس كذلك؟

لم تجب ماريكو. ربطت الخادمة جوارب التابي لها ونهضت. شكرتها ماريكو وأشارت لها بأنها يمكنها المغادرة، ثم قالت: «إذن يا جيوكو سان؟ هل يوجد شيء يمكنني القيام به لأجلك؟».

- سألت كيكو سان ما إذا كنتِ ترغبين في أن تخدمكِ خلال العشاء أو أن ترقص أو تغني لك الليلة. ترك الزعيم تورانا جا تعليمات لها بأن ترفه عنكِ إذا رغبت في ذلك.

- نعم، لقد أخبرني يا جيوكو سان. سيكون ذلك لطيفاً، ولكن ربما ليس الليلة. علينا المغادرة عند الفجر وأنا متعبة جداً. ستكون هناك ليالٍ

أخرى، أليس كذلك؟ رجاء قدمي لها اعتذارى، ورجاء أخبريها أنني مسرورة لوجودكما معنا في الرحلة.

كان تورانا جا قد أمر ماريكو بأن تأخذ معها المرأتين، وقد شكرته مسرورة بوجودهما كمرافقتين رسميتين.

قالت جيوكو بتملق مصطنع: «أنت لطيفة جدًا، ولكن هذا شرفنا. هل ما زلنا سنذهب إلى إيدو؟».

- نعم. بالطبع. لماذا؟

- لا شيء يا سيدة تودا. لكن في هذه الحالة، ربما يمكننا التوقف في ميشيما ليوم أو يومين؟ ترغب كيكو سان في جمع بعض الملابس، فهي لا تشعر أنها ترتدي ملابس تليق بالزعيم تورانا جا، وسمعت أن صيف إيدو حار جدًا ومليء بالبعوض. ينبغي أن نجمع ملابسها، رغم بساطتها.

- نعم. بالطبع. سيكون لديكما متسع من الوقت.

لم تنظر جيوكو إلى بلاكتورن، رغم أن كليتهما كانت مدركة لوجوده. قالت: «إنه... إنه لأمر مأسوي ما حدث لسيدنا، أليس كذلك؟».

أجابت ماريكو بهدوء: «إنها الكارما». ثم أضافت بحدة أنثى لطيفة: «لكن لم يتغير شيء يا جيوكو سان. ستحصلين على أموالك في اليوم الذي تصلين فيه، بالفضة كما ينص العقد».

قالت المرأة الأكبر سنًا متظاهرة بالصدمة: «أنا آسفة جدًا، آسفة جدًا يا سيدة تودا، لكن المال؟ هذا آخر شيء خطر في بالي. قطعًا. كنت قلقة فقط بشأن مستقبل سيدنا».

قالت ماريكو بسهولة رغم أنها لم تعد تصدق ذلك: «إنه سيد مستقبله، لكن مستقبلك جيد، أليس كذلك... مهما حدث. أنت غنية الآن. انتهت كل مشكلاتك الدنيوية. وستصبحين قريبًا شخصية مؤثرة في إيدو مع نقابتك الجديدة للمحظيات، بغض النظر عمّن يحكم الكانتو. قريبًا ستصبحين أعظم ماما سان، ومهما حدث، حسنًا، إن كيكو سان لا تزال تحت حمايتك، وشبابها لم يُمس، وكذلك الكارما الخاصة بها، أليس كذلك؟».

أجابت جيوكو بجدية متقنة، بينما كانت ترتجف من مجرد التفكير في الألفين وخمسمائة كوكو التي كادت تصل إلى خزانتها: «كل ما يشغلني هو الزعيم توراناغا. إذا كانت توجد أي طريقة يمكنني أن أساعده بها فسأفعل...».

- كم أنت كريمة يا جيوكو سان! سأخبره بعرضك. نعم، تخفيض ألف كوكو من السعر سيساعد كثيرًا. أقبل بالعرض نيابة عنه.

حركت جيوكو مروحتها وارتسمت ابتسامة متكلفة على وجهها، بالكاد متجنباً الصراخ من غبائها عندما وقعت في الفخ مثل مبتدئة مخمورة بالساكي. تمتعت محاولة التعافي: «لا يا سيدة تودا، كيف يمكن للمال مساعدة راع سخّي مثله؟ لا، من الواضح أن المال لا يمكن أن يساعده. لا، المال لا يساعد. من الأفضل أن أقدم معلومة أو خدمة أو...».

- عذراً، ما المعلومة؟

- لا شيء، لا شيء في الوقت الحالي. كنت فقط أستخدم ذلك كتعبير مجازي، أسفة جداً. ولكن المال...

- عذراً، نعم. حسناً، سأخبره بعرضك. وبسخائك. أشكر نيابة عنه.

انحنى جيوكو بعد صرفها وغادرت سريعاً إلى داخل النزل. تسلفت ضحكة خافتة من ماريكو. قال: «ما الذي يضحك يا ماريكو سان؟».

أخبرته بما قيل. قال: «يبدو أن الماما سان في كل مكان متشابهين. إنها قلقة فقط بشأن مالها».

- هل سيدفع الزعيم توراناغا رغم...

توقف بلاكتورن. انتظرت ماريكو ببراءة. ثم تابع تحت نظراتها: «قال الأب ألفتو إنه عندما يذهب الزعيم توراناغا إلى أوساكا، سيُقضى عليه».

قالت ماريكو ببهجة لم تشعر بها حقاً. ثم وضعت موضوع توراناغا وأوساكا في أماكنهما المحددة داخل عقلها واستعادت هدوءها: «نعم. نعم. نعم يا أنجين سان، هذا صحيح جداً. ولكن أوساكا تبعد عدة فراسخ، وأمامنا عدد لا يُحصى من أعواد الوقت، وحتى يحين ذلك الوقت الذي سيحدث فيه ما هو مقدر، لا يعلم إيشيدو، ولا يعلم الأب الصالح، ولا نعلم نحن، لا يعلم أحد حقاً ما الذي سيحدث. أليس كذلك؟ إلا الرب. ولكنه لن يخبرنا، أليس كذلك؟ ربما حتى يحدث الأمر بالفعل».

ضحك معها: «نعم. أنت حكيمة جداً».

- شكرًا لك. لديّ اقتراح يا أنجين سان. دعنا ننسَ جميع المشكلات الخارجية كلها خلال رحلتنا.

قال باللاتينية: «أنتِ، من الجيد رؤيتكِ».

- وأنتِ. يجب أن نكون حذرين للغاية أمام المرأتين خلال رحلتنا، أليس كذلك؟

- يمكنك الاعتماد على ذلك يا سيدتي.

- أنا أفعل. في الحقيقة، أفعل ذلك جدًّا.

- الآن نحن تقريبًا وحدنا، أليس كذلك؟ أنتِ وأنا.

- نعم. لكن ما حدث لم يحدث قط.

- صحيح. نعم. أنتِ على حق مجدّدًا. وجميلة.

دخل ساموراي من البوابة بخطى ثابتة وانحنى لها. كان في منتصف العمر بشعره أشيب، ووجهه محفور بالندوب، يمشي بعرجة طفيفة. قال: «أرجو المعذرة يا سيدة تودا، لكننا سنغادر عند الفجر، أليس كذلك؟».

- نعم يا يوشيناكا سان. ولكن لا بأس إذا تأخرنا حتى الظهيرة، إذا رغبت. لدينا متسع من الوقت.

- نعم. كما تشائين، فلنغادر عند الظهيرة. مساء الخير يا أنجين سان. اسمح لي أن أقدم نفسي. أنا أكيرا يوشيناكا، قائد الحرس المرافق لكما.

- مساء الخير يا قائد.

التفت يوشيناكا مجدّدًا إلى ماريكو وقال: «أنا المسؤول عنكما يا سيدتي، لذا رجاء أخبريه أنني أمرت رجلين أن يناما في غرفته ليلاً كحراسه الشخصيين. سيكون هناك عشرة حراس في الخدمة ليلاً. سيكونون جميعًا حولكما. لدي مائة رجل في المجمع».

- حسنًا يا قائد. ولكن اعذرني من الأفضل عدم تمرکز أي رجال في غرفة أنجين سان. لديهم عادة جادة جدًّا بالنوم وحدهم، أو مع سيدة واحدة. ربما ستكون خادمتي معه، لذا سيكون محميًّا. رجاء أبقِ الحراس حولنا لكن ليس قريبين جدًّا، حتى لا يشعر بالانزعاج.

حك يوشيناكا رأسه وعبس قائلًا: «حسنًا يا سيدتي. نعم، سأوافق على ذلك، رغم أن طريقتي منطقية أكثر. إذن عذرًا رجاء أطلبني منه ألا يخرج في

نزهاته الليلية. أنا المسؤول حتى نصل إلى إيذو، وعندما أكون مسؤولاً عن أشخاص مهمين جداً، أشعر بالتوتر الشديد».

انحنى بصرامة وغادر.

- يطلب منك القائد ألا تخرج بمفردك في أثناء رحلتنا. اصطحب ساموراي معك إذا استيقظت ليلاً يا أنجين سان. يقول إن هذا سيساعده.

- حسناً. نعم، سأفعل ذلك.

كان بلاكتورن يراقبه وهو يغادر وسأل: «ماذا قال أيضاً؟ سمعت شيئاً عن النوم؟ لم أستطع فهمه جيداً...».

توقف. جاءت كيكو من الداخل. كانت ترتدي رداء حمام مع منشفة ملفوفة حول شعرها بعناية. سارت حافية القدمين باتجاه الحمام الخاص بالينابيع الحارة، وانحنى لهما نصف انحناء ولوحت بمرح. وبدلاً من كلاهما التحية.

أخذ بلاكتورن يراقب ساقيهما الطويلتين وحركتها الرشيقة حتى اختفت. شعر بعيني ماريكو تراقبه من كثب، فنظر إليها مجدداً. قال بهدوء وهز رأسه: «لا».

ضحكت وقالت: «كنت أعتقد أنه قد يكون من الصعب... ربما يكون غير مريح لك أن تكون مجرد رفيقة سفر بعد تجربة خاصة كالتي حظيت بها».

- غير مريح، لا. على العكس، إنه ممتع جداً. لديّ ذكريات ممتعة جداً. أنا سعيد أنها الآن تنتمي للزعيم توراناغا. هذا يجعل كل شيء سهلاً، لها وله. وللجميع.

كان سيضيف: للجميع باستثناء أومي. لكنه تراجع عن ذلك وقال: «فبعد كل شيء كانت بالنسبة لي مجرد هدية خاصة جداً، هدية مجيدة. لا أكثر. أليس كذلك؟».

- كانت هدية، بلى.

أراد لمس ماريكو. لكنه لم يفعل. بدلاً من ذلك، التفت ونظر إلى الممر، غير متأكد مما قرأه في عينيها. كان الظلام قد غطى الممر الآن. والغيوم. تساقط الماء بلطف من السقف. قال: «ماذا قال القائد أيضاً؟».

- لا شيء مهم يا أنجين سان.

الفصل الخامس والأربعون

استغرقت رحلتهم إلى ميشيما تسعة أيام، وفي كل ليلة كانا يقضيان بعضاً من الوقت معاً، سرّاً. وكان يوشيناكا يساعدهما دون قصد. ففي كل نزل كان يختار غرف مجاورة للجميع. كان يقول دائماً: «أمل ألا تعترضني يا سيدتي، ولكن هذا سيجعل الأمور الأمنية أسهل بكثير».

كانت ماريكو توافق وتختار الغرفة الواقعة في المنتصف، بينما كانت كيكو وجيوكو في أحد الجوانب، وبلاكثورن في الجانب الآخر. ثم في ظلمة الليل كانت تترك خادماتها شيموكو وتذهب إليه. لم يكن الحراس اليقظون الذين يحرسون الخارج يعلمون بأي شيء بفضل الغرف المجاورة، بالإضافة إلى الثثرة المعتادة وصخب الليل والغناء واللهو من المسافرين الآخرين مع الخادومات المتحمسات دائماً والمتلهفين لإرضاء الجميع. كانت فقط شيموكو على علم بالسر.

كانت ماريكو تدرك أنه في النهاية ستعرف جيوكو وكيكو وكل النساء في القافلة بما يحدث. ولكن هذا لم يكن يقلقها. فهي ساموراي وهن لسن كذلك. كانت كلمتها ستكون ذا تأثير أقوى من كلمتهن، ما لم يُمسك بها بصفافة. ولا يوجد ساموراي -حتى يوشيناكا- يجرؤ على فتح بابها في الليل دون دعوة. بالنسبة للجميع، كان بلاكثورن يشارك سريره مع شيموكو أو إحدى خادومات النزل. ولم يكن ذلك من شأن أحد غيره. لذلك يمكن لامرأة فقط أن تخونها، وإذا تم خيانتها، فإن الخائنة وجميع نساء القافلة سيواجهن موتاً أشد وحشية وأبطأ من موتها بسبب هذه الخيانة القذرة. بالإضافة إلى أنها كانت تعلم أنهم يدركن جميعاً أنه بإمكانها قتلهن عند أدنى خطأ -سواء كان حقيقياً أو مُدّعياً- إذا رغبت قبل وصولهم إلى ميشيما أو إيدو. وكانت ماريكو متأكدة أن توراناغا لن يعترض على القتل. بل ربما كان سيشجع قتل جيوكو، وفي أعماق قلبها كانت ماريكو متأكدة أنه لن يعترض حتى على قتل كيكو. فإن مبلغ ألفين وخمسمائة كوكو يكفي لشراء العديد من المحظيات من الطبقة الأولى.

لذلك شعرت بالأمان من جهة النساء. لكنها لم تشعر بالأمان من بلاكثورن، رغم حبها الكبير له الآن. فهو لم يكن يابانياً. لم يُدرب منذ ولادته على بناء الأسوار الداخلية التي لا يمكن اختراقها ليختبئ خلفها. كان وجهه أو تصرفاته أو فخره ستفضحهم. لم تكن خائفة على نفسها. كانت تخاف عليه.

همست في الليلة الأولى: «أدركت أخيراً ما يعنيه الحب».

ولأنها لم تعد تقاوم اجتياح الحب، بل استسلمت لإرادته التي لا تقاوم، سيطر عليها خوفها على سلامته. همست له وهي تحتضنه مستخدمة اللغة اللاتينية، لغة العشاق: «أنا أحبك، ولذلك أنا خائفة عليك».

- أنا أحبك. آه، كم أحبك.

- لقد دمرتك عندما بدأت يا حبيبي. لقد أصبحنا هالكين الآن. لقد دمرتك... وهذه هي الحقيقة.

- لا يا ماريكو، سيحدث شيء بطريقة ما ليجعل كل شيء على ما يرام.

- ما كان يجب أن أبدأ قط. الخطأ مني.

- لا تقلقي، أتوسل إليك. الكارما هي الكارما.

تظاهرت في النهاية بأنها مقتنعة وذابت بين ذراعيه، لكنها كانت متأكدة أن نهايته ستكون على يديه. لكنها لم تكن خائفة على نفسها.

كانت الليالي مليئة بالفرح. رقيقة، وكل واحدة أفضل من التي سبقتها. أما الأيام فكانت سهلة بالنسبة لها، وصعبة عليه. كان دائماً في حالة تأهب، مصمماً على ألا يرتكب خطأ من أجلها. قالت له وهما يركبان معاً منفصلين عن البقية، يحافظان الآن على مظهر الثقة المطلقة بعد خطئها في الليلة الأولى: «لن يحدث أي خطأ. أنت قوي. أنت ساموراي ولن يحدث أي خطأ».

- وماذا عن عندما نصل إلى إيدو؟

- دع إيدو تتكفل بأمر إيدو. أنا أحبك.

- نعم. وأنا أحبك أيضاً.

- إذن لماذا تبدو حزيناً؟

- لست حزيناً يا سيدتي. الأمر فقط أن الصمت مؤلم. أرغب في الصراخ بحبي من أعالي الجبال.

كانا يستمتعان بخصوصيتهما ويقينهما بأنهما لا يزالان في مأمن من الأعين المتطفلة.

سألت كيكو برفق في الهودج الخاص بهم في اليوم الأول من الرحلة: «ماذا سيحدث لهما يا جيوكو سان؟».

- كارثة يا كيكو سان. لا أمل لمستقبلهما. إنه يخفي الأمر جيداً، لكنها... حبها بادٍ على وجهها. انظري إليها. تبدو كفتاة صغيرة! يا لها من حمقاء!
- لكن يا لها من روعة، أليس كذلك؟ كم هي محظوظة لأن تكون مكتملة هكذا، أليس كذلك؟

- بلى، لكن مع ذلك، لا أتمنى موتها لأي أحد.

سألت كيكو: «ماذا سيفعل يوشيناكا عندما يكتشفهما؟».

- ربما لن يكتشف. أَدْعُو أَلَا يكتشف. الرجال أغبياء وسُدْجٌ للغاية. لا يرون أبسط الأمور عن النساء، الشكر لبوذا، مبارك اسمه. دعينا ندعُ أَلَا يُكتشفا حتى نُنهي مصالحنًا في إيدو. دعينا ندعُ أَلَا نحاسب. نعم. ودعينا نبحت عن أقرب ضريح بعد ظهر هذا اليوم عندما نتوقف وسأضيء عشرة أعواد بخور كهدية للآلهة. وأقسم بكل الآلهة إنني سأكرس معبداً لكل الآلهة بثلاثة كوكو سنوياً لمدة عشر سنوات إذا نجونا وإذا حصلت على مالي.

- لكنهما جميلان جداً معاً، أليس كذلك؟ لم أرَ امرأة تزدهر هكذا من قبل.

- بلى، لكنها ستذبل مثل زهرة كاميليا محطمة عندما تُتهم أمام بونتارو سان. إن الكارما الخاصة بهما هي الكارما ولا يوجد شيء يمكننا فعله حيالهما. أو حيال الزعيم توراناغا... أو حتى أومي سان. لا تبكي يا طفلي.

- مسكين أومي سان.

لحقهم أومي في اليوم الثالث. مكث في نُزلهم، وتحدث مع كيكو على انفراد بعد وجبة المساء، وطلب منها رسمياً أن ترافقه إلى الأبد.

أجابت على الفور وسمحت لنفسها بالبكاء لأنها كانت تحبه كثيراً: «بكل سرور يا أومي سان، بكل سرور. لكن يمنعي واجبي تجاه الزعيم توراناغا الذي فضلني وتجاه جيوكو سان التي ربتني».

- لكن الزعيم تورانا جا تنازل عن حقوقه تجاهك. لقد استسلم. انتهى أمره.

- لكن عقده لم ينتهِ يا أومي سان، رغم أنني أتمنى ذلك. عقده قانوني وملزم. أرجو أن تعذرني لكن يجب أن أرفض.

- لا تُجيبني الآن يا كيكو سان. فكري في الأمر. رجاءً، أتوسل إليك. أعطيني إجابتك غداً.

وغادرها.

لكن إجابتها الدامعة كانت الإجابة نفسها: «لا أستطيع أن أكون أنانيةً لهذه الدرجة يا أومي سان. أرجو أن تسامحني. واجبي تجاه الزعيم تورانا جا وتجاه جيوكو سان... لا أستطيع، رغم رغبتني في ذلك. أرجو أن تسامحني».

لقد جادل. ثم انساب مزيدٌ من الدموع في السر. وأقسموا على الحب الأبدي، ثم أرسلته بعيداً مع وعد: «إذا فُسخ العقد أو مات الزعيم تورانا جا وأصبحتُ حرة، فسأفعل كل ما تريده. سأطيع كل ما تأمرني به».

وهكذا غادر النُزل وتوجه إلى ميشيما شاعراً بنذير شؤم، بينما جففت هي دموعها وأصلحت مستحضرات تجميلها. أثنت عليها جيوكو: «أنتِ حكيمة جداً يا عزيزتي. يا ليت السيدة تودا كانت تملك نصف حكمتكِ».

كان يوشيناكا يقودهم ببطء من نُزل إلى آخر على طول مجرى نهر كانو، الذي يتعرج شمالاً نحو البحر، حيث يسير مع التأخيرات التي بدت دائمة الحدوث دون أن يكثرث للوقت. كان تورانا جا قد أخبره سرّاً أنه لا حاجة إلى العجلة، شريطة إيصالهم إلى إيدو بسلام بحلول القمر الجديد. قال: «أفضل أن تصلوا إلى هناك متأخرين على أن تصلوا مبكرين يا يوشيناكا سان. هل تفهم؟». أجاب: «نعم يا سيدي».

والآن كان يبارك الكامي الحارس الذي منحه هذا الوقت من الراحة. في ميشيما مع الزعيم هيرو ماتسو، أو في إيدو مع الزعيم تورانا جا، سيكون عليه تقديم تقريره الإلزامي، شفهيّاً وكتابياً. ثم سيتعين عليه أن يقرر ما إذا كان يجب عليه أن يخبرهم ما يظن، وليس بما كان حريصاً على عدم رؤيته. قال لنفسه مدهوشاً: لا، بالتأكيد أنا مخطئ. السيدة تودا؟ هي وأي رجل، ناهيك بهمجي!

سأل نفسه: «أليس من واجبك أن ترى؟ أن تحصل على دليل. أن تقبض عليهما خلف الأبواب المغلقة، متلبسين معًا في الفراش. ستُدان أنت بالتواطؤ إذا لم تفعل، أليس كذلك؟ سيكون من السهل جدًا، رغم حذرهما الشديد.

فكر: نعم، لكن فقط الأحمق سيجلب مثل هذه الأخبار. أليس من الأفضل أن تتظاهر بالغباء وتدعو ألا يخونهم أحد وبالتالي يخونك؟ حياتها انتهت، نحن جميعًا هالكون، فما الفرق؟ أغلق عينيك. اتركهما للكارما الخاصة بهما. ما أهمية الأمر؟

كان الساموراي يعلم بكل روحه أن الأمر كان مهمًا جدًا.

قال الأب ألفيتو وهو يقترب منهما. كانا خارج النُّزل مستعدين لبدء رحلة اليوم. ثم رسم علامة الصليب فوقها: «صباح الخير يا ماريكو سان. يا له من يوم جميل! ليباركك الرب ويحفظك في كنفه إلى الأبد».

- شكرًا لك يا أبت.

- صباح الخير يا ربان. كيف حالك اليوم؟

- بخير، شكرًا لك. وأنت؟

كانت قافلتهم واليسوعيون يتبادلون الأدوار في المسير. وكانوا أحيانًا يقيمون في نفس النزل، وأحيانًا يسافرون معًا.

- هل تود أن أرافقك في الركوب هذا الصباح يا ربان؟ يسعدني أن أواصل معك دروس اللغة اليابانية إذا رغبت.

- شكرًا لك. نعم، أود ذلك.

في اليوم الأول، عرض ألفيتو أن يحاول تعليم بلاكثورن اللغة.

سأل بلاكثورن بحذر: «في مقابل ماذا؟».

- لا شيء. سيساعدني ذلك في قضاء الوقت، ولأكون صادقًا، أشعر في هذه اللحظة بالحزن تجاه الحياة وأشعر بأنني كبرت في السن. ربما أيضًا لأعتذر عن كلماتي القاسية.

- لا أنتظر منك أي اعتذار. لديك طريقك، ولديّ طريقي. لن نلتقي أبدًا.

- ربما، لكن يمكننا تشارك بعض الأشياء خلال رحلتنا، أليس كذلك؟ نحن مسافران على الطريق نفسه. أود أن أساعدك.

- لماذا؟

- لأن المعرفة تنتمي إلى الرب، وليس إلى الإنسان. أود أن أساعدك كهدية... دون مقابل.

- شكرًا، لكنني لا أثق بك.

- إذن، إذا كنت مُصرًا، أخبرني عن عالمك في المقابل، ماذا رأيت وأين كنت. أي شيء تريده، ولكن فقط ما ترغب في مشاركته. الحقيقة الواقعية. سيثير اهتمامي حقًا وسيكون تبادلًا عادلًا. لقد أتيتُ إلى اليابان عندما كنت في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، ولم أرَ شيئًا من العالم. يمكننا حتى أن نتفق على هدنة خلال الرحلة، إذا رغبت.

- لكن دون حديث عن الدين أو السياسة أو العقائد البابوية؟

- أنا ما أنا عليه يا ربان، لكنني سأحاول.

وهكذا بدأ في تبادل المعرفة بحذر. بدا أن التبادل غير عادل بالنسبة لبلاكثورن. كان علم ألفيتو هائلًا، وكان معلمًا بارعًا، بينما اعتقد بلاكثورن أنه كان يروي أشياء يعرفها أي ربان. قال ألفيتو: «هذا ليس صحيحًا. أنت ربان فريد، لقد فعلت أشياء مذهلة. واحد من ستة فقط على وجه الأرض، أليس كذلك؟».

حدثت هدنة بينهما تدريجيًا، وهذا أسعد ماريكو.

قالت ماريكو: «هذه هي الصداقة يا أنجين سان، أو بدايتها».

- لا. ليست صداقة. ما زلت لا أثق به كما هو الحال معه. نحن أعداء أبديان. لم أنسَ شيئًا، ولا هو. هذه هدنة مؤقتة، على الأرجح لغرض خاص لن يخبرني إياه حتى لو سألته. أنا أتفهمه ولا ضرر في ذلك، ما دمْتُ لا أتخلى عن حذري.

بينما كان يقضي الوقت مع ألفيتو، كانت هي تستمتع بركوب الخيل مع كيكو وجيوكو وتحدث عن الجماع وطرق إرضاء الرجال وعن عالم الصفصاف. وفي المقابل كانت تخبرهما عن عالمها، تشاركهما بما شهدته أو كانت جزءًا منه أو تعلمته، عن الطاغية جورودا والتايكو وحتى الزعيم توراناغا، وقصص حكيمة عن العظماء التي لن يعرفها العامة أبدًا.

كان النهر ينحرف تجاه الغرب على بعد بضعة فراسخ جنوب ميشيما، ليصب بهدوء في الساحل وميناء نومازو الضخم. غادروا الأراضي الشبيهة

بالأودية واتجهوا عبر حقول الأرز المسطحة على طول الطريق الواسع المزدهم الذي يتجه شمالاً. كان يوجد العديد من الجداول والروافد التي يتوجب عليهم عبورها. كان بعضها ضحلًا، وبعضها عميقًا وواسعًا جدًا وكان لا بد من عبورها باستخدام زوارق مسطحة. امتد القليل منها فقط. غالبًا ما كانوا يُحملوا على أكتاف الحمالين الموجودين دائمًا بالقرب لهذا الغرض الخاص، يتحدثون ويتنافسون للحصول على هذا الشرف.

كان هذا هو اليوم السابع منذ مغادرتهم يوكوسي. تشعب الطريق وهنا قال الأب ألفيتو إنه يجب عليه تركهم. كان سيسلك الطريق الغربي ليعود إلى سفينته لبضعة أيام، لكنه سيلحق بهم مجددًا على الطريق من ميشيما إلى إيدو إذا كان ذلك مسموحًا.

- بالطبع، أنتما مرحب بكما للقدوم معي إذا أردتما.

قالت ماريكو: «شكرًا لك، لكن اعذرني توجد أشياء عليَّ القيام بها في ميشيما».

- ماذا عنك يا أنجين سان؟ إذا كانت السيدة ماريكو ستكون مشغولة، فأنت مرحب بك وحدك. طاهينا جيد جدًا، والنيبذ جيد. وأقسم لك بالرب أنك ستكون آمنًا وحرًا في الذهاب والإياب كما تشاء. كما أن رودريجز على متن السفينة.

رأت ماريكو أن بلاكتورن كان يريد تركها. سألت نفسها بحزن عميق: كيف يستطيع؟ كيف يمكنه الرغبة في تركي بينما الوقت قصيرٌ هكذا؟ قالت: «رجاءً اذهب يا أنجين سان. سيكون ذلك لطيفًا بالنسبة لك... ومن الجيد أن ترى رودريجز، أليس كذلك؟».

لكن بلاكتورن لم يذهب، رغم أنه أراد ذلك بشدة. لم يثق بالكاهن. ولم يكن ليضع رأسه في هذا الفخ حتى من أجل رودريجز. شكر ألفيتو، وشاهداه وهو يرحل.

قالت ماريكو رغم أن الوقت كان بالكاد في الظهيرة: «دعنا نتوقف الآن يا أنجين سان. لا حاجة إلى التسرع، أليس كذلك؟».

- ممتاز. نعم، أود ذلك.

- إن الأب رجل صالح، لكنني سعيدة برحيله.

- وأنا كذلك. لكنه ليس رجلًا صالحًا. إنه كاهن.

لقد صدمتها حدة كلماته. قالت: «أسفة يا أنجين سان، أرجو أن تسامحني على قول...».

- الأمر ليس مهمًا يا ماريكو تشان. أخبرتك... لا أنسى شيئًا. سيظل يلاحقني دائمًا.

غادر بلاكتورن لبحث عن القائد يوشيناكا.

شعرت ماريكو بالقلق وهي تنظر إلى الطريق الغربي.

تحركت خيول قافلة الأب ألفيتو ببطء بين المسافرين الآخرين. انحنى بعض المارة باحترام للموكب الصغير، وجثا البعض بتواضع، كان الكثيرون منهم فضوليين، والكثيرون قساة. لكن تحرك الجميع بأدب خارج الطريق، باستثناء حتى أدنى ساموراي. عندما واجه الأب ألفيتو ساموراي، كان يتحرك إلى اليسار أو إلى اليمين ويتبعه مرافقيه.

كان سعيدًا بمغادرة ماريكو وبلاكتورن، وسعيدًا بالاستراحة. كانت لديه رسائل عاجلة ليرسلها إلى الأب الزائر، تلك التي لم يكن قادرًا على إرسالها لأن حماماته الزاجلة قد دُمرت في يوكوسي. هناك العديد من المشكلات التي تحتاج إلى حلول: توراناغا ويو الصياد وماريكو والقرصان. ويوسف أيضًا، الذي ظل يتعقب خطواته.

- ماذا يفعل هناك يا قائد يوشيناكا؟

كان قد سأل بحدة في اليوم الأول عندما لاحظ يوسف بين الحرس، مرتديًا كيمونو عسكريًا وحاملًا سيوفًا بغرابة.

- أمرني الزعيم توراناغا باصطحابه إلى ميشيما يا تسوكو سان. هناك سأقوم بتسليمه إلى الزعيم هירו ماتسو. أعذر، هل يزعجك رؤيته؟

قال بلا اقناع: «لا... لا».

- أنت تنظر إلى سيوفه؟ لا داعي للقلق. إنها مجرد مقابض، لا توجد شفرات. إنها أوامر الزعيم توراناغا. يبدو أن الرجل أرسل إلى طائفتكم في سن صغيرة، لذا فإنه ليس من الواضح ما إذا كان ينبغي أن يملك سيوف حقيقية أم لا، رغم أنه يستحق حملها، ورغم أنه يريدتها. يبدو أنه انضم إلى طائفتكم وهو طفل يا تسوكو سان. ومع ذلك، بالطبع لا يمكن أن يكون لدينا ساموراي دون سيوف، أليس كذلك؟ إن أوراجا نو

تاداماسا بالتأكيد ساموراي، رغم أنه كان كاهنًا همجيًا لمدة عشرين عامًا. لقد أوجد سيدنا بحكمته هذا الحل الوسطي.

- ماذا سيحدث له؟

- عليّ تسليمه إلى الزعيم هيرو ماتسو. ربما سيُرسل إلى عمه للحكم في أمره، وربما سيبقى معنا. أنا فقط أطيع الأوامر يا تسوكو سان.

ذهب الأب ألفيتو ليتحدث مع يوسف لكن يوشيناكا أوقفه بأدب: «أعتذر لكن سيدي أمر أيضًا بأن يظل وحده. بعيدًا عن الجميع. بالأخص المسيحيين. حتى يصدر الزعيم هارима حكمًا كما قال سيدي. إن أوراجا سان تابع للزعيم هارима، أليس كذلك؟ والزعيم هارима مسيحي أيضًا، أليس كذلك؟ يقول الزعيم توراناغا إن على الداييمو المسيحي التعامل مع المرتد المسيحي. فبعد كل شيء، إن الزعيم هارима هو عمه وقائد العائلة، وهو من أرسله تحت رعايتكم في المقام الأول».

حاول الأب ألفيتو التحدث مع يوسف على انفراد مجددًا تلك الليلة رغم أن الأمر كان ممنوعًا، ليترجاه أن يتراجع عن تدنيسه والركوع في توبة للأب الزائر، لكن الشاب سار بعيدًا ببرود دون أن يستمع، وبعد ذلك، كان يوسف يُرسل دائمًا في المقدمة.

فكر ألفيتو بيأس: يا مريم المقدسة، يجب أن نجد طريقة لإعادته إلى رحمة الرب. ماذا يمكنني أن أفعل؟ ربما يعرف الأب الزائر كيف يتعامل مع يوسف. نعم، وسيعرف ماذا يفعل بشأن قرار توراناغا المدهش بالاستسلام، وهو القرار الذي رُفِضَ في مؤتمراتنا السرية باعتباره مستحيلًا. قال ديل أكوا: «لا... هذا يتعارض تمامًا مع شخصية توراناغا. سيذهب إلى الحرب. عندما تتوقف الأمطار، وربما قبل ذلك إذا تمكن من إجبار زاتاكي على التراجع وخيانة إيشيدو. توقعي هو أنه سينتظر لأطول فترة ممكنة ويحاول إجبار إيشيدو على اتخاذ الخطوة الأولى... لعبة الانتظار المعتادة الخاصة به. مهما حدث، ما دام أن كياما وأونوشي يدعمان إيشيدو وأوساكا، ستُجتاح الكانتو ويُدمر توراناغا.

- وكياما وأونوشي؟ سيواصلان دفن عدائهما من أجل المصلحة العامة؟

- نعم. إنهما مقتنعان تمامًا بأن انتصار تورانا جا سيكون ناقوس موت الكنيسة المقدسة. والآن بعد أن انضم هاريمان إلى إيشيدو، أخشى أن حلم تورانا جا قد انتهى.

فكر ألفيتو: حرب أهلية مجددًا، أخ ضد أخيه، أب ضد ابنه، قرية ضد أخرى. إن أنجيرو مستعدة للثورة، مسلحون ببنادق مسروقة كما قال يو الصياد. والأخبار الأخرى المخيفة: كتيبة سرية من البنادق جاهزة تقريبًا. ووحدة سلاح فرسان على الطراز الأوروبي الحديث مكونة من أكثر من ألفي بندقية معدة للحرب اليابانية. يا مريم، احمي المؤمنين والعني ذلك الهرطوقي...

يا لها من خسارة أن يكون بلاكثورن مأكراً ومضطرب العقل. كان يمكن أن يكون حليفاً ثميناً. لم أكن لأفكر في ذلك قط لكنها الحقيقة. إنه حكيم جداً في أمور البحار والعالم. شجاع وماكر، وصادق ضمن هرطقته، مستقيم وغير مخادع. لا يحتاج إلى أن يقال له شيء مرتين، ذاكرته مذهلة. لقد علمني الكثير عن العالم. وعن نفسه. تساءل ألفيتو بحزن وهو يلوح لماريكو للمرة الأخيرة: هل هذا خطأ؟ هل من الخطأ أن تتعلم عن عدوك، وفي المقابل، تعلمه؟ لا. هل من الخطأ أن تغض النظر عن خطيئة مميتة؟

بعد ثلاثة أيام من مغادرتهم يوكوسي، صدمته ملاحظة الأخ مايكل.

- هل تعتقد أنهما عشاق؟

أجاب مايكل: «ما الرب إلا حب، أليس هذا ما قاله السيد المسيح؟ لقد ذكرت فقط أنني رأيت أعينهما تتلاقى، وكان ذلك مشهداً جميلاً. أما أجسادهما، لا أعلم يا أبت، وفي الحقيقة لا أهتم. أرواحهما تتلاقى، وأشعر بأنني أصبحت أكثر إدراكاً للرب بسبب ذلك».

- لا بد أنك مخطئ بشأنهما. إنها لن تفعل ذلك أبداً! هذا يتعارض مع تراثها بأكملها، ومع قانونها وقانون الرب. إنها مسيحية متدينة. إنها تعرف أن الزنا خطيئة شنيعة.

- نعم، هذا ما نعلمه. ولكن زواجها كان تابع لديانة الشنتو، لم يُقدَّس أمام الرب إلهنا، فهل هو زنا؟

- هل تشكك أيضاً في كلمة الرب؟ هل أصابتك هرطقة يوسف؟

- لا يا أبت، أرجو أن تسامحني، لن أشك في كلمة الرب أبداً. فقط ما صنعه الإنسان منها.

راقبهما من كُتِب منذ ذلك الحين. من الواضح أن الرجل والمرأة يحبان بعضهما بعضًا كثيرًا. لمَ لا؟ لا يوجد خطأ في ذلك. كانا معًا باستمرار، وكل منهما يتعلم من الآخر، كانت المرأة مأمورة بترك دينها، والرجل لا دين له، أو لديه فقط طبقة سطحية من الهرطقة اللوثرية، كما قال ديل أكوأ عن كل الإنجليز. كلاهما قويٌّ ومهمٌّ، رغم عدم توافقهما.

لم تقل شيئًا في الاعتراف. وهو لم يضغط عليها. أخبرته عيناها بلا شيء وكل شيء، لكن لا يوجد شيء حقيقي للحكم عليه. كان يستطيع سماع نفسه يشرح لدليل أكوأ: «لا بد أن مايكل كان مخطئًا يا صاحب النيافة».

- ولكن هل ارتكبت الزنا؟ هل يوجد أي دليل؟

- لحسن الحظ لا يوجد دليل.

شدُّ ألفيتو لجام حصانه والتفت للخلف للحظة. رأى ماريكو تقف على تلة صغيرة، والربان يتحدث مع يوشيناكا، والسيدة العجوز وعاهرتها المُجملة مستلقيتين في هودجهما. كان يتعذب بسبب الحماس المتعصب الذي يتصاعد في داخله. لأول مرة تجرأ على السؤال: هل زنيْتُ مع الربان يا ماريكو سان؟ هل أفسد الهرطوقي روحك للأبد؟ أنتِ التي تم اختيارك في الحياة لتكوني راهبة، وربما أول رئيسة دير من السكان الأصليين؟ هل تعيشين في خطيئة قذرة وغير معترف بها ومنتهكة وتخفين تدنيسك عن كاهنك، وبالتالي هل أصبحتِ مدنسة أمام الرب؟

رأها تلوح بيدها. هذه المرة لم يبادلها التحية بل أدار ظهره، وغرز المهاميز في جانبي حصانه، وسارع بالابتعاد.

اضطرب نومهما تلك الليلة.

- ما الخطب يا حبيبي؟

- لا شيء يا ماريكو تشان. عودي للنوم.

لكنها لم تعد للنوم، ولا هو أيضًا. وقبل وقت طويل من اضطرابها لذلك، تسلمت بهدوء عائدة إلى غرفتها، بينما نهض هو وجلس في الفناء يدرس القاموس تحت ضوء الشموع حتى بزوغ الفجر. ومع طلوع الشمس ودفء النهار، تبددت هموم الليل واستأنفا رحلتهم بسلام. سرعان ما وصلا إلى الطريق الرئيسي الكبير، التوكايدو، شرق ميشيما مباشرةً، وبدأ عدد

المسافرين يتزايد. وكما هو الحال دائماً، كان الأغلبية الساحقة يسIRON على الأقدام حامِلين متاعهم على ظهورهم. ولم يكن يوجد سوى القليل من الأحصنة على الطريق، ولا عربات على الإطلاق.

- عربة... أليست تلك التي لها عجلات؟ ليست لها فائدة في اليابان يا أنجين سان. طرَقنا شديدة الانحدار، ودائماً ما تتقاطع مع الأنهار والجداول. كما أن العجلات ستدمر سطح الطرق، لذلك فهي محظورة على الجميع باستثناء الإمبراطور، وهو يسافر بضعة ري تشريفية في كيو تو على طريق خاص. لا نحتاج إلى عجلات. كيف يمكنك حمل المركبات عبر النهر أو الجدول... ويوجد الكثير منهم، أكثر من أن يُبنى عليها جسور. يوجد تقريباً ستون جدول لنعبه بين هنا وإيدو يا أنجين سان. كم منها عبرنا بالفعل؟ العشرات، أليس كذلك؟ لا، نحن جميعاً نمشي أو نركب الخيول. بالطبع يُسمح باستخدام الخيول أو المحفات فقط للأشخاص المهمين، الدايميو والساموراي، وليس حتى لجميع الساموراي.

- ماذا؟ حتى لو استطعت تحمل تكاليف واحدة فلا يمكنك استئجارها؟
- ليس إلا إذا كنت تملك الرتبة الصحيحة يا أنجين سان. هذا حكيم جداً، أليس كذلك؟ يُسمح للأطباء والمسنين بالسفر بالخيول أو المحفة، أو المرضى، إذا حصلوا على إذن كتابي من زعيمهم الإقطاعي. المحفات أو الخيول لن تكون مناسبة للفلاحين والعامّة يا أنجين سان. قد تجعلهم يتعلمون عادات كسولة، أليس كذلك؟ من الصحي جداً لهم أن يمشوا.
- وأيضاً يُبقيهم في مكانهم. أليس كذلك؟

- بلى. لكن كل هذا يجلب السلام والنظام والوا. وحدهم التجار يملكون المال ليهدروه، وما هم إلا طفيليات لا يخلقون شيئاً ولا يزرعون شيئاً ولا يصنعون شيئاً، فقط يتغذون على عمل الآخرين. بالتأكيد يجب عليهم جميعاً المشي، أليس كذلك؟ نحن حكماء جداً في هذا الشأن.
قال بلاكثورن: «لم أرَ من قبل كل هذا العدد من الناس في حركة دائمة».

- هذا لا شيء. انتظر حتى نقترب من إيدو. نحن نحب السفر يا أنجين سان، لكن نادراً ما نسافر وحدنا. نفضل السفر في مجموعات.

لكن الحشود لم تعيق تقدمهم. كان الشعار الخاص بتوراناجا الذي تحمله راياتهم، ورتبة تودا ماريكو الشخصية، وكفاءة أكيرا يوشيناكا الحازمة والعدائين الذين أرسلهم مقدّمًا ليعلموا عَمَّن يتبعهم، ضمنت أفضل الغرف الخاصة كل ليلة في أفضل النُّزل، ومرورًا غير معرقل. سرعان ما كان جميع المسافرين والساموراي يقفون جانبًا وينحنون باحترام منتظرين حتى يمروا.

- هل يجب عليهم جميعًا التوقف والجثو هكذا للجميع؟

- لا يا أنجين سان. فقط للدايميو والشخصيات المهمة. ولمعظم الساموراي... نعم، سيكون من الحكمة أن ينحني أي عامي لهم. من حسن التصرف أن تفعل ذلك يا أنجين سان، وضروري، أليس كذلك؟ فلو لم يحترم العامة الساموراي ويحترموا أنفسهم، كيف يمكن أن تُطبق القوانين وتُحكم المملكة؟ وهذا الأمر ينطبق على الجميع. أَلَمْ نتوقف نحن وانحنينا وسمحنا للمبعوث الإمبراطوري بالمرور؟ يجب على الجميع أن يحسنوا التصرف، أليس كذلك؟ الدايميو الأدنى منزلة يجب أن يترجل عن حصانه وينحني للدايميو الأكثر أهمية. الطقوس تحكم حياتنا، لكن المملكة مطيعة.

- ماذا لو التقى اثنان من الدايميو المتساويين؟

- حينها يترجل كل منهما عن حصانيهما وينحنيان بتساوٍ ثم يواصلان طريقهما.

- ماذا لو التقى الزعيم توراناجا والقائد إيشيدو؟

انتقلت ماريكو بسلاسة إلى اللغة اللاتينية: «مَنْ هما يا أنجين سان؟ تلك الأسماء لا أعرفها، ليس اليوم، ليس بيني وبينك».

- أُنْتِ محقة. أرجو المعذرة.

- اسمع يا حبيبي، دعنا نتعاهد على أنه إذا ابتسمت لنا السيدة مريم ونجونا من ميشيما، عندها فقط في إيدو، عند الجسر الأول، وعندما يُفرض علينا ذلك تمامًا، دعنا نغادر عالمنا الخاص. رجاء؟

- ما الخطر في ميشيما؟

- هناك يجب على قائدنا تقديم تقرير للزعيم هيرو ماتسو. وهناك يجب عليّ أيضًا رؤيته. إنه رجل حكيم، ويقظ جدًا. سيكون من السهل علينا التعرض للخيانة.

- لقد كنا حذرين. دعينا نطلب من الرب أن تكون مخاوفك ليس لها أساس من الصحة.
- أنا لست قلقة على نفسي... فقط عليك.
- وأنا قلق عليك.
- إذن، هل نعد بعضنا بعضاً أن نبقى في عالمنا الخاص؟
- نعم. دعينا نتظاهر بأن هذا هو العالم الحقيقي... عالمنا الوحيد.

- أشارت ماريكو عبر الجدول الأخير: «ميشيما هناك يا أنجين سان».
- كانت مدينة القلعة الشاسعة التي تضم ما يقرب من ستين ألف شخص مخفية في الغالب تحت ضباب الصباح المنخفض. لم تظهر سوى بعض أسطح المنازل والقلعة الحجرية. وراء ذلك توجد جبال تمتد حتى البحر الغربي. بينما في أقصى الشمال الغربي يوجد مجد جبل فوجي. سلسلة الجبال تخترق السماء شمالاً وشرقاً. سأل: «ماذا الآن؟».
- الآن، طُلبَ من يوشيناكا أن يجد أكثر الفنادق حيوية في نطاق عشرة ري. سنبقى هناك لمدة يومين. سيستغرق الأمر مني على الأقل ذلك الوقت لإتمام أعمالي. وستغادرنا جيوكو وكيكو سان خلال هذه الفترة.
 - وماذا بعد؟
 - ثم نستمر. ماذا يخبرك إحساسك بالطقس عن ميشيما؟
 - أجاب: «أنها تبدو ودية وآمنة. بعد ميشيما، ماذا بعد؟».
- أشارت إلى الشمال الشرقي بغير اقتناع وقالت: «ثم سنذهب في ذلك الاتجاه. يوجد ممر يتعرج صعوداً عبر الجبال باتجاه هاكوني. إنه الجزء الأكثر صعوبة من طريق توكايدو بأكمله. بعدها ينحدر الطريق نحو مدينة أوداوارا، وهي أكبر بكثير من ميشيما يا أنجين سان. إنها تقع على الساحل. المسافة من هناك إلى إيدو مجرد مسألة وقت».
- كم من الوقت؟
 - ليس كافياً.
- قال: «أنت مخطئة يا حبيبتي، اعذريني لكننا نملك كل الوقت متاح في العالم».

الفصل السادس والأربعون

استلم القائد تودا هيرو ماتسو الرسالة الخاصة التي قدمتها له ماريكو. فك أختام توراناغا، وكانت الرسالة توضح بإيجاز ما حدث في يوكوسي، وأكدت قرار توراناغا بالاستسلام، وأمرت هيرو ماتسو بحماية الحدود والممرات المؤدية إلى الكانتو من أي متسلل حتى وصوله (ولكن مع تسهيل مرور أي رسول من إيشيدو أو من الشرق)، كما تضمنت التعليمات حول المسيحي المرتد وأنجين سان.

قرأ الجندي المسن الرسالة مرة أخرى بإرهاق وقال: «الآن أخبريني بكل ما شاهدته أو سمعته في يوكوسي بخصوص الزعيم توراناغا».

أطاعته ماريكو.

- والآن أخبريني بما تعتقدين أنه حدث.

أطاعته مجددًا.

- ماذا حدث خلال مراسم التشا نو يو بينك وابني؟

روت له كل شيء تمامًا كما حدث.

- قال ابني إن سيدنا سيخسر؟ قبل الاجتماع الثاني مع الزعيم زاتاكي؟

- نعم يا سيدي.

- هل أنت متأكدة؟

- نعم يا سيدي.

سادت لحظة من الصمت في الغرفة الواقعة في أعلى برج القلعة الذي يهيمن على المدينة. نهض هيرو ماتسو وتوجه نحو الكوة المخصصة للسهم في الجدار الحجري السميك، بينما ظهره ومفاصله يؤلمانه، وسيفه مرخي في يده. قال: «لا أفهم».

- عذرًا؟

- لا أفهم كلاً من ابني وسيدنا. يمكننا سحق أي جيش يضعه إيشيدو في ميدان المعركة. أما بخصوص قرار الاستسلام...

كانت ماريكو تعبت بمروحتها وهي تراقب السماء المسائية المملأ بالنجوم والمبهجة.

نظر إليها هيرو ماتسو من كذب وقال: «تبددين بحالة جيدة جداً يا ماريكو سان، تبددين أصغر من أي وقت مضى. ما سرُّك؟».

أجابت وشعرت بحلقها يجف فجأة: «ليس لدي أيُّ سرٍّ يا سيدي».

انتظرت أن ينهار عالمها، لكن اللحظة مرت دون حدوث شيء، واستدار العجوز وعاد بنظره الحاد إلى المدينة أسفلهما.

قال: «أخبريني الآن ما حدث منذ مغادرتكِ أوساكا. كل ما شاهدته أو سمعته أو كنت جزءاً منه».

كان قد مضى وقت طويل من الليل عندما انتهت. روت كل شيء بوضوح، باستثناء مدى قربها من أنجين سان. وحتى هنا كانت حريصة على عدم إخفاء إعجابها به واحترامها لذكائه وشجاعته، أو إعجاب توراناغا بقيمته.

ظل هيروماتسو يتجول في المكان، مما خفف من آلامه قليلاً. كل ما قالته كان يتطابق مع تقرير يوشيناكا وتقرير أومي، وحتى خطبة زاتاكي قبل أن يغادر ذلك الدايميو بغضب نحو شينانو. الآن فهم أشياء كثيرة كانت غير واضحة، وحصل على معلومات كافية لاتخاذ قرار محسوب. بعض مما قالته أثار اشمئزازه. بعضه الآخر جعله يكره ابنه أكثر، كان يفهم دوافع ابنه لكن ذلك لم يغير شيئاً. أما بقية حديثها فدفعه إلى كراهية الهمجي أحياناً، وإلى الإعجاب به في أحيان أخرى.

- هل رأيته وهو يسحب سيدنا إلى بر الأمان؟

- نعم. كان الزعيم توراناغا ليكون ميتاً الآن يا سيدي، لولا أنجين سان. أنا واثقة تماماً. لقد أنقذ سيدنا ثلاث مرات: عند الهروب من قلعة أوساكا، وعلى متن القادس في ميناء أوساكا، وبالتأكيد عند الزلزال. لقد رأيت السيوف التي أخرجها أومي سان من الأرض. كانت ملتوية مثل عجينة المعكرونة وعديمة الفائدة تماماً.

- أظنني حقاً أن أنجين سان كان ينوي تنفيذ السيبوكو؟

- نعم. أقسم برب المسيحيين، أو من إنه اتخذ هذا القرار. لولا تدخل أومي سان لمنعه. وصدقني يا سيدي، أعتقد بكل يقين أنه يستحق أن يكون ساموراي، بل ويستحق أن يكون هاتاموتو.
- لم أطلب رأيك في هذا الشأن.
- أرجو المَعذرة يا سيدي. حقًا لم تطلبه، ولكن كان هذا السؤال في ذهنك.
- أصبحتِ تقرئين الأفكار الآن، بالإضافة إلى تدريب الهمج؟
- أجابت بأكثر نبرة جميلة: «لا. أرجو المَعذرة يا سيدي، بالطبع لا. أنا فقط أجب زعيم عشيرتي بأفضل ما لديّ من قدرات ضعيفة. إن مصالح سيدنا هي الأولى في ذهني، ومصالحك تأتي في المرتبة الثانية بعده هو فقط».
- حقًا؟
- أرجو المَعذرة يا سيدي، ولكن لا يجب أن يكون ذلك موضع شك. أعطني أمرك يا سيدي وسأطيعه.
- سأل بحدة: «لماذا أنتِ فخورة هكذا يا ماريكو سان؟ ولماذا تبدين واثقة إلى هذا الحد؟».
- أرجو المَعذرة يا سيدي. لقد كنت وقحة. لا أستحق هذا...
- ضحك هيرو ماتسو: «أعلم، لا توجد امرأة تستحق. لكن مع ذلك، توجد أوقات نحتاج فيها إلى حكمة المرأة الحادة والقاسية والمخادعة. إنهن أكثر نكاءً منا بكثير، أليس كذلك؟».
- قالت وهي تتساءل عما يدور في ذهنه حقًا: «لا يا سيدي».
- من الجيد أننا وحدنا. لو تكرر هذا الكلام على الملأ لقالوا إن القبضة الحديدية العجوز قد فسد، وحان الوقت لترك سيفه وحلق رأسه والبدء في تلاوة الصلوات لبوذا من أجل أرواح الرجال الذين قتلهم. وربما يكونون على حق.
- لا يا سيدي. كما قال الزعيم ابنك، لا يمكنك التراجع حتى يتحدد مصير سيدنا. لا أنت ولا الزعيم زوجي ولا أنا.
- نعم، ومع ذلك، سأكون سعيدًا إذا تركت سيفي والتمست سلام بوذا لنفسي وللذين قتلتهم.

حذق إلى الليل لبعض الوقت شاعراً بتقدم عمره، ثم نظر إليها. كانت أجمل من أي امرأة عرفها على الإطلاق.

- عذراً؟

- لا شيء يا ماريكو سان. كنت أتذكر أول مرة رأيتك فيها.

كان ذلك عندما رهن هيرو ماتسو روحه سرّاً لجورودا للحصول على هذه الفتاة الصغيرة لابنه. الابن نفسه الذي ذبح والدته، المرأة الوحيدة التي أحبها هيرو ماتسو بحق. لماذا جلبت ماريكو له؟ لأنني أردت إغضاب التايكو الذي رغب فيها أيضاً. كان ذلك فقط لإغضاب منافس، لا أكثر.

تساءل العجوز وهو يعيد فتح الجرح الدائم: هل كانت خليلتي خائنة حقاً؟ يا آلهة، عندما ألقاكم وجهاً لوجه سأطلب إجابة عن هذا السؤال. أريد إجابة بنعم أو لا. أطالب بالحقيقة. أظن أنها كذبة، ولكن بونتارو قال إنها كانت وحدها مع ذلك الرجل في الغرفة، بشعر مبعثر والكيمنو الخاص بها مفتوح، وكان ذلك قبل أشهر من عودتي. ربما كانت كذبة، أليس كذلك؟ أو ربما الحقيقة، أليس كذلك؟ لا بد أنها الحقيقة... فلا يمكن أن يقطع ابن رأس أمه دون أن يكون متأكداً؟

كانت ماريكو تراقب ملامح وجه هيرو ماتسو، بشرته المشدودة والمجعدة بفعل العمر، والقوة العضلية العتيقة في ذراعيه وكتفيه. تساءلت وهي تشعر بالموودة نحوه: ماذا يدور في ذهنك؟ هل اكتشفت أمري بعد؟ هل علمت بشأني أنا وأنجين سان؟ هل تعلم أنني أرتجف حباً له؟ وأنه إذا اضطررت إلى الاختيار بينه وبينك وبين توراناغا، سأختاره؟

كان هيرو ماتسو واقفاً قرب الكوة محدقاً إلى المدينة أسفله، وأصابه تفرك غمد سيفه ومقبضه، غافلاً عنها. كان غارقاً في أفكاره عن توراناغا وما قاله زاتاكي قبل بضعة أيام بامتعاض مرير، وهو الامتعاض الذي كان يشاركه في الشعور به.

قال زاتاكي: «نعم، بالطبع أرغب في غزو الكانتو ورفع رايتي على أسوار قلعة إيدو الآن وجعلها ملكاً لي. لم أرغب في ذلك من قبل، لكن الآن أرغب. لكن بهذه الطريقة؟ لا شرف فيها، لا شرف لأخي ولا لك ولا لي. ولا لأي شخص، باستثناء إيشيدو، وذلك الفلاح الذي لا يصلح لأي شيء».

- إذن ادعم الزعيم توراناغا. بمساعدتك، يمكن لتورا...

- من أجل ماذا؟ لكي يصبح أخي شوجن ويمحو الوريث؟
- لقد قال مئات المرات إنه يدعم الوريث. وأنا أصدقه. وسنحظى بمينووارا لقيادتنا، وليس فلاحاً مُدّعياً والشيطانة أوتشيبا، أليس كذلك؟ هؤلاء الفاشلون سيحكمون لثمانى سنوات قبل بلوغ يايمون السن القانونية إذا مات الزعيم توراناغا. فلماذا لا نعطي الزعيم توراناغا السنوات الثماني... إنه مينووارا. وقال آلاف المرات إنه سيسلم السلطة إلى يايمون. هل عقلك في مؤخرتك؟ إن توراناغا ليس عدواً ليايمون ولا لك.
- لن ينحني أي مينووارا لذلك الفلاح. لقد أهان شرفه وشرفنا جميعاً، شرفك وشرفي.

لقد تشاجرا وتبادلا السباب، وكاد الأمر أن يصل إلى القتال بالأيدي في الخفاء. لقد تحدى زاتاكي قائلاً: «هيا! اسحب سيفك يا أيها الخائن. أنت خائن لأخيك زعيم عشيرتك».

- أنا زعيم عشيرتي الخاصة. لدينا الأم نفسها، ولكن ليس الأب نفسه. نفى والد توراناغا أمي في خزي. لن أساعد توراناغا... ولكن إذا تنحى وشق بطنه، سأدعم سودارا...

همس هيرو ماتسو مخاطباً الليل وهو لا يزال غاضباً: لا حاجة إلى فعل ذلك. لا حاجة إلى فعل ذلك ما دمتُ حيّاً، ولا حاجة إلى الخضوع بخنوع. أنا القائد العام. من واجبي حماية شرف سيدي ومنزله، حتى من نفسه. لذا الآن سأأخذ القرار:

اسمع يا سيدي، أرجو المَعذرة ولكن هذه المرة سأعصيك. بكل فخر. هذه المرة سأخونك. الآن سأتحالف مع ابنك ووريثك الزعيم سودارا، وزوجته السيدة جينجيكو، وسنصدر الأمر بالسماء القرمزية عندما تتوقف الأمطار، ثم تبدأ الحرب. وحتى يسقط آخر رجل في الكانتو أمام العدو، سأبقىك آمناً في قلعة إيدو، مهما قلت، ومهما كان الثمن.

كانت جيوكو سعيدة بعودتها إلى منزلها في ميشيما بين فتياتها ودفاتر حساباتها وفواتير الشحن وديونها المستحقة وعقود الرهن والسندات. قالت لمحاسبها الرئيسي: «لقد أبلت بلاءً حسناً».

انحنى الرجل الضئيل الهرم شاكرًا لها وابتعد مترنحًا. ثم استدارت بحدة نحو الطاهي الرئيسي وقالت: «ثلاثة عشر تشوجين فضيًا، ومائتي مونمي نحاسي مقابل أسبوع من الطعام؟».

قال الرجل البدين بقسوة: «أرجو المعذرة يا سيدتي، لكن شائعات الحرب جعلت الأسعار ترتفع إلى السماء. كل شيء، السمك والأرز والخضراوات... وحتى صلصة الصويا تضاعف سعرها منذ الشهر الماضي، أما الساكي فأسوأ. العمل والعمل والعمل في ذلك المطبخ الحار والخانق والذي بالتأكيد يجب تحسينه أمر مكلف. لقد خدمتُ مائة واثنين وسبعين ضيفًا في أسبوع واحد، وأطعمت عشر محظيات وإحدى عشرة متدربة جائعة وأربعة طهاة وست عشرة خادمة وأربعة عشر خادمًا. أرجو المعذرة يا سيدتي، ولكن جدتي مريضة جدًا لذا أطلب إجازة لمدة عشرة أيام...».

مزقت جيوكو شعرها قليلاً بما يكفي لإيصال رسالتها دون أن تفسد مظهرها، ثم طردته قائلة إنها مدمرة، مدعية أنها ستضطر إلى إغلاق أشهر بيت شاي في ميشيما إذا لم يكن لديها مثل هذا الطاهي الماهر. وأنه سيكون الملام إذا أُلقت بكل فتياتها المخلصات وخدمها الأوفياء التعساء إلى الثلوج. انتحبت للقطعة الختامية: «ولا تنس أن الشتاء يقترب».

عندما أصبحت وحيدة، بدأت بسعادة حساب الأرباح والخسائر، فوجدت أن الأرباح كانت ضعف ما توقعت. وكان طعم الساكي الخاص بها أفضل من أي وقت مضى، وإذا كانت أسعار الطعام قد ارتفعت، فإن أسعار الساكي ارتفعت أيضًا. كتبت رسالة على الفور لابنها في أوداوارا، حيث يقع مصنع الساكي الخاص بهم، تأمره بمضاعفة الإنتاج. ثم بدأت في حل الخلافات الحتمية بين الخادومات، فصلت ثلاثاً منهن، وعينت أربعاً أخريات، واستدعت سمسار المحظيات، وقدمت عرضاً سخياً للحصول على عقود سبع محظيات نلن إعجابها.

- ومتى ترغبين في وصول السيدات الفضليات يا جيوكو سان؟

ابتسمت العجوز بتكلف حيث بلغت عمولتها قدرًا ضخمًا.

- في الحال، في الحال. هيا، أسرع.

ثم استدعت النجار الخاص بها ووضعت خططًا لتوسعة بيت الشاي، لإضافة غرف جديدة للسيدات الإضافيات.

- عُرِضَ الموقع في الشارع السادس للبيع أخيرًا يا سيدتي. هل ترغبين في إتمام عملية الشراء الآن؟

كانت تنتظر شهورًا للحصول على هذا الموقع المميز في الزاوية. لكنها هزت رأسها وأرسلته مع تعليمات لشراء أربعة هكتارات من الأرض القاحلة على التل شمال المدينة. قالت: «ولكن لا تفعل كل شيء بنفسك. استخدم وسطاء. ولا تكن طماعًا. ولا أريد أن يُذاع أنك تشتري من أجلي».

- لكن أربعة هكتارات؟ هذا...

- على الأقل أربعة، وربما خمسة خلال الأشهر الخمسة القادمة. لكن خيارات فقط... هل تفهم؟ يجب أن يُسجل كل شيء تحت هذه الأسماء.

قدمت له قائمة بأسماء المعينين الموثوقين وحثته على الإسراع بالمغادرة، وهي في مخيلتها ترى المدينة المسورة تزدهر داخل مدينة أخرى. ضحكت بفرحة عارمة.

بعد ذلك، استدعت كل محظية إما لتمدحها وإما لتوبخها وإما لتصرخ عليها وإما لتبكي معها. قامت بترقية بعضهن، وخفضت مراتب أخريات، وعدلت أسعار خدمات الجماع، بالزيادة أو النقصان. وفي خضم كل ذلك، أعلن وصول أومي.

قالت له: «أعتذر لكن كيكو سان ليست على ما يرام. لا شيء خطِرُ، إنها فقط تغييرات الطقس، تلك المسكينة».

- أنا أصر على رؤيتها.

- أعتذر يا أومي سان، لكنك بالتأكيد لا تصر؟ كيكو سان تنتمي إلى زعيمك الإقطاعي، أليس كذلك؟

صاح أومي: «أعلم جيدًا إلى من تنتمي. أريد فقط رؤيتها».

- آسفة جدًّا، بالطبع لك كل الحق في الصراخ واللعن، أعتذر، أرجو أن تعذرني. آسفة لكنها ليست على ما يرام. في المساء... أو ربما في وقت لاحق... أو غدًا... ما الذي يمكنني فعله يا أومي سان؟ إذا أصبحت بحالة أفضل، ربما أرسل إليك خبرًا إذا أخبرتني أين تقيم...

أخبرها وهو يعلم أنه لا يوجد شيء يمكنه فعله، وغادر بغضب راغبًا في تحطيم ميشيما إلى أشلاء.

فكرت جيوكو في أمر أومي. ثم استدعت كيكو وأخبرتها بالبرنامج الذي أعدته لها لليلتين في ميشيما: «ربما يمكننا إقناع السيدة تودا بالتأخير أربع أو خمس ليالٍ يا عزيزتي. أعرف ستة رجال هنا سيدفعون ثروة طائلة لتقومي بإمتاعهم في حفلات خاصة. الآن وبعد أن اشترك الـدايميو العظيم، لا يستطيع أحد لمسك مجددًا، أبدًا، لذا يمكنك الغناء والرقص والتمثيل وتصبحين أول جيشا لدينا».

- وماذا عن المسكين أومي سان يا سيدتي؟ لم أسمع به يومًا بهذا الغضب من قبل. أسفة لأنه صرخ عليك.

- ما أهمية صرخة أو اثنتين بينما نتعامل مع الـدايميو وأغنى تجار الأرز والحرير؟ سأخبر أومي سان الليلة بمكان وجودك في آخر مرة تغنين فيها، ولكن سأخبره ذلك مبكرًا جدًا بحيث يضطر على الانتظار. سأرتب له غرفة قريبة. وسنقدم له الكثير من الساكي في هذه الأثناء... وسأستخدمه أكيكو. لن يضر أن تغني له أغنية حزينة أو اثنتين بعدها، فنحن ما زلنا غير متأكدين من توراناغا ساما، أليس كذلك؟ لم نلقَ أي دفعة مقدمة حتى الآن، ناهيك بباقي المبلغ.

- أرجو المَعذرة، ألا تعتقدين أن تشوكو ستكون خيارًا أفضل؟ إنها أجمل وأصغر وألطف. أنا متأكدة أنه سيستمتع بها أكثر.

- نعم يا صغيرتي. لكن أكيكو قوية وذات خبرة كبيرة. يميل الرجال للعنف عندما يستولي هذا الجنون عليهم. أعنف مما تتصورين. حتى أومي سان. لا أريد أن تتعرض تشوكو للأذى. أكيكو تحب الخطر وتحتاج إلى بعض العنف لتؤدي جيدًا. ستُخفف من حدة غضبه. اذهبي الآن وارتي أجمل كيمونو لديك وأفضل العطور...

أرسلت جيوكو كيكو لتستعد، ثم ألقت بنفسها من جديد في إنهاء إدارة شؤون منزلها. وبعد أن أنهت كل شيء، بما في ذلك دعوة الشاي الرسمية التي وجهتها لأهم ثماني ماما سان في ميشيما لمناقشة مسألة بالغة الأهمية غداً، استلقت بامتنان في حمام مثالي وتنهدت.

وفي الوقت المناسب تمامًا، تلقت تديكًا مثاليًا. عطور ومساحيق تجميل وتصفيقة شعر. ارتدت كيمونو جديد فضفاض من حرير رقيق نادر، وفي اللحظة المثالية وصل مفضلها. كان عمره ثمانية عشر عامًا، طالبًا وابناً لساموراي فقير، يُدعى إيناري.

قال وهو يلهث: «كم أنت رائعة... لقد أتيت مسرعًا إلى هنا فور وصول قصيدتك. هل كانت رحلتك ممتعة؟ أنا سعيد بعودتك. شكرًا لك، شكرًا لك على الهدايا، السيف مثالي والكيمنونو، كم أنت جيدة معي!».

قالت لنفسها: نعم، أنا كذلك، رغم أنها أنكرت ذلك بشدة أمامه. كانت مستلقية بجانبه بعد فترة وجيزة، متعركة وواهنة. فكرت بدهشة: يا إيناري، رغم أنك لست بمثل حجم أنجين سان، فإنك تعوض ذلك بقوة لا تُضاهى. سأل بنعاس: «لماذا تضحكين؟».

- لأنك تجعلني سعيدة.

تنهدت وهي تشعر بالسرور لأنها كانت محظوظة للغاية بتعليمها. تحدثت معه بسهولة، وأثنت عليه بكثرة، ودلته حتى غط في النوم. كانت يداها وصوتها يحققان كل ما هو ضروري بسلاسة بمحض إرادتهم بحكم العادة الطويلة. أما عقلها فقد كان في مكان آخر. كانت تفكر في ماريكو وعشيقها، وتعيد النظر في الخيارات المتاحة. إلى أي مدى يمكنها الضغط على ماريكو؟ أو لمن يمكنها تسليمهما، أو تهديدها به، بالطبع بطريقة غير مباشرة... تورانا جا أم بونتارو أم من؟ الكاهن المسيحي؟ هل في ذلك فائدة؟ أو الزعيم كياما، من المؤكد أن أي فضيحة تربط السيدة العظيمة تودا بهذا الهمجي ستدمر فرص ابنها في الزواج بحفيدة كياما. هل يمكن لهذا التهديد أن يطوعها لاحتياجاتي؟ أم عليّ ألا أفعل شيئًا... هل في ذلك مصلحة أكبر بطريقة ما؟

أشعر بالشفقة على ماريكو. يا لها من سيدة رائعة! كانت لتصبح محظية رائعة. وأشعر بالشفقة على أنجين سان. يا له من رجل ذكي... كان بإمكانني جني ثروة منه أيضًا.

كيف يمكنني استغلال هذا السر بأفضل طريقة، وأكثرها ربحًا، قبل أن يكشف ويُدمر الاثنان؟

نبّهت نفسها: احذري يا جيوكو. لم يتبق الكثير من الوقت لاتخاذ القرار بشأن هذا الأمر أو بشأن الأسرار الجديدة الأخرى: بشأن الأسلحة والبنادق التي خبأها الفلاحون في أنجيرو، أو بشأن كتيبة البنادق الجديدة، أعدادها وضباطها وتنظيمها وعدد الأسلحة. أو بشأن تورانا جا الذي قضى الليلة مع كيكو في اليوم الأخير في يوكوسي مستخدمًا قوة رجل في الثلاثين من عمره،

ونام حتى الفجر كطفل رضيع. هذا ليس سلوك رجل مثقل بالهموم، أليس كذلك؟

وماذا عن عذاب الكاهن العذري حليق الرأس، الذي كان عاريًا على ركبتيه، يصلي أولاً إلى إلهه المسيحي المتعصب، طالبًا المغفرة عن الخطيئة التي كان على وشك ارتكابها مع الفتاة، والخطيئة الأخرى -الحقيقية- التي ارتكبها في أوساكا -أمور سرية غريبة من «الاعتراف» همس بها إليه المجذوم، ثم خانه ونقلها للزعيم هاريمان. تُرى ما رأي توراناغا في هذا الأمر؟ نقل كل تلك الأسرار والهمسات من فم لآخر، ثم الصلاة بعينين مغمضتين -قبل أن يهجم ذلك الأحق المجنون المسكين على الفتاة بلا رحمة، ثم يتسلل بعيدًا مثل مخلوق ليلي مقزز. يا له من كم هائل من الكراهية والعذاب والعار الملتوي.

وماذا عن الطاهي الثاني لدى أومي، الذي همس لخادمة التي همست لعشيقتها، والذي بدوره همس لكيكو أنه قد استمع إلى أومي وأمه وهما يخططان لاغتيال كاسيجي يابو، زعيمهما الإقطاعي؟ إذا كُشف هذا السر علانية سيشعل الفتنة بين جميع أفراد عشيرة كاسيجي. وكذلك عرض أومي ويابو السري لزاتاكي، إذا همس في أذن توراناغا... أو حتى الكلمات التي تتم بها زاتاكي في أثناء نومه والتي حفظتها شريكته في الفراش وباعتها لي في اليوم التالي مقابل قطعة تشوجين فضية، كلمات توحى بأن القائد إيشيدو والسيدة أوتشيبا كانا يتناولان الطعام معًا وينامان معًا، وأن زاتاكي نفسه قد سمعها يتأوهان ويصيحان. ابتسمت جيوكو لنفسها بتعجرف. يا لها من صدمة، أليس كذلك؟ هؤلاء الأشخاص في مثل هذه المناصب العليا.

وماذا عن الحقيقة الغريبة الأخرى التي ظهرت في لحظة السحب والمطر، وفي عدة مرات قبلها، حيث نادى الزعيم زاتاكي شريكته في الفراش باسم «أوتشيبا» دون أن يدرك ذلك. غريب، أليس كذلك؟

هل سيغير زاتاكي -الذي يُعد ضروريًا لكلا الطرفين- رأيه إذا عرض عليه توراناغا أوتشيبا كطعم؟ ضحكت جيوكو شاعرةً بالدفء وهي تفكر في كل تلك الأسرار الجميلة، التي تحمل قيمة كبيرة إذا وصلت للأذان المناسبة، أسرار كشفها الرجال في أثناء لحظات خاصة. تمتمت بثقة: «سيتغير موقفه، نعم بالتأكيد».

- ماذا؟

- لا شيء، لا شيء يا إيناري تشان. هل نمت جيدًا؟

- ماذا؟

ابتسمت له وتركتة يغط في النوم مجددًا. ثم واصلت ما كانا يفعلانه من قبل عندما أصبح مستعدًا.

- أين هو الإنجليزي الآن يا أبت؟

- لا أعرف بالتحديد يا رودريجز. بعد. من المحتمل أن يكون في أحد النزل جنوب ميشيما. لقد تركت خادمًا ليجد المكان.

جمع ألفيتو آخر ما تبقى من المرق بقطعة من الخبز الطازج.

- متى ستعرف؟

- غدًا، بلا شك.

سأل رودريجز بهدوء: «ماذا يحدث؟ أود رؤيته مجددًا. هل هو في حال جيدة؟».

- نعم.

دق جرس السفينة ست مرات. كانت الساعة الثالثة بعد الظهر.

- هل أخبرك ما حدث له منذ أن غادر أوساكا؟

- أعرف أجزاء من القصة. منه ومن آخرين. إنها قصة طويلة ويوجد الكثير لأرويه. سأتعامل مع رسائلي أولاً ثم سنتحدث.

استرخى رودريجز في كرسيه في المقصورة الصغيرة بالخلف وقال: «جيد. سيكون ذلك جيدًا جدًا».

لاحظ ملامح اليسوعي الحادة وعينه البنيتين الحادثتين اللتين يخالطهما اللون الأصفر. كأعين القطط. قال: «اسمع يا أبت، الإنجليزي أنقذ سفينتي وحياتي. بالطبع هو عدو، وبالطبع هو هرطوقي، لكنه ربان، واحد من أفضل الربابنة على الإطلاق. ليس من الخطأ أن تحترم عدوك، بل حتى أن تحبه».

بادل ألفيتو نظرات الربان بهدوء وقال: «الرب يسوع غفر لأعدائه، لكنهم مع ذلك صلبوه. لكني أحبه أيضًا. على الأقل أفهمه أكثر. دعنا نترك الحديث عنه الآن».

أوماً رودريجيز موافقاً. لاحظ أن طبق الكاهن كان فارغاً لذا مد يده عبر الطاولة ودفع الطبق نحوه وقال: «تفضل يا أبت، تناول المزيد من الدجاج. هل تريد خبزاً؟».

- شكراً لك. نعم، سأتناول. لم أدرك كم كنت جائعاً.

مزق الكاهن ساقاً أخرى بامتنان وأخذ المزيد من حشوة الخبز والبصل والمريمية، ثم سكب آخر ما تبقى من المرق الغني فوقها.

- هل تريد نبيذاً؟

- نعم، شكراً لك.

- أين بقية رجالك يا أبت؟

- تركتهم في نزل قرب الميناء.

نظر رودريجيز عبر النوافذ التي تطل على نومازو والمواني والمراسي، وإلى اليمين قليلاً مصب نهر كانو حيث كان لون الماء أكثر قتامة من بقية البحر. كانت العديد من قوارب الصيد تبهر ذهاباً وإياباً. سأل: «هل تثق بهذا الخادم الذي تركته يا أبت؟ هل أنت متأكد أنه سيجدنا؟».

كان ألفيتو قرر بالفعل ألا يذكر ما يشته به، أو بالأحرى ما يشته فيه الأخ مايكل، لذلك قال ببساطة: «نعم. بالتأكيد لن يتحركوا لمدة يومين على الأقل. لا تنس أنهم يسافرون في موكب رسمي مع رتبة السيدة تودا ماريكو وتحت راية توراناغا. إنهم في موكب رسمي جداً. سيعلم كل من في حدود أربعة فراسخ بأمرهم ومكان إقامتهم».

ضحك رودريجيز: «الإنجليزي في موكب؟ من كان ليصدق ذلك؟ كدايميو عديم قيمة».

- وهذا ليس كل شيء يا ربان. لقد جعله توراناغا ساموراي وهاتاموتو.

- ماذا؟

- الآن الربان الرئيسي بلاكثورن يحمل السيفين. مع مسدساته. وهو الآن أحد المقربين لتوراناغا، إلى حد ما وتلميذه.

- الإنجليزي؟

- نعم.

ترك ألفيتو الصمت يسود في المقصورة وعاد إلى تناول طعامه.

سأل رودريجيز: «هل تعلم سبب ذلك؟».

- نعم، جزئيًا. ستعلم لاحقًا يا ريان.

- فقط أخبرني السبب باختصار. التفاصيل لاحقًا، رجاءً.

- أنقذ أنجين سان حياة تورانا جا للمرة الثالثة. مرتين في أثناء الهروب من أوساكا، والأخيرة كانت في إيزو في أثناء زلزال.

التهم ألفيتو بشراسة قطعة لحم الفخذ. وتسربت بعض العصارة إلى لحيته السوداء.

انتظر رودريجيز، لكن الكاهن لم يقل شيئًا آخر. تأمل بهدوء الكأس التي يحملها في يديه. كان سطح النبيذ الأحمر الداكن يعكس الضوء. قال بعد صمت طويل: «لن يكون ذلك جيدًا بالنسبة لنا، أن يكون هذا الإنجليزي اللعين مقربًا لتوراناجا. إطلاقًا. ليس هو. أليس كذلك؟».

- أوافقك الرأي.

- ومع ذلك أرغب في رؤيته.

لم يقل الكاهن شيئًا. تركه رودريجيز ينهي طعامه بصمت، ثم عرض عليه المزيد، لكن قد فترت سعادته. قبل الكاهن آخر ما تبقى من الدجاجة والجناح الأخير، وكأس أخرى من النبيذ. ثم في النهاية جلب ألفيتو بعض الكونياك الفرنسي الفاخر من خزانة.

- رودريجيز؟ هل ترغب في كأس؟

- شكرًا لك.

راقب البحار ألفيتو وهو يسكب السائل الكستنائي في الكأس الكريستالية. كان كل النبيذ والكونياك جاء من مخزون الأب الزائر الخاص كهديّة وداع لصديقه اليسوعي.

كان قد قال ديل أكوا: «بالطبع يا رودريجيز، يمكنك مشاركة النبيذ مع الأب، اذهب في حفظ الرب، فليرعاك ويعيدك إلى الميناء وإلى وطنك بسلام».

- شكرًا لك يا صاحب النيافة.

قال رودريجيز لنفسه بمرارة: أجل، شكرًا لك يا صاحب النيافة، ولكن لا شكر ملعون على الإطلاق. لا شكر على جعل قائد الأسطول يأمرني بالصعود على متن هذا القارب القذر تحت قيادة هذا اليسوعي، بعيدًا عن أحضان

عزيزتي جراسيا، حبيبتي المسكينة. يا مريم، إن الحياة قصيرة جدًا، قصيرة وخائنة جدًا لتضيع في مرافقة كهنة نتنين، حتى ألفيتو الذي يُعد أكثر رجولة من أي رجل آخر، ولهذا السبب أكثر خطورة. ساعديني يا مريم.

- هل ستغادر يا رود سان؟ تغادر بهذه السرعة؟ أعتذر...

- سأعود قريبًا يا عزيزتي.

- آسفة للغاية... سنفتقدك، أنا والصغيرة.

للحظة فكر في اصطحابها معه على متن سفينة سانتا فيليبا، لكنه سرعان ما تجاهل الفكرة مدركًا أن ذلك سيكون خطرًا لها وله وللسفينة. قال: «أعتذر، سأعود قريبًا».

- سننتظرك يا رود سان. أرجوك اعذر حزني، آسفة للغاية.

دائمًا ما كانت تتحدث تلك البرتغالية المترددة ذات اللكنة الثقيلة التي كانت تحاول جاهدة إتقانها، ومُصرة على أن تُدعى باسم تعميدها «جراسيا» وليس باسمها الأصلي الجميل «نيان نيان» الذي يعني قطعة صغيرة، وكان يناسبها تمامًا ويروق له أكثر.

أبحر بعيدًا عن ناجازاكي، كارهًا الرحيل ولاعنًا جميع الكهنة والقادة، راغبًا في انتهاء الصيف والخريف حتى يتمكن من رفع مرساة السفينة السوداء، التي امتلأت خزائنها الآن بالسبائك، ليعود أخيرًا إلى الوطن غنيًا ومستقلًا. لكن ماذا بعد؟ كان السؤال الدائم يلاحقه. ماذا عنها... وعن الطفل؟ ساعديني لأجد إجابة لهذا السؤال بسلام يا مريم.

قال ألفيتو وهو يعبث بفتات الخبز على الطاولة: «وجبة ممتازة يا رودريجيز، شكرًا لك».

أصبح رودريجيز جادًا الآن وقال: «جيد. ما خطتك يا أبت؟ يجب أن...». توقف في منتصف الجملة وألقى نظرة عبر النوافذ. ثم نهض من الطاولة بغير رضا وعرج بألم نحو كوة جانبية تطل على الياينة وألقى نظرة منها.

- ما الأمر يا رودريجيز؟

فتح الغطاء أكثر وأطل للخارج، لكنه لم يستطع رؤية مرساة المقدمة. قال: «ظننت أنني شعرت بتغير المد. أريد فقط التحقق من مجال حركتنا. اعذرني للحظة يا أبت».

صعد إلى سطح السفينة. كانت المياه تتلاطم على سلسلة المرساة التي كانت ماثلة في المياه الموحلة. لا حركة. ثم ظهر خيط من الأمواج، وبدأت السفينة تتحرك بأمان لتتخذ مكانها الجديد مع انحسار المد. تفحص وضع السفينة ثم نقاط المراقبة. كان كل شيء مثاليًا. لا توجد قوارب أخرى قريبة. كان الجو لطيفًا في فترة ما بعد الظهر، والضباب قد تلاشى منذ وقت طويل. كانوا على بعد مائتي متر أو نحو ذلك من الشاطئ، بعيدين بما يكفي لتجنب أي محاولة هجوم مفاجئة على متن السفينة، وبعيدين عن الممرات البحرية التي تغذي الأرصفة.

كانت سفينته عبارة عن هيكل ياباني معدل بأشعة ومعدات برتغالية حديثة: سريعة ذات صاريتين ومجهزة بأشعة. تحمل أربعة مدافع في منتصف السفينة، ومدفعين صغيرين في المقدمة ومدفعين في المؤخرة. اسمها سانتا فيليبا وتحمل طاقمًا مؤلفًا من ثلاثين رجلًا.

توجهت عيناه نحو المدينة، ثم نحو التلال الواقعة خلفها. نادى: «بيسارو».

- نعم يا سيدي؟

- جهز قارب التجذيف. سأذهب إلى الشاطئ قبل الغسق.

- جيد. سيكون جاهزًا متى ستعود؟

- عند الفجر.

- هذا أفضل. سأقود فوج الشاطئ... عشرة رجال.

- لا مغادرة من الشاطئ يا بيسارو. إنه ممنوع. يا إلهي، هل عقلك مختل؟

وقف رودريجز على سطح السفينة واتكأ على شفير السفينة.

قال رئيس البحارة بيسارو وهو يثني يديه الكبيرتين المتشققتين: «ليس من الصواب أن نعاني جميعًا. سأقود الفوج وأعدك بأنه لن تكون هناك أي مشكلات. لقد حُبِسنا هنا لمدة أسبوعين حتى الآن».

- قالت سلطات الميناء هنا أنه ممنوع، أعتذر لكنه ما زال ممنوعًا. تذكر؟

هذه ليست ناجازاكي.

عبس الرجل الضخم: «نعم بحق دم المسيح يسوع، ولسوء الحظ. لقد ذُبح قرْدًا يابانيًا واحدًا فقط».

- واحد ذُبَح، واثنان طُعِنَا بشدة، والعديد من الجرحى، وفتاة أُصِيبَتْ قبل تدخل الساموراي لوقف الشغب. لقد حذرتكم جميعًا قبل أن تذهبوا إلى الشاطئ: «نومازو ليست ناجازاكي... لذا أحسنوا التصرف». يا مريم، كنا محظوظين بالنجاة بمقتل بحار واحد فقط منا. فقد كان في إطار القانون أن يقطعوا رؤوسكم أنتم الخمسة جميعًا.
- إنها قوانينهم يا ربان، وليست قانوننا. أولئك القرودة الملعونة. كان الأمر مجرد شجار في بيت دعارة.
- قال رودريجيز وهو يحرك ساقه لتخفيف الألم: «نعم، لكن رجالك هم من بدؤوا، والسلطات فرضت الحجر على سفينتي، وأنتم جميعًا معاقبون، وهذا يشملك. كن صبورًا يا بيسارو. الآن بعد أن عاد الأب، سنبحر قريبًا».
- مع المد؟ عند الفجر؟ هل هذا أمر؟
- لا، ليس بعد. فقط جهاز قارب التجذيف. سيأتي جوميز معي.
- دعني أت أيضًا، رجاءً يا ربان. لقد سئمت حد الموت من البقاء في هذا الدلو اللعين.
- لا. ومن الأفضل ألا تذهب إلى الشاطئ الليلة، أنت أو أي شخص آخر.
- وإذا لم تعد قبل الفجر؟
- ستتعفنون هنا عند المرساة حتى أعود. هل هذا واضح؟
- ازداد عبوس رئيس البحارة. تردد قليلًا ثم رضح وقال: «نعم، نعم، هذا واضح بحق الرب».
- جيد.
- اتجه رودريجيز إلى الأسفل.
- كان ألفيتو نائمًا لكنه استيقظ في اللحظة التي فتح فيها الربان باب المقصورة. سأل وهو الآن ممتلئ العقل والجسد: «هل كل شيء على ما يرام؟».
- نعم، كان تغير المد فقط.

تناول رودريجيز بعض النبيذ ليزيل الطعم المر من فمه. كان الأمر دائمًا هكذا بعد محاولة تمرد. لو لم يستسلم بيسارو على الفور، لكان يتعين مجددًا على رودريجيز أن يفجر رأس رجل أو يضعه في أغلال أو يأمر بخمسين جلدة أو يسحبه تحت السفينة أو ينفذ أي واحدة من مئات الأفعال البشعة

التي يقتضيها قانون البحر للحفاظ على الانضباط. فإن السفينة تصبح في خطر من دون الانضباط. قال: «ما الخطة الآن يا أبت؟ هل نبحر عند الفجر؟».

- كيف حال الحمام الزاجل؟

- في حالة جيدة. لا يزال لدينا ستة، أربعة من ناجازاكي واثنان من أوساكا.

تحقق الكاهن من زاوية الشمس. كان أمامهم أربع أو خمس ساعات حتى الغروب. وقت كافٍ لإطلاق الطيور مع الرسالة المشفرة الأولى التي خُطِّطَ لها منذ فترة طويلة. تابع: «استسلام توراناكا لأمر المجلس. سأتوجه أولاً إلى إيدو ثم إلى أوساكا. سأرافق توراناكا إلى أوساكا. يقول إنه يمكننا بناء الكاتدرائية في إيدو. ستصل رسالة مفصلة مع رودريجيز».

قال ألفيتو: «هل يمكنك أن تطلب من المسؤول عن الحمام تجهيز طائرين من ناجازاكي وواحد من أوساكا في الحال؟ ثم سنتحدث. لن أبحر عائداً معك. سأذهب إلى إيدو عبر الطريق البري. سيستغرق الأمر مني معظم الليل والغد لكتابة رسالة مفصلة ستحملها إلى الأب الزائر، شخصياً. هل ستبحر حالما أنتهي؟».

- حسناً. إذا اقترب الوقت من الغسق سأنتظر حتى الفجر. توجد مياه ضحلة ورمال متحركة تمتد لعشرة فراسخ.

وافق ألفيتو. الساعات الاثنتا عشرة الإضافية لن تشكل فرقاً. كان يعلم أنه كان من الأفضل لو تمكن من إرسال الأخبار من يوكوسي، لعنة الرب على الشيطان الوثني الذي دمر طيوري هناك. قال لنفسه: كن صبوراً، لم العجلة؟ ليس ذلك قاعدة أساسية في طائفتنا؟ الصبر. كل شيء يأتي لمن ينتظر... ويعمل. ما أهمية اثنتي عشرة ساعة أو حتى ثمانية أيام؟ لن يغيروا مجرى التاريخ. القرار قد اتخذ في يوكوسي.

كان رودريجيز يسأل: «هل ستسافر مع الإنجليزي؟ كما في السابق؟».

- نعم. سأعود من إيدو إلى أوساكا بطريقي. سأرافق توراناكا. أريدك أن تتوقف في أوساكا مع نسخة من رسالتي في حال كان الأب الزائر هناك، أو إذا غادر ناجازاكي قبل وصولك وكان في طريقه إلى هناك. يمكنك تسليمها للأب سولدي، مساعدته... له فقط.

- حسناً. سأكون سعيداً بالرحيل. نحن مكروهون هنا.

- يمكننا تغيير كل ذلك بعون الرب يا رودريجز. وبعون الرب سنهدي جميع الوثنيين هنا.

أراح الرجل الطويل ساقه قليلاً بعدما خف الألم للحظات. نظر إلى الخارج من النافذة ثم نهض بنفاد صبر وقال: «آمين لذلك. نعم. سأذهب لأحضر الحمام بنفسي. اكتب رسالتك، ثم سنتحدث. عن الإنجليزي».

صعد إلى سطح السفينة واختار الطيور من السلال. وعندما عاد، كان الكاهن قد انتهى بالفعل من كتابة الرسالة المشفرة باستخدام ريشة حادة وحبر خاص على قصاصات صغيرة من الورق. جهز ألفيتو الأسطوانات الصغيرة وأغلقها بالختم ثم أطلق الطيور. طافت الطيور الثلاثة مرة واحدة، ثم اتجهوا غرباً معاً نحو شمس الظهيرة.

- هل نتحدث هنا أم في الأسفل؟

- هنا. الجو أبرد.

أشار رودريجز إلى مراقب حارس السفينة بالابتعاد عنهم قليلاً.

جلس ألفيتو على كرسي القيادة وقال: «أولاً عن توراناجا».

أخبر الريان باختصار بما حدث في يوكوسي، متجنباً ذكر حادثة الأخ يوسف وشكوكه حول ماريكو وبلاكثورن. كان رودريجز مصدوماً من استسلام توراناجا تماماً كما كان ألفيتو. قال: «لا حرب؟ إنها معجزة! الآن نحن في أمان حقاً، سفينتنا السوداء في أمان، الكنيسة غنية، ونحن أغنياء... الشكر للرب والقديسين ومريم. هذا أفضل خبر جلبته لنا يا أبت. نحن آمنين».

- إن شاء الرب. ولكن هناك شيء قاله توراناجا أقلقني. لقد قال بهذه

الطريقة: «يمكنني الأمر بتحرير المسيحي الخاص بي... أنجين سان.

ومعه سفينته ومدافعه».

اختفت بهجة رودريجز وقال: «إيراسموس ما زالت في إيدو؟ وما زالت

تحت سيطرة توراناجا؟».

- نعم. هل سيكون الأمر خطراً إذا أطلق سراح الإنجليزي؟

- خطراً؟ تلك السفينة قادرة على تدميرنا إذا لحقت بسفينتنا السوداء

بين هنا وماكاو وهو على متنها، مسلحاً ومعه طاقم لائق. ليس لدينا

سوى الفرقاطة الصغيرة للتدخل، وهي لا تضاهي إيراسموس. ولا نحن

كذلك. إنها تستطيع مراوغتنا، وسنضطر إلى تنكيس رايتنا.

- هل أنت متأكد؟

اشتدت قبضة يد رودريجز بغضب: «نعم. أقسم بالرب... ستكون قاتلة. لكن انتظر لحظة... قال الإنجليزي إنه وصل إلى هنا ومعه اثنا عشر رجلًا فقط، وليسوا جميعًا بحارة، بل بعضهم تجار وكثير منهم مرضى. هذا العدد القليل لا يمكنه إدارة السفينة. المكان الوحيد الذي يمكن أن يجد فيه طاقمًا سيكون في ناجازاكي أو ماكاو. قد يحصل على عدد كافٍ في ناجازاكي! هناك مَنْ... يجب أن يُبقى بعيدًا عن هناك، وعن ماكاو».

- أنفترض أنه حصل على طاقم محلي؟

- تقصد بعض قطاع الطرق التابعين لتوراناجا؟ أو الواكو؟ تقصد أنه إذا استسلم توراناجا، فسيصبح رجاله رونين، أليس كذلك؟ إذا كان لدى الإنجليزي، فيمكنه تدريبهم بسهولة. يا إلهي... سامحني يا أبت، لكن إذا حصل الإنجليزي على الساموراي أو الواكو... لا يمكننا المخاطرة بذلك، إنه جيد جدًا. لقد رأينا ذلك في أوساكا. إذا كان حرًا على متن تلك السفينة في آسيا مع طاقم من الساموراي...

راقبه ألفتيتو وهو يشعر بقلق أكبر الآن. قال: «أعتقد أنه يجب عليّ إرسال رسالة أخرى إلى الأب الزائر. ينبغي أن يكون على علم إذا كان الأمر بهذه الأهمية. سيعرف ماذا يفعل».

ضرب رودريجز بقبضته على شفير السفينة. ثم وقف واستدار: «أنا أعرف ماذا يجب أن نفعل. اسمع يا أبت، اسمع اعترافي: في الليلة الأولى... في المرة الأولى التي وقف فيها بجانبني على متن القادس ونحن في طريقنا من أنجيرو، أخبرني قلبي أن أقتله، ثم مجددًا في أثناء العاصفة. فليُعني الرب يسوع، تلك كانت اللحظة التي أرسلته فيها إلى الأمام وانحرفت عمدًا في اتجاه الرياح دون سابق إنذار، وهو بلا حبل نجاة، لمحاولة قتله، لكن الإنجليزي لم يسقط في البحر كما كان سيفعل أي شخص آخر. ظننت أن تلك كانت يد الرب، وأيقنت ذلك عندما تجاوزني لاحقًا وأنقذ سفينتي، ثم عندما كانت سفينتي آمنة وحملتني الموجة وكنت أغرق، آخر ما فكرت فيه أن ذلك كان عقابًا من الرب على محاولة القتل. لا ينبغي أن تفعل ذلك لربان... لن يفعل ذلك لي أبدًا. استحققت العقاب في تلك اللحظة، ثم عندما وجدت نفسي على قيد الحياة ورأيت منحنياً فوقني يساعدي على الشرب، شعرت بالخجل وطلبت المغفرة من الرب مجددًا وأقسمت قسمًا مقدسًا بأن أحاول تعويضه».

صاح في عذاب: «يا مريم، ذلك الرجل أنقذني رغم علمه بمحاولتي قتله. رأيت ذلك في عينيه. لقد أنقذني وساعدني على البقاء على قيد الحياة والآن يجب أن أقتله».

- لماذا؟

- كان قائد الأسطول محققاً: فليساعدنا الرب جميعاً إذا أبحر الإنجليزي على متن إيراسموس، مسلحاً ومعه طاقم لائق.

كان بلاكتورن وماريكو نائمين في هدوء الليل داخل منزلهما الصغير، وهو واحد من مجموعة منازل تشكل نزل الكاميليا، الذي يقع في الشارع التاسع جنوباً. كان كل منزل يحتوي على ثلاث غرف. خصصت ماريكو غرفة لها ولتشييموكو، وغرفة أخرى لبلاكتورن، بينما تركت الغرفة الثالثة التي تطل على الباب الأمامي والشرفة فارغة لتكون مخصصة للمعيشة وتناول الطعام والتحدث.

سأل بلاكتورن بقلق: «هل تعتقدين أن هذا آمن؟ ألا ينام يوشيناكا أو المزيد من الخدم أو الحراس هنا؟».

- لا يا أنجين سان. لا يوجد شيء آمن تماماً. لكن سيكون من الجميل أن نكون وحدنا. يُعد هذا النزل الأجمل والأشهر في إيزو. إنه جميل، أليس كذلك؟

وبالفعل كان كذلك. كل منزل صغير مبنياً على أعمدة أنيقة مع شرفات تحيط به وأربع درجات، مصنوع من أجود أنواع الخشب وكل شيء فيه مصقول ولامع. كل منزل منفصل عن الآخر بمسافة أربعين متراً عن الذي يجاوره، ومحاطاً بحدائق مُشذبة داخل الحديقة الأكبر بدورها محاطة بجدار مرتفع من الخيزران. توجد جداول مياه وبرك زنبق وشلالات وأشجار مزهرة بكثرة تحمل روائح نهائية وأخرى ليلية حلوة الرائحة وفاخرة. توجد ممرات مشاة حجرية نظيفة مسقوفة بدقة، تؤدي إلى الحمامات المركزية الباردة والساخنة وشديدة السخونة، والتي تغذيها الينابيع الطبيعية. وفوانيس ملونة وخدم وخادمت سعداء، ولا يُسمح بقول أي كلمة سيئة تعكر صفو أجراس الشجر والمياه المتدفقة والطيور المغردة في أقفاصها.

- لقد طلبت منزلين بالطبع يا أنجين سان، واحد لك وآخر لي. لكن للأسف لم يكن متاحًا سوى واحد، أعتذر. لكن يوشيناكا سان لم يكن مستاءً. بل على العكس، شعر بالارتياح لأنه لم يكن مضطراً إلى تقسيم رجاله. لقد وضع الحراس على كل الطرق، لذا نحن بأمان تام ولن نُزعج مثلاً يحدث في الأماكن الأخرى. لماذا قد نُزعج؟ ما الذي يمكن أن يكون خاطئاً في وجود غرفة هنا وأخرى هناك وتشيموكو التي تشاركني سريري؟

- لا شيء. لم أرَ مكاناً بهذا الجمال من قبل. كم أنت ذكية، وكم أنت جميلة.
- كم أنت لطيف معي يا أنجين سان. فلنستحم أولاً ثم نتناول الطعام في المساء مع الكثير من الساكي.

- حسناً، جيد جداً.

- ضع قاموسك جانباً يا أنجين سان، رجاءً.

- لكنك تشجعيني دائماً.

- إذا وضعت كتابك جانباً... سأخبرك سرّاً.

- ما هو؟

- لقد دعوت يوشيناكا سان لتناول الطعام معنا. وبعض السيدات للترفيه عنا.

- حقاً؟

- نعم. بعد أن أغادر، ستختار واحدة منهن، حسناً؟

- لكن قد يُزعج ذلك نومك، آسف.

- أهدك أنني سأنام بعمق يا حبيبي. جدّاً، قد يكون التغيير جيداً لك.

- نعم، ولكن في العام المقبل، ليس الآن.

- كن جاداً.

- أنا جاد.

- إذن في هذه الحالة، إذا غيّرت رأيك بأدب وجعلتها تغادر بسرعة -بعد أن يغادر يوشيناكا سان مع رفيقته- من يدري ما الذي قد يجده لك كامبي الليل؟

- ماذا؟

- لقد ذهبت للتسوق اليوم.
- حقًا؟ وماذا اشتريت؟
- اشتريت ماريكو مجموعة من الأدوات التي أظهرتها لهم كيكو، وفي وقت لاحق، عندما غادر يوشيناكا وتشيموكو كانت تحرس على الشرفة، قدمت له الأدوات مع انحناء عميقة. قبلها بنفس الجدية، واختارًا معًا أحد الأدوات.
- يبدو شائكًا جدًّا يا أنجين سان، أليس كذلك؟ هل أنت متأكد أنك لا تمنع؟
- لا، ما دُمت لا تمنعين، لكن توقفي عن الضحك وإلا ستفسدين كل شيء. أطفئي الشموع.
- لا، أريد المشاهدة رجاءً.
- حبًّا بالرب، توقفي عن الضحك يا ماريكو.
- لكنك تضحك أيضًا.
- لا يهم، أطفئي الضوء أو... الآن، انظري ما الذي فعلته.
- أوه!
- توقفي عن الضحك. لا فائدة من إخفاء رأسك في الفوتون...
- ثم لاحقًا حدثت مشكلة.
- ماريكو...
- نعم يا حبيبي؟
- لا أستطيع العثور عليه.
- دعني أساعدك.
- لا بأس. وجدته. كنت مستلقيًا عليه.
- أنت... أنت متأكد أنك لا تمنع؟
- لا، لكن الأمر يبدو، حسنًا، ليس مريحًا على الإطلاق، كل هذا الحديث عنه والاضطرار إلى الانتظار. أليس كذلك؟
- لا أمانع. كان خطئي أنني ضحكت. أحبك كثيرًا يا أنجين سان، سامحني رجاءً.
- أنت معذورة.

- أحب أن ألمسك.
 - لم أشعر بلمسة تشبه لمستك من قبل.
 - ماذا تفعل يا أنجين سان؟
 - أضعه.
 - هل الأمر صعب؟
 - نعم. توقفي عن الضحك.
 - أعذر، ربما أنت...
 - توقفي عن الضحك.
 - سامحني رجاء...
- نامت بعدها على الفور، منهكة تمامًا. أما هو فلم ينم. كان الأمر جيدًا بالنسبة له، لكنه لم يكن مثاليًا. لقد كان قلقًا جدًا عليها. وقرر أن تكون هذه المرة من أجل إمتاعها، وليس إمتاعه.
- فكر وهو يشعر بالحب تجاهها: نعم، كان ذلك من أجلها لكن الشيء الوحيد الذي كان مثاليًا هو أنني متأكد تمامًا أنني أرضيتها. لأول مرة، أنا متأكد تمامًا.
- غلبه النوم، ثم بدأت أصوات حديث وجدال ممزوجة باللغة البرتغالية تتسلل إلى نومه. ظن لوهلة أنه يحلم، لكنه تعرف على الصوت. «رودريجز».
- تمتت ماريكو وهي لا تزال غارقة في النوم.
- نهض على ركبتيه بسرعة مدفوعًا بذعر مكبوت عندما سمع خطوات أقدام على الممر. رفعها كما لو كانت دمية وتوجه نحو الشوحي، ولكنه توقف عندما فُتح الباب من الخارج. كانت تشيموكو مطأطئة الرأس وعيناها مغمضتين بحرص. تجاوزها بلاكثورن بسرعة حاملاً ماريكو بين ذراعيه، ووضعها برفق في فراشها وهي لا تزال نصف نائمة، ثم عاد مسرعًا في صمت إلى غرفته، وكان يشعر ببرودة عرقه رغم دفء الليل. ارتدى كيمونو على عجل وخرج إلى الشرفة مجددًا. كان يوشيناكا قد وصل إلى الدرجة الثانية من الدَّرَج.

- ما الخطب يا يوشيناكا سان؟
- قال يوشيناكا: «أعذر يا أنجين سان».

أشار إلى المشاعل عند البوابة البعيدة للنُّزل، وأضاف كلمات كثيرة لم يفهمها بلاكثورن. لكن الخلاصة أن الرجل كان هناك، الهمجي، يريد رؤيتك وقد أخبرته أن ينتظر لكنه قال إنه لن ينتظر، وتصرف كأنه دايميو، وهو ليس كذلك، وحاول تجاوزي ولكنني أوقفته. قال إنه صديقك. هل هو كذلك؟

- مرحبًا يا إنجليزي. إنه أنا، فاسكو رودريجيز.

بادله بلاكثورن الصياح بسعادة وتحدث باليابانية ليوشيناكا: «مرحبًا يا رودريجيز. سأتي فورًا. نعم يا يوشيناكا سان. إنه صديقي».

- حسنًا إذن.

- نعم. شكرًا.

ركض بلاكثورن نزولًا على الدَّرج متوجهًا نحو البوابة. ثم سمع صوت ماريكو خلفه تقول: «ما الأمر يا تشيموكو؟».

سمع ردًا هامسًا، ثم نادى بصوت سلطوي: «يوشيناكا سان».

- نعم يا تودا ساما.

ألقي بلاكثورن نظرة خلفه. صعد الساموراي على الدَّرج نحو غرفة ماريكو. كان باب غرفتها مغلقًا، وتشيموكو تقف خارجه. فراشها المجدد بجانب الباب الآن حيث تنام عادة إذا لم ترغب سيدتها في أن تكون معها بالغرفة. انحنى يوشيناكا أمام الباب وبدأ يقدم تقريره. واصل بلاكثورن السير على الممر حافي القدمين شاعرًا بسعادة متزايدة، وعيناه على البرتغالي وابتهامته العريضة المرحبة به، وضوء المشاعل المتراقص الذي ينعكس على أقراطه وإبزيم قبعته الأنيقة.

- مرحبًا يا رودريجيز. من الرائع رؤيتك. كيف حال ساقك؟ كيف عثرت عليّ؟

- يا إلهي، لقد كبرت يا إنجليزي، وازددت وزنًا. نعم، لائق بدنيًا وبصحة جيدة وتتصرف مثل دايميو لعين.

عانقه رودريجيز بحرارة، وبادله بلاكثورن العناق.

- كيف حال ساقك؟

- تؤلمني جدًا لكنها تعمل، ووجدتك عن طريق سؤال الناس عن مكان أنجين سان العظيم، قاطع الطرق الهمجي الضخم اللعين ذي العينين الزرقاوين.

ضحكا معًا وتبادلا الألفاظ البذيئة غير أبيهين بالساموراي والخدم المحيطين بهما. وبعد لحظة أرسل بلاكتورن أحد الخدم لجلب الساكي وقادهما للداخل. كان كلاهما يسير بخطوة بحار مميزة، كانت يد رودريجيز اليمنى على مقبض سيفه بحكم العادة، بينما كان إبهام يده الأخرى معلقًا في حزامه العريض بالقرب من مسدسه. كان بلاكتورن أطول منه سنتيمترات، لكن البرتغالي كان ذا أكتاف وصدر أعرض ومفعم بالقوة. كان يوشيناكا ينتظر على الشرفة.

قال بلاكتورن باليابانية شاكرًا الساموراي مجددًا: «شكرًا جزيلاً يا يوشيناكا سان». وأشار لرودريجيز بالجلوس على إحدى الوسائد: «لنتحدث هنا».

وضع رودريجيز قدمه على الدرج لكنه توقف عندما تحرك يوشيناكا أمامه وأشار إلى السيف والمسدس ثم مد يده اليسرى وكفه للأعلى. قال: «رجاء». عبس البرتغالي ناظرًا إليه وتحدث باليابانية: «لا يا ساموراي ساما، شكرًا ل...».

- رجاء.

كرر رودريجيز بحدة أكبر: «لا يا ساموراي ساما، لا. أنا صديق أنجين سان، أليس كذلك؟».

تقدم بلاكتورن خطوة للأمام وهو ما زال مدهوشًا من مفاجأة الموقف. قال بابتسامة: «يوشيناكا سان، لا يوجد شيء يمكن فعله، أليس كذلك؟ إن رودريجيز صديق، أنا...».

- أعتذر يا أنجين سان. هذا ممنوع.

أصدر يوشيناكا أمرًا. وعلى الفور اندفع ساموراي محيطين برودريجيز بتهديد، مد يده مجددًا وقال: «رجاء».

قال رودريجيز مبتسمًا بابتسامة عريضة: «هؤلاء الملاعين حساسون يا إنجليزي. أخبرهم أن يتوقفوا، حسنًا؟ لم أضطر قط إلى التخلي عن أسلحتي».

قال بسرعة مستشعراً قرار صديقه الوشيك: «لا تفعل يا رودريجز». ثم وجه حديثه ليوشيناكا: «شكراً، رجاءً اعذرني، إن رودريجز صديق، أنا...».

- أعتذر يا أنجين سان. إنه ممنوع.

ثم التفت بحدة نحو البرتغالي وقال: «الآن».

قال رودريجز بالحدة نفسها: «لا. هل تفهم؟».

تدخل بلاكتورن بسرعة بينهما قائلاً: «ما أهمية الأمر يا رودريجز؟ دع يوشيناكا سان يأخذهم. إنه لا علاقة له بك أو بي. إنه بسبب السيدة تودا ماريكو ساما. إنها بالداخل. أنت تعلم كم هم حساسون بشأن الأسلحة بالقرب من الدايميو أو زوجاتهم. سنظل نجادل طوال الليل، أنت تعرف كيف هم، أليس كذلك. ما الفارق؟».

أجبر البرتغالي ابتسامة على وجهه وقال: «حسناً، لمَ لا؟ نعم. لا يوجد شيء يمكنني فعله يا ساموراي ساما. حسناً إذن».

انحنى مثل أحد رجال البلاط دون إخلاص، ثم سحب سيفه وغمدته من حزامه وأخرج مسدسه وقدمهم. أشار يوشيناكا إلى أحد الساموراي، الذي أخذ الأسلحة وركض بها إلى البوابة حيث وضعها على الأرض ووقف لحراستها. بدأ رودريجز في صعود الدّرج لكن يوشيناكا أوقفه بأدب وطلب منه التوقف بحزم. جاء ساموراي آخر لتفتيشه. تراجع رودريجز إلى الخلف بغضب وقال: «لا. ممنوع، يا إلهي، ماذا...».

اندفع الساموراي نحوه مثبتين ذراعيه بإحكام، وفتشوه بدقة. وجدوا سكينين في الجزء العلوي من حذائه، وسكين آخر مربوطاً على ساعده الأيسر، ومسدسين صغيرين -أحدهما مخبأً في بطانة معطفه والآخر تحت قميصه- وقارورة صغيرة من البيوتر.

فحص بلاكتورن المسدسات. كان كلاهما محشوّاً. سأل: «هل كان الآخر محشوّاً أيضاً؟».

- نعم. بالطبع. هذه الأرض معادية، ألم تلاحظ يا إنجليزي؟ أخبرهم أن يتركوني.

- هذه ليست الطريقة المعتادة لزيارة صديق في الليل، أليس كذلك؟

- أخبرك أن هذه الأرض معادية. أنا دائماً مسلح بهذا الشكل. ألا تفعل الشيء نفسه عادة؟ يا مريم، أخبر هؤلاء الأوغاد أن يتركوني.

- هل هذا كل شيء؟

- بالطبع... أخبرهم أن يتركوني يا إنجليزي.

أعطى بلاكتورن المسدسات لساموراي وتقدم للأمام. بحثت أصابعه بعناية داخل حزام رودريجيز العريض المصنوع من الجلد. سحب خنجرًا من غمده السري، خنجرًا رقيقًا جدًا ومصنوعًا من أفضل أنواع الفولاذ الدمشقي. لعن يوشيناكا الساموراي الذين أجروا التفتيش. اعتذروا لكن بلاكتورن كان يراقب رودريجيز فقط.

سأل والخنجر في يده: «هل يوجد المزيد؟».

نظر رودريجيز إليه بقسوة.

- سأخبرهم أين يبحثون وكيف يبحثون يا رودريجيز، كما يفعل الإسبان... بعضهم. حسنًا؟

قال بالإسبانية: «اللعة أيها الوغد».

- لا يا لعين. أسرع.

لم يكن هناك رد. تقدم بلاكتورن ممسكًا بالسكين وقال: «رجاءً يا يوشيناكا سان. أنا...».

قال رودريجيز بصوت أجش: «في رباط القبعة».

فتوقف بلاكتورن.

قال وهو يمد يده نحو القبعة العريضة: «جيد».

- أنت ستفعل، أليس كذلك؟ تعلمهم؟

- ألن تفعل أنت؟

- كن حذرًا مع الريشة يا إنجليزي، فأنا أعتز بها.

كان رباط القبعة واسعًا وقاسيًا، والريشة أنيقة مثل القبعة. كان يوجد داخل الرباط خنجر رفيع، أصغر حجمًا ومصمم خصيصًا، وكان الفولاذ النقي يتناسب جيدًا مع انحناء القبعة. صاح يوشيناكا بتوبيخ قاسٍ آخر للساموراي.

- هل تقسم أمام الرب إن هذا كل شيء يا رودريجيز؟

- يا إلهي... لقد أخبرتك.

- أقسم بذلك.

امتثل رودريجيز.

قال بلاكتورن: «إنه بخير الآن يا يوشيناكا سان. شكرًا».

أعطى يوشيناكا الأمر، وأطلق رجاله سراح البرتغالي. فرك رودريجيز أطرافه لتخفيف الألم وقال: «هل يمكنني الجلوس الآن يا إنجليزي؟».

- نعم.

مسح رودريجيز العرق بمنديل أحمر ثم التقط القارورة المصنوعة من البيوتر وجلس متربعا على إحدى الوسائد. ظل يوشيناكا قريبًا على الشرفة. عاد جميع الساموراي إلى مواقعهم باستثناء أربعة. قال: «لماذا هم حساسون جدًا؟ ولماذا أنت حساس يا إنجليزي؟ لم أضطر قط إلى التخلي عن أسلحتي من قبل. هل أنا قاتل؟».

- لقد سألتك إن كانت تلك كل أسلحتك، وكذبت.

قال رودريجيز بمرارة: «لم أكن أستمع. يا مريم! هل... ستحتجز كمجرم عادي؟ ما أهمية الأمر يا إنجليزي، ما أهمية أي شيء؟ الليلة أفسدت... لكن انتظر يا إنجليزي. لماذا يجب أن يُسمح لأي شيء أن يفسد ليلة عظيمة؟ أنا أسامحهم. وأسامحك يا إنجليزي. كنت محقا وكنت أنا المخطئ. أعذر. من الجيد رؤيتك». فتح الغطاء وقدم القارورة قائلاً: «تفضل... بعض البراندي الجيد».

- أنت أولاً.

شحب وجه رودريجيز وقال: «يا إلهي... أعتقد أنني أحمل سمًا؟».

- لا. اشرب أولاً.

شرب رودريجيز

- مجددًا.

امتثل البرتغالي ثم مسح فمه بظهر يده. أخذ بلاكتورن القارورة وقال: «في صحتك».

أمالها إلى الخلف وتظاهر بابتلاع الشراب، ولكنه كان يغطي فوهة القارورة بلسانه لمنع السائل من الدخول إلى فمه، رغم أنه كان يرغب في الشرب. قال: «كان ذلك جيدًا. تفضل».

- احتفظ بها يا إنجليزي. إنها هدية.

- من الأب الصالح؟ أم منك؟

- مني.

- أنقسم أمام الرب؟

قال رودريجيز: «أقسم بالرب والعذراء، أنت و«أمام الرب». كانت هدية مني ومن الأب. إنه يمتلك كل الكحول على متن سانتا فيليبيا، لكن صاحب النيافة سمح لي بمشاركتها، والقارورة واحدة من اثنتي عشرة على متن السفينة. إنها هدية. أين أخلاقك؟».

تظاهر بلاكثورن بالشرب مجددًا وقدمها له قائلاً: «تفضل، اشرب مجددًا». شعر رودريجيز بالشراب يصل إلى أصابع قدميه، وكان سعيدًا لأنه بعدما قبل القارورة من ألفيتو، كان قد أفرغها بسرية وغسلها بعناية ثم ملأها بالبراندي من زجاجته الخاصة. صلى مفكرًا: اغفري لي يا مريم. اغفري لي لأنني شككت في الأب المقدس. يا مريم، يا رب، يا يسوع المسيح، من أجل محبة الرب، عُد إلى الأرض مجددًا وغيّر هذا العالم حيث أحيانًا لا نستطيع حتى أن نثق بالكهنة.

- ما الخطب؟

- لا شيء يا إنجليزي. كنت أفكر فقط أن هذا العالم مقرف لعين عندما لا تستطيع الثقة بأحد في هذه الأيام. جئت إلى هنا بدافع الصداقة والآن أشعر وكأنه توجد فجوة في هذا العالم.

- حقًا؟

- نعم.

- وأنت مسلح هكذا؟

- أنا دائمًا مسلح هكذا. لهذا السبب ما زلت حيًا. في صحتك.

رفع الرجل الضخم القارورة بكآبة ورشف منها مجددًا وتابع: «تبًا للعالم، تبًا لكل شيء».

- هل تقول تبًا لي؟

- إنه أنا يا إنجليزي، فاسكو رودريجيز، ربان في البحرية البرتغالية، لست ساموراي تافه. لقد تبادلنا الكثير من الإهانات من قبل، وكلها

بدافع الصداقة. الليلة جئت لرؤية صديقي، والآن ليس لدي صديق. هذا محزن جدًا.

- نعم.

قال رودريجز: «لا ينبغي أن أكون حزينًا، لكنني كذلك. صداقتي معك عقدت حياتي بصورة استثنائية». نهض رودريجز ليريح ظهره، ثم جلس مجددًا وتابع: «أكره الجلوس على هذه الوسائد الملعونة. الكراسي تناسبني. على متن السفينة. حسنًا، في صحتك يا إنجليزي».

- عندما انعطفت في اتجاه الريح بينما كنت في منتصف السفينة، كان ذلك لإسقاطي في البحر. أليس كذلك؟

أجاب رودريجز على الفور. ونهض على قدميه: «نعم. نعم، أنا سعيد لأنك سألتني، فإن ضميري يؤنبني بشدة. أنا سعيد لأنني أعترف لك في الحياة، لأنني لم أستطع أن أعترف بذلك لك. نعم يا إنجليزي. لا أطلب منك الغفران أو التفهم أو أي شيء. لكنني سعيد أنني اعترفت لك بهذا العار».

- هل تعتقد أنني قد أفعل ذلك لك؟

- لا. ولكن إذا حان الوقت... لا تعلم حتى تحين لحظة اختباره.

- هل جئت هنا لتقتلني؟

- لا. لا أعتقد ذلك. لا أعتقد أن ذلك كان أول ما تبادر في ذهني، رغم أننا نعلم أنه من الأفضل لشعبي وبلادي أن تكون ميتًا. هذا محزن ولكنه حقيقي. كم هي سخيفة هذه الحياة، أليس كذلك يا إنجليزي؟

- أنا لا أريدك ميتًا يا ربان. أريد سفينتك السوداء فقط.

قال رودريجز دون غضب: «اسمع يا إنجليزي. إذا التقينا في البحر، أنت على سفينتك مسلحًا، وأنا على سفينتي، فانتبه على حياتك. هذا كل ما جئت لأعدك به... هذا فقط. اعتقدت أنه من الممكن إخبارك بذلك كصديق وما زلت أحفظ بصداقتك. باستثناء المواجهة في البحر، أنا مدين لك إلى الأبد. في صحتك».

- أتمنى أن ألحق بسفينتك السوداء في البحر. في صحتك يا ربان.

غادر رودريجز بخطى ثابتة. تبعه يوشيناكا والساموراي. استعاد البرتغالي أسلحته عند البوابة. وسرعان ما ابتلعه الليل.

انتظر يوشيناكا حتى نظم الحراس أنفسهم. ثم انصرف إلى حجرته عندما تأكد أن كل شيء آمن. جلس بلاكتورن على إحدى الوسائد، وبعد لحظات جاءت الخادمة التي أرسلها لإحضار الساكي بسعادة وهي تحمل الصينية. صبت له كأسًا وكان بإمكانها البقاء لخدمته لكنه صرفها. أصبح الآن وحيدًا. وحاوطته أصوات الليل مجددًا، أصوات حفيف وشلالات وحركة الطيور الليلية.

كان كل شيء كما هو من قبل، لكن كل شيء قد تغير.

مد يده بأسى ليملاً كأسه مجددًا، لكنه سمع صوت الحرير، وأمسكت يد ماريكو بالقارورة. صبت له، ثم ملأت الكأس الأخرى لنفسها.

- شكرًا يا ماريكو سان.

- على الرحب والسعة يا أنجين سان.

جلست على الوسادة الأخرى. واحتسب النبيذ الساخن.

- كان سيقتلك، أليس كذلك؟

- لست متأكدًا.

- ماذا كان يعني ذلك... أن يفتش مثل الإسبان؟

- يقوم بعضهم بتجريد السجناء ثم يفتشونهم في أماكن خاصة. وليس بلطف. يسمون ذلك التفتيش بوسائل، وأحيانًا يستخدمون السكاكين.

ارتشفت واستمعت لصوت الماء بين الحجارة. قالت: «الأمر نفسه يحدث هنا يا أنجين سان. أحيانًا. لهذا السبب ليس من الحكمة أن تُؤسّر. إذا أُسّرت فقد أهنت نفسك بالكامل لدرجة أن أي شيء يفعله الأسر... من الأفضل ألا تُؤسّر. أليس كذلك؟».

نظر إلى الفوانيس المتمايلة في النسيم البارد العليل وقال: «كان يوشيناكا محقًا... وكنتُ مخطئًا. التفتيش كان ضروريًا. كانت فكرتك، أليس كذلك؟ أنتِ من طلبت من يوشيناكا تفتيشه؟».

- أرجو أن تسامحني يا أنجين سان، آمل ألا أكون قد تسببت لك في إحراج. لقد كنت خائفة عليك فقط.

قال مستخدمًا اللاتينية مجددًا: «أشكر».

رغم أسفه على حدوث التفتيش. فمن دون التفتيش، كان سيظل لديه صديق. حذر نفسه: ربما.

قالت: «على الرحب والسعة، لكن هذا كان واجبي فقط».

كانت ماريكو ترتدي كيمونو للنوم وكيمونو علوي باللون الأزرق، وشعرها مجدول في ضفيرة فضفاضة ويتدلى حتى خصرها. نظرت إلى البوابة البعيدة التي يمكن رؤيتها عبر الأشجار وقالت: «لقد كنت ذكيًا جدًا بشأن الشراب يا أنجين سان. كدت أقرص نفسي من الغضب لنسياني تحذير يوشيناكا بشأن ذلك. كنت فطنًا جدًا عندما جعلته يشرب مرتين. هل تستخدمون السم كثيرًا في بلادكم؟».

- أحيانًا. بعض الناس يفعلون. إنه وسيلة قذرة.

- نعم، لكنه فعال للغاية. يحدث هنا أيضًا.

- إنه أمر فظيع، أليس كذلك، ألا تكون قادرًا على الوثوق بأي أحد.

أجابت: «لا يا أنجين سان، أعتذر لكنها فقط واحدة من أهم قواعد الحياة... لا أكثر ولا أقل».

مكتبة

t.me/soramnqraa

الكتاب الرابع



الفصل السابع والأربعون

كانت إيراسموس تلمع تحت شمس الظهيرة الساطعة بجوار رصيف ميناء إيدو، متألقة.

- يا إلهي يا ماريكو، انظري إليها. هل رأيت شيئاً مثلها من قبل؟ انظري إلى حبالها.

كانت سفينته على بُعد سبعين مترًا من الحواجز المغلقة التي تحيط بها، مربوطة إلى الرصيف بحبال جديدة. كانت المنطقة بأكملها تخضع لحراسة شديدة، حيث يوجد مزيدٌ من الساموراي على سطح السفينة، ولافتات في كل مكان تشير إلى أن هذه المنطقة محظور الدخول إليها إلا بإذن شخصي من الزعيم توراناغا.

كانت إيراسموس قد طُلِّيت حديثًا ودُهِنَت بالقطران، وكانت أسطحها نظيفة، وهيكلها مُحكم ضد أي تسرب وحبالها أُصْلِحَت. حتى الصاري الأمامي الذي تحطم في العاصفة استبدلوه بأخر احتياطي كان موجودًا في مخزن السفينة، وثُبَّتَ بزاوية مثالية. كانت جميع أطراف الحبال ملفوفة بعناية، والمدافع تلمع تحت طبقة واقية من الزيت خلف منافذ المدافع. والعلم الممزق لأسد إنجلترا كان يرفرف بفخر فوق كل شيء.

صاح بفرح من خارج الحواجز، ولكن لم يوجد أي رد. أخبره أحد الحراس أنه لا يوجد أيُّ من الهمج على متن السفينة اليوم.

قال بلاكتورن: «لا يوجد شيء يمكنني فعله. شكرًا».

كبح جماح رغبته الشديدة في الصعود على متن السفينة في الحال وابتسم لماريكو قائلاً: «يبدو وكأنها خرجت للتو من عملية إصلاح وتجديد في ترسانة بورترسموث يا ماريكو سان. انظري إلى مدافعها، لا بد أن الرجال عملوا بجِد. إنها جميلة، أليس كذلك؟ لا أستطيع الانتظار لرؤية باكوس وفينك

والبقية. لم أعتقد قط أنني سأجدها هكذا. يا يسوع، تبدو جميلة جدًا، أليس كذلك؟».

كانت ماريكو تنظر إليه وليس إلى السفينة. كانت تعرف أنها قد نُسيَت الآن. واستبدلت.

أخبرت نفسها: لا يهم، رحلتنا انتهت.

وصلوا هذا الصباح إلى آخر نقاط تفتيش على مشارف إيدو. وفُحصت أوراق سفرهم مجددًا. وسُمحَ لهم بالمرور مجددًا بكل أدب، ولكن هذه المرة كان يوجد حرس شرفي جديد في انتظارهم.

- إنهم سيأخذوننا إلى القلعة يا أنجين سان. ستبقى أنت هناك، وهذا المساء سنلتقي الزعيم توراناغا.

- جيد، إذن لدينا متسع من الوقت. انظري يا ماريكو سان، الميناء لا يبعد أكثر من كيلومتر، أليس كذلك؟ سفينتي موجودة هناك في مكان ما. هل يمكنك أن تطلبي من الكابتن يوشيناكا إذا كان بإمكاننا الذهاب إلى هناك، رجاء؟

- يقول إنه آسف جدًا، ولكنه لم يتلقَ أي تعليمات للقيام بذلك يا أنجين سان. إنه مكلف باصطحابنا إلى القلعة.

- رجاء أخبريه... ربما من الأفضل أن أحاول بنفسي. يا قائد سان، أريد الذهاب إلى هناك الآن لفترة قصيرة. سفينتي هناك.

- لا يا أنجين سان، أعذر. الآن...

استمعت ماريكو باستحسان وتسلية بينما كان بلاكثورن يجادل بأدب ويصر بحزم، ثم سمح لهم يوشيناكا على مضض بأن يلتقوا، ولكن للحظة فقط، حسنًا؟ وفقط لأن أنجين سان طالب بمكانته كهاتاموتو، والتي تمنحه حقوقًا معينة غير قابلة للتنازل، وأشار إلى أن الفحص السريع للسفينة مهم للزعيم توراناغا، وأنه بالتأكيد سيوفر الكثير من الوقت الثمين للزعيم، وهو ضروري للاجتماع الليلة. نعم، يمكن لأنجين سان أن يلقي نظرة للحظة، ولكنني أعذر لأنه بالطبع ممنوع الصعود إلى السفينة دون أوراق موقعة شخصيًا من الزعيم توراناغا، ويجب أن يكون الفحص للحظة فقط لأننا منتظرون، آسف جدًا.

قال بلاكتورن بسعادة واضحة، وهو أكثر من راضٍ عن فهمه المتزايد للطرق الصحيحة للإقناع وتحسنه في إتقان اللغة: «شكرًا يا قائد سان».

قضوا الليلة الماضية ومعظم اليوم السابق في نُزل يبعد بالكاد اثنين ري عن الطريق جنوبًا، وكان يوشيناكا يسمح لهم بالمماطلة كما كان يفعل من قبل.

فكرت: كانت ليلة رائعة.

لقد قضوا العديد من الأيام والليالي الجميلة. كانت جميعها مثالية باستثناء اليوم الأول بعد مغادرة ميشيما، عندما لحق بهم الأب تسوكو سان مجددًا، وتمزقت الهدنة غير المستقرة بين الرجلين تمامًا. حيث نشب شجار مفاجئ وشرس بينهما، مدفوعًا بحادثة رودريجز والكثير من البراندي. تبادلًا التهديدات والسباب، ومن ثم اندفع الأب ألفيتو مسرعًا نحو إيدو، تاركًا خلفه كارثة، ومفسدًا فرحة الرحلة.

- يجب ألا نسمح لهذا بالحدوث يا أنجين سان.

- لكن ذلك الرجل لم يكن يملك أي حق...

- نعم، أتفق معك تمامًا. وبالطبع أنت محق. لكن رجاءً، إذا سمحت لهذا الحادث بتدمير انسجامك، ستضيع نفسك وسأضيع أنا أيضًا. رجاءً، أطلب منك أن تكون يابانيًا. ضع هذا الحادث جانبًا... إنه مجرد حادث من بين عشرة آلاف. لا يجب أن تسمح له بتدمير انسجامك. ضعه في زاوية من عقلك.

- كيف؟ كيف يمكنني فعل ذلك؟ انظري إلى يدي. أنا غاضب بشدة لدرجة أنني لا أستطيع إيقاف ارتجافهما.

- انظر إلى هذه الصخرة يا أنجين سان. استمع إليها وهي تنمو.

- ماذا؟

- استمع إلى الصخرة وهي تنمو يا أنجين سان. ركز عقلك على ذلك، على تناغم الصخرة. استمع إلى كامى الصخرة. استمع يا حبيبي، من أجل حياتك. ومن أجل حياتي.

وهكذا حاول ونجح قليلًا. وفي اليوم التالي عادا أصدقاء وعشاق وفي سلام. واصلت هي تعليمه، محاولةً تشكيكه -دون أن يدرك أنه يُشكل- وفقًا

- لمبادئ السياج الثماني، لبناء جدران داخلية ودفاعات كانت السبيل الوحيد للوصول إلى الانسجام. وللنجاة.
- أنا سعيدة جدًا لأن الكاهن قد رحل ولن يعود يا أنجين سان.
- نعم.
- كان من الأفضل لو لم ينشب الشجار. أنا خائفة عليك.
- لم يتغير شيء... كان دائمًا عدوي، وسيظل كذلك. الكارما هي الكارما. لكن لا تنسي أنه لا شيء موجود خارجنا. ليس بعد. لا هو ولا أي شخص آخر. ليس حتى نصل إلى إيدو. أليس كذلك؟
- بلى. أنت حكيم جدًا. ومحق مجددًا. أنا سعيدة جدًا لوجودي معك...
- ترك طريقهم من ميشيما السهول بسرعة وانحرف إلى أعلى الجبل نحو ممر هاكوني. استراحوا هناك لمدة يومين على قمة الجبل، وهم مبتهجين وراضين، وجبل فوجي يبدو متألّقًا عند شروق الشمس وغروبها، وقمته مغطاة بإكليل من السحب
- هل الجبل دائمًا هكذا؟
- نعم يا أنجين سان، في معظم الأوقات يكون مغطى بالسحب. لكن هذا يجعل رؤية فوجي سان واضحة وصافية وأكثر جمالًا، أليس كذلك؟ يمكنك الصعود إلى القمة إذا أردت.
- دعينا نفعل ذلك الآن.
- ليس الآن يا أنجين سان. يومًا ما سنفعل. يجب أن نترك شيئًا للمستقبل، أليس كذلك؟ سنصعد فوجي سان في الخريف...
- كانت توجد دائمًا نُزُل جميلة وخاصة على طول الطريق إلى سهول الكانتو. وتوجد دائمًا أنهار وجداول يعبرونها، والبحر على اليمين الآن. كانت مجموعتهم تنعطف شمالًا على طول طريق توكايدو المزدهم والمفعم بالحركة عبر أكبر حقول الأرز في الإمبراطورية. كانت السهول المنبسطة الطينية غنية بالمياه، وكل جزء منها مزروع. كان الهواء حارًا ورطبًا الآن، مشبعًا برائحة السماد البشري الذي كان المزارعون يخلطونه بالماء ويسكبونه على النباتات بعناية وحب.

- الأرز يمنحنا الطعام لنأكل، والتاتامي لننام عليه، والنعال لنمشي به، والملابس لتحمينا من المطر والبرد، والقش ليغطي بيوتنا، والورق لنكتب عليه. لا يمكننا العيش دون الأرز.

- لكن الرائحة يا ماريكو سان.

- إنها ثمن صغير ندفعه مقابل كل هذا الكرم، أليس كذلك؟ فقط افعل كما نفعل، افتح عينيك وأذنك وعقلك. استمع إلى الرياح والأمطار والحشرات والطيور، استمع إلى النباتات وهي تنمو، وتخيل أجيالك القادمة حتى نهاية الزمان في عقلك. إذا فعلت ذلك يا أنجين سان، سرعان ما ستشتم جمال الحياة فقط. يتطلب ذلك تدريباً... ولكنك ستصبح يابانياً جداً، أليس كذلك؟

- شكراً لك يا سيدتي. لكنني أعترف أنني بدأت أحب الأرز. نعم. وأنا بالتأكيد أفضله على البطاطس، وتعرفين أمراً آخر... لم أعد أفقد اللحم كما كنت. أليس ذلك غريباً؟ ولم أعد أشعر بالجوع كما كنت.

- أنا جائعة أكثر من أي وقت مضى.

- كنت أتحدث عن الطعام.

- وأنا كذلك...

بعد ثلاثة أيام من مغادرتهم ممر هاكوني، بدأت ماريكو دورتها الشهرية وطلبت منه أن يقضي ليلته مع إحدى خادמות النزل. قالت: «سيكون ذلك من الحكمة يا أنجين سان».

- أفضل ألا أفعل، أعذر.

- رجاءً، أطلب منك ذلك. إنه إجراء احترازي. احتياط.

- لأنك تطلبين ذلك، إذن نعم. ولكن غداً، وليس الليلة. الليلة دعينا ننم بسلام.

فكرت ماريكو: نعم، تلك الليلة نمنا بسلام، وكان الفجر التالي جميلاً جداً لدرجة أنني تركت دفئه وجلست على الشرفة مع تشيموكو وشهدت ولادة يوم آخر.

كانت جيوكو تقف عند مدخل الحديقة وتنحني لها وتقول: «صباح الخير يا سيدة تودا. إنه فجر رائع، أليس كذلك؟».

- بلى، جميل.
- هل يمكنني أن أقاطعك؟ هل يمكنني التحدث معك... على انفراد؟ في مسألة تجارية.
- بالطبع.
- غادرت ماريكو الشرفة لكي لا تزعج نوم أنجين سان. وأرسلت تشيموكو لجلب الشاي وأمرت بوضع أغطية على العشب بالقرب من الشلال الصغير.
- عندما كن بمفردهن وحان الوقت المناسب للبدء، قالت جيوكو: «كنت أفكر كيف يمكنني أن أكون أكثر فائدة لتوراناجا ساما».
- الألف كوكو ستكون أكثر من سخية.
- قد تكون ثلاثة أسرار أكثر سخاءً.
- قد يكون سرٌّ واحدٌ كافياً يا جيوكو سان، إذا كان السر المناسب.
- إن أنجين سان رجل جيد، أليس كذلك؟ يجب مساعدته في مستقبله أيضاً، أليس كذلك؟
- أجابت وهي تعلم أن وقت المساومة قد حان، وتتساءل عما يجب أن تتنازل عنه، إذا كانت تجرؤ على التنازل عن أي شيء: «أنجين سان لديه الكارما الخاصة به. كنا نتحدث عن الزعيم توراناجا، أليس كذلك؟ أم أن أحد الأسرار يتعلق بأنجين سان؟».
- لا يا سيدتي. كما قلت، أنجين سان لديه الكارما الخاصة به، وأنا متأكدة أن لديه أسراراً خاصة به. لقد خطر ببالي فقط أن أنجين سان هو أحد التابعين المفضلين للزعيم توراناجا، لذا فإن أي حماية يحصل عليها الزعيم تساعد تابعيه بطريقة ما، أليس كذلك؟
- أوافقك الرأي. بالطبع، إنه من واجب التابعين تقديم أي معلومات قد تساعد زعيمهم.
- صحيح يا سيدتي، صحيح تماماً. إنه لشرف لي أن أخدمك. حقاً. هل يمكنني إخبارك كم أنا مشرفة بالسماح لي بالسفر معك، والتحدث معك، وتناول الطعام والضحك معك، وأن أكون مستشارة متواضعة أحياناً، مهما كانت قدراتي محدودة، والتي أعذر عنها. وأخيراً لأقول إن حكمتك عظيمة كجمالك، وشجاعتك ضخمة كرتبتك.

- اعذريني يا جيوكو سان، أنتِ لطيفة جدًا ومراعية. أنا مجرد زوجة لأحد قادة زعيمى. ماذا كنتِ تقولين؟ أربعة أسرار؟
- ثلاثة يا سيدتي. كنت أتساءل عما إذا كنتِ ستتوسطين لدى الزعيم توراناغا من أجلي. سيكون من المستحيل بالنسبة لي أن أخبره مباشرة ما أعلم أنه صحيح. سيكون ذلك تصرفًا سيئًا للغاية لأنني لن أعلم الكلمات المناسبة لاختيارها، أو كيف أقدم المعلومات له. وفي كل الأحوال، في الأمور المهمة، من عاداتنا أن نستخدم وسيطًا، أليس كذلك؟
- بالتأكيد ستكون كيوكو سان خيارًا أفضل؟ ليس لديَّ طريقة لمعرفة متى سأستدعى أو كم من الوقت قد يستغرق قبل أن أتمكن من مقابله، أو حتى إذا كان سيهتم بالاستماع إلى ما قد أقول له.
- عذرًا يا سيدتي، ولكنك ستكونين الخيار الأفضل. يمكنكِ تقييم قيمة المعلومات، بينما هي لا تستطيع. أنتِ تملكين أذنه، أما هي فتمتلك أشياء أخرى.
- أنا لستُ مستشارة يا جيوكو سان. ولا مقيمة للأسرار.
- أقول إن هذه الأسرار تساوي ألف كوكو.
- حقًا؟
- تأكدت جيوكو تمامًا من أن لا أحد كان يستمع، ثم أخبرت ماريكو ما همسه الكاهن المسيحي المرتد بصوت عالٍ، والذي نقله الزعيم أونوشي له في الاعتراف، والذي نقله إلى عمه الزعيم هاروما. ثم ما سمعه الطباخ الثاني لأومي عن مؤامرة أومي ووالدته ضد يابو. وأخيرًا كل ما تعرفه عن زاتاكي ورغبته الواضحة في السيدة أوتشيبا، وعن إيشيدو والسيدة أوتشيبا...
- استمعت ماريكو بتمعن دون تعليق، رغم أن خرق سرية الاعتراف قد صدمها بشدة. كانت أفكارها تزدحم بالاحتمالات اللاحصر لها التي فتحتها هذه المعلومات. ثم استجوبت جيوكو بحذر لتتأكد من أنها فهمت تمامًا ما قيل لها، ولتحفظ كل شيء في ذاكرتها.

عندما شعرت بالرضا لأنها تعرف كل ما كانت جيوكو مستعدة للكشف عنه في تلك اللحظة -لأنه من الواضح أن مفاوضة ماهرة مثلها كانت دائمًا تحتفظ بالكثير للاحتياط- أرسلت لإحضار شاي جديد.

سكبت كوب جيوكو بنفسها، واحتستا الشاي برقة. كلتاها حذرة وواثقة.

- ليست لدي وسيلة لمعرفة مدى قيمة هذه المعلومات يا جيوكو سان.

- بالطبع يا ماريكو ساما.

- أتصور أن هذه المعلومات -والألف كوكو- ستسعد الزعيم توراناغا كثيرًا.

كبحت جيوكو الكلام البذيء الذي كان على طرف لسانها. كانت تتوقع تخفيضًا كبيرًا في العرض الأولي. قالت بنبرة حادة: «عذرًا، ولكن المال لا قيمة له عند دايميو كهذا، رغم أنه إرث ثمين بالنسبة لفلاحة مثلي. ألف كوكو تجعلني جدة، أليس كذلك؟ يجب على المرء دائمًا أن يعرف مكانته يا سيدة تودا. أليس كذلك؟».

- بلى. من الجيد أن يعرف المرء مكانته، ومن هو يا جيوكو سان. هذه إحدى الهبات النادرة التي تتمتع بها المرأة على الرجل. فالمرأة تعرف دائمًا. ولحسن الحظ أنا أعرف من أكون. نعم، أعرف جيدًا. رجاء ادخلي في صلب الموضوع.

لم تترد جيوكو تحت التهديد بل هاجمت بالإيجاز اللفظ نفسه: «الموضوع هي أننا نعلم الحياة ونفهم الموت، ونؤمن أن المعاملة في الجحيم وفي كل مكان آخر تعتمد على المال».

- هل نعلم؟

- نعم. عذرًا ولكن أعتقد أن ألف كوكو مبلغ كبير للغاية.

- هل الموت أفضل إذن؟

- لقد كتبت قصيدة موتي بالفعل يا سيدتي:

«عندما أموت،

لا تحرقوني،

ولا تدفنوني،

فقط ألقوا بجسدي في حقل

لتطعموا كلبًا جائعًا».

- يمكن ترتيب ذلك بسهولة.

- نعم. لكنَّ لديَّ آذانًا طويلة ولسانًا أمينًا، وهذا قد يكون أكثر أهمية.

سكبت ماريكو مزيدًا من الشاي. لنفسها. وقالت: «عذرًا، هل لديك؟».

- نعم، نعم بالتأكيد. عذرًا ولكنه ليس تفاخرًا أنني تدربت جيدًا يا سيدتي، في هذا وفي أمور أخرى كثيرة. لا أخشى الموت. لقد كتبت وصيتي وأعطيت تعليمات مفصلة لعشيرتي في حال حدوث وفاة مفاجئة. لقد تصالحت مع الآلهة منذ زمن طويل، وأعلم أنني بعد أربعين يومًا من وفاتي سأولد من جديد. وإذا لم يحدث ذلك (هزت المرأة كتفها وكانت مروحتها ثابتة) فإنني سأصبح كامى. لذا يمكنني الطموح في الوصول إلى القمر، أليس كذلك؟ عذرًا على ذكر ذلك، لكنني مثلك: لا أخاف شيئًا. لكن على عكسك في هذه الحياة... ليس لديَّ ما أخسره.

كانت ماريكو تستعد لإظهار أنيابها: «الكثير من الحديث عن أمور شريرة يا جيوكو سان، في مثل هذا الصباح الجميل. إنه جميل، أليس كذلك؟ أفضل بكثير أن أراك حية، تعيشين حتى سن متقدمة بشرف، كأحد أعمدة نقابتك الجديدة. كانت تلك فكرة رقيقة للغاية. فكرة جيدة يا جيوكو سان».

- شكرًا يا سيدتي. وبالمثل، سأحب أن أراك آمنة وسعيدة ومزدهرة بالطريقة التي ترغبين بها. مع كل الألعاب والأوسمة التي تحتاجينها. كررت ماريكو وقد أصبحت خطرة الآن: «ألعاب؟».

كانت جيوكو ككلب مدرب يقترب من رائحة فريسة. قالت: «أنا مجرد فلاحه يا سيدتي، لذا لا أعلم ما الأوسمة التي ترغبين بها، أو الألعاب التي تسعدك. أو تسعد ابنك».

انكسرت العصا الخشبية الرفيعة لمروحة ماريكو بين أصابعها دون أن تلاحظ أي منهما. توقف النسيم. وأصبح الآن الهواء الحار الرطب يغطي الحديقة التي تطل على بحر بلا موج. كان الذباب يحوم ويستقر ثم يحوم مجددًا.

- ما... ما الأوسمة أو الألعاب التي ترغبين بها؟ لنفسك؟

نظرت ماريكو إلى المرأة الأكبر سنًا بافتتان حاقدة، وهي تدرك بوضوح الآن أنها يجب أن تدمر هذه المرأة وإلا فإن ابنها سيهلك.

- لا شيء لنفسي. منحني الزعيم تورانا جا أوسمة وثروات تفوق أحلامي.
- ولكن لابني؟ نعم، يمكنه أن يتلقى يد العون.
- أي عون؟
- سيفان.
- مستحيل.
- أعلم يا سيدتي. اعتذر. من السهل أن يُمنَح ذلك، ولكنه مستحيل. إن الحرب قادمة. وستكون هناك حاجة للكثيرين إلى القتال.
- لن تكون هناك حرب الآن. الزعيم تورانا جا ذاهب إلى أوساكا.
- سيفان. هذا ليس طلبًا كبيرًا.
- هذا مستحيل. عذرًا، هذا ليس لي لأمنحه.
- سقطت قطرة عرق من وجه جيوكو على حضنها وقالت: «عذرًا، لكنني لم أطلب منك شيئًا. ولكن هذا هو الشيء الوحيد الذي سيسعدني. نعم. لا شيء آخر. أودُّ أن أقدم للزعيم تورانا جا خمسمائة كوكو من ثمن العقد، كرمز لتقديرِي في هذه الأوقات العصيبة. والخمسمائة الأخرى ستذهب لابني. الساموراي يحتاج إلى ميراث، أليس كذلك؟».
- أنتِ تحكمين على ابنك بالموت. جميع ساموراي تورانا جا سيموتون أو سيصبحون رونينًا قريبًا.
- كارما. ابني لديه أبناء بالفعل يا سيدتي. سيخبرون أبناءهم يومًا ما بأننا كنا ساموراي. هذا كل ما يهم، أليس كذلك؟
- هذا ليس لي لأمنحه.
- صحيح. عذرًا. ولكن هذا هو كل ما سيرضييني.

هز تورانا جا رأسه وقال: «معلوماتها مثيرة للاهتمام -ربما- لكنها لا تستحق أن أجعل ابنها ساموراي».

أجابت ماريكو: «تبدو وكأنها تابعة مخلصَة يا سيدي. لقد قالت إنها ستتشرف إن خصمت خمسمائة كوكو إضافية من ثمن العقد لصالح بعض الساموراي المحتاجين».

- هذا ليس كرمًا، لا، إطلاقًا. إنه مجرد شعور بالذنب بسبب الثمن الفاحش الأولي.

- ربما يكون السعر يستحق النظر فيه يا سيدي. فكرتها عن النقابة وعن الجيش والطبقات الجديدة من المحظيات ستكون لها تأثيرات بعيدة المدى، أليس كذلك؟ قد لا يضر الأمر، ربما.

- لا أتفق معك. لا. لماذا يجب أن تُكافأ؟ لا يوجد سبب لمنحها هذا الشرف. هذا سخيف. بالتأكيد لم تطلب منك ذلك، أليس كذلك؟

- لكان من الوقاحة الشديدة أن تفعل ذلك يا سيدي. لقد قدمت الاقتراح لأنني أعتقد أنها قد تكون ذات فائدة كبيرة لك.

- من الأفضل أن تكون أكثر فائدة. ربما تكون أسرارها كاذبة أيضًا. لا أتلقي سوى الأكاذيب هذه الأيام.

قرع تورانا جرسًا صغيرًا، وظهر مساعده فورًا عند الباب البعيد.

- سيدي؟

- أين المحظية كيكو؟

- في حجرتك يا سيدي.

- هل المرأة جيوكو معها؟

- نعم يا سيدي.

- أرسلهما خارج القلعة. في الحال. أرسلهما إلى... لا، أسكنهما في نزل -من الدرجة الثالثة- وأخبرهما أن ينتظرا هناك حتى أستدعيهما.

تابع تورانا جحدة بينما اختفى الرجل: «يا للقرف! قوادون يريدون أن يصبحوا ساموراي؟ الفلاحون القذرون لا يعرفون مكانهم بعد الآن».

راقبته ماريكو وهو جالس على وسادته ويحرك مروحته بتكاسل. كانت مضطربة من التغير الذي طرأ عليه. الكآبة والانزعاج والغضب، حيث لم يكن في السابق سوى الثقة المفعمة بالحيوية. لقد استمع إلى الأسرار باهتمام، لكن ليس بالحماسة التي كانت تتوقعها. فكرت بشفقة: مسكين، لقد استسلم. ما فائدة أي معلومات له الآن؟ ربما هو حكيم في التخلي عن أمور الدنيا والاستعداد للمجهول. فكرت وشعرت بأنها تموت من الداخل أكثر: من الأفضل

لك أن تفعل ذلك أيضًا. نعم، لكن لا يمكنك فعل ذلك، ليس بعد، يجب عليك حماية ابنك بطريقة ما.

كانا في الطابق السادس من البرج المحصن المرتفع، والنوافذ تطل على المدينة بأكملها تقريبًا من ثلاث جهات. كان غروب الشمس مظلماً الليلة، والمحاق منخفضاً في الأفق، والهواء الرطب خانقاً رغم أن الغرفة هنا -على ارتفاع يقارب ثلاثين متراً فوق أرضية أسوار القلعة- تجمع كل نسمة هواء. كانت الغرفة منخفضة ومحصنة وتحتل نصف الطابق بالكامل، مع غرف أخرى خلفها.

التقط تورانا جا الرسالة التي أرسلها هيرو ماتسو مع ماريكو وقرأها مجدداً. لاحظت اهتزاز يده.

ألقي تورانا جا اللفافة جانباً بنفاد صبر وقال: «لماذا يريد القدوم إلى إيدو؟».

- لا أعلم يا سيدي، عذراً. لقد طلب مني فقط أن أعطيك هذه الرسالة.
- هل تحدثت مع المسيحي المرتد؟
- لا يا سيدي. قال يوشيناكا سان إنك قد أعطيت أوامر بعدم التحدث معه.
- كيف كان يوشيناكا في أثناء الرحلة؟
- قالت بصبر، مجيبة عن السؤال للمرة الثانية: «كان كُفئاً للغاية يا سيدي. ماهراً جداً. لقد حمانا جيداً وأوصلنا في الوقت المحدد بالضبط».
- لماذا لم يكمل الكاهن تسوكو سان الطريق معكم؟
- لقد تشاجر هو وأنجين سان في الطريق من ميشيما يا سيدي.
- أخبرته ماريكو وهي لا تعلم ما قد قاله الأب ألفيتو لتورانا جا بالفعل، أو إذا كان قد استدعاه تورانا جا بعد. تابعت: «قرر الأب السفر وحده».
- ما سبب الشجار؟

- جزء منه كان بسببي، بسبب روعي يا سيدي. والأكثر كان بسبب عدائهم الديني وبسبب الحرب بين حكامهم.
- من بدأ؟

قالت: «كانا كلاهما مُلاماً على حد سواء. بدأ الشجار بسبب قارورة خمر». أخبرته ماريكو ما حدث مع رودريجز ثم واصلت: «أحضر تسوكو

سان قارورة ثانية كهدية، حسب قوله إنه يريد التوسط لرودريجز سان، لكن أنجين سان قال بفظاظة صادمة إنه لا يريد أي «خمر بابوي» ويفضل الساكي، وإنه لا يثق بالكهنة. استشاط الأب المقدس غضبًا وأجابه بفظاظة مماثلة، قائلاً إنه لم يتعامل قط مع السموم، ولن يفعل ذلك أبدًا، ولا يمكنه التسامح مع شيء من هذا القبيل».

- سم؟ هل يستخدمون السم كسلاح؟

- أخبرني أنجين سان أن بعضهم يفعلون يا سيدي. أدى ذلك إلى مزيد من الكلمات العنيفة ثم بدؤوا يتشاجرون حول الدين، وحول روعي، وحول الكاثوليك والبروتستانت... غادرتُ لجلب يوشيناكا سان بأسرع ما يمكن، وقد أوقف الشجار.

- الهمج لا يجلبون سوى المتاعب. المسيحيون لا يجلبون سوى المتاعب، أليس كذلك؟

لم تجبه. إذ إن غضبه أربكها. كان ذلك على غير عادته ولا يوجد سبب واضح لهذا الانهيار في سيطرته الأسطورية على نفسه. فكرت: ربما كانت الصدمة الناتجة عن الهزيمة أكثر مما يحتمل. فمن دونه نحن جميعًا هالكون، وابني هالك، وقريبًا ستكون الكانتو في أيدي الآخرين. كانت كآبته تأثر عليها. لاحظت الأجواء الكئيبة في الشوارع وفي القلعة والتي تبدو وكأنها تخيم على المدينة بأكملها، مدينة اشتهرت بمرحها وحسها الفكاهي وسعادتها بالحياة. قال توراناغا: «لقد وُلدت في العام الذي وصل فيه أول المسيحيين، ومنذ ذلك الحين لم يجلبوا سوى الفساد لهذه الأرض. لثمانية وخمسين عامًا لم نحصل سوى على المتاعب، أليس كذلك؟».

- أعتذر إن كانوا يزعجونك يا سيدي. هل هناك شيء آخر؟ إذا سمحت...

- اجلسي. لم أنتهِ بعد.

قرع توراناغا الجرس مجددًا. فُتِح الباب. وقال: «أدخل بونتارو سان». دخل بونتارو بوجه عابس. جثا وانحنى. انحنى له بتخدر، لكنه لم يلتفت إليها.

التقى بونتارو موكبهم عند بوابة القلعة قبل قليل. بعد تحية مقتضبة، أخبرها أنها يجب أن تذهب فورًا إلى الزعيم توراناغا. وسيُستدعى أنجين سان لاحقًا.

- بونتارو سان، طلبت أن تقابلني بحضور زوجتك في أقرب وقت.

- نعم يا سيدي.

- ماذا تريد؟

قال بونتارو: «أطلب بكل تواضع الإذن بقطع رأس أنجين سان».

- لماذا؟

- أرجو أن تعذرني، ولكنني... لا أحب الطريقة التي ينظر بها إلى زوجتي.

أردت... أردت أن أقول ذلك أمامها للمرة الأولى، بحضورك. أيضًا لقد

أهانني في أنجيرو، ولم أعد أستطيع العيش مع هذا العار.

نظر تورانجا إلى ماريكو التي بدت وكأن الزمن تجمد عندها. سأل: «هل

تتهمها بتشجيعه؟».

- أنا... أطلب الإذن بقطع رأسه.

- هل تتهمها بتشجيعه؟ أجب عن السؤال.

أجاب بونتارو بقسوة وعيناه موجهتان نحو التاتامي: «أرجو أن تعذرني

يا سيدي، ولكن لو كنت أعتقد ذلك، لكان من واجبي أن أقطع رأسها في

اللحظة ذاتها. هذا الهمجي يسبب إزعاجًا دائمًا لانسجامي. أعتقد أنه يمثل

إزعاجًا لك أيضًا. اسمح لي بأن أزيل رأسه، أرجوك». نظر إلى الأعلى، كان

فكاه غير مخلوقين وعيناه مرهقتين وتابع: «أو دعني آخذ زوجتي الآن، وهذه

الليلة سنذهب أمامك... لتهيئة الطريق».

- ما رأيك في ذلك يا ماريكو سان؟

- إنه زوجي. سأفعل ما يقرره... إلا إذا عارضت قراره يا سيدي. هذا

واجبي.

نظر تورانجا إلى الرجل والمرأة. ثم احتد صوته، وعاد للحظة ليصبح

تورانجا القديم حيث قال: «ماريكو سان، ستغادرين إلى أوساكا خلال ثلاثة

أيام. ستهيئين ذلك الطريق لي وتنتظرينني هناك. وأنت يا بونتارو سان،

سترافقني كقائد لحراسي عندما أغادر. وبعد أن تساعدني في السيوكو،

يمكنك أنت أو أحد رجالك أن تفعل الأمر ذاته مع أنجين سان... سواء وافق

أم لا».

نظف بونتارو حلقه وقال: «سيدي، أرجو أن تأمر...».

- اخرس. هل نسيت نفسك. لقد قلت لك «لا» ثلاث مرات. في المرة القادمة التي تتجراً فيها على تقديم نصيحة غير مرغوبة، سيُشَقُّ بطنُك في مجاري إيدو.

انحنى بونتارو حتى لامس رأسه التاتامي وقال: «أعتذر يا سيدي. أعتذر عن وقاحتي».

كانت ماريكو مذعورة بالقدر نفسه من انفعال توراناغا السيئ السلوك والمخزي، فانحنت هي الأخرى لتخفي إحراجها. قال توراناغا بعد لحظة: «أرجو أن تعذرني على غضبي. لقد قبلت طلبك يا بونتارو سان، ولكن فقط بعد أن تؤدي واجبك كمساعد لي».

- شكراً لك يا سيدي. أرجو أن تعذرني على إزعاجك.

- لقد أمرتكما بإصلاح الأمور بينكما. هل فعلتما ذلك؟

أوما بونتارو بإيجاز، وكذلك ماريكو.

- جيد. ستعودين مع أنجين سان الليلة يا ماريكو سان، في تمام ساعة الكلب. يمكنك الانصراف الآن.

انحنت وغادرت.

حدق توراناغا إلى بونتارو وسأله: «حسناً؟ هل تتهمها؟».

أجاب بونتارو بتجهم: «من... من المستحيل أن تخونني يا سيدي».

لوح توراناغا بمروحته ليبعد ذبابة وهو يبدو مرهقاً. قال: «أوافقك الرأي. حسناً، يمكنك الحصول على رأس أنجين سان قريباً. لكنني أحتاج رأسه على كتفيه لبعض الوقت».

- شكراً لك يا سيدي. أرجو أن تعذرني مجدداً على إزعاجك.

انحنى توراناغا للأمام وقال: «إنها أوقات مزعجة. أوقات كريهة. استمع، أريدك أن تذهب إلى ميشيما على الفور لتريح والدك لبضعة أيام. لقد طلب الإذن بالحضور إلى هنا للتشاور معي. لا أعلم ما... على أي حال، يجب أن يوجد شخص أثق به في ميشيما. هل يمكنك المغادرة عند الفجر؟ لكن عبر طريق تاكاتو».

- عذراً؟

- رأى بونتارو أن تورانا جا يبذل جهدًا هائلًا للبقاء هادئًا، رغم أن صوته كان يرتعش رغم إرادته.
- لديّ رسالة خاصة لوالدتي في تاكاتو. يجب ألا تخبر أحدًا أنك ذاهب إلى هناك. ولكن حالما تغادر المدينة، اتجه شمالًا.
 - فهمت.
 - قد يحاول الزعيم زاتاكي منعك من تسليمها... قد يحاول ذلك. عليك أن تسلمها إلى يديها فقط. هل فهمت؟ إليها وحدها. خذ عشرين رجلًا واندفع إلى هناك. سأرسل حمامة زاجلة لطلب مرور آمن منه.
 - هل ستكون الرسالة شفوية أم مكتوبة يا سيدي؟
 - مكتوبة.
 - وماذا إذا لم أتمكن من تسليمها؟
 - يجب أن تسلمها، بالطبع يجب. لهذا اخترتك. ولكن... إذا تعرضت للخيانة كما أنا... إذا تعرضت للخيانة، دمرها قبل أن تنتحر. في اللحظة التي أسمع فيها مثل هذه الأخبار السيئة، سينفصل رأس أنجين سان عن كتفيه. وإذا... ماذا عن ماريكو سان؟ ماذا عن زوجتك، إذا حدث خطأ ما؟
 - أرجو أن تقتلها يا سيدي قبل أن تموت أنت. سأتشرف إذا... إنها تستحق مساعدًا جديرًا.
 - لن تموت بشكل مُخزٍ، أعدك بذلك. سأعتني بالأمر بنفسني. والآن عد رجاءً عند الفجر لتستلم الرسالة. لا تخذلني. سلمها فقط إلى يدي والدتي.
 - شكر بونتارو تورانا جا مجددًا وغادر، وهو يشعر بالخجل من مظاهر خوف تورانا جا الواضحة.
 - بعدما أصبح تورانا جا وحيدًا الآن، أخرج منديلًا ومسح العرق عن وجهه. كانت أصابعه ترتعش. حاول السيطرة عليها لكنه لم يستطع. كان عليه بذل كل قوته لمواصلة التظاهر بالغباء والحماقة لإخفاء حماسه الكبير تجاه الأسرار التي جلبت له أملًا طال انتظاره.

قال بصوت عالٍ وهو بالكاد قادرٌ على التفكير: «فرصة محتملة، فقط محتملة... إذا كانت المعلومات صحيحة».

كانت المعلومات المذهلة التي جلبتها ماريكو من المرأة جيوكو لا تزال تطن في رأسه.

كان يفكر بشماتة: أوتشيبيا... إذن تلك الماكرة هي الطُعم الذي سيجعل أخي يخرج من عرينه الجبلي. أخي يريد أوتشيبيا. ولكن من الواضح أيضًا الآن أنه يريد أكثر منها، وأكثر من مجرد مقاطعات الكانتو. إنه يريد المملكة بأكملها. إنه يكره إيشيدو ويحتقر المسيحيين، وهو الآن مريض بالغيرة بسبب شهوة إيشيدو المعروفة تجاه أوتشيبيا. لذا سيتشاجر مع إيشيدو وكياما وأونوشي. لأن ما يريده أخي الخائن حقًا هو أن يصبح شُوجِن. إنه من سلالة مينووارا، ويملك كل الأنساب اللازمة وكل الطموح، ولكن ليس لديه التفويض. أو الكانتو. عليه الحصول على الكانتو أولاً ليحصل على الباقي.

فرك توراناغا يديه بسرور بسبب الحيل الجديدة الرائعة الممكنة التي أتاحتها له هذه المعرفة الجديدة ضد أخيه.

فكر: وأونوشي المُصاب بالجدام! الهمس بقطرة عسل في أذن كياما في الوقت المناسب، مع تحريف خيانة المرتد قليلاً وتحسينها بتذل، وقد يجمع كياما جحافله ويطارد أونوشي بالنار والسيوف على الفور. «إن جيوكو واثقة تمامًا يا سيدي. قال المتدرب الأخ يوسف إن الزعيم أونوشي قد همس في الاعتراف بأنه أبرم معاهدة سرية مع إيشيدو ضد دايميو مسيحي آخر وطلب المغفرة. المعاهدة اتفقت رسميًا على أنه مقابل الدعم الآن، وعد إيشيدو بأنه في اليوم الذي تموت فيه، سيُتهم هذا الدايميو المسيحي بالخيانة وسيُقتل في اليوم نفسه، بالقوة إن لزم الأمر، وسيُرب ابن أونوشي وريثه جميع الأراضي. لم يُذكر اسم المسيحي يا سيدي».

سأل توراناغا نفسه: كياما أم هاريمان ناجازاكي؟ لا يهم. بالنسبة لي يجب أن يكون كياما.

نهض بصعوبة رغم ابتهاجه، وتحسس طريقه إلى إحدى النوافذ، واستند بثقل إلى إطارها الخشبي. نظر إلى القمر والسماء من ورائه. كانت النجوم باهتة. والسحب الممطرة تتجمع.

- يا بوذا وجميع الآلهة، أي آلهة، دع أخي يبتلع الطعام... ودع أقوال تلك المرأة تكون صحيحة.

لم يظهر أي شهاب ليشير إلى أن الرسالة قد وصلت إلى الآلهة. لم تهب رياح ولم تغط سحابة مفاجئة الهلال. حتى لو ظهرت أي علامة سماوية، لكان قد تجاهلها واعتبرها مجرد مصادفة.

أخبر نفسه: كن صبورًا. انتبه إلى الحقائق فقط. اجلس وفكر.

كان يعلم أن الضغط بدأ يظهر عليه ولكن كان من الضروري ألا يشك أحد من مقربيه أو أتباعه -وبالتالي لا أحد من جحافل الحمقى الذين لا يؤمنوا على سر أو جواسيس إيدو- للحظة واحدة أنه كان يتظاهر فقط بالاستسلام ويمثل دور الرجل المهزوم. لقد أدرك في يوكوسي على الفور أن قبول اللقافة الثانية من أخيه كان بمنزلة ناقوس موته. لذا قرر أن فرصته الوحيدة للنجاة هي إقناع الجميع -حتى نفسه- بأنه قبل الهزيمة تمامًا، رغم أنه في الحقيقة كان يستخدم ذلك كغطاء لكسب الوقت، متابعًا نمطه الدائم المتمثل في التفاوض والتأجيل والتظاهر بالتراجع، منتظرًا بصبر حتى يظهر ثغرة في درع العدو فوق الوريد، ثم ينقض بوحشية دون تردد.

منذ مغادرة يوكوسي، قضى الساعات الموحشة من الليالي والأيام في الانتظار، كل واحدة منها أصعب من الأخرى. لم يكن هناك صيد أو ضحك، ولا مؤامرات أو تخطيط أو سباحة أو مزاح أو الرقص والغناء في عروض «نوه» التي لطالما أمتعته طوال حياته. فقط الدور الوحيد نفسه، الأصعب في حياته: الحزن والاستسلام والتردد والعجز الظاهر، مع الجوع الذي فرضه على نفسه.

ولتمضية الوقت، استمر في تحسين الوصية، وهي سلسلة من التعليمات السرية الخاصة التي وضعها على مدار السنين لورثته حول أفضل الطرق للحكم بعده. لقد أقسم سودارا بالفعل على الالتزام بالوصية، كما سيكون كل وريث من بعده مطالبًا بذلك. بهذه الطريقة سيضمن مستقبل العشيرة... ذكر توراناغا نفسه بينما كان يغيّر كلمة أو يضيف جملة أو يحذف فقرة: قد يُضمن، شريطة أن أنجو من هذا الفخ الحالي.

بدأت الوصية كالتالي: «واجب زعيم المقاطعة هو توفير السلام والأمن للشعب، ولا يكمن في تمجيد أجداده أو العمل من أجل ازدهار ذريته...».

كانت إحدى الحكم تقول: «تذكر أن الحظ وسوء الحظ يجب أن يُتركا للسماء وقانون الطبيعة. فلا يمكن شراؤهما بالصلاة أو بأي حيلة مأكرة يبتكرها أي إنسان أو قديس مدع».

حذف تورانا جا عبارة «... أو قديس مدع». وعدّل الجملة لتصبح «... من قبل أي إنسان كان».

عادةً ما كان يستمتع بشحن عقله ليكتب بوضوح واختصار، لكن خلال الأيام والليالي الطويلة، كان يتطلب الأمر كل انضباطه الذاتي للاستمرار في لعب هذا الدور الغريب.

نجاحه في هذا الأمر أبهجه وأزعجه في الوقت نفسه. كيف للناس أن يكونوا بهذه السذاجة؟

أجاب نفسه للمرة المليون: الحمد للآلهة أنهم كذلك. لقد تمكنت من تجنب الحرب مرتين بقبولك للهزيمة. أنت لا تزال محاصرًا، ولكن الآن أخيرًا قد جلب صبرك مكافأته وأصبحت لديك فرصة جديدة.

صحح نفسه: ربما لديك فرصة، ما لم تكن الأسرار كاذبة ومقدمة من عدو بهدف الإيقاع بك أكثر.

بدأ صدره يؤلمه وداهمه الضعف والدوار، لذا جلس وأخذ نفسًا عميقًا كما علمه معلمو الزن منذ سنوات: «عشرة أنفاس بعمق ثم عشرة ببطء، عشرة أنفاس بعمق ثم عشرة ببطء، أرسل عقلك إلى الفراغ. حيث لا يوجد ماضٍ أو مستقبل، لا حرارة أو برودة، لا ألم أو فرح. من لا شيء إلى لا شيء...».

سرعان ما بدأ يفكر بوضوح مجددًا. ثم توجه إلى مكتبه وبدأ في الكتابة. طلب من والدته أن تكون وسيطة بينه وبين أخيه غير الشقيق، وأن تقدم له عرضًا يتعلق بمستقبل عشيرتهم. أولًا: طلب من أخيه النظر في الزواج بالسيدة أوتشيبا: «بالطبع سيكون من المستحيل فعل ذلك بنفسي يا أخي. سيغضب العديد من الدايميو من «طموحي المتعالي». لكن مثل هذا الارتباط معك سيعزز سلام المملكة، ويؤكد خلافة يايمون، ولن يشك أحد في ولائك، رغم أنه قد يخطئ البعض ويشكُّون في ولائي. يمكنك بالتأكيد الحصول على زوجة جديدة أكثر منها، لكنها لن تجد زوجًا أفضل منك. فور التخلص من خونة جلالة الإمبراطور، وعندما أستعيد مكاني الشرعي رئيسًا لمجلس الوصاية، سأدعو ابن السماء لطلب الزواج إذا وافقت على تحمل هذا العبء».

أشعر بصدق أن هذه التضحية هي الطريقة الوحيدة التي يمكننا من خلالها تأمين الخلافة والقيام بواجبنا الذي أقسمنا عليه تجاه التايكو. ثانيًا: يُقدم لك جميع أراضي الخونة المسيحيين كياما وأونوشي، الذين يتآمرون حاليًا مع الكهنة الهمج لشن حرب خائنة ضد جميع الدايميو غير المسيحيين، مدعومين بغزو الهمج المسلحين بالبنادق، كما فعلوا سابقًا مع زعيمنا الإقطاعي التايكو. علاوة على ذلك، يُقدم لك جميع أراضي المسيحيين الآخرين في كيوشو الذين يقفون إلى جانب الخائن إيشيدو ضدي في المعركة النهائية. (هل تعلم أن ذلك الفلاح المتعجرف قد تجرأ على الإعلان إلى أنه فورَ موتي وتوليّ الحكم على الأوصياء، فهو يخطط لحل المجلس والزواج من والدته الوريث بنفسه؟).

وفي المقابل لكل ما سبق، فقط هذا يا أخي: معاهدة سرية للتحالف الآن، وضمان مرور آمن لجيوشي عبر جبال شينانو، وهجوم مشترك تحت قيادتي على إيشيدو في الوقت والطريقة التي أختارها. وأخيرًا: كدليل على ثقتي، سأرسل في الحال ابني سودارا وزوجته السيدة جينجيكو وأطفالهم -بما في ذلك حفيدي الوحيد- إليك في تاكاتو....».

قال توراناغا لنفسه وهو يغلق اللقافة: هذا ليس تصرف رجل مهزوم. سيعلم زاتاكي ذلك على الفور. نعم، ولكن الفخ قد نُصب الآن. إن شينانو تعترض طريقي الوحيد، وزاتاكي هو المفتاح الأول لسهول أوساكا.

هل صحيح أن زاتاكي يريد أوتشيبيا؟ أنا أخاطر بالكثير بناءً على همسات خادمة ورجل يثن. هل يمكن أن تكون جيوكو تكذب من أجل مصلحتها الخاصة، تلك مصاصة الدماء الوقحة! ساموراي؟ إذن هذا هو المفتاح الحقيقي للكشف عن كل أسرارها.

لا بد أنها تملك دليل على علاقة ماريكو وأنجين سان. وإلا فلماذا ستقدم لي ماريكو مثل هذا الطلب؟ تودا ماريكو والهمجي! الهمجي وبونتارو! الحياة غريبة.

شعر بوخزة أخرى في قلبه جعلته يتألم. وبعد لحظة كتب رسالة لحمامة زاجلة وتوجه بخطى ثقيلة إلى العلية. اختار حمامة تاكاتو بعناية من بين السلال العديدة وأدخل الأسطوانة الصغيرة في مكانها. ثم وضع الحمامة على الغصن في الصندوق المفتوح الذي سيتيح لها الطيران عند أول ضوء.

كانت الرسالة تطلب من والدته أن تلتمس مروراً آمناً لبونتارو، الذي لديه رسالة مهمة لها ولأخيه. وقد وقع الرسالة مثلما وقع العرض، يوشي توراناغا نو مينووارا، مدعيًا بذلك اللقب لأول مرة في حياته.

قال وهو يلاطفها بريشة ساقطة: «طيري بأمان ودقة يا أيتها الحمامة الصغيرة، أنتِ تحملين إرثاً عمره عشرة آلاف سنة».

اتجهت عيناه نحو المدينة في الأسفل مجدداً. بدأ يظهر شريط صغير من الضوء في الأفق الغربي. وفي الأسفل عند أرصف الميناء استطاع رؤية النقاط الصغيرة للمشاعل التي تحيط بسفينة الهمجي.

فكر: يوجد مفتاح آخر، وبدأ يعيد التفكير في الأسرار الثلاثة. كان يعلم أنه قد غفل عن شيء ما.

قال لليل: «أتمنى لو كانت كيري هنا».

كانت ماريكو جاثية أمام مرآتها المعدنية المصقولة. نظرت بعيداً عن وجهها. كان الخنجر في يديها يعكس ضوء الزيت المتلألئ.

قالت بصوت يملؤه الحزن. اتجهت عيناها نحو تمثال مريم والطفل في الزاوية بجانب الزهور الجميلة، وعيناها مليئتان بالدموع: «يجب أن أستخدمك. أعلم أن الانتحار خطيئة مميتة، لكن ماذا يمكنني أن أفعل؟ كيف يمكنني العيش مع هذا العار؟ من الأفضل أن أفعل ذلك بنفسني قبل أن أتعرض للخيانة».

كانت الغرفة هادئة مثل المنزل. كان هذا منزل عائلتهم، بُني داخل الحلقة الداخلية من التحصينات والخنديق الواسع المحيط بالقلعة، حيث لا يُسمح إلا لأكثر الهاتاموتو المفضلين والموثوق بهم بالعيش. كانت تحيط بالمنزل حديقة ذات أسوار من الخيزران ويتدفق خلالها جدول صغير مستمد من وفرة المياه التي تحيط بالقلعة.

سمعت خطوات أقدام. انفتحت البوابة الأمامية محدثة صوت صرير، وسمعت أصوات الخدم وهم يهرعون لتحية السيد. وضعت السكين في حزامها بسرعة وجففت دموعها. وسرعان ما سمعت خطوات أقدام وفتحت الباب وهي تنحني بأدب.

أخبرها بونتارو بكآبة أن تورانا جا قد غير رأيه مجددًا، وأنه الآن مُكلف بالذهاب إلى ميشيما مؤقتًا. قال: «سأغادر عند الفجر. أردت أن أتمنى لك رحلة آمنة...». توقف وحدق إليها: «لماذا تبكين؟».

- أرجو أن تعذرني يا سيدي. إنه فقط لأنني امرأة والحياة تبدو صعبة بالنسبة لي. وبسبب تورانا جا ساما.

- إنه قصبة مكسورة. أشعر بالخجل من قول ذلك. إنه أمر رهيب، لكن هذا ما أصبح عليه. علينا أن نخوض الحرب. من الأفضل بكثير أن نخوض الحرب بدلًا من معرفة أن المستقبل الوحيد أمامي هو رؤية وجه إيشيدو القذر يضحك على الكارما الخاصة بي.

- نعم، آسفة جدًا. أتمنى لو كان بإمكانني فعل شيء لمساعدتك. هل ترغب في الساكي أو الشاي؟

التفت بونتارو وصاح في أحد الخدم الذي كان ينتظر في الممر: «أحضر الساكي. أسرع».

دخل بونتارو غرفتها. أغلقت ماريكو الباب. كان يقف الآن عند النافذة ناظرًا إلى جدران القلعة والبرج وراءها.

قالت بنبرة مهدئة: «رجاءً لا تقلق يا سيدي، إن الحَمَام جاهز، وقد أرسلت لإحضار ما تفضله».

ظل ينظر إلى البرج وهو يغلي من الغضب. ثم قال: «ينبغي له أن يستقيل لصالح الزعيم سودارا إذا لم يعد يملك الجرأة على القيادة. إن الزعيم سودارا هو ابنه ووريثه الشرعي، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟».

- بلى يا سيدي.

- بلى. أو الأفضل أن يفعل ما اقترحه زاتاكي. أن يقوم بالسيبوكو. حينها سيحارب زاتاكي وجيوشه معنا. يمكننا اقتحام كيوتو بمساعدتهم هم والبنادق، أعلم أننا نستطيع. حتى لو فشلنا، فذلك أفضل من الاستسلام مثل آكلي الثوم الجبناء. لقد تنازل سيدنا عن كل حقوقه. أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

استدار نحوها.

- أرجو أن تسامحني... ليس من حقي قول ذلك. إنه زعيمنا الإقطاعي.

استدار بونتارو للخلف بعبوس محدقًا إلى البرج. كانت الأضواء تتلألأ في جميع الطوابق، وبخاصة في الطابق السادس. قال: «نصيحتي لمجلسه هي أن يدعو للاستقالة، وإذا لن يفعل... أن يساعده. يوجد سوابق مماثلة كافية لذلك. يوجد الكثير ممن يشاركونني الرأي، لكن ليس الزعيم سودارا، ليس بعد. ربما يشاركني الرأي سرًا، من يدري فيما يفكر حقًا؟ عندما تقابلين زوجته، عندما تقابلين السيدة جينجيكو، تحدثي إليها، أقنعها. حينها ستقنعه هي... إنها تسيطر عليه تمامًا، أليس كذلك؟ أنتما صديقتان، ستستمع إليك. أقنعها».

- أعتقد أن ذلك سيكون أمرًا سيئًا للغاية يا سيدي. هذه خيانة.

- أمرك بالتحدث إليها.

- سأطيعك.

قال بحدة: «نعم، ستطيعين الأمر، أليس كذلك؟ تطيعين؟ لماذا أنت دائمًا باردة ومريرة؟». أمسك بمرآتها ودفعها نحو وجهها. «انظري إلى نفسك».

كان صوتها ثابتًا وكانت تنظر عبر المرآة إلى وجهه: «أرجو أن تسامحني إن كنت أزعجتك يا سيدي. لا أرغب في إغضابك».

راقبها للحظة ثم ألقى المرآة بعبوس على الطاولة المطلية وقال: «لم أتهمك. لو اعتقدت ذلك... لما ترددت».

سمعت ماريكو نفسها تجيب بغضب لا يُغتفر: «تتردد في فعل ماذا؟ قتلي يا سيدي؟ أم تركي على قيد الحياة لجعلي أشعر بالمزيد من العار».

صاح بونتارو: «لم أتهمك، اتهمته هو فقط».

بادلته الصياح: «لكنني أتهمك. وأنت قد اتهمتني».

- اصمتي.

- لقد أهنئتني أمام زعيمنا. لقد اتهمتني وأنت لا تقوم بواجبك. أنت خائف. أنت جبان. جبان قدر أكل للثوم.

سحب سيفه من غمده، وشعرت ماريكو بالفخر لأنها على الأقل تجرأت على دفعه إلى حافة الجنون.

لكن السيف بقي مُشهرًا في الهواء. قال: «أنا... لدي... لدي وعدك أمام... إلهك، في أوساكا. قبل أن... قبل أن نموت... لدي وعدك و... سأتمسك به».

كانت ضحكاتها الساخرة حادة وشريرة: «نعم يا زعيمى العظيم. سأصبح وسادتك مرة أخرى فقط، لكن استقبالك سيكون جافًا ومريزًا وفاسدًا».

ضرب سيفه بعنف بكل قوته على أحد أعمدة الزاوية، فشق النصل العارضة المصنوعة من الخشب المُعالج التي يبلغ سمكها ثلاثين سنتيمترًا. حاول سحب السيف بقوة لكنه ظل عالقًا. كاد يفقد صوابه وهو يلف السيف ويحاول إخراجه حتى انكسر النصل. لعن للمرة الأخيرة وألقى بالمقبض المكسور عبر الحائط الضعيف وترنح بثمالة نحو الباب. كان الخادم المرتجف واقفًا هناك ومعه صينية وساكى. حطم بونتارو الصينية من يديه. جثا الخادم على الفور ووضع رأسه على الأرض دون حراك.

استند بونتارو إلى إطار الباب المحطم وقال: «انتظري... انتظري حتى نصل إلى أوساكا».

تلمس طريقه خارج البيت.

ظلت ماريكو جامدة في مكانها لفترة وكأنها في غيبوبة. ثم بدأ اللون يعود إلى وجنتيها، وركزت عيناها. عادت بصمت إلى مرأتها. وتفحصت انعكاسها للحظة ثم أكملت وضع مكياجها بكل هدوء.

صعد بلاكثورن الدرج خطوتين في المرة الواحدة، وحارسه معه. كانوا على الدرج الرئيسي داخل برج القلعة وشعر بالارتياح لكونه تخلص من عبء السيوف التي سلمها رسميًا للحراس في الفناء، الذين فتشوه بأدب ولكن بدقة. المشاعل تضيء الدرجات وبسطات الدرج. توقف عند البسطة الرابعة وهو يشعر بحماس مكبوت، وصاح للخلف: «هل أنت بخير يا ماريكو سان؟».

- نعم، نعم. أنا بخير، شكرًا لك يا أنجين سان.

بدأ يتسلق الدرج مجددًا وهو يشعر بالخفة والقوة حتى وصل إلى البسطة الأخيرة في الطابق السادس. كان هذا الطابق محروسًا بشدة مثل جميع الطوابق الأخرى. ذهب الساموراي المرافق له نحو أولئك المتجمعين عند الباب الحديدي المقوى الأخير وانحنى لهم. بادلوه الانحناء وأشاروا إلى بلاكثورن بالانتظار.

كانت المشغولات الحديدية والخشبية في القلعة بأكملها ممتازة. هنا في البرج، كانت جميع النوافذ، رغم رقتها وارتفاعها، مصممة لتكون محطات

للرماة، وتوجد مصاريح ثقيلة مغطاة بالحديد جاهزة للإغلاق من أجل المزيد من الحماية.

وصلت ماريكو إلى الزاوية الأخيرة من الدرج الذي يُسهل الدفاع عنه ووصلت إليه.

سأل: «هل أنت بخير؟».

أجابت وهي تلهث قليلاً. لكنها لا تزال تتمتع بنفس الهدوء الغريب والانعزال اللذين لاحظتهما منذ أن التقاها في الفناء، وهو أمر لم يره من قبل: «نعم، شكرًا لك».

فكر بثقة: لا بأس، إنه فقط تأثير القلعة وتوراناجا وبونتارو والوجود هنا في إيدو. أنا أعلم ما عليّ فعله الآن.

كان يشعر بفرحة عارمة منذ أن رأى إيراسموس. لم يتوقع قط أن يجد سفينته في تلك الحالة المثالية، نظيفة ومُعتنى بها وجاهزة. فكر: بالكاد يوجد سبب للبقاء في إيدو الآن. سألقي نظرة سريعة على الأسفل لفحص بطن السفينة، ثم سأغطس غطسة بسيطة للتحقق من القاع، ثم المدافع وغرفة البارود والذخيرة والقذائف والأشربة. خلال الرحلة إلى إيدو، كان يخطط لكيفية استخدام الحرير الثقيل أو القماش القطني للأشربة، فقد أخبرته ماريكو أنه لا يوجد قماش في اليابان. كان يردد متلهلاً: فقط حصلوا على الأشربة وأي قطع غيار أخرى نحتاجها، ثم ننطلق إلى ناجازاكي بسرعة البرق.

كان الساموراي قد عاد وقال: «أنجين سان».

- نعم؟

- تفضل.

فتح الباب المصفح بهدوء. كان توراناجا جالسًا في نهاية الغرفة المربعة على جزء مرتفع من التاتامي، وحيدًا.

جثا بلاكتورن وانحنى بعمق ويداه مسطحتان على الأرض وقال: «مساء الخير يا توراناجا ساما. كيف حالك؟».

- أنا بخير بفضلك. كيف حالك؟

بدا توراناڭا أكبر سنًا وأكثر شحوبًا ونحافة مما كان عليه من قبل. قال بلاكثورن لنفسه: لا يوجد ما يمكنني فعله. الكارما الخاصة بتوراناجا لن تمس إيراسموس... ستكون هي منقذته، بفضل الرب.

أجاب عن استفسارات توراناڭا التقليدية بلغة يابانية بسيطة لكن بلكنة جيدة، مستخدمًا أسلوبًا مبسطًا كان قد طوره بمساعدة ألفيتو. أشاد به توراناڭا على التحسن وبدأ يتحدث بسرعة أكبر.

استخدم بلاكثورن إحدى العبارات الجاهزة التي تدرب عليها مع ألفيتو وماريكو: «أرجو أن تعذرني يا زعيم، لأن لغتي اليابانية ليست جيدة. هل يمكنك التحدث ببساطة واستخدام كلمات بسيطة رجاءً، لأنني مضطر إلى استخدام كلمات بسيطة... أرجو أن تعذرني على تكبيدك العناء».

- حسنًا، نعم بالتأكيد. أخبرني، كيف وجدت يوكوسي؟

أجاب بلاكثورن محاولًا مجارة توراناڭا بإجابات متقطعة ومفرداته لا تزال محدودة، حتى طرح توراناڭا سؤالًا لم يفهم منه الكلمات الرئيسية. قال معتذرًا: «عذرًا؟ أعتذر يا توراناڭا ساما، لم أفهم».

كرر توراناڭا ما قاله بلغة أبسط. نظر بلاكثورن إلى ماريكو وقال: «عذرًا يا ماريكو سان، ما معنى «sonkei su beki umi».

- «صالحة للإبحار» يا أنجين سان.

- شكرًا لك؟

استدار بلاكثورن. كان الدايميو قد سأله إن كان بإمكانه التأكد بسرعة مما إذا كانت سفينته صالحة تمامًا للإبحار، وكم سيستغرق ذلك. أجاب: «نعم، سهل. نصف يوم يا زعيم».

فكر توراناڭا للحظة ثم أخبره أن يفعل ذلك غدًا ويقدم تقريرًا بعد الظهيرة خلال ساعة الماعز. سأل: «هل تفهم؟».

- نعم.

أضاف توراناڭا: «ثم يمكنك رؤية رجالك».

- سيدي؟

- أتباعك. استدعيتك لأخبرك أن غدًا ستحصل على أتباعك.

- عذرًا. فهمت. أتباع ساموراي. مائتا رجل.

- نعم. ليلة سعيدة يا أنجين سان. سأراك غداً.

- أرجو أن تعذرني يا زعيم، هل يمكنني أن أطلب منك باحترام ثلاثة أشياء؟

- ماذا؟

- أولاً: هل يمكنني رؤية طاقمي الآن رجاءً؟ لتوفير الوقت، أليس كذلك؟ أرجوك.

وافق تورانا جا وأصدر أمراً مقتضباً لأحد الساموراي ليرشد بلاكثورن: «خذ حرساً من عشرة رجال معك. اصطحب أنجين سان إلى هناك وأعده إلى القلعة».

- حسناً يا زعيم.

- والتالي يا أنجين سان؟

- رجاءً، هل يمكننا الحديث على انفراد؟ لبعض الوقت. أرجوك اعذر وقاحتي.

حاول بلاكثورن ألا يظهر توتره بينما سأل تورانا جا ماريكو عما يدور حوله هذا الطلب. أجابت بصدق أنها تعلم فقط أن أنجين سان لديه شيء خاص يريد قوله لكنها لم تسأله عما هو.

قال بلاكثورن بينما بدأ في صعود الدرج: «هل أنت متأكدة من أنه لا بأس إذا سألته يا ماريكو سان؟».

- نعم. بشرط أن تنتظر حتى ينتهي. لكن تأكد أنك تعلم بالضبط ما تريد قوله يا أنجين سان. فهو... لم يعد صبوراً كما كان.

لم تسأله عما كان يريد أن يطلبه، ولم يقدم هو أي معلومات طوعية.

قال تورانا جا: «حسناً يا أنجين سان. انتظري في الخارج رجاءً يا ماريكو سان».

انحنى وغادرت.

- أجل؟

- أعتذر، سمعت أن الزعيم هاريمان ناجازاكي أصبح الآن عدواً.

تفاجأ تورانا جا، إذ علم بالتزام هاريمان العلني معايير إيشيدو فقط عندما وصل إلى إيدو. سأل: «من أين حصلت على هذه المعلومات؟».

- عذراً؟

كرر توراناها السؤال ببطء.

- فهمت. سمعت عن الزعيم هاريماف هافكوني. جيوكو سان أخبرتنا. جيوكو سان سمعت فف ميشيما.

- تلك المرأة تعلم الكثير. ربما تعلم أكثر مما يجب.

- سيدي؟

- لا شيء. تابع. ماذا عن الزعيم هاريماف؟

- سيدي، هل يمكنني أن أقول بكل احترام: سفينتي، سلاح كبير أمام السفينة السوداء، أليس كذلك؟ إذا استوليت على السفينة السوداء بسرعة... سيفغضب الكهنة بشدة لأنهم لن يحصلوا على المال لعملهم المسيحي هنا... ولا يوجد مال أيضاً للأراضي البرتغالية الأخرى. في العام الماضي لم تأت السفينة السوداء إلى هنا، لذلك لم يوجد مال، أليس كذلك؟ إذا استوليت الآن على السفينة السوداء بسرعة، بسرعة كبيرة، وكذلك العام المقبل، سيخاف جميع الكهنة بشدة. هذه هي الحقيقة يا سيدي. أعتقد أن الكهنة يجب أن ينحنوا إذا هددتهم. الكهنة هكذا لتوراناجا ساما.

وأغلق بلاكثورن يديه ليوضح وجهة نظره.

استمع توراناها بانتباه، مراقباً شففيه بينما كان يفعل المثل. قال: «أنا أتابعك، ولكن ما الغاية من ذلك يا أنجين سان؟».

- سيدي؟

اتبع توراناها النمط نفسه في استخدام كلمات قليلة وسأل: «للحصول على ماذا؟ للإمساك بماذا؟ لتحقيق ماذا؟».

- الزعيم أونوشي والزعيم كياما والزعيم هاريماف.

- إذن تريد التدخل في سياساتنا مثل الكهنة؟ هل تظن أنك تعرف كيف تحكمنا أيضاً يا أنجين سان؟

- أعتذر، أرجو أن تعتذرنف، لم أفهم.

- لا يهم.

فكر تورانا جا لفترة طويلة ثم قال: «يقول الكهنة أنهم لا يملكون السلطة لإصدار الأوامر للدايميو المسيحيين».

- هذا غير صحيح يا سيدي، أرجو أن تعذرني. المال هو السلطة الكبيرة على الكهنة. هذه هي الحقيقة يا سيدي. إذا لم تصل السفينة السوداء هذا العام، وأيضًا في العام المقبل، فسيكون الأمر كارثيًا. سيئ جدًا جدًا للكهنة. هذه هي الحقيقة يا سيدي. المال هو السلطة. أرجو أن تفكر: إذا كانت السماء القرمزية في الوقت نفسه أو قبل ذلك، سأهاجم ناجازاكي. ناجازاكي الآن عدو، أليس كذلك؟ سأستولي على السفينة السوداء وأهاجم الطرق البحرية بين كيوشو وهونشو. ربما يكون التهديد كافيًا لتحويل العدو إلى صديق؟

- لا. الكهنة سيوقفون التجارة. أنا لست في حرب مع الكهنة أو مع ناجازاكي. أو مع أي شخص. سأذهب إلى أوساكا. لن تكون هناك سماء قرمزية. هل تفهم؟

- نعم.

لم يكن بلاكتورن قلقًا. فقد كان يعلم أن تورانا جا قد فهم بوضوح أن هذا النهج المحتمل سيجذب بالتأكيد جزءًا كبيرًا من قوات كياما وأونوشي وهاريما التي كانت جميعها متمركزة في كيوشو. ويمكن لإيراسموس بالتأكيد تدمير أي نقل بحري واسع النطاق للقوات من تلك الجزيرة إلى الجزيرة الرئيسية. حذر نفسه: تمهل. دع تورانا جا يفكر في الأمر. ربما سيكون الأمر كما تقول ماريكو: يوجد وقت طويل بين الآن وأوساكا، ومن يدري ما قد يحدث؟ كن مستعدًا للأفضل ولا تخش الأسوأ.

- لماذا لم تقل هذا أمام ماريكو سان يا أنجين سان؟ ستخبر الكهنة؟ هل تعتقد ذلك؟

- لا يا سيدي. أردت فقط محاولة التحدث مباشرة. الحرب ليست من شأن المرأة. طلب أخير يا تورانا جا ساما.

انطلق بلاكتورن نحو المسار المختار وتابع: «من تقاليد الهاتاموتو أن يطلب خدمة أحيانًا. أرجو أن تعذرني يا سيدي، هل يمكنني أن أطلب شيئًا الآن باحترام؟».

توقفت مروحة تورانا جا عن الحركة وقال: «ما الخدمة؟».

- أعلم أن الطلاق سهل إذا أمر به الزعيم. أطلب الزواج بالسيدة تودا ماريكو ساما.

كان توراناغا مذهولاً وشعر بلاكثورن بالخوف من أنه قد تجاوز الحدود. فأضاف: «أرجو أن تعذرني على وقاحتي».

تعافى توراناغا بسرعة وسأل: «هل ماريكو سان موافقة؟».

- لا يا توراناغا ساما. هذا سرّي. لم أخبرها أو أخبر أي أحد. سرّي أنا فقط. لم أقل شيئاً لتودا ماريكو سان. أبداً. هذا ممنوع، أليس كذلك؟ لكنني أعلم أنه توجد مشكلات بين الزوج والزوجة. الطلاق سهل في اليابان. هذا سرّي فقط. أطلب من الزعيم توراناغا فقط. سرّي للغاية. لم أخبر ماريكو سان قط. أرجو أن تعذرني إذا كنت قد أسأت إليك.

- هذا طلب جريء من شخص غريب. طلب غير مسبوق! ولكن لأنك هاتاموتو، فإنني ملزم بالنظر فيه، رغم أنك ممنوع تماماً من ذكره لها تحت أي ظرف، سواء لها أو لزوجها. هل هذا واضح؟

سأل بلاكثورن لأنه لم يفهم تماماً وكان غير قادر على التفكير: «عذراً؟».

- طلب سيئ جداً وفكرة سيئة يا أنجين سان. هل تفهم؟

- نعم يا سيدي، أعتذ...

- لأن أنجين سان هاتاموتو، فأنا لست غاضباً. سأفكر في الأمر. هل تفهم؟

- نعم، أعتقد ذلك. شكراً لك. أرجو أن تعذرني على لغتي اليابانية السيئة، آسف جداً.

- لا تتحدث معها يا أنجين سان، عن الطلاق. لا مع ماريكو سان ولا مع بونتارو سان. هذا ممنوع، هل تفهم؟

- نعم يا زعيم. أفهم. سر بيني وبينك. سر. شكراً لك.

- أرجو أن تعذر وقاحتي، وشكراً لك على صبرك.

انحنى بلاكثورن انحناءة مثالية ثم غادر الغرفة وكأنه في حلم. أغلق الباب خلفه. كان الجميع على بسطة الدرج يراقبه بنظرات حائرة.

كان يرغب في مشاركة انتصاره مع ماريكو، لكن هدوءها المشتت وحضور الحراس منعه. لذا قال فقط: «أعتذر لإبقاتك منتظرة».

أجابت على نحوٍ مبهم: «كان من دواعي سروري».

بدأ في النزول على الدرج مجددًا. ثم قالت بعد عدة درجات: «طريقتك البسيطة في الحديث غريبة، رغم أنها مفهومة جدًا يا أنجين سان».

- لقد تشئت مرات كثيرة. لكن معرفة أنك كنت موجودة ساعدتني كثيرًا.

- لم أفعل شيئًا.

واصل السير في صمت، وماريكو كانت تمشي خلفه قليلًا كما تقتضي العادة. كانا يمران عبر طوق أمني من الساموراي عند كل طابق، ثم عند أحد المنعطفات في الدرج، علق طرف الكيمونو الخاص بها في حاجز الدرج وتعثرت. لكنه أمسك بها حتى استعادت توازنها، وتلك اللمسة القريبة المفاجئة أسعدتهما. قالت بارتباك بينما كان يعيدها على الأرض: «شكرًا لك».

تابعا السير، وأصبحا الآن أقرب لبعضهما أكثر مما كانا الليلة.

كان الساموراي في كل مكان في الخارج في الساحة الأمامية المضاءة بالمشاعل. تحققوا من تصاريحهم مجددًا ورافقهم حاملو المشاعل عبر البوابة الرئيسية للبرج مرورًا بممر متعرج يشبه المتاهة بين جدران حجرية محصنة وصولًا إلى البوابة التالية المؤدية إلى الخندق والجسر الخشبي الداخلي. توجد سبع حلقات من الخنادق داخل مجمع القلعة. بعضها من صنع الإنسان، والبعض الآخر استُمدت من الجداول والأنهار الكثيرة المحيطة. وبينما كانا متوجهين نحو البوابة الرئيسية، البوابة الجنوبية، أخبرته ماريكو أنه عندما يكتمل بناء القلعة في العام الذي يلي القادم، ستضم مائة ألف ساموراي وعشرين ألف حصان، مع جميع المؤن اللازمة لمدة عام.

قال بلاكثورن: «عندئذٍ ستكون الأكبر في العالم».

كان صوتها جادًا وهي تقول: «كان هذا هو مخطط الزعيم توراناغا. لا يوجد شيء يمكننا فعله، أليس كذلك؟». وصلا إلى الجسر الأخير في النهاية وتابعت: «هناك يا أنجين سان، يمكنك رؤية أن القلعة هي محور إيدو، أليس كذلك؟ مركز شبكة من الشوارع التي تتفرع لتصبح المدينة. كانت مجرد قرية صيد صغيرة قبل عشر سنوات. أما الآن، فمن يدري؟ ثلاثمائة ألف؟ مائتي ألف؟ أربعمائة ألف؟ لم يحصّ الزعيم توراناغا شعبه بعد. لكنهم جميعًا هنا لهدف واحد فقط: خدمة القلعة التي تحمي الميناء والسهول التي تغذي الجيوش».

سأل: «لا شيء آخر؟».

- لا.

فكر بسعادة: لا يوجد داعٍ للقلق يا ماريكو، ولا لتبدين بهذه الجدية. لقد حللت كل ذلك. سيمنحني تورانا جا كل ما طلبته.

على الجانب الآخر من الجسر الأول المضاء بالمشاعل الذي يؤدي إلى المدينة ذاتها، توقفت ماريكو وقالت: «يجب أن أترك الآن يا أنجين سان».

- متى يمكنني رؤيتك؟

- غداً. في ساعة الماعز. سأنتظرك في الساحة الأمامية.

- ألا أستطيع رؤيتك الليلة؟ إذا عدتُ مبكراً؟

- لا، آسفة، أرجو أن تعذرني. ليست الليلة.

ثم انحنى برسمية وقالت: «ليلة سعيدة يا أنجين سان».

انحنى بلاكثورن كساموراي. شاهدها وهي تعود عبر الجسر، ويرافقها بعض حاملي المشاعل، والحشرات تحوم حول المشاعل المثبتة في حوامل على الأعمدة. وسرعان ما اختفت في الحشود والليل.

ثم أدار ظهره بحماس متزايد وتبع مرشده.

الفصل الثامن والأربعون

أشار الساموراي إلى الأمام: «الهمج يعيشون هناك يا أنجين سان». شعر بلاكثورن بعدم الارتياح وهو يحاول الرؤية في الظلام، كانت الأجواء خانقة وشديدة الحرارة. سأل: «أين؟ ذلك المنزل؟ هناك؟».

- نعم، صحيح، أعتذر. هل تراه؟

كانت هناك مجموعة أخرى من الأكواخ والأزقة على بعد سبعين مترًا بعد هذه الأرض الموحلة، ويهيمن عليهم منزل كبير يبدو منقوشًا تقريبًا أمام السماء حالكة السواد.

نظر بلاكثورن حوله للحظة ليحدد اتجاهاته التقريبية مستخدمًا مروحته لإبعاد الحشرات المعادية التي تحوم حوله. وسرعان ما أصبح ضائعًا في المتاهة منذ مغادرته الجسر الأول.

قادهم طريقهم عبر شوارع وأزقة لا حصر لها، متجهًا في البداية نحو الشاطئ، ثم انعطفوا حوله شرقًا لبعض الوقت، وعبروا جسرًا كبيرة وأخرى صغيرة، ثم اتجهوا شمالًا مجددًا على طول ضفة مجرى آخر يتعرج عبر ضواحي المدينة. حيث كانت الأرض منخفضة ورطبة. كانوا كلما ابتعدوا عن القلعة أصبحت الطرق أسوأ والمساكن أفقر. وكان الناس أكثر خضوعًا، ونادرًا ما تظهر أضواء خافتة من خلف أبواب الشوجي. كانت يبدو عبارة عن كتلة مترامية الأطراف بدت له وكأنها تتكون من قرى صغيرة لا يفصل بينها سوى طرق أو جداول.

كان المكان مستنقعًا للغاية هنا على الحافة الجنوبية الشرقية للمدينة، والطريق ينبعث منه رائحة كريهة. كثافة الرائحة الكريهة تزداد وضوحًا منذ فترة، خليطًا عفنًا من رائحة الأعشاب البحرية والبراز والمسطحات الطينية، وبالإضافة إلى رائحة حلوة لاذعة لم يستطع تحديد مصدرها، لكنها بدت مألوفة.

تمتم وهو يقتل حشرة ليلية أخرى هبطت على خده. كان جسده كله مبتلاً من العرق: «رائحة المكان نتنة مثل بيلينجسجيت عند انخفاض المد». ثم سمع صوتاً خافتاً لأغنية بحرية مبهجة باللغة الهولندية ونسي كل ما كان يزعبه. سأل: «هل هذا فينك؟». أسرع باتجاه الصوت متحمساً، وحاملو المشاعل يضيئون طريقه بحرص، والساموراي يتبعونه.

رأى الآن عندما اقترب أن المبنى المكون من طابق واحد كان مزيجاً بين النمط الياباني والأوروبي. كان مرفوعاً على أعمدة ومحاطاً بسياج من الخيزران المتزعزع في قطعة أرض خاصة به، وكان أحدث من الأكواخ المجاورة له. لا توجد بوابة في السياج، بل مجرد فتحة. كان السقف من القش، والباب الأمامي متيناً، والجدران مغطاة بألواح خشبية خشنة، والنوافذ مغطاة بمصاريع على الطراز الهولندي. بعض الأضواء تتسرب من خلال الشقوق. ازدادت أصوات الغناء والحديث لكنه لم يستطع بعد التعرف على أي أصوات. توجد حجارة مرصوفة تؤدي مباشرة إلى درجات الشرفة عبر حديقة غير مشذبة. وسارية علم قصيرة مربوطة عند المدخل. توقف بلاكثورن وحقق إليها. يوجد علم هولندي متهاك مؤقت معلق هناك بلا مبالاة، وتسارعت نبضات قلبه عند رؤيته.

فُتح الباب الأمامي فجأة، وتسلسل منه شعاع من الضوء على الشرفة. ترنح باكوس فان نيك بثمالة إلى الحافة، وعيناه شبه مغلقتين، ونزع غطاء عورته وتبول في العلن.

تمتم بنشوة متأوِّهاً: «لا شيء يضاهي التبول».

نادى بلاكثورن باللغة الهولندية من المدخل: «أليس كذلك؟ لماذا لا تستخدم دلوًا؟».

- ماذا؟

فتح فان نيك عينيه وحاول النظر في الظلام نحو بلاكثورن الذي كان يقف مع الساموراي تحت المشاعل وقال: «يا إلهي، ساموراي». استجمع شتات نفسه بصعوبة وانحنى بغرابة من الخصر وتابع باليابانية: «أعذر يا ساموراي ساما. الأفضل أعذر لجميع القردة ساما».

اعتدل محاولاً الابتسام بصعوبة ثم تمت لنفسه: «أنا أكثر ثمالة مما ظننت. ظننت أن الوغد ابن العاهرة هذا يتحدث الهولندية. أعتذر، حسنًا؟». صاح مجددًا ثم ترنح نحو الجزء الخلفي من المنزل وهو يتحسس غطاء عورته.

- يا باكوس، ألا تعرف أنه لا ينبغي لك تلويث عَشْكِ؟
- ماذا؟

التفت فان نيك بدهشة وحدق بعمى نحو المشاعل محاولاً الرؤية بوضوح. شفق مدهوشًا: «ربان؟ هل هذا أنت يا ربان؟ اللعنة على عيني، لا أستطيع الرؤية. ربان، من أجل محبة الرب، هل هذا أنت؟».

ضحك بلاكتورن. بدا صديقه القديم عاريًا تمامًا هناك، وسخيفًا. قال: «نعم، إنه أنا». ثم التفت إلى الساموراي الذين كانوا يراقبونه بازدراء واضح وقال: «انتظروني، رجاء».

- حسنًا يا أنجين سان.

تقدم بلاكتورن، والآن استطاع الرؤية تحت شعاع الضوء القمامة متناثرة في كل الحديقة. نزع نعاله وركض صاعدًا الدرج باشمئزاز. ربّت كتفيه بحرارة: «مرحبًا يا باكوس، لقد زدت وزنًا منذ غادرنا روتردام، أليس كذلك؟».

- يا يسوع المسيح، هل هذا حقًا أنت؟

- نعم، بالطبع إنه أنا.

مد فان نيك يده ليلمس بلاكتورن ليتأكد أنه لا يحلم وقال: «لقد فقدنا الأمل في كونك على قيد الحياة منذ زمن طويل. يا يسوع، لقد استجيبَت صلواتي. ماذا حدث لك يا ربان ومن أين أتيت؟ إنها معجزة. هل هذا حقًا أنت؟».

أخبره بلاكتورن وهو مدرّكًا لوجود الساموراي: «نعم. الآن ضع رجاء الغطاء في مكانه ودعنا ندخل».

امتثل فان نيك بسرعة وبدأت الدموع تنساب على خديه: «ماذا؟ أوه! آسف، أنا... يا يسوع، ربان... ظننت أن شياطين شراب الجن تعبت بي مجددًا. هيا، دعني أعلن وجودك، حسنًا؟».

قاد طريق العودة وهو يتمايل قليلاً، وقد تبخر معظم سكره مع فرحته. تبعه بلاكثورن. فتح فان نيك الباب له ثم صاح فوق ضجيج الغناء الصاخب: «يا رفاق! انظروا ماذا جلب لنا بابا نويل».

أغلق الباب بشدة بعد بلاكثورن لإضافة تأثير أكبر.
ساد صمت على الفور.

استغرق الأمر لحظة حتى تتكيف عينا بلاكثورن مع الضوء. كان الهواء الكريه يكاد يخنقه. رأى الجميع يحدقون إليه كما لو كان شبحاً شيطانياً. ثم كُسر السحر وعلت صيحات الترحيب والفرح، وبدأ الجميع يعانقونه ويضربونه على ظهره ويتحدثون في وقت واحد: «يا ربان، من أين أتيت؟ - تناول مشروباً. - يا إلهي، هل هذا ممكن؟ - تبول في قبعتي، من الرائع رؤيتك. - كنا قد فقدنا الأمل في كونك على قيد الحياة. - لا، نحن بخير، على الأقل معظمنا بخير. - انهض من الكرسي يا لعين، يجب أن يجلس الربان ساما على أفضل كرسي لعين. - تريد الجعة، أليس كذلك؟ أسرع يا لعين. اللعنة على عيني، ابتعد عن الطريق أريد أن أصفح يده...».

صاح فينك أخيراً: «واحدًا تلو الآخر يا رفاق. أعطوه فرصة. دعوا الربان يجلس ويحتس مشروباً من أجل الرب. نعم، ظننت أنه ساموراي أيضاً...».

دفع شخص ما كأساً خشبيةً إلى يد بلاكثورن. جلس على الكرسي المهترئ ورفعوا جميعاً أكوابهم وبدأ سيل الأسئلة من جديد.

نظر بلاكثورن حوله. الغرفة مؤثثة بمقاعد وبعض الكراسي والطاولات البسيطة، ومضاءة بالشموع والمصابيح الزيتية. يوجد برميل ساكي كبير على الأرض القذرة. وإحدى الطاولات مغطاة بأطباق متسخة وقطعة لحم مشوية مغطاة بالذباب.

توجد ست نساء في حالة يرثى لها جاثيات على ركبهن مُنحنيات له ومتكئات على الجدار.

رجالهم جميعهم مبتسمون وينتظرونه ليبدأ الحديث: سونك الطباخ ويوهان فينك نائب رئيس البحارة وكبير المدفعية وسلامون الأبكم والفتى كروك وجينسيل صانع الأشرطة وباكوس فان نيك التاجر الرئيسي وأمين الصندوق، وأخيراً يان روبر، التاجر الآخر الذي كان يجلس بعيداً كالعادة مع الابتسامة الحانقة نفسها على وجهه النحيف المتوتر.

سأل بلاكتورن: «أين القبطان؟».

- ميت يا ربان، لقد مات...

أجابت ستة أصوات وتداخلت مع بعضها مما أدى إلى خلط القصة حتى رفع بلاكتورن يده وقال: «باكوس؟».

- لقد مات يا ربان. لم يخرج من الحفرة. هل تتذكر أنه كان مريضاً؟ بعد أن أخذوك بعيداً، في تلك الليلة سمعناه يخنق في الظلام. أليس كذلك يا رفاق؟

قالوا «بلى» في آن واحد وأضاف فان نيك: «كنت جالساً بجانبه يا ربان. كان يحاول الحصول على الماء لكن لم يوجد أي ماء وكان يخنق ويئن. لست متأكداً من التوقيت - كنا جميعاً خائفين حد الموت - لكن في النهاية اختنق، ثم، حسناً، صدر صوت حشرجة الموت. كان الأمر سيئاً يا ربان».

أضاف يان روبر: «كان الأمر مروّعاً، نعم. لكنه كان عقاب الرب».

نظر بلاكتورن من وجه إلى آخر وسألهم: «هل ضربه أحد؟ لإسكاته؟».

أجاب فان نيك: «لا... لا، لا، لقد مات فقط. ترك في الحفرة مع الآخر... الياباني، هل تتذكره، ذلك الذي حاول إغراق نفسه في دلو من البول؟ ثم أمر الزعيم أومي بإخراج جثة سبيلبرجين وأحرقوها. لكن ذلك المسكين الآخر ترك في الأسفل. أعطاه الزعيم أومي خنجراً وشق بطنه بنفسه ثم ملؤوا الحفرة. هل تتذكره يا ربان؟».

- نعم. ماذا عن ماتسوكر؟

- من الأفضل أن نخبرنا ذلك يا فينك.

بدأ فينك: «لقد تعفن وجه الفأر الصغير يا ربان».

وبدأ الآخرون يصيحون بالتفاصيل وسرد القصة حتى صرخ فينك: «لقد طلب مني باكوس أن أرويها بحق المسيح. ستحصلون جميعاً على دوركم». توقفت الأصوات وقال سونك محاولاً المساعدة: «ارؤوها أنت يا يوهان».

- بدأت ذراعه بالتعفن يا ربان. لقد أصيب بجرح في المعركة... هل تتذكر المعركة عندما فقدت الوعي؟ يا إلهي، يبدو ذلك منذ زمن بعيد. على أي حال، تقيح جرح ذراعه. أجريت له عملية الفصد في اليوم التالي والذي يليه، ثم بدأت ذراعه تسود. أخبرته أنه من الأفضل أن أفتح

وإلا ستُبتَر الذراع بالكامل... أخبرته عشرات المرات، أخبرناه جميعًا لكنه لم يستجب. كانت رائحة الجرح كريهة في اليوم الخامس. ثبتناه وقطعت معظم التعفن لكن لم يكن ذلك كافيًا. كنت أعلم أنه لم يكن كافيًا لكن ظن بعضنا أن المحاولة كانت تستحق العناء. جاء الطبيب الأصفر اللعين عدة مرات لكنه لم يستطع فعل شيء أيضًا. عاش وجه الفأر يومين أو ثلاثة، لكن التعفن كان عميقًا جدًا وكان يهذي كثيرًا. ثم اضطررنا إلى تقييده في النهاية.

قال سونك وهو يحك نفسه براحة: «بالضبط يا ربان. كان علينا تقييده». سأل بلاكتورن: «ماذا حدث لجثته؟».

- أخذوها إلى أعلى التل وأحرقوها أيضًا. أردنا أن ندفنه هو والقبطان وفقًا للطريقة المسيحية الصحيحة لكنهم لم يسمحوا لنا. لقد أحرقوهما فقط.

ساد الصمت ثم قال أحدهم: «لم تلمس شرابك يا ربان». رفع بلاكتورن الكوب إلى شفثيه وتذوقه. كان الكوب قذرًا وكاد أن يتقيأ. كان الكحول الخام يحرق حلقه. ورائحة الأجساد غير المغسولة والملابس القذرة تكاد تخنقه.

سأل فان نيك: «ما رأيك في الجعة يا ربان؟».

- جيدة، جيدة.

- أخبره عنها يا باكوس، هيا.

قال فان نيك بفخر وكان الآخرون يبتسمون أيضًا: «لقد صنعت جهاز تقطير يا ربان قائد الدقة. نصنعه الآن بالبرميل. أرز وفواكه وماء، ونتركها تختمر لمدة أسبوع أو نحو ذلك، ثم بمساعدة قليل من السحر...». ضحك الرجل البدين وحك نفسه بسعادة: «بالطبع سيكون من الأفضل أن نتركه يتعتق لمدة عام أو أكثر، لكننا نشربه أسرع من...». تلاشت كلماته. «ألا يعجبك؟».

- أوه، آسف، إنه جيد... جيد.

رأى بلاكتورن قمل في شعر فان نيك الخفيف.

قال يان روبر متحدياً: «وأنت يا ربان؟ أنت بخير، أليس كذلك؟ ماذا عنك؟».

تدفق سيل آخر من الأسئلة الذي خمد عندما صرخ فينك: «أعطوه فرصة». ثم صاح الرجل ذو الملامح القاسية بسعادة: «يا إلهي، عندما رأيتك واقفاً عند الباب ظننت أنك أحد القردة، صدقاً... صدقاً».

تبع ذلك موافقة جماعية، وتدخل فان نيك قائلاً: «بالطبع. ذلك الكيمونو الغبي... تبدو كأنك امرأة يا ربان... أو أحد أولئك أشباه الرجال».

انتشرت أصوات الصياح والمزاح البذيء، ثم تابع فان نيك: «ستحتاج إلى ملابسك الحقيقية يا ربان. اسمع، لدينا ملابسك هنا. جئنا إلى إيديو على متن إيراسموس. سحبوا السفينة إلى هنا وسُمح لنا بإحضار ملابسنا معنا، لا شيء آخر. أحضرنا ملابسك... سمحوا لنا بذلك لنحتفظ بها لك. أحضرنا حقيبة تحتوي على جميع ملابسك البحرية. أحضرها يا سونك، حسناً؟».

- بالطبع سأحضرها، لكن لاحقاً، حسناً يا باكوس؟ لا أريد تفويت أي شيء.

- حسناً.

ابتسم يان روبر بتهكم وقال: «سيوف وكيمونو... مثل وثنى حقيقي. ربما تفضل الطرق الوثنية الآن يا ربان؟».

أجاب بلاكتورن بارتباك: «الملابس رائعة، أفضل من ملابسنا. لقد نسيت أنني اعتدت ارتداء شيئاً مختلفاً. لقد حدث الكثير. كانت هذه الملابس هي ما أملك فاعتدت ارتداها. لم أفكر في الأمر كثيراً. إنها بالتأكيد أكثر راحة».

- هل تلك سيوف حقيقية؟

- نعم بالطبع، لماذا؟

عبس يان روبر قائلاً: «لا يُسمح لنا بحمل الأسلحة. أي أسلحة. لماذا يسمح لك بحملها؟ تماماً مثل أي ساموراي وثنى؟».

ضحك بلاكتورن ضحكة صغيرة وقال: «لم تتغير يا يان روبر، أليس كذلك؟ لا تزال ترى نفسك أكثر قداسة من الجميع؟ حسناً، سنتحدث عن سيوفي لاحقاً، ولكن أولاً سأخبركم أفضل الأخبار. اسمعوا، بعد شهر أو نحو ذلك سنكون في عرض البحار مجدداً».

قال فينك: «يا إلهي، هل تعني ذلك يا ربان؟».

- نعم.

انطلقت أصوات هتاف عظيمة وسيل آخر من الأسئلة والأجوبة: «أخبرتكم أننا سننجو... أخبرتكم أن الرب إلى جانبنا. دعوه يتحدث... دعوا الربان يتحدث...».

رفع بلاكثورن يده أخيراً وأشار إلى النساء اللواتي ما زلن جاثيات بلا حركة، وقد ازداد خضوعهن الآن تحت أنظاره. سأل: «مَن هن؟».

ضحك سونك وقال: «هؤلاء هن عاهراتنا يا ربان. عاهراتنا الرخيصات، يا إلهي، بالكاد لا يكلفننا شيئاً في الأسبوع. لدينا بيت كامل منهن بجانبنا... وتوجد الكثيرات في القرية...».

تدخل كروك: «إنهم يصدرون أصواتاً مثل حيوان القاقم».

وقال سونك: «هذا صحيح يا ربان. بالطبع هن قصيرات القامة ومقوسات الأرجل لكن لديهن الكثير من الطاقة ولا يحملن أي أمراض. هل تريد واحدة يا ربان؟ لدينا أسرّتنا الخاصة، نحن لسنا مثل القردة، لدينا جميعاً أسرة وغرف...».

قال كروك: «جرّب يا ربان، هي الأنسب لك».

قاطع صوت يان روبر حديثهم: «الربان لا يريد واحدة من عاهراتنا. لديه عاهرته الخاصة. أليس كذلك يا ربان؟».

تألقت وجوههم وقال أحدهم: «هل هذا صحيح يا ربان؟ لديك نساء؟ أخبرنا، حسناً؟ هؤلاء القردة هن الأفضل على الإطلاق، أليس كذلك؟».

حك سونك القمل في رأسه مجدداً وقال: «أخبرنا عن عاهراتك يا ربان».

قال بلاكثورن: «يوجد الكثير لأقوله، لكن ينبغي أن يكون على انفراد. كلما قل عدد الأذان كان أفضل، أليس كذلك؟ أرسلوا النساء بعيداً، ثم يمكننا التحدث على انفراد».

أشار فينك بإبهامه نحوهم وقال: «اخرجن، حسناً؟».

انحنت النساء وهمهن بالشكر والاعتذار ثم هربن وأغلقت الباب بهدوء.

- أولاً بخصوص السفينة. الأمر لا يُصدق. أريد أن أشكركم وأهنئكم... على كل العمل. عندما نعود إلى الوطن سأصر على أن تحصلوا على

ثلاثة أضعاف حصة كل المكافآت مقابل كل ذلك العمل، وستكون هناك مكافأة تتجاوز...

رأى الرجال ينظرون إلى بعضهم بعضًا بإحراج. لذا سأل: «ما الخطب؟». قال فان نيك بغير راحة: «لم نكن نحن يا ربان. كانوا رجال الملك تورانا. هم من قاموا بكل العمل. أراهم فينك كيف يفعلون ذلك، لكننا لم نفعل شيئًا». - ماذا؟

- لم يُسمح لنا بالعودة إلى السفينة بعد المرة الأولى. لم يكن أيُّ منَّا على متنها باستثناء فينك، ويذهب مرة كل عشرة أيام أو نحو ذلك. لم نفعل شيئًا.

قال سونك: «إنه الوحيد. ويوهان أرشدهم».

- لكن كيف تحدثت معهم يا يوهان؟

- أحد الساموراي يتحدث البرتغالية ونحدث بها... بما يكفي لفهم بعضنا بعضًا. هذا الساموراي، اسمه ساتو ساما، أصبح مسؤولًا عندما جئنا هنا. سأل من الضباط أو البحارة بيننا. أخبرناه أن ذلك جينسيل، لكنه في الغالب يعمل مدفعيًا، أنا وسونك الذي...

- الذي هو أسوأ طباح لعين...

- أغلق فمك الملعون يا كروك.

- تبًا، أنت لا تستطيع الطهي على اليابسة ناهيك بالطهي على متن السفينة، بحق الرب.

قال بلاكثورن: «أرجو أن تصمتا أنتما الاثنان. تابع يا يوهان».

واصل فينك: «سألني ساتو ساما عن مشكلة السفينة وأخبرته أنها بحاجة إلى صيانة شاملة والكشط وإصلاحها كليًا. حسنًا، أخبرته كل ما أعلم وهم بدؤوا العمل على الفور. لقد أمالوا السفينة جيدًا ونظفوا القاع، وكأنهم ينظفون مرحاض أمير... على الأقل، كان الساموراي هم الرؤساء وبقية القردة يعملون كالشياطين، المئات منهم. تبًا يا ربان، لم ترَ عمالًا مثلهم من قبل».

قال سونك: «هذا صحيح، مثل الشياطين».

- فعلت كل ما في وسعي تحسبًا لليوم... يا إلهي يا ربان، هل تعتقد حقًا أننا يمكن أن ننجو؟

- نعم، إذا كنا صبورين وإذا...
- إذا أراد الرب يا ربان. حينها فقط.
- أجاب بلاكتورن مفكرًا: ماذا يهم إن كان روبر متعصبًا؟ أنا أحتاج إليه...
أحتاج إليهم جميعًا. وأحتاج إلى مساعدة الرب: «نعم. ربما أنت محق. نعم.
نحتاج إلى مساعدة الرب».
- ثم عاد إلى فينك وسأله: «كيف حال قاع السفينة؟».
- نظيف وسليم يا ربان. لقد قاموا بعمل أفضل مما كنت أتوقع. إن هؤلاء
الأوغاد أذكى كأي نجارين وصانعي سفن وصانعي حبال في هولندا.
مُعداتهم مثالية... كل شيء.
- الأشرعة؟
- صنعوا مجموعة منها من الحرير... قوية مثل القماش. مع مجموعة
احتياطية. أخذوا أشرعتنا القديمة ونسخوها بالضبط يا ربان. المدافع
بحالة ممتازة بقدر الإمكان، وأعادوهم على متن السفينة، ويوجد بارود
وذخيرة بكميات وفيرة. السفينة جاهزة للإبحار مع المد، الليلة إذا
دعت الحاجة. بالطبع، لم تبخر بعد، لذا لن نعرف حال الأشرعة حتى
نواجه عاصفة، لكنني أراهن على حياتي أن م فصلاتها محكمة كما
كانت عندما خرجت لأول مرة من زويدرزى، وربما أفضل لأن الأخشاب
مُعالجة الآن، الحمد للرب.
- توقف فينك ليلتقط أنفاسه وتابع: «متى سنغادر؟».
- بعد شهر. تقريبًا.
- تدافعوا فيما بينهم مفعمين بالبهجة، ورفعوا كؤوسهم في نخب الربان
والسفينة.
- سأل جينسيل: «ماذا عن سفن العدو؟ هل يوجد منها هنا؟ وماذا عن
الجوائز يا ربان؟».
- يوجد الكثير، أكثر مما تتخيل. كلنا أغنياء.
- تعالت صيحات الفرحة مجددًا وقال أحدهم: «أخيرًا».
- أغنياء، أليس كذلك؟ سأشتري لي قلعة.
- يا إلهي، عندما أعود إلى الوطن...

- أغنياء! يحيا الربان.

قال يان روبر بهدوء: «الكثير من البابويين لنقتلهم؟ جيد، جيد جدًا».

سأل فان نيك وتوقف الجميع عن الكلام: «ما الخطة يا ربان؟».

- سأحدث عن ذلك بعد قليل. هل لديكم حراس؟ هل تتحركون بحرية عندما تريدون؟ كم مرة...

قال فينك بسرعة: «يمكننا التحرك في أي مكان داخل حدود القرية، ربما لمسافة نصف فرسخ حولنا. لكن لا يُسمح لنا بدخول إيدو ولا...».

قاطعته سونك بسعادة: «لا يُسمح لنا بعبور الجسر. أخبره عن الجسر يا يوهان».

- بحق الرب، كنت سأطرق للجسر يا سونك. بحق الرب، لا تستمر في مقاطعتي. يا ربان، هناك جسر يبعد قرابة ثمانمائة متر في الجنوب الغربي. معلق عليه الكثير من اللافتات. هذا هو الحد الذي يُسمح لنا بالوصول إليه. لا يُسمح لنا بتجاوزه. يقول الساموراي: Kinjiru بحق الرب. هل تفهم ما تعنيه يا ربان؟

أوماً بلاكتورن برأسه ولم يقل شيئاً.

- بخلاف ذلك، يمكننا الذهاب إلى مكان نريده. لكن فقط حتى الحواجز. توجد حواجز حولنا على مسافة نصف فرسخ. يا إلهي... هل يمكنك تصديق ذلك، سنعود إلى الوطن قريباً!

- أخبره عن الطبيب، وعن...

- الساموراي يرسلون طبيباً من حين لآخر يا ربان، ويتوجب علينا خلع ملابسنا وينظر إلينا...

- نعم. لدرجة تكفي لجعل الرجل يشمئز من أن ينظر إليك قرد وثني وأنت عارٍ هكذا.

- بخلاف ذلك يا ربان، لا يزعجوننا إلا...

- لا تنس أن الطبيب يعطينا مسحوقاً مقرفاً من الأعشاب الفاسدة، ويُفترض علينا أن ننقعه في ماء ساخن لكننا نرميه. عندما نمرض، يقوم يوهان بعملية الفصد ونصبح بخير.

قال سونك: «نعم، نرمي الأعشاب».

- بخلاف ذلك، باستثناء...
 - نحن محظوظون هنا يا ربان، ليس كما كان في البداية.
 - هذا صحيح. في البداية...
 - أخبره عن التفتيش يا باكوس.
- قال فان نيك شاعرًا بالعطش: «كنت سأطرق إلى ذلك... بحق الرب، اصبروا... امنحوا الرجل فرصة. كيف يمكنني إخباره أي شيء وأنتم جميعًا تتحدثون. صب لي شرابًا. يأتي كل عشرة أيام بعض الساموراي إلى هنا، فنصطف في الخارج ليحصوا عددنًا. ثم يعطوننا أكياسًا من الأرز ونقودًا، نقودًا نحاسية. تكفي لكل شيء يا ربان. نستبدل الأرز باللحم والأشياء الأخرى... فاكهة أو أي شيء نريده. يوجد الكثير من كل شيء والنساء يفعلن كل ما نطلبه. في البداية...».
- لكن لم يكن الأمر كذلك في البداية. أخبره عن ذلك يا باكوس.
- جلس فان نيك على الأرض وقال: «يا إلهي امنحني القوة».
- قال سونك باهتمام: «هل تشعر بالتعب يا أيها العجوز المسكين؟ من الأفضل ألا تشرب المزيد وإلا ستعود إليك الهلوس، أليس كذلك؟ يصاب بالهلوس يا ربان مرة في الأسبوع. كلنا نصاب بذلك».
- هل ستصمتون حتى أتمكن من إخبار الربان؟
 - مَنْ، أنا؟ لم أقل شيئًا. لا أملك. هيا، ها هو شرابك.
 - شكرًا يا سونك. حسنًا يا ربان، أولًا وضعونا في بيت غرب المدينة...
 - كان بالقرب من الحقول.
 - اللعنة، إذن أخبره أنت بالقصة يا يوهان.
 - حسنًا. يا إلهي، كان الأمر مروّعًا يا ربان. لا طعام ولا شراب، وتلك المنازل الورقية اللعينة كأنك تعيش في العراء... لا يمكن للمرء التبول أو حك أنفك دون أن يراقبه أحد، أليس كذلك؟ بلى، وأقل ضجة كانت تجلب الجيران، ويأتي الساموراي إلى عتبة الباب، ومَنْ يريد هؤلاء الأوغاد حولنا، أليس كذلك؟ كانوا يهزون سيوفهم اللعينة في وجوهنا، يصرخون ويهددون ويطلبون منا التزام الصمت. حسنًا، ذات ليلة أسقط أحدهم شمعة، وثارت القردة غضبًا علينا. يا إلهي، كان يجب

أن تسمعهم. اندفعوا من كل مكان حاملين دلاء الماء، غاضبين بشدة، يزمجرون وينحنون ويلعنون... لقد احترق جدار واحد فقط. تدافع المئات منهم على المنزل كالصراصير. الأوغاد! كنت...

- أكمل حديثك.

- هل تريد أن تحكي أنت؟

- استمر يا يوهان، لا تأبه له. إنه مجرد طباخ لعين.

- ماذا؟

قاطعهما فان نيك وهو يسرع في مواصلة القصة: «اصمتا! بحق الرب! في اليوم التالي يا ربان، نقلونا من هناك ووضعونا في منزل آخر بالقرب من المرفأ. كان الوضع بالسوء نفسه. ثم بعد بضعة أسابيع، عثر يوهان على هذا المكان. كان الوحيد بيننا المسموح له بالخروج بسبب السفينة في ذلك الوقت. كانوا يأخذونه يومياً ويعيدونه عند غروب الشمس. كان في رحلة صيد... نحن على بعد مئات الأمتار فقط من البحر... من الأفضل أن ترويه بنفسك يا يوهان».

شعر بلاكتورن بحكة في ساقه العارية فحكها دون تفكير. زاد التهيج سوءاً، ثم لاحظ وجود تورم بسبب لدغة برغوث بينما واصل فينك بفخر: «كما قال باكوس يا ربان، سألت ساتو ساما إن كان بإمكاننا الانتقال وقال نعم، لم لا؟ كانوا يسمحون لي أحياناً بالصيد من أحد قواربهم الصغيرة لتمضية الوقت. أنفي هو الذي قادني إلى هنا يا ربان. أنفي القديم قادني: رائحة الدماء».

قال بلاكتورن: «مسلخ! مسلخ ودباغة جلود. هذا...».

توقف وشحب وجهه.

- ما الخطب؟ ماذا حدث؟

- هل هذه قرية إيتا؟ يا يسوع المسيح، هؤلاء الناس إيتا؟

سأل فان نيك: «وما الخطأ في الإيتا؟ بالطبع هم إيتا».

لوح بلاكتورن بيده ليبعد البعوض الذي ملأ الأجواء، وجسده يقشعر. قال: «تلك الحشرات اللعينة. إنهم... إنهم متعفنون، أليس كذلك؟ توجد مدبغة هنا، أليس كذلك؟».

- بلى، على بُعد بضعة شوارع، لماذا؟
- لا شيء. لم أتعرف على الرائحة. هذا كل شيء.
- ماذا عن الإيتا؟
- أنا... لم أدرك، كان خطأً غيبياً مني. لو كنت رأيت أحد الرجال لكنت عرفت من تصفية شعرهم القصير. لكن لا يمكنك التمييز مع النساء. أعتذر. أكمل القصة يا فينك.
- حسناً، ثم قالوا...
- قاطعه يان روبر: «انتظر دقيقة يا فينك. ما الأمر يا ربان؟ ماذا عن الإيتا؟».
- قال وشعر بنظراتهم عليه وبالأخص يان روبر: «الأمر فقط أن اليابانيين يرونهم مختلفين. هم الجلادون، ويعملون في جلود الحيوانات ويتعاملون مع الجثث». تابع محاولاً إبقاء صوته غير مبالي: «الإيتا يعملون في الجلود. ويذبحون كل الخيول والثيران المسنة ويتعاملون مع الجثث الميتة».
- ولكن ما الخطب في ذلك يا ربان؟ لقد دفنت العشرات بنفسك، كفنتهم وغسلتهم... كلنا فعلنا ذلك، أليس كذلك؟ نحن نذبح لحومنا بأنفسنا، لطالما فعلنا. جينسيل هنا كان جلاًداً... ما الخطأ في كل هذا؟
- قال بلاكتورن مدرّكاً أن هذا صحيح ولكنه شعر بالاشمئزاز رغم ذلك: «لا شيء».
- سخر فينك: «الإيتا هم أفضل الوثنيين الذين رأيناهم هنا. إنهم يشبهوننا أكثر من باقي الأوغاد. نحن محظوظون جداً لوجودنا هنا يا ربان، فلا توجد مشكلة في اللحوم الطازجة أو الشحم، ولا يسببون لنا أي متاعب».
- هذا صحيح. إذا كنت قد عشت مع الإيتا يا ربان...
- يا يسوع المسيح، لقد اضطر الربان إلى العيش مع الأوغاد الآخرين طوال الوقت. إنه ليس على علم بشيء. ماذا عن إحضار ماري يا سونك؟
- أو تويكلييوم؟
- تبّاً، ليست هي، ليست تلك العاهرة العجوز. سيحتاج الربان إلى واحدة مميزة. دعونا نسأل ماما سان...
- أراهن أنه يتضور جوعاً لطعام حقيقي. مهلاً يا سونك، اقطع له شريحة لحم.

- اشرب المزيد من الجعة...

- ثلاثة أنخاب للربان...

في وسط تلك الفوضى المبهجة، ربت فان نيك كتفَ بلاكتورن وقال: «أنت في بيتك يا صديقي القديم. الآن وقد عدت، استجيب دعواتنا وكل شيء على ما يرام في العالم. أنت في بيتك يا صديقي القديم. اسمع، خذ سريري. أنا أصر...».

لوح بلاكتورن بمرح للمرة الأخيرة، فأجابه هتافٌ من الجهة الأخرى من الجسر الصغير وسط الظلام. ثم استدار مبتعدًا وقد تلاشت حماسه المصطنعة، وسار حول الزاوية محاطًا بحراسة من عشرة رجال ساموراي. كان ذهنه غارقًا في حيرة في طريق العودة إلى القلعة. لا يوجد أي خطأ في الإيتا، ولكن كل شيء كان خطأ في الإيتا. هؤلاء هم طاقمي، شعبي، وهؤلاء وثنيون وأجانب وأعداء...

مرت الشوارع والأزقة والجسور أمامه في ضبابية. ثم لاحظ فجأة أن يده كانت داخل الكيمونو الخاص به وأنه كان يحك جلده، فتوقف في مكانه.

- هؤلاء القذرون اللعينون...

نزع حزامه ومزق الكيمونو المبلل عن جسده كما لو كان مدنسًا، ثم ألقاه في إحدى الحفر.

سأله أحد الساموراي: «عذرًا، ما الخطب يا أنجين سان؟».

- لا شيء.

سار بلاكتورن حاملاً سيفه.

- آه! إيتا. فهمت. أعتذر.

تبادل الساموراي الحديث فيما بينهم، لكنه لم يكثر.

فكّر شاعرًا براحة هائلة، وغير مدرك لكونه شبه عارٍ: هذا أفضل. كان فقط مرتاحًا لأن جلده لم يعد يحكه بسبب الكيمونو المليء بالبراغيث الذي تخلص منه.

- يا إلهي، كم أتوق إلى حمام الآن.

لقد أخبر طاقمه عن مغامراته، لكنه لم يخبرهم أنه أصبح ساموراي وهاتاموتو، أو أنه أحد أتباع توراناغا، أو عن فوجيكو أو ماريكو. ولم يخبرهم أنهم سيهجمون في ناجازاكي ويستولون على السفينة السوداء بالعنف، أو أنه سيكون في مقدمة الساموراي. فكَرَّ بتعب: هذا سيحين وقته لاحقًا. وكل ما تبقى أيضًا.

هل سأتمكن من إخبارهم عن ماريكو سان؟

كان نعاله الخشبي ينقر على الألواح الخشبية للجسر الأول. كان الجنود الساموراي الحراس -وهم نصف عراة أيضًا- مسترخين حتى رأوه، ثم انحنوا له بأدب في أثناء مروره بينما يراقبونه باهتمام، لأنه كان ذلك الهمجي المدهش الذي حظي على تفضيل الزعيم توراناغا، والذي منحه توراناغا شرفًا غير مسبوق لهمجي، وهو أن يصبح هاتاموتو وساموراي.

كان هناك حارس آخر ينتظره عند البوابة الجنوبية الرئيسية للقلعة. اصطحبه إلى مقر إقامته داخل الحلقة الداخلية للقلعة. كان قد خُصص له غرفة في أحد بيوت الضيافة المحصنة والجذابة، لكنه رفض العودة إليها بأدب وقال للساموراي: «أريد حمامًا أولًا رجاءً».

- فهمت. هذا لطف منك. الحمام في هذا الاتجاه يا أنجين سان. نعم، إن الليلة حارة، أليس كذلك؟ وسمعت أنك كنت مع القذرين. الضيوف الآخرون سيقدرون لطفك. أشكرك بالنيابة عنهم.

لم يفهم بلاكتورن كل الكلمات، لكنه أدرك المعنى. «القذرون». هذا الوصف يناسب شعبي وأنا... نحن، وليس هم، هؤلاء المساكين.

قال مدير الحمام الرئيسي: «مساء الخير يا أنجين سان».

كان رجلٌ ضخمٌ في منتصف العمر ذو بطن وعضلات قوية. كانت إحدى الخدمات قد أيقظته لتبلغه بوصول زبون متأخر آخر. صفق الرجل بيديه فجاءت الخدمات، وتبعهن بلاكتورن إلى غرفة التنظيف حيث نظَّفَ جسده وغَسَلَ شعره، ثم طلب منهن القيام بذلك مجددًا. ثم سار إلى الحمام العميق ونزل في الماء المغلي، وقاوم الحرارة للحظات ثم استسلم تمامًا لاحتضانها الذي يستهلك العقل.

بعد وقت، ساعدته أيدي قوية على الخروج ودلكت جلده بزيت عطري، وراحت تفك عضلاته المتصلبة ورقبته، ثم قادتة إلى غرفة الاستراحة وأعطته

كيمونو قطنياً نظيفاً ومنشفاً تحت أشعة الشمس. ثم استلقى مع تنهيدة طويلة من الرضا.

- أرجو أن تعذرني... هل تريد الشاي يا أنجين سان؟
- نعم. شكرًا.

وصل الشاي. أخبر الخادمة بأنه سيبقى هنا الليلة ولن يزعج نفسه بالعودة إلى مقر إقامته. ثم ارتشف الشاي عندما أصبح وحيداً ومسترخياً، وشعر بأنه ينقي روحه. فكر باشمئزاز: «... أعشاب فاسدة...».

قال بصوت عالٍ: «تحلّ بالصبر، لا تدع الأمر يعكر صفو انسجامك. إنهم مجرد حمقى جهلة مساكين لا يدركون شيئاً. كنت مثلهم يوماً ما. لا بأس، الآن يمكنك أن تريهم، أليس كذلك؟».

أبعدهم عن ذهنه وأمسك بقاموسه. لكنه في تلك الليلة ولأول مرة منذ أن حصل على الكتاب، وضعه جانباً بعناية وأطفأ الشمعة. قال لنفسه: أنا متعب جداً.

لكنه ليس متعباً لدرجة عدم القدرة على الإجابة عن سؤال بسيط، قال له عقله: هل هم حقاً حمقى جهلة، أم أنك من تخدع نفسك؟

سأجيب عن ذلك لاحقاً، عندما يحين الوقت. الجواب غير مهم الآن. الآن كل ما أعرفه أنني لا أريدهم بالقرب مني.

استدار ووضع تلك المشكلة في إحدى زاويا ذهنه، وغط في النوم.

استيقظ وهو يشعر بالانتعاش. كان يوجد كيمونو نظيف ولباس داخلي وجوارب تابي بجانبه. وأغماد سيفيه لُمعت بعناية. ارتدى ملابسه بسرعة. كان الساموراي ينتظرون خارج المنزل. نهضوا من جلوسهم وانحنوا له.

- نحن حراسك اليوم يا أنجين سان.
- شكرًا. هل نذهب إلى السفينة الآن؟
- نعم. ها هو تصرّحك.
- جيد. شكرًا. هل يمكنني معرفة اسمك رجاءً؟
- موساشي ميتسوتوكي.
- شكرًا لك يا موساشي سان. هل نذهب الآن؟

توجهوا إلى أرصفة الميناء حيث كانت إيراسموس راسية بإحكام في مياه عمقها خمسة أمتار فوق قاع رملي. كان قاع السفينة نظيفًا. قفز في الماء وسبح تحت السفينة، فوجد أن الأعشاب البحرية كانت قليلة، وليس هناك سوى عدد قليل من البرنقيات. كانت الدفة سليمة. وفي داخل المستودع الذي كان جافًا ونظيفًا، وجد صوانًا وأشعل شرارة في كومة اختبار صغيرة من البارود، فاشتعلت على الفور، في حالة ممتازة.

تسلق ليتفقد أي شقوق عند الصاري الأمامي. لم يكن هناك شيء يُذكر، سواء في الصعود أو حول أي من الأجزاء التي تمكن من رؤيتها. وكانت بعض الحبال وحبال الراية متصلة بطريقة غير صحيحة، لكن إصلاحها لن يستغرق أكثر من نصف مناوبة.

سمح لنفسه بالابتسام عندما عاد إلى سطح السفينة فكر: أنتِ بخير كـ... كماذا؟ لم يتمكن من التفكير في مقارنة كافية، لذا اكتفى بالضحك وعاد إلى الأسفل. شعر وكأنه غريبًا في مقصورته، وبوحدة شديدة. كانت سيوفه موضوعة على السرير، لمسها ثم سحب سيف بائع الزيت من غمده. كانت الحرفية مذهلة وحدُ السيف ممتازًا. النظر إلى السيف أشعره بمتعة، لأنه كان قطعة فنية بحق. فكر كالمعتاد وهو يحركه تحت الضوء: لكنه قطعة قاتلة أيضًا.

كم عدد الأرواح التي أزهقتها في حياتك الممتدة على مدى مائتي عام؟ وكم ستزهق قبل أن تنتهي حياتك؟ هل لبعض السيوف حياة خاصة بها كما تقول ماريكو؟ ماريكو. ماذا عن...

ثم لاحظ صندوق البحر الخاص به منعكسًا على السطح الفولاذي، مما أخرجته من حالة الحزن المفاجئة.

أعاد السيف إلى غمده بحذر متجنبًا لمس النصل، إذ كانت التقاليد تقول إن لمسة واحدة قد تفسد هذا الكمال.

وقعت عيناه على صندوقه البحري الفارغ بينما كان يستند إلى السرير. سأل صورته المنعكسة في المصباح البحري النحاسي الذي لُمع بعناية ككل شيء آخر: «ماذا عن المخططات البحرية؟ وأدوات الملاحة؟». رأى نفسه يجيب: «ستشتريها من ناجازاكي، مع طاقمك. وستخطف رودريجز. نعم، ستخطفه قبل الهجوم، أليس كذلك؟».

شاهد ابتسامته تكبر: «أنت واثق جدًا بأن تورانا جا سيسمح لك بالرحيل، أليس كذلك؟».

أجاب بثقة تامة: «نعم، سواء ذهب إلى أوساكا أو لم يذهب، سأحصل على ما أريد. وسأحصل على ماريكو أيضًا».

وضع سيوفه في حزامه برضا وصعد إلى سطح السفينة وانتظر حتى يُحكم إغلاق الأبواب.

لم يكن الوقت قد اقترب من الظهيرة بعد عندما عاد إلى القلعة، لذا توجه إلى غرفته لتناول الطعام. تناول الأرز ووجبتين من السمك المشوي على الفحم مع صلصة الصويا، من إعداد طاهيه الخاص كما علمه. احتسى قارورة صغيرة من الساكي، ثم الشاي.

- أنجين سان؟

- نعم؟

انفتح باب الشوجي. ابتسمت فوجيكو بخجل وانحنت.

الفصل التاسع والأربعون

قال بالإنجليزية: «لقد نسيت أمرِك، كنتُ أخشى أنك قد فارتِ الحياة».

- أرجوك اعذرني يا أنجين سان، ما الخطب؟

أخبرها وهو يشعر بالخجل من نفسه: «لا شيء يا فوجيكو سان. أعتذر. نعم، آسف جداً... إنها مفاجأة، أليس كذلك؟ أنا سعيد برؤيتك. تفضلي بالجلوس».

قالت: «شكراً جزيلاً».

وأخبرته بصوتها الرقيق العالي عن مدى سعادتها برؤيته، وكيف تحسنت لغته اليابانية، وكيف يبدو بحالة جيدة، وكم كانت سعيدة للغاية بوجودها هنا.

راقبها وهي تجلس بصعوبة على الوسادة المقابلة له. قال: «ساقيك...». حاول تذكر كلمة «حروق» لكنه لم يستطع، فقال بدلاً من ذلك: «الساقان النار ألم، سيئ؟».

قالت فوجيكو وهي تركز وتراقب شفتيه: «لا، آسفة. ولكن ما زال الجلوس يؤلمني قليلاً. ساقاي تؤلمانني. أعتذر».

- أريني رجاءً.

- آسفة، رجاءً يا أنجين سان، لا أريد إزعاجك. لديك مشكلات أخرى. أنا...

- لم أفهم. كلامك سريع، أعتذر.

توسلت إليه: «آسفة. ساقاي بخير. لا مشكلة».

- مشكلة. أنتِ خليلتي، أليس كذلك؟ لا عيب في ذلك. أريها لي الآن.

نهضت بطاعة. كان من الواضح أنها تشعر بعدم الراحة، ولكن ما إن وقفت، بدأت بفك أربطة حزامها.

أمرها: «استدعي خادمة رجاءً».

أطاعت. وفي الحال انفتح باب الشوجي ودخلت امرأة لم يعرفها لمساعدة فوجيكو.

فك الحزام الصلب أولاً، ثم وضعت الخادمة خنجر فوجيكو وحزامها جانباً. سألت الخادمة بجفاء كما يفعل الساموراي: «ما اسمك؟».

- أرجو المعذرة يا سيدي، أنا آسفة جداً. اسمي هانا إيتشي.

همهم. «سيدة الزهرة الأولى» الآن هذا اسم جميل. كانت الخادومات بحكم العادة يطلق عليهن أسماء مثل سيدة الفرشاة أو الرافعة أو السمكة أو المكنسة الثانية أو القمر الرابع أو النجمة أو الشجرة أو الغصن وهكذا.

كانت هانا إيتشي في منتصف عمرها وتبدو قلقة جداً. قال لنفسه: أعتقد أنها تابعة للعائلة. ربما كانت تابعة لزوج فوجيكو الراحل. زوج! لقد نسيت أمره هو الآخر، والطفل الذي قُتل... كما قُتل الزوج على يد توراناكا الشيطان الذي لم يكن شيطاناً بل دايميو وقائداً جيداً، بل ربما عظيم. نعم، ربما استحق الزوج مصيره لو علمنا الحقيقة كاملة، أليس كذلك؟ فكر: لكن الطفل... لا عذر لذلك.

تركت فوجيكو الكيمونو الخارجي الأخضر المزخرف يسقط، وبدأت أصابعها ترتجف وهي تفك الرباط الحريري الرفيع للكيمونو الداخلي الأصفر، ثم تركته يسقط أيضاً. كانت بشرتها فاتحة، والجزء الذي ظهر من صدرها من بين طيات الحرير أظهر أنها كانت نحيفة وصغيرة الحجم. جثت هانا إيتشي وفكت رباط التنورة الداخلية التي تصل من خصرها إلى الأرض لتتمكن سيدتها من الخروج منها.

أمر: «لا».

اقترب ورفع الحافة. كانت الحروق تبدأ من خلف ساقها. قال: «أعذر». وقفت بلا حراك، وسالت قطرة من العرق على خدها مفسدةً مكياجها. رفع التنورة أكثر. كانت بشرتها محترقة في كل الجزء الخلفي من ساقها لكنها كانت تلتئم جيداً. كانت الأنسجة الجلدية الجديدة قد تشكلت بالفعل، ولا توجد أي عدوى أو إفرازات، فقط القليل من الدم النظيف حيث انفتحت الأنسجة الجديدة في الجزء الخلفي من ركبتيها نتيجة جلوسها.

أزاح الكيمونو جانباً وفك رباط التنورة الداخلية من الخصر. توقفت الحروق عند أعلى ساقها حيث حمتها العارضة التي سقطت عليها. ولكن

الحروق بدأت مجدداً في الجزء السفلي من ظهرها، مكونة حزاماً من الحروق بعرض نصف كف حول خصرها. كانت الأنسجة الجلدية الجديدة تستقر في شكل تجاعيد دائمة، قبيحة المنظر رغم أنها كانت تُشفى بمثالية.

قال وهو يعيد الكيمونو مكانه: «الطبيب جيد جداً. أفضل ما رأيته في حياتي. الأفضل يا فوجيكو سان. الندوب، ما أهمية ذلك؟ لا شيء. رأيته الكثير من الحروق، هل تفهمين؟ أردت رؤيتها لأتأكد إن كانت بخير أم لا. الطبيب جيد جداً. إن بوذا يحمي فوجيكو سان». وضع يديه على كتفيها ونظر في عينيها: «لا تقلقي الآن. لا يوجد ما يمكننا فعله، أليس كذلك؟ هل تفهمين؟».

انهمرت دموعها وهي تقول: «أرجوك اعذرني يا أنجين سان. أشعر بالخجل الشديد. أرجوك اعذر غبائي على الوجود هناك. لقد علقت هناك مثل حمقاء من الإيتا. كان يجب أن أكون معك، أحميك... ولستُ محبوسة مع الخدم في المنزل. لا يوجد شيء لي في المنزل، لا شيء، لا سبب لبقائي هناك...».

تركها تتحدث رغم أنه لم يفهم شيئاً تقريباً مما قالتها، محتضناً إياها بحنان. وفكر بحماس: يجب أن أعرف ماذا استخدم الطبيب، هذا أسرع وأفضل شفاء رأيته في حياتي. يجب أن يعرف كل قائد على سفن جلالة الملكة هذا السر... نعم، وبجدية كل قائد في كل سفن أوروبا أيضاً. انتظر لحظة، ألن يدفع كل منهم ذهباً مقابل هذا السر؟ يمكنك أن تجني ثروة. قال لنفسه: نعم. لكن ليس بتلك الطريقة. لن أستغل معاناة البحارة.

إنها محظوظة لأن الحروق لم تصب إلا ساقها وظهرها، ولم تصب وجهها. نظر إلى وجهها، كان لا يزال مربعاً ومسطحاً كما كان دائماً، وأسنانها حادة كالجرذ، لكن الدفء الذي ينبعث من عينيها عوض عن القبح. احتضنها مجدداً وقال: «الآن. لا تبكي. هذا أمر».

أرسل الخادمة لتحضر شاياً طازجاً وساكبي والعديد من الوسائد، وساعدها على الاستلقاء عليها، رغم إحراجها في البداية من الطاعة. قالت: «كيف يمكنني شكرك؟».

- لا شكر. أعيدي...

فكر بلاكثورن للحظة لكنه لم يستطع تذكر الكلمات اليابانية لـ«جميل» أو «تذكر»، فأخرج القاموس وبحث عنهم. جميل: negai... تذكر: omoi dasu. قال: «نعم، أعيدي الجميل. تذكرني؟».

ثم رفع قبضتيه مقلداً المسدسات وهو يوجهها. وتابع: «أومي سان، تذكرين؟».

صاحت: «بالطبع».

ثم طلبت بنبرة تعجب أن تنظر إلى الكتاب. لم تكن قد رأت الكتابة الرومانية من قبل، وكانت أعمدة الكلمات اليابانية إلى اللاتينية وإلى البرتغالية والعكس بلا معنى بالنسبة لها، لكنها أدركت سريعاً الغرض منه. قالت: «إنه كتاب عن... أعذر. كتاب كلمات، أليس كذلك؟».

- بلى.

سألت: «Hombun?».

أراها كيفية العثور على الكلمة باللاتينية والبرتغالية. قال: «Hombun: واجب». ثم أضاف باليابانية: «أنا أفهم الواجب. واجب الساموراي، أليس كذلك؟».

- بلى.

صفقت بيديها كما لو أنها كانت قد رأت لعبة سحرية. قال لنفسه: لكنه سحر، أليس كذلك؟ هدية من الرب. هذا الكتاب يفتح عقلها وعقل تورانا، وسأحدث بطلاقة قريباً.

أعطته كلمات أخرى وهو أخبرها بالترجمة إلى الإنجليزية أو اللاتينية أو البرتغالية، وكان دائماً يفهم الكلمات التي اختارتها ويجدها. لم يخذله القاموس قط.

بحث عن كلمة وقال باليابانية: «إنه سحر، أليس كذلك؟».

احتست الشاي وقالت: «بلى يا أنجين سان. الكتاب سحري. الآن يمكنني التحدث إليك. التحدث إليك حقاً».

- قليلاً. ببطء فقط، هل تفهمين؟

- نعم. أرجوك كن صبوراً معي. أرجو المعذرة.

دقت أجراس برج القلعة الضخمة معلنةً عن ساعة الماعز، ورددت المعابد في إيبدو صدى تغير الوقت.

وضع الكتاب في كفه وقال: «يجب أن أذهب الآن. سأذهب إلى الزعيم تورانا».

- سأنتظر هنا رجاءً، إذا سمحت لي.

- أين ستبقين؟

أشارت وقالت: «هناك، غرفتي بجوار هذه الغرفة. أرجو المَعذرة على جراتي...».

- ببطء. تحدثي ببطء. تحدثي ببساطة.

كررت الكلام ببطء مع المزيد من الاعتذارات. فقال: «جيد. جيد. سأراك لاحقاً».

بدأت في النهوض، لكنه هز رأسه وذهب إلى الفناء. كان الجو غائماً الآن، والهواء خانقاً. كان حراسه بانتظاره. وسرعان ما كان في فناء برج القلعة. كانت ماريكو هناك، تبدو أنحف من أي وقت مضى، وأكثر أثيرية، وجهها كالمرمر تحت مظلتها الذهبية الصدئة. كانت ترتدي كيمونو بني قاتم بحواف خضراء.

سألت وهي تنحني برسمية: «مرحباً يا أنجين سان. كيف حالك؟».

أخبرها أنه بخير مستمتعاً بمواصلة عادة التحدث باليابانية لأطول فترة ممكنة، قبل أن يتحولوا إلى البرتغالية عندما يشعر بالتعب أو إذا أرادوا التحدث بسرية أكبر.

قال بحذر وهما يصعدان درجات برج القلعة: «أنتِ...».

كررت ماريكو: «أنتَ...».

ثم انتقلت على الفور إلى البرتغالية بالجدية نفسها التي تحدثت بها الليلة الماضية وقالت: «أعتذر لكن رجاءً، لا لاتينية اليوم يا أنجين سان. اليوم لا تصلح اللاتينية، فهي لا تخدم الغرض الذي وجدت لأجله، أليس كذلك؟».

- متى يمكنني التحدث معك؟

- هذا صعب جداً، آسفة. لدي واجبات...

- لا يوجد شيء خطأ، أليس كذلك؟

- لا. أرجوك اعذرني، ما الذي يمكن أن يكون خطأ؟ لا يوجد شيء خطأ.

صعدا طابقاً آخر بصمت. فُحصت تصاريحهما كالعادة في الطابق التالي، وكان الحراس يقودونهما ويتبعونهما. بدأ المطر يتساقط بغزارة مما خفف من الرطوبة.

قال: «سيستمر المطر لساعات».

نظرت إلى الغيوم التي تغطي المكان: «نعم. لكن لن يوجد أرز دون المطر. سيتوقف المطر تمامًا قريبًا، بعد أسبوعين أو ثلاثة، ثم سيصبح الجو حارًا ورطبًا حتى الخريف. ستستمتع بالخريف يا أنجين سان».

- نعم.

كان يراقب إيراسموس البعيدة بجانب رصيف الميناء، قبل أن يحجب المطر رؤيتها. وواصل الصعود قليلًا. قال: «علينا الانتظار حتى تتوقف الأمطار بعد أن نتحدث مع الزعيم تورانا. ربما نجد مكانًا هنا للتحدث؟».

قالت بغموض: «قد يكون هذا صعبًا».

وجد هذا غريبًا. عادةً ما تكون حازمة وتنفذ «اقتراحاته» المؤدبة كما لو كانت أوامر، والتي تُعد عادةً أوامر. قالت: «أرجوك اعذرني يا أنجين سان، لكن الأمور صعبة بالنسبة لي في الوقت الحالي، ويوجد الكثير من الأشياء التي يجب عليّ القيام بها».

توقفت للحظة ونقلت مظلتها إلى يدها الأخرى ممسكة بطرف تنورتها. وتابع: «كيف كانت ليلتك؟ كيف كان أصدقاؤك وطاقمك؟».

قال: «بخير. كان كل شيء بخير».

سألت: «لكن ليس «بخير»؟».

بادلها النظر وقال: «بخير... ولكن غريب جدًا. تلاحظين كل شيء، أليس كذلك؟».

- لا يا أنجين سان. لكنك لم تذكرهم، وكنت تفكر فيهم كثيرًا خلال الأسبوع الماضي. لستُ ساحرة. آسفة.

قال بعد لحظة: «أنت متأكدة أنك بخير؟ لا توجد مشكلة مع بونتارو سان، أليس كذلك؟».

لم يتحدث عن بونتارو معها قط، ولم يذكر اسمه منذ غادرا يوكوسي. وبالاتفاق لم يستحضر أي منهما هذا الشبح قط منذ اللحظة الأولى. كانت قد قالت في تلك الليلة الأولى: «هذا طلبي الوحيد يا أنجين سان، مهما حدث خلال رحلتنا إلى ميشيما أو -إن شئت مريم- إلى إيدو، هذا ليس له علاقة بأحد

سوانا نحن الاثنين، أليس كذلك؟ لا يجب أن يُذكر بيننا أي شيء عن حقيقته. حسناً؟ لا شيء. رجاء؟».

- أوافقك الرأي. أقسم بذلك.

- وأنا كذلك. في النهاية تنتهي رحلتنا عند الجسر الأول في إيدو.

- لا.

- لا بد من وجود نهاية يا حبيبي. عند الجسر الأول تنتهي رحلتنا. أرجوك،

أو سأموت من العذاب خوفاً عليك ومن الخطر الذي وضعتك فيه...

كان يقف عند عتبة الجسر الأول صباح أمس، وهو يشعر بثقل مفاجئ في روحه، رغم ابتهاجه بسفينة إيراسموس.

كانت قد قالت: «يجب أن نعبر الجسر الآن يا أنجين سان».

قال: «نعم. لكنه مجرد جسر. واحد من الكثير. هيا يا ماريكو سان.

امشي بجانبني عبر هذا الجسر. بجانبني رجاء. دعينا نمش معاً». ثم أضاف باللاتينية: «واعتقدي أنك محمولة وأنا نسير يداً بيد نحو بداية جديدة».

ترجلت من الهودج وسارت بجانبه حتى وصلا إلى الجانب الآخر. هناك

عادت إلى المحفة المغطاة وصعدا المنحدر البسيط. كان بونتارو ينتظر عند بوابة القلعة.

تذكر بلاكثورن كيف كان يصلي أن يضربه برق من السماء.

سأل مجدداً عندما وصلا بسطة الدرج الأخيرة: «لا توجد مشكلة معه،

أليس كذلك؟».

هزت رأسها.

قال توراناغا: «هل السفينة جاهزة تماماً يا أنجين سان؟ لا يوجد أي

خطأ؟».

- لا خطأ يا سيدي. السفينة مثالية.

قال توراناغا: «كم عدد الرجال الإضافيين... كم عدد الرجال الإضافيين

الذين تريد لهم لتسيير السفينة...». نظر إلى ماريكو وقال: «رجاء أسأليه كم

عدد أفراد الطاقم الإضافيين الذين سيحتاجهم لإبحار السفينة. أريد أن أتأكد

تماماً من أنه يفهم ما أريد معرفته».

- يقول أنجين سان إنه يحتاج إلى ثلاثين بحارًا وعشرين مدفعيًا كحد أدنى لإبحار السفينة. كان طاقمه الأصلي يتكون من مائة وسبعة رجال، بما في ذلك الطهاة والتجار. وللإبحار والقتال في هذه المياه، سيكون طاقم من مائتي ساموراي كافيًا.

- وهل يعتقد أنه يمكنه تعيين الرجال الآخرين الذين يحتاجهم في ناجازاكي؟

- نعم يا سيدي.

قال توراناغا باستياء: «أنا بالتأكيد لن أثق بالمرتزقة».

- عذرًا، هل ترغب في أن أترجم ذلك يا سيدي؟

- ماذا؟ لا، لا داعي لذلك.

نهض توراناغا متظاهرًا بعدم الرضا ونظر من النافذة إلى المطر. كانت المدينة كلها مغطاة بالأمطار الغزيرة. فكر: فليستمر المطر لشهور. يا آلهة، اجعلوا المطر يدوم حتى رأس السنة. متى سيرى بونتارو أخي؟ ثم قال: «أخبري أنجين سان أنني سأمنحه أتباعه غداً. اليوم فظيع. هذا المطر سيستمر طوال اليوم. لا فائدة من التبلل».

- حسنًا يا سيدي.

سمعتها تتحدث وارتسمت ابتسامة ساخرة على وجهه. لم يمنعه الطقس طوال حياته من فعل أي شيء. فكر وهو يعلم أنه لا يستطيع الانحراف عن المسار الذي اختاره بعد: هذا يجب أن يقنعها - أو أي مشككين آخرين - أنني تغيرت بشكل دائم نحو الأسوأ. قال: «غداً أو بعد غد، ما أهمية الأمر؟ أخبريه أنني سأستدعيه عندما أكون مستعدًا. عليه أن ينتظر في القلعة حتى ذلك الحين».

سمعتها وهي تنقل الأوامر إلى أنجين سان.

قال بلاكتورن بنفسه: «حسنًا يا زعيم توراناغا، أنا أفهم. لكن هل يمكنني أن أسأل باحترام: هل يمكنني الذهاب إلى ناجازاكي بسرعة؟ أعتقد أن الأمر مهم. أعتذر».

قال توراناغا بجفاء مما جعل الأمر صعبًا عليه ثم أشار إليه بالرحيل: «سأقرر ذلك لاحقًا. وداعًا يا أنجين سان. سأقرر مستقبلك قريبًا».

رأى أن الرجل يريد أن يلح في الطلب ولكنه امتنع بأدب. فكر: جيد، على الأقل بدأ يتعلم بعض الآداب. ثم قال: «أخبرني أنجين سان أنه لا حاجة له في انتظارك يا ماريكو سان. وداعًا يا أنجين سان».

امتثلت ماريكو لما أمرها به. عاد توراناغا لينظر إلى المدينة والأمطار الغزيرة، منصتًا إلى صوت المطر. ثم أغلق الباب خلف أنجين سان. سأل توراناغا دون النظر إليها: «عما كان الشجار؟».

- سيدي؟

التقطت أذناه أقل رجفة في صوتها. قال: «بالطبع بينك أنتِ وبونتارو، أم هل كان هناك شجار آخر يهمني؟». أضاف بسخرية لازعة محاولاً تسريع المسألة: «مع أنجين سان ربما، أو أعدائي المسيحيين، أو تسوكو سان؟».

- لا يا سيدي. رجاء اعذرني. بدأ الأمر كما يحدث عادةً يا سيدي، مثل معظم الشجارات بين الزوج والزوجة، حقًا بسبب لا شيء. ثم فجأة كما يحدث دائمًا، تُستحضر كل أمور الماضي، ويؤثر على الرجل والمرأة إذا كانا في حالة مزاجية ملائمة.

- وكانت الحالة المزاجية ملائمة لك؟

- نعم. أرجو أن تعذرني. لقد استفزرت زوجي بلا رحمة. كانت غلطتي تمامًا. أنا نادمة يا سيدي، في مثل تلك الأوقات، يقول الناس أشياء متهورة.

- هيا، أسرع. ما هذه الأشياء المتهورة؟

كانت مثل الغزال المحاصر. وجهها شاحبٌ كالطباشير. كانت تعلم أن الجواسيس قد همسوا له بالفعل بما صُرخ في هدوء منزلهم.

أخبرته كلَّ ما قيل بقدر ما استطاعت أن تتذكر. ثم أضافت: «أعتقد أن كلمات زوجي كانت نابعة من غضب جنوني أنا من استفزته. إنه مخلص... أنا متأكدة من إخلاصه. إذا كان يوجد من يجب أن يُعاقب، فهو أنا يا سيدي. أنا من أثار الجنون».

جلس توراناغا مجددًا على الوسادة بظهر مستقيم ووجهه جامد كالحجر. قال: «ماذا قالت السيدة جينجيكو؟».

- لم أتحدث إليها يا سيدي.

- لكن كنتِ تنوين، أو كنتِ قد نويتِ، أليس كذلك؟

- نعم يا سيدي. بعد إذنك، أنوي المغادرة على الفور إلى أوساكا.

- ستغادرين عندما أقول أنا وليس قبل ذلك، والخيانة وحش قذر أينما وجدت.

انحنيت تحت وطأة كلماته القاسية وقالت: «نعم يا سيدي. أرجو أن تسامحني. الخطأ خطئي».

رن جرسٌ صغير بيده. فُتح الباب وكان ناجا يقف هناك. قال: «نعم يا سيدي؟».

- استدعِ الزعيم سودارا هنا والسيدة جينجيكو على الفور.

- حسنًا يا سيدي.

استدار ناجا ليذهب.

- انتظر. ثم استدعِ مجلسي، يابو والجميع... وجميع القادة الكبار. يجب أن يكونوا هنا عند منتصف الليل. وأخلِ هذا الطابق. كل الحراس. عُد أنت مع سودارا.

- حسنًا يا سيدي.

أغلق ناجا الباب خلفه بوجه شاحب.

سمع توراناغا الرجال يهرعون على الدرج. توجه إلى الباب وفتحه. كان الممر خاليًا. أغلق الباب بقوة وأقفل المزلاج. أخذ جرسًا آخر ورنه. فُتح باب داخلي في الطرف البعيد من الغرفة. هذا الباب كان بالكاد مرئيًا، فقد دُمجَ بمهارة مع الخشب. كانت تقف هناك امرأة في منتصف العمر، ممتلئة قليلًا. كانت ترتدي زي راهبة بوذية بغطاء للرأس. قالت: «نعم يا زيمي العظيم؟». قال: «شاي رجاءً يا تشانو تشان». أغلق الباب. عادت عيناه إلى ماريكو وقال: «إذن تعتقدين أنه مخلص؟».

قالت وهي تسعى جاهدة لإرضائه: «أنا متأكدة من ذلك يا سيدي. أرجو أن تسامحني، كان ذلك خطئي وليس خطأه. أنا من أثار غضبه».

أخرج توراناغا منديلًا ورقيًا ومسح جبينه وقال: «نعم، لقد فعلتِ ذلك. مقزز. مروع. لا يُغتفر. لكن كان هذا محظوظًا».

- سيدي؟

قال: «لو لم تستفزيه، ربما ما كنتُ علمتُ بأي خيانة. ولو كان قال كل ذلك دون استفزاز، لما كان هناك سوى مسار واحد للأحداث. ولكن كما هو الحال الآن. أنتِ تمنحينني خيارًا بديلاً».

- سيدي؟

لم يُجب. كان يفكر: أتمنى لو كان هيرو ماتسو هنا، لكان يوجد على الأقل رجل واحد أستطيع الوثوق به تمامًا. قال: «ماذا عنكِ؟ ماذا عن ولاءكِ؟».

- رجاءً يا سيدي، يجب أن تعلم أنك تملك ذلك.

لم يجب. كانت عيناه لا ترحمان.

فُتح الباب الداخلي ودخلت تشانو الراهبة بثقة إلى الغرفة دون أن تطرق، حاملةً صينية في يديها. قالت: «ها هو الشاي يا زعمي العظيم، كان جاهزاً لك».

جثت كما يفعل الفلاحون، وكانت يداها خشنتين مثل يدي الفلاحين، ولكن ثقتها الكبيرة وطمأنينتها الداخلية كانت واضحة. قالت: «ليباركك بوذا بسلامه». ثم التفتت إلى ماريكو وانحنت كما ينحني الفلاح ثم استقامت براحة وتابعت: «ربما تشرفيني بصب الشاي يا سيدتي. ستفعلين ذلك بجمال دون أن تسكبيه، أليس كذلك؟».

كانت عيناها تلمعان بمرح داخلي.

قالت ماريكو: «بكل سرور يا أوكو سان».

منحتها اللقب الديني للأم، مخفيةً دهشتها. لم ترَ والدتها ناجا من قبل. كانت تعرف معظم السيدات الرسميات الأخريات لتوراناجا، حيث رأتهن في الاحتفالات الرسمية، ولكنها كانت على علاقة جيدة فقط مع كيريتسوبو والسيدة سازوكو.

قال توراناجا: «تشانو تشان، هذه هي السيدة تودا ماريكو نو بونتارو».

- حسناً، آسفة جداً، اعتقدت أنكِ واحدة من السيدات المحترمات لزعمي العظيم. أرجو أن تسامحيني يا سيدة تودا، ليباركك بوذا.

قالت ماريكو: «شكراً لك».

قدمت الكوب لتوراناجا. قبله واحتسى منه.

قال: «اسكبي لتشانو سان ولنفسكِ».

- عذراً، ليس لي يا زعيמי العظيم، إن أذنت لي، لكنني شربت الكثير من الشاي لدرجة أنني في حاجة ملحّة إلى التبول، والدلو بعيد جداً على هذه العظام العجوزة.

قال تورانا، مسروراً أنه قد استدعاها عند عودته إلى إيدو: «التمرين سيفيدك».

قالت: «نعم يا زعيمي العظيم. أنت محق... كما كنت دائماً». ثم حولت تشانو انتباهها الودود إلى ماريكو وقالت: «إذن أنت ابنة الزعيم أكييتشي جينساي».

توقفت يد ماريكو وهي تحمل الكوب في الهواء وقالت: «نعم. أرجو أن تعذريني...».

ضحكت تشانو بلطف، وارتفع بطنها وهبط مع ضحكتها: «لا يوجد ما يستدعي المَعذرة يا ابنتي. لم أتمكن من التعرف عليك دون سماع اسمك، أرجو أن تعذريني، لكن آخر مرة رأيتك فيها كانت في زفافك».

- حقاً؟

- نعم، رأيتك في زفافك، لكنك لم تريني. كنتُ أراقبك من خلف ستار. نعم، أنت وكل العظماء، الطاغية وناكامورا التايكو المستقبلي وكل النبلاء. كنتُ خجولة للغاية لأشارك في تلك المناسبة. ولكنها كانت أفضل أوقات حياتي. كان ذلك في السنة الثانية التي أكرمني فيها زعيمي العظيم وكنت حاملاً، رغم أنني كنت وما زلت فلاحاً.

تجددت عيناها وأضافت: «أنت لم تتغيري كثيراً عن تلك الأيام، ما زلت واحدة من مختاري بوذا».

- أتمنى لو كان ذلك صحيحاً يا أوكو سان.

- إنه صحيح. هل كنت تعلمين أنك كنت واحدة من مختاري بوذا؟

- لستُ كذلك يا أوكو سان، رغم أنني أتمنى أن أكون.

قال تورانا، «إنها مسيحية».

ضحكت تشانو بمرح: «مسيحية... وما أهمية ذلك بالنسبة للمرأة، سواء كانت مسيحية أو بوذية يا زعيمي العظيم؟ ليس كثيراً في بعض الأحيان، رغم

أنه لا بد من وجود إله للمرأة. نحن النساء نحتاج إلى إله يا زعيמי العظيم لمساعدتنا على التعامل مع الرجال، أليس كذلك؟».

- ونحن الرجال نحتاج إلى صبر، صبر إلهي للتعامل مع النساء، أليس كذلك؟

ضحكت المرأة مما أضفى دفئاً على الغرفة وللحظة قلل من شعور ماريكو بالقلق. أضافت تشانو: «نعم يا زعيمي العظيم. وكل ذلك بسبب جناح سماوي لا مستقبل له وقليل من الدفاء والكثير من الجحيم».

همهم تورانا جا وقال: «ما رأيك في ذلك يا ماريكو سان؟».

قالت ماريكو: «السيدة تشانو حكيمة رغم صغر سنها».

قالت الراهبة: «يا سيدتي، تقولين أشياء جميلة لعجوز حمقاء. أتذكر جيداً. كان الكيمونو الخاص بك أزرق بأجمل نقوش طيور الكركي التي رأيتهما في حياتي، من الفضة». اتجهت أنظارها إلى تورانا جا وقالت: «حسناً يا زعيمي العظيم، أردت فقط أن أجلس للحظة. أرجو المذرة الآن».

- لا يزال يوجد وقت. ابقِي حيث أنتِ.

قالت تشانو وهي تقف بصعوبة على قدميها: «نعم يا زعيمي العظيم، كنت سأطيعك كما أفعل دائماً، لكن الطبيعة تناديني. لذا أرجو أن تكون رحيماً بفلاحة عجوز، فأنا أكره أن أسبب لك أي حرج. لقد حان وقت المغادرة. كل شيء جاهز، يوجد طعام وساكي متى شئت يا زعيمي العظيم».

- شكراً لك.

أغلق الباب خلفها بهدوء. انتظرت ماريكو حتى فرغ كوب تورانا جا، ثم ملأته مجدداً.

- في ماذا تفكرين؟

- كنت أنتظر يا سيدي.

- ماذا تنتظرين يا ماريكو سان؟

- يا زعيم، أنا هاتاموتو. لم أطلب معروفًا من قبل. أرغب في طلب معروف الآن بصفتي هاتاموتو...

قال تورانا جا: «لا أريدك أن تطلبي أي معروف بصفتك هاتاموتو».

- إذن أود طلب أمنية حياتي.

- لستُ زوجًا لأحقق لك ذلك.
- أحيانًا قد يطلب التابع من زعيمه...
- نعم، أحيانًا، ولكن ليس الآن. الآن ستمنعين لسانك عن قول أي أمنية حياتية أو معروف أو طلب أو أي شيء آخر.
- كانت أمنية الحياة هي معروف، وفقًا للتقاليد القديمة، قد تطلبه الزوجة من زوجها، أو الابن من أبيه -وأحيانًا الزوج من زوجته- دون أن يفقد ماء وجهه، بشرط أنه إذا تحقق هذا المعروف، يتعهد الشخص بعدم طلب أي معروف آخر في هذه الحياة. وفقًا للتقاليد، لا يُسمح بطرح أي أسئلة حول هذا المعروف ولا يُذكر مرة أخرى.
- سمعا طرقًا مهذبًا على الباب.
- قال توراناغا: «افتحي الباب».
- أطاعته. دخل سودارا متبوعًا بزوجه السيدة جينجيكو وناجا.
- يا ناجا سان، انزل إلى الطابق الثاني وامنع أي شخص من الصعود دون أوامري.
- غادر ناجا بخطوات ثابتة.
- أشار توراناغا إلى مكان أمامه قليلًا مواجهًا للآخرين. وقال: «أغلق الباب يا ماريكو سان واجلسي هناك».
- أمرت باستدعائكما لأن هناك أمورًا عائلية خاصة وعاجلة يجب مناقشتها.
- انتقلت أنظار سودارا بشكل لا إرادي إلى ماريكو، ثم عادتا إلى والده. أما السيدة جينجيكو فلم تلتفت.
- قال توراناغا بلهجة قاسية: «إنها هنا يا بني، لسببين: الأول لأنني أريدها هنا، والثاني لأنني أريدها هنا».
- أجاب سودارا وهو يشعر بالعار من وقاحة والده تجاه الجميع: «حسنًا يا أبي. هل يمكنني أن أسأل عن سبب انزعاجك مني؟».
- هل يوجد سبب يجعلني منزعجًا؟
- لا يا سيدي، إلا إذا كان حرصي على سلامتك وترددي في السماح لك بمغادرة هذه الدنيا سببًا للانزعاج.

- ماذا عن الخيانة؟ سمعت أنك تتجراً على تولي مكاني كقائد لعشيرتنا. شحب وجه سودارا، وكذلك السيدة جينجيكو. قال: «لم أفعل قط ذلك لا بالتفكير ولا بالقول ولا بالفعل. ولم يفعل أي فرد من عائلتي أو أي شخص في حضوري».

قالت السيدة جينجيكو بالقوة نفسها: «هذا صحيح يا سيدي». كان سودارا رجلاً فخوراً نحيفاً بعينين ضيقتين باردتين وشفتين رفيعتين لا تبسман أبداً. يبلغ من العمر أربعة وعشرين عاماً، قائداً بارعاً وثنائي أبناء تورانا الخمسة الأحياء. يعشق أطفاله وليس له محظيات، وكان مخلصاً لزوجته.

كانت جينجيكو قصيرة، تكبر زوجها بثلاث سنوات، بدينة بسبب إنجابها أربعة أطفال له. لكنها ذات ظهر مستقيم، وتتمتع بالحماية الشرسة نفسها التي كانت لدى أختها أوتشيبا تجاه أطفالها، مع الوحشية الكامنة نفسها التي ورثتها عن جدهما جورودا.

قالت: «مَنْ اتَّهمَ زوجي فهو كاذب». قال تورانا جا: «ماريكو سان، اسألي السيدة جينجيكو ماذا أمر زوجك أن تقولي».

- طلب مني الزعيم بونتارو، بل أمرني أن أقنعك بأن الوقت قد حان لكي يتولى الزعيم سودارا السلطة، وأن الآخرين في المجلس يشاركون زوجي الرأي، وأنه إذا لم يرغب الزعيم تورانا جا في التنازل عن السلطة، فيجب أن تُؤخذ منه بالقوة.

قال سودارا: «لم نفكر أنا أو أي منا قط في هذا يا أبي. نحن مخلصون، ولن أفكر أبداً في...».

سأل تورانا جا: «إذا منحتك السلطة، ماذا ستفعل؟». أجابت جينجيكو على الفور: «كيف يمكن للزعيم سودارا أن يعرف ذلك وهو لم يفكر أبداً في مثل هذا الاحتمال الآثم؟ أعذر يا سيدي، لكن من المستحيل أن يجيب لأنه لم يخطر على باله قط. كيف يمكن أن يفكر في ذلك؟ أما بالنسبة لبونتارو سان، فمن الواضح أن الكامبي قد استحوذ عليه».

- ادعى بونتارو أن الآخرين يشاركونه رأيه.

سأل سودارا بحقد: «مَن هم؟ أخبرني مَن هم وسيموتون خلال لحظة».

- أخبرني أنت مَن هم.

- لا أعرف أحدًا يا سيدي، وإلا لكنت قد أبلغتك.

- ألم تكن ستقتلهم أولًا؟

- قانونك الأول هو الصبر، وقانونك الثاني هو الصبر. لطالما اتبعت أوامرك. كنت سأنتظر وأبلغك. إذا أسأت إليك، فأؤمرني بتنفيذ السبيوكو. لا أستحق غضبك يا سيدي، لم أرتكب خيانة. لا أستطيع تحمل غضبك الذي يغمرني.

اتفقت السيدة جينجيكو: «نعم يا سيدي. أرجوك اعذرني لكنني أوافق زوجي بتواضع. إنه بريء وكذلك جميع شعبنا. نحن مخلصون... كل ما نملكه هو لك، كل ما نحن عليه قد صنعه أنت، سنفعل كل ما تأمر به».

- إذن! أنتم أتباع أوفياء، أليس كذلك؟ مطيعون؟ تطيعون الأوامر دائمًا؟

- نعم يا سيدي.

- جيد. إذن اذهبا واقتلا أطفالكما. الآن.

حول سودارا نظره من والده إلى زوجته.

حركت رأسها قليلًا وأومات بالموافقة.

انحنى سودارا لتوراناجا. اشتدت قبضته على مقبض سيفه ثم نهض. أغلق الباب بهدوء خلفه. ساد صمت عظيم في المكان بعد رحيله. نظرت جينجيكو مرة واحدة إلى ماريكو، ثم حدثت إلى الأرض.

دقت الأجراس معلنة منتصف ساعة الماعز. بدا أن الهواء في الغرفة يزداد كثافة. توقفت الأمطار لفترة قصيرة، ثم عادت أقوى من ذي قبل.

بعد أن دقت الأجراس معلنة الساعة التالية، كان هناك طرق على الباب. قال: «نعم؟».

فُتح الباب. قال ناجا: «عذرًا يا سيدي، أخي... الزعيم سودارا يريد الصعود مجددًا».

- دعه يصعد، ثم عد إلى موقعك.

دخل سودارا وجثا وانحنى. كان مبتلًا بالكامل، وشعره ملتصق بفعل المطر. ارتجفت كتفاه قليلًا وقال: «أطفالي... لقد أخذتهم بالفعل يا سيدي».

اهتزت جينجيكو وكادت تسقط للأمام، لكنها سيطرت على ضعفها وحدثت إلى زوجها. سألت: «أنت... لم تقتلهم؟».

هز سودارا رأسه وقال توراناها بقسوة: «أطفالك في جناحي، في الطابق الأسفل. أمرت تشانو سان بإحضارهم بعد أن استدعيتكما هنا. كنت بحاجة للتأكد منكما. الأوقات العصيبة تتطلب اختبارات عصبية».

ثم دق الجرس اليدوي.

سألت جينجيكو وهي تحاول بكل يأس الحفاظ على وقار بارد: «هل... تسحب أ... أمرك يا سيدي؟».

- نعم. سُحب أمري. هذه المرة. كان من الضروري معرفة حقيقتكما. وحقيقة وريثي.

خفض سودارا رأسه بذل وقال: «شكرًا لك، شكرًا لك يا سيدي».

فُتح الباب الداخلي وقال توراناها: «تشانو سان، أحضري أحفادي إلى هنا للحظة».

بعد لحظات، دخلت ثلاث مربيات بملابس قاتمة والمرضعة مع الأطفال. كانت الفتيات في الرابعة والثالثة والثانية من عمرهن، بينما الابن الرضيع، يبلغ بضعة أسابيع فقط من عمره، نائمًا بين ذراعي المرضعة. جميع الفتيات يرتدين كيمونو قرمزيًا مع شرائط قرمزية في شعورهن. ركعت المربيات وانحنين لتوراناجا، وقلدنهن الأطفال بجدية، ثم وضعن رؤوسهن على التاتامي... باستثناء الطفلة الصغرى التي احتاجت إلى مساعدة لطيفة ولكن حازمة لوضع رأسها.

بادلهن توراناها الانحناء بجدية. وبعد انتهاء واجبهن، اندفعت الفتيات إلى أحضانه... باستثناء الصغرى التي اتجهت نحو ذراعي أمها.

عند منتصف الليل، تجول يابو بتفاخر عبر ساحة برج القلعة المضاءة بالمشاعل. كان النخبة من حراس توراناها الشخصيين منتشرين في كل مكان. القمر ضبابيٌ والنجوم بالكاد مرئية.

- يا ناجا سان، ما سبب كل هذا؟

- لا أعلم يا سيدي، لكن استُدعي الجميع إلى قاعة الاجتماع. أرجو المعذرة، لكن يجب عليك ترك سيوفك معي.

احمرَّ وجه يابو من هذا الخرق غير المسبق للآداب وقال: «هل أنت...». لكنه غير رأيه شاعرًا بتوتر الشاب المتصاعد وقلق الحراس القريبين. لذا قال: «بأوامر من يا ناجا سان؟».

- بأوامر والدي يا سيدي. عذرًا، يمكنك أن تختار ألا تذهب إلى الاجتماع، لكن يجب أن أخبرك أنك استُدعيت دون سيوف، وعذرًا، لكن هذا هو الحال الذي ستظهر عليه. أرجو المعذرة، لكن ليس لدي خيار.

رأى يابو كومة السيوف الملقاة بجانب بيت الحراسة قرب البوابة الرئيسية الضخمة. وزن الأخطار المترتبة على الرفض ووجدها كبيرة. لذا تخلى عن أسلحته على مضض. انحنى ناجا بأدب وهو يشعر بالإحراج أيضًا عندما استلمهم منه. دخل يابو إلى الداخل. كانت الغرفة الكبيرة بها نوافذ محصنة وأرضية حجرية وعوارض خشبية.

سرعان ما تجمع خمسون قائدًا بارزًا، وثلاثة وعشرون مستشارًا، وسبعة من الدايميو الودودين من المقاطعات الشمالية الصغرى. كانوا جميعًا في حالة من التوتر والاضطراب.

سأل يابو بمرارة وهو يأخذ مكانه: «ما سبب كل هذا؟».

هز أحد القادة كتفيه وقال: «ربما يتعلق الأمر بالرحلة إلى أوساكا».

نظر آخر حوله بأمل وقال: «ربما يكون هناك تغيير في الخطة، أليس كذلك؟ قد يأمر بالسماء...».

- أعتذر لكنك مستغرق في أحلام يقظة. لقد قرر. قرر زعيمنا... أنها أوساكا ولا شيء غير ذلك. مرحبًا يا يابو ساما، متى وصلت إلى هنا؟

- أمس. لقد علقت في قرية صيد صغيرة قدرة تُدعى يوكوها ما لمدة تزيد على أسبوعين، جنوب هنا، مع جنودي. الميناء جيد ولكن الحشرات! البعوض والحشرات القدرة... لم يكونوا بذلك السوء في إيزو.

- هل أنت مطلع على جميع الأخبار؟

- تقصد كل الأخبار السيئة؟ الرحيل ما زال بعد ستة أيام، أليس كذلك؟

- بلى، أمر فظيع. مخجل.

قال قائد آخر بتجهم: «صحيح، ولكن الليلة أسوأ. لم أكن يومًا دون سيوف من قبل. إطلاقًا».

قال يابو بتعمد: «إنها إهانة».

نظر إليه جميع من حوله.

أجاب القائد سيراتا كيوشيو قائد الجيش السابع الأشيب والصارم، كاسرًا الصمت: «أوافقك الرأي. لم يسبق لي أن كنت من دون سيوف في العلن من قبل. يجعلني أشعر كأني تاجر نتن. أعتقد... الأوامر أوامر ولكن بعض الأوامر لا ينبغي أن تُعطى».

قال شخص ما: «هذا صحيح تمامًا. ماذا كان سيفعل القبضه الحديدية إذا كان هنا؟».

قال شاب: «كان سيشق بطنه قبل أن يتخلى عن سيوفه. كان سيفعلها الليلة في ساحة القلعة. أتمنى لو كان القبضه الحديدية هنا. كان سيعيد الأمور إلى نصابها... كان سيشق بطنه أولًا».

كان سيراتا تومو، الابن الأكبر للقائد ونائب قائد الجيش الرابع.

تنحى القائد كيوشيو وقال: «لقد فكرت في ذلك. على أحدهم أن يتحمل المسؤولية... ويؤدي واجبه. على أحدهم أن يوضح أن الزعيم الإقطاعي يعني المسؤولية والواجب».

نصحه يابو: «معذرة، لكن من الأفضل أن تنتبه لما يقوله لسانك».

- ما فائدة اللسان في فم الساموراي إذا مُنع من أن يكون ساموراي؟
أجاب إيسامو المستشار العجوز: «لا شيء. أوافقك الرأي. من الأفضل أن نموت».

قال الشاب سيراتا تومو: «أعذر يا إيسامو سان، لكن هذا هو مستقبلنا القريب على أي حال. نحن مثل حمام مقيد أمام صقر بغضب».

قال يابو بحذر محاولاً إخفاء شعوره بالرضا: «رجاءً تحكموا في ألسنتكم. إنه زعيمنا الإقطاعي، وحتى يتولى الزعيم سودارا أو المجلس المسؤولية علناً، سيظل هو زعيمنا الإقطاعي ويجب إطاعته. أليس كذلك؟».

تفحص القائد كيوشيو يابو، ويده تتحسس مقبض سيفه دون وعي. سأل: «ماذا سمعت يا يابو ساما؟».

- لا شيء.

بدأ المستشار: «قال بونتارو سان أن...».

قاطعته القائد كيوشيو بحدة: «أرجو أن تعذرني يا إيسامو سان، لكن ما قاله القائد بونتارو أو ما لم يقله ليس مهمًا. ما قاله يابو ساما صحيح. الزعيم الإقطاعي هو الزعيم الإقطاعي. ولكن مع ذلك، فإن لدى الساموراي حقوقًا، والتابع له حقوق. حتى الدايميو لهم حقوق، أليس كذلك؟».

نظر يابو إلى القائد محاولًا قياس عمق تلك الدعوة. وقال: «إن إيزو مقاطعة الزعيم توراناغا. لم أعد دايميو إيزو... أنا فقط الحاكم نيابةً عنه». ألقى نظرة حول الغرفة الكبيرة وسأل: «الجميع هنا، أليس كذلك؟».

قال أحد القادة مشيرًا إلى الابن الأكبر لتوراناغا الذي كان مكروهاً من الجميع: «باستثناء الزعيم نوبورو».

قال أحدهم: «نعم، هذا أفضل. لا يهم يا قائد، المرض الصيني سينهي أمره قريبًا وسنتخلص من مزاجه السيئ إلى الأبد».

- ورائحته.

- متى سيعود؟

- من يدري؟ لا نعلم حتى لماذا أرسله توراناغا ساما إلى الشمال. من الأفضل أن يبقى هناك، أليس كذلك؟

- لو كنت مصابًا بذلك المرض، لكان مزاجك سيئًا مثله، أليس كذلك؟

- بلى يا يابو سان. نعم، كنت سأكون كذلك. من المؤسف أنه مريض، فهو قائد جيد... أفضل من السمكة الباردة.

أضاف القائد كيوشيو مستخدمًا لقب سودارا السري.

صفر المستشار وقال: «يبدو أنه يوجد شياطين في الهواء الليلة تجعلك تتحدث بلسانك بهذه الجراءة. أم أن السبب هو الساكي؟».

أجاب القائد كيوشيو بضحكة مريرة: «ربما هو المرض الصيني».

قال يابو: «احمني من ذلك يا بوذا. لو فقط يغير الزعيم توراناغا رأيه بشأن أوساكا».

قال الشاب: «سأشق بطني الآن إذا كان ذلك سيقنعه».

- لا أقصد الإساءة يا بني، لكنك مستغرق في أحلام يقظة. لن يتغير أبدًا.

- نعم يا أبي. لكنني فقط لا أفهمه...

سأل يابو بعد لحظة: «هل سنذهب جميعاً معه؟ في الفرقة نفسه؟».

قال إيسامو المستشار العجوز: «نعم. سنذهب كمرافقين، مع أَلْفِي رجل مجهزين بالكامل بالمعدات الرسمية. سيستغرقنا الأمر ثلاثين يومًا للوصول إلى هناك. لم يتبقَّ لدينا سوى ستة أيام».

قال القائد كيوشيو: «ليس لدينا الكثير من الوقت، أليس كذلك يا يابو ساما؟».

لم يجب يابو، لم تكن هناك حاجة. لم يكن القائد بحاجة إلى إجابة. غرق الجميع في أفكارهم.

فُتِح باب جانبي ودخل توراناغا. تبعه سودارا. انحنى الجميع باحترام شديد. بادلهم توراناغا الانحناء لهم وجلس مواجهًا إياهم، بينما جلس سودارا كوريث محتمل أمامه قليلًا مواجهًا الآخرين. دخل ناغا من الباب الرئيسي وأغلقه.

كان توراناغا الوحيد الذي يرتدي السيوف.

قال ببرود: «أُبلغتَ عن أن بعضكم يتحدث بالخيانة ويفكر بالخيانة ويخطط للخيانة».

لم يجب أحد أو يتحرك. نظر توراناغا ببطء وبلا رحمة إلى كل وجه. لم تكن هناك حركة. ثم تحدث القائد كيوشيو: «هل يمكنني أن أسألك بكل احترام يا سيدي، ماذا تعني بالخيانة؟».

أجاب توراناغا بحدة: «أي تشكيك في أمر أو قرار أو موقف لأي زعيم إقطاعي، في أي وقت، هو خيانة».

تصلب ظهر القائد وقال: «إذن أنا مذنب بالخيانة».

- إذن اخرج ونفذ السييوكو على الفور.

قال الجندي بفخر: «سأفعل يا سيدي، ولكن أولاً أطالب بحق حرية الكلام أمام رجالك الأوفياء وضباطك ومستشار...».

- لقد فقدت كل الحقوق.

- حسنًا. إذن أطالب به كأمنيّتي الأخيرة -بصفتي هاتاموتو- ومقابل ثمانية وعشرين عامًا من الخدمة المخلصة.

- اختصر حديثك.

أجاب القائد كيوشيو ببرود: «سأفعل يا سيدي. أود أن أقول أولاً: الذهاب إلى أوساكا والانحناء للفلاح إيشيدو هو خيانة لشرفك، وشرف عشيرتك، وشرف رجالك الأوفياء، وتراثك الخاص، وهو مخالف تمامًا للبوشيدو. ثانيًا: أتهمك بهذه الخيانة وأقول إنك بذلك فقدت حقك في أن تكون زعيمنا الإقطاعي. ثالثًا: أطلب بأن تتنحى فورًا لصالح الزعيم سودارا وترحل عن هذه الحياة بشرف... أو تحلق رأسك وتعتزل في دير، أيهما تفضل».

انحنى الجنرال بجمود ثم جلس مجددًا على ركبتيه. انتظر الجميع وهم بالكاد يتنفسون الآن بعدما أصبح ما لا يصدق حقيقة واقعة.

قال توراناغا بحدة فجأة: «ماذا تنتظر؟».

حدق القائد كيوشيو إليه وقال: «لا شيء يا سيدي. رجاء اعذرني». بدأ ابنه في الوقوف.

قال: «لا. أنت مأمور بالبقاء هنا».

انحنى القائد للمرة الأخيرة لتوراناغا ثم نهض وغادر بكرامة هائلة. تحرك البعض بقلق وبدأت حركة خفيفة تجتاح الغرفة، لكن قسوة توراناغا سيطرت مجددًا وقال: «هل هناك شخص آخر يعترف بالخيانة؟ شخص آخر يجرؤ على كسر البوشيدو؟ شخص يجرؤ على اتهام زعيمه الإقطاعي بالخيانة؟».

قال إيسامو المستشار العجوز بهدوء: «رجاء اعذرني يا سيدي، لكن يؤسفني أن أقول إن زهابك إلى أوساكا هو خيانة لتراثك».

- في اليوم الذي أذهب فيه إلى أوساكا، ستغادر هذه الأرض.

انحنى الرجل الأشيب بأدب وقال: «حسنًا يا سيدي».

نظر توراناغا إلى الجميع بعينين لا ترحم. تحرك أحدهم بقلق والتفتت الأعين نحوه. كان هذا الساموراي محاربًا فقد رغبته في القتال منذ سنوات وحلق رأسه ليصبح راهبًا بوذيًا وكان الآن عضوًا في الإدارة المدنية لتوراناغا، لم يقل شيئًا، وهو يكاد يذبل من خوف حاول جاهدًا إخفاءه.

- ممّ تخاف يا نوماتا سان؟

قال الرجل ناظرًا إلى الأسفل: «لا شيء يا سيدي».

- جيد. إذن اذهب ونفذ السيوكو لأنك كاذب وخوفك هو رائحة كريهة معدية.

أنَّ الرجل وخرج متعتراً. سيطر الخوف عليهم جميعاً. راقبهم تورانا جا وانتظر.

أصبح الجو ثقيلاً، وبدأت صوت طقطقة لهب المشعل صاحب بغرابة. ثم مدرّكاً لواجبه ومسؤوليته، استدار سودارا وقال: «رجاءً يا سيدي، هل يمكنني تقديم بياناً باحترام؟».

- أي بيان؟

- سيدي، أعتقد أنه لا... لا توجد خيانة هنا، ولن تكون هناك خيانة أخرى...

- أنا لا أشاركك رأيك.

- أرجو أن تعذرني يا سيدي، أنت تعرف أنني سأطيعك. سنطيعك جميعاً. نحن نسعى فقط إلى الأفضل من أجلك...

- الأفضل هو قراري. ما أقرره هو الأفضل.

انحنى سودارا بعجز معلناً عن خضوعه وأصبح صامتاً. لم يحول تورانا جا نظره عنه. كانت نظراته قاسية. قال: «أنت لم تعد وريثي».

شحب وجه سودارا. ثم حطم تورانا جا التوتر في الغرفة.

- أنا الزعيم الإقطاعي هنا.

انتظر لحظة، ثم نهض في صمت تام وغادر المكان بغرور. أغلق الباب خلفه. تنفس الجميع بارتياح. وامتدت الأيدي تبحث عن مقابض السيوف بلا جدوى، لكن لم يغادر أحد من مكانه.

بدأ يتحدث سوادارا أخيراً: «هذا... هذا الصباح أنا... سمعت من قائدنا العام. سيصل الزعيم هيرو ماتسو خلال بضعة أيام. سأحدث معه... التزموا الصمت واصبروا، وكونوا أوفياء لزعيمنا الإقطاعي. دعونا نذهب ونؤدّ احترامنا للقائد سيراتا كيوشيو...».

كان تورانا جا يصعد الدرج، تغمره وحدة كبيرة، وصدى خطواته يتردد في فراغ البرج. توقف قرب القمة واتكأ للحظة على الجدار وهو يتنفس بصعوبة.

كان الألم يعتصر صدره مجدداً، فحاول تدليكه ليخفف عنه. تمتم: «إنه مجرد نقص في التمارين، هذا كل ما في الأمر، مجرد نقص في التمارين».

واصل الصعود. كان يعرف أنه في خطر عظيم. الخيانة والخوف كانا معديين، ويجب القضاء عليهما بلا رحمة فور ظهورهما. وحتى حينها لا يمكنك التأكد من أنك قضيت عليهما بالكامل. الصراع الذي كان يخوضه لم يكن لعبة أطفال. الضعفاء هم غذاء للأقوياء، والأقوياء بيادق للأقوى. إذا طالب سودارا بسلطته علناً، فلن يتمكن من منعه. كان عليه الانتظار حتى يصل رد زاتاكى.

أغلق تورانا جا بابه وأحكم إغلاقه، ثم خطا نحو النافذة. في الأسفل، كان يرى قاداته ومستشاريه يتدفقون بصمت عائدين إلى منازلهم خارج أسوار برج القلعة. المدينة تغرق في ظلام شبه تام وراء الجدران. وفي السماء القمر باهت ومحاط بالضباب. كانت ليلة كئيبة ومعتمة. وبدا له أن الهلاك يلوح في الأفق.

الفصل الخمسون

جلس بلاكثورن وحده تحت شمس الصباح في ركن من الحديقة خارج منزل الضيافة، شارد الذهن وبيده قاموسه. كان يومًا صافيًا بلا غيوم -أول مرة منذ عدة أسابيع- والخامس منذ آخر مرة رأى فيها توراناغا. طيلة هذا الوقت كان محتجزًا في القلعة، غير قادر على رؤية ماريكو أو زيارة سفينته وطاقمه، أو استكشاف المدينة، أو الذهاب للصيد أو ركوب الخيل. يذهب للسباحة مرة واحدة في اليوم في أحد الخنادق مع بعض الساموراي، ولتمضية الوقت، يعلم بعضهم السباحة والبعض الآخر الغطس. لكن ذلك لم يجعل الانتظار أسهل.

قالت ماريكو بالأمس عندما قابلها بالمصادفة في القسم الخاص به من القلعة: «أعتذر يا أنجين سان، لكن الوضع نفسه منطبق على الجميع. حتى الزعيم هيرو ماتسو ينتظر. لقد مر يومان منذ وصوله ولم يرَ الزعيم توراناغا بعد. لم يره أحد».

- لكن هذا مهم يا ماريكو تشان. ظننت أنه يفهم أن كل يوم مهم. ألا توجد أي طريقة لأرسل إليه رسالة؟
- بلى يا أنجين سان. الأمر بسيط. فقط اكتب. إذا أخبرتني ما تريد قوله سأكتبه لك. يضطر الجميع إلى الكتابة لطلب مقابلة، هذه هي أوامره الحالية. يرجى أن تكون صبورًا، هذا كل ما يمكننا فعله.
- إذن رجاءً اطلبي مقابلة. سأكون ممتنًا...
- لا مشكلة، إنه من دواعي سروري.
- أين كنت؟ لقد مرت أربعة أيام منذ أن رأيته.
- أرجو أن تعذرني ولكن كان عليّ القيام بالكثير من الأمور. الأمر... الأمر صعب قليلًا بالنسبة لي، الكثير من التحضيرات...

- ما الذي يجري؟ تبدو القلعة كلها وكأنها خلية نحل على وشك الهجرة منذ ما يقرب من أسبوع الآن.
- أعتذر. كل شيء بخير يا أنجين سان.
- حقًا؟ عذرًا، لكن تنفيذ قائد ومسؤول كبير للسيبوكو في ساحة برج القلعة، هذا أمر طبيعي؟ حبس الزعيم توراناغا لنفسه في البرج العاجي، وجعل الناس ينتظرون دون سبب واضح... هل هذا أيضًا أمر طبيعي؟ ماذا عن الزعيم هيرو ماتسو؟
- الزعيم توراناغا هو زعيمنا. مهما فعل فهو الصواب.
- وأنت يا ماريكو سان؟ لماذا لم أرك؟
- أرجو المَعذرة، آسفة ولكن الزعيم توراناغا أمرني بأن أتركك لتدرس. أنا هنا لزيارة خليلتك يا أنجين سان. لا يُفترض أن أزورك.
- لماذا قد يعترض على ذلك؟
- ربما فقط ليجعلك مضطربًا إلى التحدث بلغتنا. لم يمض سوى بضعة أيام، أليس كذلك؟
- متى ستغادرين إلى أوساكا؟
- لا أعلم. توقعت أن أغادر قبل ثلاثة أيام، لكن الزعيم توراناغا لم يوقع بعدُ تصريحِي. لقد رتبت كل شيء -الحمالين والخيول- وأرسل يوميًا أوراق سفري إلى مساعده لتوقيعها، لكنها تعود إليّ دائمًا. ويُقال: «قدّمها غدًا».
- ظننت أنني سأأخذك إلى أوساكا عبر البحر. ألم يقل إنه يجب أن آخذك عبر البحر؟
- بلى، بلى، قال ذلك، لكن... حسنًا يا أنجين سان، لا يمكنك أن تتوقع أبدًا ما سيفعله زعيمنا الإقطاعي. إنه يغير خططه.
- هل كان دائمًا هكذا؟
- نعم ولا. منذ ما حدث في يوكوسي وهو مليء بشيء من... كيف تقولها... الكآبة، أليس كذلك؟ بلى، الكآبة، وأصبح مختلفًا جدًّا. إنه... نعم، إنه مختلف الآن.

- منذ عبورنا الجسر الأول وأنتِ أيضًا مليئة بالكآبة ومختلفة جدًا. نعم، أنتِ مختلفة الآن.

- كان الجسر الأول نهاية وبداية يا أنجين سان، ووعدنا. أليس كذلك؟
- بلى. أرجو المعذرة.

انحنيت بحزن وغادرت، ثم عندما ابتعدت بأمان، همست دون أن تلتفت: «أنت...». وظلت الكلمة عالقة في الممر مع رائحة عطرها.

حاول بلاكتورن الاستفسار من فوجيكو خلال وجبة العشاء، لكنها لم تكن تعرف شيئًا مهمًا، أو ربما لم تكن تريد أو لا تستطيع شرح ما كان يحدث في القلعة.

- أرجو أن تعذرني يا أنجين سان.

ذهب إلى فراشه وهو يغلي. كان يغلي من الإحباط بسبب التأخيرات والليالي التي قضاها دون ماريكو. كان دائمًا من الصعب عليه معرفة أنها قريبة جدًا، وأن بونتارو غادر المدينة، والآن بسبب كلمة «أنت...»، كان يعلم أن رغبتهما ما زالت بنفس قوة رغبته. ذهب إلى منزلها قبل بضعة أيام بحجة أنه بحاجة إلى مساعدة في تعلم اليابانية. أخبره الحراس الساموراي بأسفهم لكونها ليست في المنزل. شكرهم ثم تجول بلا هدف إلى البوابة الجنوبية الرئيسية. كان يمكنه رؤية المحيط. وبسبب كون الأرض مسطحة، لم يكن بإمكانه رؤية الأرصفة أو المواني، رغم ظنه أنه يستطيع تمييز صواري سفينته الطويلة من بعيد.

كان المحيط يناديه. كان الأفق هو ما يجذبه أكثر من البحر العميق، الحاجة إلى رياح عاتية تغسله، عيناه تضيقان أمام قوتها ولسانه يتذوق ملوحتهما بينما تميل السفينة، وفي الأعلى تصدر القوائم والأشرعة والصواري وحبال الرايات صريرًا وتئن تحت ضغط الأشرعة التي كانت تهدر ببهجة من وقت لآخر عندما يغير النسيم العليل اتجاهه.

وكانت الحرية أكثر من الأفق. الحرية في الإبحار إلى أي مكان وفي أي طقس وحسب أي رغبة. أن يقف على سطح سفينته وأن يكون الحاكم، مثلما كان توراناها هو الحاكم المطلق هنا.

نظر بلاكتورن إلى الجزء الأعلى من البرج. كان ضوء الشمس يتلألأ على منحنياته الجميلة المبلطة. لم يرَ أي حركة هناك قط، رغم علمه بأن كل نافذة أسفل الطابق العلوي كانت محروسة.

دقت الأجراس لتعلن تغيير الساعة. ولأول مرة أخبره عقله أن هذه كانت منتصف ساعة الحصان، وليست الساعة الثامنة من هذه المناوبة... إنها الظهيرة.

أعاد قاموسه إلى كمّه، سعيدًا بأنه قد حان وقت أول وجبة حقيقية. اليوم كانت الوجبة عبارة عن أرز وجمبري مشوي سريعًا وحساء سمك وخضراوات مخللة.

- هل ترغب في المزيد يا أنجين سان؟
- شكرًا لك يا فوجيكو. نعم. أرز رجاء. وبعض السمك. جيد...
بحث عن الكلمة التي تعني «لذيذ» في قاموسه وقالها عدة مرات ليحفظها. قال: «نعم، لذيذ، أليس كذلك؟».

كانت فوجيكو مسرورة: «شكرًا لك. هذا السمك من الشمال. المياه أبرد هناك، هل تفهمني؟ اسمه «كوروما إيبى»».

كرر بلاكتورن الاسم وحفظه في ذاكرته. وعندما انتهى وأخذوا صواني الطعام بعيدًا، صبت المزيد من الشاي وأخرجت حزمة من كمّها.

أظهرت له العملات الذهبية: «ها هو المال يا أنجين سان. خمسون كوبان. تساوي مئة وخمسين كوكو. أنت تحتاجها، أليس كذلك؟ لبجارتك. أرجو المَعذرة، هل تفهمني؟».

- بلى، شكرًا لك.

- على الرحب والسعة. هل يكفي؟

- نعم. أعتقد ذلك. من أين حصلتِ عليه؟

حاولت فوجيكو أن تجد طريقة بسيطة لتشرح: «رئيس لدى تورانا جا ساما... ذهبت إلى شخص مهم لتورانا جا. رئيس قرية. مثل مورا، حسنًا؟ ليس ساموراي... فقط رجل مال. ووقع باسمي من أجلك».

- فهمت. شكرًا لك. مالي؟ الكوكو الخاص بي؟

- نعم.

- هذا المنزل. الطعام. الخدم. من يدفع؟

- أنا أدفع. من... من كوكو لسنة كاملة.

- هل هذا كافٍ، رجاءً؟ كوكو كافٍ؟

قالت: «نعم. نعم، أعتقد ذلك».

- لماذا القلق؟ يظهر القلق على وجهك؟

- أرجو المعذرة يا أنجين سان. لست قلقة. لا قلق...

- هل يؤلم؟ الحروق تؤلم؟

- لا ألم. انظر.

نهضت فوجيكو بهدوء من الوسائد السميكة التي أصر بلاكتورن على أن تستخدمها. ثم جثت مباشرة على التاتامي دون أن تظهر أي إشارة على الألم، ثم جلست على كعبيها واستقرت. قالت: «انظر، كل شيء بخير».

قال وهو مسرور من أجلها: «جيد جدًا، هل يمكنني الرؤية؟».

نهضت بحذر ورفعت طرف ثوبها لتسمح له برؤية ظهر ساقها. كانت الأنسجة النديبة سليمة ولم تنفتح أو تلتهب. قال: «جيد جدًا، نعم، ستصبح قريبًا كجلد طفل، أليس كذلك؟».

- شكرًا لك، نعم. ناعمة. شكرًا لك يا أنجين سان.

لاحظ بلاكتورن التغيير الطفيف في نبرة صوتها لكنه لم يعلق. لم يجعلها تنصرف في تلك الليلة.

كان الجماع مرضيًا. لا أكثر. لكنه لم يشعر بأي سعادة بعده، ولا ذلك الخمول المبهج. كان مجرد تزاوج. فكر أنه كان خطأ، ومع ذلك ليس خطأ، أليس كذلك؟

جثت مجددًا قبل أن تغادره وانحنت له، ثم وضعت يديها على جبينه وقالت: «أشكرك من كل قلبي. أرجوك نم الآن يا أنجين سان».

- شكرًا لك يا فوجيكو سان. سأنام لاحقًا.

- أرجوك نم الآن. هذا واجبي وسيسعدني كثيرًا.

كانت لمسة يدها دافئة وجافة وغير مريحة. ومع ذلك تظاهر بأنه ينام. ظلت تلمسه بلطف وبصبر كبير. ثم عادت إلى غرفتها بهدوء. الآن بعد أن

أصبح وحيداً، سعيداً بكونه وحيداً، استند بلاكثورن برأسه إلى ذراعيه ونظر في الظلام.

كان قد قرر بشأن فوجيكو خلال الرحلة من يوكوسي إلى إيدو. كانت ماريكو قد أخبرته وهي مستلقية بين ذراعيه: «هذا واجبك».

- أعتقد أن ذلك سيكون خطأ، أليس كذلك؟ إذا أنجبت طفلاً، حسناً، سيستغرق الأمر مني أربع سنوات لأبحر إلى الوطن ثم أعود مجدداً، وفي تلك الفترة وحده الرب يعلم ما قد يحدث.

تذكر كيف ارتجفت ماريكو حينها.

- يا أنجين سان، تلك فترة طويلة جداً.

- إذن ثلاث سنوات. لكنك ستكونين على متن السفينة معي. سأصطحبك مع...

- وعدك يا حبيبي. لا شيء من هذا القبيل، أليس كذلك؟

- أنت محقة. بلى. لكن مع فوجيكو، قد تحدث الكثير من الأمور السيئة. لا أعتقد أنها سترغب في إنجاب طفلي.

- أنت لا تعلم ذلك. لا أفهمك يا أنجين سان. هذا واجبك. يمكنها دائماً منع حدوث الحمل، أليس كذلك؟ لا تنس، هي خليلتك. في الحقيقة، أنت تسلبها كرامتها إذا لم تدعها إلى الفراش. فبعد كل شيء، إن تورانا جا بنفسه أمرها بالدخول إلى منزلك.

- لماذا فعل ذلك؟

- لا أعلم. لا يهم. لقد أمر بذلك، إذاً فهو الأفضل لك ولها. لقد كان الأمر جيداً، أليس كذلك؟ لقد أدت واجبها بأفضل ما تستطيع، أليس كذلك؟ أرجو المعذرة، ألا تعتقد أنه يجب عليك أن تؤدي واجبك؟

- كفافك مواعظ. أحبينني ولا تتحدثني أكثر.

- كيف يجب أن أحبك؟ مثلما أخبرتني كيكو سان اليوم؟

- كيف ذلك؟

- هكذا.

- هذا جيد جداً... جيد جداً.

- لقد نسيت، أرجو أن تضيء المصباح يا أنجين سان. لدي شيء لأريك إياه.

- لاحقًا، الآن أنا...

- لماذا تضحك؟

- أنتِ تضحكين... لماذا لا أضحك أنا أيضًا؟

- لكنني كنت أضحك لأنك كنت تضحك وشعرت باهتزاز معدتك، ولن تدعني أنهض. أرجوك دعني أنهض يا أنجين سان.

- لكن لا يمكنك أن تغضبي يا حبيبتي ماريكو. لا توجد امرأة في العالم يمكنها أن تكون غاضبة حقًا حتى ولو قليلًا في هذه الحالة...

- لكن يا أنجين سان، أرجوك، يجب أن تدعني أنهض. أريد أن أريك.

- حسنًا، إذا كان ذلك...

تذكر بلاكثورن ذلك الحب. كانت ماريكو تثيره أكثر مما كانت كيكو تفعل، وفوجيكو لم تكن شيئًا مقارنة بأي منهما. وفليسييتي؟

فكر متأملًا مشكلته الكبرى: آه، فليسييتي، فكر. لا بد أنني مجنون لأحب ماريكو وكيكو. ومع ذلك... الحقيقة عن فليسييتي هي أنها الآن لا يمكن أن تُقارن حتى بفوجيكو. كانت فوجيكو نظيفة. فليسييتي المسكينة. لن أتمكن أبدًا من إخبارها، لكن ذكرى علاقتنا ونحن نتصرف كحيوانات في القش أو تحت أغطية قدرة تجعل جسدي يقشعر الآن. أصبحت أكثر دراية الآن. أستطيع تعليمها الآن، لكن هل ترغب هي في التعلم؟ وكيف يمكننا أن نصبح نظيفين ونبقى نظيفين ونعيش نظيفين؟

إن الوطن هو قذارة متراكمة فوق قذارة، لكن هناك حيث زوجتي وأطفالي، وهناك حيث أنتمي.

كانت قد أخبرته ماريكو ذات مرة عندما كانت ضبابية الظلام تطغى عليه: «لا تفكر في ذلك الوطن يا أنجين سان. الوطن الحقيقي هنا، أما الآخر فهو على بُعد ملايين الملايين من أعواد الوقت. هنا هو الواقع. ستفقد صوابك إذا حاولت الحصول على الوا من مثل هذه المستحيلات. اسمع، إذا أردت السلام، عليك تعلم شرب الشاي من كوب فارغ».

كانت قد أرته كيفية فعل ذلك: «تخيل الواقع داخل الكوب، تخيل الشاي هناك... مشروب الآلهة الدافئ ذو اللون الأخضر الباهت. إذا ركزت بما فيه الكفاية... آه، يمكن لمعلم زن أن يريك يا أنجين سان. إنه صعب للغاية لكن بسيط جدًا. كم أتمنى أن أكون ذكية بما يكفي لأريك إياه، لأنه حينها ستكون كل الأشياء في العالم ملكك فور طلبها... حتى الهدية التي لا تُنال... السكينة التامة».

حاول مرات عديدة، لكنه لم يتمكن قط من شرب الشاي عندما لم يكن موجودًا.

- لا يهم يا أنجين سان. يستغرق الأمر وقتًا طويلًا لتتعلم، لكنك ستتعلم يومًا ما.

- هل تستطيعين أنت؟

- نادرًا. فقط في لحظات الحزن الشديد أو الوحدة. لكن طعم الشاي غير الحقيقي يبدو وكأنه يعطي معنى للحياة. من الصعب شرحه. فعلته مرة أو مرتين. أحيانًا تحصل على الوا بمجرد المحاولة.

الآن وهو مستلقٍ في ظلام القلعة، حيث كان النوم صعب المنال، أشعل الشمعة بالصوان وركز على الكوب الخزفي الصغير الذي أعطته إياه ماريكو، والذي كان يحتفظ به دائمًا بجانب سريره. حاول لمدة ساعة. لكنه لم يستطع تنقية ذهنه. كانت الأفكار ذاتها تطارد بعضها: أريد المغادرة، أريد البقاء. أخشى العودة، أخشى البقاء. أكره الأمرين وأريدهما معًا. ثم هناك الـ«إيتا».

لو كان الأمر متروكًا لي وحدي لما غادرت، ليس بعد. لكن يوجد آخرون متورطون وهم ليسوا إيتا، وقد وقعت كربان: «أقسم بالرب إنني سأقود الأسطول وأعيده بفضل الرب إلى الوطن مجددًا». أريد ماريكو. أريد رؤية الأرض التي منحني إياها توراناغا، وأحتاج إلى البقاء هنا لأتمتع بثمرة حظي العظيم لوقت أطول قليلًا. نعم. لكن الواجب أيضًا متورط، وهذا يتفوق على كل شيء، أليس كذلك؟

مع بزوغ الفجر، علم بلاكثورن أنه رغم تظاهره بأنه أجل القرار مجددًا، كان في الواقع قد قرر. بلا رجعة.

ليساعدني الرب، فأولًا وأخيرًا أنا الربان.

فتح تورانا جا الورقة الصغيرة التي وصلته بعد ساعتين من الفجر. كانت الرسالة من والدته تقول ببساطة: «أخوك يوافق يا بني. سترسل رسالة تأكيده اليوم يدويًا. الزيارة الرسمية للزعيم سودارا وعائلته يجب أن تبدأ خلال عشرة أيام».

جلس تورانا جا بضعف. رفراف الحمام في أعشاشه ثم استقر مجددًا. كانت أشعة الشمس الصباحية تتسلل إلى العلية بلطف، رغم أن الغيوم الممطرة كانت تتجمع. نزل سريعًا بعد أن استجمع قوته إلى جناحه في الأسفل ليبدأ.

- ناجا سان.

- نعم يا أبي؟

- أرسل هيرو ماتسو سان إلى هنا. وبعده، مساعدتي.

- حسنًا يا أبي.

وصل القائد العجوز بسرعة. كانت مفاصله تتن من صعوده وانحنى باحترام، وسيفه مرخي في يده كالمعتاد، ووجهه أكثر شراسة وأكبر عمرًا وأكثر عزمًا من أي وقت مضى.

- أهلاً وسهلاً يا صديقي القديم.

نظر هيرو ماتسو إلى الأعلى: «شكرًا لك يا سيدي. يحزنني أن أرى هموم العالم على وجهك».

- ويحزنني أن أرى وأسمع عن هذا الكم من الخيانة.

- نعم، الخيانة شيء فظيع.

رأى تورانا جا العينين القويتين وهما تدرسانه. قال: «بإمكانك التحدث بحرية».

قال الرجل العجوز بجدية: «هل سبق لي أن تحدثت بغير حرية يا سيدي؟».

- أرجو المَعذرة على جعلك تنتظر.

- اعذرني أنا على إزعاجك. ما أمرك يا سيدي؟ أرجوك أعطني قرارك بشأن مستقبل عشيرتك. هل هو أوساكا أخيرًا... الانحناء أمام تلك الكومة من القذارة؟

- هل سبق لك أن رأيتني أتخذ قرارًا نهائيًا بشأن أي شيء؟

قطب هيرو ماتسو جبينه، ثم استقام بظهره للتخفيف من ألم كتفيه بتفكير وقال: «لطالما عرفت أنك صبور وحاسم ودائمًا ما انتصرت. لهذا السبب لا أستطيع فهمك الآن. ليس من طبعك أن تستسلم».

- أليست المملكة أهم من مستقبلي؟

- لا.

- إيشيدو وبقية الأوصياء لا يزالون الحكام الشرعيين وفقًا لوصية التايكو.

- أنا تابع ليوشي توراناغا نو مينووارا ولا أعترف بأحد سواه.

- جيد. بعد غد هو اليوم الذي اخترته لمغادرتي إلى أوساكا.

- نعم. سمعت ذلك.

- ستكون أنت قائد المرافقة، وبونتارو سيكون القائد الثاني.

تنهد القائد العجوز وقال: «أعلم ذلك أيضًا يا سيدي. لكن منذ عودتي يا سيدي، تحدثت مع كبار مستشاريك وقادتك....».

- نعم. أعلم. وما رأيهم؟

- أنك يجب ألا تغادر إيدو. وأنه يجب إلغاء أوامرك مؤقتًا.

- بواسطة من؟

- بواسطتي. بأوامري.

- هل هذا ما يرغبون به؟ أم هذا ما قررته أنت؟

وضع هيرو ماتسو سيفه على الأرض أقرب إلى توراناغا، وبعد أن أصبح بلا سلاح، نظر إليه مباشرة وقال: «أرجوك اعذرني يا سيدي، أود أن أسألك عما يجب أن أفعل. يبدو أن واجبي يخبرني أنني يجب أن أتولى القيادة وأمنعك من المغادرة. هذا سيجبر إيشيدو على مهاجمتنا في الحال. نعم، بالطبع سنُهزم، ولكن يبدو أن هذه هي الطريقة الوحيدة المشرفة».

- لكنها غبية، أليس كذلك؟

تجعدت حواجب الجنرال الرمادية كالفلواز وقال: «لا. نموت في المعركة بشرف. نستعيد الوا. إن الكانتو ستكون غنيمة حرب، لكننا لن نرى الحاكم الجديد في هذه الحياة. لا يوجد شيء يمكننا فعله».

- لم أستمع قط بإهدار الرجال بلا فائدة. لم أخسر معركة من قبل ولا أرى سببًا لأبدأ الآن.

- خسارة معركة واحدة ليست عارًا يا سيدي. هل الاستسلام مشرف؟
- هل اتفقتم جميعًا على هذه الخيانة؟
- يا سيدي، أرجوك اعذرني، لقد طلبت رأيًا عسكريًا فقط من الأفراد. لا توجد خيانة أو مؤامرة.
- لكنك ما زلت استمعت إلى الخيانة.
- أرجوك اعذرني، لكن إذا وافقت -بصفتي القائد العام لك- فإن الأمر لم يعد خيانة، بل يصبح سياسة دولة قانونية.
- نزع القرارات من زعيمك الإقطاعي يُعد خيانة.
- يا سيدي، يوجد العديد من السوابق لعزل الزعماء.. لقد فعلتها أنت، وجورودا فعلها، التايكو... كلنا فعلنا ذلك، بل وأساء. المنتصر لا يرتكب خيانة.
- هل قررت أن تعزلني؟
- أطلب مساعدتك في اتخاذ القرار.
- أنت الشخص الوحيد الذي ظننت أنني أستطيع الوثوق به.
- أقسم بجميع الآلهة إنني لا أريد سوى أن أكون تابعك الأكثر إخلاصًا. أنا مجرد جندي. أريد أن أقوم بواجبي تجاهك. أنا أفكر فيك فقط. وأستحق ثقتك. فلتأخذ رأسي إذا كان ذلك سيساعدك. إذا كان سيقنعك بالقتال، فأنا أقدم لك حياتي وحياة عشيرتي، اليوم -في العلن أو في السر، وبأي طريقة ترغب بها- أليس هذا ما فعله صديقنا القائد كيوشيو؟ أنا أسف، لكنني لا أفهم لماذا يجب أن أسمح لك بإهدار عمر من الجهد.
- إذن أنت ترفض الانصياع لأوامري بقيادة المرافقة التي ستغادر إلى أوساكا بعد غد؟
- مرّت سحابة فوق الشمس ونظر كلا الرجلين من النافذة. قال توراناغا: «ستمطر مجددًا قريبًا».

- نعم. لقد كان هناك الكثير من الأمطار هذا العام، أليس كذلك؟ يجب أن تتوقف الأمطار قريبًا وإلا ستفسد المحاصيل.

مكتبة

نظرا إلى بعضهما بعضًا.

t.me/soramnqraa

- حسنًا؟

قال القبضة الحديدية ببساطة: «أسألك رسميًا يا سيدي، هل تأمرني بمرافقتك من إيدو بعد غد لبدء الرحلة إلى أوساكا؟».

- بما أن جميع مستشاريَّ قدموا نصائحهم بعدم المغادرة، فسأقبل برأيهم ورأيك وأؤجل مغادرتي.

لم يكن هيرو ماتسو مستعدًا على الإطلاق لهذا الرد. سأل: «ماذا؟ لن تغادر؟».

ضحك توراناغا وسقط قناعه وعاد إلى شخصيته القديمة. قال: «لم أكن أنوي الذهاب إلى أوساكا قط. لماذا أكون بهذا الغباء؟».

- ماذا؟

قال توراناغا بمرح: «اتفاقي في يوكوسي لم يكن أكثر من خدعة لكسب الوقت. وقد وقع إيشيدو في الفخ. الأحقق يتوقع حضوري في أوساكا خلال أسابيع. وزاتاكي وقع في الفخ أيضًا. وكذلك أنت وكل أتباعي الأوفياء المتشككين. كسبت شهرًا دون أي تنازل حقيقي، وجعلت إيشيدو وحلفاءه القذرين في فوضى. سمعت أنهم يتسابقون للسيطرة على الكانتو بالفعل. لقد وُعد كياما بها كما وُعد زاتاكي».

هز هيرو ماتسو رأسه، ثم عندما أدرك الفكرة بوضوح، ارتسمت على وجهه ابتسامة مبهجة وقال: «لم تكن تنوي الذهاب قط؟ كل هذا خدعة؟».

- بالطبع. اسمع، كان يجب أن يُخدع الجميع، أليس كذلك؟ زاتاكي والجميع، حتى أنت. وإلا كان الجواسيس قد أخبروا إيشيدو وكان سيتحرك ضدنا فورًا، وحينها لم يكن ليتمكن أي حظ جيد في الأرض أو آلهة في السماء من منع الكارثة عني.

- هذا صحيح... سامحني يا زعيم. أنا غبي جدًا. أستحق أن أفقد رأسي. إذن كل هذا كان مجرد هراء، دائمًا هراء. لكن... ماذا عن القائد كيوشيو؟

- لقد اعترف بأنه مذنب بالخيانة. أنا لا أحتاج إلى قادة خائنين، بل إلى تابعين مطيعين.

- ولكن لماذا هاجمت الزعيم سودارا؟ لماذا سحبت تأييدك منه؟

قال توراناغا بحدة: «لأن القيام بهذا يرضيني».

- نعم. أرجو أن تعذرني. هذا حقلك وحدك. أرجوك أن تسامحني على شكوكي فيك.
- لماذا يجب أن أسامحك على كونك أنت يا صديقي القديم؟ كنت بحاجة إلى أن تفعل ما فعلته وتقول ما قلته. الآن أحتاج إليك أكثر من أي وقت مضى. يجب أن يكون لدي شخص أثق به. لهذا السبب أشاركك هذا السر. يجب أن يبقى هذا سرًا بيننا.
- يا سيدي، أنت تجعلني سعيدًا جدًا...
- قال توراناغا: «نعم، هذا هو الشيء الوحيد الذي أخشاه».
- سيدي؟
- أنت القائد العام. أنت وحدك يمكنك تهدئة هذا التمرد الغبي المتفاقم بينما أنتظر. أنا أثق بك ويجب أن أثق بك. ابني لا يستطيع السيطرة على قادتي، رغم أنه لن يظهر سعادته بهذا السر - إذا كان يعرفه - لكن وجهك هو بوابة روحك يا صديقي القديم.
- إذن دعني أنه حياتي بعد أن أهدئ القادة.
- لن يفيدني ذلك. يجب أن تبقوهم معًا في أثناء تأجيل مغادرتي المفترض، حسنًا؟ يتعين عليك حراسة تعابير وجهك ونومك أكثر من أي وقت مضى. أنت الشخص الوحيد في هذا العالم الذي يعرف... أنت الشخص الوحيد الذي يجب أن أثق به، حسنًا؟
- اغفر لي غبائي. لن أخذلك. اشرح لي ما يجب أن أفعله.
- قل لقادتي ما هو صحيح... إنك أقنعتني بقبول نصيحتك، التي هي أيضًا نصيحتهم، أليس كذلك؟ أنا أمر رسميًا بتأجيل مغادرتي لمدة سبعة أيام. لاحقًا سأؤجلها مجددًا. هذه المرة بسبب المرض. أنت الوحيد الذي يعرف ذلك.
- ثم؟ هل ستبدأ السماء القرمزية؟
- ليس كما كان مخططًا في الأصل. كانت السماء القرمزية دائمًا خطة أخيرة، أليس كذلك؟
- بلى. ماذا عن كتيبة البنادق؟ هل يمكنها فتح طريق عبر الجبال؟
- جزء من الطريق. لكن ليس كل الطريق إلى كيوتو.

- دبر لاغتيال زاتاكى.

قال: «قد يكون ذلك ممكناً. لكن إيشيدو وحلفاءه ما زالوا لا يُقهرُونَ». أخبره توراناغا بحجج أومي ويابو وإيجوراشي وبونتارو في يوم الزلزال وتابع: «في ذلك الوقت أمرت بتنفيذ خطة السماء القرمزية كخدعة أخرى لإرباك إيشيدو... وكنت قد سربت الأجزاء المناسبة من المناقشة إلى الأذان الخاطئة. لكن الحقيقة هي أن قوات إيشيدو لا تزال لا تُقهر».

- كيف يمكننا تفريقهم؟ ماذا عن كياما وأونوشي؟

- لا، هذان الاثنان يعارضانني بشدة. كل المسيحيين سيكونون ضدي... باستثناء مسيحي واحد، وسأستفيد منه ومن سفينته قريباً. أكثر ما أحتاجه الآن هو الوقت. لدي حلفاء وأصدقاء سريُّون في جميع أنحاء الإمبراطورية، وإذا حصلت على الوقت... كل يوم أكسبه يضعف إيشيدو أكثر. هذه هي خطتي الحربية. كل يوم تأخير مهم. اسمع، سيهاجم إيشيدو الكانتو بعد موسم الأمطار بهجوم متزامن؛ إيكواو جيكيو سيتقدم من الجنوب، وزاتاكى من الشمال. سنحاصر جيكيو في ميشيما، ثم نترجع إلى ممر هاكوني وأوداوارا حيث سنقوم بالمعركة النهائية. في الشمال سنحتجز زاتاكى في الجبال على طول طريق هوشو كايدو قرب ميكواوا. ما قاله أومي وإيجوراشي صحيح: يمكننا صد الهجوم الأول، ولا ينبغي أن يحدث غزو كبير آخر. سنقاتل وننتظر خلف جبالنا. سنقاتل ونؤجل وننتظر، ثم عندما تصبح الثمار جاهزة للقطف... ستحدث السماء القرمزية.

- أتمنى أن يكون ذلك اليوم قريباً.

- اسمع يا صديقي القديم، أنت الوحيد الذي يستطيع السيطرة على قاداتي. مع الوقت وتأمين الكانتو بالكامل، سنتمكن من صد الهجوم الأول، وحينها ستبدأ تحالفات إيشيدو بالتفكك. فورَ حدوث ذلك، سيصبح مستقبل يايمون مضموناً ووصية التايكو غير قابلة للانتهاك.

- ألن تنفرد بالسلطة يا سيدي؟

- للمرة الأخيرة: «قد يتعارض القانون مع العقل، لكن يجب ألا يتعارض العقل مع القانون، وإلا سيتفكك مجتمعنا بأسره مثل تاتامي قديم. قد

يُستخدم القانون للتشويش على العقل، لكن يجب ألا يُستخدم العقل للإطاحة بالقانون». وصية التايكو هي القانون.

انحنى هيروماتسو بقبول وقال: «حسنًا يا سيدي. لن أذكر الأمر مجددًا. أرجو أن تعذرني. والآن...». سمح لابتسامته بالظهور وقال: «الآن، ما الذي يجب عليّ فعله؟».

- تظاهر أنك أقنعتني بالتأجيل. فقط ابقهم جميعًا في قبضتك الحديدية.
- إلى متى يجب أن أستمّر في التظاهر؟
- لا أعلم.

- لا أثق بنفسِي يا سيدي. قد أرتكب خطأ، دون أن أقصد. أعتقد أنني يمكنني إخفاء الفرع عن وجهي لبضعة أيام. وبعد إذنك، يجب أن تصبح «ألامي» شديدة بحيث أبقى في الفراش... دون زوار، أليس كذلك؟

- جيد. افعل ذلك بعد أربعة أيام. دع بعض الألم يظهر ابتداءً من اليوم. لن يكون ذلك صعبًا، أليس كذلك؟
- لا يا سيدي. أعتذر. أنا سعيد أن المعركة تبدأ هذا العام. العام القادم... قد لا أستطيع المساعدة.

- هذا هراء. لكنها ستحدث هذا العام سواء قلت نعم أم لا. سأغادر إيدو في غضون ستة عشر يومًا متجهًا إلى أوساكا. بحلول ذلك الوقت ستكون قد أعطيت «موافقتك المترددة» وستقود المسيرة. فقط أنت وأنا نعلم أنه سيكون هناك المزيد من التأجيلات، وأنني سأعود إلى إيدو قبل أن أصل إلى حدودي.

- أرجو أن تعذرني على تشكيكي بك. لولا أنني يجب أن أبقى حيًا لمساعدتك في خططك، لما استطعت العيش مع عاري.

- لا حاجة إلى الشعور بالعار يا صديقي القديم. لو لم تكن مقتنعًا، لكان إيشيدو وزاتاكي قد كشفوا الخدعة. بالمناسبة، كيف كان بونتارو سان عندما رأيته؟

- غاضبًا يا سيدي. سيكون من الجيد أن يخوض معركة ليقا تل فيها.

- هل اقترح عزلي كزعيم إقطاعي؟

- لو كان قد قال لي ذلك، لكننت قطعت رأسه في الحال.
- سأستدعيك بعد ثلاثة أيام. اطلب مقابلي يوميًا لكنني سأرفض حتى ذلك الحين.

انحنى القائد العجوز باحترام: «حسنًا يا سيدي. أرجو أن تعذر هذا الأحمق العجوز. لقد أعطيت حياتي هدفًا من جديد. شكرًا لك».

ثم غادر.

أخرج تورانا جا قطعة الورق الصغيرة من كمه وأعاد قراءة رسالة والدته بسعادة غامرة. تحسنت فرصه جدًا مع احتمال فتح الطريق الشمالي وخيانة إيشيدو هناك. ألقى بالرسالة في النار. تلوّث الورقة حتى أصبحت رمادًا. سحق الرماد حتى أصبح غبار برضا. سأل نفسه: والآن، من سيصبح القائد العام الجديد؟

في الظهيرة، عبرت ماريكو ساحة برج القلعة وسط صفوف الحراس الصامتين القلقين ودخلت. كان مساعد تورانا جا في انتظارها في إحدى الغرف المخصصة في الطابق الأرضي. قال بلا مبالاة: «أعتذر عن استدعائك يا سيدة تودا».

- إنه من دواعي سروري يا كاوانابي سان.

كان كاوانابي ساموراي مسنًا ذا ملامح حادة ورأس حليق. لقد كان في السابق كاهنًا بوذيًا. وتولى لسنوات عديدة مسؤولية جميع مراسلات تورانا جا. عادةً ما كان مفعمًا بالحيوية والنشاط، ولكن اليوم كان مضطربًا جدًا كالعديد من الناس في القلعة. سلمها لفافة صغيرة وقال: «ها هي وثائق سفرك إلى أوساكا، موقّعة حسب الأصول. عليك المغادرة غدًا والوصول هناك في أسرع وقت ممكن».

بدا صوتها ضئيلاً بالنسبة له وهي تقول: «شكرًا لك».

- يقول الزعيم تورانا جا إنه قد تكون لديه بعض الرسائل الخاصة لتأخذها إلى السيدة كيريتسوبو والسيدة كوتو. وكذلك إلى القائد الزعيم إيشيدو والسيدة أوتشيبا. ستسلم إليك غدًا عند الفجر إذا... آسف، إذا كانت جاهزة، سأحرص على تسليمها إليك.

- شكرًا لك.

من بين عددٍ من اللفائف المرتبة بدقة على مكتبه المنخفض، اختار كاوانابي وثيقة رسمية وقال: «أنا مأمور بتسليمك هذه. إنها زيادة في إقطاعية ابنك كما وعد الزعيم توراناغا. عشرة آلاف كوكو سنوياً. مؤرخة من آخر يوم في الشهر الماضي و... حسناً، ها هي ذي».

قبلتها وقرأتها وتحققت من الأختام الرسمية. كان كل شيء مثالياً، لكن لم يجلب لها أي سعادة. كان كلاهما يعتقد أن هذه ورقة فارغة الآن. إذا نجا ابنها، فسيصبح رونين. قالت: «شكراً لك. أرجو أن تشكر الزعيم توراناغا على الشرف الذي يمنحه لنا. هل يمكن السماح لي برؤيته قبل مغادرتي؟».

- نعم. عندما تخرجني من هنا الآن، يُطلب منك الذهاب إلى سفينة الهمجي. يُطلب منك الانتظار هناك.

- أنا... أنا سأترجم؟

نظر المساعد إلى قائمة في يده وقال: «لم يقل. لكنني أعتقد ذلك يا سيدة تودا. أمر النقيب يوشيناكا بقيادة مرافقتك إلى أوساكا، إذا كان ذلك يرضيك».

- سأتشرف بأن أكون تحت قيادته مجدداً. شكراً لك. هل يمكنني أن أسأل عن حال الزعيم توراناغا؟

قال: «يبدو بصحة جيدة، لكن بالنسبة لرجل نشيط مثله أن يبقى محبوساً لعدة أيام... ماذا أستطيع أن أقول؟». بسط يديه بعجز وقال: «أعتذر. على الأقل اليوم رأى الزعيم هירו ماتسو ووافق على التأخير. كما وافق على التعامل مع بعض الأمور الأخرى... يجب أن تُثبت أسعار الأرز الآن في حالة حدوث حصاد سيئ... لكن يوجد الكثير للقيام به و... وهو ليس على طبيعته يا سيدة تودا. هذه أوقات مروعة، أليس كذلك؟ وطوالع مروعة: يقول العرّافون إن الحصاد سيتدمر هذا العام».

- لن أصدقهم... حتى يحين وقت الحصاد.

قال: «هذا حكيم، حكيم جداً. لكن لن يرى الكثير منا وقت الحصاد. يجب أن أذهب معه إلى أوساكا». ارتجف كاوانابي ومال إلى الأمام بتوتر: «سمعت شائعة أن الوباء قد عاد مجدداً بين كيوتو وأوساكا... الجذري. هل هذه علامة أخرى من السماء أن الآلهة قد صرفت وجوها عنا؟».

- ليس من طبعك تصديق الشائعات أو علامات السماء يا كاوانابي سان، أو نقل الشائعات. أنت تعلم رأي الزعيم توراناغا في ذلك.

- أعلم. أعتذر. لكن، حسنًا... لا يبدو أن أحدًا طبيعيًا هذه الأيام، أليس كذلك؟

تخلصت من شعورها بالقلق وقالت: «ربما تكون الشائعة غير صحيحة... أصلي ألا تكون كذلك. هل حُدِّد موعد جديد للمغادرة؟».

- فهمت أن الزعيم هيرو ماتسو قال إنها تأجلت لمدة سبعة أيام. أنا سعيد جدًا بعودة قائدنا العام وسعيد جدًا لأنه استطاع إقناع... أتمنى لو تأجلت المغادرة بأكملها إلى الأبد. من الأفضل أن نقاتل هنا على أن نهان هناك، أليس كذلك؟

وافقته الرأي مدركة أنه لم يعد هناك جدوى من التظاهر بأن هذا ليس ما يشغل بال الجميع: «بلى. الآن بعد عودة الزعيم هيرو ماتسو، ربما يرى زعيمنا أن الاستسلام ليس الخيار الأفضل».

- يا سيدتي، هذا لأذنيك فقط. إن الزعيم هيرو ماتسو... توقف ناظرًا إلى الأعلى ووضع ابتسامة على وجهه. دخل يابو الغرفة بخطوات ثابتة وسيوفه تتحرك مصدرة صوت رنين. قال: «الزعيم كاسيجي يابو، من الجيد رؤيتك».

انحنى وانحنى ماريكو وتبادلا التحيات الرسمية. ثم قال كاوانابي: «الزعيم توراناغا يتوقع حضورك يا سيدي. يُرجى الصعود على الفور».

- جيد. لماذا يريد رؤيتي؟

- أعتذر يا سيدي، لم يخبرني... فقط قال إنه يريد رؤيتك.

- كيف حاله؟

تردد كاوانابي: «لا تغيير يا سيدي».

- مغادرته... هل حُدِّد موعد جديد لها؟

- فهمت أنها ستكون خلال سبعة أيام.

- ربما يؤجلها الزعيم هيرو ماتسو أكثر، أليس كذلك؟

- سيكون ذلك بيد زعيمنا يا سيدي.

- بالطبع.

خرج يابو.

- كنت تقول شيئًا عن الزعيم هيرو ماتسو؟

همس المساعد: «فقط لأذنيك يا سيدتي... حيث إن بونتارو سان ليس هنا. عندما عاد القبضة الحديدية العجوز من مقابلة الزعيم توراناغا، اضطر إلى الراحة لساعة تقريبًا. كان يتألم بشدة يا سيدتي».

- سيكون الأمر فظيئًا إذا حدث له شيء الآن.

- نعم. فمن دونه سيحدث تمرد، أليس كذلك؟ هذا التأجيل لا يحل أي شيء، أليس كذلك؟ إنه مجرد هدنة. المشكلة الحقيقية... أنا... أنا أخشى أنه منذ أن كان الزعيم سودارا هو النائب الرسمي للقائد كيوشيو، كل مرة يُذكر فيها اسم الزعيم سودارا، يغضب زعيمنا كثيرًا... إن الزعيم هيرو ماتسو وحده من أقنعه بالتأجيل وهذا هو الشيء الوحيد الذي...

بدأت الدموع تتساقط على وجنتي المساعد: «ماذا يحدث يا سيدتي؟ لقد فقد السيطرة، أليس كذلك؟».

قالت بحزم دون قناعة: «لا، أنا متأكدة أن كل شيء سيكون على ما يرام. شكرًا لإخباري. سأحاول رؤية الزعيم هيرو ماتسو قبل مغادرتي».

- اذهبي في رعاية الرب يا سيدتي.

تفاجأت وسألته: «لم أكن أعلم أنك مسيحي يا كاوانابي سان».

- لست كذلك يا سيدتي. لكنني أعلم أن هذه هي عادتك.

خرجت إلى الشمس وهي تشعر بالقلق الشديد على هيرو ماتسو، وفي الوقت نفسه تحمد الرب أن انتظارها انتهى وغداً ستنجو. توجهت نحو الهودج والمرافق الذي كان ينتظرها.

قالت جيوكو وهي تخرج من الظلال لتوقفها: «سيدة تودا».

قالت بلطف رغم القشعريرة المفاجئة التي اجتاحتها: «صباح الخير يا جيوكو سان، من الجميل رؤيتك. أمل أن تكوني بخير؟».

- لست بخير على الإطلاق، للأسف. أنا حزينة جدًا. يبدو أننا أنا وكيكو سان فقدنا فضل زعيمنا. منذ وصولنا ونحن محبوستان في فندق قدر من الدرجة الثالثة لن أضع فيه حتى خادمًا من الدرجة الثامنة.

- آسفة جدًا. أنا متأكدة أنه يوجد خطأ ما.

- نعم، خطأ. أمل ذلك بالتأكيد يا سيدتي. لقد حصلت أخيرًا اليوم على الإذن بالمجيء إلى القلعة، وأخيرًا تلقيت إجابة على التماسي لرؤية

الزعيم العظيم، وأخيرًا سُمح لي بأن أنحني أمام الزعيم العظيم مرة أخرى... في وقت لاحق من اليوم.

ابتسمت جيوكو لها بتهكم وتابعت: «سمعت أنك أيضًا كنتِ قادمة لرؤية الزعيم المساعد، لذا انتظرت لأرحب بك. أمل ألا تمنعني».

- من دواعي سروري رؤيتك يا جيوكو سان. كنت سأزورك أنتِ وكيكو سان، أو كنت سأدعوكما لزيارتي، ولكن للأسف لم يكن ذلك ممكنًا.
- نعم... أمر محزن. هذه أوقات حزينة. صعوبة للنبلاء. صعوبة للفلاحين. كيكو سان المسكينة مريضة تمامًا بسبب القلق من أنها فقدت فضل زعيمنا.

- أنا متأكدة أنها ليست كذلك يا جيوكو سان. إنه... الزعيم توراناغا لديه العديد من المشكلات الملحة، أليس كذلك؟

- صحيح... صحيح. ربما يمكننا تناول بعض الشاي الآن يا سيدة تودا. سأتشرف إذا سمحت لي بالتحدث معكِ للحظة.

- أعتذر، لكنني مكلفة بأعمال رسمية. وإلا كنت سأتشرف بذلك.

- نعم، عليك الذهاب إلى سفينة أنجين سان الآن. لقد نسيت، أعتذر. كيف حال أنجين سان؟

قالت ماريكو بغضب من كون جيوكو على معرفة بشؤونها الشخصية: «أعتقد أنه بخير. لقد رأيته مرة واحدة فقط -ولفترة قصيرة جدًا- منذ وصولنا».

- إنه رجل مثير للاهتمام. نعم، جدًا. من المحزن ألا يرى المرء أصدقاءه، أليس كذلك؟

كانت كلتا المرأتين تبتسم، أصواتهما مهذبة وخالية من الهموم، وكلتاها مدركة للساموراي الذين يراقبون ويستمعون إليهما.

- سمعت أن أنجين سان زار أصدقاءه... طاقمه. كيف وجدهم؟

- لم يخبرني قط يا جيوكو سان. كما قلت، لقد رأيته للحظة فقط. أعتذر، لكن يجب أن أذهب...

- من المحزن ألا يرى المرء أصدقاءه. ربما يمكنني أن أخبرك عنهم. على سبيل المثال، أنهم يعيشون في قرية إيتا.

- ماذا؟

- نعم. يبدو أن أصدقاءه طلبوا الإذن للعيش هناك، مفضلين القرية على المناطق المتحضرة. غريب، أليس كذلك؟ ليسوا مثل أنجين سان الذي يختلف عنهم. هناك شائعة تقول إنهم يرونها أشبه بموطنهم... قرية الإيتا. غريب، أليس كذلك...

كانت ماريكو تتذكر كم كان أنجين سان غريبًا على السلام ذلك اليوم. فكرت: هذا يفسر الأمر. إيتا! يا مريم، رجل مسكين، لا بد أنه شعر بالخزي. قالت: «أعتذر يا جيوكو سان، ماذا قلت؟».

- فقط أنه من الغريب أن أنجين سان مختلف تمامًا عن الآخرين.

- كيف هم؟ هل رأيتهم؟ الآخرون؟

- لا يا سيدتي. لن أذهب إلى هناك. ما الذي يربطني بهم؟ أو بالإيتا؟ يجب أن أفكر في زبائني وفي كيوكو سان. وفي ابني.

- نعم، ابنك.

حزنت ملامح وجه جيوكو تحت مظلتها، لكن عينيها ظلتا حادتين ولونهما بني كَلَوْنِ الكيمونو الذي ترتديه. قالت: «أرجو أن تعذريني، لكنني أعتقد أنك لا تعرفين لماذا نحن فقدنا فضل الزعيم توراناغا؟».

- لا. أنا واثقة أنك مخطئة. لقد سُوِيَ العقد، أليس كذلك؟ وفقًا للاتفاق؟

- نعم، شكرًا لك. لدي خطاب اعتماد من تجار الأرز في ميشيما، قابل للدفع عند الطلب. أقل من المبلغ الذي اتفقنا عليه. لكن المال كان آخر ما فكرت فيه. ما قيمة المال عندما تفقدین فضل راعيك... أيًا كان، أليس كذلك؟

- أنا واثقة أنك لا تزالين تحتفظين بفضله.

- أفضال. كنت قلقة بشأن فضلك أنت أيضًا يا سيدة تودا.

- دائمًا ما تحظين بمودتي. وصداقتي يا جيوكو سان. ربما يمكننا التحدث في وقت آخر، يجب أن أذهب الآن، أعتذر...

- نعم، كم أنت كريمة. سأستمتع بذلك.

أضافت جيوكو بأكثر صوت معسول لديها بينما بدأت ماريكو تستدير مبتعدة: «لكن هل ستجدين الوقت؟ ستذهبين غداً، أليس كذلك؟ إلى أوساكا؟».

شعرت ماريكو بوخزة برد فجائي في صدرها، وهي مدركة للفخ الذي أُغلق عليها.

- هل يوجد خطب يا سيدتي؟

- لا... لا يا جيوكو سان. هل... في ساعة الكلب الليلة... هل سيكون ذلك مناسباً؟

- أنتِ لطيفة للغاية يا سيدتي. نعم، بما أنكِ ستذهبين لرؤية سيدنا الآن، قبلي، هل يمكنكِ التوسط لنا؟ نحتاج إلى فضل بسيط جداً. حسناً؟ فكرت ماريكو للحظة ثم قالت: «سأكون سعيدة بذلك. بعض الأفضال يمكن طلبها، ولكن حتى مع ذلك، قد لا تُمنح». توترت جيوكو قليلاً وقالت: «لقد طلبتِ منه بالفعل... طلبتِ منه أن يفضلنا؟».

قالت ماريكو بحذر: «بالطبع... لم لا؟ أليست كيكو سان مفضلة؟ وأليستِ أنتِ خادمة وفية؟ ألم تُمنحي أفضالاً في الماضي؟».

- طلباتي دائماً صغيرة. كل ما قلته من قبل لا يزال ينطبق يا سيدتي. ربما أكثر من ذلك.

- عن الكلاب الجائعة؟

- عن الآذان الطويلة والألسنة الآمنة.

- نعم. والأسرار.

- سيكون من السهل جداً إرضائي. رضا زعيمي -ورضا سيدتي- ليس كثيراً لطلبه، أليس كذلك؟

- نعم. إذا أُتيحت الفرصة... لا أستطيع أن أعد بشيء.

- حتى هذا المساء يا سيدتي.

انحننا لبعضهما بعضاً ولم يفهم أي ساموراي أي شيء مما حدث. دخلت ماريكو إلى الحماله وسط انحناءات أخرى، مخفية الرعشات التي أصابتها، وغادرت الموكب. نظرت جيوكو إلى ماريكو وهي تغادر.

قال ساموراي شاب بحدة وهو يمر بجانبها: «أنتِ يا امرأة، ماذا تنتظرين؟ اذهبي واهتمي بشؤونك».

قالت جيوكو بازدرء مما أضحك الآخرين: «ماذا! امرأة، أليس كذلك يا جرو؟ إذا ذهبْتُ لأعمالك قد أجد صعوبة بالغة في العثور عليها، رغم أنك لم تصبح رجلًا بما يكفي بعد لتملك شعرًا».

ضحك الآخرون. ثم واصلت سيرها بلا خوف بعدما حركت رأسها.

قال بلاكتورن: «مرحبًا».

- مساء الخير يا أنجين سان. تبدو سعيدًا.

- شكرًا لك. إنه بسبب رؤية سيدة جميلة مثلك، أليس كذلك؟

أجابت ماريكو: «شكرًا لك. كيف حال سفينتك؟».

- في حالة ممتازة. هل ترغبين بالصعود على متنها؟ أود أن أريك إياها.

- هل هذا مسموح؟ لقد أمرت بالقدوم هنا لمقابلة الزعيم توراناغا.

- نعم. نحن جميعًا ننتظره الآن.

ثم التفت بلاكتورن وتحدث إلى الساموراي الكبير عند رصيف الميناء:

«يا نقيب، سأخذ السيدة تودا إلى هناك. أريها السفينة. عندما يصل الزعيم توراناغا... أخبرني، حسنًا؟».

- كما تشاء يا أنجين سان.

قاد بلاكتورن الطريق بعيدًا عن الرصيف. كان الساموراي يراقبون الحواجز وكانت التدابير الأمنية أشد من أي وقت مضى، سواء على الشاطئ أو على متن السفينة. توجه أولًا إلى سطح السفينة. قال بفخر: «هذا لي، هذا كله لي».

- هل يوجد أحد من طاقمك هنا؟

- لا... لا أحد. ليس اليوم يا ماريكو سان.

أشار إلى كل شيء بأسرع ما يمكنه، ثم قادها إلى الطابق السفلي وقال:

«هذه هي المقصورة الرئيسية».

كانت نوافذ الجزء الخلفي تطل على الشاطئ. أغلق الباب وأصبحا وحيدين تمامًا الآن.

سألت: «هل هذه مقصورتك؟».

هز رأسه وهو يراقبها. ارتمت بين ذراعيه. احتضنها بقوة وقال: «كم افتقدتك».

- وأنا افتقدتك...

قال: «يوجد الكثير لأخبرك إياه، والكثير لأستفسر عنه».

ارتجفت في أحضانه، محاولة التغلب على رعبها من أن جيوكو أو شخصًا قد يكشف سرهما. قالت: «ليس لدي شيء لأخبرك إياه. سوى أنني أحبك من كل قلبي. أنا خائفة عليك».

- لا تخافي يا حبيبتي ماريكو. سيكون كل شيء على ما يرام.

- هذا ما أقوله لنفسي. لكن اليوم من الصعب قبول الكارما وإرادة الرب.

- لقد كنت شاردة الذهن في آخر مرة تقابلنا.

- هذه إيدو يا حبيبي. ما وراء الجسر الأول.

- كان ذلك بسبب بونتارو سان، أليس كذلك؟

قالت ببساطة: «بلى، ذلك بالإضافة إلى قرار توراناغا بالاستسلام. إنه أمر شائن وعديم الفائدة... لم أعتقد يومًا أنني سأقول هذا بصوت عالٍ، لكن يجب أن أقوله. عذرًا».

اقتربت منه أكثر بحثًا عن حماية كتفه.

- عندما يذهب إلى أوساكا، ستموتين أيضًا؟

- نعم. عشيرة تودا قوية ومهمة جدًا. في كل الأحوال لن أترك على قيد الحياة.

- إذن يجب أن تأتي معي. سنهرب. سن...

- أعتذر، لكن لا يوجد هروب.

- إلا إذا سمح توراناغا بذلك، أليس كذلك؟

- ولماذا سيسمح بذلك؟

أخبرها بلاكتورن بسرعة بما قاله لتوراناغا، لكنه لم يذكر أنه طلبها أيضًا: «أعلم أنني أستطيع إجبار الكهنة على جلب كياما أو أونوشي إلى جانبه، إذا سمح لي بأخذ هذه السفينة السوداء». أنهى كلامه بحماس: «وأعلم أنني أستطيع فعل ذلك».

قالت سعيدةً من أجل الكنيسة لأن تورانا جا قرر كبح خطته. فحصت منطق خطته مجددًا ووجدتها لا تشوبها شائبة: «نعم، يجب أن تنجح يا أنجين سان. الآن بعد أن أصبح هاريمان معاديًا، لن يكون هناك سبب يمنع تورانا جا ساما من إصدار أمر الهجوم إذا كان يعتزم الحرب، وليس الاستسلام».

- إذا انضم إليه الزعيم كياما أو الزعيم أونوشي، أو كلاهما، هل سيرجّح ذلك الكفة لصالحه؟

قالت: «نعم، مع وجود زاتاكي والوقت». كانت قد شرحت له من قبل الأهمية الاستراتيجية لسيطرة زاتاكي على الطريق الشمالي. «لكن زاتاكي يعارض تورانا جا ساما».

- اسمعي، يمكنني السيطرة على الكهنة. عذرًا، لكنهم أعدائي حتى وإن كانوا كهنة كنيسةك. أستطيع الهيمنة عليهم لصالحه... ولصالح نفسي أيضًا. هل ستساعديني في مساعدته؟ نظرت إليه وسألت: «كيف؟».

- ساعديني في إقناعه بمنحي الفرصة، وأقنعيه بتأجيل زهابه إلى أوساكا. سمعا صوت خيول وأصوات مرتفعة على رصيف الميناء. تشتت انتباههما وتوجها إلى النوافذ، كان الساموراي يسحبون أحد الحواجز جانبًا. اندفع الأب ألفيتو إلى الساحة.

تمتم بلاكثورن بمرارة: «ماذا يريد؟».

راقبا الكاهن وهو يترجل من حصانه ويسحب لفافة من كفه ويسلمها إلى الساموراي الكبير. قرأ الرجل اللفافة، ثم نظر ألفيتو إلى السفينة.

قالت ماريكو بصوت فاخت: «أيًا كان الأمر، فهو رسمي».

- اسمعي يا ماريكو سان، أنا لست معاديًا للكنيسة. الكنيسة ليست شريرة، بل الكهنة هم المشكلة. وهم ليسوا جميعًا سيئين. ألفيتو ليس سيئًا رغم أنه متعصب. أقسم بالرب إنني أؤمن بأن اليسوعيين سيخضعون للزعيم تورانا جا إذا استوليت على سفينتهم السوداء وهددت سفينتهم للسنة القادمة، لأنهم بحاجة إلى المال... البرتغال وإسبانيا بحاجة إلى المال. إن تورانا جا أهم. هل ستساعديني؟

- نعم. نعم، سأساعدك يا أنجين سان. لكن أرجو المعذرة، لا أستطيع خيانة الكنيسة.

- كل ما أطلبه هو أن تتحدثي مع تورانا، أو تساعديني في التحدث معه إن كنتِ تعتقدين أن ذلك أفضل.

سمعا صوت بوق بعيد. نظرا من النوافذ مجدداً. كان الجميع يحدقون نحو الغرب. كانت مقدمة موكب من الساموراي حول محفة مغلقة بالسلاسل تقترب من جهة القلعة.

فُتِحَ باب المقصورة وقال الساموراي: «يجب أن تأتي الآن يا أنجين سان، رجاءً».

قاد بلاكتورن الطريق إلى سطح السفينة ثم إلى الرصيف. كانت تحيته لألفيتو باردة ورسمية. وكانت تحية الكاهن بالقدر نفسه من البرود. كان ألفيتو لطيفاً مع ماريكو وهو يقول: «مرحباً يا ماريكو سان. من الجيد رؤيتك».

قالت وهو تنحني باحترام: «شكراً لك يا أبت».

رسم علامة الصليب عليها وقال: «لتكن بركات الرب عليك. باسم الآب والابن والروح القدس».

- شكراً لك يا أبت.

ألقى ألفيتو نظرة على بلاكتورن وقال: «إذن يا ربان؟ كيف حال سفينتك؟».

- أنا متأكد أنك تعلم بالفعل.

نظر ألفيتو إلى إيراسموس بوجه متجهم وقال: «نعم، أعلم. لعنة الرب عليها وعلى كل من يبحر فيها إذا استُخدمت ضد الإيمان والبرتغال».

- هل هذا سبب قدومك إلى هنا؟ لنشر المزيد من السموم؟

قال ألفيتو: «لا يا ربان. طُلب مني الحضور هنا لمقابلة الزعيم تورانا. أنا أجد وجودك هنا منفراً كما تجد وجودي».

- وجودك ليس منفراً يا أبت. إنما الشر الذي تمثله.

احمرّ وجه ألفيتو، وقالت ماريكو بسرعة: «رجاءً. من السيئ أن تتجادلا بهذه الطريقة علناً. أرجو منكما أن تكونا أكثر حرصاً».

- نعم، أرجو أن تعذريني. أعذر يا ماريكو سان.

التفت الأب ألفيتو ونظر إلى المحفة التي كانت تتقدم عبر الحاجز، وراية توراناجا ترفرف فوقها، والساموراي بالزي الرسمي يسرون أمام المحفة وخلفها، محاطين بمجموعة من الساموراي مختلفي الهيئة.

توقفت المحفة. انفتح الستار وخرج منها يابو. أصيب الجميع بالدهشة. ومع ذلك انحنوا احترامًا. وبادلهم يابو التحية بتعجرف.

قال يابو: «أنجين سان، كيف حالك؟».

- بخير، شكرًا لك يا سيدي. وأنت؟

- بخير، شكرًا لك. الزعيم توراناجا مريض. طلب مني الحضور نيابةً عنه. هل تفهم؟

أجاب بلاكثورن محاولاً إخفاء خيبته من عدم حضور توراناجا: «نعم، أفهم. آسف لسماع أن الزعيم توراناجا مريض».

هز يابو كتفيه، وأوماً لماريكو باحترام متظاهراً بعدم ملاحظة وجود ألفيتو، ثم نظر إلى السفينة للحظة. كانت ابتسامته ملتوية حينما نظر إلى بلاكثورن وقال: «حسنًا يا أنجين سان. إن سفينتك مختلفة عن آخر مرة رأيته فيها، أليس كذلك؟ بلى، السفينة مختلفة، وأنت مختلف، وكل شيء مختلف... حتى عالمنا مختلف، أليس كذلك؟».

بدأ بلاكثورن إحدى العبارات الجاهزة: «أعتذر، لا أفهم يا سيدي. أرجو المَعذرة لكن كلماتك سريعة جدًا. كما أنني...».

لكن يابو قاطعه بغلظة: «ماريكو سان، رجاءً ترجمي لي».

ترجمت.

أوماً بلاكثورن وقال ببطء: «بلى. مختلف يا يابو ساما».

- بلى، مختلف جدًا... أنت لم تعد همجيًا بل ساموراي، وكذلك سفينتك، أليس كذلك؟

رأى بلاكثورن الابتسامة على الشفاه السمكية، والموقف العدائي، وفجأة وجد نفسه يعود إلى أنجيرو، على الشاطئ وهو على ركبتيه، وكروك في المرجل، وصيحات بيترزون تدوي في أذنيه، ورائحة الحفرة الكريهة في أنفه، وعقله يصرخ: «كم كان كل هذا غير ضروري... كل المعاناة والرعب وبيترزون وسبيلبيرجن وماتسوكر والسجن والإيتا والفخ وكل ذلك كان خطأك».

سألت ماريكو بقلق وهي تلاحظ النظرة في عينيه: «هل أنت بخير يا أنجين سان؟».

- ماذا؟ أوه... أوه، نعم. نعم، أنا بخير.

قال يابو: «ما خطبه؟».

هز بلاكتورن رأسه محاولاً تصفية ذهنه ومحو مشاعر الكراهية من وجهه. قال: «أعتذر. أرجو المَعذرة. أنا... أنا... لا شيء. رأسي يؤلمني... لم أنم. آسف جداً». حذق إلى عيني يابو آملاً أن يكون قد نجح في تغطية زلته الخطيرة، وتابع: «آسف لأن الزعيم تورانا جا مريض... آمل ألا تكون هناك أي مشكلات يا يابو ساما».

- لا، لا مشكلات.

لكن يابو كان يفكر: نعم، مشكلات، أنت لا تجلب سوى المشكلات. لم أواجه سوى المشكلات منذ وصولك أنت وسفينتك القذرة إلى شواطئي. لقد فقدت إيزو وفقدت مدافعي وفقدت كل شرفي، والآن رأسي مهدد بسبب شخص جبان. ثم قال بلطف: «لا مشكلات يا أنجين سان. لقد طلب مني الزعيم تورانا جا أن أسلمك أتباعك كما وعد». اتجهت أنظاره إلى ألفيتو وقال: «إذن يا تسوكو سان، لماذا أنت عدو للزعيم تورانا جا؟».

- أنا لست كذلك يا كاسيجي يابو ساما.

- لكن الدايميو المسيحيين التابعين لك هم كذلك، أليس كذلك؟

- أرجو المَعذرة يا سيدي، لكننا كهنة فقط، نحن لسنا مسؤولين عن الآراء السياسية لمن يعبدون الإيمان الحقيقي، ولا نمارس السيطرة على أولئك الدايميو الذين...

- الإيمان الحقيقي في أرض الآلهة هذه هو الشنتو، إلى جانب التاو وطريق بوذا.

لم يُجب ألفيتو. فاستدار يابو بازدياء وأصدر أمراً صارماً. بدأت مجموعة الساموراي ذوي الثياب الرثة تصطف أمام السفينة. لم يكن أي منهم مسلحاً، وبعضهم كانت أيديهم مقيدة.

تقدم ألفيتو إلى الأمام وانحنى قائلاً: «ربما تعذرني يا سيدي. كانت عليّ رؤية الزعيم تورانا جا. بما أنه لن يأتي...».

قاطعه يابو بفضاظة متعمدة كما أمره توراناڭا: «الزعيم توراناڭا أرادك هنا لتكون مترجمًا له مع أنجين سان. نعم، لتترجم كما تستطيع بذكاء، تتحدث مباشرة وعلى الفور، أليس كذلك؟ بالطبع ليس لديك أي اعتراض على القيام بما طلبه الزعيم توراناڭا مني، قبل أن تغادر؟».

- لا، بالطبع لا يا سيدي.

- جيد. ماريكو سان، الزعيم توراناڭا يطلب منك التأكد أن ردود أنجين سان تُترجم بالدقة نفسها.

احمرَّ وجه ألفيتو لكنه كبح غضبه.

قالت ماريكو وهي تكره يابو: «حسنًا يا سيدي».

أصدر يابو أمرًا آخر. ذهب اثنان من الساموراي إلى المحفة وعادا بصندوق السفينة الثقيل بينهما. قال: «تسوكو سان، الآن ستبدأ: اسمع يا أنجين سان، أولاً طلب مني الزعيم توراناڭا إعادة هذا. إنه ملكك، أليس كذلك؟ افتحوه». أمر الساموراي. كان الصندوق مملوءًا بالعملات الفضية. «هذا كما أُخذ من السفينة».

- شكرًا لك.

بالكاد استطاع بلاكتورن تصديق عينيه، فقد منحه هذا القوة لشراء أفضل طاقم دون الحاجة إلى وعود.

- يجب وضعه في غرفة السفينة المحصنة.

- نعم، بالطبع.

أشار يابو للساموراي بالصعود إلى السفينة. ثم بينما كان ألفيتو مستمرًا في الترجمة شبه الفورية بغضب متزايد، قال يابو: «ثانيًا: يقول الزعيم توراناڭا إنك حر في المغادرة، أو البقاء. عندما تكون في أرضنا، أنت ساموراي وهاتاموتو وتخضع لقوانين الساموراي. بينما في البحر خارج شواطئنا، أنت كما كنت قبل أن تأتي إلى هنا وتخضع لقوانين الهمج. يُمنح لك الحق طوال حياتك في الرسو في أي ميناء تحت سيطرة الزعيم توراناڭا دون تفتيش من قبل سلطات الميناء. وأخيرًا: هؤلاء الرجال المائتين هم أتباعك. طلب مني تسليمهم رسميًا لك مع أسلحتهم، كما وعد».

سأل بلاكتورن بعدم تصديق: «هل أستطيع المغادرة متى وكيفما أشاء؟».

- نعم يا أنجين سان، تستطيع المغادرة كما وافق الزعيم تورانا. نظر بلاكتورن إلى ماريكو لكنها تجنبت عينيه، فحول أنظاره إلى يابو مجددًا وقال: «هل يمكنني المغادرة غدًا؟».

قال يابو: «نعم، إذا أردت. بالنسبة لهؤلاء الرجال، فإن جميعهم روين. جميعهم من المقاطعات الشمالية. لقد وافقوا جميعًا على أن يقسموا بالولاء الأبدى لك ولذريتك. جميعهم محاربون جيدون. ولم يرتكب أي منهم جريمة يمكن إثباتها. أصبحوا جميعًا روينًا لأن زعماءهم الإقطاعيين قُتلوا أو ماتوا أو عُزلوا. قاتل الكثير منهم على متن سفن ضد الواكو». ابتسم يابو بطريقته الخبيثة وسأل: «قد يكون بعضهم من الواكو... هل تفهم معنى «واكو»؟».

- نعم يا سيدي.

- هؤلاء ذوو الأيدي المقيدة ربما يكونون قطاع طرق أو من الواكو. لقد تقدموا كمجموعة وتطوعوا خدمتك بشجاعة مقابل العفو عن أي جرائم سابقة. لقد أقسموا أمام الزعيم نوبورو -الذي اختارهم جميعًا بعناية لك بناءً على أوامر الزعيم تورانا- بأنهم لم يرتكبوا أي جريمة ضد الزعيم تورانا أو أي من الساموراي التابعين له. يمكنك قبولهم على حدة أو كجماعة، أو رفضهم. هل تفهم؟

- هل يمكنني رفض أي منهم؟

سأل يابو: «لماذا قد تفعل ذلك؟ لقد اختارهم الزعيم نوبورو بعناية». قال بلاكتورن ليابو بتعب، وهو مدرك لتزايد سوء مزاج الدايميو: «بالطبع، أعذر. أفهم تمامًا. ولكن ماذا عن أولئك ذوي الأيدي المقيدة... ماذا سيحدث إذا رفضتهم؟».

- ستُقطع رؤوسهم بالطبع. وما علاقة ذلك بأي شيء؟

- لا شيء. أعذر.

انطلق يابو باتجاه المحفة وقال: «اتبعني».

نظر بلاكتورن إلى ماريكو وقال: «أستطيع الرحيل. لقد سمعت هذا».

- نعم.

- هذا يعني... إنه أشبه بالحلم. لقد قال...

- أنجين سان!

هرع بلاكتورن نحو يابو بطاعة. الآن أصبحت المحفة أشبه بمنصة. نصب كاتب طاولة منخفضة عليها بعض اللفائف. وعلى مسافة قريبة، كان الساموراي يحرسون كومة من السيوف القصيرة والطويلة والرماح والدروع والفؤوس والأقواس والسهام، التي كان الحمالون يفرغونها من الخيول المحملة. أشار يابو إلى بلاكتورن للجلوس بجانبه، بينما جلس ألفيتو أمامه مباشرة وماريكو على جانبه الآخر. نادى الكاتب الأسماء. تقدم كل رجل للأمام، انحنى برسمية وذكر اسمه ونسبه وأقسم بالولاء ووقع على اللقافة وختمها بقطرة دم بعدما وخز الكاتب إصبعه. جثا كل رجل أمام بلاكتورن للمرة الأخيرة ثم نهض وتوجه إلى صانع الأسلحة. أُعطي أولاً سيف القتل ثم السيف القصير. استلم كل منهم السيوفين بتقدير وفحصوهما بعناية معبرين عن فخرهم بجودتهما، ثم وضعوهما في أحزمتهما بسعادة وحشية. ثم زُوِّدَ بأسلحة أخرى ودرع حرب. عندما أخذ الرجال مواقعهم الجديدة، وهم مسلحون بالكامل الآن وأصبحوا ساموراي مجدداً وليسوا رونيئاً، بدوا أقوى وأكثر استقامة وظهرت عليهم ملامح الشراسة أكثر.

وأخيراً جاء دور الثلاثين رونين ذوي الأيدي المقيدة. أصر بلاكتورن على قطع قيود كل واحد منهم شخصياً. أقسموا واحداً تلو الآخر بالولاء كما فعل الآخرون: «أقسم بشرفي كساموراي، أقسم إن أعداءك هم أعدائي، وأنني سأطيعك طاعة تامة».

استلم كل رجل أسلحته بعد أن أقسم.

نادى يابو: «أوراجا نو تاداماسا».

تقدم الرجل للأمام. شعر ألفيتو بالألم والحزن. أوراجا -الأخ يسوف- كان يقف دون أن يُلاحظه أحد بين مجموعة الساموراي القريبين. كان غير مسلح ويرتدي كيمونو بسيطاً وقبعة من الخيزران. ابتسم يابو بسخرية من اضطراب ألفيتو، ثم التفت إلى بلاكتورن.

- أنجين سان. هذا أوراجا نو تاداماسا. ساموراي والآن رونين. هل

تعرفه؟ هل تفهم معنى «تعرف»؟

- نعم. أفهم. نعم، أعرفه.

- جيد. كان كاهناً مسيحياً، أليس كذلك؟

- بلى.

- والآن لم يعد كذلك. هل تفهم؟ الآن هو رونين.

- فهمت يا يابو ساما.

راقب يابو ألفيتو. كان ألفيتو يحرق بثبات إلى المرتد الذي كان يبادلّه التحديق بكراهية. قال: «تسوكو سان، أنت تعرفه أيضًا، أليس كذلك؟».

- بلى. أعرفه يا سيدي.

- هل أنت مستعد للترجمة مجددًا... أم أنك لم تعد تحتمل ذلك؟

- رجاءً تابع يا سيدي.

- جيد.

أشار يابو بيده نحو أوراجا وقال: «اسمع يا أنجين سان، الزعيم تورانا جا يعطيك هذا الرجل إذا كنت تريده. كان يومًا ما كاهنًا مسيحيًا... كاهنًا مبتدئًا. والآن لم يعد كذلك. لقد أنكر الإله الأجنبي الزائف وعاد إلى الإيمان الحقيقي بالشنّتو و...». توقف عندما توقف الأب. «هل قتلها بالضبط يا تسوكو سان؟ الإيمان الحقيقي بالشنّتو؟».

لم يجب الكاهن. زفر ثم قالها بالضبط، مضيّفًا: «هذا ما قاله يا أنجين سان، عسى الرب أن يغفر له».

لم تعلق ماريكو على ذلك، وهي تزداد كرهًا ليابو، ووعدت نفسها بالانتقام منه قريبًا.

راقبهم يابو ثم تابع: «إنّ أوراجا سان كان مسيحيًا. الآن هو مستعد لخدمتك. يتحدث لغة الهمج واللغة الخاصة بالكهنة وكان واحدًا من الشباب الساموراي الأربعة الذين أرسلوا إلى أراضيك. حتى إنه التقى رئيس المسيحيين جميعًا، أو هكذا يُقال... لكنه الآن يكرهم جميعًا، مثلما تفعل تمامًا، أليس كذلك؟». كان يابو يراقب ألفيتو محاولًا الإيقاع به، وعيناه تتنقلان بينه وبين ماريكو التي كانت تستمع باهتمام. سألت: «أنت تكره المسيحيين يا أنجين سان، أليس كذلك؟».

أجاب وهو مدرك تمامًا لماريكو التي كانت تحرق بعيدًا بجمود: «معظم الكاثوليك أعدائي، بلى. إسبانيا والبرتغال أعداء بلدي، بلى».

- المسيحيون هم أعداؤنا أيضًا. أليس كذلك يا تسوكو سان؟

- نعم يا سيدي. والمسيحية تمنحك مفتاح الحياة الأبدية.

سأل يابو: «هل تمنحك ذلك يا أوراجا سان؟».

هز أوراجا رأسه. كان صوته متحشرجًا: «لم أعد أعتقد ذلك يا سيدي. لا».

- أخبر أنجين سان.

قال أوراجا بلكنة ثقيلة ولكن كلماته البرتغالية كانت صحيحة وسهلة الفهم: «يا سيد أنجين سان، لا أعتقد أن الكاثوليكية هي القفل... عفواً، هي المفتاح للحياة الأبدية».

قال بلاكثورن: «نعم، أوافقك الرأي».

قال يابو: «جيد. إذن، الزعيم توراناجا يعرض عليك هذا الرونين يا أنجين سان. إنه مرتد ولكنه من عائلة ساموراي نبيلة. أوراجا يقسم إنه إذا قبلته، فسيصبح مساعدك ومترجمك وسيفعل أي شيء تريده. سيتحتم عليك إعطاؤه سيوفًا. ماذا أيضًا يا أوراجا؟ أخبره».

خلع أوراجا قبعته. كان شعره قصيرًا الآن ورأسه محلوقةً على طريقة الساموراي، لكنه لم تكن لديه ضفيرة بعد. قال: «يا سيدي، أرجوك اعذرني. أولًا... أولًا، أشعر بالخجل لأن شعري ليس كما يجب وليست لدي ضفيرة كما ينبغي أن يكون لدى الساموراي. لكن شعري سينمو ولست ساموراي أقل شأنًا بسبب ذلك». وضع قبعته مجددًا على رأسه. أخبر يابو ما قاله، واستمع أيضًا بعض الرونين الذين كانوا قريبين بما يكفي لسماع ما يجري وهو يكمل: «ثانيًا، أرجو أن تعذرني بشدة لكنني لا أستطيع استخدام السيوف... أو أي أسلحة. لم أدرب عليها قط. لكنني سأتعلم، صدقني سأتعلم. أرجو أن تعذرني على هذا العار. أقسم بالولاء المطلق لك وأطلب منك أن تقبلني...».

كان العرق يتصبب على وجهه وظهره.

قال بلاكثورن بتعاطف: «ما أهمية هذا الأمر؟ أنا أقبلك يا أوراجا سان».

انحنى أوراجا، ثم شرح ليابو ما قاله. لم يضحك أحد. باستثناء يابو. ولكن ضحكته قطعت عندما بدأت مشادة بين آخر اثنين روين حول اختيار السيوف المتبقية. صاح: «أنتما الاثنان، اخرسا».

استدار الرجلان على الفور وأحدهما زمجر قائلًا: «أنت لست سيدي. أين آدابك؟ قل «رجاء»، أو اخرس أنت».

قفز يابو واقفًا في الحال واندفع نحو الرونين المخطئ، وسيفه مرفوع. تفرق الرجال وفر الرونين. بالقرب من جانب الرصيف، أخرج الرجل سيفه

فجأة واستدار للهجوم مطلقاً صيحة معركة شرسة. اندفع على الفور جميع أصدقائه لنجده وسيوفهم جاهزة، ووجد يابو نفسه محاصراً. هاجمه الرجل. تجنب يابو ضربة سيف عنيفة، وبادله الهجوم لكنه أخطأ التصويب بينما تقدم الحشد للأمام لقتله. اندفع ساموراي توراناغا بعد فوات الأوان، وهم يعلمون أن يابو كان ميتاً لا محالة.

صاح بلاكتورن باليابانية: «توقفوا!». تجمد الجميع في أماكنهم من قوة صوته. أشار إلى المكان الذي كان الرجال مصطفين فيه من قبل وتابع: «انهبوا إلى هناك. الآن، هذا أمر».

ظل الجميع في أماكنهم على الرصيف بلا حراك للحظة. ثم بدؤوا في التحرك. وكُسِر السحر. اندفع يابو نحو الرجل الذي أهانه. قفز الرونين إلى الخلف وتلمص من الضربة، وسيفه مرفوع بعنف فوق رأسه منتظراً الهجوم القادم بلا خوف. تردد أصدقاؤه.

- انهبوا إلى هناك! الآن. هذا أمر.

ابتعد بقية الرجال عن الطريق بتردد لكن بطاعة وأعادوا سيوفهم إلى أغمادها، بينما بدأ يابو والرجل في الدوران حول بعضهما ببطء.

صاح بلاكتورن: «أنت. توقف. أنزل سيفك. أنا آمرك».

أبقى الرجل أنظاره الغاضبة على يابو، لكنه سمع الأمر ولحق شفتيه. تحرك بمهارة إلى اليسار ثم إلى اليمين. تراجع يابو واستغل الرجل الفرصة ليتحرر من قبضته واقترب من بلاكتورن ووضع سيفه أمامه وقال: «أنا أطيع يا أنجين سان. لم أهاجمه».

وبينما اندفع يابو، قفز الرجل مبتعداً عن طريقه وتراجع بلا خوف، كان أسرع من يابو وأصغر سنًا، وهو يستفزه.

نادى بلاكتورن: «يابو سان، أعذر... يبدو أنه أخطأ، أليس كذلك؟ ربما...». لكن يابو أطلق سيلاً من الكلمات اليابانية واندفع نحو الرجل الذي فر مجدداً بلا خوف.

كان ألفيتو الآن مستمتعاً ببرود. قال: «يابو سان قال إنه لا يوجد خطأ يا أنجين سان. هذا الوغد يجب أن يموت، كما يقول. لا يمكن لأي ساموراي أن يقبل مثل هذه الإهانة».

شعر بلاكتورن بأعين الجميع عليه وهو يحاول يائسًا أن يقرر ما يجب فعله. راقب يابو وهو يلاحق الرجل. يوجد إلى اليسار قليلًا ساموراي تابع لتورانجا يوجه قوسه. الضجيج الوحيد المسموع هو ضجيج الرجلين وهما يلهثان ويركضان ويصرخان في وجه أحدهما الآخر. تراجع الرونين ثم استدار وركض بعيدًا، متجهًا حول المنطقة الخالية، متملصًا ومراوغًا بينما كان يواصل إطلاق سيل من الشتائم.

قال ألفيتو: «إنه يستفز يابو يا أنجين سان. يقول: «أنا ساموراي... لا أقتل الرجال العزل مثلك... أنت لست ساموراي، أنت فلاح نتن... إذن هذا هو الأمر، أنت لست ساموراي، أنت إيتا، أليس كذلك؟ أمك كانت إيتا، وأبوك كان إيتا، و...».

توقف اليسوعي عندما صرخ يابو بغضب وأشار إلى أحد الرجال وصاح بأمر: «يقول يابو: أنت، أعطه سيفه».

تردد الرونين ونظر إلى بلاكتورن منتظرًا الأمر.

استدار يابو إلى بلاكتورن وصاح: «أعطه سيفه».

التقط بلاكتورن السيف. قال وهو يتمنى موته: «يابو سان، لا تطلب القتال، رجاءً لا تطلب القتال....».

- أعطه السيف.

تعالت مهممات غاضبة من رجال بلاكتورن. رفع يده قائلاً: «اصمتوا».

ثم التفت إلى الرونين التابع له وقال: «تعال إلى هنا. رجاءً».

راقب الرجل يابو، تحرك بمهارة إلى اليسار ثم إلى اليمين، وفي كل مرة يحاول يابو الهجوم عليه بغضب جامح لكن يتمكن الرجل من الإفلات والركض نحو بلاكتورن. هذه المرة لم يتبعه يابو. بل وقف منتظرًا يراقب كثور هائج يستعد للهجوم. انحنى الرجل لبلاكتورن وأخذ السيف، ثم التفت نحو يابو وانقض عليه بصيحة معركة مدوية. تصادم السيفان مرارًا وتكرارًا. الآن كان الرجلان يدوران في صمت حول بعضهما، ثم حدث تبادل آخر محموم بالسيوف التي كانت تغني. ثم تعثر يابو، فانقض عليه الرونين لقتله بسهولة. لكن يابو تحرك بمهارة جانبًا وضرب. قطعت ضربة يابو يدي الرجل اللتين ما زالتا تمسكان بالسيف. وقف الرونين هناك للحظة يصرخ وينظر إلى أطرافه المبتورة، ثم قطع يابو رأسه.

ساد الصمت. ثم علت أصوات هتاف وتصفيق حار حول يابو. ضرب يابو جثة الرجل المرتعشة مجددًا، ثم بعدما استعاد شرفه، التقط الرأس من الضفيرة وبصق عليها بدقة وألقاها جانبًا. سار بهدوء نحو بلاكثورن وانحنى. قال بصوت مهذب بينما كان ألفيتو يترجم: «أرجو أن تعذرني على سوء أخلاقي يا أنجين سان. شكرًا لك على إعطائه سيفه. أعتذر عن الصراخ. وأشكرك على السماح لي بتلطّيح سيفي بالدماء بشرف».

وقعت عيناه على الإرث الذي منحه إياه تورانا. فحس حده بعناية. كان لا يزال في حالة مثالية. فك الحزام الحريري الذي كان يرتديه لتنظيف الدم. قال: «لا تلمس النصل بأصابعك إطلاقًا يا أنجين سان، فهذا سيفسده. يجب أن يلامس النصل الحرير فقط أو جسد العدو». توقف ورفع نظره. «هل يمكنني أن أقترح بأدب أن تسمح لأتباعك باختبار سيوفهم؟ سيكون ذلك بشير خير لهم».

التفت بلاكثورن إلى أوراجا وقال: «أخبرهم».

كان النهار قد شارف على نهايته عندما عاد يابو إلى منزله. أخذ الخدم ملابسه المبللة بالعرق وأعطوه كيمونو جديدًا مريحًا، ووضعوا قدميه في جوارب تابي نظيفة. كانت يوريكو زوجته تنتظره في الشرفة الباردة ومعها شاي وساكى ساخن كما يحب أن يشربه.

هل تريد ساكي يا يابو سان؟

كانت يوريكو امرأة طويلة نحيلة ذات شعر مشوب بالشيب. وكان الكيمونو الداكن سيئ الجودة يبرز بشرتها الفاتحة بشكل جميل.

- شكرًا لك يا يوريكو سان.

شرب يابو النبيذ بامتنان، مستمتعًا بحلاوته وقسوته وهو ينزلق في حلقة الجاف.

- سمعت أن الأمور سارت على ما يرام.

- نعم.

- يا لوقاحة ذلك الرونين.

- لقد خدمني جيداً يا سيدتي، جيداً جداً. أشعر بأنني بخير الآن. لقد لوّث سيف تورانا جا بالدماء وجعلته ملكاً لي حقاً.

أنهى يابو الكوب وأعادت هي ملأه. كان يتحسس مقبض سيفه بيده ويقول: «لكن لم تكوني لتستمتعي بالقتال. لقد كان مجرد طفل... وقع في أول الفخ».

لمسته بحنان وقالت: «يسعدني أنه وقع في الفخ يا زوجي».

ضحك يابو قائلاً: «شكراً لك، لكنني بالكاد تعرقت. كان عليك رؤية الكاهن. كانت رؤيته يتصبب عرقاً ستدفئ قلبك... لم أره يوماً غاضباً هكذا. كان غاضباً لدرجة أنه كاد يختنق وهو يحاول كتمان غضبه. متوحش. إنهم جميعاً متوحشون. للأسف لا توجد طريقة للقضاء عليهم قبل أن تغادر هذه الدنيا».

- هل تعتقد أن أنجين سان يستطيع؟

- سيحاول. مع عشرة من تلك السفن وعشرة مثله، يمكنني السيطرة على البحار من هنا حتى كيوشو. ومع واحد فقط، أستطيع إلحاق الأذى بكياما وأونوشي وهاراما وتحطيم جيكيو والاحتفاظ بإيزو. كل ما نحتاجه هو القليل من الوقت وسيصبح كل دايميو منشغلاً بقتال عدوه الخاص. ستصبح إيزو آمنة ومُلكي مجدداً. لا أفهم لماذا سيسمح تورانا جا لأنجين سان بالرحيل. هذا هدر غبي آخر.

قبض يده وضرب بها التاتامي. جفلت الخادمة ولكنها لم تقل شيئاً. لم تحرك يوريكو ساكنًا. وارتسمت على وجهها ابتسامة خفيفة.

سألت: «كيف كان رد فعل أنجين سان على نبيله حريته، هو وأتباعه؟».

عبس يابو متذكرًا وقال: «كان سعيداً جداً كعجوز يحلم بأنه يملك يانغ رباعي الأطراف. إنه... نعم... لكنّ هناك شيئاً لا أزال لا أفهمه. عندما حاصرني هؤلاء الواكو في البداية، كنت رجلاً ميتاً بلا شك. لكن أنجين سان أوقفهم وأعاد لي حياتي. لا يوجد سبب ليقوم بذلك، أليس كذلك؟ فقبلها بلحظات رأيت الكراهية واضحة في عينيه. من السذاجة التظاهر بالعكس... وكأنني سأثق به».

- أعود لك حياتك؟

- نعم. غريب، أليس كذلك؟

- بلى. تحدث الكثير من الأشياء الغريبة يا زوجي.

أمرت الخادمة بالمغادرة، ثم سألت بهدوء: «ما الذي يريده تورانا جا حقًا؟».

انحنى يابو للأمام وهمس: «أعتقد أنه يريدني أن أصبح القائد العام». سألت يوريكو: «لماذا قد يفعل ذلك؟ هل يحتضر القبضة الحديدية؟ ماذا عن الزعيم سودارا؟ أو بونتارو؟ أو الزعيم نوبورو؟».

- من يدري يا سيدتي؟ كلهم فقدوا رضاه، أليس كذلك؟ تورانا جا يغير رأيه كثيرًا لدرجة أنه لا يمكن لأحد أن يتنبأ بما سيفعله الآن. أولاً طلب مني أن أذهب نيابة عنه إلى الميناء وأخبرني بما يريد قوله، ثم تحدث عن هيرو ماتسو، وعن كيف أنه تقدم في العمر، وسألني عن رأيي الحقيقي في كتيبة البنادق.

- هل يمكن أن يكون يعيد تجهيز السماء القرمزية؟

- إنها دائماً جاهزة. لكنه لم يحقق نتيجة ناجحة فيها. تلك الخطة ستحتاج إلى قيادة ومهارة. كان يمتلكهما من قبل، أما الآن فلا. لقد أصبح مجرد ظل للمينووارا الذي كان عليه في الماضي. لقد صُدمت من مظهره. أعتذر، لقد أخطأت. كان يجب أن أنضم إلى إيشيدو.

- أعتقد أنك اخترت القرار الصحيح.

- ماذا؟

- استحم أولاً، ثم أعتقد أن لدي هدية لك.

- أي هدية؟

- أخوك ميزونو سيأتي بعد العشاء.

تجهم يابو: «وهل هذه هدية؟ لماذا قد أرغب في رؤية ذلك الأحمق؟».

- المعلومات الخاصة أو الحكمة -حتى إذا جاءت من أحمق- قد تكون قيمة مثلما تأتي من مستشار، أليس كذلك؟ أحياناً تكون أكثر فائدة.

- أي معلومات؟

- استحم أولاً استحم. وتناول الطعام. ستحتاج إلى رأس هادئ الليلة يا يابو تشان.

كان يابو سيضغط عليها لمعرفة المزيد، لكن الاستحمام كان يغريه، وفي الحقيقة كان يشعر بخمول ممتع لم يشعر به منذ زمن طويل. كان جزءً منه بسبب الاحترام الذي أبداه توراناها هذا الصباح، وجزءً آخر بسبب احترام القادة له في الأيام الأخيرة. لكن الجزء الأكبر كان بسبب القتل، تلك النشوة التي اندفعت من السيف إلى ذراعه إلى رأسه. أن تقتل بهذه الدقة، رجلًا لرجل -أمام رجال- تلك متعة لا تُمنح إلا للقليلين. ونادرًا ما تحدث، نادرة بما يكفي لتستحق التقدير والاستمتاع بها.

وهكذا ترك يابو زوجته وغرق أكثر في نشوته. سمح للأيدي بالاهتمام بجسده، ثم بعدما شعر بالانتعاش والتجدد، توجه إلى غرفة الشرفة. كانت آخر أشعة غروب تزين السماء، والقمر منخفضًا وهللاً رقيقًا. قدمت له إحدى خادماته الشخصية وجبة العشاء برقة. تناول طعامه بحذر وفي صمت. قليل من الحساء والسّمك والخضراوات المخللة.

ابتسمت الفتاة بإغراء وقالت: «هل أفرش التاتامي الآن يا سيدي؟». هز يابو رأسه: «لاحقًا. أخبري زوجتي أولاً أنني أريد رؤيتها». وصلت يوريكو مرتدية كيمونو أنيقًا رغم قدمه.

- إذن؟

- أخوك ينتظر. علينا أن نراه وحدنا. قابله أولاً يا سيدي، ثم سنتحدث أنا وأنت... بمفردنا أيضًا. رجاءً تحلّ بالصبر، حسنًا؟

كان كاسيجي ميزونو، شقيق يابو الأصغر ووالد أومي، رجلًا صغير الحجم ذا عينين جاحظتين وجبهة عالية وشعر خفيف. لم تبدُ سيوفه مناسبة له وبالكاد كان يتقن استخدامها. ولم يكن أفضل حائلًا حتى مع القوس والسهم. انحنى ميزونو ومدح يابو على مهارته اليوم، حيث انتشرت أخبارُ قتاله بسرعة في القلعة، مما عزز من سمعته كمقاتل. ثم دخل في صلب الموضوع بحرص منه على إرضائه: «تلقيت رسالة مشفرة اليوم من ابني يا سيدي. رأت السيدة يوريكو أنه من الأفضل أن أسلمها لك شخصيًا». سلم اللفافة إلى يابو مع فكّ التشفير. الرسالة من أومي كانت تقول: «يا أبي، أرجو أن تخبر الزعيم يابو بسرعة وبسرية: أولاً، جاء الزعيم بونتارو إلى ميشيما سرًّا عبر تاكاتو. لقد أفشى أحد رجاله هذا الأمر خلال سهرة سكر نظمتها على شرفهم. ثانيًا: خلال هذه الزيارة السرية في تاكاتو -التي استمرت ثلاثة أيام- التقى بونتارو

الزعيم زاتاكى مرتين وبالسيدة والدة زاتاكى ثلاث مرات. ثالثاً: قبل أن يغادر الزعيم هيرو ماتسو ميشيما، أخبر خليلته الجديدة السيدة أوكو ألا تقلق لأن: «ما دمت حياً، لن يغادر الزعيم توراناكا الكانتو. رابعاً: أن....».

رفع يابو عينيه وقال: «كيف يمكن لأومي سان معرفة ما قاله القبضة الحديدية سرّاً لخليلته؟ ليس لدينا جواسيس في منزله».

- لدينا الآن يا سيدي. رجاء أكمل القراءة.

- رابعاً: أن هيرو ماتسو مصمم على ارتكاب الخيانة إذا لزم الأمر، وسيحتجز توراناكا في إيدو إذا لزم الأمر، وسيفرض السماء القرمزية رغم رفض توراناكا، سواء بموافقة الزعيم سودارا أو دونها إذا لزم الأمر. خامساً: أن هذه حقائق يمكن الوثوق بها. خادمة السيدة أوكو الشخصية هي ابنة مربية زوجتي وأصبحت خادمة السيدة أوكو هنا في ميشيما بعدما أُصيبت خادمتها الأصلية بمرض غريب أنهكها للأسف. سادساً: أن بونتارو سان كالمجنون، مكتئب وغازب... اليوم تحدّى وقتل ساموراي دون سبب، وهو يلعن اسم أنجين سان. وأخيراً: تفيد تقارير الجواسيس أن إيكوا جيكيو قد جمع عشرة آلاف رجل في سوروبجا، مستعدين لاجتياح حدودنا. أرجو أن تبلغ الزعيم يابو تحياتي...

كانت بقية الرسالة ليست ذات أهمية.

- جيكيو، حقاً! هل يجب أن أموت دون الانتقام من ذلك الشيطان؟

قالت يوريكو: «رجاء تحل بالصبر يا سيدي. أخبره يا ميزونو سان».

بدأ الرجل الضئيل: «يا سيدي، لقد حاولنا لعدة أشهر تنفيذ خطتك التي اقترحتها عندما وصل الهمجي في البداية. تذكر، مع كل تلك العملات الفضية، لقد ذكرت أن مائة أو حتى خمسمائة في يد الطاهي المناسب ستقضي على إيكوا جيكيو نهائياً». اتسعت عينا ميزونو حتى بدت أشبه بعيني الضفدع. «يبدو أن مورا -رئيس أنجيرو- لديه ابن عم لابن عم يمتلك أحياناً أصبح الآن أفضل طاهٍ في سوروبجا. علمت اليوم أنه قبل في منزل جيكيو. لقد حصل على دفعة مقدمة مقدارها مائتان، والسعر الإجمالي هو خمسمائة».

- نحن لا نملك هذا المال. هذا مستحيل. كيف يمكنني توفير خمسمائة...

أنا مديون لدرجة أنني لا أستطيع حتى توفير مائة.

- أرجو المَعذرة يا سيدي. أعتذر ولكن المال قد جُمع بالفعل. لم تبقَ كل العملات الهمجية في صندوق السفينة. ضاعت ألف قطعة قبل أن تُحصى رسميًا. أعتذر.

حَدَق يابو إليه بذهول: «كيف؟».

- يبدو أن أومي سان تَلَقَّى الأوامر للقيام بذلك نيابةً عنك. أحضروا المال سرًّا إلى السيدة يوريكو، حيث طُلب الإذن منها ومُنح قبل المخاطرة بإثارة غضبك.

فكر يابو في الأمر طويلًا ثم سأل: «مَن أمر بذلك؟».

- أنا أمرت. بعدما حصلت على الإذن.

انحنى يابو لكليهما وقال: «شكرًا لك يا ميزونو سان. وشكرًا لك يا يوريكو سان. إذن! جيكيو، أليس كذلك؟ في نهاية الأمر». رَبَّت كَتَفَ أخيه بحرارة، وكان الرجل الأصغر يبدو بائسًا في فرحته المتملقة: «لقد قمت بعمل رائع يا أخي. سأرسل إليك بعض أقمشة الحرير من الخزانة. كيف حال السيدة زوجتك؟».

- بخير يا سيدي، بخير جدًا. وقد طلبت أن تقبل أطيب تمنياتها.

- علينا تناول الطعام معًا. جيد... جيد جدًا. ماذا بشأن باقي التقرير... ما رأيك فيه؟

- لا شيء يا سيدي. سأكون مهتمًا جدًا بمعرفة ما تعتقد أنه يعنيه.

- أولًا...

توقف يابو عندما لاحظ نظرة زوجته المحذرة، وغير ما كان يعتزم قوله: «أولًا وأخيرًا، يعني أن أومي سان ابنك مخلص وتابع ممتاز. لو كنت أتحكم في المستقبل، كنت سأرقيه... نعم، يستحق الترقية، أليس كذلك؟».

كان ميزونو مبتهجًا للغاية. وكان يابو صبورًا معه، يواصل الحديث ويثني عليه مجددًا، وحالما أصبح من اللائق جعله يذهب، صرفه.

أرسلت يوريكو لطلب الشاي. قال بعدما أصبحا وحدهما مجددًا: «ماذا يعني الباقي؟».

انعكس شعورها بالحماسة على وجهها الآن وقالت: «أرجو المعذرة يا سيدي، ولكن لدي فكرة جديدة: إن تورانا جا يلعب بنا جميعًا ويخدعنا، لا ينوي ولم يكن ينوي قط الذهاب إلى أوساكا للاستسلام».

- هراء.

- دعني أعطك الحقائق... يا سيدي، لا تعلم كم أنت محظوظ بولاء أومي لك وبذلك الأخ الغبي الذي سرق ألف قطعة نقدية. قد تكون الأدلة التي تثبت نظريتي كالتالي: أرسل بونتارو سان -وهو واحد من المقربين الموثوق بهم- سرًا إلى زاتاكي. لماذا؟ بالتأكيد لحمل عرض جديد. ماذا قد يغري زاتاكي؟ الكانتو... فقط الكانتو. إذا العرض هو الكانتو... مقابل الولاء، حالما يصبح تورانا جا رئيسًا لمجلس الوصاية مجددًا... مجلس جديد بتفويض جديد. حينها فقط يمكنه منح الكانتو، أليس كذلك؟

توقفت قليلاً ثم استمرت بدقة: «إذا استطاع إقناع زاتاكي بخيانة إيشيدو، فهو بذلك يكون قد اجتاز ربع الطريق نحو العاصمة كيوتو. كيف يمكن تثبيت التحالف مع أخيه؟ الرهائن. سمعت اليوم أن الزعيم سودارا والسيدة جينجيكو وبناتهما وابنتهما سيزورون جدتهم الموقرة في تاكاتو خلال عشرة أيام».

- جميعهم؟

- نعم. ثم يعيد تورانا جا السفينة لأنجين سان، بحالة جيدة كالجديدة مع كل المدافع والبارود، ومائتي محارب متعصب وكل تلك الأموال، بالتأكيد ما يكفي لشراء المزيد من المرتزقة الهمج، والواكو الحثالة من ناجازاكي. لماذا؟ ليسمح له بمهاجمة السفينة السوداء للهمج والاستيلاء عليها. لا سفينة سوداء، لا أموال، ومشكلات هائلة للكهنة المسيحيين الذين يسيطرون على كياما وأونوشي وكل الديميو المسيحيين الخونة.

- لن يجروا تورانا جا على فعل ذلك. لقد حاول التايكو وفشل، وكان في أوج وقته. سيغادر الهمجيين بغضب. ولن نتاجر معهم مجددًا.

- نعم. إذا فعلنا نحن ذلك. لكن هذه المرة الأمر يتعلق بهمجي ضد همجي، أليس كذلك؟ لا علاقة لنا بالأمر. ولنفترض أن أنجين سان هاجم ناجازاكي وأضرم النيران فيها... أليس هاريمان الآن معاديًا، وكذلك كياما

وأونوشي، وبسببهم معظم داييميو كيوشو؟ ولنفترض أن أنجين سان أحرق بضعة مواني أخرى وأزعج تجارتهم، وفي الوقت نفسه...
صاح يابو: «وفي الوقت نفسه يطلق توراناغا السماء القرمزية».

وافقت يوريكو بسعادة: «نعم. نعم. ألا يفسر هذا تصرفات توراناغا؟ أليست تلك المؤامرة تناسبه تمامًا؟ ألا يقوم بما اعتاده دائمًا، الانتظار كالعادة، يكسب الوقت كالعادة، يومًا هنا ويومًا هناك، وسرعان ما يمر الشهر، ويصبح يملك مجددًا قوة ساحقة تمحو كل المعارضة؟ لقد كسب قرابة شهر منذ أن أحضر زاتاكي الاستدعاء إلى يوكوسي».

شعر يابو بنبضه يتسارع في أذنيه. سأل: «إذن نحن بأمان؟».

ترددت قبل أن تقول: «لا، لكننا لسنا خاسرين. أعتقد أنه لا يوجد استسلام. ولكن قد تعرض الجميع للخداع. إنه ذكي جدًا، أليس كذلك؟ خُذِ الجميع مثلنا. حتى الليلة. أومي أعطاني المفاتيح. لقد نسينا جميعًا أن توراناغا ممثل نوه عظيم يستطيع ارتداء وجهه كقناع إذا لزم الأمر. أليس كذلك؟».

حاول يابو تنظيم أفكاره لكنه لم يستطع. لذا سأل: «لكن إيشيدو لا يزال لديه كل اليابان ضدنا».

- نعم. باستثناء زاتاكي. ولا بد من وجود تحالفات سرية أخرى. يمكن لتوراناغا وأنت تحصين الممرات حتى يحين الوقت.
- إيشيدو لديه قلعة أوساكا والوريث وثروة التايكو.
- نعم. لكنه سيظل مختبئًا داخل القلعة. شخص ما سيخونه.
- ماذا يجب أن أفعل؟
- عكس ما يفعله توراناغا. دعه ينتظر، أما أنت فيجب أن تسرع الأمور.
- كيف؟

- أول شيء يا سيدي هو هذا: توراناغا نسي الأمر الوحيد الذي لاحظته هذا المساء. غضب تسوكو سان الشديد. لماذا؟ لأن أنجين سان يهدد مستقبل المسيحية، أليس كذلك؟ لذلك عليك وضع أنجين سان تحت حمايتك في الحال، لأن هؤلاء الكهنة أو دُماهم سيقتلونه خلال ساعات. التالي: أنجين سان يحتاج إليك لحمايته وتوجيهه، ولمساعدته في الحصول على طاقمه الجديد في ناجازاكي. فسي فشل من دونك

أنت ورجالك. ومن دونه هو وسفينته ومدافعه والمزيد من الهمج، لن تحترق ناجازاكي، وذلك يجب أن يحدث وإلا فإن كياما وأونوشي وهاريمان والكهنة القذرين لن ينشغلوا بما يكفي لسحب دعمهم مؤقتاً من إيشيدو. في هذه الأثناء، توراناغا -الذي يحظى الآن على دعم زاتاكي ومتعصبه بأعجوبة- وأنت تقود كتيبة البنادق، ستجتاحان ممرات شينانو نحو سهول كيوتو.

- نعم. نعم، أنت محقة يا يوريكو تشان. يجب أن يكون الأمر كذلك. أنت ذكية جداً، حكيمة جداً.

- الحكمة والحظ لا فائدة لهما دون الوسائل لتنفيذ الخطة يا سيدي. أنت وحدك تستطيع فعل ذلك... أنت القائد والمقاتل وقائد المعارك الذي يحتاجه توراناغا. يجب أن تراه الليلة.

- لا أستطيع الذهاب إلى توراناغا وأخبره أنني اكتشفت خطته، أليس كذلك؟

- نعم، ولكنك ستتوسل إليه للسماح لك بالذهاب مع أنجين سان، وأنت يجب أن تغادر على الفور. يمكننا التفكير في سبب منطقي.

- لكن إذا هاجم أنجين سان ناجازاكي والسفينة السوداء، ألن يتوقفوا عن التجارة ويغادروا؟

- بلى. ربما. لكن هذا العام القادم. بحلول العام القادم، سيصبح توراناغا وصياً، رئيس مجلس الوصاية. وأنت ستكون قائده العام.

يابو عاد إلى الواقع وقال بحزم: «لا. حالما يحصل على السلطة، سيأمرني بالقيام بالسيبوكو».

- ستحصل على الكانتو قبل ذلك بكثير.

رمش بعينه وسأل: «كيف؟».

- لن يمنح توراناغا أخاه غير الشقيق الكانتو حقاً. إن زاتاكي يمثل تهديداً دائماً له. زاتاكي رجل جامح مليء بالفخر، أليس كذلك؟ سيكون من السهل جداً على توراناغا أن يناور زاتاكي ليطلب بنفسه المكان الأبرز في المعركة. وإذا لم يُقتل زاتاكي... ربما برصاصة طائشة أو سهم؟ على الأرجح رصاصة. عليك قيادة كتيبة البنادق في المعركة يا سيدي.

- لماذا لا أتعرض أنا لرصاصة طائشة أيضاً؟

- قد يحدث ذلك يا سيدي. لكنك لست من أقارب تورانا، وبالتالي لا تشكل تهديدًا لسلطته. ستصبح أكثر أتباعه إخلاصًا. هو بحاجة إلى قادة مقاتلين. ستحصل على الكانتو، وهذا يجب أن يكون هدفك الوحيد. سيمنحها لك عندما يتعرض إيشيدو للخيانة لأنه سيأخذ أوساكا لنفسه.

- تابع؟ لكنك قلتِ انتظر وسرعان ما لن...

- الآن أنصحك بدعمه بكل قوتك. ليس باتباع أوامرهم بعمى مثل القبضة الحديدية العجوز، ولكن بذكاء. لا تنس يا يابو تشان، في أثناء المعركة -كما في أي معركة- يرتكب الجنود أخطاء، والرصاص الطائش يحدث. ما دمت تقود الكتيبة، يمكنك الاختيار أيضًا... في أي وقت، أليس كذلك؟

قال مدهوشًا من حكمتها: «بلى».

- تذكر، تورانا، يستحق أن يُتبع. إنه من عشيرة مينووارا، وإيشيدو فلاح. إيشيدو هو الأحق. أستطيع رؤية ذلك الآن. كان ينبغي لإيشيدو مهاجمة بوابات أوداوارا الآن، بغض النظر عن الأمطار. ألم يقل أومي سان ذلك منذ أشهر؟ أليست أوداوارا قليلة الجنود؟ أليس تورانا معزولاً؟

ضرب يابو قبضته على الأرض بسعادة وقال: «إذن إنها الحرب بعد كل شيء. كم أنت ذكية لأنك رأيت ما يفكر فيه. إذن كان يلعب دور الثعلب طوال الوقت، أليس كذلك؟».

قالت وهي تشعر برضا كبير: «بلى».

توصلت ماريكو إلى الاستنتاج المذهل نفسه، وإن لم يكن من الحقائق نفسها. فكرت: لا بد أن تورانا يتظاهر ويلعب لعبة سرية. هذا هو التفسير الوحيد لسلوكه الغريب، إعطاء أنجين السفينة والمال وكل المدافع والحرية أمام تسوكو سان. الآن سيواجه أنجين سان السفينة السوداء بكل تأكيد. وسيأخذها ويهدد سفينة العام المقبل، وبالتالي سيلحق أضرارًا جسيمة بالكنيسة المقدسة ويجبر الآباء القديسين على إجبار كياما وأونوشي على خيانة إيشيدو...

فكرت بحيرة: لكن لماذا؟ إذا كان ذلك صحيحًا، وإذا كان تورانا جا يفكر في خطة طويلة الأمد، إذن بالطبع لا يمكنه الذهاب إلى أوساكا والانحناء أمام إيشيدو، أليس كذلك؟ لا بد أن... آه! ماذا عن التأجيل الذي أقنع هيرو ماتسو تورانا جا بفعله اليوم؟ يا مريم في الأعالي، تورانا جا لم يكن ينوي الاستسلام قط. كل هذا خدعة.

لماذا؟ لاكتساب الوقت.

لتحقيق ماذا؟ للانتظار والقيام بألف خدعة أخرى، ولا يهم ما هم، فقط أن تورانا جا عاد ليصبح ما كان عليه دائمًا، محرك الدمى العظيم.

كم من الوقت سيمر قبل أن يفقد إيشيدو صبره ويرفع راية الحرب ويهاجمنا؟ شهر... شهرين على الأكثر. فقط. إذن بحلول الشهر التاسع من هذه السنة الخامسة من عهد كيتشو، ستبدأ معركة الكانتو.

لكن ماذا كسب تورانا جا في شهرين؟ لا أعلم... كل ما أعلمه الآن هو أن ابني لديه فرصة ليرث العشرة آلاف كوكو خاصته، وليعيش وينجب، وأنه الآن ربما لن ينقرض نسل أبي من الأرض.

كانت تستمتع باكتشافها الجديد، تتلاعب به وتفحصه وتجدها لا تشوبه شائبة. سألت نفسها: ولكن ماذا يجب أن أفعل بين الآن وحينها؟ لا شيء أكثر مما فعلته بالفعل... وقررت فعله، أليس كذلك؟

- سيدتي؟

- نعم يا شيموكو؟

- جيوكو سان هنا. تقول إن لديها موعدًا.

- نعم. نسيت أن أخبرك. سخني الساكي أولاً، ثم أحضره وأحضرها هنا.

فكرت ماريكو فيما حدث بعد الظهيرة. تذكرت ذراعيه حولها، كم كانت تشعر بالأمان والدفع والقوة. كان قد سألها بحذر شديد بعدما غادر يابو وتسوكو سان: «هل أستطيع رؤيتك الليلة؟».

قالت باندفاع: «نعم، نعم يا حبيبي. كم أنا سعيدة من أجلك. أخبر فوجيكو سان... اطلب منها أن تستدعيني بعد ساعة الخنزير».

شعرت بضيق حلقها في هدوء منزلها. الكثير من الحماسة والخطر.

تفقدت مكياجها وتصفيفة شعرها في مرآتها وحاولت أن تتمالك نفسها. سمعت خطوات أقدام تقترب. وفُتِحَ باب الشوحي. قالت جيوكو منحنية باحترام: «يا سيدتي، كم هو لطف منك أن تقابليني».

- أهلاً بك يا جيوكو سان.

شربت الساكي، وكانت شيموكو تصب لهما.

- يا لها من فخاريات رائعة يا سيدتي. إنها جميلة جداً.

تبادلا حديثاً مهذباً، ثم أرسلت شيموكو بعيداً.

- أعتذر يا جيوكو سان، لكن سيدنا لم يصل هذا المساء. لم أقابله، رغم أنني أمل أن أقابله قبل مغادرتي.

- نعم، سمعت أن يابو سان ذهب إلى الميناء بدلاً منه.

- عندما أقابل توراناغا ساما، سأطلب منه مرة أخرى. لكنني أتوقع أن يظل جوابه كما هو.

صبت ماريكو الساكي لهما.

- أعتذر لكنه لن يوافق على طلبي.

- نعم، أصدقك. ما لم يكن هناك ضغط كبير.

- لا يوجد ضغط يمكنني استخدامه. أعتذر.

- أعتذر أيضاً يا سيدتي.

وضعت ماريكو كأسها جانباً وقالت: «إذن لقد قررت أن بعض الألسنة ليست آمنة».

قالت جيوكو بحدة: «لو كنتُ سأفشي أسراراً عنك، هل كنت سأخبرك وجهاً لوجه؟ هل تعتقدين أنني سأكون بهذه الساذجة؟».

- ربما يجب أن تغادري. أعتذر ولكن لدي الكثير من العمل لأقوم به.

أجابت جيوكو بصوت قاسٍ: «حسناً يا سيدتي، وأنا أيضاً. لقد سألني الزعيم توراناغا وجهاً لوجه عما أعرفه عنك وعن أنجين سان. بعد ظهر اليوم. أخبرته أنه لا يوجد شيء بينكما. قلت: «نعم يا سيدي، لقد سمعت الشائعات القذرة أيضاً، لكنها ليست صحيحة. أقسم برأس ابني يا سيدي، وبأبنائه. إذا كان يوجد من يعرف، فبالأكيد سأكون أنا. يمكنك أن تصدق أن كل هذا كذبة خبيثة... نائمة ناجمة عن الغيرة يا سيدي...». نعم يا سيدتي، يمكنك تصديق

أُنني صِدْمْتُ بشكل مناسب وتمثيلي كان مثاليًا، وقد اقتنع». احتست جيوكو الساكي وأضافت بمرارة: «الآن سَنصبح جميعًا هالكين إذا حصل على دليل... ولن يكون من الصعب الحصول عليه، أليس كذلك؟».

- كيف؟

- عليك أن تختبري أنجين سان... بالطرق الصينية. شيموكو... بالطرق الصينية. أنا... كيوكو سان... يوشيناكا... عذرًا، حتى أنتِ يا سيدتي- بالطرق الصينية.

أخذت ماريكو نفسًا عميقًا وسألت: «هل... هل أستطيع أن أسألك... لماذا خاطرتِ بذلك؟».

- لأن في مواقف معينة يجب على النساء حماية بعضهن من الرجال. لأنني في الواقع لم أرَ شيئًا. لأنك لم تسيئي إليّ. لأنني أحبك وأحب أنجين سان وأؤمن بأن لكليهما الكارما الخاصة بكما. ولأنني أفضل أن تكوني على قيد الحياة وصديقة لي بدلًا من أن تموتي، كما أن مشاهدتكما أنتما الثلاثة تحومان حول شعلة الحياة كالفراشات أمر مشوق.

- لا أصدقكِ.

ضحكت جيوكو بهدوء: «شكرًا لك يا سيدتي». ثم قالت بصدق تام بعدما توقفت عن الضحك: «حسنًا، سأخبركِ السبب الحقيقي. أحتاج إلى مساعدتك. نعم، لن يوافق توراناغا ساما على طلبي، لكن ربما يمكنكِ التفكير في طريقة. أنتِ الفرصة الوحيدة التي أتاحت لي، والتي ستتاح لي في هذه الحياة، ولا أستطيع التخلي عنها بسهولة. الآن تعرفين. رجاء، أتوسل إليك بتواضع أن تساعدني في طلبي». وضعت كلتا يديها على الفوتون وانحنت بعمق: «أرجو أن تعذري جرأتي يا سيدة تودا، لكن سأعطيكِ كل ما أملكه إذا ساعدتني».

ثم جلست مجددًا على كعبيها، وعدّلت طيات الكيمونو، وأنهت شرب الساكي.

حاولت ماريكو التفكير بوضوح. كان حدسها يخبرها أن تثق بالمرأة، لكن عقلها كان ما زال مشوشًا قليلًا بفعل اكتشافها الجديد حول توراناغا وارتياحها لأن جيوكو لم تش بها كما كانت تتوقع، لذا قررت تأجيل اتخاذ القرار إلى وقت لاحق. قالت: «نعم، سأحاول. ولكنكِ بحاجة إلى منحي بعض الوقت، رجاء».

- يمكنني منحكِ ما هو أفضل من ذلك. إليك حقيقة: هل تعرفين عصابة أميدا؟ القتلة؟
- ماذا عنهم؟
- هل تذكرين الذي كان في قلعة أوساكا يا سيدتي؟ لقد استهدف أنجين سان وليس توراناغا ساما. كبير خدم الزعيم كياما دفع ألفي كوكو لتلك المحاولة.
- كياما؟ لكن لماذا؟
- إنه مسيحي، أليس كذلك؟ كان أنجين سان عدوهم حتى في ذلك الوقت، أليس كذلك؟ وإذا كان عدوهم في ذلك الوقت، فماذا عن الآن؟ الآن بعدما أصبح أنجين سان ساموراي وحرًا ولديه سفينته.
- هل يوجد أميدا؟ هنا؟
- هزت جيوكو كتفها وقالت: «مَن يدري؟ لكني لن أراهن حتى على لباس داخلي لإيتا مقابل حياة أنجين سان إذا لم يكن حذرًا خارج القلعة».
- أين هو الآن؟
- في جناحه يا سيدتي. أنتِ زاهبة لزيارته قريبًا، أليس كذلك؟ ربما من الأفضل أن تحذريه.
- يبدو أنك تعرفين كل ما يجري يا جيوكو سان.
- أنا أبقى أذنيّ مفتوحتين يا سيدتي، وعينيّ كذلك.
- كبحت ماريكو قلقها بشأن بلاكتورن وقالت: «هل أخبرتِ توراناغا ساما؟».
- تجعدت زوايا عيني جيوكو وهو ترتشف الساكي: «نعم، أخبرته ذلك. في الحقيقة، لا أعتقد أنه تفاجأ. ألا تعتقدين أن هذا مثير للاهتمام؟».
- ربما كنتِ مخطئة.
- ربما. سمعت إشاعة في ميشيما عن وجود مؤامرة لتسميم الزعيم كياما. أمر مروع، أليس كذلك؟
- أي مؤامرة؟
- أخبرتها جيوكو التفاصيل.
- مستحيل! لن يفعل دايميو مسيحي ذلك بآخر.

ملأت ماريكو الأكواب.

- هل يمكنني سؤالك عما قيل أيضًا، منك ومنه؟

- جزء منه يا سيدتي، كان التماسًا مني لاستعادة فضله والخروج من ذلك النزل الموبوء، وقد وافق على ذلك. سنحصل الآن على غرف مناسبة داخل القلعة، بالقرب من أنجين سان في أحد بيوت الضيافة، وسأستطيع الذهاب والمجيء كما أشاء. طلب من كيكو سان أن تسليه الليلة، وهذا تحسن آخر، رغم أن لا شيء سيخرجه من اكتئابه. أليس كذلك؟

كانت جيوكو تراقب ماريكو بنظرة فاحصة. حافظت ماريكو على وجهها خاليًا من التعبيرات واكتفت بهز رأسها. تنهدت المرأة الأخرى وتابعت: «نعم، إنه حزين جدًا. شيء مؤسف. جزء من الوقت قضيناه في الحديث عن الأسرار الثلاثة. طلب مني تكرار ما أعرفه، وما أخبرتك إياه».

فكرت ماريكو مع انضمام دليل آخر إلى مكانه المناسب: أوتشييا؟ إذن كانت تلك طعم زاتاكي. وتوراناجا يملك سلاحًا يمكنه استخدامه ضد أومي أيضًا إذا لزم الأمر، وسلاح آخر ضد أونوشي بواسطة هاريماء، أو حتى كياما.

- هل تبسمين يا سيدتي؟

أرادت ماريكو أن تقول «نعم»، وأن تشارك سعادتها مع جيوكو. أرادت أن تخبر جيوكو: كم كانت معلوماتك ذات قيمة لسيدنا. وكم يجب أن يكافئك. يجب أن تصبحين دايميو. وكم هو رائع توراناجا ساما لأنه استمع بغير اهتمام. كم هو مذهل!

لكن ماريكو نو بونتارو اكتفت بهز رأسها وقالت بهدوء: «أعتذر لأن معلوماتك لم تحسن مزاجه».

- لم يحسن أي شيء مما قلته مزاجه. الذي كان كئيبيًا ومحبطًا. أمر محزن، أليس كذلك؟

- بلى، أعتذر.

استنشقت جيوكو وقالت: «بلى. توجد معلومة أخرى قبل أن أذهب، قد تهلك يا سيدتي، ولتعزز صداقتنا. من الممكن جدًا أن يكون أنجين سان خصبًا للغاية».

- ماذا؟

- كيكو سان حامل.
- أنجين سان؟
- نعم. أو الزعيم توراناغا. وربما أومي سان. جميعهم كانوا في الفترة الزمنية المناسبة. بالطبع اتخذت كيكو سان احتياطات بعد أومي سان كما هو معتاد، لكن كما تعلمين، لا توجد وسيلة مثالية، ولا شيء مضمون على الإطلاق، قد تحدث أخطاء، أليس كذلك؟ تعتقد أنها نسيت بعد أنجين سان، لكنها ليست متأكدة. كان ذلك في اليوم الذي وصل فيه الرسول إلى أنجيرو، ومع حماسها للرحيل إلى يوكوسي وشراء الزعيم توراناغا لعقدها... أمر مفهوم، أليس كذلك؟
- رفعت جيوكو يديها وبدأت مضطربة للغاية وهي تواصل كلامها: «بعد الزعيم توراناغا، قامت بالعكس بناءً على اقتراحي. كما أننا أشعلنا أعواد البخور وصلينا من أجل ولد».
- فحصت ماريكو النقوش على مروحتها وسألت: «مَنْ؟ مَنْ تعتقدين؟».
- هذه هي المشكلة يا سيدتي. لا أعلم. سأكون شاكرة لنصيحتك.
- يجب إنهاء هذا الحمل. بالطبع. لا يوجد خطر عليها.
- أوافقك الرأي. لكن لسوء الحظ كيكو سان لا توافق.
- ماذا؟ أنا مدهوشة يا جيوكو سان. بالطبع يجب عليها ذلك. أو يجب إخبار الزعيم توراناغا. فبعد كل شيء، حدث هذا قبل أن...
- ربما حدث قبله يا سيدتي.
- يجب إخبار الزعيم توراناغا. لماذا كيكو سان غير مطيعة وغبية هكذا؟
- الكارما يا سيدتي. إنها تريد طفلاً.
- طفل مَنْ؟
- لا تريد أن تقول. كل ما قالته هو أن لكل واحد من الثلاثة مزاياه.
- ستكون حكيمة إذا تخلت عن هذا الحمل لتكون واثقة في المرة القادمة.
- أوافقك الرأي. ظننت أنه يجب عليك أن تعرفي في حال... توجد أيام كثيرة قبل أن يظهر أي شيء أو قبل أن يكون الإجهاض خطرًا عليها. ربما ستُغير رأيها. لا أستطيع إجبارها على هذا الأمر. فهي لم تعد ملكي، لكنني أحاول العناية بها في الوقت الحالي. سيكون من الرائع إذا كان

الطفل للزعيم تورانا. لكن تخيلي لو كان يملك عينين زرقاوين...
آخر نصيحة يا سيدتي: أخبري أنجين سان ألا يثق بأوراجا نو تاداماسا
سوى هنا فقط، وليس في ناجازاكي إطلاقاً. إن الولاء النهائي لذلك
الرجل سيكون دائماً لعمه الزعيم هاريمان.

- كيف تعلمين كل هذه الأمور يا جيوكو سان؟

- الرجال يحتاجون إلى الإفشاء بالأسرار يا سيدتي. هذا ما يجعلهم
مختلفين عنا... يحتاجون إلى مشاركة الأسرار، لكننا نحن النساء لا
نكشفها إلا لتحقيق منفعة. بقليل من الفضة وأذن مصغية -ولدي
كلتاها- يصبح كل شيء سهلاً. نعم. يحتاج الرجال إلى مشاركة
الأسرار. لهذا نحن متفوقات عليهم وسيظلون دائماً تحت سيطرتنا.

الفصل الحادي والخمسون

في ظلمة ما قبل الفجر مباشرة، ارتفعت المصاريح الحديدية لأحد الأبواب الجانبية بلا صوت، واندفع عشرة رجال عبر الجسر المتحرك الضيق فوق الخندق الداخلي. أغلقت الشبكة الحديدية خلفهم. أدار الحراس اليقظون ظهورهم عمدًا على الجانب الآخر من الجسر وسمحوا للرجال بالمرور دون أن يعترضهم أحد. كانوا جميعًا يرتدون كيمونو داكنًا وقبعاتٍ مخروطية ويمسكون سيوفهم بإحكام: ناجا ويابو وبلاكثورن وأوراجانو تاداماسا وستة من الساموراي. كان ناجا في المقدمة ويابو بجانبه، وقادهم بلا تردد عبر مائة من المنعطفات الجانبية، يصعدون ويهبطون على درجات، ويمرون عبر ممرات قلما تستخدم. كان ناجا يرفع شارة فضية كلما واجهوا دوريات أو حراسًا -دائمًا في حالة تأهب-، فيُسمح لهم بالمرور دون عوائق أو استجواب. أوصلهم إلى البوابة الجنوبية الرئيسية عبر طُرق ملتوية، كانت تلك البوابة هي الطريق الوحيد لعبور الخندق الكبير الأول للقلعة. كانت تنتظرهم مجموعة من الساموراي هنا. أحاط هؤلاء الرجال بمجموعة ناجا بصمت وحجبهم، ثم اندفعوا جميعًا عبر الجسر. لم يعترضهم أحد. استمروا في التقدم نزولًا نحو الجسر الأول، محافظين على قربهم من ظلال المشاعل المنتشرة بالقرب من القلعة. وفورَ عبورهم الجسر الأول، اتجهوا جنوبًا واختفوا في مائة الأزقة متوجهين نحو البحر.

خارج منطقة الحماية المحيطة برصيف ميناء إيراسموس، توقفت مجموعة الساموراي المرافقة وأشاروا إلى العشرة بالمضي قدمًا، ثم ألقوا التحية واستداروا واختفوا في الظلام مجددًا.

قادهم ناجا عبر الحواجز. سُمحَ لهم بالدخول إلى الرصيف دون تعليق. كان يوجد المزيد من المشاعل والحراس هنا أكثر من السابق. سأل يابو وهو يتولى القيادة الآن: «هل كل شيء جاهز؟».

أجاب كبير الساموراي: «نعم يا سيدي».

- جيد. هل فهمت يا أنجين سان؟

- نعم، شكرًا لك يا يابو سان.

- جيد. من الأفضل أن تسرع.

رأى بلاكتورن الساموراي التابعين له مصطفىين في مربع غير منتظم على أحد الجوانب، فأشار إلى أوراجا ليتوجه إليهم كما كان متفقًا عليه. اتجهت عيناه إلى سفينته، يفحصها ويعيد فحصها مجددًا بينما كان يسرع بالصعود على متنها ويقف مبتهجًا على سطحها الخلفي. كانت السماء لا تزال مظلمة ولا توجد أي إشارة على بزوغ الفجر. كانت كل المؤشرات تشير إلى يوم معتدل وبحار هادئة.

ألقي نظرة على الرصيف. كان يابو وناجا في محادثة عميقة. وأوراجا يشرح لأتباعه ما يجري. ثم بدأت الحواجز تفتح مجددًا، وظهر باكوس فان نيك وبقية الطاقم، وقد بدا عليهم القلق الواضح وهم يترنحون في الساحة محاطين بحراس صارمين.

ذهب بلاكتورن إلى شفير السفينة ونادى: «مرحبًا! اصعدوا إلى متن السفينة».

بعدما رآه رجاله بدوا أقل خوفًا، وبدؤوا في الإسراع، لكن الحراس سبّوهم فتوقفوا في أماكنهم.

صاح بلاكتورن: «أوراجا سان، أخبرهم أن يسمحوا لرجالي بالصعود في الحال».

أطاعه أوراجا بسرعة. استمع الساموراي وانحنوا تجاه السفينة ثم أطلقوا سراح الطاقم.

كان فينك أول من صعد إلى متن السفينة، وكان باكوس آخر من صعد متعثرًا. كان الرجال لا يزالون خائفين، لكن لم يتوجه أيٌّ منهم إلى السطح الخلفي الذي كان مخصصًا لبلاكتورن وحده.

لهث باكوس وقال وسط ضجيج الأسئلة: «يا يسوع العظيم، ربان! ما الذي يجري؟».

كرر فينك مع الآخرين: «ما الذي يحدث يا ربان؟ يا إلهي، كنا في لحظة نائمين، وفي اللحظة الأخرى انفتحت أبواب الجحيم واندفع القردة نحونا وقادونا إلى هنا...».

رفع بلاكتورن يده وقال: «استمعوا». ثم بدأ يتحدث بهدوء عندما حل الصمت: «نحن نأخذ إيراسموس إلى ميناء آمن عبر...».

قاطعه فينك بقلق: «ليس لدينا عدد كافٍ من الرجال يا ربان. لن نتمكن...».

- استمع يا يوهان. سنُجَر. ستصل السفينة الأخرى في أي لحظة. اذهب إلى المقدمة يا جينسيل، ستقيس عمق المياه. أنت تولّ الدفة يا فينك، يان روبر وباكوس قفا بجانب الرافعة الأمامية، أما سلامون وكروك في الخلف. سونك... اذهب إلى الأسفل وتفقد المؤن. أحضر بعض الجعة إذا تمكنت من العثور على أي منها. تحركوا.

قال يان روبر: «انتظر لحظة يا ربان. لم العجلة؟ إلى أين نحن ذاهبون ولماذا؟».

شعر بلاكتورن بموجة من السخط من استجوابه، لكنه ذكّر نفسه بأنهم يستحقون أن يعلموا. فهم ليسوا أتباعًا له وليسوا من الإيتا، بل هم طاقمه ورفاقه في السفينة، ويكاد يكونون شركاءه في بعض النواحي. قال: «نحن في بداية موسم العواصف. يسمونها «تايفون» العواصف العظيمة. هذا المرسى ليس آمنًا. يوجد أفضل وأكثر المراسي أمانًا لديهم عبر المرفأ على بُعد بضعة فراسخ جنوبًا. يقع بالقرب من قرية تُدعى يوكوهاما. ستكون إيراسموس آمنة هناك ويمكنها مواجهة أي عاصفة. الآن تحركوا».

لم يتحرك أحد.

قال فان نيك: «بضعة فراسخ فقط يا ربان؟».

- نعم.

- وماذا بعد؟ ولم العجلة؟

أجاب بلاكتورن مخفيًا نصف الحقيقة: «لقد وافق الزعيم توراناغا على السماح لي بفعل ذلك الآن. فكرت أنه من الأفضل الإسراع، فقد يغير رأيه مجددًا، أليس كذلك؟ عند يوكوهاما...».

نظر بعيدًا عندما كان يابو يصعد على متن السفينة ومعه حراسه الستة. هرع الرجال بعيدًا عن طريقه.

اختلف فينك قائلًا: «يا يسوع، إنه هو. إنه الوغد الذي قتل بيترزون».

اقترب يابو من سطح القيادة وهو يبتسم ابتسامة عريضة، غير مدرك للرب الذي اجتاح الطاقم عندما تعرفوا عليه. أشار إلى البحر وقال: «انظر يا أنجين سان، هناك، كل شيء مثالي، أليس كذلك؟».

كانت هناك قادس تشبه ورقة بحرية عملاقة تندفع بصمت نحوهم قادمة من الظلام الغربي.

- جيد يا يابو ساما. هل تريد أن تبقى هنا؟

- لاحقًا يا أنجين سان.

سار يابو إلى مقدمة سلم السفينة.

استدار بلاكتورن إلى رجاله وقال: «تحركوا للأمام. بسرعة... وانتبهوا لحديثكم. لا تتحدثوا إلا بالهولندية السوقية... يوجد على متن السفينة من يفهم البرتغالية. سأحدث إليكم عندما نكون في طريقنا. تحركوا».

تفرق الرجال، سعداء بالابتعاد عن يابو. صعد أوراجا وعشرون من الساموراي التابعين لبلاكتورن إلى متن السفينة. بينما كان الآخرون يصطفون على الرصيف استعدادًا للصعود إلى متن القادس.

قال أوراجا: «هؤلاء هم حراسك الشخصيون، إذا كان يرضيك يا سيدي».

قال بلاكتورن: «اسمي أنجين سان، وليس سيدًا».

- أرجو المعذرة يا أنجين سان.

بدأ أوراجا في صعود الدرج.

- توقف. ابق في الأسفل. لا أحد يصعد إلى سطح السفينة دون إذني. أخبرهم ذلك.

- حسنًا يا أنجين سان. أرجو أن تعذرني.

ذهب بلاكتورن إلى الجانب لمراقبة القادس وهي ترسو غربهم. قال: «انزل إلى الشاطئ يا جينسيل وتأكد من أنهم يأخذون حبالنا ويثبتونها جيدًا. أسرع الآن».

بدأ بلاكتورن يفحص الرجال العشرين بعدما أصبحت سفينته تحت السيطرة. قال: «لماذا أختيروا جميعًا من المجموعة المقيدة نفسها يا أوراجا سان؟».

- إنهم من العشيرة نفسها يا سي... أنجين سان. مثل الإخوة يا سيدي.
يتوسلون شرف الدفاع عنك.
- أنت... أنت... أنت...

أشار بلاكثورن إلى عشرة رجال عشوائيًا وأمرهم بالنزول إلى الشاطئ
ليُستبدلوا بأتباعه الآخرين، على أن يختارهم أوراجا أيضًا عشوائيًا. وقال
لأوراجا أن يُبلغ الجميع بأنهم يجب أن يكونوا مثل الإخوة، أو يمكنهم أن
يختاروا السيوكو الآن.

- هل تفهم؟

- نعم يا أنجين سان. أعتذر.

سرعان ما تُبَّت الحبال على متن السفينة الأخرى. فحص بلاكثورن كل
شيء، تحقق من الرياح مجددًا مستخدمًا كامل إحساسه البحري، مدركًا أنه
حتى داخل المياه الهادئة لمرسى إيدو الكبير، قد تكون رحلتهم خِطَرَةً إذا
بدأت عاصفة مفاجئة.

صاح: «أَرْخُوا الحبال. الآن يا قبطان».

أشار القبطان الآخر بيده وسمح للقادس بالابتعاد عن الرصيف ببطء.
كان ناجا على متن السفينة التي كانت مكتظة بالساموراي وبقية أتباع
بلاكثورن. وقف يابو بجانب بلاكثورن على سطح سفينة إيراسموس. مالت
قليلاً وشعروا باهتزاز خفيف فيها بينما حملها التيار. كانت الفرحة تغمر
بلاكثورن والطاقم بأكمله، حيث طغى شعورهم بالحماس للعودة إلى البحر
على قلوبهم. كان جينسيل يتكئ على جانب المنصة الصغيرة المربوطة على
الجانب الأيمن من السفينة، وهو يقيس عمق المياه، ويصيح بالقامات. بدأ
الرصيف يبتعد تدريجيًا.

- احترسوا أمامكم! تمهلوا!!

جاءته الصرخة المجيبة: «حسنًا يا أنجين سان».

انطلقت السفينتان معًا بهدوء نحو مجرى الميناء، ومصابيحهما مضاءة
على رؤوس صواريهما.

قال يابو: «جيد يا أنجين سان. جيد جدًا».

انتظر يابو حتى ابتعدوا تمامًا عن الشاطئ، ثم أخذ بلاكثورن جانبًا وقال بحذر: «لقد أنقذت حياتي بالأمس يا أنجين سان. هل تفهم؟ عندما أوقفت أولئك الرونين. هل تتذكر؟».

- نعم. كان ذلك واجبي فقط.

- لا، ليس واجبًا. هل تتذكر ذلك الرجل الآخر في أنجيرو، البحار... هل تتذكر؟

- نعم، أتذكر.

- لا يوجد شيء يمكنني فعله، أليس كذلك؟ إنها الكارما، أليس كذلك؟ كان ذلك قبل أن تصبح ساموراي أو هاتاموتو...

كانت عينا يابو تلمعان تحت ضوء الفانوس البحري، لمس سيف بلاكثورن وواصل كلامه بنبرة هادئة وواضحة: «... قبل بائع الزيت، أليس كذلك؟ كساموراي إلى ساموراي، أطلب أن ننسى كل ما حدث من قبل. لنبدأ من جديد. الليلة. رجاء، هل تفهم؟».

- نعم، أفهم.

- أنت تحتاجني يا أنجين سان. فإنك لن تحصل على الواكو الهمج من دوني. لا يمكنك الحصول عليهم وحدك. ليس من ناجازاكي. إطلاقًا. يمكنني الحصول عليهم... مساعدتك في الحصول عليهم. الآن نحن نقاتل على الجانب نفسه. جانب توراناغا. الجانب نفسه. لا واكو من دوني، هل تفهم؟

راقب بلاكثورن القادس التي تتقدم أمامهم للحظة وتفحص سطح السفينة وبحارته. ثم نظر إلى يابو وقال: «نعم. أفهم».

- هل تفهم «كراهية»... كلمة «كراهية»؟

- نعم.

- الكراهية تأتي من الخوف. أنا لا أخافك. ولا يجب عليك أن تخافني. ليس مجددًا. أنا أريد ما تريده: سفنك الجديدة هنا، أنت هنا، قبطان السفن الجديدة. يمكنني مساعدتك كثيرًا. أولاً السفينة السوداء... نعم يا أنجين سان.

أضاف يابو وهو يرى الفرح يغمر وجهه بلاكثورن: «سأقنع الزعيم تورانا. تعلم أنني مقاتل، أليس كذلك؟ سأقود الهجوم. سأستولي على السفينة السوداء من أجلك على اليابسة. نحن معاً أقوى من واحد. أليس كذلك؟».

- بلى. هل يمكن الحصول على المزيد من الرجال؟ أكثر من مائتين.
- إذا كنت بحاجة إلى ألفي رجل... خمسة آلاف! لا تقلق، أنت تقود السفينة... وأنا سأقود المعركة. موافق؟
- نعم. صفقة عادلة. شكرًا لك. أوافق.

قال يابو برضا: «جيد، جيد جدًا يا أنجين سان».

كان يعلم أن هذه الشراكة المتبادلة ستفيد كليهما مهما كان مدى كراهية الهمجي له. كان منطق يوريكو لا تشوبه شائبة مجددًا.

التقى بتورانا في وقت سابق من تلك الليلة وطلب الإذن للذهاب في الحال إلى أوساكا للتحضير لوصوله. قال يابو باحترام كما خطط هو وزوجته: «أرجو أن تعذرني ولكنني اعتقدت أن الأمر عاجل كفاية. فبعد كل شيء يا سيدي، يجب أن يكون لديك شخص ذو رتبة عالية هناك لضمان أن تكون جميع الترتيبات مثالية. إن إيشيدو فلاح ولا يفهم الرسميات، أليس كذلك؟ يجب أن يكون الترتيب مثاليًا وإلا فلا يجب أن تذهب، أليس كذلك؟ قد يستغرق الأمر أسابيع، أليس كذلك؟».

كان سعيدًا بسهولة إقناع تورانا. قال: «ثم توجد أيضًا السفينة الهمجية يا سيدي. من الأفضل وضعها في يوكوهاما في الحال تحسبًا لحدوث تايفون. سأشرف على ذلك بنفسني بعد إذك قبل أن أذهب. يمكن أن تكون كتيبة البنادق حراسها، امنحهم شيئًا ليفعلوه. ثم سأذهب مباشرة إلى أوساكا بالقادس. السفر عبر البحر أسرع وأفضل، أليس كذلك؟».

- حسنًا، بلى، افعل ذلك يا يابو سان إذا كنت تراه مناسبًا. لكن خذ ناجا سان معك. اتركه مسؤولًا في يوكوهاما.
- حسنًا يا سيدي.

ثم أخبر يابو تورانا عن غضب تسوكو سان؛ كيف أنه إذا أراد الزعيم تورانا أن يعيش أنجين سان لفترة كافية ليحصل على الرجال من ناجازاكي في حال رغب تورانا في أن تبحر السفينة، فإنه من الأفضل القيام بذلك في

الحال دون تردد. أضاف: «كان الكاهن غاضبًا جدًا... أعتقد أنه كان غاضبًا بما يكفي لتحريض أتباعه معتنقي المسيحية ضد أنجين سان».

- هل أنت متأكد؟

- نعم يا سيدي. ربما ينبغي أن أضع أنجين سان تحت حمايتي في الوقت الحالي.

ثم أضاف يابو كما لو كانت فكرة مفاجئة: «أسهل شيء هو اصطحاب أنجين سان معي. أستطيع بدء الترتيبات في أوساكا... وأواصل إلى ناجازاكي، وأحصل على الهمج الجدد، ثم أتم الترتيبات عند عودتي».

قال توراناغا: «افعل ما تراه مناسبًا. سأترك لك القرار يا صديقي. ما أهمية الأمر، أليس كذلك؟ ما أهمية أي شيء؟».

كان يابو سعيدًا لأنه أخيرًا يمكنه التحرك. وجود ناجا لم يكن مُخطئًا له، لكن ذلك لم يكن مهمًا، وفي الحقيقة، سيكون من الحكمة أن يوجد في يوكوهاما.

كان يابو يراقب أنجين سان، واقفًا بطول وعزة، قدماء متباعدتان قليلًا ويتمايل بسهولة مع حركة الأمواج وتقلباتها، وكأنه جزء من السفينة، ضخم وقوي ومختلف. مختلف تمامًا عن حاله على اليابسة. بدأ يابو بوعي في اتخاذ وضعية مشابهة، مقلدًا حركاته بعناية.

كان قد همس لزوجته قبل أن يغادر منزلها مباشرة: «أريد أكثر من الكانتو يا يوريكو سان. شيء واحد إضافي فقط. أريد السيطرة على البحر. أريد أن أصبح الزعيم الأميرال الأعظم. سنضع كل إيرادات الكانتو خلف خطة أومي لمرافقة الهمجي إلى موطنه، لشراء المزيد من السفن وإحضارها إلى هنا. سيذهب أومي معه، أليس كذلك؟».

أجابت بالسعادة نفسها: «نعم، يمكننا الوثوق به».

كان رصيف ميناء إيدو مهجورًا الآن. كان آخر حراس الساموراي يختفون في الأزقة عائدين نحو القلعة. خرج الأب ألفيتو من الظلال، وبجانبه الأخ مايكل. نظر ألفيتو نحو البحر وقال: «ليلعنها الرب وكل من يبحر عليها».

- إلا شخصًا واحدًا يا أبت. أحد أفرادنا يبحر مع السفينة. وناجا سان. أقسم ناجا سان أن يعتنق المسيحية في الشهر الأول من العام القادم.

قال ألفيتو وقد تملكه اليأس: «إذا كان يوجد حتى عام قادم له. لا أدري بشأن ناجا، ربما يعني ذلك وربما لا. تلك السفينة ستدمرنا، ولا يوجد شيء يمكننا فعله».

- الرب سيعيننا.
- نعم، ولكن في هذه الأثناء نحن جنود الرب ويجب أن نعينه. يجب تحذير الأب الزائر في الحال، وقائد الأسطول. هل وجدت حمامة زاجلة لأوساكا بعد؟
- لا يا أبت، ليس بأي ثمن. ولا حتى واحدة لناجازاكي. أمر توراناغا ساما بأن تكون كلها في حوزته قبل أشهر.
- ازداد يأس ألفيتو وقال: «لا بد من وجود شخص يملك واحدة. ادفع ما يلزم. الهرطوقي سيؤذينا بشدة يا مايكل».
- ربما لا يا أبت.
- لماذا ينقلون السفينة؟ بالطبع من أجل الأمان، ولكن أيضًا لإبعادها عن متناول أيدينا. لماذا أعطى توراناغا الهرطوقي مائتي واكو وأعاد له ذهبه؟ بالطبع لاستخدامها كقوة هجومية، والعملة لشراء المزيد من القراصنة... مدفعيين وبحارة. لماذا منح بلاكثورن الحرية؟ ليهاجمنا عبر السفينة السوداء. الرب يعيننا، توراناغا تخلى عنا أيضًا.
- لقد تخلىنا عنه يا أبت.
- لا يوجد شيء يمكننا فعله لمساعدته. جربنا كل شيء مع الدايميو. نحن عاجزون.
- ربما إذا صلينا أكثر، قد يرشدنا الرب إلى طريقة.
- أنا أصلي وأصلي، ولكن... ربما قد تخلى عنا الرب يا مايكل، وهو يملك كل الحق. ربما لسنا جديرين برحمته. أعلم أنني لست كذلك.
- ربما لن يجد أنجين سان مدفعيين أو بحارة. ربما لن يصل أبدًا إلى ناجازاكي.

- نقوده الفضية ستشتري له كل الرجال الذين يحتاجهم. حتى الكاثوليك... حتى البرتغاليين. الناس يفكرون بحماقة في هذا العالم أكثر من الآخرة. لن يفتحوا أعينهم. إنهم يبيعون أرواحهم بسهولة.

نعم، أصلي ألا يصل بلاكثورن إلى هناك. أو مبعوثوه. لا تنس، لا توجد حاجة إلى أن يذهب بنفسه إلى هناك. يمكن شراء الرجال وإحضارهم إليه. هيا بنا، لنعد إلى المنزل الآن.

قاد ألفيتو الطريق بياس نحو مقر البعثة اليسوعية التي تبعد كيلومترًا أو أكثر إلى الغرب قرب الأرصفة خلف أحد المستودعات الكبيرة التي عادة ما تحتوي على حرائر الموسم والأرز وتشكل جزءًا من مجمع السوق الذي يديره اليسوعيون نيابةً عن البائع والمشتري.

ساروا قليلًا على طول الشاطئ، ثم توقف ألفيتو ونظر مجددًا نحو البحر. كان الفجر ينبلج. لم يستطع رؤية شيء من السفن. «ما فرص إيصال رسالتنا؟» اكتشف مايكل أمس أن أحد أتباع بلاكثورن الجدد كان مسيحيًا. عندما انتشر الخبر عبر شبكة إيدو السرية الليلة الماضية بأن شيئًا ما سيحدث مع أنجين سان وسفينته، كان قد كتب ألفيتو بسرعة رسالة مشفرة إلى ديل أكوا، يذكر فيها كل الأخبار الأخيرة، وتوسل إلى الرجل أن يسلمها سرًا إذا وصل إلى أوساكا.

أضاف الأخ مايكل بهدوء: «ستصل الرسالة. رجلنا يعلم أنه يبحر مع العدو».

نظر ألفيتو إلى الرجل الأصغر سنًا وقال: «ليحفظه الرب ويمنحه القوة ويلعن أوراها. لماذا؟ لماذا أصبح مرتدًا؟».

قال الأخ مايكل: «لقد أخبرك يا أبت. أراد أن يصبح كاهنًا... أن يرسم في جمعيتنا. لم يكن هذا كثيرًا ليطلبه، بالنسبة لخدام فخور بالرب».

- كان فخورًا أكثر من اللازم يا أخي. الرب بحكمته امتحنه ووجده راغبًا.
- نعم. أصلي ألا أصبح راغبًا عندما يحين دوري.

تجول ألفيتو بجوار مقر بعثتهم نحو قطعة الأرض الكبيرة التي خصصها تورانا لبناء الكاتدرائية التي من المقرر أن ترتفع قريبًا من الأرض لمجد الرب. كان اليسوعي قادرًا بالفعل على تخيلها في ذهنه، شامخة ومهيبة ورقيقة في الوقت نفسه، تهيمن على المدينة بأجراس لا مثيل لها مصبوبة في ماكاو أو جوا أو حتى في البرتغال تدق أجراس الكنيسة، وأبوابها البرونزية الضخمة مفتوحة دائمًا لاستقبال النبلاء المؤمنين. كان بإمكانه شم رائحة البخور وسماع صوت الترانيم اللاتينية.

قال لنفسه: لكن الحرب ستدمر هذا الحلم. الحرب ستعود مجددًا لتعيث
فسادًا في هذه الأرض وستصبح كما كانت دائمًا.
همس الأخ مايكل محذرًا: «يا أبت».

كانت توجد امرأة أمامهم تنظر إلى الأساسات التي حُدَّت بالفعل وحُفرت
جزئيًا. وكان بجانبها خادمتان. انتظر ألفيتو بلا حراك وهو يحدق إلى الضوء
الخافت. كانت المرأة محجبة وترتدي ملابس فاخرة. ثم تحرك الأخ مايكل
قليلاً، لامست قدمه حجرًا ودرجته ليصطدم بمجرفة حديدية كانت غير
مرئية في الظلام. التفتت المرأة مذعورة. تعرف ألفيتو عليها.

- ماريكو سان؟ إنه أنا... الأب ألفيتو.
- أبي؟ كنت... كنت فقط قادمة لرؤيتك. سأغادر قريبًا، لكنني أردت
التحدث إليك قبل أن أرحل.
اقترب منها ألفيتو وقال: «أنا سعيد جدًا لرؤيتك يا ماريكو سان. نعم.
سمعت أنك سترحلين. حاولت رؤيتك عدة مرات ولكنني ما زلت ممنوعًا من
دخول القلعة في الوقت الحالي».

نظرت ماريكو بصمت إلى بدايات الكاتدرائية. التفت ألفيتو إلى الأخ
مايكل الذي بدا هو الآخر متعجبًا من أن سيدة بهذه الأهمية تتجول هنا في
هذا الوقت المبكر ودون سابق إنذار.

- هل جئت فقط لرؤيتي يا ماريكو سان؟
- نعم. ولأرى السفينة تغادر.
- ماذا يمكنني أن أفعل من أجلك؟
- أريد أن أعترف.
قال: «إذن ليكن هنا. ليكن اعترافك هو الأول في هذا المكان رغم أن الأرض
بالكاد مقدسة».

- أرجو المذرة، لكن هل يمكنك إقامة القداس هنا يا أبت؟
- لا توجد كنيسة ولا مذبح ولا ملابس كهنوتية ولا القربان المقدس.
يمكنني فعل ذلك في كنيستنا إن تبعني...
سألت بصوت خافت: «هل يمكننا أن نشرب الشاي من كوب فارغ يا أبت؟
رجاءً، اعتذر عن الطلب. ليس لدي الكثير من الوقت».

وافق وهو يفهم مقصدها على الفور: «نعم».

ثم سار إلى حيث قد يكون المذبح ذات يوم داخل الصحن العظيم تحت سقف مرتفع. كانت السماء المضيئة هي السقف اليوم، والطيور وصوت الأمواج هما الجوقة المهيبة. بدأ بترديد الجمال المقدس للقداش وساعده الأخ مايكل، وبمعاونة بعضهما بعضاً، جلبا الأبدية إلى الأرض.

ولكن قبل تقديم القربان التخيُّلي، توقف وقال: «الآن يجب أن أستمع إلى اعترافك يا ماريًا». أشار إلى الأخ مايكل بالابتعاد وجلس على صخرة في مكان تخيُّله ككرسي الاعتراف وأغمض عينيه. جثت هي. تابع: «أمام الرب، هل...».

- قبل أن أبدأ يا أبتِ، أطلب معروفًا.

- مني أم من الرب يا ماريًا؟

- أطلب معروفًا أمام الرب.

- وما معروفك؟

- حياة أنجين سان مقابل معرفة.

- حياته ليست بيدي لأمنحها أو أمنعها.

- نعم. أعتذر، لكن يمكن إصدار أمر بين جميع المسيحيين بعدم التضحية بحياته باسم الرب.

- إن أنجين سان عدو. عدو رهيب لإيماننا.

- نعم. ومع ذلك أتوسل من أجل حياته. في المقابل... في المقابل ربما يمكنني أن أكون عونًا كبيرًا.

- كيف؟

- هل تمنحني معروفني يا أبتِ؟ أمام الرب؟

- لا أستطيع منح مثل هذا المعروف. ليس ملكي لأمنحه أو أمنعه. لا يمكنكِ المساومة مع الرب.

ترددت ماريكو وهي جاثية على الأرض الصلبة أمامه. ثم انحنت وبدأت في النهوض قائلة: «حسنًا. إذن أرجوك المعذرة...».

قال ألفيتو: «سأعرض طلبك على الأب الزائر».

- هذا ليس كافيًا يا أبتِ، أرجو المعذرة.

- سأعرضه عليه وأتوسل إليه باسم الرب أن ينظر في طلبك.
- إذا كان ما سأخبرك إياه ذا قيمة كبيرة، فهل ستقسم أمام الرب أنك ستفعل كل ما بوسعك، كل شيء لمساعدته وحمايته، بشرط ألا يتعارض ذلك مباشرةً مع الكنيسة؟
- نعم. ما دام لا يتعارض مع الكنيسة.
- ومعدرةً، لكن هل توافق على عرض طلبي على الأب الزائر؟
- أمام الرب، نعم.
- شكرًا لك يا أبت. استمع إذن...
- ثم أخبرته تحليلها بشأن توراناها والخدعة.
- بدأ كل شيء يتضح لألفيتو فجأة. قال: «أنت محقة، لا بد أنك محقة. ليغفر الرب لي، كيف كنت غيبًا لهذا الحد؟».
- أرجوك أن تستمع مجددًا يا أبت، يوجد مزيد من الحقائق.
- همست له بالأسرار المتعلقة بزاتاكي وأونوشي.
- هذا غير ممكن.
- توجد أيضًا شائعة بأن الزعيم أونوشي يخطط لتسميم الزعيم كياما.
- مستحيل!
- أرجو المعذرة، لكنه ممكن جدًا. إنهم أعداء قدامى.
- من أخبرك كل هذا يا ماريما؟
- قالت ماريكو بتعب، متعمدة ألا تجيب عن السؤال: «تقول الشائعة أن أونوشي سيسم الزعيم كياما في أثناء عيد القديس برنارد المبارك هذا العام. سيصبح ابن أونوشي الزعيم الجديد لكل أراضي كياما. لقد وافق القائد إيشيدو على ذلك بشرط أن يكون سيدي قد مات بالفعل».
- دليل يا ماريكو سان؟ أين الدليل؟
- آسفة، لا أملك دليلًا. لكن الزعيم هاريمما على علم بذلك.
- كيف علمت بذلك؟ كيف علم هاريمما؟ هل تقولين إنه جزء من المؤامرة؟
- لا يا أبت. إنه فقط على علم بالسر.

- مستحيل! يتسم أونوشي بالغموض والذكاء الشديد. لو كان قد خطط لذلك، لما عرف أحدٌ. لا بد أنك مخطئة. من أخبركِ هذه المعلومات؟
- لا أستطيع إخبارك، أرجو المَعذرة. لكنني أعتقد أنها صحيحة.
- ترك ألفيتو عقله يتنقل بين الاحتمالات. ثم قال: «أوراجا! كان أوراجا المسؤول عن اعتراف أونوشي. يا أم الرب، لقد خرق أوراجا قدسية الاعتراف وأخبر زعيمه الإقطاعي...».
- ربما يكون هذا السر غير صحيح يا أبت. لكنني أعتقد أنه صحيح. الرب وحده يعلم الحقيقة، أليس كذلك؟

لم ترفع ماريكو الحجاب عن وجهها، ولم يكن ألفيتو قادرًا على رؤية ملامحها. كان الفجر ينتشر في السماء. نظر إلى البحر. كان الآن بإمكانه رؤية السفينتين في الأفق تتجهان نحو الجنوب الغربي، كانت مجازيف القادس تتحرك بتناغم، كانت الرياح مواتية والبحر هادئ. كان صدره يؤلمه ورأسه يطن من ثقل ما أخبرته إياه. صلّى طالبًا العون وحاول التفريق بين الحقيقة والوهم. كان يعلم في قرارة قلبه أن الأسرار حقيقية وأن تحليلاتها لا تشوبها شائبة.

- هل تقولين إن الزعيم توراناجا سيتفوق على إيشيدو... إنه سينتصر.
- لا يا أبت. لن ينتصر أحدٌ، ولكن الزعيم توراناجا سيُهزم من دون مساعدتك. لا يمكن الوثوق بالزعيم زاتاكي. سيظل دائمًا تهديدًا كبيرًا لسيدي. سيعلم زاتاكي بهذا، وسيعلم أن وعود توراناجا فارغة لأن توراناجا يجب أن يتخلص منه في النهاية. لو كنتُ مكان زاتاكي، كنت سأدمر سودارا والسيدة جينجيكو وكل أولادهم في اللحظة التي يسلمون أنفسهم لي، وكنت سأتحرك على الفور ضد دفاعات توراناجا الشمالية. كنت سأرسل جيوشي نحو الشمال، مما سيَجبر إيشيدو وإيكاوا جيكيو وكل الآخرين على التحرك من سباتهم. يمكن القضاء على توراناجا بسهولة بالغة يا أبت.

انتظر ألفيتو للحظة ثم قال: «ارفعي حجابكِ يا ماريّا».

رأى أن وجهها كان صارمًا. سأل: «لماذا أخبرتني كل هذا؟».

- لإنقاذ حياة أنجين سان.

- أترتكبين الخيانة من أجله يا ماريا؟ أنتِ، تودا ماريكو نو بونتارو، ابنة القائد الزعيم أكيثشي جينساي، أترتكبين الخيانة من أجل أجنبي؟ هل تطلبين مني تصديق ذلك؟
- لا، أعتذر، وكذلك... وكذلك لحماية الكنيسة. أولاً لحماية الكنيسة يا أبت... لا أعرف ما الذي يجب عليّ فعله. اعتقدت أنك قد... إن الزعيم تورانا جا هو الأمل الوحيد للكنيسة. ربما تستطيع مساعدته بطريقة ما... لحماية الكنيسة. الزعيم تورانا جا بحاجة إلى مساعدة الآن، فهو رجل صالح وحكيم وستزدهر الكنيسة في عهده. أعلم أن إيشيدو هو العدو الحقيقي.
- معظم الداييمو المسيحيين يعتقدون أن تورانا جا سيقضي على الكنيسة والوريث إذا ما هزم إيشيدو وحصل على السلطة.
- ربما، لكنني أشك في ذلك. سيعامل الكنيسة بإنصاف. لطالما فعل ذلك. إن إيشيدو يعادي المسيحية بعنف. وكذلك السيدة أوتشيبا.
- كل المسيحيين العظماء يعادون تورانا جا.
- إيشيدو فلاح. أما الزعيم تورانا جا فهو عادل وحكيم ويرغب في التجارة.
- لا بد من وجود تجارة، بغض النظر عمّن يحكم.
- قالت: «لطالما كان الزعيم تورانا جا صديقك، وإذا كنت صادقاً معه، فسيظل صادقاً معك أيضاً». أشارت إلى الأساسات وقالت: «أليس هذا دليلاً على عدله؟ لقد أعطاك هذه الأرض بحرية... حتى عندما خذلتة وخسر كل شيء... حتى صداقتك».
- ربما.
- وأخيراً يا أبت، إن الزعيم تورانا جا وحده القادر على منع الحرب الأبدية، يجب أن تعلم ذلك. أطلب كامرأة ألا تكون هناك حرب أبدية.
- نعم يا ماريا. ربما هو الوحيد الذي يستطيع فعل ذلك.
- انصرفت أنظاره بعيداً عنها. كان الأخ مايكل جاثياً، غارقاً في الصلاة، والخادمتان تنتظران بصبر على مقربة من الشاطئ. شعر الكاهن بالضغط ولكن بالارتياح أيضاً، وبالإرهاق ولكنه كان مفعم بالقوة في الوقت نفسه. قال: «أنا سعيد لأنك جئتِ وأخبرتني بكل هذا. أشكركِ. من أجل الكنيسة ومن أجلي، كخادم للكنيسة. سأفعل كل ما وافقتُ عليه».

انحنى برأسها ولم تقل شيئاً.

- هل يمكنكِ نقل رسالة يا ماريكو سان؟ إلى الأب الزائر.

- نعم. إذا كان في أوساكا.

- رسالة خاصة؟

- نعم.

- الرسالة شفوية. ستخبرينه بكل ما أخبرتني إياه وما أخبرتك إياه. كل

شيء.

- حسناً.

- هل تعديني؟ أمام الرب؟

- لا حاجة إلى أن تقول ذلك لي يا أبت. لقد وافقتُ.

نظر في عينيها، كانتا حازمتين وقويتين وملتزميتين. قال: «اعذريني يا ماريّا. الآن دعيني أسمع اعترافك».

أسدلت حجابها مجدداً وقالت: «أرجو أن تعذرني يا أبت، أنا لستُ جديرة حتى بالاعتراف».

- الجميع جديرون في نظر الرب.

- باستثنائي. لستُ جديرة يا أبت.

- يجب أن تعترف يا ماريّا. لا أستطيع الاستمرار في قداسك... يجب أن تأتي إليه طاهرة.

جثت وهمست بصوت متهدج: «اغفر لي يا أبت، فقد أثمتُ، لكنني لا أستطيع إلا أن أعترف أنني لست جديرة بالاعتراف».

وضع الأب ألفيتو يده برفق وحنان على رأسها وقال: «يا ابنة الرب، دعيني أطلب مغفرة الرب لخطاياك. دعيني أصفح عنك باسمه وأطهرِكَ في نظره».

باركها، ثم استمر في قداسها في هذه الكاتدرائية الخيالية، تحت السماء المنكسرة... وكانت الخدمة أكثر واقعية وجمالاً من أي وقت مضى، بالنسبة له ولها.

كانت إيراسموس راسية في أفضل ميناء آمن من العواصف رآه بلاكثورن على الإطلاق، بعيدة بما يكفي عن الشاطئ ليعطيها مساحة كافية في البحر، لكنها قريبة بما يكفي لتكون آمنة. كان تحتها مياه نقية بعمق ست قامات فوق قاع بحر قوي، وكانت محاطة بأرض مرتفعة من جميع الجهات باستثناء المدخل الضيق، مما يجعلها ملاذًا آمنًا لأي أسطول من غضب المحيط.

كانت رحلة اليوم من إيدو خالية من الأحداث ولكن مرهقة. كانت القادس راسية على بُعد نصف ري شمالًا عند رصيف قريب من قرية الصيد يوكوهاما، وكان بلاكثورن ورجاله وحدهم الآن على متن السفينة، سواء كانوا من الهولنديين أو اليابانيين. كان يابو وناجا على الشاطئ لتفقد كتيبة البنادق، وقيل له أن يلحق بهم قريبًا. كانت الشمس تغرب في الأفق الغربي، والسماء الحمراء تنبئ بيوم جميل آخر غدًا.

كان بلاكثورن يسأل من على ظهر السفينة بعينين محمرتين من قلة النوم: «لماذا الآن يا أوراجا سان؟ ألا يمكن تأجيل الأمر حتى الغد؟».

كان قد أمر الطاقم والجميع بأخذ استراحة، لكن طلب أوراجا منه التأجيل للحظة حتى يكتشف ما إذا كان يوجد أي مسيحيين بين أتباعه.

نظر أوراجا إليه وهو يقف أمام الساموراي المصطفين، بينما تجمع الطاقم الهولندي في جنبٍ بالقرب من حاجز السفينة ويبدو عليهم التوتر. قال: «لا يا سيدي، أعتذر. أرجو أن تعذرني، ولكنه من المهم جدًا أن تعلم الآن. أنت عدوهم الأول. لذا يجب أن تعلم، لحمايتك. أريد فقط أن أحميك. لن يستغرق الأمر طويلًا، حسنًا؟».

- هل هم جميعًا على متن السفينة؟

- نعم يا سيدي.

اقترب بلاكثورن من الحاجز وصاح باليابانية: «هل هناك أحد مسيحي؟». لم يجبه أحد. «أمر أي مسيحي بالتقدم للأمام». لم يتحرك أحد. لذا التفت إلى أوراجا وقال: «عين عشرة حراس على سطح السفينة، ثم اجعلهم ينصرفون».

- بعد إذنك يا أنجين سان.

أخرج أوراجا من تحت الكيمونو أيقونة صغيرة مرسومة كان قد أحضرها من إيدو، وألقاها على ظهر السفينة ووجهها للأعلى. ثم دهسها برجله عمدًا.

كان بلاكثورن والطاغم منزعجين للغاية من هذا التدنيس. باستثناء يان روبر. قال أوراجا: «رجاءً. اجعل كل تابع يفعل الشيء نفسه».

- لماذا؟

كانت عينا أوراجا بالكاد ظاهرة تحت حافة قبعته. أجاب: «لأنني أعرف المسيحيين. رجاءً يا سيدي. من المهم أن يفعل كل رجل الشيء نفسه. الآن، الليلة».

وافق بلاكثورن على مضض: «حسنًا».

التفت أوراجا إلى الساموراي المصطفين وقال: «بناءً على اقتراحي، يطلب سيدنا من كل واحد منا أن يفعل هذا».

بدأ الساموراي يتذمرون فيما بينهم حتى قاطعهم أحدهم قائلاً: «لقد قلنا بالفعل أننا لسنا مسيحيين، أليس كذلك؟ ما الذي يثبته دهنس صورة إله همجي؟ لا شيء».

- إن المسيحيين هم أعداء سيدنا. المسيحيون خائنون... لكنهم يظنون مسيحيين. اعدروني، أنا أعرف المسيحيين... لعار عليّ أنني تخليت عن آلهتنا الحقيقية. أعتذر، لكنني أعتقد أن هذا ضروري من أجل سلامة سيدنا.

قال ساموراي في المقدمة على الفور: «في هذه الحالة، لا داعي لقول المزيد». تقدم ودهس الصورة. «أنا لا أعبد أي دين همجي. هيا يا رفاق، افعلوا ما طُلب منا».

تقدموا واحدًا تلو الآخر. راقبهم بلاكثورن كارهاً هذا الطقس.

قال فان نيك بقلق: «لا يبدو هذا صوابًا».

نظر فينك إلى سطح السفينة وقال: «أوغاد لعينون. سيدبحوننا جميعًا دون تردد. هل أنت متأكد من أنك تستطيع الوثوق بهم يا ربان؟».

- نعم.

قال جينسيل: «لا يمكن لأي كاثوليكي أن يفعل ذلك أبدًا، أليس كذلك يا يوهان؟ أوراجا ساما ذكي».

- ما الفائدة إذا كانوا بابويين أم لا، إنهم جميعًا ساموراي قدرون.

قال كروك: «نعم».

كرر فان نيك: «ومع ذلك، ليس من الصواب فعل ذلك».

استمر الساموراي في دهن الأيقونة واحدًا تلو الآخر، وتجمعوا في مجموعات عشوائية. كان الأمر مرهقًا وبلاكتورن ندم على موافقته عليه، لأنه توجد أمورًا أكثر أهمية يجب أن تُنجز قبل الغسق. نظر بلاكتورن نحو القرية والرؤوس الساحلية. كانت مئات الأكواخ القشية الخاصة بكتيبة البنادق منتشرة على سفوح التلال. فكر: يوجد الكثير مما ينبغي فعله. كان متلهفًا للذهاب إلى الشاطئ، راغبًا في رؤية الأرض ومفتخرًا بالإقطاعية التي منحها له توراناغا، والتي تضم يوكوهاما. قال لنفسه: يا إلهي العظيم في السماء، أنا زعيم أحد أعظم الموانئ في العالم.

فجأة، تجاوز أحد الرجال الأيقونة، واستل سيفه مندفعًا نحو بلاكتورن. قفز اثنا عشر ساموراي مذهولين بشجاعة في طريقه ليحجبوا سطح السفينة بينما استدار بلاكتورن ممسكًا بمسدس مصوب. تفرق الآخرون وهم يدفعون بعضهم بعضًا ويتعثرون في حالة من الفوضى. توقف الساموراي عن الحركة وهو يصرخ بغضب، ثم غير اتجاهه وهاجم أوراجا الذي تمكن بطريقة ما من تجنب الطعنة. استدار الرجل بينما هاجمه ساموراي آخرون، وقاومهم بضراوة للحظة، ثم اندفع نحو الجانب وألقى بنفسه في الماء.

ألقى أربعة ممن يستطيعون السباحة سيوفهم القاتلة، ووضعوا خناجرهم القصيرة في أفواههم ثم وقفوا خلف الرجل، بينما تجمع البقية والبحارة الهولنديون قرب الحافة.

قفز بلاكتورن نحو شفير السفينة. لم يتمكن من رؤية شيء في الأسفل، ثم لمح ظلًا تحوم في المياه. صعد رجل ليتنفس ثم غاص مرة أخرى. بعد قليل ظهرت أربعة رؤوس على السطح، وكانت بينهم جثة بخنجر في حلقه. صاح أحدهم وسط هتافات الآخرين: «أعذر يا أنجين سان، لقد كان خنجره الخاص».

- أخبرهم أن يفتشوه يا أوراجا سان، ثم اتركوه للأسماك.

لم يكشف التفتيش عن شيء. وعندما عاد الجميع إلى متن السفينة، أشار بلاكتورن إلى الأيقونة بمسدسه وقال: «جميع الساموراي... مجددًا».

أطاعوا على الفور، وتأكد من أن كل رجل اجتاز الاختبار. ثم بسبب أوراجا وتقديرًا له، أمر طاقمه بأن يفعلوا الشيء نفسه. وهنا كانت بداية الاحتجاج.

قال بلاكتورن بغضب: «هيا! أسرعوا، وإلا سأضع قدمي على ظهوركم».

قال فان نيك: «لا داعي لقول ذلك يا ربان. نحن لسنا وثنيين قذرين».

- إنهم ليسوا وثنيين قذرين. إنهم ساموراي بحق الرب.

نظروا إليه، وانتابهم غضب تأجج بالخوف. همَّ فان نيك بقول شيء لكن جينسيل تدخل قائلاً: «إن الساموراي وثنيون قذرون وهم -أو أمثالهم- قتلوا بيترزون قبطاننا، وماتسوكر».

- نعم، ولكننا لن نتمكن من العودة إلى الوطن من دون هؤلاء الساموراي...

هل تفهمون؟

كان جميع الساموراي يراقبونهم الآن. اقتربوا من بلاكتورن بطريقة تنذر بالخطر لحمايته. قال فان نيك: «دعنا نتغاض عن الأمر. نحن جميعًا متوترون ومرهقون بعض الشيء. كانت ليلة طويلة. نحن لسنا أسياد أنفسنا هنا، لا أحد منا، ولا حتى الربان. الربان يعرف ما يفعله... إنه القائد الآن، هو قبطان السفينة».

قال يان روبر بغضب: «نعم، هو كذلك. لكن ليس من الصواب أن يقف في صفهم ضدنا، وبحق الرب، هو ليس ملكًا... نحن متساوون معه. فقط لأنه مسلح مثلهم ويرتدي مثلهم ويستطيع التحدث إلى هؤلاء الأوغاد لا يجعله ملكًا علينا. لدينا حقوق، وهذه هي قوانيننا وقوانينه بحق الرب، حتى لو كان إنجليزيًا. لقد أقسم قسمًا مقدسًا بأن يلتزم القوانين... أليس كذلك يا ربان؟».

قال بلاكتورن: «بلى، إنها قوانيننا في بحارنا... حيث نحن الأسياد ونشكل الأغلبية. أما الآن نحن لسنا كذلك. لذا افعلوا ما أمركم به وافعلوه بسرعة».

أطاعوه بتذمر. سأل بلاكتورن: «هل وجدت أي شراب يا سونك؟».

- لا يا سيدي، ولا حتى نقطة شراب ملعونة!

قال بلاكتورن: «سأطلب إرسال بعض الساكي على متن السفينة». ثم أضاف بالبرتغالية: «أوراجا سان، ستأتي معي إلى الشاطئ، وأحضر شخصًا ليجذب». قال باليابانية مشيرًا إلى الرجال الذين قفزوا في الماء: «أنتم الأربعة، أنتم الأربعة الآن قادة. فهتم؟ فليأخذ كل منكم خمسين رجلًا».

- حسنًا يا أنجين سان.

سأل بلاكتورن أحدهم، رجل طويل بخد مشوه: «ما اسمك؟».

- ناوا تشيساتو يا سيدي.

- أنت القبطان اليوم. للسفينة بأكملها. حتى أعود.

- حسنًا يا سيدي.

توجه بلاكثورن نحو سلم السفينة. كان يوجد زورق مربوط بالأسفل.

قال فان نيك بقلق: «إلى أين تذهب يا ربان؟».

- إلى الشاطئ. سأعود لاحقًا.

- جيد، سنذهب جميعًا.

- بحق الرب سأذهب معك...

- وأنا. أنا ذاهب...

- يا يسوع المسيح، لا تتركني...

- لا، سأذهب وحدي.

صاح فان نيك: «لكن بحق الرب، ماذا عنا؟ ماذا سنفعل؟ لا تتركنا يا ربان.

ماذا!...».

أخبرهم بلاكثورن: «انتظروا فقط! سأحرص على أن يُرسل الطعام والشراب إلى السفينة».

وقف جينسيل أمام بلاكثورن بتحدٍ وقال: «كنت أعتقد أننا سنعود الليلة. لماذا لا نعود الليلة؟».

- إلى متى سنبقى هنا يا ربان؟ وإلى متى...

سأل جينسيل بصوت أعلى: «ماذا عن إيدو يا ربان؟ إلى متى سنبقى هنا مع هؤلاء القردة الملعونين؟».

قال سونك بسعادة: «نعم، قردة، بحق الرب. وماذا عن معدائنا وأهلنا؟».

- نعم، ماذا عن الإيتا يا ربان؟ ماذا عن أهلنا ونسائنا؟

كتم بلاكثورن كراهيته وقال: «سيكونون هنا غدًا. تحلوا بالصبر، سأعود بأسرع ما أستطيع. أنت المسؤول يا باكوس».

ثم استدار ليذهب.

تبعه يان روبر وقال بقسوة: «سأذهب معك. نحن في الميناء، لذلك لدينا الأولوية، وأريد بعض الأسلحة».

مكتبة
t.me/soramnqraa

استدار بلاكتورن نحوه، واستل اثنا عشر سيفاً من أغماده، جاهزين لقتل يان روبر. قال: «كلمة أخرى منك وستصبح رجلاً ميتاً». تراجع التاجر الطويل النحيف وقد احمرَّ وجهه وتوقف عن السير. «اضبط لسانك بالقرب من هؤلاء الساموراي، لأنَّ أيَّ واحد منهم سيقطع رأسك قبل أن أتمكن من إيقافه بسبب سوء أخلاقك اللعينة... ناهيك بسبب آخر! إنهم حساسون، وأنا بالقرب منك أصبح حساساً أيضاً، وستحصل على الأسلحة عندما تحتاج إليها. هل تفهم؟». أوما يان روبر بانزعاج وتراجع. كان الساموراي لا يزالون يشكلون تهديداً، لكن بلاكتورن هداهم وأمرهم -تحت طائلة الموت- بعدم الاقتراب من طاقمه. قال: «سأعود قريباً».

نزل على السلم وصعد إلى متن الزورق متبوعاً بأوراجا وساموراي آخر. تقدم القبطان تشيساتو نحو يان روبر الذي انزوى تحت وطأة التهديد، وانحنى ثم تراجع. شكر بلاكتورن أوراجا على القبض على الخائن عندما أصبحوا بعيدين عن السفينة.

- رجاءً لا حاجة إلى الشكر. لقد كان واجبي فقط.

قال بلاكتورن باليابانية حتى يتمكن الرجل الآخر من الفهم: «نعم، واجب. لكن راتبك سيزداد الآن. لم يعد عشرين بل مائة كوكو سنوياً».

- سيدي، شكراً لك. لا أستحق ذلك. كنت أقوم بواجبي فقط ويجب أن...

- تحدث ببطء. لا أفهم.

اعتذر أوراجا وتحدث ببطء أكثر.

أثنى عليه بلاكتورن مجدداً، ثم جلس براحة أكثر في مؤخرة القارب، وقد بدأ التعب يغلبه. فتح عينيه بصعوبة ونظر إلى السفينة للتأكد من أنها في مكان آمن. رأى فان نيك والآخرين يقفون عند شفير السفينة، وشعر بالندم لأنه أحضرهم على متن السفينة رغم علمه أنه لم يكن لديه خيار آخر. فمن دونهم لم تكن الرحلة آمنة.

فكر: حثالة متمردون. ما الذي سأفعله بشأنهم بحق الجحيم؟ جميع أتباعي يعرفون عن قرية الإيتا وهم جميعاً يشعرون بالاشمئزاز مثل... يا يسوع المسيح، يا لها من فوضى! إنها الكارما، أليس كذلك؟

غط في النوم، واستيقظ عندما وصل الزورق إلى الشاطئ قرب الرصيف. في البداية لم يستطع تذكر مكانه. كان يحلم أنه عاد إلى القلعة بين ذراعي ماريكو، تمامًا مثل الليلة الماضية.

كانوا مستلقين في الليلة الماضية بعد أن قضوا لحظات حميمة، وكانت فوجيكو جزءًا من تلك اللحظات، بينما كانت شيموكو في مناوبة الحراسة عندما طرق يابو والساموراي التابعين له على باب الغرفة بقوة. كانت الأمسية قد بدأت بمتعة. وقد دعت فوجيكو كيكو أيضًا بسرية، ولم يرَ بلاكتورن كيكو من قبل أكثر جمالًا وحيوية. ثم عندما دقت الأجراس معلنة نهاية ساعة الخنزير، وصلت ماريكو في الموعد المحدد. كانت الأجواء يعمُّها الفرح وشرب الساكي، لكن سرعان ما أفسدت ماريكو المتعة.

شرحت: «أعتذر لكنك في خطر كبير يا أنجين سان».

وعندما أضافت ما قالتها جيوكو عن عدم الثقة بأوراجا، شعرت كلُّ من كيكو وفوجيكو بالقلق الشديد أيضًا.

طمأنهم قائلاً: «رجاءً لا تقلقن. سأراقبه، لا تخافن».

ثم تابعت ماريكو: «ربما يجب عليك مراقبة يابو ساما أيضًا يا أنجين سان».

- ماذا؟

- رأيت الكراهية في وجهك هذا المساء. وقد رآها هو أيضًا.

قال: «لا يهم. لا يوجد شيء يمكنني فعله، أليس كذلك؟».

- نعم. أعتذر، لقد كان خطأ. لماذا طلبت من رجالك التراجع عندما أحاطوا بيابو ساما في البداية؟ بالتأكيد كان ذلك خطأً كبيرًا أيضًا. كانوا سيقتلونه بسرعة، وكان عدوك سيصبح ميتًا دون أي خطر عليك.

- لم يكن ليعد ذلك صحيحًا يا ماريكو سان. الكثير من الرجال ضد رجل واحد، هذا ليس عادلاً.

شرحت ماريكو كلامه لفوجيكو وكيكو، ثم قالت: «أرجو أن تعذرني يا أنجين سان، لكننا جميعًا نعتقد أن هذه طريقة تفكير خطيرة جدًا، ونتوسل إليك أن تتخلَّى عنها. إنها خاطئة تمامًا وساذجة جدًا. أرجو المعذرة على صراحتي الشديدة. يابو سان سيدمر».

- لا. ليس بعد. أنا ما زلت مهمًّا جدًّا له. ولأومي سان أيضًا.
- تقول كيكو سان: رجاءً أخبري أنجين سان أن يحذر من يابو... ومن أوراجا. ربما يجد أنجين سان صعوبة في تقدير «الأهمية» هنا، أليس كذلك؟
- قالت فوجيكو: «نعم، أنا أوافق كيكو سان الرأي».
- لاحقًا، غادرت كيكو للذهاب للترفيه عن تورانا. ثم كسرت ماريكو الصمت في الغرفة مجددًا: «الليلة يجب أن أقول لك وداعًا يا أنجين سان. سأغادر عند الفجر».
- قال: «لا، لا يوجد داع لذلك الآن، يمكننا تغيير كل هذا الآن. سأرى تورانا غدًا. الآن بعد أن حصلت على الإذن بالمغادرة، سأصطحبك إلى أوساكا. سأحصل على قادم أو قارب ساحلي. في ناجازا...».
- لا يا أنجين سان. أعتذر لكن يجب أن أغادر كما أمرت.
- لم يؤثر فيها أي قدر من الإقناع.
- شعر بلاكتورن بفوجيكو تراقبه في صمت، وقلبه يتألم من التفكير في رحيل ماريكو. نظر إلى فوجيكو، فطلبت منهما أن يعذراها للحظة. أغلقت باب الشوجي خلفها وتركتهما وحدهما، وكانا يعلمان أن فوجيكو لن تعود وأنهما بأمان لبعض الوقت. كان حبهما ملحًا وعنيفًا. ثم سمعا أصواتًا وخطوات، ولم يكن لديهما سوى وقت قليل للاستعداد قبل أن تدخل فوجيكو من الباب الداخلي ويقتحم يابو المكان حاملاً أوامر تورانا بالرحيل الفوري والسري. قال يابو: «إلى يوكوهاما، ثم أوساكا للتوقف لفترة وجيزة يا أنجين سان، وبعدها إلى ناجازاكي، ثم العودة إلى أوساكا، وأخيرًا إلى هنا. لقد أمرت أفراد طاقمك بالعودة إلى السفينة».
- شعر بلاكتورن بحماس يغمره لهذا الانتصار المرسل من السماء. قال: «حسنًا يا يابو سان. لكن ماريكو سان... ماريكو سان ستذهب إلى أوساكا أيضًا، أليس كذلك؟ من الأفضل أن تأتي معنا... أسرع وأكثر أمانًا، أليس كذلك؟».
- هذا غير ممكن، أعتذر. يجب أن نسرع. المد... هل تفهم كلمة «المد» يا أنجين سان؟
- نعم يا يابو سان. لكن ماريكو سان ستذهب إلى أوساكا...

- أعتذر، هي لديها أوامر مثلنا. اشرح لي يا ماريكو سان. أخبره أن يسرع.

كان يابو عنيداً، وكان الوقت متأخراً للغاية للذهاب إلى تورانا جا لطلب إلغاء الأمر. لم يكن هناك وقت أو خصوصية للتحدث أكثر مع ماريكو أو فوجيكو، سوى لقول وداع رسمي. لكنهم سيلتقون قريباً في أوساكا. قالت ماريكو: «قريباً جداً يا أنجين سان».

قال بلاكتورن: «يا إلهي، لا تدعني أفقدها».

كانت طيور النورس تنعق فوق الشاطئ، ويزيد صراخها من إحساسه بالوحدة.

- تفقد من يا سيدي؟

عاد بلاكتورن إلى الواقع، وأشار إلى السفينة البعيدة قائلاً: «نحن نشير للسفن بصيغة المؤنث، نعتبر السفن أنثى وليس ذكر. هل تفهمين؟».

- نعم.

كان بلاكتورن لا يزال بإمكانه رؤية الأشكال الصغيرة لطاقمه، وواجه معضلته المستعصية مجدداً. قال لنفسه: يجب عليك أن تُبقيهم على متن السفينة، وتحتاج إلى مزيدٍ من أمثالهم. والرجال الجدد لن يتقبلوا الساموراي أيضاً، ويكون معظمهم كاثوليك. يا إلهي، كيف يمكنني السيطرة عليهم جميعاً؟ كانت ماريكو محقة. أنا رجل ميت بالقرب من الكاثوليك.

كانت قد قالت في الليلة الماضية: «حتى أنا يا أنجين سان».

- لا يا ماريكو تشان. ليس أنت.

- لقد قلتُ إننا أعداؤك، هذا المساء.

- قلتُ إن معظم الكاثوليك أعدائي.

- سيقتلونك إذا استطاعوا.

- نعم. لكن أنت... هل سنلتقي حقاً في أوساكا؟

- نعم. أنا أحبك. تذكر يا أنجين سان، احذر من يابو سان...

فكر بلاكتورن: لقد كانوا جميعاً على حق بشأن يابو، مهما قال ومهما وعد. لقد ارتكبتُ خطأ فادحاً عندما طلبت من رجالي التراجع حين كان محاصراً. ذلك الوغد سيذبحني حالما أصبح بلا فائدة، بغض النظر عن مهما تظاهر

بالعكس. ومع ذلك، فإن يابو محق أيضًا: أنا بحاجة إليه. لن أتمكن أبدًا من الدخول إلى ناجازاكي والخروج منها دون حماية. بالتأكيد يمكنه المساعدة في إقناع توراناغا. ومع قيادته لألفين آخرين من المتعصبين، قد نستطيع تدمير ناجازاكي بالكامل وربما حتى ماكاو...

يا مريم! أنا عاجز وحدي.

ثم تذكر ما قالته جيوكو لماريكو بشأن أوراجا، حول عدم الثقة به. فكر: كانت جيوكو مخطئة بشأنه. في ماذا أخطأت أيضًا؟

الكتاب الخامس



الفصل الثاني والخمسون

مجددًا في طرقات البحر المزدهمة في أوساكا بعد الرحلة الطويلة بالقادس، شعر بلاكثورن بنفس الثقل الساحق للمدينة الذي شعر به عندما رآها لأول مرة. كانت قد دُمّرت مساحات شاسعة بسبب التايفون، ولا تزال بعض المناطق سوداء من آثار الحريق، لكن ضخامة المدينة ظلت سليمة تقريبًا ولا تزال القلعة تهيمن عليها. حتى من هذه المسافة التي تجاوزت فرسخًا، كان يستطيع رؤية الضخامة الهائلة للجدار الأول، وجدرانه المحصنة الشاهقة، وكلها تبدو ضئيلة أمام الشر الكامن في برج القلعة.

قال فينك بتوتر وهو يقف بجانبه في مقدمة السفينة: «المسيح، من الصعب التصديق أن المكان بهذا الحجم. أمستردام ستكون نقطة صغيرة مقارنة بها».

- نعم. العاصفة أضرت بالمدينة لكن ليس بهذا السوء. لا شيء يمكن أن يمس القلعة.

لقد ضرب التايفون من الجنوب الغربي قبل أسبوعين. كانوا قد حصلوا على الكثير التحذيرات من خلال السماء الملبدة بالسحب والرياح العاصفة والأمطار، فقاموا بتوجيه القادس نحو ميناء آمن لانتظار انتهاء العاصفة. وانتظروا خمسة أيام، بينما كان المحيط خارج الميناء يتحول إلى زبد، وكانت الرياح أعنف وأقوى من أي شيء شهده بلاكثورن من قبل.

قال فينك مجددًا: «المسيح. أتمنى لو كنا في الوطن. كان ينبغي أن نكون في وطننا منذ عام».

اصطحب بلاكثورن فينك معه من يوكوهاما وأرسل الآخرين إلى إيدو، تاركًا إيراسموس مؤمنة في ميناء ومحمية تحت قيادة ناجا. كان طاقمه سعيدًا بالرحيل كما كان بلاكثورن سعيدًا برؤيتهم يغادرون، فقد حدثت المزيد من المشاجرات في تلك الليلة، بالإضافة إلى جدال عنيف حول سبائك السفينة.

فقد كانت النقود تعود للشركة وليست له. وكان فان نيك أمين صندوق الرحلة والتاجر الرئيسي، وكان له بالاشتراك مع قائد الأسطول سلطة قانونية على تلك الأموال. وبعد أن أحصوا النقود مرارًا وتكرارًا وتأكدوا من صحة أنه ينقصها ألف قطعة نقدية، جادل فان نيك مدعومًا من يان روبر حول المبلغ الذي يمكن أن يأخذه معه لجلب رجال جدد.

- أنت تطلب الكثير يا ربان. يجب عليك أن تعرض عليهم مبالغ أقل.

ضرب بقبضته على طاولة المقصورة الكبرى وقال: «يا يسوع المسيح! علينا الدفع مهما تطلب الأمر. يجب أن أحصل على بحارة ومدفعية. وإلا فكيف سنعود إلى الوطن؟».

أقنعهم أخيرًا بالسماح له بأخذ ما يكفي، وقد شعر بالاشمئزاز لأنهم جعلوه يفقد أعصابه بسبب نزاعاتهم التافهة. وفي اليوم التالي، أرسلهم إلى إيدو، وقسم بينهم عُشر الغنائم كدفعة مستحقة، بينما أبقى على الباقي تحت حراسة على متن السفينة.

سأل يان روبر بتجهم: «كيف سنضمن أنها ستكون آمنة هنا؟».

- ابقَ واحرسها بنفسك إن أردت.

لكن لم يرغب أحد منهم في البقاء على متن السفينة. سوى فينك الذي وافق على مرافقته.

سأل فان نيك: «لماذا هو تحديدًا يا ربان؟».

- لأنه بحار وسأحتاج إلى مساعدته.

كان بلاكثورن سعيديًا برؤيتهم يغادرون. وعندما أصبحوا في عرض البحر، بدأ في تغيير عادات فينك لتتناسب مع الطرق اليابانية. وتحمل فينك ذلك بصبر وثقة فقد أبحر مع بلاكثورن لسنوات طويلة وعرف قدراته. قال: «يا ربان، سأستحم وأغتسل كل يوم من أجلك، ولكنني لن أرتدي ثوبًا ليليًا سخيفًا».

في غضون عشرة أيام، كان فينك سعيديًا وهو يقيس عمق المياه نصف عارٍ، وحزامه الجلدي العريض حول بطنه، وخنجر في غمد خلف ظهره، وأحد مسدسات بلاكثورن مُخبأً بأمان في قميصه النظيف الممزق.

- لسنا بحاجة للذهاب إلى القلعة، أليس كذلك ربان؟

- نعم.

- يا يسوع المسيح، أفضل أن أبقى بعيدًا عن هذا المكان.

كان اليوم مشرقًا، والشمس تتلأأ على سطح البحر الهادئ، وما زال المجدفون أقوياء ومنضبطين.

- فينك... هناك حيث كان الكمين.

- يا يسوع المسيح، انظر إلى تلك المياه الضحلة.

أخبر بلاكتورن فينك عن صعوبة هروبه، وعن إشارات تحذير النار على تلك الجدران المحصنة، وأكوام الجثث المتناثرة على الشاطئ، والفرقاطة المعادية التي كانت تطارده.

انضم يابو إليهما مشيرًا إلى الخراب من حولهم: «أنجين سان. جيد، أليس كذلك؟».

- سيئ يا يابو ساما.

- إنه عدو، أليس كذلك؟

- الناس ليسوا أعداء. فقط إيشيدو والساموراي هم الأعداء، أليس كذلك؟

رد يابو، معبرًا عن قلقه وقلق جميع من على متن السفينة: «القلعة هي العدو. هنا كل شيء عدو».

شاهد بلاكتورن يابو وهو يتجه نحو المقدمة، والرياح تحرك الكيمونو بعيدًا عن جذعه القوي.

خفض فينك صوته قائلاً: «أريد أن أقتل هذا اللعين يا ربان».

- نعم، لم أنس أمر بيترزون المسن أيضًا، لا تقلق.

- ولا أنا، والرب يشهد عليّ. لا أفهم كيف تتحدث لغتهم. ماذا قال؟

- كان يتصرف بأدب فقط.

- ما الخطة؟

- سنرسو وننتظر. سيغيب لمدة يوم أو يومين وسنبقي رؤوسنا منخفضة وننتظر. قال توراناغا إنه سيرسل الرسائل للحصول على التصاريح الآمنة التي سنحتاجها، ولكن حتى مع ذلك، سنبقى رؤوسنا منخفضة ونبقى على متن السفينة.

تفحص بلاكتورن السفن والمياه بحثًا عن أي أخطار، لكنه لم يجد شيئًا. ومع ذلك قال لفينك: «من الأفضل أن تقيس العمق الآن، تحسبًا».

- حسنًا.

راقب يابو فينك وهو يقيس العمق لبضع لحظات، ثم عاد إلى بلاكتورن وقال: «أنجين سان، ربما من الأفضل أن تأخذ القادس وتذهب إلى ناجازاكي. لا تنتظر، حسنًا؟».

قال بلاكتورن موافقًا ولم يبتلع الطعام: «حسنًا».

ضحك يابو: «أنا معجب بك يا أنجين سان! لكن يؤسفني أن أقول، لو كنت وحدك، سيُحكم عليك بالموت قريبًا. ناجازاكي سيئة جدًا لك».

- أوساكا سيئة... كل مكان سيئ.

ابتسم يابو مجددًا وقال بينما تظاهر بلاكتورن بمشاركته المزاح: «إنها الكارما».

خاضا نقاشات مماثلة عدة مرات خلال الرحلة. تعلم فيها بلاكتورن الكثير عن يابو، ازدادت كراهيته وازدراؤه له، لكن ازداد احترامه له أيضًا، وعلم أن الكارما الخاصة بكليهما مرتبطة.

قال أوراجا: «يابو سان على حق يا أنجين سان، بإمكانه حمايتك في ناجازاكي، أما أنا فلا أستطيع».

- بسبب عمك، الزعيم هاريمان؟

- نعم. ربما أعلنت خارجًا عن القانون بالفعل، أليس كذلك؟ عمي مسيحي... رغم أنني أعتقد أنه مسيحي الأرذ.

- ما هذا؟

- إن ناجازاكي هي إقطاعيته. ناجازاكي لديها ميناء كبير على ساحل كيوشو ولكنه ليس الأفضل. لذلك رأى النور سريعًا، أليس كذلك؟ أصبح مسيحيًا، وأمر جميع أتباعه بأن يصبحوا مسيحيين. أمرني أن أصبح مسيحيًا ودخلت مدرسة اليسوعيين، ثم أرسلني كواحد من المبعوثين المسيحيين إلى البابا. منح اليسوعيين أراضي... وكيف تقول ذلك... وتملقهم. لكن قلبه ياباني فقط.

- هل يعلم اليسوعيون ما تفكر فيه؟

- نعم، بالطبع.

- هل يصدقون هذا عن مسيحيي الأرز؟

- لا يخبروننا -معتنقو المسيحية- بما يعتقدونه حقًا يا أنجين سان. ولا حتى أنفسهم في أغلب الأحيان. لقد تدربوا على حفظ الأسرار، لاستخدامها والترحيب بها دون كشفها. يشبهون اليابانيين في مثل هذا الأمر.

- من الأفضل أن تبقى هنا في أوساكا يا أوراجا سان.

- أرجوك اعذرني يا سيدي، أنا تابعك. سأذهب معك إذا ذهبت إلى ناجازاكي.

أدرك بلاكتورن أن أوراجا أصبح مساعدًا لا غنى عنه. كان الرجل يكشف الكثير من أسرار اليسوعيين: كيف ولماذا ومتى تجري مفاوضاتهم التجارية، وأعمالهم الداخلية ومكايدهم الدولية المتقنة. كما كان مفيدًا بالقدر نفسه في الكشف عن هاريمان وكياما وتفكير الدايميو المسيحيين، ولماذا قد يظلون موالين لإيشيدو. يا إلهي، فكر: أعلم الكثير الآن مما سيكون له قيمة لا تقدر بثمن في لندن، وما زال يوجد الكثير لأتعلمه. كيف يمكنني نقل هذه المعرفة؟ على سبيل المثال، أن تجارة الصين في الحرير وحده إلى اليابان تُقدر بعشرة ملايين من الذهب سنويًا، وحتى الآن، لدى اليسوعيين أحد الكهنة في بلاط إمبراطور الصين في بكين، مكرّمًا برتبة رسمية ومقرّبًا من الحكام ويتحدث الصينية بطلاقة. لو كان بإمكانني فقط إرسال رسالة... لو كان لدي فقط مبعوث.

في مقابل كل تلك المعرفة، بدأ بلاكتورن في تعليم أوراجا الملاحة والانشقاق الديني العظيم وعن البرلمان، كما علمه هو ويابو كيفية إطلاق النار من مسدس. كانا تلميذين بارعين. فكر: أوراجا رجل جيد. لا توجد لديه مشكلات، سوى أنه يشعر بالعار لعدم امتلاكه جديلة الساموراي. لكنها ستتمو قريبًا.

سمعوا صرخة تحذير من مراقب مقدمة السفينة.

- أنجين سان.

كان القبطان الياباني يشير إلى زورق قطر أنيق يقترب من الجهة اليمنى، يقوده عشرون مُجدفًا. كانت راية إيشيدو على رأس الصاري، وبجانبتها راية

مجلس الوصاية، وهي نفسها التي استخدمها نيبارا جوزين ورجاله عندما سافروا إلى أنجيرو، حيث لقوا حتفهم.

سأل بلاكتورن، وهو يشعر بتوتر يسود السفينة، وأعين الجميع تركز على الزورق: «ما هذا؟».

قال القبطان: «لا أستطيع الرؤية بعد، أعذر».

- يابو سان؟

هز يابو كتفيه وقال: «مسؤول».

عندما اقترب الزورق منهم، رأى بلاكتورن رجلًا مسنًا جالسًا تحت مظلة مؤخرة الزورق، مرتديًا ثيابًا احتفالية مزخرفة مع عباءة علوية مجنحة. لم يكن يرتدي سيوفًا. وكان محاطًا بساموراي إيشيدو بزيهم الرمادي.

توقف قائد الطبول عن الضرب للسماح للزورق بالاقتراب. هرع الرجال لمساعدة المسؤول على الصعود إلى السفينة. قفز ربان ياباني بعده، وبعد العديد من الانحناءات، تولى القيادة الرسمية للقادس.

كان يابو والرجل المسن رسميين وحذرين في تحياتهما. وفي النهاية جلسوا على وسائد متفاوتة المكانة، حيث أخذ المسؤول المكان الأفضل في المؤخرة. بينما جلس الساموراي التابعين ليابو والتابعين لإيشيدو متربعين أو جاثين على سطح السفينة الرئيسي في أماكن أقل تميزًا. قال الرجل: «المجلس يرحب بك يا كاسيجي يابو، باسم صاحب السمو الإمبراطوري».

كان الرجل صغيرًا وممتلئ الجسم ولكنه يبدو ضعيفًا بعض الشيء، وهو مستشار كبير للأوصياء في الشؤون السياسية ويحمل رتبة في البلاط الإمبراطوري. كان اسمه أوجاكي تاكاموتو، وهو أمير من الدرجة السابعة، وكانت وظيفته العمل كوسيط بين البلاط الإمبراطوري ومجلس الوصاية. ابن السماء والأوصياء. كانت أسنانه مصبوغة باللون الأسود وفقًا للتقاليد التي يتبعها جميع أفراد البلاط الإمبراطوري منذ قرون.

قال يابو متأثرًا بالشرف الذي ناله: «شكرًا لك يا أمير أوجاكي. إنه لشرف كبير أن أكون هنا نيابةً عن الزعيم توراناغا».

قال أوجاكي بنبرة جافة: «نعم، أنا متأكد من ذلك. بالطبع، أنت هنا أيضًا بالنيابة عن نفسك، أليس كذلك؟».

أجاب يابو: «بالطبع. متى سيصل الزعيم توراناغا؟ معذرة لكن التايفون أخرني خمسة أيام ولم أتلّق أي أخبار منذ مغادرتي».

سعل أوجاكي وهو يقول: «نعم، التايفون. نعم، كان المجلس سعيدًا جدًا لسماع أن العاصفة لم تمسك. أما عن سيدك، فيؤسفني إخبارك أنه لم يصل بعد إلى أوداوارا. كانت هناك تأخيرات لا نهاية لها وبعض الأمراض. أمر مؤسف، أليس كذلك؟».

سأل يابو بسرعة، سعيدًا لكونه على اطلاع بسرّ توراناغا: «نعم، بالطبع... لا شيء خطر، أليس كذلك؟».

سعل أوجاكي مجددًا وقال: «لا، لحسن الحظ أنه لا يوجد شيء خطر. إن الزعيم إيشيدو يعلم أن سيدك سيصل إلى أوداوارا غدًا».

أظهر يابو دهشة مناسبة وقال: «عندما غادرت قبل واحد وعشرين يومًا، كان كل شيء جاهزًا لرحيله الفوري، ثم مرض الزعيم هيرو ماتسو. أعلم أن الزعيم توراناغا كان قلقًا جدًا ولكنه كان متلهفًا لبدء رحلته... مثلما أنا متلهف للبدء في الاستعدادات لوصوله».

قال الرجل القصير: «كل شيء جاهز».

قال يابو بتفاخر: «بالطبع لن يعترض المجلس إذا تفقدت الترتيبات، أليس كذلك؟ من الضروري أن تكون المراسم جديرة بالمجلس والمناسبة، أليس كذلك؟».

- جديرة بجلالة الإمبراطور، ابن السماء. إنها دعوته الآن.

قال يابو: «بالطبع لكن...». تلاشى شعور يابو بالراحة «أتعني... أتعني أن صاحب السمو الإمبراطوري سيكون حاضرًا؟».

- وافق الجليل على طلب الأوصياء المتواضع بقبول ولاء الوصي الجديد شخصيًا، وكل الدايميو الكبار، بما فيهم الزعيم توراناغا وعائلته وأتباعه. طُلبَ من كبار مستشاري جلالة الإمبراطور اختيار يوم مبارك لمثل هذا... هذا الطقس من قبل المستشارين الكبار لصاحب السمو الإمبراطوري. اليوم الثاني والعشرون من هذا الشهر، في السنة الخامسة من حقبة كيتشو.

يابو كان مذهولًا: «في... في غضون تسعة عشر يومًا؟».

أخرج أوجاكي منديلاً ورقياً بعناية من كُمِّه ومسح أنفه برقة. وقال: «ظهرًا. أرجو المعذرة. نعم، ظهرًا. كانت البشائر مثالية. أبلغ الرسول الإمبراطوري الزعيم توراناجا منذ أربعة عشر يومًا. وقد وصلت موافقته الفورية والمتواضعة إلى الأوصياء قبل ثلاثة أيام». أخرج أوجاكي لفافة صغيرة. «هذه دعوتك لحضور المراسم يا زعيم كاسيجي يابو».

شعر يابو بالرهبة وهو يرى ختم الإمبراطور المتمثل في زهرة الأقحوان ذات الستة عشر بتلة، وعلم أن لا أحد يستطيع رفض مثل هذه الدعوة، ولا حتى توراناجا. فالرفض سيُعد إهانة لا تُغتفر للألوهية وتمردًا علنيًا، وبما أن كل الأراضي تعود إلى الإمبراطور الحاكم، فستكون النتيجة الفورية هي مصادرة جميع الأراضي، مصحوبة بدعوة إمبراطورية للقيام بالسيبوكو الفوري، تُصدر من الأوصياء نيابةً عنه، ومختومة بالختم العظيم. ستكون تلك الدعوة حتمية ويجب الامتثال لها.

حاول يابو استعادة رباطة جأشه بصعوبة.

سأله أوجاكي باهتمام: «عذرًا، هل أنت مريض؟».

تلثم يابو قائلاً: «أعتذر ولكن لم أتخيل في أحلامي الجامحة... لم يكن بإمكان أحد أن يتصور أن صاحب الجلالة... سيكرمنا لهذا الحد، أليس كذلك؟».

- أوافقك الرأي، نعم. أمر استثنائي.

- مذهل... أن صاحب السمو الإمبراطوري... سيفكر في مغادرة كيوتو و... والقدوم إلى أوساكا.

- أوافقك الرأي. ومع ذلك، في اليوم الثاني والعشرين، سيحضر صاحب الجلالة ورموز الإمبراطورية هنا.

كانت الرموز الإمبراطورية -التي لا يمكن أن تكون أي خلافة شرعية دونها- هي الكنوز الثلاثة المقدسة التي كان يعتقد الجميع أنها أُحضرت إلى الأرض من قبل الإله نينيجي نو ميكوتو الذي سلمها شخصياً إلى حفيده جيمو تينو، أول إمبراطور بشري، والذي سلمها شخصياً بدوره إلى خلفائه وصولاً إلى الحاكم الحالي، الإمبراطور جو نيجو: السيف والجوهرة والمرأة. كان السيف المقدس والجوهرة يسافران مع الإمبراطور كلما اضطر إلى المبيت خارج القصر، في حين كانت المرأة محفوظة داخل الحرم الداخلي في ضريح

الشننتو العظيم في إيسي. كان السيف والمرأة والجوهرة ملكًا لابن السماء، كانوا رموزًا إلهية تمثل سلطته الشرعية وألوهيته. بحيث عندما يتحرك، كان العرش الإلهي يتحرك معه، وبالتالي تتحرك كل القوة معه.

قال يابو بصوت مبجوح: «من الصعب تصديق أن الاستعدادات لوصوله ستكتمل في الوقت المناسب».

- قدم القائد الزعيم إيشيدو -نيابة عن الأوصياء- التماسًا إلى صاحب الجلالة فور سماعه من الزعيم زاتاكي في يوكوسي أن الزعيم توراناغا قد وافق بغرابة على القدوم إلى أوساكا والانحناء للواقع المحتوم. وحده الشرف العظيم الذي أبداه سيدك للأوصياء هو الذي دفعهم لتقديم التماس لابن السماء ليشرف المناسبة بحضوره. (سعل مجددًا) أرجو المَعذرة، هل يمكنك أن تقدم لي قبولك الرسمي كتابيًا في أقرب وقت ممكن؟

سأل يابو شاعرًا بالضعف الشديد: «هل يمكنني فعل ذلك على الفور؟».

- أنا متأكد من أن الأوصياء سيقدرّون ذلك.

طلب يابو أدوات الكتابة بوهن. كانت فكرة الأيام التسعة عشر تملأ رأسه. تسعة عشر يومًا! يمكن لتوراناجا التأخير لمدة تسعة عشر يومًا فقط، ثم يتعين عليه أن يكون هنا أيضًا. وقت كافٍ لأصل إلى ناجازاكي وأعود بأمان إلى أوساكا، ولكن ليس وقتًا كافيًا لشن الهجوم البحري على السفينة السوداء والسيطرة عليها، ولا وقتًا كافيًا للضغط على هاريمان أو كياما أو أونوشي أو الكهنة المسيحيين، وبالتالي ليس وقتًا كافيًا لشن السماء القرمزية. وبالتالي فإن خطة توراناغا بأكملها ليست سوى وهم آخر... أوه!

فشل توراناغا. كان يجب أن أعلم أنه سيفشل. الإجابة عن معضلتي واضحة: إما أن أثق ثقة عمياء بقدرة توراناغا على الخروج من هذه الشبكة وأساعد أنجين سان كما هو مخطط للحصول على الرجال للسيطرة على السفينة السوداء بسرعة أكبر، أو يجب أن أذهب إلى إيشيدو وأخبره كل ما أعرفه وأحاول المساومة على حياتي وعلى إيزو.

أيهما؟

وصل الورق والفرشاة والحبر. تناسى يابو عذابه للحظة وركز على الكتابة بأكبر قدر ممكن من المثالية والجمال. كان من غير المقبول الرد على

صاحب الجلالة بعقل مشوش. وعندما انتهى من كتابة قبوله، اتخذ القرار الحاسم: سيتبع نصيحة يوريكو بالكامل. وفي الحال شعر بثقل كبير يُزال عن انسجامه وشعر بنظافة روحية عظيمة. وقع اسمه بتفاخر متعجرف. كيف أكون أفضل تابع لتوراناجا؟ الأمر بسيط جدًا: إزالة إيشيدو من العالم.

كيف أفعل ذلك وأترك لنفسي وقتًا كافيًا للهروب؟

ثم سمع أوجاكي يقول: «غداً، أنت مدعو إلى حفل استقبال رسمي يقيمه القائد الزعيم إيشيدو تكريمًا لعيد ميلاد السيدة أوتشيبيا».

احتضنت ماريكو كيري أولاً وهي ما زالت مرهقة من السفر، ثم عانقت السيدة سازوكو، وأعجبت بالطفل، ثم عانقت كيري مجددًا. تدافعت الخادמות من حولهن، يقدمن الشاي والساكي، ثم يأخذن الصواني مجددًا، ويسرعن إلى الداخل والخارج محملات بالوسائد والأعشاب العطرية، يفتحن ويغلقن أبواب الشوجي المُطلة على الحديقة الداخلية في قسمهم من قلعة أوساكا، يلوحن بالمراوح ويتحدثن ويذرفن الدموع أيضًا. مكتبة سُر من قرأ أخيرًا صفقت كيري بيديها وأمرت الخادמות بالمغادرة، ثم تحسست طريقها إلى وسادتها الخاصة بصعوبة، بينما تغمرها مشاعر الإثارة والسعادة. كان وجهها محمرًا بشدة. سارع كل من ماريكو والسيدة سازوكو إلى تهويتها والعناية بها، ولم تتمكن من التقاط أنفاسها إلا بعد أن شربت ثلاث أكواب كبيرة من الساكي.

قالت: «هذا أفضل. نعم، شكرًا لك يا صغيرتي، نعم، أود المزيد. يا ماريكو تشان، هل أنت هنا حقًا؟».

- نعم، نعم. أنا هنا حقًا يا كيري سان.

قالت سازوكو التي كانت تبدو أصغر بكثير من سنها البالغة سبعة عشر عامًا: «لقد كنا قلقين للغاية، ولم تصل إلينا سوى شائعات و...».

قاطعتها كيري: «نعم، لم تصل إلينا سوى الشائعات يا ماريكو تشان. يوجد الكثير مما أريد معرفته، أشعر بالدوار».

قالت سازوكو بقلق: «مسكينة يا كيري سان، تفضلي بعض الساكي. ربما يجب أن ترخي حزام الأوبي الخاص بك و...».

تنفست كيري بعمق وضمت يديها فوق بطنها الممتلئ: «أنا بخير تمامًا الآن. لا تزعجي نفسك يا صغيرتي. يا ماريكو سان، من الرائع رؤية وجه مألوف من خارج قلعة أوساكا مجددًا».

قالت سازوكو وهي تقترب من ماريكو وتقول بسرعة: «نعم، كلما خرجنا من بوابتنا، يتجمع الرماذيون حولنا كما لو كنا ملكات نحل. لا يُسمح لنا بمغادرة القلعة إلا بإذن من المجلس -لا يُسمح لأي سيدة، حتى سيدات الزعيم كياما- والمجلس نادرًا ما يجتمع، وعندما يجتمع فإنهم يترددون ويتكئون في إعطاء الإذن، والطبيب لا يزال يقول إنني لا يجب أن أسافر بعد، لكنني بخير والطفل بخير و... لكن أولًا أخبرينا...».

قاطعتها كيري: «أخبرينا أولًا كيف حال سيدنا».

ضحكت الفتاة ولم تتأثر حيويتها: «كنت على وشك طرح ذلك السؤال يا كيري سان».

أجابت ماريكو كما أمرها توراناها: «إنه ملتزم مساره... وهو واثق وراضٍ عن قراره». كانت قد تدربت على هذه الإجابة مرات عديدة خلال رحلتها. ومع ذلك، كاد تأثير الكآبة التي أحدثتها يدفعها لقول الحقيقة. قالت: «أعذر».

حاولت سازوكو ألا تبدو خائفة: «أوه!».

استقرت كيري في وضع أكثر راحة: «الكارما هي الكارما، أليس كذلك؟». سألت الفتاة: «إذن... إذن لا يوجد تغيير، لا أمل؟».

رَبَّتْ كيري يدها: «صدقي أن الكارما هي الكارما يا عزيزتي، وأن الزعيم توراناها هو أعظم وأحكم رجل على قيد الحياة. هذا يكفي، أما الباقي فهو مجرد وهم. هل لديك رسائل لنا يا ماريكو تشان؟».

أخرجت ماريكو اللفائف الثلاث من كُمِّها: «أعذر. نعم، هنا. اثنتان لك يا كيري تشان، واحدة من سيدنا والأخرى من الزعيم هيرو ماتسو. وهذه لك يا سازوكو، من زعيمك، لكنه أخبرني أن أبلغك بأنه يشاق إليك ويرغب في رؤية ابنه الجديد. وقد أكد لي أن أذكرك بهذا ثلاث مرات. إنه يشاق إليك كثيرًا ويرغب بشدة في رؤية ابنه الأصغر. إنه يشاق إليك كثيرًا...».

كانت الدموع تتدفق على خدي الفتاة. تمتعت معذرة وخرجت من الغرفة وهي تمسك باللفافة.

لم تكسر كيري أختام لفائفها: «طفلة مسكينة. إن الأمر صعب للغاية عليها هنا. هل تعلمين أن صاحب الجلالة الإمبراطور سيكون حاضراً؟».

قالت ماريكو بالجدية نفسها: «وصلني رسول من الزعيم تورانا جا قبل أسبوع. لم تحتوِ الرسالة على تفاصيل، باستثناء اليوم الذي سيصل فيه هنا. هل تلقيت أخباراً منه؟».

- ليس مباشرة... لا شيء خاص... منذ شهر تقريباً. كيف هو؟ حقاً؟

ارتشفت قليلاً من الساكي: «واثق، هل يمكنني أن أصب لك؟».

- شكراً لك.

- تسعة عشر يوماً ليست مدة طويلة، أليس كذلك يا كيري تشان؟

- إنها مدة تكفي للذهاب إلى إيدو والعودة إذا أسرع، تكفي لتعيشي حياة كاملة إذا أردت، وأكثر من كافية لخوض معركة أو خسارة إمبراطورية. مدة تكفي لفعل ألف شيء، لكنها ليست كافية لتناول كل الأطباق النادرة أو شرب كل الساكي... (ابتسمت كيري ابتسامة خفيفة): بالتأكيد لن أفكر في اتباع حمية خلال الأيام العشرين القادمة. أنا... (توقفت فجأة): رجاءً اعذريني. اسمعيني وأنا أثّر بلا توقف وأنت لم تغيري ملابسك بعد حتى أو تستحمي. سيكون هناك متسع من الوقت للحديث لاحقاً.

- رجاءً لا تقلقي عليّ. لست متعبة.

- لكن يجب أن تكوني. هل ستبقين في منزلك؟

- نعم. هذا هو المكان الذي يسمح لي تصريح القائد الزعيم إيشيدو بالذهاب إليه (ابتسمت ماريكو بمرارة): كان ترحيبه بي مليئاً بالمجاملات.

عبست كيري: «أشك أنه سيكون مرحباً به حتى في الجحيم».

- أوه؟ أعتذر، ماذا الآن؟

- لا شيء جديد. أنا أعلم أنه أمر بقتل وتعذيب الزعيم سوجياما رغم أنني لا أملك دليلاً. الأسبوع الماضي، حاولت إحدى خليات الزعيم أودا الهروب مع أطفالها متنكرةً في زي عاملة نظافة. ثم قتلوهم الحراس «عن طريق الخطأ».

- يا له من أمر مروّع!
- بالطبع، «اعتذارات» عظيمة. يدّعي إيشيدو أن الأمن هو الأهم. لأنه حدثت محاولة اغتيال مزعومة ضد الوريث، وهذا هو مبرره.
- لماذا لا تغادر السيدات علانية؟
- أمر المجلس أن تنتظر الزوجات والأسر عودة أزواجهن، الذين يجب عليهم العودة من أجل المراسم. يشعر القائد الزعيم العظيم «بمسؤولية كبيرة تجاه سلامتهم لدرجة أنه لا يُسمح لهن بالتجول». القلعة مغلقة بإحكام أكبر من محارة قديمة.
- وكذلك الخارج يا كيري سان. يوجد المزيد من الحواجز على طريق توكايدو أكثر من ذي قبل، وأمن إيشيدو قوي جدًا في نطاق خمسين ري. الدوريات في كل مكان.
- الجميع يخافونه، باستثناءنا وقلّة من الساموراي. ونحن لا نشكل له أي إزعاج أكثر من بثرة على ردف تنين.
- حتى أطباءنا؟
- نعم، هم أيضًا. ما زالوا ينصحوننا بعدم السفر، حتى لو كان مسموحًا لنا، وهو ما لن يحدث أبدًا.
- هل السيدة سازوكو بخير... هل الطفل بخير يا كيري سان؟
- تنهدت كيري وقد بدا عليها الإرهاق الآن ولاحظت ماريكو أن الشيب ازداد في شعرها عما كان عليه من قبل: «نعم، يمكنك رؤية ذلك بنفسك. وأنا بخير أيضًا. لم يتغير شيء منذ أن كتبت إلى الزعيم توراناغا في أنجيرو. نحن رهائن وسنبقى رهائن مع الجميع حتى ذلك اليوم. حينها ستُحسم الأمور».
- والآن بعد أن أصبح جلاله الإمبراطور قادمًا... هذا يجعل كل شيء نهائيًا، أليس كذلك؟
- بلى. يبدو كذلك. اذهبي واستريحي يا ماريكو تشان، لكن تناولي الطعام معنا الليلة. حينها يمكننا الحديث، حسنًا؟ بالمناسبة، لدي خبر لك. الهاتاموتو الهمجي الشهير الخاص بك -باركه الرب لإنقاذه سيدنا، لقد سمعنا عن ذلك- رسا بسلام هذا الصباح مع كاسيجي يابو سان.

- لقد كنت قلقة عليهما. غادرا قبل مغادرتي بيوم واحد عن طريق البحر. لقد علقنا نحن أيضًا في جزء من التيفون قرب ناجويا، لكن الأمور لم تكن سيئة للغاية بالنسبة لنا. كنت خائفة في البحر... يا للراحة.

- لم يكن الوضع سيئًا هنا باستثناء الحرائق. احترقت آلاف المنازل، لكن الوفيات لم تتجاوز الألفين. سمعنا اليوم أن الجزء الرئيسي من العاصفة ضرب كيوشو، على الساحل الشرقي، وجزءًا من شيكوكو. عشرات الآلاف لقوا حتفهم. ولا أحد يعلم حتى الآن حجم الأضرار بالكامل.

سألت ماريكو بسرعة: «لكن المحاصيل؟».

- معظمها سُحِقت هنا... حقول كاملة. يأمل المزارعون أن تتعافى، لكن مَنْ يدري؟ إذا لم يوجد ضرر في الكانتو خلال الموسم، فقد يضطر أرزها إلى دعم الإمبراطورية بأكملها هذا العام والعام المقبل.

- سيكون من الأفضل بكثير لو أن الزعيم توراناغا هو مَنْ يتحكم في هذا المحصول وليس إيشيدو، أليس كذلك؟

- بلى. ولكن أعذر، تسعة عشر يومًا لا تكفي لجمع المحصول، حتى مع كل الصلوات في العالم.

أنهت ماريكو الساكي: «بلى».

قالت كيري: «إذا غادرت سفينتهما قبل يوم من مغادرتك، فلا بد أنك استعجلت».

- رأيت أنه من الأفضل ألا أتلكأ يا كيري تشان. السفر ليس متعة بالنسبة لي.

- وماذا عن بونتارو سان؟ هل هو بخير؟

- نعم. إنه يتولى مسؤولية ميشيما وكل الحدود في الوقت الحالي. رأيتَه لفترة وجيزة في طريقي إلى هنا. هل تعلمين أين يقيم كاسيجي يابو ساما؟ لدي رسالة له.

- إنه في أحد بيوت الضيافة. سأعرف أيها وأخبرك في الحال. (قبلت كيري المزيد من النبيذ): شكرًا لك يا ماريكو تشان. سمعت أن أنجين سان لا يزال على متن القادس.

- إنه رجل مثير للاهتمام يا كيري سان. لقد أصبح مفيدًا جدًا لسيدنا.
- سمعت ذلك. أود أن أسمع كل شيء عنه وعن الزلزال وعن كل أخبارك. أوه نعم، يوجد حفل استقبال رسمي مساء الغد بمناسبة عيد ميلاد السيدة أوتشيبا، يقيمه الزعيم إيشيدو. بالطبع ستكونين مدعوة. سمعت أن أنجين سان سيُدعى أيضًا. السيدة أوتشيبا أرادت أن ترى كيف يبدو. هل تتذكرين أن الوريث التقاه مرة من قبل؟ ألم تكن تلك المرة الأولى التي رأيته فيها أيضًا؟
- بلى. رجل مسكين، إذن سيعرضونه مثل حوت أسير؟
- قالت كيري بهدوء: «نعم. معنا جميعًا. نحن جميعًا أسرى يا ماريكو تشان، سواء أعجبنا ذلك أم لا».

أسرع أوراجا خلسة عبر الزقاق نحو الشاطئ، الليل مظلم والسماء صافية مليئة بالنجوم، والهواء منعش. كان يرتدي رداءً برتقاليًا فضفاضًا يشبه زي الكهنة البوذيين، وقبعته المعتادة وخفا من القش الرخيص. خلفه المستودعات والبناء الشاهق لمقر بعثة اليسوعيين الذي يشبه الأبنية الأوروبية. انعطف عند زاوية وزاد من سرعته. قلة من الناس حوله، مجموعة من الرماديين يحملون المشاعل ويتفقدون الشاطئ. أبطأ خطاه وهو يمر بجانبهم باحترام، رغم أنه أظهر بعض كبرياء الكهنة. وبالكاد لاحظ الساموراي.

سار بثبات على طول الشاطئ مرورًا بقوارب الصيد الراسية، وروائح البحر والشاطئ تتغلغل في النسيم الخفيف. المدُّ منخفضٌ، وعلى الخليج والرمال كان الصيادون الليليون منتشرين كأسراب اليراعات، يصطادون بالرماح تحت ضوء مشاعلهم. وأمامهم على بعد مائة وخمسين مترًا كانت الأرصفة والمراسي المكسوة بأصداف البحر. رست على إحداها سفينة تابعة لليسوعيين، ترفرف عليها أعلام البرتغال والجمعية اليسوعية، وكانت توجد مشاعل ومزيدٌ من الرماديين قرب سلم السفينة. غير مساره لتجنب السفينة متجهًا إلى المدينة عبر بعض الأحياء، ثم انعطف إلى الشارع التاسع عشر، واتخذ طريقه في الأزقة المتعرجة ليعود إلى الطريق الذي يمتد بمحاذاة الأرصفة مجددًا.

- أنت، قف!

جاء الأمر من الظلام. توقف أوراجا مذعورًا. تقدم الرماديون نحو الضوء وأحاطوا به: «إلى أين أنت ذاهب يا كاهن؟».

قال أوراجا بتردد وقد جف حلقه: «إلى شرق المدينة، إلى معبدنا التابع لنيتشيرين».

- أنت من طائفة نيتشيرين، أليس كذلك؟

قال ساموراي آخر بقسوة: «أنا لست منهم. أنا بوذي زن مثل القائد الزعيم».

قال آخر: «زن... نعم، زن هو الأفضل، أتمنى أن أستطيع فهمه. لكنه صعب على رأسي المسن».

- إنه يتسبب عرقًا كثيرًا بالنسبة لكاهن، أليس كذلك؟ لماذا تتسبب عرقًا؟

- هل تعني أن الكهنة لا يتعرقون؟

ضحك بعضهم، وقرب أحدهم الشعلة إليه.

قال الرجل القاسي: «لماذا ينبغي لهم أن يتعرقوا؟ كل ما يفعلونه هو النوم نهارًا واللهو ليلاً - مع الراهبات والصبية والكلاب وحتى أنفسهم، وأي شيء يستطيعون الحصول عليه - وكل هذا وهم يملؤون بطونهم بطعام لم يعملوا للحصول عليه قط. إن الكهنة طفيليات، مثل البراغيث».

- اتركه وشأنه، إنه فقط...

- انزع قبعتك يا كاهن.

تجمد أوراجا: «لماذا؟ ولماذا تسخر من رجل يخدم بوذا؟ بوذا لم يلحق بكم أي...».

تقدم الساموراي بعدوانية: «أخبرتك أن تنزع قبعتك».

أطاع أوراجا. وكشف عن رأسه الحليق حديثًا كما ينبغي أن يكون رأس الكاهن، وبارك أي كامي أو روح أو هبة من بوذا ألهمته أن يتخذ هذا الاحتياط في حال قبض عليه في أثناء حظر التجول. كانت سلطات الميناء قد أمرت جميع ساموراي أنجين سان بالبقاء على متن السفينة ريثما تصدر تعليمات من جهات عليا. قال بنبرة غير واعية تحمل سلطة اليسوعيين: «ليس هناك داعٍ للسلوك الفظ، خدمة بوذا حياة شريفة، وأن يصبح المرء كاهنًا هو شرف

ينبغي أن يكون خاتمة حياة كل ساموراي في شيخوخته. أم أنك لا تعرف شيئاً عن بوشيدو؟ أين أخلاقك؟».

- ماذا؟ هل أنت ساموراي؟

اعتمر أوراجا قبعته: «بالطبع أنا ساموراي. كيف أجرؤ على التحدث عن السلوك السيئ أمام الساموراي إن لم أكن كذلك؟ من الأفضل لكم أن تستمروا في دورياتكم بدلاً من اعتراض وإهانة كهنة أبرياء».

سار مبتعداً بكبرياء وركبته ترتجفان.

راقبه الساموراي للحظة، ثم بصق أحدهم قائلاً: «كهنة».

قال الساموراي الأكبر بمرارة: «كان محقاً، أين أخلاقك؟».

- أعذر، رجاء اعذرني.

واصل أوراجا سيره على الطريق وهو يشعر بالفخر. ولكنه أصبح أكثر حذراً عندما اقترب من القادس، وانتظر للحظة عند زاوية مبنى. ثم تقدم نحو المنطقة المضاءة بالمشاعل بعدما استجمع شتات نفسه.

قال بأدب للرماديين المتجمعين بجانب سلم السفينة: «مساء الخير». وأضاف التحية الدينية: «بسم بوذا أميدا».

- شكراً. بسم بوذا أميدا.

سمح له الرماديون بالمرور دون اعتراض. كانت أوامرهم تنص على منع الهمجي وكل الساموراي من النزول إلى الشاطئ باستثناء يابو وحارسه الشرفي. لم يذكر أحد شيئاً عن الكاهن البوذي الذي يسافر مع السفينة.

شعر أوراجا بالإرهاك حين صعد إلى سطح السفينة الرئيسي.

نادى بلاكثورن بصوت خافت من سطح مؤخرة السفينة: «أوراجا سان، هنا».

ضيق أوراجا عينيه ليتأقلم مع الظلام. رأى بلاكثورن وشم رائحة جسد نفاذة وأدرك أن الظل الآخر هو ذاك الهمجي صاحب الاسم الذي يصعب نطقه، الذي يتحدث البرتغالية أيضاً. كاد أن ينسى كيف كان شعور الابتعاد عن رائحة الهمج التي أصبحت جزءاً من حياته. كان أنجين سان هو الوحيد الذي التقاه ولم تكن له رائحة كريهة، وهو أحد الأسباب التي جعلته قادراً على خدمته.

همس وتقدم إليه بحذر، وألقى تحية وجيزة على الحراس العشرة المنتشرين على السطح: «أنجين سان».

انتظر عند مقدمة سلم السفينة حتى أشار إليه بلاكثورن بالصعود: «لقد سار الأمر...».

حذرة بلاكثورن بصوت منخفض وأشار: «انتظر، انظر إلى الشاطئ. هناك، قرب المستودع. هل تراه؟ لا، باتجاه الشمال قليلاً... هنا، هل تراه الآن؟».

تحرك ظل لوهلة ثم اندمج مع الظلام مجدداً.

- من هذا؟

- كنت أراقبك منذ أن جئت إلى الطريق. كان يتبعك. لم تره قط؟

أجاب أوراجا وقد عاوده الشعور بالقلق: «لا يا سيدي، لم أرَ أحداً، ولم أشعر بأحد».

- لم يكن يحمل سيوفاً، لذا لم يكن ساموراي. هل هو يسوعي؟

- لا أعلم. لا أظن ذلك... كنت حريصاً جداً هناك. أرجوك اعذرني لعدم ملاحظتي له.

- لا بأس.

نظر بلاكثورن إلى فينك وقال: «اذهب إلى الأسفل الآن يا يوهان. سأكمل هذه النوبة وأوقظك عند الفجر. شكراً لانتظارك».

حيّاه فينك ثم نزل إلى الأسفل. واختفت الرائحة الكريهة معه. قال بلاكثورن: «كنت قلقاً عليك، ماذا حدث؟».

- كان رسول يابو ساما بطيئاً يا أنجين سان. إليك تقريرتي: ذهبت مع يابو ساما وانتظرت خارج القلعة من الظهيرة حتى بعد حلول الظلام، حين...

- ماذا كنت تفعل طوال ذلك الوقت؟ بالتحديد؟

- بالتحديد يا سيدي؟ اخترتُ مكاناً هادئاً قرب السوق يمكنني من رؤية الجسر الأول، ووضعت عقلي في حالة تأمل، مستخدماً أسلوب اليسوعيين يا أنجين سان، ولكن ليس عن الرب، بل عنك وعن يابو ساما ومستقبلك يا سيدي. (ابتسم أوراجا): لقد وضع الكثير من المارة

بعض العملات في وعاء التسول الخاص بي. تركت جسدي يستريح وعقلي يتجول، رغم أنني راقت الجسر الأول طوال الوقت. جاء رسول يابو ساما بعد حلول الظلام وتظاهر بالصلاة معي إلى أن صرنا وحدنا تمامًا. همس لي الرسول بذلك: «يابو ساما يقول إنه سيبيت الليلة في القلعة وأنه سيعود صباح الغد. سيكون هناك حفل رسمي في القلعة مساء الغد وستدعى لحضوره، يقيمه القائد الزعيم إيشيدو. وأخيرًا، يجب عليك أن تأخذ في الاعتبار سبعين». (حرق أوراجا إلى بلاكتورن): كرر الساموراي الرقم مرتين، لذا أعتقد أنها شيفرة خاصة يا سيدي.

أومًا بلاكتورن لكنه لم يكشف عن أن الرقم كان واحدًا من الكثير من الإشارات المتفق عليها مسبقًا بينه وبين يابو. الرقم «سبعين» يعني أنه يجب عليه التأكد أن السفينة جاهزة للانسحاب الفوري إلى البحر. وبما أن جميع الساموراي والبحارة والمجذفين كانوا محتجزين على متن السفينة، فقد كانت السفينة جاهزة بالفعل. ولأن الجميع كانوا مدركين أنهم في مياه معادية ويشعرون بالقلق، علم بلاكتورن أنه لن يتطلب الأمر جهدًا كبيرًا لتجهيز السفينة للإبحار.

- تابع يا أوراجا سان.

- لا يوجد شيء آخر سوى أن أخبرك وصول تودا ماريكو سان اليوم.

- أه! هل... أليس هذا وقتًا سريعًا جدًا لقطع الرحلة البرية من إيدو إلى هنا؟

- بلى يا سيدي. في الواقع، بينما كنت أنتظر، شاهدت موكبها يعبر الجسر في فترة بعد الظهر، في منتصف ساعة الماعز. كانت الخيول مبللة بالعرق ومغطاة بالطين، والحمالون متعبون جدًا. يقودهم يوشيناكا سان.

- هل رآك أيُّ منهم؟

- لا يا سيدي. لا، لا أعتقد ذلك.

- كم كان عددهم؟

- نحو مائتي ساموراي، مع حمّالين وخيول أمتعة. بالإضافة إلى ضعف هذا العدد من الرمادين يرافقونهم. كان أحد خيول الأمتعة يحمل أقفاصًا من الحمام الزاجل.

- جيد. التالي؟

- لقد غادرت فور استطاعتي. يوجد مطعم نودلز بالقرب من مقر البعثة
يتردد عليه الكثير من التجار وسماسرة الأرز والحرير وأعضاء من
البعثة. لقد... ذهبت إلى هناك وتناولت الطعام وتنصت. الأب الزائر
مقيم هنا مجددًا. يوجد الكثير من المهتمين الجدد في منطقة أوساكا.
مُنِحَ الإذن بإقامة قداس ضخم خلال عشرين يومًا، تكريمًا للزعماء
كياما وأونوشي.

- هل هذا مهم؟

- نعم، ومن المدهش أن يُسمح بمثل هذا القداس علنًا. سيُقام للاحتفال
بعيد القديس برنارد. بعد يومًا من مراسم الولاء أمام جلالة الإمبراطور.
كان يابو قد أخبر بلاكثورن عن الإمبراطور عبر أوراجا. انتشرت الأخبار
في السفينة مما زاد من إحساس الجميع بقرّب الكارثة.

- ماذا أيضًا؟

- يوجد الكثير من الشائعات في السوق، معظمها مشؤومة. إن السيدة
يودوكو أرملة التايكو مريضة جدًّا. هذا أمر سيئ يا أنجين سان، لأنها
دائمًا ما تقدم نصائح حكيمة ويُستمع إليها. يقول البعض إن الزعيم
توراناجا قريب بالفعل من ناجويا، بينما يقول آخرون إنه لم يصل بعد
إلى أوداوارا، لذا لا أحد يعلم ما يجب تصديقه. يتفق الجميع على أن
المحصول سيكون سيئًا هذا العام هنا في أوساكا، مما يعني أن الكانتو
ستزداد أهمية. يعتقد معظم الناس أن الحرب الأهلية ستبدأ فور وفاة
الزعيم توراناجا، وعندها سيبدأ الدايميو العظماء في القتال فيما بينهم.
أسعار الذهب مرتفعة، وأسعار الفائدة تصل إلى سبعين بالمائة، وهو
ما...

- هذه نسبة مرتفعة للغاية، لا بد أنك مخطئ.

نهض بلاكثورن وأراح ظهره، ثم اتكأ على شفير السفينة بتعب. نهض
أوراجا وجميع الساموراي أيضًا بأدب، إذ كان من غير اللائق أن يجلسوا بينما
يقف سيدهم.

قال أوراجا: «رجاءً اعذرني يا أنجين سان. لم تقلّ الفائدة هنا عن خمسين
بالمئة، وعادةً تكون بين خمسة وستين إلى سبعين، وأحيانًا تصل إلى ثمانين.

قبل نحو عشرين عامًا، تقدم الأب الزائر بطلب إلى الأب المق... طلب إلى البابا للسماح لنا... السماح للجمعية بالإقراض بفائدة عشرة بالمئة. كان محققًا في أن اقتراحه -وافق عليه يا أنجين سان- سيجلب مجدًا للمسيحية ويجذب الكثير من المهتدين، إذ كانت القروض متاحة للمسيحيين فقط، والتي كانت مبالغ متواضعة. ألا تدفعون مثل هذه الفوائد المرتفعة في بلدكم؟».

- نادرًا. هذا ربا. هل تفهم معنى «ربا»؟

- نعم، أفهم الكلمة، لكن الربا لدينا لا تبدأ إلا بعد مئة بالمئة. أردت أن أخبرك أيضًا أن سعر الأرز مرتفع الآن وهذا نذير شؤم، فقد تضاعف عما كان عليه عندما كنت هنا قبل بضعة أسابيع. الأراضي رخيصة الآن. إنه وقت مناسب لشراء أرض هنا، أو منزل. لقد تدمر عشرة آلاف منزل في التيفون والحرائق، ومات اثنان أو ثلاثة آلاف شخص. هذا كل شيء يا أنجين سان.

- هذا جيد جدًا. لقد أحسنت. يبدو أنك ضيّعت مهنتك الحقيقية.

- عذراً؟

قال بلاكتورن ولم يكن يدري إلى أي مدى يمكنه المزاح مع أوراجا: «لا شيء، لقد قمت بعمل رائع».

- شكرًا لك يا سيدي.

فكر بلاكتورن للحظة ثم سأله عن المناسبة التي ستقام غدًا، وقد نصحه أوراجا بقدر استطاعته. ثم أخبره أوراجا أخيرًا عن كيفية هروبه من الدورية. سأل بلاكتورن: «هل كان من الممكن أن يكشفك شعرك؟».

- أجل، يكفي ليأخذوني إلى ضابطهم. (مسح أوراجا العرق عن جبينه): أعتذر، الجو حار، أليس كذلك؟

وافق بلاكتورن بأدب: «بلى».

ترك عقله يدقق في المعلومات. نظر نحو البحر متفحصًا السماء والبحر والرياح بلا وعي. كان كل شيء جيدًا ومنظمًا، وقوارب الصيد تنجرف بهدوء مع التيار، قريبة وبعيدة، وفي مقدمة كل منها رجل يحمل رمحًا تحت فانوس ويغرزه بين الحين والآخر، وغالبًا ما يلتقط سمكة الدنيس أو البوري أو النهاش الأحمر وهي تلتف وتتلوى على السنارة.

- أمر أخير يا سيدي. ذهبت إلى مقر البعثة... جميع أنحاء المقر. كان الحراس يقظين للغاية ولم أتمكن من الدخول... على الأقل لا أعتقد أنه بإمكانني، إلا إن مررت بأحدهم. راقبت لفترة، ولكن قبل أن أغادر، رأيت تشيموكو خادمة السيدة تودا تدخل.

- هل أنت متأكد؟

- نعم. كانت معها خادمة أخرى. أظن...

- السيدة ماريكو؟ متنكرة؟

- لا يا سيدي. أنا متأكد أنها لم تكن هي، تلك الخادمة الثانية كانت طويلة جدًا.

نظر بلاكتورن مجددًا نحو البحر وتمتم محادثًا نفسه: «ما معنى ذلك؟».

- السيدة ماريكو مسي... كاثوليكية، أليس كذلك؟ تعرف الأب الزائر جيدًا، فقد كان هو من جعلها تعتنق المسيحية. السيدة ماريكو هي السيدة الأهم والأشهر في المملكة، بعد النبلاء الثلاثة: السيدة أوتشيبا والسيدة جينجيكو والسيدة يودوكو زوجة التايكو.

- ربما أرادت ماريكو سان الاعتراف؟ أو قداسًا؟ أو اجتماعًا؟ ربما أرسلت تشيموكو لترتيب ذلك؟

- كل شيء ممكن يا أنجين سان. جميع سيدات الدايميو -سواء من أصدقاء القائد الزعيم أو من قد يعارضونه- محتجزين في القلعة، أليس كذلك؟ فور دخولهن، فإنهن يبقين كسَمَكٍ في حوض ذهبي بانتظار أن يُصطاد بالرمح.

- كفى! لا أريد سماع المزيد من حديث الهلاك هذا.

- أعتذر. ومع ذلك يا أنجين سان. أعتقد الآن أن السيدة تودا لن تخرج مجددًا. حتى اليوم التاسع عشر.

- أخبرتك أن تكفَّ عن الحديث. أنا أفهم ما يخص الرهائن واليوم الأخير.

ساد الهدوء على سطح السفينة، وكانت أصواتهم خافتة. الحراس يستريحون بانتظار انتهاء مناوبتهم. تلاطمت المياه على هيكل السفينة، والحبال تصدر صريرًا مريحًا.

بعد لحظة، قال أوراجا: «ربما جلبت تشيموكو دعوة... طلباً من الأب الزائر ليأتي إليها. كانت بالتأكيد تحت الحراسة عندما عبرت الجسر الأول. من المؤكد أن تودا ماريكو نو بونتارو نو جينساي كانت تحت الحراسة منذ لحظة عبورها من حدود الزعيم توراناغا. أليس كذلك؟».

- هل يمكننا معرفة ما إذا كان الأب الزائر سيذهب إلى القلعة؟

- نعم. هذا سهل.

- كيف يمكننا معرفة ما قيل... أو ما حدث؟

- هذا صعب جداً. أعذر، لكنهم سيتحدثون البرتغالية أو اللاتينية، أليس كذلك؟ ومن يتحدث اللغتين سواي أنا وأنت؟ سيُعرف عليّ من كليهما. (أشار أوراجا إلى القلعة والمدينة): يوجد الكثير من المسيحيين هناك. أيّ منهم سيحظى بمكانة عالية إذا تخلص منك أو مني، أليس كذلك؟

لم يُجب بلاكثورن؛ لا حاجة إلى الإجابة. كان يحدق إلى برج القلعة المنقوش على النجوم، متذكراً حديث أوراجا عن الكنز الأسطوري اللامحدود الذي يحميه، غنائم التايكو من ضرائب إمبراطوريته. لكن فكره كان منشغلاً بما قد يفعله أو يفكر فيه أو يخطط له توراناغا، وأين توجد ماريكو تحديداً، وما الجدوى من الذهاب إلى ناجازاكي. كان قد كرر: «إذن، هل تقول إن اليوم التاسع عشر هو آخر يوم، يوم الموت يا يابو سان؟».

شعر بالغثيان وهو يدرك أن الفخ قد نُصب لتوراناغا، وبالتالي له ولسفينته إيراسموس.

- لا يوجد شيء يمكننا فعله! نذهب إلى ناجازاكي بسرعة ثم نعود. بسرعة، هل تفهم؟ فقط أربعة أيام لجلب الرجال. ثم نعود.

كان قد قال: «لكن لماذا؟ عندما يكون توراناغا هنا، الكل سيموت، أليس كذلك؟».

لكن يابو ذهب إلى الشاطئ، أخبره أنهم يغادرون في اليوم بعد الغد. بقي يراقب رحيله بقلق متمنياً لو أنه أحضر إيراسموس بدلاً من القادس. إذ كان بإمكانه حينها أن يتجاوز أوساكا بطريقة ما ويتوجه مباشرة إلى ناجازاكي، أو ربما كان سيعرج في الأفق ليجد ميناء خفياً حيث يمكنه تدريب أتباعه على تشغيل السفينة.

وبَّخ نفسه: أنت أحمق. مع الطاقم الصغير الذي تملكه الآن، ما كنت لتستطيع حتى الرسو هنا، ناهيك بإيجاد ميناء لتنتظر فيه انتهاء العاصفة. كنت ستكون ميتاً بالفعل.

قال أوراجا: «لا تقلق يا سيدي. إنها الكارما».

- نعم، كارما.

ثم سمع بلاكتورن صوت خطر قادم من جهة البحر، فتحرك جسده قبل أن يأمره عقله، واستدار في اللحظة التي انطلق فيها السهم ليحاذيه ويستقر مرتجفاً في الحاجز. اندفع نحو أوراجا ليجذبه إلى الأسفل إلى بر الأمان، ولكن سهماً آخر من الوابل نفسه أصاب حلق أوراجا، مخترقاً إياه. وسرعان ما انكمشا معاً على سطح السفينة، أوراجا يصرخ والساموراي يصيحون ويتطلعون من فوق الشفير نحو البحر. تدفق الرماديون من الشاطئ إلى متن السفينة. أُطلق وابل آخر من الأسهم من البحر، فتفرق الجميع بحثاً عن ملجأ. زحف بلاكتورن نحو الشفير ونظر من خلال فتحة صغيرة، فرأى قاربَ صيد قريباً يُطفئ نوره ويختفي في الظلام. كانت كل القوارب تفعل الشيء نفسه، وفي لمح البصر رأى المجذفين يبتعدون بذعر، وتلمع السيوف والأقواس في أيديهم تحت الضوء.

انخفضت صرخات أوراجا إلى صوت اختناق مؤلم بينما اندفع الرماديون إلى سطح السفينة، أقواسهم جاهزة، والسفينة بأكملها تعمها الفوضى. صعد فينك إلى السطح بسرعة ومسدسه جاهز، ومنحنياً وهو يركض: «يا مسيح، ماذا يجري... هل أنت بخير يا ربان؟».

- نعم. احذر... إنهم في قوارب الصيد.

زحف بلاكتورن عائداً إلى أوراجا الذي كان يحاول الإمساك بالسهم، والدم ينزف من أنفه وفمه وأذنيه.

شهق فينك: «يا يسوع».

أمسك بلاكتورن بطرف السهم بيد، ووضع الأخرى على الجرح الدافئ النابض، وسحبه بكل قوته. خرج السهم بسهولة، ولكن فور خروجه تدفق الدم. وبدأ أوراجا يختنق.

اجتمع الرماديون وساموراي بلاكتورن حولهم. جاء بعضهم بدرع ليغطوه، غير مكثرين بسلامتهم. وآخرون ارتجفوا في أمان رغم أن الخطر

قد زال. وآخرون كانوا غاضبين ويطلقون سهامهم نحو الليل، ويأمرون قوارب الصيد المختلفة بالعودة.

احتضن بلاكثورن أوراجا بين ذراعيه بعجز، وهو يدرك أنه يوجد شيء يجب أن يفعله، لكنه لا يعرف ما هو، ويعرف أنه لا شيء يمكن فعله، ورائحة الموت اللاذعة تغمر أنفه، وعقله يصرخ كعادته: «يا يسوع المسيح، الحمد للرب أنه ليس دمي، ليس دمي، شكرًا للرب».

رأى بلاكثورن عيني أوراجا تتوسلان، وفمه يتحرك بلا صوت سوى الاختناق، صدره يعلو ويهبط، ثم شاهد أصابعه تتحرك تلقائيًا لترسم علامة الصليب أمام عينيه، وشعر بجسد أوراجا يرتجف وينبض، وفمه يصرخ بلا صوت، مذكرًا إياه بأي سمكة مطعونة.

استغرق الأمر وقتًا فظيعة حتى يموت أوراجا.

الفصل الثالث والخمسون

كان بلاكتورن يسير الآن في القلعة محاطاً بحرسه الشرفي المكون من عشرين تابعاً، محاطين بدورهم بعدد كبير من المرافقين الرماديين يفوق عددهم بعشرة أضعاف. يرتدي بفخر زياً جديداً، كيمونو بني اللون يحمل شارات توراناغا الخمسة، ولأول مرة كان يرتدي رداءً خارجياً رسمياً بأكتاف ضخمة. شعره الأشقر المتموج مربوط بعناية في ضفيرة. وسيفاه اللذان منحهما له توراناغا بارزان من حزامه بصورة لائقة. أما قدماه فكانتا مغطاتان بجوارب تابي جديدة ونعال.

كان الرماديون موجودين بكثافة في كل تقاطع ويغطون كل الأبراج المحصنة، في استعراض هائل لقوة إيشيدو، فقد دُعي الليلة كل دايميو وكل قائد وكل ضابط ساموراي مهم في أوساكا إلى القاعة الكبرى التي بناها التايكو داخل الحلقة الداخلية من التحصينات. كانت الشمس قد غابت والليل يقترب بسرعة.

كان بلاكتورن يفكر، فلا يزال لا يعلم ما إذا كان الهجوم قد استهدف أوراغا أو استهدفه هو: إن فقدان أوراغا حظ سيئ للغاية. لقد فقدت أفضل مصدر للمعرفة يمكن أن أمتلكه.

قال له يابو في الصباح حين عاد إلى القادس: «ستذهب إلى القلعة في الظهيرة يا أنجين سان. سيأتي الرماديون لاصطحابك. هل تفهم؟».

- نعم يا يابو ساما.

- الوضع آمن تماماً الآن. آسف بشأن الهجوم. لا يوجد شيء يمكننا فعله! سيصطحبك الرماديون إلى مكان آمن. ستبقى الليلة في القلعة، في جزء توراناغا من القلعة. وأيضاً في اليوم التالي سنذهب إلى ناجازاكي. سأل: «هل حصلنا على الإذن؟».

هز يابو رأسه بحنق: «تظاهر بأنك ذاهب إلى ميشيما لجلب الزعيم هيرو ماتسو، وأيضًا الزعيم سودارا وعائلته. هل تفهم؟».

- نعم.

- جيد. نم الآن يا أنجين سان. لا تقلق بشأن الهجوم. الآن صدر أمرٌ لجميع القوارب بالبقاء بعيدًا عن هنا. هذا المكان ممنوع الآن.

- فهمت. أرجو أن تعذرني، ماذا سيحدث الليلة؟ لماذا أذهب إلى القلعة؟ ابتسم يابو ابتسامته الملتوية وأخبره أنه سيُعرض في القلعة لأن إيشيدو كان فضوليًا لرؤيته مجددًا: «بصفتك ضيفًا، ستكون في أمان».

ثم غادر القادس مجددًا.

نزل بلاكتورن إلى الأسفل تاركًا فينك ليراقب، لكن ما إن غطَّ في النوم حتى أيقظه فينك بسرعة، فأسرع إلى السطح مجددًا.

كانت فرقاطة برتغالية صغيرة مزودة بعشرين مدفعًا تندفع نحو الميناء بسرعة، تميل تحت ضغط الأشرعة.

قال فينك مرتجفًا: «إن الوغد في عجلة من أمره».

- لا بد أنه رودريجز، فلا أحد غيره سيدخل بكل تلك الأشرعة.

- لو كنت مكانك يا ربان، لكنت أبعدتنا من هنا، مع المد أو من دونه. يا يسوع المسيح، نحن كفراشات محاصرة في زجاجة جعة. دعنا نغادر...

- سنبقى هنا. ألا تستطيع فهم ذلك؟ سنبقى حتى يُسمح لنا بالمغادرة. سنبقى حتى يأذن لنا إيشيدو بالمغادرة حتى لو جاء البابا وملك إسبانيا مع كامل أسطولهم الملعون.

نزل بلاكتورن إلى الأسفل مجددًا لكن النوم هجره. وعند الظهيرة وصل الحراس الرماديون. ذهب معهم إلى القلعة وسط حماية مشددة. شقوا طريقهم عبر المدينة مرورًا بساحة الإعدام، حيث كانت الصليبان الخمسة لا تزال هناك، والأجساد تُربط وتُنزل، كل صليب يحرسه اثنان من الرماة، والحشد يراقب. استعاد ذكرى تلك المعاناة ورعب الكمين، ولكن رغم شعوره بيده على قبضة سيفه والكيمنونو حوله وتابعيه معه، فإن ذلك لم يخفف من رهيبته.

قاده الرماديون إلى الجزء الخاص بتوراناجا من القلعة، الذي كان قد زاره في المرة الأولى، حينما كانت كيريتسوبو والسيدة سازوكو وطفلها لا يزالون مستقرين مع بقية ساموراي توراناجا. استحمَّ هناك ووجد الملابس الجديدة التي كانت قد أعدت له.

- هل السيدة ماريكو هنا؟

قال له الخادم: «كلا يا سيدي، أعذر».

- إذن أين أستطيع إيجادها رجاء؟ لديَّ رسالة عاجلة.

- أعذر يا أنجين سان، لا أعلم. أرجو المعذرة.

لم يساعده أحد من الخدم. قالوا جميعًا: «أعذر، لا أعلم».

لقد ارتدى ملابسه، ثم رجع إلى قاموسه متذكرًا الكلمات الأساسية التي سيحتاجها واستعد قدر المستطاع. ثم توجه إلى الحديقة ليشاهد الصخور تنمو. لكنها لم تنمُ قط.

كان الآن يعبر الخندق الداخلي. والمشاعل في كل مكان.

تخلص من توتره وتقدم على الجسر الخشبي. كان الضيوف الآخرون برفقة الرماديين حوله متجهين إلى الاتجاه نفسه. وبإمكانه الشعور بهم يراقبونه خفيةً.

قادته قدماه تحت آخر بوابة حديدية، وتبعه حراسه الرماديون عبر المتاهة مجددًا وصولًا إلى الباب الضخم. تركوه هنا، وكذلك فعل رجاله الذين ذهبوا إلى جانب آخر مع ساموراي آخرين لانتظاره. تقدم إلى داخل الفم المضاء بالمشاعل.

كانت حجرة ضخمة ذات عوارض مرتفعة وسقف مزخرف بالذهب. الأعمدة المطلية بالذهب تدعم العوارض المصنوعة من أخشاب نادرة ومصقولة ومُعزّز بها مثلها مثل المعلقات على الجدران. يوجد خمسمائة ساموراي وسيداتهم، يرتدون جميع ألوان قوس قزح، وروائح عطرهم امتزجت برائحة البخور المنبعثة من الأخشاب الثمينة المحترقة في المباخر. تجولت عينا بلاكثورن على الحشد بحثًا عن ماريكو أو يابو أو أي وجه مألوف، لكنه لم يجد أحدًا. على أحد الجوانب صف من الضيوف ينتظرون الانحناء أمام المنصة المرتفعة في نهاية القاعة. رجل الحاشية الأمير أوجاكي تاكاموتو كان يقف هناك. وتعرف بلاكثورن على إيشيدو -طويل ونحيف ومستبد-

بجانب المنصة أيضًا، وتذكر بوضوح قوة ضربة الرجل على وجهه، ثم تذكر أصابعه وهي تنغلق حول عنق الرجل.

وعلى المنصة، السيدة أوتشيبا تجلس وحدها، مرتاحة على وسادة. حتى من هذه المسافة استطاع أن يرى الأناقة الباهرة للكيمنو الخاص بها، خيوط ذهبية على حرير حالك السواد نادر. «الأرفع مقامًا»، هكذا أطلق عليها أوراجا بإجلال، وأخبره الكثير عنها وتاريخها خلال رحلتها.

كانت نحيفة تكاد تكون طفولية البنية، مع توهج مشرق لبشرتها البيضاء. وعيناها السوداءوان واسعتان تحت حاجبين مقوسين مرسومين، وشعرها مصفف كخوذة مجنحة.

تقدمت مسيرة الضيوف ببطء. كان بلاكتورن يقف على جانب في بقعة من الضوء، أطول برأس من المحيطين به. تنحى جانبًا بأدب ليباعد عن طريق بعض الضيوف المارين، فرأى عيني أوتشيبا تتجهان نحوه. الآن كان إيشيدو ينظر إليه أيضًا. قالوا شيئًا لبعضهما بعضًا وتحركت مروحتها. ثم عادا ينظران إليه. اتجه نحو الجدار بتوتر ليصبح أقل لفتًا للأنظار، لكن حارسًا رماديًا سد طريقه. قال الساموراي بأدب مشيرًا نحو الصف: «تفضل».

قال بلاكتورن وانضم إلى الصف: «حسنًا، شكرًا».

انحنى أولئك الذين كانوا أمامه، ومن أتى بعده انحنى أيضًا. بادلهم الانحناء. وسرعان ما عم الصمت ووجه الجميع أنظارهم نحوه.

بإحراج، تنحى الرجال والنساء الذين أمامه في الصف جانبًا. الآن لم يكن يفصل بينه وبين المنصة أحد. وقف جامدًا للحظة. ثم تقدم إلى الأمام في صمت مُطبق.

أمام المنصة، جثا وانحنى برسمية، مرة لها وأخرى لإيشيدو كما رأى الآخرين يفعلون. نهض مجددًا وهو يشعر بالخوف من احتمالية سقوط سيوفه أو أن يتعثّر ويفقد هيئته، لكن كل شيء مر على نحوٍ مرضٍ وبدأ يتراجع ببطء.

قالت: «انتظر رجاءً يا أنجين سان».

انتظر. بدأ أن تألقها قد ازداد، وكذلك أنوثتها. شعر بتلك الحسية الاستثنائية التي تحيط بها، دون أي جهد متعمد من جانبها.

كان صوتها حميميًا لأسباب مجهولة: «يقال إنك تتحدث لغتنا؟».

بدأ بلاكثورن مستخدمًا عبارته المحفوظة، متلعثمًا قليلًا بسبب توتره: «أرجو أن تعذريني يا صاحبة السمو. أعتذر لكن يجب أن أستخدم كلمات بسيطة وأطلب منك بكل احترام أن تستخدمى كلمات بسيطة جدًا معي حتى يكون لي شرف فهمك».

كان يعلم أن حياته قد تعتمد بسهولة على إجاباته دون أدنى شك. كان كل الاهتمام في الغرفة منصبًا عليهما الآن. حينها لاحظ يابو يقترب بحذر عبر الحشد. تابع: «اسمحي لي أن أهنئك بيوم ميلادك وأدعو لك بأن تعيشي لتتمتعي بألف عام آخر؟».

قالت السيدة أوتشيبا بإعجاب واضح: «هذه ليست كلمات بسيطة يا أنجين سان».

- أرجو المَعذرة يا صاحبة السمو. تعلّمت ذلك ليلة البارحة. الطريقة الصحيحة لقولها، أليس كذلك؟
- مَنْ الذي علّمك ذلك؟
- أوراها نو تاداماسا، تابعي.

قطبت حاجبيها ثم نظرت إلى إيشيدو، الذي انحنى نحوها وتحدث بسرعة لم يستطع بلاكثورن التقاط شيء منها سوى كلمة «سهام».

- آه، الكاهن المسيحي المتمرد الذي قُتل ليلة البارحة على سفينتك؟
- عذرًا يا صاحبة السمو؟
- الرجل... الساموراي الذي قُتل، أليس كذلك؟ الليلة الماضية على السفينة. هل تفهم؟
- أعتذر للغاية. نعم، هو.

ألقي بلاكثورن نظرة سريعة على إيشيدو، ثم عاد بنظره نحوها وتابع: «أرجو المَعذرة يا صاحبة السمو، أطلب الإذن لتحية القائد الزعيم».

- حسنًا، لديك الإذن.

قال بلاكثورن بأدب مدروس: «مساء الخير، القائد الزعيم. آخر مرة التقينا كنت غاضبًا جدًا. أعتذر للغاية».

أجاب إيشيدو بانحناءة مقتضبة: «نعم، كنت كذلك. وغير مهذب للغاية. أتمنى ألا تغضب الليلة أو في أي ليلة أخرى».

- كنت غاضبًا جدًا في تلك الليلة، أرجو المَعذرة.

- هذا الغضب أمر معتاد بين الهمج، أليس كذلك؟

كان مثل هذا التصرف الوقح العلني تجاه ضيف أمرًا سيئًا للغاية. التفت بلاكتورن للحظة نحو السيدة أوتشيبا ورأى في وجهها بعض الدهشة أيضًا. فخاطر وقال: «القائد الزعيم، أنت محق تمامًا. الهمج لديهم هذا الغضب دائمًا. لكن أعذر، الآن أنا ساموراي -هاتاموتو- وهذا شرف عظيم، عظيم جدًا لي. لم أعد همجيًا». استخدم صوته الجهوري الخاص بالبحارة الذي يملأ كل أركان الغرفة دون أن يصيح: «الآن أفهم آداب الساموراي... وقليل عن البوشيديو. والوا. لم أعد همجيًا، أرجو المَعذرة. أليس كذلك؟».

تحدث بالكلمة الأخيرة كتحذُّر، بلا خوف. كان يعلم أن اليابانيين يفهمون الذكورية والفخر ويقدرّونهما.

ضحك إيشيدو: «إنن، ساموراي أنجين سان». أصبح صوته مرحًا الآن: «نعم، أقبل اعتذارك. الشائعات عن شجاعتك صحيحة. جيد، جيد جدًا. يجب أن أعذر أيضًا. أمر مريع أن يقوم رونين قذر بمثل هذا الفعل، هل تفهم؟ الهجوم في الليل؟».

- نعم، أفهم يا سيدي. سيئ للغاية. أربعة رجال قُتلوا. واحد من رجالي، وثلاثة من الرماديين.

- أنصت، سيئ، سيئ جدًا. لا تقلق يا أنجين سان. لن يحدث المزيد.

نظر إيشيدو إلى الغرفة بتأمل. وكان الجميع يفهمه بوضوح تام: «الآن أنا أعطى أوامر للحراس. هل تفهم؟ الحراس حذرون جدًا. لا مزيد من محاولات الاغتيال. أبدًا. ستكون محميًا جيدًا الآن. آمن تمامًا في القلعة».

- شكرًا لك. أعذر عن الإزعاج.

- لا يوجد إزعاج. أنت مهم، أليس كذلك؟ أنت ساموراي. لك مكانة خاصة مع الزعيم توراناغا. لن أنسى... لا تخف أبدًا.

شكر بلاكتورن إيشيدو مجددًا ثم التفت إلى السيدة أوتشيبا: «يا صاحبة السم، في بلادي لدينا ملكة. أرجو المَعذرة على لغتي اليابانية السيئة... نعم، في بلادي تحكمنا ملكة. ولدينا عادة تقديم هدية عيد ميلاد للسيدة. حتى الملكة». أخرج من جيب كمّه زهرة كامليا وردية كان قد قطفها من شجرة في

الحديقة. وضعها أمامها وهو يخشى أنه قد تجاوز حدوده: «أرجو المَعذرة إذا كان تقديمها لا يتماشى مع آداب السلوك».

نظرت إلى الزهرة. وخمسائة شخص ينتظرون بترقب ليروا كيف ستستجيب لجرأة وبسالة هذا الهمجي... والفخ الذي ربما نصبه لها بغير قصد.

قالت ببطء: «أنا لست ملكة يا أنجين سان. أنا فقط أم الوريث وأرملة الزعيم تايكو. لا أستطيع قبول هديتك كملكة لأنني لست ملكة، ولا أستطيع أن أكون ملكة، ولا أدعي أنني ملكة، ولا أرغب في أن أكون ملكة». ثم ابتسمت للحضور وقالت للجميع: «لكن كسيدة في عيد ميلادها، ربما أستطيع طلب إذنكم لقبول هدية أنجين سان؟».

انفجر الحضور تصفيقًا. انحنى بلاكثورن وشكرها، وقد فهم فقط أن الهدية قُبِلت. وعندما عم الصمت مجددًا، نادى السيدة أوتشيبا: «ماريكو سان، تلميذك يشرفك، أليس كذلك؟».

كانت ماريكو تتقدم بين الضيوف وإلى جانبها شاب. تعرف بلاكثورن على كيريتسوبو والسيدة سازوكو بين الحاضرين. ورأى الشاب يبتسم لفتاة صغيرة، ثم يلحق بماريكو بارتباك. قال بلاكثورن: «مساء الخير يا سيدة تودا». ثم أضاف بخطورة بالغة اللاتينية، منتشياً بنجاحه: «المساء أجمل بوجودك».

أجابت ماريكو باليابانية وقد احمرّت وجنتاها: «شكرًا لك يا أنجين سان». تقدمت نحو المنصة، بينما بقي الشاب داخل دائرة الحضور. انحنى ماريكو لأوتشيبا: «لم أفعل شيئًا يُذكر يا أوتشيبا ساما. كل الفضل يعود لأنجين سان بالكامل وكتاب الكلمات الذي أهداه له الآباء المسيحيون».

- نعم، كتاب الكلمات.

جعلت أوتشيبا بلاكثورن يعرضه عليها، وشرحه لها بالتفصيل بمساعدة ماريكو. كانت منبهرة، وكذلك إيشيدو. قالت: «علينا الحصول على نسخ يا زعيم. أرجو أن تأمرهم بإعطائنا مائة نسخة من الكتب. بهذا سيتمكن شبابنا من تعلم لغة الهمج قريبًا، أليس كذلك؟».

ضحك إيشيدو: «بلى. فكرة جيدة يا سيدتي. كلما أسرعنا في الحصول على مترجمين خاصين بنا، كان ذلك أفضل. لنندع المسيحيين يكسرون احتكارهم بأنفسهم، أليس كذلك؟».

قال ساموراي أشيب الشعر في الستينات من عمره كان يقف في مقدمة الضيوف: «لا يحتكر المسيحيون شيئاً يا زعيم. نحن نطلب من الآباء المسيحيين... بل ونصرُّ على أن يكونوا مترجمين ومفاوضين لأنهم الوحيدون الذين يمكنهم التواصل مع كلا الجانبين ويثق بهما كلا الجانبين. لقد بدأ الزعيم جورودا هذا التقليد، أليس كذلك؟ ثم استمر الزعيم تايكو».

قال إيشيدو: «بالطبع يا زعيم كياما، لم أقصد أي إساءة للدايميو أو الساموراي الذين أصبحوا مسيحيين. كنت أشير فقط إلى احتكار الكهنة المسيحيين. سيكون أفضل لنا لو أن شعبنا، وليس الكهنة الأجانب -أي كهنة كانوا- يتحكمون في تجارتنا مع الصين».

قال كياما: «لم تحدث أي حالة احتيال قط يا زعيم. الأسعار عادلة، والتجارة سليمة وفعالة، والآباء يتحكمون في شعبهم. فمن دون الهمج الجنوبيين، لن يوجد حرير ولا تجارة مع الصين. من دون الآباء قد تواجهنا المشكلات. الكثير من المشكلات، آسف. أرجو المَعذرة على ذكر ذلك».

قالت السيدة أوتشيبا: «يا زعيم كياما، أنا واثقة أن الزعيم إيشيدو يشرفه تصحيحك له، أليس كذلك يا زعيم؟ ماذا سيكون المجلس دون مشورة الزعيم كياما؟».

قال إيشيدو: «بالطبع».

انحنى كياما بجمود وهو غير مستاء. نظرت أوتشيبا نحو الشاب ولوَّحت بمروحتها: «ماذا عنك يا ساروجي سان؟ ربما ترغب في تعلم لغة الهمج؟».

احمرَّ وجه الفتى تحت أنظارهم. كان نحيفاً ووسيمًا، وكان يحاول جاهداً أن يبدو أكثر رجولة من عمره الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة تقريباً: «أمل ألا أضطر إلى ذلك يا أوتشيبا ساما، لا... لكن إذا أُمرْتُ فسأحاول. نعم، سأحاول جاهداً».

ضحكوا على براءته. قالت ماريكو بفخر باليابانية: «أنجين سان، هذا ابني ساروجي».

كان بلاكثورن يركز على حديثهم، لكن معظم الكلمات كانت سريعة ودرجة بما يفوق قدرته على الفهم. لكنه سمع «كياما»، فانتابه شعور بالقلق. انحنى لساروجي وتلقى انحناءة رسمية بالمثل. قال: «إنه رجل رائع، أليس كذلك؟ أنتِ محظوظة لامتلاكك ابناً رائعاً مثله يا ماريكو ساما».

كان ينظر إلى يد الشاب اليمنى التي بها التواء دائم. تذكر حينها أن ماريكو أخبرته ذات مرة أن ولادة ابنها كانت طويلة وصعبة. فكر: فتى مسكين، كيف سيتمكن من استخدام السيف؟ صرف نظره عنه. لم يلحظ أحد اتجاه نظره سوى ساروجي. رأى في وجه الشاب إحساساً بالحر وال ألم.

قال لماريكو: «أنتِ محظوظة لامتلاكك ابناً رائعاً مثله، ولكن بالتأكيد من المستحيل يا ماريكو ساما، أن يكون لك ابن كبير بهذا العمر... ليست لديك سنوات كافية، أليس كذلك؟».

قالت أوتشيبا: «هل أنت دائماً بهذه اللباقة يا أنجين سان؟ هل تقول دائماً مثل هذه الكلمات الذكية؟».

- عذراً؟

- دائماً بهذا الذكاء؟ المجاملات؟ هل تفهم؟

- لا، آسف، أرجو المَعذرة.

كان رأس بلاكثورن يؤلمه من شدة التركيز. ورغم ذلك، عندما أخبرته ماريكو ما قيل، أجاب بجدية ساخرة: «أعتذر يا ماريكو ساما. إذا كان ساروجي سان ابنك حقاً، أرجو منك أن تخبري السيدة أوتشيبا أنني لم أكن أعلم أن السيدات هنا يتزوجن في سن العاشرة».

ترجمت. ثم أضافت شيئاً جعلهم يضحكون.

- ماذا قلت؟

لاحظت ماريكو نظرات كياما الحادة نحو بلاكثورن: «أرجو المَعذرة يا زعيم كياما، هل لي أن أقدم لك أنجين سان؟».

أقرَّ كياما بانحناءة بلاكثورن الدقيقة بأدب. قال: «يُقال إنك تدَّعي أنك مسيحي؟».

- عذراً؟

لم يكلف كياما نفسه عناء تكرار كلامه، فترجمته ماريكو.

قال بلاكثورن باليابانية: «أعتذر يا زعيم كياما. نعم، أنا مسيحي ولكن من طائفة مختلفة».

- طائفتك غير مرحب بها في أراضِي. ولا في ناجازاكي -أو كيوشو، كما أظن- ولا في أي أراضٍ يحكمها دايميو مسيحي.

حافظت ماريكو على ابتسامتها. كانت تتساءل إذا كان كياما قد أمر شخصياً بمحاولة الاغتيال من الأמידا، وكذلك الهجوم الليلة الماضية. ترجمت كلامه مقللة من حدة وقاحة كياما، وجميع من في الغرفة يستمعون بتركيز.

قال بلاكثورن مباشرة لكياما: «أنا لست كاهناً يا زعيم. إذا كنت في أرضك... فقط للتجارة. لا حديث عن الدين ولا تعليم. أطلب التجارة فقط، بكل احترام».

- أنا لا أرغب في تجارتك. لا أرغب في وجودك في أراضِي. أنت محظور من أراضِي تحت طائلة الموت. هل تفهم؟
قال بلاكثورن: «نعم، أفهم. أعتذر».

- جيد. (استدار كياما نحو إيشيدو بتعالٍ): يجب علينا أن نستبعد هذه الطائفة وهؤلاء الهمج تماماً من الإمبراطورية. سأقترح هذا في الاجتماع القادم للمجلس. يجب أن أقول بصراحة إنني أعتقد أن الزعيم توراناغا كان مخطئاً في تعيين أي أجنبي -وخصوصاً هذا الرجل- كساموراي. إنه سابقة خطيرة جداً.

- بالتأكيد هذا غير مهم. كل أخطاء الزعيم الحالي للكانتو ستُصح قريباً. أليس كذلك؟

قال كياما بوضوح: «الجميع يرتكبون الأخطاء يا زعيم. وحده الرب متطلع على كل شيء وهو الكمال. الخطأ الحقيقي الوحيد الذي ارتكبه الزعيم توراناغا هو وضع مصلحته الخاصة فوق مصلحة الوريث».

قال إيشيدو: «نعم».

قالت ماريكو: «أرجو المعذرة، لكن هذا غير صحيح. أعتذر لكنكما مخطئان بشأن سيدي».

استدار كياما نحوها بأدب: «يحق لك اتّخاذ هذا الموقف يا ماريكو سان. لكن رجاءً دعينا لا نناقش ذلك الليلة. إذن يا زعيم، أين الزعيم توراناغا الآن؟ ما آخر أخبارك عنه؟».

- عن طريق الحمامة الزاجلة بالأمس، سمعت أنه كان في ميشيما. الآن أحصل على تقارير يومية عن تحركاته.

سأل كياما: «جيد. إذن خلال يومين سيغادر حدوده؟».

- نعم. الزعيم إيكافا جيكيو جاهز لاستقباله بما يناسب مكانته.

ابتسم كياما لأوتشيبا فقد كان مولع بها: «جيد. في ذلك اليوم يا سيدتي، تكريمًا للمناسبة، ربما تطلبين من الوريث أن يسمح لأعضاء المجلس بأن ينحنوا أمامه؟».

أجابت وسط التصفيق: «سيكون شرفًا للوريث يا سيدي. وبعد ذلك ربما تكونون جميعًا ضيوفه في مسابقة شعرية. ربما يكون الأوصياء هم القضاة؟».

ازداد التصفيق.

- شكرًا لكم، لكن رجاءً، ربما تكونين أنتِ والأمير أوجاكي وبعض السيدات القضاة.

- حسنًا، إذا أردت ذلك.

سأل كياما وهو غاية في السرور، فقد كان شهيرًا بشعره كما اشتهر بفروسيته وشراسته في الحرب: «حسنًا يا سيدتي، ما الموضوع المقترح؟ وما السطر الأول من القصيدة؟».

قالت أوتشيبا: «رجاءً يا ماريكو سان، هل يمكن أن تجيبي الزعيم كياما؟». أبدى الكثيرون هناك إعجابهم ببراعتها، فهي شاعرة متواضعة، بينما ماريكو كانت شهيرة بمهارتها الشعرية.

كانت ماريكو سعيدة بأن الوقت قد حان للبدء. فكرت للحظة ثم قالت: «يجب أن يكون عن اليوم يا سيدة أوتشيبا، ويكون السطر الأول: «على غصن بلا أوراق»».

أوتشيبا والجميع أثنوا على اختيارها. أصبح كياما مرحًا الآن وقال: «ممتاز، لكن علينا أن نبذل جهدًا كبيرًا لننافسك يا ماريكو سان».

- أمل أن تعذرني يا سيدي، لكنني لن أشارك.

ضحك كياما: «بالطبع ستشاركين. أنتِ من أفضل الشعراء في الإمبراطورية. لن تكون المسابقة نفسها من دونك».

- آسفة يا سيدي، أرجو المعذرة، لكنني لن أكون هنا.

- لا أفهم.

قالت أوتشيبا: «ماذا تعنين يا ماريكو تشان؟».

قالت ماريكو: «أرجو أن تعذريني يا سيدتي، لكنني سأغادر أوساكا غدًا مع السيدة كيريتسوبو والسيدة سازوكو».

اختفت الابتسامة من وجه إيشيدو: «إلى أين؟».

- للقاء زعيمنا الإقطاعي يا سيدي.

- هو... الزعيم توراناغا سيكون هنا خلال بضعة أيام، أليس كذلك؟

- لقد مرت شهور منذ أن رأيت السيدة سازوكو زوجها، ولم يحظَ الزعيم توراناغا بعد بفرصة رؤية ابنه الجديد. من الطبيعي أن ترافقنا السيدة كيريتسوبو. لقد مضى أيضًا وقت طويل منذ أن رأى سيدي نسائه.

- الزعيم توراناغا سيصل قريبًا، لذا ليس من الضروري الذهاب للقاءه.

- لكنني أعتقد أن ذلك ضروري يا زعيم.

قال إيشيدو بحدة: «لقد وصلت للتو وكنا نتطلع إلى رفقتك يا ماريكو سان، وخاصة السيدة أوتشيبا. وأتفق مع الزعيم كياما؛ بالتأكيد يجب أن تشاركي في المسابقة».

- آسفة، لكنني لن أكون هنا.

- من الواضح أنك متعبة يا سيدتي. لقد وصلت للتو. وبالتأكيد هذا ليس الوقت المناسب لمناقشة مثل هذا المسألة الخاصة. (استدار إيشيدو إلى أوتشيبا): ربما يجب عليكِ تحية بقية الضيوف يا سيدة أوتشيبا.

قالت أوتشيبا بارتباك: «نعم... نعم، بالطبع».

وعلى الفور، بدأ الصف يتشكل بانضباط وبدأت الأحاديث المتوترة، لكن عاد الصمت حين قالت ماريكو: «شكرًا لك يا زعيم. أوافقك الرأي، لكن هذه ليست مسألة خاصة، ولا يوجد شيء لمناقشته. سأغادر غدًا لتقديم احترامي لزعمي الإقطاعي، مع سيداته».

قال إيشيدو ببرود: «أنتِ هنا يا سيدتي، بناءً على دعوة شخصية من ابن السماء، إلى جانب ترحيب الأوصياء. أرجو أن تتحلّي بالصبر. سيصل زعيمك قريبًا جدًا».

- أوافقك الرأي يا سيدي. لكن دعوة جلالته حُددت يوم الثاني والعشرين. وهي لا تأمرني -ولا أي أحد- بالبقاء في أوساكا حتى ذلك الحين. أم أن الأمر كذلك؟

- لقد نسيتِ آدابك يا سيدة تودا.

- أرجوكِ اعذرني، لم يكن ذلك مقصدي إطلاقًا. آسفة، أعتذر. (استدارت ماريكو نحو أوجاكي رجل الحاشية): سيدي، هل تتطلب دعوة جلالته بقائي هنا حتى وصوله؟

كانت ابتسامة أوجاكي ثابتة: «الدعوة موجهة لليوم الثاني والعشرين من هذا الشهر يا سيدتي. وتتطلب حضوركِ حينها».

- شكرًا لك يا سيدي. (انحنى ماريكو ثم واجهت المنصة): الدعوة تتطلب حضوري حينها يا زعيم. وليس قبل ذلك. لذا سأغادر غدًا.

- أرجوكِ تحلي بالصبر يا سيدتي. لقد رحب بك الأوصياء ويوجد العديد من التحضيرات التي سيحتاجون إلى مساعدتك فيها، تحضيرًا لوصول جلالته. الآن يا سيدة أوتشي...

- آسفة يا سيدي، لكن أوامر زعمي الإقطاعي لها الأولوية. يجب أن أغادر غدًا.

- لن تغادري غدًا، ويطلب منك، لا، بل يُرجى منك يا ماريكو سان أن تشاركي في مسابقة السيدة أوتشيبا. الآن يا سيدة...

- إذن أنا محتجزة هنا... ضد إرادتي؟

قالت أوتشيبا: «ماريكو سان، لنضع الأمر الآن، رجاء؟».

- آسفة يا أوتشيبا ساما، لكنني شخص بسيط. لقد أعلنتُ صراحةً أن لدي أوامر من زعمي الإقطاعي. إذا لم أستطع تنفيذها، يجب أن أعرف السبب. يا زعيم، هل أنا محتجزة هنا حتى اليوم الثاني والعشرين؟ وإذا كان الأمر كذلك، فمن صاحب هذا الأمر؟

أخبرها إيشيدو بحذر محاولاً جعلها تخضع: «أنتِ ضيفة مكرمة. أكرر يا سيدتي، زعيمك الإقطاعي سيصل قريبًا جدًا».

شعرت ماريكو بقوته وحاولت مقاومتها: «نعم، لكن أعذر، أكرر سؤالي باحترام: هل أنا محتجزة في أوساكا خلال الأيام الثمانية عشر القادمة، وإذا كان الأمر كذلك، فمن هو صاحب هذا الأمر؟».

حافظ إيشيدو على نظره مثبّتاً عليها وقال: «لا، أنتِ لست محتجزة».

قالت ماريكو: «شكراً لك يا سيدي. أرجو المَعذرة على حديثي المباشر».

بدأت بعض السيدات في الغرفة يلتفتن إلى جاراتهن، وتبادلن الهمسات بصوت مسموع عما كان كل المحتجزين في أوساكا يفكرون فيه: «إذا استطاعت هي أن تغادر، إذن يمكنني أنا أيضاً، أليس كذلك؟ وأنتِ أيضاً، أليس كذلك؟ سأغادر غداً... يا له من أمر رائع».

قطع صوت إيشيدو الهمسات التي بدأت تنتشر: «لكن يا سيدة تودا، بما أنكِ اخترتِ التحدث بهذه الطريقة المتعالية، أرى أنه من واجبي أن أطلب من المجلس إصدار رفض رسمي... في حالة أن يشارك الآخرون هذا الفهم الخاطئ». ابتسم بكآبة في الصمت المطبق: «حتى ذلك الوقت، ستبقين مستعدة للإجابة عن أسئلتهم وتلقّي الحكم».

قالت ماريكو: «سيكون لي الشرف يا سيدي، لكن واجبي الأول هو لزيمي الإقطاعي».

- بالطبع، ولكن هذا سيكون لبضعة أيام فقط.
- آسفة يا سيدي، لكن واجبي الأول هو لزيمي الإقطاعي للأيام القليلة القادمة.
- ستتخلين بالصبر يا سيدتي. لن يستغرق الأمر سوى بعض الوقت. هذا الأمر منتهٍ. الآن يا زعيم كي...
- أعذر لكن لا يمكنني تأجيل مغادرتي ولو لبعض الوقت.
- صاح إيشيدو: «هل ترفضين طاعة مجلس الوصاية؟».
- قالت ماريكو بفخر: «لا يا سيدي، إلا إذا تجاوزوا واجبي تجاه زيمي الإقطاعي، وهو واجب الساموراي الأسمى».
- ستبقين مستعدة لمقابلة الأوصياء بصبر واحترام.
- أعذر لكن زيمي الإقطاعي أمرني بمرافقة سيداته للقاءه في الحال.
- ثم أخرجت ماريكو لفافة من كمّها وقدمتها إلى إيشيدو برسمية.

فتحها وتفحصها، ثم رفع رأسه وقال: «حتى مع ذلك، ستنظرين حكم الأوصياء».

نظرت ماريكو بأمل إلى أوتشيبا، لكن ما رآته كان مجرد رفض صارم. ثم نظرت إلى كياما، لكنه كان أيضًا صامتًا وغير متأثر.

بدأت تقول: «أرجو أن تعذرني يا زعيم، لكن لا توجد حرب. سيدي يطيع الأوصياء، لذا للأيام الثمانية عشر القادمة...».

- الأمر منته.

- الأمر منته يا زعيم عندما تكون لديك الأخلاق لتسمح لي بإنهاء حديثي. أنا لست فلاحا يُداس عليها. أنا تودا ماريكو نو بونتارو نو هيرو ماتسو، ابنة الزعيم أكييتشي جينساي، من سلالة تاكاشيما، ونحن ساموراي منذ ألف عام، وأقول إنني لن أكون أبدًا أسيرة أو رهينة أو محتجزة. للأيام الثمانية عشر القادمة وحتى اليوم المحدد من قبل جلالته، أنا حرة في الذهاب كما أشاء... وكذلك أي شخص آخر.

- سيد... سيدنا التايكو كان يومًا فلاحًا. الكثير... الكثير من الساموراي فلاحون... كانوا فلاحين. كل دايميو كان في الماضي فلاحًا. حتى أول تاكاشيما. كان الجميع فلاحًا في الأصل. استمعي جيدًا: ستنظرين رضا الأوصياء.

- لا. آسفة، لكن واجبي الأول هو طاعة زيمي الإقطاعي. بدأ إيشيدو يتجه نحوها بغضب.

رغم أن بلاكثورن لم يفهم سوى القليل مما قيل، فإن يده اليمنى انزلت دون أن يلاحظ إلى كمة الأيسر ليُحضر سكينه المخفي. وقف إيشيدو أمامها: «أنت...».

وفي تلك اللحظة، حدثت حركة عند المدخل. دخلت خادمة بعينين دامعتين عبر الحشد وركضت نحو أوتشيبا. وأجهشت بالبكاء: «أرجو المعذرة يا سيدتي، لكنها يودوكو ساما... تطلب رؤيتك، إنها... يجب أن تسرعني، الوريث موجود بالفعل هناك...».

نظرت أوتشيبا بقلق إلى ماريكو ثم إلى إيشيدو، وإلى الوجوه المترقبة. انحنت نصف انحناءة لضيوفها وغادرت بسرعة. تردد إيشيدو وقال: «سأتعامل معك لاحقًا يا ماريكو سان».

ثم تبع أوتشيبا بخطوات ثقيلة على التاتامي.

وبعد مغادرته، عادت الهمسات لتملأ المكان. وقرعت الأجراس معلنة تغيير الساعة.

اقترب بلاكثورن من ماريكو وسألها: «ماذا يحدث يا ماريكو سان؟». ظلت تحقق إلى المنصة بلا وعي. رفع كياما يده المتشنجة عن مقبض سيفه وأرخاها: «ماريكو سان».

- نعم؟ نعم يا سيدي؟

- أقترح عليك العودة إلى منزلك. ربما يُسمح لي بمحادثتك لاحقًا... لنقل عند ساعة الخنزير؟

- نعم، نعم، بالطبع. أرجو... أرجو المَعذرة، لكن كان عليّ أن... تلاشت كلماتها.

قال كياما: «إنه يوم مشؤوم يا ماريكو سان. ليحفظك الرب في رعايته». أدار ظهره إليها وتحدث إلى الحاضرين بسُلطة: «أقترح أن نعود إلى منازلنا لننتظر... لننتظر ونصلي أن يأخذ الرب السيدة يودوكو سريعًا وبسهولة وبكرامة إلى سلامه، إذا حان وقتها». ألقى نظرة على ساروجي الذي كان لا يزال متسمّرًا: «تعال معي».

خرج وبدأ ساروجي في اتّباعه، رغم عدم رغبته في ترك والدته، لكنه كان مجبرًا بسبب الأمر ووقع نظرات الجميع عليه.

انحنى ماريكو نصف انحناء للحضور وبدأت في المغادرة. لعقت كيري شفتيها الجافتين. كانت السيدة سازوكو بجانبها، متخوفة بشدة. أمسكت كيري بيد السيدة سازوكو وتبعتا ماريكو. تقدم يابو وبلاكثورن وسارا خلفهما، مدركين بوضوح أنهما الوحيدون من الساموراي الحاضرين الذين يرتدون زي توراناغا.

في الخارج، كان ينتظرهم الرماديون.

هاجمها يابو: «لكن ما الذي دفعك لاتخاذ مثل هذا الموقف بحق جميع الآلهة؟ غبية، أليس كذلك؟».

قالت ماريكو، محاولة إخفاء السبب الحقيقي، ومتمنية أن يتركها يابو بسلام، وغاضبة من تصرفاته الوقحة: «أعتذر، لقد حدث الأمر فجأة يا سيدي. في لحظة كان احتفالاً بعيد ميلاد، ثم... لا أعلم. أرجو أن تعذرني يا يابو ساما. أرجو أن تعذرني يا أنجين سان».

حاول بلاكثورن قول شيء ما مجدداً، لكن يابو قاطعه مجدداً، فاستند إلى إطار النافذة وهو غاضبٌ تماماً، ورأسه ينبض من الجهد الذي يبذله لفهم ما يحدث.

قالت ماريكو: «أعتذر يا يابو ساما».

فكرت: كم أن الرجال متعبون. يحتاجون أن يُشرح لهم كل شيء بتفاصيل دقيقة. لا يستطيعون حتى رؤية الشعيرات التي على جفونهم.

- لقد بدأت عاصفة ستبتلعنا جميعاً. غبية، أليس كذلك؟

- نعم، ولكن ليس من الصواب أن نبقي محتجزين، والزعيم توراناجا بالفعل أصدر لي أوامر بأن...

- تلك الأوامر جنونية. لا بد أن الشياطين سيطرت على عقله. عليك الاعتذار والتراجع. الآن سيصبح الأمن أكثر إحكاماً. من المؤكد أن إيشيدو سيلغي تصاريحنا للمغادرة وقد دمرت كل شيء. (نظر إلى بلاكثورن) والآن، ماذا نفعل؟

- عذراً؟

كان الثلاثة قد وصلوا للتو إلى غرفة الاستقبال الرئيسية في منزل ماريكو الذي يقع ضمن الحلقة الخارجية من التحصينات. رافقهم الرماديون، وهناك عدد أكبر من المعتاد متمركزون الآن خارج بوابتها. كانت كيري والسيدة سازوكو قد ذهبتا إلى مقر إقامتهما الخاص مع حرس شرفي آخر من الرماديين، ووعدت ماريكو بأن تنضم إليهما بعد لقاءها مع كياما.

قالت سازوكو بقلق: «ولكن الحراس لن يسمحوا لك بذلك يا ماريكو سان».

قالت: «لا تقلقي. لم يتغير شيء. يمكننا التحرك بحرية داخل القلعة، لكن برفقة حراس».

- سيمنعونك. أوه، لماذا فعلت...

قالت كيري دون خوف: «ماريكو سان محقة يا صغيرتي. لم يتغير شيء. سنراك قريبًا يا ماريكو تشان».

ثم قادت كيري الطريق داخل جناحهم في القلعة، وأغلق الحراس البنيون البوابة المحصنة، فتنفست ماريكو الصعداء واتجهت إلى منزلها مع يابو وبلاكثورن.

الآن كانت تتذكر كيف أنها حين كانت واقفة هناك وحدها، رافعة الراية بمفردها، رأت يد بلاكثورن اليمنى تستعد لرمي السكين، واكتسبت بذلك قوة أكبر. فكرت: نعم يا أنجين سان. أنت الشخص الوحيد الذي كنت أعلم أنني أستطيع الاعتماد عليه. كنت هناك عندما احتجت إليك.

نظرت إلى يابو الذي جلس متربّعًا قبالتها، ويصر على أسنانه غضبًا. فاجأها كون يابو اتخذ موقفًا علنيًا في دعمها عندما اتبعها للخارج. وبسبب دعمه لها، ولأن فقدانها لأعصابها معه لن يجدي نفعًا، قررت تجاهل تصرفاته الوقحة وبدأت تتعامل معه بذكاء: «أرجو أن تعذرني على غبائي يا يابو ساما». قالت بصوت نادم ممزوج بدموع: «بالطبع أنت محق. أعذر، أنا مجرد امرأة غبية».

- أوافقك الرأي. من الغباء أن تعارضي إيشيدو في عشه، أليس كذلك؟
- بلى، أعذر، أرجو أن تعذرني. هل يمكنني تقديم الساكي أو الشاي لك؟
صفقت ماريكو بيديها. وعلى الفور فُتح الباب الداخلي وظهرت تشيموكو بشعر أشعث ووجه متورم من البكاء. قالت ماريكو: «أحضري الشاي والساكي لضيفي. والطعام. واجعلي نفسك حسنة المظهر. كيف تجرئين على الظهور بهذا الشكل! ماذا تظنين هذا المكان، كوخ فلاحين؟ أنت تخجلينني أمام الزعيم كاسيجي».

هربت تشيموكو باكية.

- أعذر يا سيدي. أرجو أن تعذر وقاحتها.
- هذا غير مهم، أليس كذلك؟ ماذا عن إيشيدو؟ يا سيدتي... لقد كان حديثك عن «الفلاح» سهمًا أصاب هدفه؛ لقد أذى القائد الزعيم العظيم. لقد صنعتِ عدوًا شرسًا هناك. وسحقت كبرياءه أمام الجميع.
- هل تعتقد ذلك؟ أرجو المعذرة، لم أتعمد إهانته.

- إنه فلاح، كان وسيظل كذلك، ولطالما كان يكرهنا نحن الساموراي الحقيقيين.

- كم أنت ذكي يا سيدي، لمعرفة ذلك. أشكر على إخباري.

انحنت ماريكو وبدا كأنها تمسح دموعها ثم أضافت: «هل يمكنني القول إنني أشعر بالحماية الآن... قوتك... لولاك يا زعيم كاسيجي، أعتقد أنني كنت سأفقد وعيي».

قال يابو وقد هدأ قليلاً: «من الغباء أن تهاجمي إيشيدو أمام الجميع».

- نعم، أنت محق. من المؤسف ألا يكون جميع قادتنا أقوياء وأذكياء مثلك يا سيدي، وإلا لما كان الزعيم توراناغا في مثل هذه الورطة.

- أوافقك الرأي. لكنك ما زلت قد وضعتنا في فوضى حتى أعناقنا.

- أرجو المَعذرة. نعم، إنه خطئي بالكامل.

تظاهرت ماريكو بأنها تحبس دموعها بشجاعة، ونظرت إلى الأسفل وهمست: «شكراً لك يا سيدي، على قبول اعتذاري. أنت كريم جداً».

أوماً يابو معتقداً أن الثناء مستحق وأن تواضعها ضروري، وأنه لا مثل له. اعتذرت ماريكو مجدداً، وهذأت من غضبه وتملقته، حتى أصبح ليناً. أضافت: «هل تسمح لي بشرح غبائي لأنجين سان؟ ربما يستطيع اقتراح مخرج من...».

وتركت كلماتها تتلاشى بندم.

- نعم. حسناً.

انحنت ماريكو شاكرة، ثم التفتت إلى بلاكثورن وتحدثت بالبرتغالية: «أنصت إليّ يا أنجين سان، أنصت ولا تطرح أسئلة الآن. أعتذر لكن كان يجب أن أهدئ من غضب هذا الوقح أولاً... هل هكذا تقولها؟».

أخبرته سريعاً ما قيل، ولماذا غادرت أوتشيبا بسرعة.

قال ونظراته تتفحصها: «هذا سيئ. أليس كذلك؟».

- بلى. الزعيم يابو يطلب مشورتك. ما الذي يجب فعله للتغلب على الفوضى التي تسبب بها غبائي لكليكما؟

- أي غباء؟

كان بلاكتورن يراقبها، وزاد شعورها بالارتباك. نظرت إلى الأسفل نحو الحصير. ثم تحدث إلى يابو مباشرة: «لا أعلم بعد يا سيدي. الآن أفهم... الآن أفكر».

أجاب يابو بلهجة مريرة: «ما الذي يمكن التفكير فيه؟ نحن محتجزون». ترجمت ماريكو دون أن ترفع رأسها.

قال بلاكتورن: «هذا صحيح، أليس كذلك يا ماريكو سان؟ كان هذا هو الحال دائمًا».

- نعم، أعتذر.

التفت بعيدًا لينظر إلى الليل. كانت المشاعر موضوعة في حوامل على الجدران الحجرية التي تحيط بالحديقة الأمامية، تلاًل الضوء على الأوراق والنباتات التي سقيت لهذا الغرض. وغربًا، كانت البوابة المصفحة بالحديد يحرسها بعض البنيين.

سمعتة يقول باللاتينية دون أن يلتفت: «أنت، يجب أن أتحدث إليك على انفراد».

أجابت بينما أبقت وجهها بعيدًا عن يابو، غير واثقة بنفسها أيضًا: «أنت، نعم، وأنا كذلك. سأجرك الليلة». نظرت إلى يابو: «أنجين سان يوافقك الرأي يا سيدي، حول غبائي، أعتذر».

- ولكن ما فائدة ذلك الآن؟

قالت ماريكو بصوت عملي: «أنجين سان، في وقت لاحق من الليلة سأذهب إلى كيريتسوبو سان. أعلم أين توجد غرفتك، وسأجرك».

أبقى ظهره مواجهًا لها: «نعم. شكرًا لك».

قالت بتواضع: «يابو ساما، الليلة سأذهب إلى كيريتسوبو سان. إنها حكيمة... ربما يكون لديها حل».

قال يابو بنبرة حاسمة أثارت قلقها، وعيناه تتوهجان كالجمر: «يوجد حل واحد فقط. غداً ستعتذرين. وستبقين».

وصل كياما في الموعد المحدد. كان ساروجي معه، فشعرت بانقباض في قلبها.

- بعد تبادل التحيات الرسمية، قال كياما بجدية: «والآن، أرجو أن تشرحي لي السبب يا ماريكو تشان».
- ليس هناك حرب يا سيدي. لا ينبغي أن نكون محتجزين - ولا أن نُعامل كرهائن - لذا يجب أن أتمكن من الذهاب كما أشاء.
 - لا يتطلب الأمر أن تكوني في حرب لوجود رهائن. أنتِ تعرفين ذلك. كانت السيدة أوتشيبا رهينة في إيدو لضمان أمان سيدك هنا ولم يكن هناك حرب. الزعيم سودارا وعائلته رهائن مع أخيه اليوم، وهم ليسوا في حرب. أليس كذلك؟
 - أبقت عينيها منخفضتين.
 - يوجد الكثير هنا ممن هم رهائن لضمان الطاعة المخلصة لزعمائهم تجاه مجلس الوصاية، الحكام القانونيين للمملكة. هذا حكيم. إنه عُرف شائع. أليس كذلك؟
 - بلى يا سيدي.
 - جيد. والآن أرجو أن تخبريني بالسبب الحقيقي.
 - عذراً؟
 - قال كياما بحدة: «لا تتحالي عليّ. أنا لست فلاحاً أيضاً. أريد أن أعرف لماذا فعلتِ ما فعلته الليلة».
 - رفعت ماريكو عينيها وقالت: «أعتذر، ولكن القائد الزعيم أثار غضبي بتعجرفه يا سيدي. لديّ أوامر. لا ضرر من اصطحاب كيري والسيدة سازوكو لبضعة أيام للقاء سيدنا».
 - أنتِ تعلمين جيداً أن ذلك مستحيل. ويجب أن يعلم الزعيم توراناغا ذلك أيضاً.
 - أعتذر، ولكن سيدي أمرني. الساموراي لا يشك في أوامر زعيمه.
 - نعم. ولكنني أشك فيها لأنها غير منطقية. سيدك لا يتعامل مع غير المنطقية، ولا يرتكب أخطاء. وأصر على أنني لديّ الحق في استجوابك أيضاً.
 - أرجو المعذرة يا سيدي، لا يوجد شيء للنقاش.

- ولكن يوجد. يوجد ساروجي لنحدث عنه. وأيضًا حقيقة أنني عرفتكَ طوال حياتك، وقد كرمتك طوال حياتك. هيرو ماتسو ساما هو أعز أصدقائي الأحياء، وكان والدك صديقًا عزيزًا وحليفًا محترمًا لي، حتى الأيام الأربعة عشر الأخيرة من حياته.
- الساموراي لا يشكك في أوامر زعيمه الإقطاعي.
- الآن لديك خياران فقط يا ماريكو تشان. إما أن تعتذري وتبقي، وإما تحاولي المغادرة. وإذا حاولتِ المغادرة، فستُوقفين.
- نعم. فهمت.
- ستعتذرين غداً. سأدعو لاجتماع للأوصياء، وسيصدرون حكمًا بشأن هذه المسألة بأكملها. بعدها سيُسمح لك بالذهاب مع كيريتسوبو والسيدة سازوكو.
- أرجو المعذرة، كم سيستغرق ذلك من الوقت؟
- لا أعلم. بضعة أيام.
- أرجو المعذرة، لا أملك بضعة أيام. أنا مأمورة بالمغادرة في الحال.
- انظري إليّ. (امتثلت لأمره): أنا كياما أوكون نو أوداناجا، زعيم مقاطعات هيجو وساتسوما وأوسومي، وعضو مجلس الوصاية في اليابان، من سلالة فوجيموتو، وأكبر دايميو مسيحي في اليابان، أنا أطلب منك البقاء.
- أعتذر. زيمي الإقطاعي يمنعني من البقاء.
- ألا تفهمين ما أقول؟
- بلى يا سيدي. ولكن ليس لدي خيار، أرجو المعذرة.
- أشار نحو ابنها وقال: «خطبة حفيدتي وساروجي... لا أستطيع السماح باستمرارها إذا كنتِ في وضع شائن».
- أجابت ماريكو والبؤس بارٍ على عينيها: «نعم، نعم يا سيدي. أفهم ذلك».
- رأت اليأس في وجه ابنها: «أعتذر يا بني. لكن عليّ القيام بواجبي».
- بدأ ساروجي يقول شيئاً لكنه غير رأيه، وبعد لحظة قال: «أرجو المعذرة يا أمي، لكن أليس... أليس واجبك تجاه الوريث أكثر أهمية من واجبك تجاه الزعيم توراناغا؟ الوريث هو زعيمنا الإقطاعي الحقيقي، أليس كذلك؟».

فكرت في ذلك وقالت: «بلى يا بني. ولكن لا. الزعيم تورانا جا له سلطة عليّ، أما الوريث فلا».

- إذن ألا يعني ذلك أن الزعيم تورانا جا له سلطة على الوريث أيضًا؟
- لا، أعتذر.

- أرجو المعذرة يا أمي، لا أفهم، لكن يبدو لي أنه إذا أصدر الوريث أمرًا، فيجب أن يتفوق على أمر زعيمنا تورانا جا.
لم تجب عليه.

صاح كياما: «أجيبي».

- هل كانت هذه فكرتك يا بني؟ أم أن أحدًا وضعها في رأسك؟

عبس ساروجي محاولًا التذكر: «نحن... الزعيم كياما و... وسيدته... ناقشنا الأمر. وكذلك الأب الزائر. لا أتذكر. أعتقد أنني فكرت فيها بنفسي. الأب الزائر قال إنني كنت محقًا، أليس كذلك يا سيدي؟».

- قال إن الوريث أهم من الزعيم تورانا جا في المملكة. من الناحية القانونية. أرجو أن تجيبه مباشرة يا ماريكو سان.

قالت ماريكو: «لو كان الوريث رجلًا في سن الرشد، وكوامباكو، حاكمًا قانونيًا لهذه المملكة كما كان والده التايكو، لكنت أطعت أمره بدلًا من أمر الزعيم تورانا جا في هذا. لكن يايمون طفل، فعليًا وقانونيًا، وبالتالي فهو غير مؤهل. قانونيًا. هل يجيبك ذلك؟».

- لكن... لكنه لا يزال الوريث، أليس كذلك؟ الوصاة يصغون إليه... والزعيم تورانا جا يحترمه. ما الذي يعنيه... عام أو بضعة أعوام يا أمي؟
إذا لم تعتذ... أرجو المعذرة، لكنني خائف عليك.

كانت شفتا الفتى ترتجفان.

أرادت ماريكو أن تمد يدها لتعانقه وتحميه، لكنها لم تفعل: «أنا لست خائفة يا بني. لا أخشى شيئًا على هذه الأرض». قالت مُلتفتة إلى كياما: «أخشى فقط حكم الرب».

قال كياما: «نعم، أعلم ذلك. لتباركك مريم على ذلك». توقف هنيهة: «ماريكو سان، هل ستعتذرين علنًا للزعيم القائد؟».

- نعم، بكل سرور، شريطة أن يسحب علناً جميع القوات من طريقي
ويمنحني أنا والسيدة كيريتسوبو والسيدة سازوكو إذنًا مكتوبًا
بالمغادرة غدًا.

- هل ستطيعين أمرًا من الأوصياء؟

- أرجو المعذرة يا سيدي، في هذا الأمر، لا.

- هل ستحترمين طلبًا منهم؟

- أرجو المعذرة، في هذا الأمر، لا.

- هل ستوافقين على طلب من الوريث والسيدة أوتشيبا؟

- أرجو المعذرة، ما هو الطلب؟

- أن تزورهم، وتمكثي معهم لبضعة أيام، بينما نحل هذه المسألة.

- أرجو المعذرة يا سيدي، ولكن ماذا هناك ليُحل؟

فقدَ كياما صبره وصاح: «مستقبل المملكة وحسن نظامها من ناحية،
ومستقبل الكنيسة الأم من ناحية أخرى، وأنتِ من ناحية أخرى. من الواضح
أن قربك من الهمجي قد أثر عليكِ وأربك عقلكِ كما كنت أتوقع».

لم تقل ماريكو شيئًا، فقط حدقت إليه.

حاول كياما جاهدًا ضبط أعصابه.

قال بجمود: «أرجو المعذرة على... غضبي وسوء أخلاقي. عذري الوحيد
هو أنني قلق بشدة». انحنى بكرامة: «أعتذر».

- كان الخطأ مني يا سيدي. أرجو المعذرة لإفساد انسجامك وتسببي لك
في المتاعب. لكن ليس لدي خيار.

- لقد أعطاك ابنتكِ خيارًا، وأعطيتكِ عدة خيارات.

لم تجبه.

أصبح الهواء في الغرفة خانقًا لهم جميعًا، رغم برودة الليل ونسيمه الذي
يحرك الشعلة.

- هل أنتِ عازمة إذن؟

- ليس لدي خيار يا سيدي.

- حسنًا يا ماريكو سان. لا يوجد شيء آخر يمكن قوله، سوى أن أكرر أمري لك بـألا تضغطي على المسألة... وأنا أطلب ذلك. أحنت رأسها.

أمر كياما: «ساروجي سان، أرجو أن تنتظرنني في الخارج». كان الفتى مضطربًا، بالكاد قادرًا على الحديث: «حسنًا يا سيدي». انحنى لماريكو: «أرجو المعذرة يا أمي».

- ليحفظك الرب في كنفه إلى الأبد.

- وأنت أيضًا.

قال كياما: «آمين على ذلك».

- تصبح على خير يا بني.

- تصبحين على خير يا أمي.

عندما بقيا وحدهما، قال كياما: «الأب الزائر قلق جدًا».

- بشأني يا سيدي.

- نعم. وبشأن الكنيسة المقدسة... والهمجي. والسفينة الهمجية. أولاً أخبريني عنه.

- إنه رجل فريد، قوي جدًا وذكي. في البحر، إنه... ينتمي هناك. يبدو وكأنه يصبح جزءًا من السفينة والبحر، وفي عرض البحر، لا يوجد رجل يمكنه منافسته في الشجاعة والدهاء.

- حتى رودريجز سان؟

- لقد تغلب أنجين سان عليه مرتين. مرة هنا ومرة في طريقنا إلى إيدو.

أخبرته عن وصول رودريجز في الليل في أثناء إقامتهما بالقرب من ميشيما وعن الأسلحة المخفية وكل ما سمعته. تابعت: «لو كانت سفنهما متكافئة، سيفوز أنجين سان. وحتى لو لم تكن كذلك، أعتقد أنه سيفوز».

- أخبريني عن سفينته.

أطاعته.

- أخبريني عن أتباعه.

فروت له ما حدث.

- لماذا قد يمنحه الزعيم تورانا جا سفينته ومالاً وأتباعاً وحرية؟

- لم يخبرني سيدي السبب قط يا سيدي.

- أرجو أن تخبريني رأيك.

قالت ماريكو دون تردد: «حتى يطلق أنجين سان على أعدائه». ثم أضافت دون اعتذار: «بما أنك سألتني، في هذه الحالة فإن أعداء أنجين سان الخاصين هم نفس أعداء زعمي: البرتغاليون والآباء القديسون الذين يحرضون البرتغاليين والزعماء هاريماء وأونوشي وأنت يا سيدي».

- لماذا يعتبرنا أنجين سان أعداءه الخاصين؟

- ناجازاكي والتجارة وسيطرتكم الساحلية على كيوشو يا سيدي. ولأنك أبرز الدايميو الكاثوليك.

- الكنيسة ليست عدو الزعيم تورانا جا، ولا الآباء القديسين.

- أعتذر، لكنني أعتقد أن الزعيم تورانا جا يؤمن بأن الآباء القديسين يدعمون القائد الزعيم إيشيدو، كما تفعل.

- أنا أدمع الوريث. أعادي سيدك لأنه لا يفعل ذلك، ولأنه سيدمر كنيستنا.

- أعتذر، لكن هذا غير صحيح. إن سيدي أقوى بكثير من القائد الزعيم. لقد قاتلت إلى جانبه عشرين مرة أكثر مما قاتلت ضده، أنت تعلم أنه جدير بالثقة. لماذا تتحالف مع عدوه المعلن؟ لطالما أراد الزعيم تورانا جا التجارة، وهو ببساطة ليس معادياً للمسيحية مثل القائد الزعيم والسيدة أوتشيبا.

- أرجو المَعذرة يا ماريكو سان، لكن أمام الرب، أعتقد أن الزعيم تورانا جا يكره إيماننا المسيحي سرّاً، ويبغض كنيستنا سرّاً، وهو ملتزم سرّاً بتدمير الخلافة والقضاء على الوريث والسيدة أوتشيبا. هدفه الوحيد هو أن يصبح شُوجَن... ذلك فقط. يريد أن يصبح شُوجَن، ويخطط ليصبح شُوجَن، وكل شيء مُوجه نحو هذا الهدف الوحيد.

- أمام الرب يا سيدي، لا أصدق ذلك.

- أعلم... لكن هذا لا يجعلك على حق. (راقبها للحظة ثم قال): باعترافك الخاص أن هذا الأنجين سان وسفينته يشكلان خطراً كبيراً على

- الكنيسة، أليس كذلك؟ رودريجز يوافقك الرأي على أنه إذا لحق أنجين سان بالسفينة السوداء في البحر، سيكون ذلك سيئاً للغاية.
- نعم، أعتقد ذلك أيضاً يا سيدي.
 - وهذا سيضر كنيستنا الأم كثيراً، أليس كذلك؟
 - بلى.
 - لكنك ما زلت لن تساعد الكنيسة ضد هذا الرجل؟
 - هو ليس ضد الكنيسة يا سيدي، ليس حقاً ضد الآباء، رغم أنه لا يثق بهم. إنه فقط ضد أعداء مملكته. والسفينة السوداء هي هدفه... لتحقيق الربح.
 - لكنه يعارض الإيمان الحقيقي، ولذلك فهو هرطوقي، أليس كذلك؟
 - بلى. لكنني لا أصدق كل ما أخبرنا إياه الآباء. ويوجد الكثير مما لم يُخبرونا إياه. اعترف تسوكو سان بالكثير من الأمور. أمرني زعيمى الإقطاعي بأن أصبح موضع ثقة لأنجين سان وصديقه، وأن أعلمه لغتنا وعاداتنا، وأن أعلم منه ما يمكن أن يفيدنا. ووجدت...
 - تقصدين ما يفيد تورانا. أليس كذلك؟
 - يا سيدي، إن طاعة الزعيم الإقطاعي هي ذروة حياة الساموراي. أليست الطاعة ما تطلبونه من جميع أتباعكم؟
 - بلى. لكن الهرطقة فظيعة ويبدو أنك متحالفة مع الهمجي ضد كنيستك وقد أُصيبَ بعدواه. أدعو الرب أن يفتح عينيك يا ماريكو سان، قبل أن تفقدي خلاصك. والآن أخيراً، قال الأب الزائر أن لديك بعض المعلومات الخاصة لي.
 - كان هذا غير متوقع تماماً: «عذراً؟».
 - قال إنه وصلتكَ رسالة من تسوكو سان قبل بضعة أيام. رسول خاص من إيدو. لديك بعض المعلومات عن... عن حلفائي.
 - طلبت مقابلة الأب الزائر صباح الغد.
 - نعم. أخبرني ذلك. حسناً؟
 - أرجو المعذرة، بعد أن أراه غداً، سأ...

- ليس غداً، بل الآن. قال الأب الزائر إن الأمر يتعلق بالزعيم أونوشي ويخص الكنيسة، وأنتِ مطالبة بإخباري في الحال. وأمام الرب هذا ما قاله. أحقاً وصلت الأمور إلى هذا الحد من القذارة بحيث لم تعودى تثقين بي؟

- أعتذر، لقد عقدت اتفاقاً مع تسوكو سان. طلب مني أن أتحدث بصراحة مع الأب الزائر، هذا كل شيء يا سيدي.

- قال الأب الزائر أنه عليك إخباري الآن.

أدركت ماريكو أنه لم يعد أمامها خيار آخر. لقد حُسم الأمر. فأخبرته عن المؤامرة لاختياله، كل ما تعرفه. وسخر هو أيضاً من الشائعة إلى أن أخبرته بمصدر المعلومة بالضبط: «المسؤول عن اعترافه؟ هو؟».

- نعم. آسفة.

قال كياما: «أندم على موت أوراجا».

شعر بالخزي أكثر لأن الهجوم الليلي على أنجين سان كان فاشلاً - كما كان الهجوم الآخر - والآن قُتل الرجل الوحيد الذي كان يمكن أن يثبت خيانة عدوه أونوشي. قال: «سيحترق أوراجا في نار الجحيم إلى الأبد على هذا التجديف. ما فعله فظيع. يستحق الحرمان الكنسي ونار الجحيم، ولكن مع ذلك، لقد قدم لي خدمة بقول ذلك... إذا كان الأمر صحيحاً». نظر كياما إليها، وقد بدا فجأة كرجل مسن: «لا أستطيع التصديق أن أونوشي قد يفعل ذلك. أو أن الزعيم هاريمان سيكون جزءاً منه».

- نعم. هل يمكنك... هل يمكنك أن تسأل الزعيم هاريمان إذا كان الأمر صحيحاً؟

- نعم، لكنه لن يكشف شيئاً كهذا أبداً. لن أفعل ذلك، هل ستفعلين أنتِ؟ أمر محزن، أليس كذلك؟ إن أفعال البشر مروعة.

- بلى.

- لن أصدق ذلك يا ماريكو سان. لقد مات أوراجا، لذا لن نستطيع الحصول على دليل. سأأخذ الاحتياطات، ولكن... لا أستطيع أن أصدق ذلك.

- نعم. فكرة واحدة يا سيدي. أليس من الغريب جداً أن يضع القائد الزعيم حراسة على أنجين سان؟

- لماذا غريب؟
- لماذا يحميه؟ وهو يكرهه؟ غريب جدًا، أليس كذلك؟ هل من الممكن أن القائد الزعيم الآن يرى أنجين سان كسلاح محتمل ضد الداييميو الكاثوليك؟
- لا أفهمك.
- إذا -لا قدّر الرب- مت يا سيدي، سيصبح الزعيم أونوشي القائد الأعلى في كيوشو، أليس كذلك؟ ماذا يمكن أن يفعل القائد الزعيم لكبح جماح أونوشي؟ لا شيء... سوى ربما استخدام أنجين سان.
- قال كياما ببطء: «هذا ممكن».
- يوجد سبب واحد لحماية أنجين سان... لاستخدامه. أين؟ فقط ضد البرتغاليين... وبالتالي ضد الداييميو المسيحيين في كيوشو. أليس كذلك؟
- هذا ممكن.
- أعتقد أن أنجين سان له قيمة لك بقدر قيمته لأونوشي أو إيشيدو أو سيدي. حيًا. إن معرفته هائلة. فقط المعرفة يمكنها حمايتنا من الهمج، حتى البرتغاليين.
- قال كياما باستهزاء: «يمكننا سحقهم، طردهم وقتما نشاء. إنهم أشبه ببعوض على ظهر حصان، لا أكثر».
- إذا غزت الكنيسة الأم وأصبحت الأرض كلها مسيحية كما نصلي لذلك، ماذا بعد؟ هل ستصمد قوانيننا؟ هل سيصمد بوشيدو؟ أمام الوصايا؟ أعتقد أنه لن يصمد... كما حدث في أماكن أخرى في العالم الكاثوليكي... ليس حين يكون الآباء القديسين في القمة، إلا إذا كنا مستعدين.
- لم يجبها.
- ثم قالت: «أتوسل إليك يا سيدي، اسأل أنجين سان عما حدث في أماكن أخرى من العالم».
- لن أفعل. أعتقد أنه سحرك يا ماريكو سان. أنا أو من بالآباء القديسين. أعتقد أن أنجين سان خاصتك يتعلم من الشيطان، وأرجو أن تدركي

أن هرطقته قد أصابتك بالفعل. لقد استخدمت كلمة «كاثوليكي» ثلاث مرات بينما كنت تقصدين «مسيحي». ألا يعني ذلك أنك تتفقين معه في وجود إيمانين، نسختين متساويتين من الإيمان الحقيقي؟ أليس تهديدك الليلة بمنزلة طعنة في بطن الوريث؟ وضد مصالح الكنيسة؟ (نهض): شكرًا على معلوماتك. اذهبي في حفظ الرب.

أخرجت ماريكو لفافة صغيرة رفيعة مختومة من كمّها: «طلب مني الزعيم توراناغا أن أمنحك هذه».

نظر كياما إلى الختم غير المكسور: «هل تعلمين ما بداخلها يا ماريكو سان؟».

- نعم. كنت مأمورة بتدميرها ونقل الرسالة شفهيًا إذا اعترضني أحد.

كسر كياما الختم. تضمنت الرسالة تأكيد توراناغا على رغبته في السلام بينهما، ودعمه الكامل للوريث والخلافة، وذكرت بإيجاز المعلومات عن أونوشي. وخُتمت بهذا: «ليس لدي دليل على الزعيم أونوشي ولكن أوراجا نو تاداماسا سيكون لديك في أوساكا للاستجواب إذا أردت. ومع ذلك، لدي دليل على أن إيشيدو قد خان أيضًا الاتفاق السري بينكما الذي يمنح الكانتو لنسلك بعد موتي. لقد وعدت الكانتو سرًا لأخي زاتاكى، مقابل خيانتة لي، كما فعل بالفعل. أرجوك اعذرني يا رفيقي القديم، لكنك تعرضت للخيانة أيضًا. فور موتي، ستُعزل أنت وسلالتك وتُدمر، وكذلك الكنيسة المسيحية بأكملها. أرجوك أن تعيد النظر. قريبًا سيكون لديك دليل على صدقي».

أعاد كياما قراءة الرسالة بينما كانت تراقبه كما أمرت. كان قد أخبرها توراناغا: «راقبيه جيدًا يا ماريكو سان. لست متأكدًا من اتفاهه مع إيشيدو حول الكانتو. أفاد الجواسيس بذلك ولكنني لست متأكدًا. ستعرفين من خلال ما يفعله -أو لا يفعله- إذا قدمت له الرسالة في الوقت المناسب».

رأت ماريكو رد فعل كياما. فكرت: إذن هذا أيضًا صحيح.

نظر إليها الدايميو المسن وقال ببرود: «وأنتِ الدليل على صدقه، أليس كذلك؟ القربان المحترق، الحمل المضحى به؟».

- لا يا سيدي.

- لا أصدقك. ولا أصدقه. خيانة أونوشي، ربما. لكن الباقي... الزعيم توراناغا يستخدم فقط خدعه القديمة بمزج أنصاف الحقائق بالعسل والسم. أخشى أن تكوني أنتِ من تعرضت للخيانة يا ماريكو سان.

الفصل الرابع والخمسون

- سنغادر عند الظهيرة.

كنت السيدة سازوكو على وشك البكاء: «لا يا ماريكو سان».

قالت كيري: «نعم، نعم، سنغادر كما تقولين».

قالت الفتاة الصغيرة بانفعال: «لكنهم سيمنعوننا، كل هذا عديم الجدوى».

أخبرتها ماريكو: «لا، أنتِ مخطئة يا سازوكو تشان، إنه ضروري للغاية».

قالت كيري: «ماريكو سان محقة. لدينا أوامر». اقترحت تفاصيل

لمغادرتهم. «يمكننا بسهولة أن نكون جاهزين مع الفجر إذا أردت».

أجابت ماريكو: «يجب أن نغادر عند الظهيرة. هكذا قال يا كيري تشان».

- لن نحتاج إلى الكثير من الأشياء، أليس كذلك؟

- بلى.

قالت سازوكو: «عدد قليل جدًا. لكن أعذر، كل هذا يبدو سخيًا،

سيمنعوننا».

قالت كيري: «ربما لن يفعلوا يا صغيرتي. تقول ماريكو إنهم سيسمحون

لنا بالمغادرة. ويعتقد الزعيم توراناغا أنهم سيسمحون لنا بالمغادرة. لذا

فلنفترض أنهم سيفعلون. اذهبي واستريحي. هيا. يجب أن أتحدث مع

ماريكو سان».

غادرت الفتاة، وهي قلقة للغاية.

طوت كيري يديها وقالت: «نعم يا ماريكو سان؟».

- سأرسل رسالة مشفرة بواسطة الحمام الزاجل لإخبار الزعيم توراناغا

بما حدث الليلة. ستنتقل عند بزوغ الفجر. سيحاول رجال إيشيدو

بالتأكيد تدمير بقية الحمام الزاجل غدًا إذا حدثت مشكلات، ولن أتمكن

من إحضارها إلى هنا. هل لديك أي رسالة تريدين إرسالها على الفور؟

- نعم. سأكتبها الآن. ما الذي تتوقعين حدوثه؟

- الزعيم تورانجا متأكد من أنهم سيسمحون لنا بالمغادرة، إن كنت حازمة.

- لا أوافقك الرأي، وأرجو المَعذرة، لكنني لا أعتقد أنكِ تضعين الكثير من الثقة بالمحاولة أيضًا.

- أنتِ مخطئة. بالطبع قد يمنعونا غداً، وإذا حدث ذلك، فستنشأ أفضع المشاجرات والتهديدات، لكنها ستكون بلا معنى. (ضحكت ماريكو) تهديدات كثيرة يا كيري سان، وستستمر طوال اليوم وطوال الليل. لكن عند الظهيرة في اليوم التالي سيسمحون لنا بالمغادرة.

هزّت كيري رأسها وقالت: «إذا سمحوا لنا بالهروب، فستغادر كل رهينة أخرى في أوساكا أيضًا. سيتعرض إيشيدو لضعف كبير وسيفقد ماء وجهه. لا يمكنه تحمل ذلك».

بدت ماريكو راضية جدًا: «نعم. حتى مع ذلك، فهو محاصر».

راقبتها كيري وقالت: «بعد ثمانية عشر يومًا، سيكون سيدنا هنا، أليس كذلك؟ يجب أن يكون هنا».

- بلى.

- أعتذر، إذن لماذا من المهم جدًا أن نغادر على الفور؟

- يرى أنه أمر بالغ الأهمية يا كيري سان، لدرجة أنه أمر بذلك.

- إذن لديه خطة؟

- أليس لديه دائمًا الكثير من الخطط؟

- فور موافقة صاحب الجلالة على الحضور، فإن سيدنا أصبح محاصرًا، أليس كذلك؟

- بلى.

نظرت كيري إلى باب الشوجي المغلق. ثم انحنت نحو ماريكو وقالت بصوت خافت: «إذن، لماذا طلب مني سرًا أن أزرع هذه الفكرة في رأس السيدة أوتشيبا؟».

بدأت ثقة ماريكو تتلاشى: «هل طلب منك ذلك؟».

- نعم. من يوكوسي، بعد لقائه الأول مع الزعيم زاتاكى. لماذا نصب الفخ بنفسه؟
- لا أعلم.

عضت كيرى على شفيتها: «أتمنى لو كنت أعلم. سنعلم قريباً، لكنى لا أعتقد أنك تخبرينى كل ما تعرفينه يا ماريكو تشان».

بدأت ماريكو تعترض لكن كيرى لمستها، منبهة إياها مجدداً لتصمت وهمست: «رسالته إليّ طلبت أن أثق بك ثقة تامة، لذا لنقل إنه لا داعي لقول المزيد. أنا أثق بك يا ماريكو تشان، لكن هذا لا يمنع عقلي من العمل. أليس كذلك؟».

- أرجو أن تعذرينى.

قالت كيرى بصوت طبيعى: «أنا فخورة جداً بك. نعم، وقوفك أمام إيشيدو وكل من معه. أتمنى لو كان لديّ شجاعتك».

- الأمر سهل بالنسبة لى. قال سيدنا إن علينا المغادرة.

- ما نقوم به خطر جداً، على ما أعتقد. حتى مع ذلك، كيف يمكننى المساعدة؟

- قدمى لى دعمك.

- لك ذلك. لقد كان لك دائماً.

- سأبقى هنا معك حتى الفجر يا كيرى. لكن عليّ أن أتحدث مع أنجين سان أولاً.

- نعم. من الأفضل أن أذهب معك.

غادرت المراتان جناح كيرى، ورافقتها حراسة من البنين، مروا بحراس آخرين من البنين الذين انحنوا وبدا عليهم الفخر الهائل بماريكو. قادتهم كيرى عبر الممرات مروراً بقاعة الاستقبال الواسعة، حتى دخلوا إلى ممر خلفها حيث يوجد حراس من البنين والرماديين. انحنوا جميعاً عند رؤيتهم لماريكو، البنين والرماديون على حد سواء، تكريماً لها. شعرت كيرى وماريكو بالدهشة لوجود الرماديين في مناطقهم، لكنهما أخفيا اضطرابهما ولم يقلوا شيئاً.

أشارت كيرى إلى باب.

نادت ماريكو: «أنجين سان؟».

- نعم؟

انفتح الباب ووقف بلاكثورن هناك. كان يوجد خلفه في الغرفة اثنان من الرماديين. قال: «مرحبًا يا ماريكو سان».

ألقت ماريكو نظرة على الرماديين: «مرحبًا. عليّ التحدث إلى أنجين سان على انفراد».

قال قائدهم باحترام كبير: «تفضلني بالتحدث إليه يا سيدتي. للأسف لدينا أوامر من الزعيم إيشيدو شخصيًا بألا نتركه وحده تحت طائلة الموت الفوري».

تقدم يوشيناكا الضابط المسؤول عن الحراسة الليلة وقال: «عذرًا يا سيدة تودا، كان عليّ الموافقة على هؤلاء الحراس العشرين لأنجين سان. كان ذلك بناءً على طلب خاص من الزعيم إيشيدو. أعذر».

قالت ماريكو رغم عدم رضاها: «ما دام الزعيم إيشيدو يهتم فقط بسلامة أنجين سان، فهم مرحب بهم».

قال يوشيناكا لقائد الرماديين: «سأكون مسؤولاً عنه في أثناء وجود السيدة تودا معه. يمكنكم الانتظار بالخارج».

قال الساموراي بحزم: «أعذر، ولكن أنا ورجالي لا خيار لنا سوى المراقبة بأعيننا».

قالت كيري: «سأكون مسرورة بالبقاء. بالطبع من الضروري وجود شخص هنا».

أجاب القائد بعدم ارتياح: «أعذر يا كيريتسوبو سان، يجب أن نكون حاضرين. أرجو المَعذرة يا سيدة تودا، ولكن لا أحد منا يتحدث لغة الهمج».

قالت ماريكو وهي تكاد تغضب: «لا أحد يعتقد أنكم ستكونون وقحين لهذا الحد حتى تسترقوا السمع. لكن عادات الهمج مختلفة عن عاداتنا».

قال يوشيناكا: «من الواضح أن الرماديين يجب أن يطيعوا زعيمهم. كنت محقة تمامًا الليلة حين ذكرت أن واجب الساموراي الأول هو نحو زعيمه الإقطاعي يا سيدة تودا، ومحقة تمامًا عندما أشرت إلى ذلك علنًا».

وافق قائد الرماديين بالقدر نفسه من الفخر: «هذا صحيح تمامًا يا سيدتي. فلا يوجد غاية أخرى في حياة الساموراي، أليس كذلك؟».

قالت وقد تأثرت باحترامهم: «شكرًا لكم».

قال يوشيناكا: «ينبغي لنا أيضًا أن نحترم عادات أنجين سان إذا استطعنا يا قائد. ربما لديّ حل. رجاءً اتبعوني». قادهم إلى قاعة الاستقبال. «هل يمكنك اصطحاب أنجين سان والجلوس هناك يا سيدتي؟». أشار إلى المنصة البعيدة. «يمكن لحراس أنجين سان البقاء عند الأبواب وأداء واجبهم تجاه زعيمهم الإقطاعي، ويمكننا نحن القيام بواجبنا، ويمكنك التحدث كما تشائين وفقًا لعادات أنجين سان. حسنًا؟».

شرحت ماريكو لبلاكثورن ما قاله يوشيناكا، ثم تابعت بحذر باللاتينية: «لن يتركوك الليلة. ليس لدينا خيار آخر، إلا أن أصدر أمرًا بقتلهم في الحال إن كنت ترغب في ذلك».

أجاب بلاكثورن: «رغبتني هي أن أتحدث معك على انفراد، ولكن ليس على حساب أرواحهم. أشكركِ على سؤالك».

التفتت ماريكو إلى يوشيناكا وقالت: «شكرًا جزيلاً يا يوشيناكا سان. هل يمكنك إرسال شخص لجلب مبخرة لإبعاد البعوض؟».

- بالطبع. أرجو المعذرة يا سيدتي، هل يوجد أي أخبار جديدة عن السيدة يودوكو؟

- لا يا يوشيناكا سان. سمعنا أنها ما زالت تترتاح، دون ألم. (ابتسمت ماريكو لبلاكثورن): هل نذهب للجلوس هناك، يا أنجين سان؟

تبعها بلاكثورن، وعادت كيري إلى جناحها، بينما وقف الرماديون عند أبواب قاعة الاستقبال. كان قائدهم بالقرب من يوشيناكا على بعد خطوات من الآخرين. همس بقسوة: «لا يعجبني هذا».

- هل ستستل السيدة تودا سيفه وتقتله؟ لا أقصد الإهانة، ولكن أين ذكائك؟

ابتعد يوشيناكا بعرج ليتفقد المواقع الأخرى. نظر القائد إلى المنصة حيث كانت ماريكو وأنجين سان جالسين مقابلين، محاطين بأضواء المشاعل. لم يستطع سماع ما يقولانه. حاول التركيز على حركة شفاههما، ولكنه لم

يستطع فهم شيء، رغم بصره الجيد وإتقانه للبرتغالية. قال لنفسه: أعتقد أنهم يتحدثون بلغة الآباء القديسين مجددًا. لغة بشعة، من المستحيل تعلمها. ومع ذلك، ما أهمية الأمر؟ لماذا لا يجب أن نتحدث مع الهرطوقي على انفراد إن كان هذا يرضيها؟ كلاهما ليس طويلَ الأجل في هذه الدنيا. يا له من أمر محزن. يا مريم المباركة، احفظيها في كنفك إلى الأبد لشجاعتها.

- اللاتينية أكثر أمانًا يا أنجين سان.
- لوّحت بمروحتها لطرده بعوضة تحوم حولهما.
- هل يستطيعون سماعنا من هنا؟
- لا، لا أعتقد ذلك، ليس إذا خفضنا صوتنا وتحدثنا كما علمتني، بحركة قليلة للقم.
- جيد. ماذا حدث مع كيما؟
- أحبك.
- أنتِ...
- لقد افتقدتك.
- وأنا كذلك. كيف يمكننا أن نلتقي وحدنا؟
- الليلة غير ممكن. لكن مساء الغد سيكون ممكنًا يا حبيبي. لديّ خطة.
- غدًا؟ لكن ماذا عن رحيك؟
- قد يمنعوني غدًا يا أنجين سان، لا تقلق. بعد الغد سنكون جميعًا أحرارًا لنغادر كما نريد. وإذا مُنعتُ، سأكون معك.
- كيف؟
- كيري ستساعدني. لا تسألني كيف أو ماذا أو لماذا. سيكون الأمر سهلًا...

توقفت حين دخلت الخادما بالبخور. وسرعان ما طردت خيوط الدخان المتصاعدة الكائنات الليلية. وعندما أصبحا آمنين مجددًا، تحدثا عن رحلتها، مستمتعين بصحبة بعضهما، محبين دون لمس، متجنبين الحديث عن تورانا. وعن أهمية الغد. ثم قال: «إيشيدو عدوي. لماذا يوجد حولي كل هذا العدد من الحراس؟».

- لحمايتك. ولكن أيضًا لتقييدك. أعتقد أن إيشيدو قد يرغب أيضًا في استخدامك ضد السفينة السوداء وناجازاكي والزعيم كياما والزعيم أونوشي.

- نعم، فكرت في ذلك أيضًا.

رأت نظراته تفحصها، فسألته: «ما الخطب يا أنجين سان؟».

- على عكس ما يعتقد يابو، أعتقد أنك لست غبية، وأن كل شيء الليلة قد قيل عمدًا، وخطط له عمدًا... بأمر من توراناغا.

سوت طية في الكيمونو المطرز وقالت: «لقد أعطاني أوامر، نعم».

عاد بلاكثورن إلى البرتغالية: «لقد خانك. أنت طعم. هل تعلمين ذلك؟ أنت مجرد طعم لأحد فخاخه».

- لماذا تقول هذا؟

- أنت الطعم، وكذلك أنا. أليس ذلك واضحًا؟ يابو أيضًا طعم. توراناغا أرسلنا جميعًا هنا كقربان.

- لا، أنت مخطئ يا أنجين سان. أعذر، لكنك مخطئ.

قال باللاتينية: «أخبرك أنك جميلة وأني أحبك، ولكنك كاذبة».

- لم يقل لي أحد هذا من قبل.

- لقد قلت أيضًا إنه لم يقل أحد لك «أحبك» من قبل.

نظرت إلى مروحتها: «دعنا نتحدث عن أمور أخرى».

- ماذا سيكسب توراناغا من التضحية بنا؟

لم تجب.

- ماريكو سان، لي الحق في سؤالك. لست خائفًا، فقط أريد أن أعرف ما الذي سيكسبه.

- لا أعلم.

- أنت! اقسمي بحبك وربك.

أجابت بمرارة باللاتينية: «حتى أنت؟ أنت أيضًا بأسئلتك التي لا تنتهي والتي تتطلب «بأن أقسم بربي»؟».

- إنها حياتك وحياتي، وأنا أقدر كليهما. مجددًا، ما الذي سيكسبه؟

- ارتفع صوتها: «اسمع، نعم، اخترت الوقت، ونعم، لست امرأة غبية و...».
- كوني حذرة يا ماريكو تشان، رجاءً اخفضي صوتك، وإلا سيكون ذلك غباءً.
- أعتذر. نعم، فعلت ذلك عمدًا وعلانيةً كما أراد توراناغا.
- لماذا؟
- لأن إيشيدو فلاح، ويجب عليه أن يسمح لنا بالرحيل. كان يجب أن يكون التحدي أمام نظرائه. السيدة أوتشيبا توافق على رحيلنا للقاء الزعيم توراناغا. تحدثت معها وهي غير معارضة. لا يوجد ما يثير قلقك.
- لا أحب أن أراك متقدمة أو حادة أو غاضبة. أين هدوؤك؟ وأين أدبك؟ ربما ينبغي أن تتعلمي مراقبة الصخور وهي تنمو، أليس كذلك؟
- اختفى غضب ماريكو وضحكت: «أنت، أنت محق. أرجوك سامحني». شعرت بالانتعاش وكأنها عادت لطبيعتها. «آه، كم أحبك وأحترمك، وكنت فخورة جدًا بك الليلة لدرجة أنني كدت أقبلك هناك أمامهم كما هي عادتك».
- يا إلهي، لكان أشعل ذلك نيرانهم، أليس كذلك؟
- لو كنت وحدي معك لقبلتك حتى تملأ صرخاتك طلبًا للرحمة الكون بأسره.
- أشكرك يا سيدتي، لكنك هناك وأنا هنا، والعالم بيننا.
- لا يوجد عالم بيننا. حياتي ممثلة بوجودك.
- قال بعد لحظة: «وماذا عن أوامر يابو لك... أن تعتذري وتبقي؟».
- قد لا يلتزم بها، أعتذر.
- بسبب أوامر توراناغا؟
- نعم، ولكنها ليست أوامره حقًا... بل هي رغبتني أيضًا. كل هذا كان اقتراحي له. أنا من توسلت أن يُسمح لي بالمجيء إلى هنا يا حبيبي. أقسم بالرب إن هذه هي الحقيقة.
- ما الذي سيحدث غدًا؟

أخبرته ما قالت لكيري، مضيفة: «كل شيء سيكون أفضل من المخطط له. أليس إيشيدو بالفعل راعيك؟ أقسم إنني لا أعلم كيف يكون الزعيم توراناغا بهذه البراعة. أخبرني قبل مغادرتي أن هذا سيحدث، قد يعلم أن

يابو لا سلطة له في كيوشو. فقط إيشيدو أو كياما يمكنهما حمايتك هناك. لسنا طُعمًا. نحن في حمايته. نحن آمنين».

- ماذا عن الأيام التسعة عشر... ثمانية عشر الآن؟ يجب أن يكون تورانا جا هنا، أليس كذلك؟

- بلى.

- إذن أليس هذا كما يقول إيشيدو، مضيعة للوقت؟

- حقًا لا أعلم. كل ما أعلمه أن تسعة عشر، أو ثمانية عشر، أو حتى ثلاثة أيام قد تكون أبدية.

- أو غدًا؟

- غدًا أيضًا. أو بعد غد.

- وإذا لم يسمح لك إيشيدو بالذهاب غدًا؟

- هذه هي الفرصة الوحيدة المتاحة لنا. جميعًا. يجب إذلال إيشيدو.

- أنت متأكدة؟

- نعم، أمام الرب يا أنجين سان.

استيقظ بلاكثورن من كابوس مجددًا، لكن حالما أصبح مستيقظًا بالكامل حتى تلاشى الحلم. كان الرماديون يراقبونه من خلف شبكة البعوض في ضوء الفجر الباكر.

قال لهم وقد كره أن يُراقب في أثناء نومه: «صباح الخير».

خرج من تحت الشبكة وتوجه إلى الممر، ونزل السلالم حتى وصل إلى مرحاض الحديقة. رافقه حراس، الرماديون والبنينيون على حد سواء. لكنه كان بالكاد يلاحظ وجودهم.

كان الفجر ضبابيًا، والسماء في الشرق قد انجلت من الضباب. الهواء يحمل رائحة الملح والرطوبة القادمة من البحر، والذباب بدأ يحوم بالفعل. فكر: سيكون اليوم حارًا.

اقتربت خطوات أقدام. رأى تشيموكو من خلال فتحة الباب. انتظرت به صبر بينما كانت تتحدث مع الحراس، وعندما خرج انحنت له وحيته.

سأل: «أين ماريكو سان؟».

- مع كيريتسوبو سان يا أنجين سان.

- شكرًا. متى ستغادر؟

- قريبًا يا سيدي.

- أخبرني ماريكو سان أنني أريد قول صباح الخير لها قبل أن تغادر.

كرر طلبه رغم أن ماريكو قد وعدته بالفعل بأنها ستبحث عنه قبل أن تعود لمنزلها لتجهيز أغراضها.

- حسنًا يا أنجين سان.

أومًا كما يفعل الساموراي، وتركها وتوجه للاغتسال والاستحمام. لم تكن العادة أن يأخذ حمامًا ساخنًا في الصباح، لكنه في كل صباح كان يتوجه إلى هناك ويسكب الماء البارد على جسده. كان حراسه ومراقبوه يقولون دائمًا: «يا أنجين سان، هذا جيد جدًا لصحتك».

ارتدى ملابسه وذهب إلى الأبراج المحصنة التي تطل على ساحة هذا الجناح من القلعة. كان يرتدي كيمونو بنيًا وسيوفًا، ومسدسه مخبأ تحت حزامه. رحب به الحراس البنيون وكأنه واحد منهم، رغم شعورهم بعدم الارتياح تجاه الرماديين المرافقين له. كان يوجد العديد من الرماديين على الأبراج المحصنة المقابلة، يراقبونهم وخارج بوابتهم.

قال يوشيناكا وهو يخرج إلى الشرفة: «الكثير من الرماديين، أكثر من المعتاد. هل تفهم يا أنجين سان؟».

- نعم.

تقدم قائد الرماديين نحوهم: «رجاءً لا تقترب كثيرًا من الحافة يا أنجين سان. أعتذر».

كانت الشمس تشرق على الأفق، وأشعتها الدافئة تمنحه شعورًا جيدًا على بشرته. السماء خالية من الغيوم، والنسيم يخففي.

أشار قائد الرماديين إلى سيف بلاكتورن: «هل هذا «بائع الزيت» يا أنجين سان؟».

- نعم يا قائد.

- هل يمكنني رؤية النصل؟

أُخرج بلاكتورن السيف جزئياً من غمده. كانت التقاليد تقتضي ألا يُسحب السيف بالكامل إلا عند استخدامه.

قال القائد: «جميل، أليس كذلك؟».

احتشد الآخرون من الرمايين والبنيين معجبين أيضاً.

أعاد بلاكتورن السيف إلى غمده، ولم يبدُ مستاءً: «شرف لي أن أرتدي بائع الزيت».

سأل القائد: «هل تستطيع استخدام السيف يا أنجين سان؟».

- لا يا قائد. ليس كساموراي. لكنني أعلم.

- حسناً، هذا جيد جداً.

في ساحة القلعة على بعد طابقين تحت ظلال المبنى، البنيون يتدربون. راقبهم بلاكتورن: «كم عدد الساموراي هنا يا يوشيناكا سان؟».

- أربعمئة وثلاثة يا أنجين سان، بما فيهم مائتان جاؤوا معي.

- وماذا عن الخارج؟

ضحك يوشيناكا: «الرمايون؟ كثيرون... جداً».

ابتسم قائد الرمايين كاشفاً عن أسنانه: «ما يقارب مائة ألف. هل تفهم يا أنجين سان، «مائة ألف»؟».

- نعم. شكراً لك.

نظروا جميعاً بعيداً بينما كانت كتيبة من الحمالين والخيول المحملة وثلاث محفات تنعطف من الزاوية البعيدة وتقترب تحت الحراسة من نهاية هذا الطريق المؤدي إلى هذا الممر. كان الطريق لا يزال مظلماً تحت ظلال الجدران العالية المحروسة. المشاعل لا تزال مشتعلة على الجدران. حتى من هذه المسافة، بإمكانهم رؤية توتر الحمالين. الرمايون المقابلون لهم أكثر هدوءاً ويقظة، وكذلك البنيون الحراس.

فُتحت البوابة الكبيرة لتسمح للمجموعة بالدخول، فيما بقي الرمايون المرافقون بالخارج مع زملائهم، ثم أُغلقت البوابة مجدداً. عاد القضيب الحديدي الضخم إلى وضعه في المشابك الكبيرة المدمجة بالجدران الحجرية. ليس هناك حاجز حديدي يحمي هذه البوابة.

قال يوشيناكا: «أرجو المَعذرة يا أنجين سان. يجب أن أتأكد أن كل شيء على ما يرام. كل شيء جاهز، حسنًا؟».

- سأنتظر هنا.

- حسنًا.

غادر يوشيناكا.

توجه قائد الرمايين إلى الحاجز وبدأ يراقب الأسفل. فكر بلاكثورن: يا يسوع المسيح، أمل أن تكون محقة وأن يكون تورانا جا محققًا. لم يتبق الكثير، أليس كذلك؟ قاس الزمن من خلال الشمس وتمتم لنفسه بالبرتغالية: «لم يتبق سوى القليل».

دون وعي، همهم القائد دلالة على موافقته، فلاحظ بلاكثورن أن الرجل فهمه بوضوح بالبرتغالية، مما يعني أنه كاثوليكي وربما يكون قاتلاً محتملاً. عاد بذاكرته إلى الليلة الماضية، وتذكر أن كل ما قاله لماريكو كان باللاتينية. هل كان كله باللاتينية؟ يا أم الرب، ماذا عن قولها «... أستطيع أن أمر بقتلهم؟». هل كان ذلك باللاتينية؟ هل يتحدث اللاتينية أيضًا مثل القائد الآخر الذي قُتل خلال أول محاولة هروب من أوساكا؟

بدأت الشمس تزداد قوة، فأبعد بلاكثورن نظره عن قائد الرمايين. فكر وهو يضع هذا الكاثوليكي في خانة منفصلة في عقله: إذا لم تقتلني في أثناء الليل، فربما لن تفعل ذلك أبدًا.

رأى كيري تخرج إلى الساحة بالأسفل، وهي تشرف على الخادמות اللواتي يحملن السلال والصناديق للخيول المحملة. بدت صغيرة، واقفة على الدرجات الرئيسية حيث تظاهرت سازوكو بالتعثر ممهدةً لهروب تورانا جا. إلى الشمال، كانت توجد الحديقة الجميلة والبيت الصغير الريفي حيث رأى ماريكو ويايمون الوريث للمرة الأولى. تجول فكره مع موكب الظهيرة الذي سيخرج من القلعة، ثم سيجد طريقه بسلام عبر المتاهة وعبر الغابة، وصولاً إلى البحر. صلّى أن تكون بأمان، وأن يكون الجميع بأمان. حالما يغادرون، سيرحل هو ويابو إلى القادس ومنها إلى البحر.

كان البحر يبدو قريبًا جدًا من هنا، من الأبراج المحصنة. كان البحر يدعوه، وكذلك الأفق.

- مساء الخير يا أنجين سان.

- ماريكو سان.

كانت متألفة كعادتها.

قال: «مساء الخير». ثم تابع باللاتينية بغير اكتراث: «احذري من هذا الرمادي؛ إنه يفهم». ثم واصل حديثه بالبرتغالية ليمنحها الوقت لتفهم ما قاله: «نعم، لا أفهم كيف يمكنك أن تكوني بهذا الجمال بعد هذا القدر القليل من النوم». أخذ ذراعها وأدارها بعيدًا عن القائد، يقودها أقرب إلى الحاجز. «انظري، ها هي كيريتسوبو سان».

- شكرًا. نعم... نعم، أنا... شكرًا لك.

- لماذا لا تلوحين لكيريتسوبو سان؟

فعلت ما طُلب منها ونادت باسمها. رأتهما كيري ولوحت لهما.

قالت ماريكو بعد لحظة، وقد استجمعت رباطة جأشها: «شكرًا لك يا أنجين سان. أنت ذكي وحكيم جدًا».

حيث القائد باعتيادية وتوجهت إلى مقعد وجلست بعد أن تأكدت من نظافته: «سيكون يومًا جميلًا، أليس كذلك؟».

- نعم. كيف كان نومك؟

- لم أتم يا أنجين سان. قضيتُ بقية الليل أتحدث مع كيري وكنت أشاهد الفجر. أحب الفجر. وأنت؟

- كان نومي مضطربًا ولكن...

- أعتذر.

- أنا بخير الآن... حقًا. هل ستغادرين الآن؟

- نعم، لكنني سأعود في الظهرية لاصطحاب كيري سان والسيدة سازوكو.

ثم أدارت وجهها بعيدًا عن القائد وقالت باللاتينية: «أنت. هل تتذكر فندق الزهور؟».

- بالتأكيد. كيف لي أن أنسى؟

- إذا حدث تأخير... ستكون الليلة كما السابق... مثالية ومليئة بالسلام.

- ليت ذلك كان ممكنًا. ولكنني أفضل أن تكوني في طريقك بأمان.

واصلت ماريكو بالبرتغالية: «الآن يجب أن أذهب يا أنجين سان. هل تعذرني؟».

- سأصطحبك إلى البوابة.

- لا، رجاءً. راقبني من هنا. أنت والقائد يمكنكما المراقبة من هنا، حسناً؟ قال بلاكتورن على الفور، مدرّكاً لما تعنيه: «بالطبع، اذهبي في حفظ الرب».

- وأنت أيضاً.

ظل واقفاً عند الحاجز. وبينما كان ينتظر، بدأ ضوء الشمس يتسلل إلى الساحة، دافعاً الظلال بعيداً. ظهرت ماريكو بالأسفل. رآها وهي تُحيي كيري ويوشيناكا، وبدأن في الدردشة معاً، ولم يوجد أيّ من الرماديين الأعداء بالقرب منهن. ثم انحنين. رفعت رأسها لتتأمل إليه، حجبت الشمس عن عينيها بيدها ولوحت له بمرح. بادلها التلويح، وأزاحوا البوابات على الجانبين، ومع شيموكو خلفها بعدة خطوات متحفظة، سارت ماريكو إلى الخارج برفقة حراسها العشرة من البنبيين. أغلقت البوابة مجدداً. وللحظة اختفت عن الأنظار. وعندما ظهرت مجدداً، كان خمسون رمادياً من الحشد خارج جدران القلعة قد أحاطوا بها كحراس شرف إضافيين. سار الموكب بعيداً عبر الزقاق المظلم. ظل يراقبها حتى انعطفت عند الزاوية البعيدة. لم تنظر إلى الوراء.

- سأذهب لتناول الطعام الآن يا قائد.

- حسناً، بالطبع يا أنجين سان.

ذهب بلاكتورن إلى جناحه وتناول الأرز والخضراوات المخضلة وقطع السمك المشوي، تلتها فواكه طازجة من كيوشو، تفاح صغير مقرمش ومشمش وبرقوق قاسٍ. استمتع بالفواكه الحامضة والشاي.

سأل الخادم: «هل تريد المزيد يا أنجين سان؟».

- لا، شكرًا.

عرض الفواكه على حراسه وقبلت بشكر، وبعد أن انتهوا، عاد إلى الأبراج المشمسة مجدداً. كان يرغب في فحص إعداد مسدسه المخفي، لكنه اعتقد أنه من الأفضل ألا يلفت الانتباه إليه. فحصه مرة واحدة في الليل قدر استطاعته تحت اللحاف، أسفل الشبكة المانعة للبعوض. لكن دون أن يراه كلياً، لم يستطع التأكد من حالة السدادة أو الفتيل.

فكر: لا يوجد شيء آخر يمكنك فعله. أنت دمية. كن صبورًا يا أنجين سان، مراقبتك تنتهي عند الظهيرة.

قاس ارتفاع الشمس. ستكون بداية فترة الساعتين الخاصة بالأفعى. بعد الأفعى تأتي فترة الحصان. وفي منتصف الحصان، يكون وقت الظهر.

دقت أجراس المعابد في القلعة وفي المدينة معلنة بداية فترة الأفعى، وكان سعيدًا بدقته في الحساب. لاحظ حجرًا صغيرًا على أرضية البرج المحصن. تقدم ليلتقط الحجر ووضعه بعناية على حافة في كوة البرج تحت الشمس، ثم استند للوراء مجددًا، ووضع قدميه في وضع مريح، وحدق إليه. كان الرماديون يراقبون كل حركاته. عبس القائد. وقال بعد فترة: «أنجين سان، ما معنى هذا الحجر؟».

- عذرًا؟

- الحجر. لماذا الحجر يا أنجين سان؟

- أراقب الحجر ينمو.

أجاب القائد معتذرًا: «عذرًا، فهمت، أرجو أن تعذرني على إزعاجك».

ضحك بلاكثورن في نفسه وأعاد نظره إلى الحجر. قال: «أنم يا وغد».

ولكن مهما لعنه أو أمره أو تملقه، فإنه لا ينمو.

سأل نفسه: هل تتوقع حقًا أن ترى صخرة تنمو؟ لا، بالطبع لا، لكن هذا يجعل الوقت يمضي ويعزز السكينة. لا يمكنك الحصول على ما يكفي من الوا، أليس كذلك.

من أين سيأتي الهجوم التالي؟ لا يوجد دفاع ضد قاتل إذا كان القاتل مستعدًا للموت. أليس كذلك؟

فحص رودريجيز فتيل بندقية اختارها عشوائيًا من الرف بجوار مدفع المؤخرة. وجد أن الصوان كان مهترئًا ومتآكلًا، مما يجعله خطرًا. رمى البندقية نحو المدفعي دون أن ينطق بكلمة، بالكاد تمكن من الإمساك بها قبل أن تصطدم قاعدة البندقية بوجهه.

صاح الرجل: «يا إلهي، أيها السيد الربان! لا داعي لـ...».

- استمع يا لقيط، في المرة القادمة التي أجد فيها خللاً في أي بندقية أو مدفع خلال نوبتك، ستحصل على خمسين جلدَة وتفقد راتب ثلاثة أشهر. يا رئيس البحارة.

تقدم بيسارو رئيس البحارة بغضب وعبس نحو المدفعي الشاب: «نعم يا ربان؟».

- استعدّ كلتا النوبتين. افحص كل بندقية وكل مدفع، كل شيء. الرب وحده يعلم متى سنحتاجهم.

- سأشرف على ذلك يا ربان.

دفع رئيس البحارة وجهه نحو المدفعي.

- سأبصق في مشروبك الليلة يا جوميز، على كل هذا العمل الإضافي، ويجب أن تتقبله بابتسامة. هيا إلى العمل.

كان يوجد ثمانية مدافع صغيرة في وسط السفينة على سطحها الرئيسي، وأربعة في الجانب الأيسر وأربعة في الجانب الأيمن، بالإضافة إلى مدفع المقدمة. تكفي لصد أي هجوم قراصنة بلا مدافع، ولكنها لا تكفي لشن هجوم. كانت الفرقاطة الصغيرة ذات صاريين وتدعى «سانتا لوز».

انتظر رودريجز حتى بدأ الطاقم في مهامهم، ثم ابتعد واتكأ على شفير السفينة. كانت القلعة تلمع تحت أشعة الشمس بلون يشبه القصدير القديم، باستثناء البرج الرئيسي بجدرانه الزرقاء والبيضاء وسقوفه الذهبية. بصق في الماء وراقب لعبه ليرى إن كان سيصل إلى أعمدة رصيف الميناء كما كان يأمل، لكنه اتجه نحو البحر. تمتم لنفسه: «تَبّاً».

تمنى لو كان على متن فرقاطته الخاصة «سانتا ماريا»، تحت قيادته الآن. يا لسوء الحظ أنها في ماكاو عندما نحتاج إليها.

سأله قبل بضعة أيام في ناجازاكي عندما أيقظه من سريرهِ الدافئ في بيته المطل على المدينة والميناء: «ما الأمر يا قائد الأسطول؟».

قال فيريرا بتباهٍ وغطرسة حتى في هذا الوقت المبكر: «يجب أن أذهب إلى أوساكا في الحال. وصلتنا إشارة عاجلة من ديل أكوا».

- ما الخطب الآن؟

- لم يقل شيئاً... قال فقط إنها مسألة ضرورية لمستقبل السفينة السوداء.

- يا مريم! ما الحيلة التي يدبرونها الآن؟ ما الشيء الضروري؟ سفينتنا سليمة كأى سفينة في البحر، قاعها نظيف ومعداتنا مثالية. التجارة أفضل مما كنا نتخيل وفي الوقت المحدد، كما القردة يحسنون التصرف، والخنزير هاريمان واثق، و... (توقف عندما خطرت له فكرة فجأة): الإنجليزي. هل أبحر؟
- لا أعلم. لكن إذا كان قد فعل...
- حقوق روبرت جيز خارج مدخل الميناء الكبير، يتوقع أن يرى إيراسموس هناك بالفعل تفرض حصارًا، رافعة علم إنجلترا البغيض، تنتظر مثل كلب مسعور يوم خروجهم إلى ماكاو والعودة إلى الوطن. قال: «يا يسوع ويا أم الرب ويا جميع القديسين، لا تدعوا ذلك يحدث».
- ما أسرع وسيلة لدينا؟ السفينة اليابانية؟
- سانتا لوز يا قبطان. يمكننا الإبحار خلال ساعة. اسمع، الإنجليزي لا يستطيع فعل شيء دون رجال. لا تنس...
- يا مريم، استمع أنت. يستطيع الآن التحدث بلغتهم المبهمة. لماذا لا يمكنه استخدام القردة؟ يوجد ما يكفي من القراصنة اليابانيين القردة ليشكلوا طاقمًا له عشرين مرة.
- نعم، لكن ليس مدفعية ولا بحارة كما يحتاجهم. ليس لديه الوقت لتدريب اليابانيين. ربما العام القادم، لكن ليس ضدنا.
- لماذا بحق مريم والقديسين أعطاه الكهنة واحدًا من قواميسهم؟ لن أعلم أبدًا. هؤلاء المتطفلون! لا بد أنهم كانوا ممسوسين بالشيطان. الأمر يكاد يكون وكأن الإنجليزي محمي من قبل الشيطان.
- أخبرك أنه ذكي فقط.
- يوجد الكثيرون ممن عاشوا هنا منذ عشرين عامًا ولا يستطيعون التحدث بكلمة من تلك اللغة اليابانية المبهمة، لكن الإنجليزي يستطيع، أليس كذلك؟ أخبرك أنه أعطى روحه للشيطان، وهو محمي في مقابل السحر الأسود. وإلا فكيف يمكنك تفسير ذلك؟ كم سنة قضيتها تحاول التحدث بلغتهم، وأنت حتى تعيش مع واحدة منهم؟ اللعنة، بإمكانه استخدام قراصنة يابانيين بسهولة.

- لا يا قبطان، عليه أن يحصل على الرجال من هنا، ونحن في انتظاره، وقد وضعت كل من يُشتبه بهم في الأغلال.
- مع عشرين ألف كروزادو من الفضة ووعده بشأن السفينة السوداء، يستطيع شراء كل الرجال الذين يحتاجهم، بما في ذلك السجاني والسجن اللعين حولهم. وغداً. ربما يستطيع شراءك أيضاً.
- احذر كلامك.

واجهه القبطان بغضب شديد: «أنت الإسباني اللقيط الأخرق يا رودريجز. إنه خطوك أنه لا يزال حيًا، أنت المسؤول. لقد سمحت له بالهروب مرتين. كان عليك قتله عندما كان تحت سيطرتك».

قال رودريجز بمرارة: «ربما، لكن تلك مجرد موجة عابرة في بحر حياتي. ذهبت لأقتله عندما استطعت».

- حقًا؟

- لقد أخبرتك عشرين مرة. ألا تملك أذنين؟ أم أن الروث الإسباني في أذنك كما هو في فمك.

كانت يده تمتد نحو مسدسه عندما استل القبطان سيفه، ثم جاءت الفتاة اليابانية المرعوبة بينهما وقالت ببرتغالية متعشرة: «رجاءً يا رود سان، لا غضب... لا شجار، رجاءً، مسيحيون، رجاءً».

تلاشى الغضب العارم من كليهما وقال فيريرا: «أخبرك أمام الرب، لا بد أن الإنجليزي ابن الشيطان... لقد كدت أقتلك، وأنت كدت تقتلني يا رودريجز. أرى ذلك بوضوح الآن. لقد وضع علينا جميعًا لعنة... بخاصة أنت».

الآن تحت شمس أوساكا، أمسك رودريجز بالصليب الذي يرتديه حول عنقه وصلّى صلاة يائسة لحمايته من كل المشعوذين ولتبقى روحه الخالدة في مأمن من الشيطان.

تساءل مجددًا وهو يشعر بالقلق: أليس القبطان محققًا، أليس هذا هو التفسير الوحيد؟ حياة الإنجليزي مباركة. الآن هو مقرب من الشيطان الأكبر تورانا، والآن قد استعاد سفينته وأمواله والواكو، رغم كل شيء، ويتحدث لغتهم كواحد منهم، وهذا أمر مستحيل بهذه السرعة حتى مع وجود القاموس، لكنه حصل على القاموس وحظي بمساعدة لا تُقدر بثمن. يا يسوع الإله ومريم، أبعدا عني عين الشر.

كان قد سأل رودريجيز ألفيتو في ميشيما: «لماذا أعطيت الإنجليزي القاموس يا أبت؟ بالتأكيد كان عليك تأخير ذلك؟».

أخبره الأب ألفيتو بثقة: «نعم يا رودريجيز، ولم أكن سأبذل جهدًا في مساعدته. لكنني مقتنع أنه توجد فرصة في جعله يعتنق المسيحية. أنا واثق بذلك. تورانا جا انتهى الآن... إنه مجرد مسألة رجل واحد ونَفْسٍ واحدة. عليّ أن أحاول إنقاذه».

فكر رودريجيز: «الكهنة! اللعنة على كل الكهنة. لكن ليس على ديل أكوا وألفيتو. يا مريم، أعتذر عن كل أفكار الشريعة عنه وعن الأب ألفيتو. اغفري لي وادفني الإنجليزي بطريقة ما قبل أن أراه في مرمى نظري. لا أرغب في قتله بسبب قسمي المقدس، رغم أنني أمامك، أعلم أنه يجب أن يموت بسرعة...». قلب قائد الدفة المناوب الساعة الرملية ودق الأجراس ثماني مرات. كان الوقت ظهيرة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الخامس والخمسون

كانت ماريكو تسير في الشارع المزدحم والمشمس نحو البوابة في نهاية الطريق المسدود. خلفها فرقة حراسة مكونة من عشرة بُنين. ترتدي كيمونو أخضر فاتح وقفازات بيضاء وقبعة سفر عريضة الحواف خضراء داكنة، مربوطة بوشاح شبكي ذهبي تحت ذقنها، وتظلّل نفسها بمظلة شمسية لامعة. فُتحت البوابة وظلت مفتوحة.

كان الشارع هادئاً للغاية. الرماديون يصطفون على جانبي الطريق وجميع الأبراج المحصنة. تستطيع رؤية أنجين سان يقف على البرج المحصن الخاص بهم، ويابو بجواره، وفي الساحة كانت القافلة منتظرة مع كيري والسيدة سازوكو. جميع البنين يرتدون ملابس رسمية في الفناء الأمامي بقيادة يوشيناكا، باستثناء عشرين منهم كانوا يقفون على البرج المحصن مع بلاكتورن واثنين عند كل نافذة تطل على الساحة.

على عكس الرماديين، لم يكن أي من البنين يرتدي درعاً أو يحمل قوساً. كانت السيوف أسلحتهم الوحيدة.

كثير من النساء -نساء الساموراي- كنّ يشاهدن أيضاً، بعضهن من نوافذ المنازل المحصنة الأخرى التي تصطف على طول الشارع، وبعضهن من على الأبراج المحصنة. بينما وقفت أخريات في الشارع بين الرماديين، ومعهن عدد قليل من الأطفال بملابس زاهية. كن جميع النساء يحملن مظلات شمسية، رغم أن بعضهن كنّ يحملن سيوف الساموراي، كما يحقّ لهنّ إذا رغبن.

كان كياما قريباً من البوابة مع قرابة خمسين من رجاله، وليسوا من الرماديين.

قالت ماريكو وانحنى له: «طاب يومك يا سيدي».

بادلها الانحناء، ثم مرت عبر البوابة.

- مرحبًا يا كيري تشان وسازوكو تشان. كم تبدوان جميلتين! هل كل شيء جاهز؟

أجابتا بحماس مصطنع: «نعم».

صعدت ماريكو إلى محفتها المكشوفة وجلست بظهر مستقيم: «جيد. ابدأ رجاءً يا يوشيناكا سان».

تقدم القائد بعرج وأعطى الأوامر بصوت عالٍ. تشكل عشرون من البنين كطليعة وتقدموا. رفع الحمالون محفة ماريكو المكشوفة وتبعوا البنين عبر البوابة، ومحفات كيري والسيدة سازوكو بالقرب، وكانت الفتاة الشابة تحمل طفلها بين ذراعيها.

عندما خرجت محفة ماريكو إلى ضوء الشمس خارج أسوارهم، تقدم قائد من الرماديين بين الطليعة والمحفة ووقف مباشرة في طريقها. توقفت الطليعة فجأة، وتوقف الحمالون أيضًا.

قال ليوشيناكا: «أرجو المَعذرة، لكن هل لي برؤية أوراقكم؟».

أجابه يوشيناكا وسط الصمت المطبق: «عذرًا يا قائد، لكننا لسنا بحاجة إلى أي أوراق».

- أعتذر، لكن القائد الزعيم إيشيدو، حاكم القلعة وقائد حرس الوريث، أصدر أوامر يجب الامتثال لها في جميع أنحاء القلعة بموافقة الأوصياء.

قالت ماريكو برسمية: «أنا تودا ماريكو نو بونتارو وقد أمرني زعمي الإقطاعي الزعيم توراناكا بمرافقة سيداته للقاءه. أرجو أن تسمح لنا بالمرور».

قال الساموراي بفخر وقد ثبت قدميه: «يسعدني ذلك يا سيدتي، لكن دون أوراق، يقول زعيمنا الإقطاعي أنه لا يمكن لأحد مغادرة قلعة أوساكا. أرجو المَعذرة».

قالت ماريكو: «ما اسمك يا قائد، رجاءً؟».

- سوميوري دانزينجي يا سيدتي، قائد الكتيبة الرابعة، وسلالتي قديمة كقدم سلالتي.

- عذرًا يا قائد سوميوري، ولكن إن لم تتحرك من الطريق، سأمر بقتلك.

- لن تمرؤا دون أوراق.

- رجاءً اقلته يا يوشيناكا سان.

قفز يوشيناكا للأمام دون تردد، وسيفه كقوس لامع، وضرب الساموراي الغافل. اخترقت ضربته جانب الرجل بقوة وأخرجه على الفور، وأتبعها بضربة ثانية أكثر شراسة أودت برأس الرجل، والذي تدرج قليلاً على الأرض قبل أن يتوقف.

نظف يوشيناكا سيفه وأعادته إلى غمده. أمر الطليعة: «تقدموا، أسرعوا». تشكلت الطليعة مجدداً، وبدؤوا بالسير وأصداء خطواتهم تتردد. فجأة انطلق سهم من مكان غير معلوم واخترق صدر يوشيناكا. توقفت القافلة. نزع يوشيناكا السهم بصمت للحظة، ثم جحظت عيناه وسقط.

صدرت آهه صغيرة من كيري. وهب نسيم خفيف حرك أطراف وشاح ماريكو الرقيق. في مكان ما في الشارع أُسكِتت صرخات طفل. وكان الجميع ينتظر بترقب.

نادت ماريكو: «مياي كازوكو سان، تول القيادة رجاءً».

كان كازوكو شاباً طويل القامة وفخوراً، حليق الذقن وذا وجنتين غائرتين، وقد تقدم من مجموعة البنيين بجانب كياما الذي وقف بجانب البوابة. تخطى محفات كيري وسازوكو ليقف بجانب محفة ماريكو وانحنى برسمية. قال: «حسناً يا سيدتي. شكراً لك».

صاح إلى الرجال في المقدمة: «أنتم، تحركوا».

كانوا مضطربين وبعضهم خائف وجميعهم في حالة من الذعر، أطاعوا أمره وبدأت القافلة تتحرك مجدداً، وكان كازوكو يسير بجانب محفة ماريكو. ثم على بعد نحو سبعين مترًا أمامهم، تقدم عشرون من الرماديين من بين صفوف الساموراي ووقفوا بصمت في منتصف الطريق. اقترب العشرون من البنيين لسد الفجوة. ثم تراجع أحدهم فتوقفت الطليعة تدريجياً.

صرخ كازوكو: «أبعدوهم عن الطريق».

على الفور قفز أحد البنيين إلى الأمام، وتبعه الآخرون، وبدأت المجزرة بوحشية وسرعة.

اندفع أحد البنيين إلى الأمام على الفور وتبعه الآخرون، وسرعان ما أصبح القتال سريعاً ووحشياً. في كل مرة يسقط فيها أحد الرماديين، كان آخر يتقدم بهدوء من بين صفوفهم المنتظرة لينضم إلى القتال مع رفاقه. كانت

المواجهة عادلة دائماً ومتكافئة، رجلاً لرجل، الآن خمسة عشر في مواجهة خمسة عشر، ثم الآن ثمانية ضد ثمانية، وبعض الرماحيون الجرحى يتخبطون في التراب، الآن ثلاثة من البنين ضد اثنين من الرماحيين قبل أن ينضم رمادي آخر، وسرعان ما انتهى الأمر إلى مواجهة واحد ضد واحد. كان آخر بني ملطخاً بالدماء ومصاباً، وقد انتصر في أربع معارك فردية، ولكن الرماحي الأخير قضى عليه بسهولة، ثم وقف وحده بين الجثث ووجه نظره إلى مياي كازوكو.

مات جميع البنين. أربعة من الرماحيين جرحى، وثمانية عشر قتيلاً.

تقدم كازوكو مستلاً سيفه وسط الصمت المهيب.

قالت ماريكو: «انتظر. انتظر رجاءً يا كازوكو سان».

توقف لكنه أبقى عينيه على الرماحي مستعداً للقتال. خرجت ماريكو من محفتها وعادت إلى كياما: «يا زعيم كياما، أطلب منك رسمياً أن تأمر هؤلاء الرجال بالابتعاد عن الطريق».

- أعتذر يا تودا ساما، لكن يجب الامتنثال لأوامر القلعة. الأوامر قانونية. ولكن إذا أردت، سأدعو إلى اجتماع للأوصياء لأخذ قرار.

- أنا ساموراي. أوامري واضحة، وتتماشى مع البوشيدو ومقدسة بموجب قانوننا. يجب أن تُنفذ، وتُلغى قانونياً أي أمر من صنع البشر. قد يُزعج القانون المنطق، لكن لا يمكن للمنطق أن يُبطل القانون. إن لم يُسمح لي بالامتنثال، فلن أتمكن من العيش مع هذا العار.

- سأدعو إلى اجتماع فوري.

- أرجو المعذرة يا سيدي، ما تفعله هو شأنك الخاص. أنا مهتمة فقط بأوامر زعمي وعاري الشخصي.

استدارت وعادت بهدوء إلى مقدمة الموكب: «كازوكو سان، أترك أن تقودنا خارج القلعة».

تقدم إلى الأمام وقال: «أنا مياي كازوكو، قائد من سلالة سيراتا، من الجيش الثالث للزعيم توراناغا. أرجو أن تبتعدوا عن الطريق».

قال الرماحي: «أنا بيوا جيرو، قائد من حامية القائد الزعيم إيشيدو. حياتي لا قيمة لها، ومع ذلك لن تمروا».

بصرخة معركة فجائية: «توراناجا!!!!!!». اندفع كازوكو نحو القتال. تردد صدى صليل السيوف مع كل ضربة وضربة مضادة. دار الرجلان حول بعضهما. كان الرماذي ماهرًا جدًا، وكذلك كازوكو. دوى صوت سيوفهما في الاصطدام.

انتصر كازوكو لكنه أصيب بجروح خطيرة. فوقف متمايلًا فوق خصمه، ورفع سيفه بذراعه السليمة نحو السماء صارخًا بنداء النصر، «توراناجا!!!!!!». لم يوجد هتاف لانتصاره، فقد كان الجميع يعلم أن الهتاف سيكون غير لائق في هذا الطقس المهييب الذي يغمرهم الآن.

أجبر كازوكو نفسه على خطو خطوة إلى الأمام، ثم أخرى بتعثر، وأمرهم بصوت واهن: «اتبعوني».

لم يرَ أحد من أين جاءت السهام، لكنها قتلتته. وتغيرت مشاعر البنيين من الاستسلام إلى الوحشية نتيجة لهذه الإهانة لكرامة كازوكو. بدأ يحتضر بسرعة وكان سيسقط قريبًا وحيدًا لا يزال يؤدي واجبه، ولا يزال يقودهم خارج القلعة. هرع ضابط آخر من البنيين إلى الأمام مع عشرين رجلًا لتشكيل طليعة جديدة، بينما التف البقية حول ماريكو وكيري والسيدة سازوكو. زمجر الضابط: «إلى الأمام».

تقدم وتبعه العشرون ساموراي الصامتون. كأشخاص يسيرون في نومهم، رفع الحمالون حمولتهم وتجاوزوا الجثث. ثم على بعد سبعين مترًا أمامهم، تقدم عشرون آخرون من الرماذيين بقيادة ضابط من بين مئات الساموراي المنتظرين. توقف الحمالون، وزاد الطليعة من سرعتهم.

- قفوا.

انحنى الضابطان لبعضهما بإيجاز، وعرف كل منهما سلالته.

- أرجو أن تبتعدوا عن الطريق.

- أرني أوراقكم رجاءً.

هذه المرة، اندفع البنيون للأمام فورًا وهم يهتفون: «توراناجا!!!!!!». لتجيبهم صيحات «يايموووون». وبدأت المجزرة. وكلما سقط رماذي، كان آخر يتقدم بهدوء حتى لقي جميع البنيين حتفهم.

مسح الرماذي الأخير سيفه وأعادته إلى غمده ووقف وحيدًا حاجبًا الطريق. تقدم ضابط آخر مع عشرين من البنيين من خلف المحفات.

أمرتهم ماريكو بوجه شاحب: «انتظروا».

خرجت من محفتها وضعت مظلتها جانباً، وأمسكت بسيف يوشيناكا واستلته، وسارت إلى الأمام وحدها.

- أنت تعلم من أنا. أرجو أن تبتعدوا عن الطريق.

قال الرمادي بفخر: «أنا كوجيما هاروتومو، قائد الكتيبة السادسة. أرجو المعذرة، لا يمكنك المرور يا سيدتي».

اندفعت ماريكو للأمام، لكن ضربتها صُدت. تراجع الرمادي وبقي في موقع الدفاع رغم أنه كان بإمكانه قتلها بسهولة. تراجع ببطء على طول الطريق وهي تتبعه، لكنه جعلها تكافح من أجل كل خطوة. بدأ الموكب يتبعها بتردد. حاولت مجدداً إجبار الرمادي على القتال، تضرب وتطعن، تهاجم بشراسة، لكن الساموراي كان يتراجع متفادياً ضرباتها، ويمنعها من الاقتراب منه دون أن يهاجم، يتركها تُنهك طاقتها. لكنه كان يفعل ذلك بوقار وكرامة، مانحاً إياها الاحترام والتكريم الذي تستحقه. هاجمت مجدداً لكنه صد هجومها العنيف الذي كان كفيلاً بهزيمة سيف أقل مهارة، وتراجع خطوة أخرى. كان العرق يتصبب منها. حاول أحد البنيين التقدم لمساعدتها لكن ضابطه أمره بالتوقف، مدرّكاً أن لا أحد يستطيع التدخل. كان الساموراي من الجانبين ينتظرون إشارة، متلهفين لإطلاق العنان للقتال.

كان في وسط الحشد طفل يخفي عينيه في ثياب والدته. أبعدته بلطف وجئت بجانبه وتمتمت: «أرجوك شاهد يا بني. أنت ساموراي».

كانت ماريكو تعلم أنها لن تصمد طويلاً. كانت تتنفس بصعوبة من جراء مجهودها وشعرت بالعداوة المحيطة بها. ثم أمامها ومن حولها، بدأ الرماديون يبتعدون قليلاً عن الجدران، وسرعان ما اشتد الحصار حول الموكب. تقدم بعض الرماديين لمحاولة محاصرتها، فتوقفت عن التقدم مدركة أنها قد تُحاصر وتُجرد من سلاحها وتُؤسر بسهولة، مما قد يدمر كل شيء على الفور. بدأ البنيون يتقدمون لدعمها بينما اتخذ الآخرون مواقع حول المحفات. كانت الأجواء في الممر مشحونة بالخطر، وكل رجل ملتزم بما يجري، مع رائحة الدماء تملأ أنوفهم. كان الموكب ممتداً من البوابة، ورأت ماريكو كم سيكون من السهل على الرماديين أن يقتلوهم ويتركوهم عالقين في الطريق.

نادت: «انتظروا».

توقف الجميع. انحنت نصف انحناءة أمام خصمها، ثم رفعت رأسها واستدارت وعادت إلى كيري. قالت وهي تلهث: «أعتذر... أعتذر ولكن من غير الممكن اختراق هؤلاء الرجال، في الوقت الحالي. يجب أن نعود للحظة».

كان العرق يتصبب على وجهها وهي تتقدم على طول صف الرجال. وعندما وصلت إلى كياما، توقفت وانحنت: «هؤلاء الرجال منعوني من أداء واجبي، ومن طاعة زعمي الإقطاعي. لا أستطيع العيش مع هذا العار يا سيدي. سأنفذ السيوكو عند غروب الشمس. أطلب منك رسمياً أن تكون مساعدي».

- كلا. لن تفعل هذا.

تلألأت عيناها وصدح صوتها بشجاعة: «إذا لم يُسمح لنا بطاعة زعيمنا الإقطاعي كما يحق لنا، سأنفذ السيوكو عند غروب الشمس».

انحنت وتوجهت نحو البوابة. انحنى كياما أمامها، وكذلك رجاله. ثم انحنى الجميع في الطريق وعلى الأبراج المحصنة وفي النوافذ، إجلالاً لها. عبرت البوابة واجتازت الساحة إلى الحديقة. قادتها خطواتها إلى بيت الشاي الريفي المتواضع المنعزل. دخلت إلى الداخل، وحالما أصبحت وحيدة، بكت بصمت على جميع الرجال الذين ماتوا.

الفصل السادس والخمسون

قال يابو مشيرًا إلى الجثث في الأسفل: «جميل، أليس كذلك؟».
سأل بلاكتورن: «عذرًا؟».

- كانت قصيدة. هل تفهم معنى «قصيدة»؟
- أفهم الكلمة، نعم.

- لقد كانت قصيدة يا أنجين سان. ألا ترى ذلك؟

لو كان لدى بلاكتورن الكلمات لقال: لا يا يابو سان. لكنني رأيت بوضوح لأول مرة ما كان يدور في ذهنها حقًا، تلك اللحظة التي أعطت فيها الأمر الأول وقتل يوشيناكا أول رجل. قصيدة؟ لقد كان طقسًا مروعًا وشجاعًا ولا معنى له واستثنائيًا، حيث يصبح الموت منظمًا وحتميًا، مثلما يحدث في محاكم التفتيش الإسبانية، وكل تلك الوفيات مجرد مقدمة لموت ماريكو. الجميع ملتزم الآن يا يابو سان - أنت وأنا والقلعة وكيري وأوتشيبا وإيشيدو والجميع - وكل ذلك لأنها قررت أن تفعل ما رأته أنه ضروري. ومتى قررت ذلك؟ منذ زمن طويل، أليس كذلك؟ أو بالأحرى، توراناجا اتخذ القرار عنها. قال: «عذرًا يا يابو سان، ليس لدي كلمات كافية».

لكن يابو بالكاد سمعه. كان الهدوء يعم الأبراج المحصنة والطريق، والجميع ساكنون كتماثيل. ثم بدأت الحياة تعود إلى الطريق، الأصوات خافتة والحركات هادئة والشمس تضرب بقوة، بينما خرج كل منهم من ذهوله.

تنهد يابو، وقد ملأه الشعور بالحزن وقال مجددًا: «لقد كان قصيدة يا أنجين سان».

ثم غادر الأبراج.

عندما التقطت ماريكو السيف وتقدمت وحدها، أراد بلاكتورن أن يقفز إلى الساحة ويندفع نحو خصمها ليحميها، ليطلق النار على رأس الرماحي قبل أن تُقتل. لكنه لم يفعل شيئًا بسبب وجود الجميع. ليس لأنه كان خائفًا. لم

يعد يخشى الموت. شجاعته أظهرت له عبثية ذلك الخوف، وكان قد تصالح مع نفسه منذ زمن، في تلك الليلة في القرية مع الخنجر. كنت أنوي غرز الخنجر في قلبي تلك الليلة.

ومنذ ذلك الحين، تلاشى خوفاً من الموت مثلما قالت إنه سيتلاشى: «فقط بالعيش على حافة الموت يمكنك فهم الفرح الذي لا يوصف للحياة». لا أتذكر أن أومي أوقف الطعنة، كل ما أتذكره هو الشعور بأني وُلدت من جديد عندما استيقظت في فجر اليوم التالي.

راقبتُ عيناه القتل في الطريق. فكر: كان بإمكانه قتل ذلك الرمادي من أجلها، وربما آخر، وربما العديد، لكن سرعان ما كان سيحل محلهم آخرون، وموتي لم يكن ليغير الأمور بأي قدر. أخبر نفسه: لست خائفاً من الموت. لكنني مرتاع لأنه لا يوجد ما يمكنني فعله لحمايتها.

كان الرماديون يلتقطون الجثث الآن، البنيون والرماديون يُعاملون بكرامة متساوية. وكان آخرون من الرماديين يغادرون، وكياما ورجاله بينهم، والنساء والأطفال والخدم جميعهم يغادرون، والغبار يتصاعد في الطريق تحت أقدامهم. شم الرائحة النفّاذة، رائحة الموت المختلطة بنسيم البحر المالح، وذهنه مشغول بها، بشجاعته، بالدفع الغامض الذي منحتة لها شجاعته التي لا تعرف الخوف. نظر إلى الشمس وقاس الوقت. ست ساعات حتى الغروب.

توجه نحو الدرج الذي يؤدي إلى الأسفل.

- أنجين سان؟ إلى أين تذهب، رجاء؟

استدار وقد نسي حراسه الرماديين. كان القائد يحدّق إليه: «أعتذر. سأذهب إلى هناك».

أشار إلى الساحة الأمامية.

فكر قائد الرماديين للحظة، ثم وافق على مضمّن: «حسنًا. اتبعني رجاء». في الساحة الأمامية، شعر بلاكثورن بعدائية البنيين تجاه الرماديين التابعين له. كان يابو يقف بجانب البوابة يراقب عودة الرجال. وكيري والسيدة سازوكو كانتا تلوحان بمراوحهما، ومربية ترضع الرضيع. كنّ جالسات على أغطية ووسائد وضعت على عجل في الظل على شرفة. كان الحمالون متجمعين في أحد الجوانب، جاثمين في مجموعة ضيقة وخائفة

حول الأمتعة وخيول الحمل. توجه نحو الحديقة، لكن الحراس هزّوا رؤوسهم: «نعتذر، لكن هذه المنطقة خارج الحدود في الوقت الحالي يا أنجين سان».

قال وهو يستدير مبتعدًا: «نعم، بالطبع».

كان الطريق قد بدأ يخلو الآن، رغم أن نحو خمسمائة من الرمادين بقوا، جاثمين أو جالسين متربعين على هيئة نصف دائرة واسعة، مواجهين البوابة. ثم عاد آخر البنين تحت البوابة.

صاح يابو: «أغلقوا البوابة وأحكموها».

قال الضابط: «أرجو المَعذرة يا يابو سان، لكن السيدة تودا قالت إنه يجب تركها مفتوحة. نحن مكلفون بحمايتها من الجميع، لكن الأوامر هي أن تبقى البوابة مفتوحة».

- هل أنت متأكد؟

كبت الضابط غضبه. كان رجلًا أنيقًا في الثلاثينات من عمره، بوجه منحني وذقن بارز، وبلحية وشارب. قال: «أرجو المَعذرة... بالطبع أنا متأكد».

- شكرًا. لم أقصد إهانتك، حسنًا؟ هل أنت الضابط الأعلى هنا؟

- لقد شرفّنتني السيدة تودا بثقتها، نعم. بالطبع، أنت أعلى مني رتبةً.

- أنا في القيادة، لكنك المسؤول هنا.

- شكرًا لك يا يابو سان، لكن السيدة تودا هي من تقود هنا. أنت الضابط الأعلى. سأتشرف أن أكون معاونًا لك، إذا سمحت بذلك.

قال يابو بحدّة: «أذنتُ لك بذلك يا قائد. أعلم جيدًا من يقودنا هنا. ما اسمك؟».

- سوميوري تابيتو.

- ألم يكن أول رماذي «سوميوري» أيضًا؟

- نعم يا يابو سان. كان ابن عمي.

- عندما تكون مستعدًا يا قائد سوميوري، رجاء ادعُ لاجتماع لكل الضباط.

- بالتأكيد يا سيدي. بإذنهما.

التفت كلا الرجلين عندما دخلت سيدة إلى الساحة الأمامية. كانت ساموراي مسنة، تتكئ بصعوبة على عصا. كان شعرها أشيب لكن ظهرها مستقيم، وتقدمت نحو كيريتسوبو، وخادمتها تظللها بمظلة شمسية.

قالت برسمية: «كيريتسوبو سان. أنا مايدا إيتسو، والدة الزعيم مايدا. وأشارك السيدة تودا آراءها. إذا سمحتُ أود أن أحظى بشرف الانتظار معها». قالت كيري: «تفضلني بالجلوس، أنتِ مرحب بك». أحضرت الخادمة وسادة أخرى، وساعدتها كلتا الخادمتين على الجلوس. قالت السيدة إيتسو وهي تكتم ألمها: «هذا أفضل... أفضل بكثير. إنها مفاصلي، تزداد سوءًا كل يوم. هذا مريح. شكرًا لك».

- هل تودين بعض الشاي؟

- أولًا الشاي، ثم الساكي يا كيريتسوبو سان. الكثير من الساكي. هذه الإثارة تشعرني بالعطش، أليس كذلك؟

بدأت سيدات ساموراي أخريات في الانفصال عن الحشود المغادرة، وعدن عبر صفوف الرمادين إلى الظل الجميل. ترددت بعضهن، بينما تراجعت ثلاثٌ منهن، لكن سرعان ما كان هناك أربع عشرة سيدة على الشرفة، واثنان منهن جلبن أطفالهن معهن.

قالت فتاة صغيرة بخجل، ممسكة بيد ابنها الصغير: «أرجو المعذرة، لكنني أتشيكو، زوجة كياما ناجاماسا، وأريد العودة إلى المنزل أيضًا. أريد العودة إلى زوجي. هل يمكنني أن ألتمس الإذن بالانتظار أيضًا، رجاء؟».

- لكن الزعيم كياما سيكون غاضبًا منك يا سيدتي، إذا بقيت هنا.

- أعتذر يا كيريتسوبو سان، لكن جدي بالكاد يعرفني. أنا فقط زوجة لحفيد صغير جدًا. أنا متأكدة أنه لن يهتم، ولم أرَ زوجي منذ أشهر، ولا يهمني ما يقولون. سيدتنا على حق، أليس كذلك؟

أجابت السيدة إيتسو المسنة، متوليةً القيادة بحزم: «أنتِ محقة تمامًا يا أتشيكو سان. بالطبع، أنتِ مرحب بك يا صغيرتي. تعالي واجلسي بجانبني. ما اسم ابنك؟ يا له من فتى رائع لديك».

أبدت السيدات موافقتهن بهجة، وتقدم صبي آخر عمره أربع سنوات وقال بنبرة حزينة: «رجاء، أنا أيضًا فتى رائع، أليس كذلك؟».

ضحكت إحداهن، وانضمت إليها جميع السيدات.

قالت السيدة إيتسو وضحكت مجددًا: «بالتأكيد أنت كذلك».

مسحت كيري دمة من عينها وقالت: «هكذا أفضل، كنت أصبح جادة للغاية، أليس كذلك؟» ضحكت. «يا سيداتي، إنه لشرف عظيم لي أن أرحب بكن نيابة عنها. لا بد أنك جئعت، وأنت على حق تمامًا يا سيدة إيتسو، كل هذا يشعرني بالعطش».

أرسلت الخادמות لإحضار الطعام والشراب وبدأت تُعرّف السيدات اللاتي يحتجن إلى تقديم، مشيدة بالكيمنو الرائع هنا أو المظلة الخاصة هناك. وسرعان ما أصبحن جميعًا يتحدثن بسعادة ويثرثرن كبغاوات صغيرة.

قال سوميوري بحيرة: «كيف يمكن للرجل أن يفهم النساء؟».

وافقه يابو الرأي: «مستحيل».

- في لحظة يكنّ خائفات ويبكين، وفي اللحظة التالية... عندما رأيت السيدة ماريكو تلتقط سيف يوشيناكا، شعرت بأنني سأموت بفخر.
- نعم. لكن للأسف، كان ذلك الرمادي الأخير بارعًا للغاية. كنت أود أن أراها تقتله. كانت ستقتل رجلًا أقل كفاءة منه.

فرك سوميوري لحيته حيث كان العرق الجاف يزعجه وقال: «ماذا كنت ستفعل لو كنت مكانه؟».

- كنت سأقتلها ثم أهاجم البنين. كان الكثير من الدماء هناك. بالكاد تمكنت من كبح نفسي عن ذبح كل الرماديين بالقرب مني على البرج.
- القتل جيد أحيانًا. جيد جدًا. أحيانًا يكون مميزًا جدًا، حتى إنه يفوق متعة امرأة ترغب بك.

انفجر ضحك السيدات حين بدأ الصبيان الصغيران يتبختران زهابًا وإيابًا، وملابسهما القرمزية ترفرف حولهما.

- من الجيد وجود أطفال هنا مجددًا. أشكر الآلهة جميعها لأن أطفالها في إيدو.

- نعم.

نظر يابو إلى النساء بنظرة مدققة.

قال سوميوري بهدوء: «كنت أفكر في الأمر نفسه».

- ما إجابتك؟

- توجد إجابة واحدة فقط الآن. إذا سمح لنا إيشيدو بالرحيل، فهذا جيد. أما إذا كان سيبيوكو السيدة ماريكو بلا جدوى، حينها... حينها سنساعد هؤلاء السيدات على الانتقال إلى العدم ونبدأ بالقتل. لن نرغب في البقاء على قيد الحياة.

قال يابو: «قد يرغب بعضهن في البقاء».

- يمكنك أن تقرر ذلك لاحقًا يا يابو سان. سيكون من الأفضل لسيدنا لو أن جميعهن نفذن السيبيوكو هنا. وكذلك الأطفال.

- نعم.

- بعدها سنتولى الدفاع عن الأسوار ونفتح البوابات عند الفجر. سنقاتل حتى منتصف النهار. سيكون ذلك كافيًا. ثم سيعود من بقي منا إلى الداخل ونشعل النار في هذا الجزء من القلعة. وإذا بقيتُ على قيد الحياة، فسأتشرف بأن تكون مساعدي.

- بالطبع.

ابتسم سوميوري وقال: «هذا من شأنه أن يفكك المملكة، أليس كذلك؟ كل هذا القتل والسيبيوكو الخاص بها. سينتشر كالنار... سيلتهم أوساكا، أليس كذلك؟ هل تعتقد أن ذلك سيؤخر جلالته؟ هل يمكن أن تكون هذه خطة سيدنا؟».

- لا أعلم. استمع يا سوميوري سان، سأعود إلى منزلي للحظة. تعال إلي فور عودة السيدة.

توجه نحو بلاكتورن الذي كان جالسًا على الدرج الرئيسي غارقًا في أفكاره. قال له يابو بنبرة خافتة: «اسمع يا أنجين سان، ربما لدي خطة سرية، حسنًا؟ «سرية»، هل تفهم؟».

- نعم. أفهم.

دقت الأجراس معلنة تغيير الساعة. تردد الوقت في رؤوسهم جميعًا، بداية ساعة القرد، ستة أجراس من مناوبة ما بعد الظهر، الساعة الثالثة. التفت كثيرون نحو الشمس وقاسوها دون تفكير.

- ما الخطة؟

- سنتحدث لاحقًا. ابقَ قريبًا. ولا تقل شيئًا، مفهوم؟

- نعم.

غادر يابو البوابة مع عشرة من البنين، ولحق بهم عشرون من الرمادين واتجهوا جميعاً نحو الطريق. كان بيت ضيافته ليس بعيداً عن الزاوية الأولى. انتظر الرماديون خارج بوابته، وأشار يابو للبنين أن ينتظروا في الحديقة ودخل وحده.

قالت أوتشيبا: «هذا مستحيل يا زعيم. لا يمكنك السماح لسيدة بمكانتها أن تنفذ السيوكو. أعذر، لكنك وقعت في فخ».

قال الزعيم كياما بحدة: «أوافقك الرأي».

قال إيشيدو: «مع كامل احترامي يا سيدتي، سواء قلت شيئاً أم لم أقل، فإن هذا لا يعني شيئاً لها إطلاقاً. لقد قررت بالفعل، أو على الأقل تورانا جا قرر».

قال كياما بينما ذهلت أوتشيبا من وقاحة إيشيدو: «بالطبع هو وراء الأمر. أعذر لكنه تفوق عليك مجدداً. ومع ذلك، لا يمكنك السماح لها بتنفيذ السيوكو».

- لماذا؟

قالت أوتشيبا: «أرجو المَعذرة يا زعيم، لكن علينا خفض أصواتنا».

كانوا ينتظرون في قاعة الانتظار الفسيحة المجاورة لغرفة السيدة يودوكو المريضة في الجزء الداخلي من البرج الرئيسي بالطابق الثاني: «أنا واثقة أن الأمر لم يكن خطأك، ولا بد من وجود حل».

قال كياما بهدوء: «لا يمكنك السماح لها بمواصلة خطتها يا زعيم، لأن ذلك سيؤجج كل سيدة في القلعة».

حرق إليه إيشيدو وقال: «يبدو أنك نسيت أن بعضهن قُتلن عن طريق الخطأ، ولم يحدث ذلك أي تأثير يُذكر بينهن... باستثناء منع أي محاولات هروب أخرى».

قالت أوتشيبا: «كان ذلك خطأ فادحاً يا زعيم».

- أوافقك الرأي. ولكننا في حالة حرب، وتورانا جا لم يقع في قبضتنا بعد، وحتى يموت، ستكونين أنتِ والوريث في خطر تام.

قالت أوتشيبا: «أعتذر، لكنني لستُ قلقة على نفسي، وإنما على ابني. يجب أن يكون الجميع هنا خلال ثمانية عشر يومًا. أنصحك بأن تسمح لهم جميعًا بالرحيل».

- هذا خطر لا داعي له. أعتذر. لسنا متأكدين أنها تعني ذلك فعلًا.

قال كياما بازدرء، محتقرًا حضور إيشيدو المتعجرف في هذا المكان الغني والفاخر والذي كان يذكره بوضوح بالتايكو، صديقه وراعيه المحترم: «بلى، هي تعني ذلك. إنها ساموراي».

قالت أوتشيبا: «نعم، أعتذر لكنني أوافق الزعيم كياما الرأي. ماريكو سان ستفعل ما تقول. ثم توجد تلك العجوز إيتسو. هؤلاء المايذا لديهم كبرياء، أليس كذلك؟».

توجه إيشيدو إلى النافذة ونظر إلى الخارج: «يمكنهم جميعًا أن يحترقوا، لا يهمني. السيدة تودا مسيحية، أليس كذلك؟ أليس الانتحار محرّمًا في دينها؟ خطيئة خاصة؟».

- بلى، لكنها ستستعين بمساعد، لذا لن يكون انتحارًا.

- وماذا لو لم تستطع؟

- ماذا؟

- لنقل إنها غير مسلحة وليس لديها مساعد.

- كيف يمكنك فعل ذلك؟

ابتسم إيشيدو: «اعتقالها. احتجازها مع خادمت مختارات بعناية حتى يعبر توراناغا حدودنا. عندها يمكنها فعل ما تشاء. سأكون سعيدًا حتى بمساعدتها».

سأل كياما: «كيف يمكنك اعتقالها؟ سيكون لديها الوقت دائمًا لتنفيذ السيوكو أو استخدام سكينها».

- ربما. ولكن ماذا لو استطعت اعتقالها وتجريدها من سلاحها واحتجازها لبضعة أيام؟ أليست تلك «البضعة أيام» ضرورية؟ أليست هذه هي السبب وراء إصرارها على المغادرة اليوم، قبل أن يعبر توراناغا حدودنا ويتسبب في موته؟

سألت السيدة أوتشيبا: «هل يمكن فعل ذلك؟».

أجاب إيشيدو: «ربما».

فكر كياما في الأمر وقال: «في غضون ثمانية عشر يومًا يجب أن يكون تورانا هنا. يمكنه التأخير عند الحدود لمدة أقصاها أربعة أيام. سيتعين عليها أن تحتجز لأسبوع كحد أقصى».

قالت أوتشيبا: «أو للأبد. لقد تأخر تورانا كثيرًا، وأحيانًا أفكر أنه لن يأتي أبدًا».

قال إيشيدو: «يجب أن يصل في اليوم الثاني والعشرين. يا سيدتي، كانت فكرة رائعة، جدًّا».

قالت أوتشيبا بصوت مطمئن رغم أنها كانت مرهقة من قلة النوم: «بالتأكيد كانت فكرتك يا زعيم. ماذا عن الزعيم سودارا وأختي؟ هل هما مع تورانا الآن؟».

- لا يا سيدتي. ليس بعد. سيُحضران إلى هنا عن طريق البحر.

قالت أوتشيبا: «يجب ألا تُمس، ولا ابنها».

- ابنها هو الوريث المباشر لتورانا، الذي هو وريث لعشيرة مينووارا.

إن واجبي تجاه الوريث يا سيدتي، يحتم عليّ أن أذكر هذا مجددًا.

- لا يجوز المساس بأختي، ولا ابنها.

- كما تشائين.

قالت لكياما: «سيدي، إلى أي مدى تعتبر ماريكو سان مسيحية مخلصة؟».

أجاب كياما على الفور: «مخلصة جدًّا. هل تعنين بشأن أن الانتحار خطيئة؟ أعتقد أنها ستحترم ذلك وإلا فإن روحها الأبدية ستكون في خطر يا سيدتي. لكنني لا أعلم إن كانت...».

قال إيشيدو دون تفكير: «إنّ هناك حل أبسط. نأمر كبير الكهنة المسيحيين بأن يأمرها بالتوقف عن إزعاج الحكام الشرعيين للإمبراطورية». رد كياما بنبرة أكثر حدة: «ليس لديه هذه السلطة. هذا تدخل سياسي... شيء لطالما كنت ترفضه بشدة، وبحق».

قال إيشيدو: «يبدو أن المسيحيين يتدخلون فقط عندما يناسبهم الأمر. كان مجرد اقتراح».

فُتح الباب الداخلي وظهر طبيب بوجه متجهم وقد بدا عليه الإرهاق وقال:
«أعتذر يا سيدتي، إنها تطلب رؤيتك».
سأل إيشيدو: «هل هي تحتضر؟».

- إنها قريبة من الموت يا زعيم، نعم، ولكن متى؟ لا أدري.
أسرعت أوتشيبا عبر الغرفة الكبيرة ودخلت من الباب الداخلي، والكيمنون
الأزرق يتمسك بجسدها والتنورة الداخلية تتمايل برشاقة مع خطواتها. تابعها
الرجلان بأعينهما. أغلق الباب، وللحظة تجنب كلاهما التقاء نظراتهما، ثم قال
كياما: «هل تعتقد فعلاً أنه يمكن اعتقال السيدة تودا؟».
أجابه إيشيدو وهو ينظر إلى الباب: «نعم».

عبرت أوتشيبا هذه الغرفة الأكثر فخامة وجثت بجانب الفوتون. كان الخدم
والأطباء يحيطون بها. تسلك ضوء الشمس عبر مصاريع الخيزران وانعكس
على الزخارف المذهبة والمطلية باللون الأحمر على العوارض والأعمدة
والأبواب. كان سرير يودوكو محاطاً بشاشات مزخرفة محفورة، وقد بدت
وكأنها نائمة، وجهها شاحب وقد توارى بين ثنيات رداؤها البوذي، معصماها
نحيلان وأوردها بارزة، وفكرت أوتشيبا في كم هو محزن التقدم في العمر.
كان العمر ظالماً بحق النساء. ليس للرجال، بل للنساء فقط. دعت: يا آلهة،
احموني من الشيخوخة، واحم ابني يا بوذا، واجعل وصوله إلى السلطة آمناً،
واحفظني ما دمت قادرة على حمايته ومساعدته.

أمسكت أوتشيبا بيد يودوكو لتظهر احترامها. وقالت: «سيدتي؟».
همست يودوكو، مستخدمة لقبها: «أو تشان؟».

- نعم يا سيدتي؟

- كم أنت جميلة، جميلة جداً، كنت دائماً كذلك.

ارتفعت يدها لتداعب شعرها الجميل، ولم تزعج اللمسة أوتشيبا بل
أسعدتها كالعادة، فكانت تحبها كثيراً: «كم كان التايكو محظوظاً».

- هل تتألمين يا سيدتي؟ هل أحضر لك شيئاً؟

لم تفقد عيناها الغائرتان أيّاً من دهائهما: «لا شيء... لا شيء، أردت فقط
التحدث. اطلبي من الآخرين أن يغادروا».

أشارت أوتشيبيا لهم بالمغادرة، وعندما أصبحتا وحدهما، قالت: «نعم يا سيدتي؟».

- انصتي يا عزيزتي. اجعلي القائد الزعيم يسمح لها بالذهاب.
قالت أوتشيبيا: «لا يمكنه ذلك يا سيدتي، وإلا فإن جميع الرهائن سيغادرون
وسنفقد قوتنا. اتفق جميع الأوصياء على ذلك».

قالت يودوكو ببعض الازدراء: «الأوصياء! هل أنتِ موافقة؟».

- نعم يا سيدتي، وقد قلتِ البارحة إنها لا يجب أن تذهب.
- الآن يجب أن تسمح لي لها بالرحيل، وإلا سيتبعها الآخرون في تنفيذ
السيوكو، وستتشوه سمعتك وسمعة ابننا بسبب خطأ إيشيدو.
- إن القائد الزعيم مخلص يا سيدتي. لكن تورانا جا ليس كذلك، أعذر.
- يمكنك الوثوق بالزعيم تورانا جا، وليس به.

هزت أوتشيبيا رأسها وقالت: «أعذر، لكنني مقتنعة أن تورانا جا مصمم
على أن يصبح شوّجَن وسيقضي على ابننا».

- أنتِ مخطئة. لقد قالها ألف مرة. بعض الدايميو الآخرين يحاولون
استغلاله لتحقيق طموحاتهم الخاصة، لطالما فعلوا ذلك. تورانا جا كان
المفضل لدى التايكو. لطالما كان تورانا جا يحترم الوريث. إن تورانا جا
من نسل مينووارا. لا تنخدعي بإيشيدو، أو بالأوصياء. لديهم الكارما
الخاصة بهم، وأسرارهم الخاصة يا أو تشان. لماذا لا تتركها تذهب؟
الأمر بسيط للغاية. امنعها من البحر، حينها يمكن دائمًا تأخيرها في
أي مكان داخل حدودنا. إنها لا تزال في شبك قائدك، وكيري وكل
الآخرين، أليس كذلك؟ ستكون محاطة بالرماديين. فكري كما كان
سيفكر التايكو أو كما سيفكر تورانا جا. أنتِ وابننا تُجذبان إلى...

توقف الكلام وبدأت جفونها ترتعش. استجمعت السيدة العجوز قوتها
المتبقية وتابعت: «ماريكو سان لن تمنع وجود الحراس أبدًا. أعلم أنها تعني
ما تقول. دعها تذهب».

قالت أوتشيبيا بصوت هادئ وصبور: «بالطبع أخذنا ذلك في الاعتبار يا
سيدتي، لكن خارج القلعة، لدى تورانا جا مجموعات سرية من الساموراي،
مختبئة داخل وحول أوساكا، ولا نعرف عددها، ولديه حلفاء... لسنا متأكدين
من هويتهم. قد تهرب. وحالما تخرج، سيتبعها الآخرون فورًا وسنفقد أمانًا

كبيرًا. لقد وافقت يا يودوكو تشان، ألا تتذكرين؟ أعتذر لكني سألتكِ البارحة، ألا تتذكرين؟».

قالت يودوكو وقد تشنت عقلها: «نعم، أتذكر يا صغيرتي. كم أتمنى لو كان الزعيم تايكو هنا ليرشدك».

بدأ تنفّس السيدة العجوز يزداد صعوبة.

- هل يمكنني أن أقدم لك بعض الشاي أو الساكي؟

- شاي، نعم رجاءً، بعض الشاي.

ساعدت أوتشيبا العجوز على الشرب. قالت: «شكرًا يا صغيرتي». أصبح صوتها الآن أضعف، والمحادثة تسرع من اقتراب الموت: «استمعي يا صغيرتي، عليك أن تثقي بتوراناجا. تزوجيه، وتفاوضي معه على الخلافة».

قالت أوتشيبا بصدمة: «لا... لا».

- يمكن أن يحكم يايمون بعده، ثم ثمرة زواجك الجديد بعد ابننا. سيقسم أبناء ابننا بالولاء الأبدي لهذه السلالة الجديدة من توراناجا.

- لطالما كان توراناجا يكره التايكو. أنت تعلمين ذلك يا سيدتي. توراناجا هو مصدر كل المشكلات. لسنوات، أليس كذلك؟ هو.

- وأنت؟ ماذا عن كبرياؤك يا صغيرتي؟

- إنه العدو، عدونا.

- لديك عدوان يا صغيرتي. كبرياؤك والحاجة إلى رجل يُقارن بزوجنا. رجاءً كوني صبورة معي، فأنت شابة جميلة وخصبة وتستحقين زوجًا. توراناجا جدير بك، وأنت جديرة به. توراناجا هو الفرصة الوحيدة ليايمون.

- لا، إنه العدو.

- لقد كان أعظم أصدقاء زوجنا وأكثر أتباعه إخلاصًا. من دون... من دون توراناجا... ألا ترين؟ كان توراناجا هو من ساعد... ألا ترين؟ يمكنك التحكم... التحكم به.

- أعتذر، لكني أكرهه... يثير اشمئزازي يا يودوكو تشان.

- كثير من النساء... ماذا كنت أقول؟ آه نعم، كثير من النساء يتزوجن رجالًا يثيرون اشمئزازهن. الحمد لبوذا أنني لم أضطر إلى تحمل ذلك...

ابتسمت المرأة العجوز قليلاً ثم تنهدت، وكان تنهداً طويلاً جداً وطال أكثر من اللازم، وظنت أوتشيبا أن نهايتها قد حانت. لكن عينيها فُتحتا قليلاً وظهرت ابتسامة صغيرة على محياها: «أليس كذلك؟».

- بلى.

- هل ستفعلين، رجاء؟

- سأفكر في الأمر.

حاولت الأصابع المسنة أن تقبض: «رجاء، عديني أن تتزوجي تورانا جا وسأذهب إلى بوذا وأنا أعلم أن سلالة التايكو ستبقى للأبد، مثل اسمه... اسمه سيعيش لـ...».

تساقطت الدموع بحرية على وجه أوتشيبا وهي تمسك باليد الخاملة بحنان.

ارتجفت عيناها في وقت لاحق، وهمست السيدة العجوز: «عليك أن تسمح لي لأكييتشي ماريكو بالذهاب. لا... لا تدعيها تنتقم منا لما فعله التايكو... لما فعله... بأبيها...».

تفاجأت أوتشيبا: «ماذا؟».

لم تجبها. لاحقاً، بدأت يودوكو تهذي قائلة: «... عزيزي يايمون، مرحباً يا بني الحبيب، كم... أنت فتى رائع، ولكن لديك الكثير من الأعداء، كم هذا غبي... ألسنت مجرد وهم أيضاً، أليس...».

هزها تشنُج، وأمسكت أوتشيبا بيدها وداعبتها برفق. همست تكريماً لها: «باسم أميدا بوذا».

هزها تشنُج آخر ثم قالت العجوز بوضوح: «سامحيني يا أو تشان».

- لا يوجد ما يستوجب المغفرة يا سيدتي.

أصبح صوتها أضعف وبدأ الضوء يختفي من وجهها: «الكثير مما يستوجب المغفرة... استمعي... عدي... عديني بشأن... بشأن تورانا جا يا أوتشيبا ساما... مهم... أرجوك... يمكنك الوثوق به...».

كانت عينا العجوز تتوسلان إليها وتحثانها.

لم ترغب أوتشيبا في الطاعة، لكنها كانت تعلم أنها يجب أن تطيع. كان لا يزال ذهنها مشوشاً بسبب ما قيل عن أكييتشي ماريكو، وتردد في ذهنها

كلمات التايكو التي كررها آلاف المرات: «يمكنك الوثوق بيودوكو ساما يا أو تشان. إنها الحكمة... لا تنسي ذلك أبدًا. غالبًا ما تكون على حق، ويمكنك دائمًا أن تثقي بها بحياتك وحياة ابني وحياتي...».

أذعنت أوتشيبا: «أعد...».

ثم توقفت فجأة.

تلاشى الضوء من يودوكو ساما للمرة الأخيرة وانطفأ.

- باسم أميدا بوذا.

لمست أوتشيبا اليد بشفتيها، ثم انحنت وأعادت اليد على الغطاء وأغلقت عينيها، مسترجعةً ذكرى وفاة التايكو، الموت الآخر الوحيد الذي شهدته من كتب. حينها كانت السيدة يودوكو هي من أغلقت العينين كما هو من حق الزوجة، وكان ذلك في هذه الغرفة ذاتها، بينما كان توراناغا ينتظر بالخارج، تمامًا كما ينتظر الآن إيشيدو وكياما، مواصلين السهر الذي بدأ منذ اليوم السابق.

كانت قد سألت: «ولكن لماذا تستدعي توراناغا يا زعيم؟ عليك أن تستريح».

قال التايكو: «سأستريح عندما أموت يا أو تشان. عليّ أن أرتب مسألة الخلافة. أخيرًا. بينما أملك القوة».

وهكذا جاء توراناغا، قويًا وحيويًا ويفيض بالسلطة. كانوا وحدهم حينها، أوتشيبا ويودوكو وتوراناغا، وناكامورا التايكو، زعيم اليابان مستلقيًا على سرير الموت، وجميعهم بانتظار الأوامر التي ستطاع.

قال التايكو مرحبًا به باللقب الذي أطلقه عليه جورودا منذ زمن: «إذن يا تورا سان».

العينان العميقتان اللتان تطلان من الوجه الصغير الذي بدا كوجه قرد ضئيل متصلًا بجسد لا يقل ضالة... جسد كان قويًا كالفولان حتى أشهر مضت حين بدأ الضعف يتسلل إليه. تابع: «أنا أحتضر. من العدم إلى العدم، ولكنك ستكون حيًا وابني عاجزًا».

- ليس عاجزًا يا سيدي. سيحترم جميع الدايميو ابنك كما يحترمونك.

- ضحك التايكو: «نعم، سيفعلون. اليوم. بينما أنا حي... نعم. ولكن كيف أضمن أن يحكم يايمون من بعدي؟».
- عيّن مجلسًا للصاية يا سيدي.
- قال التايكو بازدراء: «للوصاية! ربما يجب أن أجعلك وريثي وأدع لك تقدير ما إذا كان يايمون يستحق أن يخلفك».
- لن أكون جديرًا بفعل ذلك. ينبغي أن يخلفك ابنك.
- نعم، وكان يجب أن يخلف أبناء جورودا أباهم.
- لا. لقد خرقوا السلام.
- وأنت قضيت عليهم بأوامري.
- كان لديك تفويض الإمبراطور. لقد تمردوا على تفويضك الشرعي يا سيدي. أعطني أوامرك الآن، وسأطيعها.
- لهذا دعوتك هنا.
- ثم قال التايكو: «إنه أمر نادر أن يُرزق المرء بابن في السابعة والخمسين، وشيء بغيض أن يموت في الثالثة والستين... إذا كان له ابن وحيد وليس لديه أقارب وهو زعيم اليابان. أليس كذلك؟».
- قال توراناغا: «بلى».
- ربما كان من الأفضل لو لم يكن لدي ابن، حينها كنت سأترك المملكة لك كما اتفقنا. لديك أبناء أكثر من القمل لدى البرتغاليين.
- الكارما.
- ضحك التايكو وسال خيط من اللعاب الممزوج بالدم من فمه. مسحت يودوكو اللعاب بعناية كبيرة، وابتسم لزوجته: «شكرًا لك يا يو تشان، شكرًا».
- ثم التفتت عيناه نحو أوتشيبا نفسها وبادلتها هي الابتسام، لكن عينيه لم تبترسا، بل كانتا تتفحصان وتتساءلان وتفكران في السؤال الذي لم يجرؤ يومًا على طرحه مباشرة والذي كانت على يقين من أنه يراوده دائمًا: هل يايمون حقًا ابني؟
- الكارما يا أوتشيان. أليس كذلك؟
- قالها برفق، لكن خوف أوتشيبا من أن يسألها مباشرة أرهاقها، وظهرت الدموع في عينيها.

قال العجوز واستلقى للحظة مستغرقاً في التفكير: «لا حاجة إلى الدموع يا أو تشان. الحياة مجرد حلم داخل حلم».

نظر إلى تورانا جا مجدداً، وقال بدفء مفاجئ وغير متوقع اشتهر به: «يا صديقي القديم، يا لها من حياة عشناها، أليس كذلك؟ كل تلك المعارك؟ نقاتل جنباً إلى جنب... معاً لا نُقهر. لقد فعلنا المستحيل، أليس كذلك؟ معاً أذلنا العظماء وبصقنا على مؤخراتهم المرتفعة بينما كانوا يتوسلون المزيد. نحن... نحن فعلناها، فلاح ومينووارا». ضحك العجوز. «استمع، لو كان لدي بضع سنوات أخرى، لكنت دمرتُ آكلي الثوم تماماً. ثم مع الجيوش الكورية وجيوشنا اليابانية، بضربة حادة نحو بكين، كنت سأعتلي عرش التنين في الصين. حينها كنت سأمنحك اليابان التي تريدها، وأحصل أنا على ما أريد». كان صوته قوياً يخفي هشاشته الداخلية. «يمكن للفلاح أن يعتلي عرش التنين بوجه وشرف... ليس مثل هنا. أليس كذلك؟».

- الصين واليابان مختلفتان، نعم يا سيدي.

- نعم. إنهم حكماء في الصين. مؤسس السلالة دائماً ما يكون فلاحاً أو ابن فلاح، ويُنتزع العرش بالقوة وبأيادٍ ملوثة بالدماء. لا توجد طبقة وراثية هناك... أليس هذا هو سر قوة الصين؟ (ضحك مجدداً): القوة والأأيادي الملوخة بالدماء والفلاح... هذا أنا. أليس كذلك؟

- بلى. لكنك أيضاً ساموراي. لقد غيرت القواعد هنا. أنت مؤسس السلالة.

ارتشف العجوز الشاي بسعادة: «لطالما أحببتك يا تورانا سان. نعم... تخيل ذلك، أنا على عرش التنين... تخيل هذا! إمبراطور الصين، ويودوكو إمبراطورة، وبعدها أوتشيبا الجميلة، وبعدي يايمون، والصين واليابان متحدتان كما ينبغي أن تكونا. كان سيُعد الأمر سهلاً جداً. ثم مع جيوشنا وحشود الصين كنت سأغزو الشمال الغربي والجنوب، وكالعاهرات من الدرجة العاشرة، كانت إمبراطوريات الأرض كلها ستنهار وتسمح لنا أن نستولي منها على ما نشاء. نحن لا نُهزم -أنت وأنا كُنَّا لا نُهزم- اليابانيون لا يُهزمون، بالطبع نحن كذلك... نحن نعرف الغاية من الحياة. أليس كذلك؟».

كانت عيناه تلمعان بغرابة: «نعم. ما هي؟».

أجاب تورانا جا: «الواجب والانضباط والموت».

ضحك الرجل العجوز، وبدأ أصغر حجمًا وأكثر ضعفًا من أي وقت مضى، ثم وبذات المفاجأة التي اشتهر بها، تلاشى كل دفئه. سأل بصوت قاسٍ وحاد: «الأوصياء؟ من تختار؟».

- الزعماء كياما وإيشيدو وأونوشي وتودا هيرو ماتسو وسوجياما. ارتسمت ابتسامة شريرة على وجه التايكو: «أنت أذكى رجل في الإمبراطورية... بعدي. اشرح لسيداتك لماذا اخترت هؤلاء الخمسة».

قال توراناغا: «لأنهم جميعًا يكرهون بعضهم بعضًا، ولكنهم معًا يمكنهم الحكم بفعالية وقمع أي معارضة».

- حتى أنت؟

- لا، ليس أنا يا سيدي.

ثم التفت توراناغا إلى أوتشيبا وتحدث إليها مباشرة: «لكي يرث يايمون السلطة، عليك أن تصمدي تسع سنوات أخرى، لتحقيق ذلك، يجب عليك أولاً وقبل كل شيء أن تحافظي على سلام التايكو. اخترت كياما لأنه أكبر دايميو مسيحي، قائد عظيم ومن أكثر التابعين ولاءً. ثم سوجياما لأنه أغنى دايميو في البلاد، من عائلة عريقة ويكره المسيحيين بشدة، وسيكون له مكسب كبير إذا نال يايمون السلطة. وأونوشي لأنه يكره كياما، ليوازن قوته، وهو أيضًا مسيحي، ولكنه مصاب بالجذام ويتشبث بالحياة، سيعيش عشرين عامًا ويكره الآخرين بوحشية، خصوصًا إيشيدو. إيشيدو لأنه سيتعقب المؤامرات... لأنه فلاح يكره الساموراي الوراثةيين، ويعارض المسيحيين بشراسة. تودا هيروماتسو لأنه صادق ومطيع ومخلص، ثابت كالشمس وأشبه بأفضل سيف من يد سيف بارع. ينبغي أن يكون رئيس المجلس».

- وماذا عنك؟

- سأنفذ السيوكو مع ابني الأكبر نوبورو. ابني سودارا متزوج من أخت السيدة أوتشيبا، لذا فهو ليس تهديدًا، ولن يكون تهديدًا أبدًا. يمكنه أن يرث الكانتو إذا كان ذلك يرضيك، على أن يقسم بالولاء الدائم لبيتك.

لم يتفاجأ أحد بأن توراناغا عرض القيام بما كان واضحًا أن التايكو يفكر فيه، إذ إن توراناغا وحده كان التهديد الحقيقي بين الدايميو. ثم سمعت زوجها يقول: «أو تشان، بم تنصحين؟».

أجابت على الفور: «كل ما قاله الزعيم تورانا جا يا سيدي، باستثناء أنك يجب أن تأمر بتطليق أختي من سودارا الذي ينبغي أن ينفذ السيوكو. ينبغي أن يكون الزعيم نوبورو وريث الزعيم تورانا جا، وأن يرث مقاطعتي موساشي وشيموسا، على أن يذهب بقية الكانتو لوريثك يايمون. أنصحك بأن تأمر بذلك اليوم».

- يودوكو ساما؟

لدهشتها قالت يودوكو: «يا توكيتشي، أنت تعلم أنني أحبك بكل قلبي وأحب أو تشان، ويايمون كأنه ابني. أقول أن تجعل تورانا جا الوصي الوحيد».

- ماذا؟

- إذا أمرته بالموت، أعتقد أنك ستقتل ابننا. فقط الزعيم تورانا جا يمتلك المهارة الكافية والمكانة الكافية والدهاء الكافي ليتولى الأمور الآن. سلم يايمون إليه حتى يبلغ السن المناسبة. اطلب من الزعيم تورانا جا أن يتبنى ابننا رسمياً. ليتعلم يايمون على يد الزعيم تورانا جا وليرثه فيما بعد.

اعترضت أوتشيبا: «لا... يجب ألا يحدث هذا».

سأل التايكو: «ما رأيك في هذا يا تورا سان؟».

- يجب أن أرفض بكل تواضع يا سيدي. لا أستطيع قبول هذا، وأطلب منك السماح لي بتنفيذ السيوكو وأن أسبقك إلى العدم.

- ستكون الوصي الوحيد.

- لم أرفض طاعتك منذ أن عقدنا اتفاقنا. لكنني أرفض هذا الأمر.

تذكرت أوتشيبا كيف كانت تحاول إقناع التايكو بالسماح لتورانا جا بقتل نفسه كما كانت تعلم أن التايكو قد قرر بالفعل. لكن التايكو غير رأيه، وفي النهاية قبل جزءاً مما نصحت به يودوكو، واتفق على أن يصبح تورانا جا وصياً ورئيساً للمجلس. أقسم تورانا جا بالولاء الأبدي ليايمون، لكنه الآن ما زال ينسج الشبكة التي أوقعهم جميعاً فيها، مثل هذه الأزمة التي أحدثتها ماريكو. تمت أوتشيبا: «أعلم أن هذه كانت أوامره».

والآن تريد السيدة يودوكو منها أن تخضع له بالكامل.

الزواج من تورانا؟ احمني من هذا العار يا بوذا، من أن أضطر إلى استقباله وأن أحمل أطفاله.

عار؟

سألت نفسها: ما الحقيقة يا أوتشيبا؟ الحقيقة هي أنك كنت تريدني... قبل التايكو، أليس كذلك؟ حتى خلاله، أليس كذلك؟ مرات عديدة في قلبك السري. أليس كذلك؟ كانت الحكمة محقة مجدداً بشأن كون الكبرياء عدوك وحاجتك إلى رجل، إلى زوج. لماذا لا تقبلين بإيشيدو؟ إنه يحترمك ويريدك وسينتصر. سيكون سهل التحكم به. أليس كذلك؟ لا، ليس هذا اللفظ القبيح. أعلم الإشاعات القذرة التي نشرها الأعداء... وقاحة قذرة. أقسم إنني أفضل أن أكون مع خدمي وأعتمد على الهاريجاتا لألف عام أخرى على أن أسيء إلى ذكرى زعيمِي مع إيشيدو. كوني صادقة يا أوتشيبا. فكري في تورانا. ألسنتك تكرهينه حقاً فقط لأنه ربما رآك في ذلك اليوم الحُلْمِي؟

كان ذلك منذ أكثر من ست سنوات في كيوشو، عندما كانت مع سيداتها في رحلة صيد مع التايكو وتورانا. كانت جماعتهم منتشرة على نطاق واسع وكانت تركض خلف أحد صقورها، منفصلة عن الآخرين. كانت في التلال وسط غابة وفجأة وجدت نفسها أمام فلاح يجمع التوت بجانب طريق منعزل. كان ابنها الأول الهزيل قد مات منذ عامين تقريباً، ولم توجد أي بوادر جديدة في رحمها، رغم أنها جربت كل وضعية أو حيلة أو حمية غذائية، وكل خرافة أو جرعة أو صلاة، يائسة لإرضاء هوس زعيمها بالحصول على وريث. كان اللقاء مع الفلاح مفاجئاً. نظر إليها وكأنها كامي، ونظرت هي إليه لأنه كان صورة التايكو، صغيراً وشبيهاً بالقرد، لكنه كان شاباً.

صرخ عقلها بأن هذا هو الهدية من الآلهة التي كانت تدعو لها، فنزلت عن حصانها وأخذت بيده وسارا معاً خطوات قليلة داخل الغابة وتحكمت رغبتها بها.

كل شيء كان له طابع الحلم، الجنون والشهوة والخشونة وهي مستلقية على الأرض، وحتى اليوم كانت لا تزال تشعر بجسده وأنفاسه العذبة وبديه التي كانت تحتضنها بروعة. ثم شعرت بثقل وزنه، وفجأة أصبحت أنفاسه كريهة وكل شيء فيه بغيضاً، فدفعته بعيداً. كان يريد المزيد لكنها ضربته ولعنته وأخبرته أن يشكر الآلهة لأنها لم تحوله إلى شجرة لوقاحته، وراح

الأحمق المؤمن بالخرافات يتوسل لها على ركبتيه. بالطبع كانت كامى، وإلا فلماذا يتلوى مثل هذا الجمال في التراب من أجل شخص مثله.

تسلقت السرج بضعف وسارت بالحصان مبتعدة، كانت مذهولة، وسرعان ما تلاشى شعورها بالرجل وبالمكان، متسائلة إذا كان كل شيء حلمًا والفلاح كامى حقيقياً، داعية أن يكون كامى، وأن يكون جوهره مقدساً، ليمنحها ابناً آخر لتمجيد زعيمها ويمنحه السلام الذي يستحقه. ثم على الجانب الآخر من الغابة، كان تورانا جا ينتظرها. تساءلت في ذعر: هل رآها؟

قال لها: «كنت قلقاً عليك يا سيدتي».

- أنا... أنا بخير تمامًا، شكرًا لك.

- لكن الكيمونو الخاص بك ممزق... توجد نباتات شائكة في ظهركِ وفي شعرك...

- ألقى بي الحصان... إنه لا شيء.

ثم تحدثت لسباق نحو المنزل لإثبات أنه لا يوجد خطب بها، وانطلقت كالرياح الهوجاء، وظهرها لا يزال يؤلمها من الأشواك التي عالجتها زيوت عطرية لاحقًا، وفي الليلة ذاتها، استلقت بجوار زعيمها وسيدها، وبعد تسعة أشهر أنجبت يايمون متسببة في فرحته الأبدية. وفرحتها أيضًا.

قالت أوتشيبا بيقين كامل إلى جثة يودوكو: «بالطبع زوجنا هو والد يايمون. هو والد كلا طفلي... الأمر الآخر كان حلمًا».

فكرت: لماذا تخدعين نفسك؟ لقد حدث. لم يكن ذلك الرجل كامى. لقد جامعت فلاحًا في التراب لتنجبي ابناً كنتِ تحتاجينه بشدة كما كان التايكو يحتاجه، ليربطه بك. لأنه كان سيتخذ محظية أخرى، أليس كذلك؟

وماذا عن ابنكِ الأول؟

قالت أوتشيبا وهي تتجنب ذلك الحزن الكامن أيضًا: «الكارما».

قالت لها يودوكو عندما كانت في السادسة عشرة: «اشربي هذا يا صغيرتي».

بعد عام من كوني المحظية الرسمية للتايكو. فشربت الشاي العشبي الغريب الدافئ وشعرت بنعاس شديد، وفي المساء التالي عندما استيقظت، لم تتذكر سوى أحلام شهوانية غريبة وألوان غير مألوفة وإحساس غريب بعدم

مرور الوقت. كانت يودوكو بجوارها حين استيقظت، كما كانت بجانبها حين نامت، مهتمة بانسجام زعيمهما بقدر اهتمامها. وبعد تسعة أشهر أنجبت، لتصبح أول امرأة من نساء التايكو تنجب. لكن الطفل كان مريضاً وتوفي في طفولته.

فكرت: الكارما.

لم يُقال أي شيء بينها وبين يودوكو عما حدث، أو ما قد يكون حدث خلال تلك الغفوة العميقة الطويلة. لم يتبادلا شيئاً سوى «سامحيني...». منذ لحظات قليلة، و«لا شيء يستوجب المغفرة».

أنتِ لست مذنبية يا يودوكو ساما، ولم يحدث شيء، لا سر ولا فعل خفي، وإن حدث، فارقدي بسلام يا عجوز، فقد دُفن السر معك. كانت عيناها مركّزتين على الوجه الفارغ، الهزيل والضعيف الآن، تماماً كما كان التايكو ضعيفاً وهزيلًا في نهايته، لم يُسأل سؤاله هو الآخر. فكرت بلا عاطفة: الكارما هي التي جعلته يموت. لو عاش عشر سنوات أخرى لكنت إمبراطورة الصين، ولكن الآن... الآن أنا وحيدة.

قالت ورائحة البخور والموت تحيط بها: «من الغريب أنكِ مت قبل أن أتمكن من الوعد يا سيدتي. كنت سأعدكِ، ولكنكِ مت قبل أن أعدكِ. هل هذه هي الكارما خاصتي أيضاً؟ هل أطيع طلباً ووعداً لم يُنطق به؟ ما الذي يجب فعله؟».

ابني، ابني، أشعر بالعجز.

ثم تذكرت شيئاً قالته الحكيمة: «فكّري كما كان التايكو ليفكر... أو كما كان توراناغا سيفكر».

شعرت أوتشيبا بقوة جديدة تتدفق فيها. جلست في السكون وبدأت في الطاعة ببرود.

خرجت تشيموكو في هدوء مفاجئ من البوابة الصغيرة المؤدية إلى الحديقة وسارت نحو بلاكتورن وانحنى له: «أنجين سان، أرجو المَعذرة، سيدتي ترغب في رؤيتك. إذا تفضلت بالانتظار للحظة، سأرافقك».

- حسناً. شكراً لك.

نهض بلاكثورن، ولا يزال غارقاً في تأملاته وإحساسه الطاعني بالهلاك. كانت الظلال طويلة الآن، ولم تكن الشمس تنير بعض أجزاء من الفناء الأمامي. استعد الرماديون للتحرك معه.

تقدمت تشيموكو نحو سوميوري وقالت: «أرجو المعذرة يا قائد، لكن سيدتي تطلب منك إعداد كل شيء».

- أين تود أن يتم ذلك؟

أشارت الخادمة إلى المساحة أمام البوابة: «هناك يا سيدي».

تفاجأ سوميوري: «هل تود أن يكون الأمر علنياً؟ وليس في خصوصية مع عدد قليل من الشهود؟ هل ستقوم بالأمر على مرأى من الجميع؟».

- نعم.

- لكن، حسناً... إذا كان هنا... ماذا عن مساعدتها؟

- تعتقد أن الزعيم كياما سيشرفها.

- وإذا لم يفعل؟

- لا أعلم يا قائد. هي... لم تخبرني.

انحنى تشيموكو وسارت عبر الفناء إلى الشرفة وانحنى مجدداً: «كيريستوبو سان، تقول سيدتي إنها تعتذر وستعود قريباً».

- هل هي بخير؟

قالت تشيموكو بفخر: «نعم».

كانت كيري والبقية قد هدأوا الآن. وشعروا بالقلق ذاته عندما سمعوا ما قيل للقائد. قالت: «هل تعلم أنه توجد سيدات أخريات ينتظرن تحيَّتها؟».

- نعم يا كيريستوبو سان. كنت أراقب وأخبرتھا. قالت إنها تشعر بالشرف لوجودهن وستشكرهن شخصياً قريباً. أرجو المعذرة.

راقبوا جميعهم وهي تعود إلى البوابة وتشير إلى بلاكثورن. بدأ الرماديون في مرافقتهم، لكن تشيموكو هزت رأسها وقالت إن سيدتها لم تطلب منهم ذلك. سمح القائد لبلاكثورن بالذهاب.

كان العالم خارج بوابة الحديقة مختلفاً، مزهراً وهادئاً، الشمس على قمم الأشجار، الطيور تزقزق والحشرات تبحث عن غذائها، والجدول تنساب بسلام إلى بركة الزنابق. لكن لم يستطع التخلص من شعوره بالكآبة.

توقفت تشيموكو وأشارت إلى بيت الشاي الصغير. تقدم وحده. خلع نعليه وصعد الدرجات الثلاث. اضطر إلى الانحناء بشدة، تقريبًا حتى ركبتيه، ليتمكن من الدخول عبر المدخل الصغير ذي الستار. ثم وجد نفسه في الداخل. قالت: «أنت».

قال: «أنت».

كانت جاثية مواجهة المدخل، متألقة بمكياج جديد، شفاهها حمراء وشعرها مصفف بعناية ومرتدية كيمونو جديدًا بلون أزرق داكن مزين بحواف خضراء، وحزامًا أفتح لونًا وشريطًا أخضر رقيقًا في شعرها. - أنت جميلة.

ابتسمت بتردد: «وأنت أيضًا. أعذر لأنك اضطررت إلى المشاهدة».

- كان ذلك واجبي.

قالت: «ليس واجبًا، لم أتوقع -أو أخطط- لهذا القدر من القتل».

انتشل بلاكتورن نفسه من شروده وتوقف عن التحدث باللاتينية: «كارما. لقد كنت تخططين لهذا منذ زمن طويل... لانتحارك. أليس كذلك؟».

- حياتي لم تكن ملكي قط يا أنجين سان. كانت دائمًا ملكًا لزعيمي الإقطاعي، وبعده لسيدي. هذا هو قانوننا.

- إنه قانون سيئ.

رفعت أنظارها من الحصير: «نعم. ولا. هل سنتجادل حول أمور لا يمكن تغييرها؟».

- لا. أرجو المعذرة.

قالت باللاتينية: «أحبك».

- نعم. أعلم ذلك الآن. وأنا أحبك. لكن الموت هو هدفك يا ماريكو سان. - أنت مخطئ يا عزيزي. حياة سيدي هي هدفي. وحياتك أيضًا. وحقًا، لتغفر لي مريم أو لتباركني على ذلك، أحيانًا تكون فيها حياتك أكثر أهمية.

- لا يوجد مهرب الآن. لأي أحد.

- كن صبورًا. لم تغرب الشمس بعد.

- ليس لدي ثقة بهذه الشمس يا ماريكو سان. (مد يده ولمس وجهها): أنا آسف.
- وعدتك بأن تكون هذه الليلة كليلة نزل الزهور. كن صبورًا. أنا أعرف إيشيدو وأوتشيبا والبقية.
- قال بالبرتغالية وقد تغير مزاجه: «اللعنة على البقية. أنتِ تعنين أنكِ تراهنين على أن تورانا جا يعلم ما يفعله. أليس كذلك؟».
- أجابت بلطف: «اللعنة على مزاجك السيئ. اليوم قصير جدًا».
- أعتذر... أنت محقة مجددًا. اليوم ليس وقتًا للمزاج السيئ.
- راقبها. كان وجهها مُظللًا بالظلال التي ألقته الشمس عبر قضبان الخيزران، كانت الظلال تتسلل وتختفي بينما تغرب الشمس خلف أحد الأبراج.
- سأل: «ماذا يمكنني أن أفعل لمساعدتك؟».
- آمن بوجود غد.
- لمح للحظة ذعرها. فمد ذراعيه نحوها وضمها إليه وأصبح الانتظار أقل قسوة.

اقتربت خطواتُ أقدام.

- نعم يا تشيموكو؟
- حان الوقت يا سيدتي.
- هل كل شيء جاهز؟
- نعم يا سيدتي.
- انتظريني بجانب بركة الزنابق.
- ابتعدت الخطوات. التفتت ماريكو إلى بلاكتورن وقبَّلته برفق.
- قالت: «أحبك».
- قال: «أحبك».

انحنى له وخرجت من الباب، وتبعها.

توقفت ماريكو بجانب بركة الزنابق، وفكت حزام الأوبي وتركته يسقط. ساعدتها تشيموكو في خلع الكيمونو الأزرق. كانت ماريكو ترتدي تحته أكثر كيمونو أبيض وحزام باهر قد رآهما بلاكتورن من قبل. كان كيمونو الموت

الرسمي. حلت الشريط الأخضر من شعرها وألقته جانبًا، ثم وهي بكامل ثيابها البيضاء، سارت ولم تنظر إلى بلاكتورن.

خارج الحديقة، كان جميع البنين مصطفين في شكل مربع رسمي ثلاثي الجوانب حول ثمانى تاتامى وُضعت في مركز البوابة الرئيسية. جلس يابو وكيري وبقية السيدات في صف شرقي، مواجهين الجنوب. وكان الرماديون في الطريق مصطفين برسمية أيضًا، وبينهم محاربون ساموراي وسيدات ساموراي. عند إشارة من سوميوري، انحنى الجميع لها. وبادلتهن الانحناء. تقدم أربعة من الساموراي وفرشوا غطاءً قرمزيًا فوق التاتامى.

سارت ماريكو نحو كيريتسوبو وحيّتها وسازوكو وجميع السيدات. بادلنها الانحناء والتحية بأكثر الأساليب الرسمية. انتظر بلاكتورن عند البوابة. شاهدها تترك السيدات وتتجه نحو المربع القرمزي وتجنّو في منتصفه أمام الوسادة البيضاء الصغيرة. أخرجت يدها اليمنى خنجرها من حزام الأوبي الأبيض ووضعت على الوسادة أمامها. تقدمت تشيموكو وجثت أيضًا، وقدمت لها غطاءً أبيض نقيًا وحبلًا. رتبت ماريكو تنورة الكيمونو بمثالية، وساعدتها الخادمة، ثم ربطت الغطاء حول خصرها بالحبل. أدرك بلاكتورن أن هذا لمنع تنورتها من أن تتلوث بالدماء أو أن تفسدها سكرات موتها.

ثم رفعت ماريكو أنظارها إلى برج القلعة بهدوء واستعداد. كانت الشمس لا تزال تضيء الطابق العلوي، تعكس بريقها على البلاط الذهبي. وسرعان ما صعد الضوء الملتهب إلى القمة. ثم اختفت.

بدأت صغيرة للغاية وهي تجلس هناك بلا حراك، بقعة من البياض وسط المربع القرمزي.

كان الطريق مظلمًا بالفعل، والخدم يشعلون المشاعل. عندما انتهوا، انسحبوا سريعًا وبصمت كما جاؤوا.

مدت يدها ولمست الخنجر وعدّلته قليلًا. ثم نظرت مجددًا عبر البوابة إلى نهاية الطريق، لكنه هادئ وفارغ كما كان دائمًا. عادت بنظرها إلى الخنجر.

- كاسيجي يابو ساما.

- نعم يا تودا ساما؟

- يبدو أن الزعيم كياما قد رفض مساعدتي. رجاءً، سأتشرف إذا أصبحت مساعدي.

قال يابو: «إنه لشرف لي».

انحنى ونهض من مكانه ووقف خلفها إلى يسارها. أصدر سيفه صوتاً موسيقياً وهو يُستل من غمده. ثبت قدميه ورفع السيف بكلتا يديه. قال: «أنا جاهز يا سيدتي».

- أرجوك انتظر حتى أنتهي من القطع الثاني.

كانت عيناها مركبتين على الخنجر. رسمت علامة الصليب بيدها اليمنى على صدرها، ثم انحنى للأمام وأمسكت بالخنجر دون أن ترتعش، ولامسته بشفتيها كأنها تتذوق الفولاذ المصقول. ثم غيرت قبضتها وأمسكت بالخنجر بثبات ووضعت يدها اليمنى تحت الجانب الأيسر من عنقها. في تلك اللحظة، ظهرت مشاعل عند نهاية الطريق. كان هناك موكب قادم وإيشيدو في المقدمة.

لم تحرك الخنجر.

ظل يابو متأهباً، مركزاً على الهدف. قال: «يا سيدتي، هل تنتظرين أم تواصلين؟ أود أن أكون مثاليّاً لأجلك».

أجبرت ماريكو نفسها على التراجع عن الهاوية: «أنا... ننتظر... نحن... أنا...».

خفضت يدها التي تحمل الخنجر، والتي كانت ترتجف الآن. وعلى الوتيرة نفسها، أعاد يابو سيفه إلى غمده، ومسح على جانبيه.

وقف إيشيدو عند البوابة: «لم تغرب الشمس بعد يا سيدتي. الشمس لا تزال في الأفق. أل هذه الدرجة تريد الموت؟».

ضمت يديها ل تمنعهما من الارتجاف: «لا يا زعيم. فقط لأطيع زعمي...». سرت هممة غاضبة بين البنين بسبب وقاحة إيشيدو المتعجرفة، وكان يابو على وشك الانقضاض عليه لكنه توقف حين قال إيشيدو بصوت عالٍ: «لقد توسلت السيدة أوتشيبا إلى الأوصياء نيابةً عن الوريث لتقديم استثناء في حالتك. وقد وافقنا على طلبها. هذه التصاريح لرحيلك فجر الغد».

دفع بها إلى يدي سوميوري الذي كان قريباً.

قالت ماريكو بصوت ضعيف دون أن تفهم: «عذراً؟».

- أنت حرة لتغادري. عند الفجر.

- وماذا عن كيريتسوبو سان والسيدة سازوكو؟

- أليس هذا جزءاً من «واجبك» أيضاً؟ تصاريحهم هنا كذلك.

حاولت ماريكو التركيز: «و... وماذا عن ابنها؟».

ضحك إيشيدو بسخرية: «هو أيضاً يا سيدتي. وكل رجالكم».

تلعثم يابو: «الجميع لديهم تصاريح أمان؟».

قال إيشيدو: «نعم يا كاسيجي يابو سان. أنت الضابط الأعلى، أليس

كذلك؟ رجاءً اذهب على الفور إلى مساعدتي. إنه يكمل جميع تصاريحك، رغم

أنني لا أفهم لماذا يرغب الضيوف المكرمون في المغادرة. لا يستحق الأمر

ذلك لسبعة عشر يوماً. أليس كذلك؟».

سألت السيدة إيتسو العجوز بضعف، متجشئة على اختبار اكتمال نصر

ماريكو، وقلبها ينبض بسرعة وألم: «وماذا عني يا زعيم؟ هل... هل يمكنني

المغادرة أيضاً؟».

- بالطبع يا سيدة مايدا. لماذا نحتفظ بأي شخص ضد إرادته؟ هل نحن

سجانين؟ بالطبع لا! إذا كان ترحيب الوريث مهيناً لدرجة تجعلك

ترغبين في المغادرة، فلتغادري، مع أنني لا أفهم كيف تنوين قطع

مسافة أربعمائة ري للذهاب إلى منزلك، وأربعمائة ري أخرى للعودة

إلى هنا خلال سبعة عشر يوماً.

- أرجو أن... أعذرني، ترحيب الوريث ليس مهيناً...

قاطعها إيشيدو ببرود: «إذا كنت ترغبين في المغادرة، قدّمي طلب تصريح

بالطريقة العادية. سيستغرق يوماً أو يومين، ولكن سنضمن لك المغادرة

بأمان». وجه حديثه إلى الآخرين: «يمكن لأي سيدة التقدم، أي ساموراي.

لقد قلت من قبل، إنه تصرف غبي أن يغادر المرء من أجل سبعة عشر يوماً،

ويُعد إهانة لترحيب الوريث، وترحيب السيدة أوتشيبا، وترحيب الأوصياء...».

عاد نظره القاسي إلى ماريكو «أو الضغط عليهم بتهديدات السيوكو، والتي

يجب أن تتم بطريقة خاصة إذا كان الأمر يتعلق بسيدة، وليس كعرض علني

متعطرس. أليس كذلك؟ لا أسعى لموت النساء، بل فقط أعداء الوريث، لكن إذا

كانت النساء عدواً علنياً له، فسأبصق على جثثهن أيضاً قريباً».

استدار إيشيدو على عقبيه، وأعطى أمراً للجنود الرماديين ثم غادر. كرر القادة الأمر على الفور، وبدأ كل الرماديون في تشكيل صفوفهم والتحرك بعيداً عن البوابة، باستثناء عدد قليل منهم بقي احتراماً للبنيين.

قال يابو بصوت مبحوح، وهو يمسح يديه الرطبتين مجدداً، ومرارة الفشل تملأ فمه: «يا سيدتي، انتهى الأمر الآن. لقد... لقد انتصرت. لقد انتصرت». قالت: «نعم... نعم».

كانت يداها الضعيفتان تبحثان عن عقدة الحبل الأبيض. تقدمت شيموكو إلى الأمام لتفك العقد وتأخذ الغطاء الأبيض بعيداً، ثم تراجعت عن المربع القرمزي. كان الجميع يراقب ماريكو، منتظرين ليروا إن كانت تستطيع المغادرة.

كانت ماريكو تحاول النهوض على قدميها. لكنها فشلت. حاولت مجدداً. وفشلت مجدداً. اندفعت كيري لمساعدتها لكن يابو هز رأسه وقال: «لا، إنه امتيازها».

فعدت كيري إلى مكانها، وهي بالكاد تتنفس.

وقف بلاكثورن بجوار البوابة، كان لا يزال في حالة من السعادة العارمة لنجاتها، وتذكر كيف كان عليه تقوية عزمته في تلك الليلة التي كاد ينفذ فيها السيوكو، حين اضطر إلى الوقوف كرجل والمغادرة كرجل دون مساعدة، وأصبح ساموراي. راقبها محتقراً الحاجة إلى هذه الشجاعة، لكنه أيضاً يفهمها، بل ويحترمها.

رأها تمد يديها مجدداً نحو المربع القرمزي، ثم دفعت نفسها إلى الأعلى، وهذه المرة نجحت ماريكو في الوقوف. تمايلت وكادت أن تسقط، لكنها استطاعت أن تخطو ببطء مترنحة عبر المربع القرمزي، تعثرت بخطى غير ثابتة نحو الباب الرئيسي. قرر بلاكثورن أن ما فعلته كان كافياً، وأنها قد تحملت ما يكفي وأثبتت ما يكفي، لذا اقترب منها وأمسكها بين ذراعيه ورفعها في اللحظة التي فارقتها فيها قواها.

وقف للحظة في الساحة وحيداً، فخوراً بكونه وحيداً وأنه اتخذ القرار. كانت تبدو كدمية محطمة بين ذراعيه. ثم حملها إلى الداخل ولم يتحرك أحد ليتدخل أو يعترض طريقه.

الفصل السابع والخمسون

بدأ الهجوم على معقل البنيين في أحلك ساعات الليل، قبل الفجر بساعتين أو ثلاث. جاءت الموجة الأولى من عشرة من النينجا -المتخفين سيئي السمعة- من فوق أسطح الأبراج المحصنة المقابلة، التي أصبحت خالية الآن من الرماديين. ألقوا خطاطيف تسلق مغطاة بالقماش ومربوطة بالحبال إلى السطح المقابل، وتأرجحوا عبر الصدوع مثل العناكب. كانوا يرتدون ملابس ضيقة تناسب أجسادهم تمامًا سوداء، وجوارب تابي سوداء، وأقنعة سوداء، وأيديهم ووجوههم مغطاة بالسواد. مسلحين بأسلحة خفيفة مثل سكاكين متصلة بسلاسل وشوريكين -وهي نجوم حادة صغيرة مغطاة ذات رؤوس مسممة- أقراص يمكن رميها بحجم كف اليد. وكانوا يحملون حقائب على ظهورهم وعصي رفيعة وقصيرة.

كان النينجا مرتزقة، فنانيين في التخفي ومختصين في المهن الشائنة، في الخداع والتسلل والموت المفاجئ.

هبط الرجال العشرة بهدوء، وأعادوا سحب الخطاطيف، وثبتها أربعة منهم مرة أخرى على نتوء، وعلى الفور تأرجحوا للأسفل باتجاه شرفة على بعد ستة أمتار أسفلهم. وما إن وصلوا، فكّ رفاقهم الخطاطيف بصمت وأسقطوها للأسفل، ثم عبروا الأسطح للتسلل إلى منطقة أخرى.

انكسرت بلاطة تحت قدم أحدهم، فتجمد الجميع في أماكنهم. في الساحة الأمامية، على بعد ثلاثة طوابق وثمانية عشر مترًا، توقف سوميوري في جولته ونظر إلى الأعلى. ضاقت عيناه في الظلام وانتظر بلا حركة وفمه مفتوح قليلًا لتحسين سمعه بينما تجول بنظره ببطء. كان السقف الذي يقف عليه النينجا مغمورًا في الظلال، والقمر باهتًا، والنجوم ثقيلة في الهواء الرطب الكثيف. وقف الرجال ساكنين تمامًا، حتى تنفسهم كان محكومًا لا يُلاحظ، وكأنهم جزء من البلاط الذي يقفون عليه.

أجرى سوميوري فحصًا آخر بعينه وأذنيه، ثم مرة ثالثة، ولأنه ليس متأكدًا، فقد سار إلى الساحة للحصول على رؤية أفضل. كان الأربعة النينجا على الشرفة الآن أيضًا ضمن مجال رؤيته، لكنهم كانوا ساكنين كغيرهم، ولم يلاحظهم.

قال للحراس عند البوابة التي كانت مغلقة بإحكام الآن: «هل رأيتم أو سمعتم شيئًا؟».

أجاب الحراس المتنبهون: «لا يا قائد. عادةً ما يصدر البلاط أصواتًا، يتحرك قليلًا... قد يكون بفعل الرطوبة أو الحرارة».

قال سوميوري لأحدهم: «اصعد هناك وألقي نظرة والأفضل أن تُخبر حراس الطابق الأعلى أن يجروا عملية تفتيش احتياطية».

أسرع الجندي، وواصل سوميوري دوريته، بينما عاد بقية الساموراي إلى مواقعهم، مركزين على مراقبة الخارج.

على السطح والشرفة، ظل النينجا ثابتين تمامًا، حتى إن أعينهم لم تتحرك. كانوا مدربين على البقاء بلا حراك لساعات إذا لزم الأمر، وهو جزء من تدريباتهم المتواصلة. أشار القائد إليهم، فتحركوا مجددًا على الفور نحو الهجوم. حملتهم خطايفهم وحبالهم بهدوء إلى شرفة أخرى حيث تمكنوا من التسلل عبر النوافذ الضيقة في جدران الجرانيت. تحت هذا الطابق العلوي، كانت جميع النوافذ الأخرى -مواقع دفاعية للرماة- ضيقة للغاية بحيث لا يمكن الدخول إليها من الخارج. عند إشارة أخرى، دخلت المجموعتان في الوقت نفسه.

كانت الغرفتان في ظلام دامس، حيث عشرة من البنين نائمين في صفوف مرتبة. قُتلوا بسرعة وبهدوء شبه تام، طعنة واحدة في الحنجرة تقتل معظمهم، وقد قادت حواس المهاجمين المدربة إلى أهدافهم بلا خطأ، وفي لحظات كان آخر البنين يلفظ أنفاسه بصعوبة، كان صوته يُختنق تمامًا في اللحظة التي بدأ فيها بالصراخ. بعد أن تأكد القائد من تأمين الغرف والأبواب، أخرج صوان وحجر قداحة وأشعل شمعة، ثم حملها بحذر بين يديه إلى النافذة وأشار ثلاث مرات إلى الليل. رجاله في الخلفية يتأكدون من موت كل بني. كرر القائد الإشارة، ثم ابتعد عن النافذة وأشار بيده، متحدًا معهم باستخدام لغة الإشارة بأصابعه.

بدأ المهاجمون في فتح حقائبهم على الفور وتجهيز أسلحتهم الهجومية، سكاكين قصيرة حادة الطرفين على شكل منجل مع سلسلة متصلة بالمقبض تنتهي بثقل، إضافة إلى الشوريكين والسكاكين القابلة للرمي. وبأمر آخر، أخرج رجال مختارون العصي القصيرة. كانت هذه العصي عبارة عن رماح وأنابيب نفخ قابلة للتمدد، تنبسط إلى طولها الكامل بسرعة مذهلة. ومع إتمام كل رجل تجهيزاته، جثا على ركبتيه وثبت نفسه مواجهًا الباب، ثم سرعان ما أصبح ساكنًا تمامًا بلا أي جهد واعٍ. وعندما أصبح آخر رجل جاهزًا، أطفأ القائد الشمعة.

حينما دقت أجراس المدينة معلنة منتصف ساعة النمر -الساعة الرابعة، قبل الفجر بساعة- تسلفت موجة ثانية من النينجا. انزلق عشرون منهم بصمت من قناة مهجورة كانت فيما مضى تخدم جداول الحديقة. وكانوا جميعًا يحملون سيوفًا. انتشروا مثل الظلال في مواقعهم بين الشجيرات والأشجار، وسكنوا تمامًا في أماكنهم، حتى بدوا وكأنهم غير مرئيين تقريبًا. وفي الوقت نفسه سعدت مجموعة أخرى من عشرين رجلًا من الأرض بواسطة الحبال والخطاطيف لمهاجمة الأبراج التي تطل على الساحة الأمامية والحديقة.

كان يوجد اثنان من البننيين على الأبراج، يراقبان بحذر أسطح المباني الخالية عبر الشارع. التفت أحدهما ونظر إلى الخلف فرأى الخطاطيف خلفهما، وبدأ يشير في زعر. فتح زميله فمه ليصرخ محذرًا لكن النينجا الأول وصل إلى الكوة وأطلق شوريكين مدببة بحركة سريعة نحو وجه هذا الساموراي وفمه، خانقًا صرخته بطريقة مروعة، ثم اندفع نحو الساموراي الآخر بيده الممدودة كأنها سلاح قاتل، وأصاب الوريد الوداجي بإصبع الإبهام والسبابة. شلت الضربة الساموراي، وضربة أخرى عنيفة كسرت عنقه مصدرة صوت طقطقة جافة. قفز النينجا نحو الساموراي الأول الذي كان يحاول انتزاع الشوكة المسمومة المغروزة بعمق في فمه ووجهه، حيث كان السم قد بدأ بالفعل في التأثير عليه.

بجهد أخير عظيم، استلّ الساموراي المحتضر سيفه القصير ووجهه ضربة عميقة نحو النينجا الذي شهق، لكن ذلك لم يوقف الهجوم وأطبقت يده على حنجرة البني، كاسرًا رأسه إلى الخلف وخالعا عموده الفقري. مات الساموراي على قدميه.

كان النينجا ينزف بشدة لكنه لم يصدر أي صوت وبقي ممسكًا بجثة البني، ثم أنزلها بحذر إلى البلاط الحجري وجلس على ركبتيه بجوارها. كان النينجا قد تسلقوا حبالهم جميعًا الآن وأخذوا مواقعهم على البرج دون الالتفات إلى رفيقهم المصاب حتى تأكدوا من تأمين البرج. أما الجريح فقد ظل على ركبتيه بجوار جثث البنين، ممسكًا بجانبه. فحص القائد الجرح، ورأى الدم يتدفق بثبات. هز رأسه وتحدث بإشارات بأصابعه، فأومأ الرجل وسحب نفسه ببطء إلى زاوية، تاركًا أثرًا من الدماء خلفه. استقر في وضع مريح مستندًا إلى الحجر، وأخرج نجمة مسمومة، خدش بها مؤخرة يده عدة مرات، ثم وجد خنجره ووضع طرفه عند قاعدة خنجرته، وبكل قوته دفعه إلى أعلى بكلتا يديه.

تأكد القائد من موت هذا الرجل، ثم عاد إلى الباب المحصّن الذي يؤدي إلى الداخل. فتحه بحذر. وفي تلك اللحظة، سمعوا خطوات أقدام تقترب، فعادوا على الفور إلى مواقعهم الكامنة.

في الممر في الجناح الغربي، كان سوميوري يقترب ومعه عشرة من البنين. ترك اثنين منهما بالقرب من باب البرج، ومضى دون توقف. خرج هذان الحارسان إلى البرج بينما واصل سوميوري طريقه، واتجه نحو الدرج الدائري ونزل بضع درجات. وعند أسفل الدرج، كانت توجد نقطة تفتيش أخرى، حيث انحنى الساموراي المرهقان واستبدلا.

قال سوميوري: «اصطحبا الآخرين وعودوا إلى غرفكم. ستوقظون عند الفجر».

- حسنًا يا قائد.

صعد الساموراي الاثنان الدرج، سعداء بانتهاء نوبتهما. واصل سوميوري السير في الممر التالي، مستبدلاً الحراس في طريقه. ثم توقف أخيرًا أمام باب وطرق عليه، وكان برفقته آخر اثنين من الحراس.

- يابو سان؟

جاءه صوت ناعس: «نعم؟».

- أعتذر، إنه موعد تغيير الحراسة.

- شكرًا. تفضل بالدخول.

فتح سوميوري الباب لكنه ظل واقفاً بحذر عند العتبة. كان يابو متكئاً على أحد مرفقيه بين الأغطية، ويده الأخرى على سيفه. عندما تأكد أنه سوميوري، استرخى وتثأب: «هل من جديد يا قائد؟».

ارتاح سوميوري أيضاً وهز رأسه نافياً، ثم دخل وأغلق الباب. كانت الغرفة واسعة ومرتبة، ومفروشة بأغطية فوتون أخرى معدة كأنها تدعوك للاستلقاء. تطل نافذة بفتحات ضيقة على الشارع والمدينة، مسافة تسعة أمتار إلى الأسفل. قال: «كل شيء هادئ. إنها نائمة الآن... على الأقل هكذا قالت خادماتها تشيموكو».

تقدم نحو الخزانة المنخفضة حيث مصباح الزيت يومض، وصبّ لنفسه شايًا باردًا من إبريق بجواره. كان بجانب الإبريق تصريح المرور -مختومًا رسميًا- الذي أحضره يابو من مكتب إيشيدو. تثأب يابو مجددًا وتمدد براحة: «أنجين سان؟».

- كان مستيقظًا عندما تفقدته آخر مرة، وكان ذلك في منتصف الليل. طلب مني ألا أتفقدته مجددًا حتى قبيل الفجر، شيء يتعلق بتقاليده. لم أفهم كل ما قاله بوضوح، لكن لا ضرر في ذلك، فالحراسة مشددة للغاية في كل مكان، أليس كذلك؟ كيريتسوبو سان والسيدات الأخريات هادئات، رغم أن كيريتسوبو كانت مستيقظة معظم الليلة.

نهض يابو من سريره، وكان يرتدي فقط ملابس داخلية بسيطة: «ماذا كانت تفعل؟».

- كانت تجلس عند النافذة تحديقاً إلى الخارج. لا شيء يُرى هناك. اقترحت عليها أن تنام، فشكرتني بأدب ووافقت، لكنها بقيت في مكانها. النساء، أليس كذلك؟

مدّ يابو كتفيه ومرفقيه وأخذ يحك جسده بشدة لتحفيز الدورة الدموية، ثم بدأ يرتدي ملابسه: «ينبغي لها أن ترتاح. أمامها طريق طويل اليوم».

وضع سوميوري الكوب جانباً: «أعتقد أن الأمر مجرد خدعة».

- ماذا؟

- لا أعتقد أن إيشيدو جاد في الأمر.

- لدينا تصاريح موقعة. ها هي ذي، كل الأسماء مدونة فيها. لقد راجعت الأسماء. كيف يمكنه أن يتراجع عن التزام علني لنا أو للسيدة تودا؟ مستحيل، أليس كذلك؟

- لا أعلم. عذرًا يا يابو سان، لكنني ما زلت أعتقد أنها خدعة.

عقد يابو حزامه ببطء: «أي نوع من الخدع تقصده؟».

- سنتعرض لكمين.

- خارج القلعة؟

أوما سوميوري: «نعم، هذا ما أظنه».

- لن يجرؤ.

- سيجرؤ. سيهاجمنا أو يؤخرنا. لا أعتقد أنه سيسمح لها بالذهاب، أو

للسيدة كيريتسوبو أو السيدة سازوكو أو الرضيع. حتى السيدة إيتسو

العجوز والأخريات.

- لا، أنت مخطئ.

هز سوميوري رأسه بحزن: «أظن أنه كان من الأفضل لو أنها اختارت

الانتحار وأنت وجهت الضربة. بهذه الطريقة لم يُحل أي شيء».

التقط يابو سيفيه ووضعهما في حزامه. كان يفكر: نعم، أتفق معك. لم

يُحل أي شيء وفشلت هي في واجبها. أنت تعلم ذلك، وأنا أعلم ذلك، وكذلك

إيشيدو. أمر مخز. لو أنها انتحرت، لكننا جميعًا قد عشنا للأبد. أما الآن... لقد

عادت من النهاية وجلبت العار لنا ولها. لكن لا يوجد شيء يمكننا فعله؟ امرأة

غبية.

لكنه قال لسوميوري: «أعتقد أنك مخطئ. لقد هزمت إيشيدو. لقد فازت

السيدة تودا. لن يجرؤ إيشيدو على مهاجمتنا. اذهب للنوم وسأوقظك عند

الفجر».

هز سوميوري رأسه مجددًا: «لا، شكرًا يا يابو سان، أعتقد أنني سأجري

جولة أخرى». توجه إلى النافذة ونظر إلى الخارج. «يوجد شيء ليس على ما

يرام».

- كل شيء بخير. احصل على بعض... انتظر لحظة! ما هذا؟ هل سمعت

شيئًا؟

تقدم يابو نحو سوميوري وتظاهر بأنه يبحث في الظلام والاستماع بانتباه، ثم دون سابق إنذار، استل سيفه القصير وبحركة سريعة وحازمة غرز النصل في ظهر سوميوري، واضعاً يده الأخرى على فمه ليمنعه من الصراخ. ومات القائد على الفور.

أمسك يابو بالجثة بحذر بعيداً عنه بقوة عظيمة ليتجنب اتساخ ثيابه بالدماء، وحملها نحو الفوتون ووضعها في وضعية النوم. ثم سحب سيفه وبدأ في تنظيفه، غاضباً لأن حدس سوميوري دفعه للقتل غير المخطط له. فكر يابو: ومع ذلك، لا يمكنني تركه يتجول الآن.

في وقت سابق، عندما كان يابو عائداً من مكتب إيشيدو ومعه تصاريح الأمان، اعترضه ساموراي لم يره من قبل.

- يُطلب منك التعاون يا يابو سان.

- بخصوص ماذا ومع من؟

- من قبل شخص قدمته له عرضاً بالأمس.

- أي عرض؟

- في مقابل تصاريح الأمان لك ولأنجين سان، ستضمن تجريدها من سلاحها خلال الهجوم في أثناء رحلتك... رجاء لا تلمس سيفك يا يابو سان، فهناك أربعة رماة ينتظرون الإشارة.

تظاهر يابو بالثبات رغم شعوره بالضعف في ركبتيه: «كيف تجرؤ على تهديدي؟ أي هجوم؟».

لم يعد لديه شك في أن الرجل كان وسيطاً من طرف إيشيدو. لقد قدم العرض السري في الأمس عبر وسطاء خاصين، في محاولة يائسة لإنقاذ ما يمكن من الخراب الذي أحدثته ماريكو في خططه بشأن السفينة السوداء والمستقبل. في ذلك الوقت كان يدرك أن الخطة محفوفة بالأخطار، إذ سيكون من الصعب بل ومن المستحيل تجريدها من سلاحها والبقاء على قيد الحياة، مما جعل الفكرة محفوفة بالأخطار لكلا الجانبين. وعندما جاء الرفض من طرف إيشيدو عبر وسطاء، لم يكن متفاجئاً.

قال يابو متظاهراً: «لا أعرف شيئاً عن أي هجوم».

تمنى لو كانت يوريكو معه لتساعده في الخروج من هذه الورطة.

- على أي حال، أنت مدعو للمشاركة في واحد، ولو لم يكن بالطريقة التي خططت لها.

- من أنت؟

- في المقابل ستحصل على إيزو والهمجي وسفينته، في اللحظة التي يسقط رأس العدو الرئيسي فيها. شريطة أن يُقبض عليها حية بالطبع، وتبقى في أوساكا حتى ذلك اليوم وتقدم الولاء.

حاول يابو استيعاب ما سمعه وسأل: «رأس مَنْ؟».

أدرك في تلك اللحظة أن طلب إيشيدو منه إحضار تصاريح الأمان لم يكن سوى حيلة لطرح العرض السري بأمان.

سأل الساموراي: «هل توافق أم لا؟».

رفع اللفافة وقال: «هذه تصاريح الأمان من الزعيم إيشيدو. حتى القائد الزعيم لا يمكنه إلغاء هذه التصاريح بعد ما حدث».

- هذا ما يقوله الكثيرون. لكن أعذر، ستبصق الثيران ذهباً قبل أن يُسمح لك بإهانة الزعيم يايمون... رجاءً ابعد يدك عن سيفك.

- إذن انتبه لحديثك.

- بالطبع، آسف جداً. هل توافق؟

حاول يابو المناورة وقال: «أنا الآن سيد إيزو، ووُعدت بتوتومي وسوروجا». كان يعلم أنه رغم كونه مُحاصراً كما كانت ماريكو محاصرة، فإن إيشيدو كذلك محاصر بسبب المأزق الذي خلقته ماريكو.

قال الساموراي: «نعم، هذا صحيح. لكن لا يُسمح لي بالتفاوض. هذه هي الشروط. هل توافق أم لا؟».

أنهى يابو تنظيف سيفه وغطى جسد سوميوري الذي يبدو نائماً، ثم مسح العرق عن وجهه ويديه، وتحكم في غضبه، وأطفأ الشمعة وفتح الباب. كان الاثنان البنيان ينتظران على بعد خطوات. انحنيا له.

قال يابو للظلام: «سأوقظك عند الفجر يا سوميوري سان». ثم التفت إلى أحد الساموراي وقال: «أنت ستقف هنا. لا أحد يدخل. لا أحد! تأكد أن القائد لا يُزعج... يحتاج إلى الراحة».

- حسناً يا سيدي.

تولى الساموراي موقعه الجديد، وتابع يابو سيره في الممر مع الحارس الآخر، صعد بضع درجات نحو الجزء الرئيسي من هذا الطابق وعبره باتجاه غرفة الاستقبال والشقق الداخلية في الجناح الشرقي. وسرعان ما وصل إلى الممر المسدود لغرفة الاستقبال. انحنى له الحراس وسمحوا له بالدخول. فتح ساموراي آخر الباب المؤدي إلى الممر ومجموعة الغرف الخاصة. طرق يابو بابًا.

قال بهدوء: «أنجين سان؟».

لم يكن هناك رد. فتح الشوجي ودخل. كانت الغرفة خالية، والباب الداخلي مفتوحًا جزئيًا. قطب جبينه وأشار للحارس المرافق له أن ينتظر، وسارع عبر الغرفة إلى الممر الداخلي المضاء بإضاءة خافتة. اعترضت تشيموكو طريقه ممسكة بسكين. كان سريرها الفوضوي في هذا الممر خارج إحدى الغرف.

قالت باعتذار وهي تخفض السكين: «أعذر يا سيدي، كنت نائمة».

لكنها لم تتحرك من طريقه.

- كنت أبحث عن أنجين سان.

- إنه والسيدة يتحدثان يا سيدي، مع كيريتسوبو سان والسيدة أتشيكو.

- رجاء أسأليه إذا كان بإمكانه رؤيته للحظة.

- بالطبع يا سيدي.

أشارت تشيموكو بأدب إلى يابو ليتراجع إلى الغرفة الأخرى، وانتظرت حتى عاد إلى هناك، ثم أغلقت الباب الداخلي. تابع الحارس في الممر الرئيسي المشهد بفضول.

بعد لحظة، فُتح الباب مجددًا ودخل بلاكثورن. كان يرتدي ملابسه ويحمل سيفًا قصيرًا.

قال: «مساء الخير يا يابو سان».

- أعذر لإزعاجك يا أنجين سان. فقط أردت التأكد... أن كل شيء على ما يرام، هل تفهم؟

- نعم، شكرًا. لا تقلق.

- هل السيدة تودا بخير؟ ليست مريضة؟

- بخير الآن. متعبة جدًا لكنها بخير. الفجر قريب، أليس كذلك؟

أوماً يابو: «بلى. أردت فقط التأكد أن كل شيء على ما يرام. هل تفهم؟».

- نعم. بعد ظهر هذا اليوم قلت «خطة» يا يابو سان. هل تتذكر؟ رجاء ما الخطة السرية؟

قال يابو، نادماً على صراحته السابقة: «لا سر يا أنجين سان. ربما أسأت الفهم. قلت فقط إن علينا أن نضع خطة... الخروج من أوساكا صعب، أليس كذلك؟ علينا أن نهرب وإلا...». ثم أشار بيده وكأنه يمرر سكيناً على حلقه. «هل تفهم؟».

- نعم. ولكن الآن لدينا تصريح، أليس كذلك؟ الآن يمكننا الخروج بأمان من أوساكا، أليس كذلك؟

- بلى. قريباً سنغادر. على متن قارب جيد جداً. قريباً سنصل إلى الرجال في ناجازاكي. هل تفهم؟

- نعم.

ابتعد يابو بود متصنّع، فأغلق بلاكتورن الباب خلفه وعاد إلى الممر الداخلي، تاركاً الباب الداخلي مفتوحاً قليلاً. مر بجانب تشيموكو ودخل الغرفة الأخرى. كانت ماريكو مستلقية على الفوتون، تبدو أكثر ضالة من أي وقت مضى، وأكثر رقة وجمالاً. كانت كيري تجلس على وسادة بجانبها، وأتشيكو مستغرقة في النوم في أحد جوانب الغرفة.

قالت ماريكو: «ماذا أراد يا أنجين سان؟».

- أراد فقط التأكد أننا بخير.

ترجمت ماريكو لكيري.

- تقول كيري: هل سألته عن «الخطة»؟

- نعم. لكنه تهرب من السؤال. ربما غير رأيه. لا أدري. ربما كنت مخطئاً، لكنني ظننت أنه كان يخطط لشيء ما بعد ظهر اليوم. أو خطط بالفعل.

- لخيانتنا؟

- بالطبع. لكن لا أعلم كيف.

ابتسمت ماريكو له وقالت: «ربما كنت مخطئاً. نحن الآن في أمان».

تململت الفتاة الشابة أتشيكو في نومها، فالتفتا إليها. كانت قد طلبت البقاء مع ماريكو، وكذلك فعلت السيدة إيتسو العجوز التي كانت نائمة بسلام

في الغرفة المجاورة. أما السيدات الأخريات فقد غادرن عند الغروب عائداً إلى بيوتهن. وكن قد قدمن طلبات رسمية للرحيل فوراً. ومع حلول الظلام، انتشرت شائعات في القلعة بأن ما يقرب من مائة وخمسة سيطلبون المغادرة أيضاً غداً. وقد استدعى كياما أتشيكو زوجة حفيده، لكنها رفضت ترك ماريكو. وعلى الفور تبرأ منها الدايميو وطالب بحق حضانة الطفل. تخلت عن طفلها، وفي تلك اللحظة كانت الفتاة تحلم بكابوس، لكنه مر وعادت لتنام بهدوء.

نظرت ماريكو إلى بلاكتورن وقالت: «إنه لشيء رائع أن نكون بسلام، أليس كذلك؟».

قال: «بلى».

منذ أن استيقظت ووجدت نفسها على قيد الحياة، تشبثت روحها بروحه. قضيا أول ساعة وحدهما وهي مستلقية بين ذراعيه.

قال باللاتينية: «أنا سعيد أنك على قيد الحياة يا ماريكو. لقد رأيتك ميتة».

- ظننت أنني كنت ميتة. لا أزال لا أصدق أن إيشيدو تراجع. لا يمكن أن يحدث هذا حتى بعد عشرين حياة... أوه، كم أحب أن أكون بين ذراعيك وأشعر بقوتك.

- كنت أفكر أنني منذ لحظة تحدي يوشيناكا، لم أرَ شيئاً سوى الموت... موتك وموتي وموت الجميع. رأيت خطتك، التي استغرق إعدادها وقتاً طويلاً، أليس كذلك؟

- بلى. منذ يوم الزلزال يا أنجين سان. سامحني، لم أرد... لم أرد أن أخيفك. كنت أخشى أنك لن تفهم. نعم، منذ ذلك اليوم عرفت أن الكارما الخاصة بي كانت أن أخرج الرهائن من أوساكا. أنا الوحيدة التي يمكنها فعل ذلك من أجل الزعيم توراناكا. والآن أنجزت ذلك. لكن بأي ثمن، أليس كذلك؟ سامحيني يا مريم.

وصلت كيري، واضطرتا إلى أن تجلسا متباعدتين، لكن ذلك لم يكن يهم أيّاً منهما. كانت نظرة أو ابتسامة أو كلمة تكفي.

تقدمت كيري نحو النوافذ الصغيرة، وكانت الأضواء الخافتة تلمع بعيداً في البحر من قوارب الصيد القريبة من الشاطئ. قالت: «الفجر قريب».

قالت ماريكو: «نعم، سأنهض الآن».

قالت كيري: «ليس بعد يا ماريكو ساما. استريحى رجاءً. تحتاجين إلى استعادة قوتك».

- أتمنى لو كان الزعيم تورانا جا هنا.

- نعم.

- هل جهزت رسالة أخرى عن... عن رحيلنا؟

قالت كيري: «نعم يا ماريكو ساما، ستغادر حمام زاجل آخر مع بزوغ الفجر. سيسمع الزعيم تورانا جا عن انتصارك اليوم، وسيكون فخورًا بك للغاية».

- أنا سعيدة لأنه كان محققًا.

قالت كيري: «نعم. سامحيني لأنني شككت بك وبالزعيم تورانا جا».

- في أعماق قلبي، كنت أشك فيه أيضًا. آسفة.

عادت كيري نحو النافذة ونظرت عبر المدينة. أرادت أن تصرخ: تورانا جا مخطئ. لن تغادر أوساكا أبدًا، مهما تظاهرننا بذلك. إنها الكارما الخاصة بنا أن نبقى هنا... والكارما الخاصة به أن يخسر.

توقف يابو في الجناح الغربي عند غرفة الحراسة. كانت الحراسة البديلة جاهزة. قال: «سأقوم بتفتيش سريع».

- حسنًا يا سيدي.

- البقية، انتظروني هنا. أما أنت، فتعال معي.

نزل يابو الدرج الرئيسي بمرافقة حارس واحد فقط. عند أسفل الدرج في الردهة الرئيسية يوجد حراس آخرون، وفي الخارج كانت الساحة والحديقة. ألقى نظرة سريعة فتبين له أن كل شيء على ما يرام. ثم عاد إلى القلعة، وبعد لحظة غير اتجاهه. نزل الدرجات إلى أجنحة الخدم مما أثار دهشة حارسه. انتفض الخدم من نومهم، يضعون رؤوسهم على الحجارة بلا حيلة. لم يلاحظهم يابو تقريبًا. قاد الطريق أعمق في قاع القلعة، نزولًا عبر سلالم وممرات مقوسة نادرًا ما استُخدمت، كانت جدرانها الحجرية رطبة الآن وعليها العفن، رغم أنها كانت مضاءة جيدًا. لم يوجد حراس هنا في القبو لأن لا شيء

يحتاج إلى الحماية. ثم سرعان ما بدؤوا في الصعود مجددًا مقتربين من الجدران الخارجية.

توقف يابو فجأة: «ماذا كان ذلك؟».

توقف الساموراي البني، استمع، ثم مات. نظف يابو سيفه وسحب الجثة المتهالكة إلى زاوية مظلمة، ثم انطلق نحو باب حديدي صغير مغلق بإحكام كان قد أخبره عنه وسيط إيشيدو. قاوم الأقفال الصدئة حتى فُتح آخرها. فُتح الباب. هبت نسمة هواء باردة من الخارج، ثم انغرز رمح نحو حلقه وتوقف في اللحظة الأخيرة. كان يابو عاجزًا عن الحركة. نظر إليه النينجا من الظلام الحالك خلف الباب، وأسلحتهم جاهزة.

رفع يابو يده المرتجفة وأشار كما قيل له أن يفعل. قال: «أنا كاسيجي يابو».

أوما القائد الذي كان يرتدي السواد ويغطيه القناع، ولكنه أبقى رمحه جاهزًا للضربة. أشار إلى يابو. تراجع يابو خطوة إلى الوراء بطاعة. ثم دخل القائد إلى منتصف الممر بحذر شديد. كان طويل القامة وذو بنية ضخمة، بعينين واسعتين خلف قناعه. رأى الساموراي البني الميت، وبحركة خاطفة من معصمه أرسل رمحه ليدخل في الجثة، ثم استرده بسلسلة رقيقة كانت متصلة به. أعاد لف السلسلة بهدوء منتظرًا ومستمعًا بتركيز لأي خطر.

عندما أصبح راضيًا، أشار إلى الظلام. وعلى الفور تدفق عشرون رجلًا واندفعوا نحو الدرج، وهو الطريق الخلفي المنسي إلى الطوابق العليا. كان هؤلاء الرجال يحملون أدوات الهجوم، مزودين بسكاكين متصلة بسلاسل وسيوف وشوريكين. وفي منتصف أغطية رؤوسهم السوداء كان توجد بقعة حمراء.

لم يراقب القائد تحركهم، بل أبقى عينيه مركّزتين على يابو، وبدأ يعدُّ بأصابعه ببطء بيده اليسرى: «واحد... اثنان... ثلاثة...».

شعر يابو بالكثير من الرجال يراقبونه من الممر الذي خلف الباب. لكنه لم يرَ أحدًا.

الآن المهاجمون ذوو البقعة الحمراء يصعدون الدرجات في خطوة واحدة لكل درجتين، وتوقفوا عند قمة هذا الدرج. يوجد باب يحول بينهم وبين الطريق. انتظروا لحظة ثم حاولوا فتحه بحذر. كان عاليًا. تقدم رجل يحمل

أداة هجوم؛ قضيب حديدي قصير مع طرف مشذب من أحد الجوانب، وبدأ يفتح الباب. وراءه يوجد ممر آخر مغطى بالعفن، فتسارعوا عبره بصمت. توقفوا عند الزاوية التالية. نظر الرجل الأول حوله ثم أشار إلى الآخرين ليدخلوا ممرًا آخر. في الطرف البعيد، شعاع ضوء يتسلل من ثقب مراقبة في الألواح الخشبية الثقيلة التي تغطي هذا الباب السري. وضع عينه عليه، فاستطاع أن يرى عرض غرفة الاستقبال، حيث يوجد اثنان من البنيين وآخران من الرماديين المرهقين، يقفون حراسة على باب المدخل إلى مجموعة الغرف. نظر حوله وأومأ إلى الآخرين. كان أحد الرجال لا يزال يعدُّ بأصابعه، متزامنًا مع إيقاع عد القائد في الطابق السفلي. اتجهت جميع أنظارهم إلى العد.

كان القائد في الأسفل لا يزال يعدُّ بأصابعه بإيقاع منتظم، وعيناه لا تغادران يابو. كان يابو يراقب منتظرًا، ورائحة عرقه الناجم عن خوفه تتسلل إلى أنفه. توقفت الأصابع وأغلقت قبضة القائد فجأة. أشار إلى الممر. أومأ يابو واتجه للعودة عبر الطريق الذي جاء منه، يسير ببطء. وبدأ العدُّ القاسي خلفه مجددًا: «واحد... اثنان... ثلاثة...».

كان يابو يعرف المخاطرة الفادحة التي كان يتخذها، لكنه لم يكن يملك خيارًا آخر، ولعن ماريكو مجددًا على إجباره على الانحياز إلى جانب إيشيدو. جزء من اتفاقه كان أن يفتح هذا الباب السري.

سأل متشككًا: «ماذا يوجد خلف الباب؟».

- أصدقاء. هذه هي الإشارة وكلمة المرور هي أن تقول اسمك.

- إذن سيقتلونني، أليس كذلك؟

- نعم. أنت ثمين جدًا يا يابو سان. يجب عليك التأكد من تغطية التسلل...

لقد وافق، لكنه لم يتوقع النينجا، المرتزقة الأسطوريين المكروهين والمخيفين الذين لا يوالون سوى عائلاتهم السرية والمترابطة، والتي تنقل أسرارها فقط إلى الأفراد المتوارثين من الدماء، الذين يعرفون كيف يسبحون مسافات كبيرة تحت الماء ويصعدون الجدران شبه الملساء، وكيف يصبحون غير مرئيين، وكيف يثبتون ليوم وليلة دون حراك، وكيف يقتلون بأيديهم أو أقدامهم أو بأي سلاح كان، بما في ذلك السم والنار والمتفجرات. بالنسبة للنينجا، كان الموت العنيف مقابل الأجر هو غايتهم الوحيدة في الحياة.

تمكّن يابو من الحفاظ على وتيرة سرعته المحسوبة وهو يبتعد عن قائد النينجا عبر الممر، وكان صدره ما زال يؤلمه من الصدمة بأن قوة الهجوم كانت من النينجا وليس من الرونين. قال لنفسه: لا بد أن إيشيدو قد جُنّ. كانت حواسه على شفا الانهيار، متوقعًا أن يخترق رمح أو سهم أو حبل خنق جسده في أي لحظة. كان الآن قريبًا من الزاوية. ثم انعطف وعاد إلى الأمان مجددًا، فركض بسرعة وصعد الدرجات ثلاث درجات في الخطوة الواحدة. وعند القمة، انطلق مسرعًا عبر الممر المقوس، ثم انعطف الزاوية متجهًا نحو أجنحة الخدم.

كانت أصابع القائد لا تزال تعدّ اللحظات، ثم توقف العدّ. أشار بإلحاح أكثر إلى الظلام، واندفع خلف يابو. تبعه عشرون من النينجا من الظلام، بينما أخذ خمسة عشر آخرين مواقع دفاعية عند طرفي الممر لحراسة هذا المخرج الذي كان يؤدي إلى متاهة من الأقبية والطرق المنسية داخل القلعة وصولًا إلى أحد مخابئ إيشيدو السرية تحت الخندق، ومنها إلى المدينة.

كان يابو يركض بسرعة الآن، وتعثّر في الممر، بالكاد متمكّنًا من الحفاظ على توازنه، واندفع عبر أجنحة الخدم مبعثرًا الأواني والقذور والقراعي والبراميل.

صاح: «نينجا!!!!!!». وهو ما لم يكن جزءًا من اتفاقه، لكنه حيلة لحماية نفسه في حال تعرض للخيانة. تفرق الرجال والنساء بهستيرية، وأخذوا يرددون الصيحة ويحاولون الاختفاء تحت المقاعد والطاولات بينما ركض هو عبر المكان إلى الجهة الأخرى، صاعدًا مزيدًا من الدرجات إلى أحد الممرات الرئيسية لملاقاة أول الحراس البنين الذين كانوا قد استلوا سيوفهم بالفعل. صرخ يابو: «أطلقوا الإنذار! نينجا... يوجد نينجا بين الخدم».

ركض أحد الساموراي نحو الدرج الرئيسي، بينما انطلق الآخر بشجاعة ليقف بمفرده عند قمة الدرجات المتعرجة التي كانت تؤدي إلى الأسفل، وسيفه مرفوع. وعندما رآه الخدم توقفوا، ثم تجمّعوا وهم يثنون من الرعب، مختبئين بين الحجارة وأذرعهم فوق رؤوسهم. ركض يابو نحو الدرج الرئيسي، ومنه إلى الدرجات ليقف على الدرجات. صرخ كما اتفقوا على أن يفعل: «أطلقوا الإنذار! نحن نتعرض لهجوم».

كانت إشارة لتشتيت الانتباه في الخارج والذي سيغطي الهجوم الرئيسي من خلال الباب السري إلى غرفة الاستقبال، لاختطاف ماريكو بسرعة وتهريبها قبل أن يدرك أحد.

استدار الساموراي عند البوابات وفي الساحة غير مدركين أين يجب أن يحموا، وفي تلك اللحظة خرج المهاجمون من الحديقة من مخابئهم وهاجموا البنين في الخارج. تراجع يابو إلى الردهة بينما هرع بنيون آخرون من غرفة الحراسة العليا لدعم الرجال في الخارج.

ركض إليه قائد: «ماذا يحدث؟».

- نينجا... في الخارج وبين الخدم. أين سوميوري؟

- لا أعلم... في غرفته.

انطلق يابو نحو الدرج بينما تدفق بقية الرجال إلى الأسفل. وفي تلك اللحظة، اندفع أول نينجا من الأقبية عبر الخدم إلى الهجوم. استخدموا الشوريكين المدببة للتخلص من المدافع الوحيد، والحربا قتلت الخدم. ثم أصبحت هذه القوة من المهاجمين في الممر الرئيسي، مُحَدثة ضجة عنيفة من الصراخ، والبنيون المذعورون لا يعرفون من أين سيأتي الهجوم التالي.

في الطابق العلوي، مزق النينجا أبوابهم عند أول إنذار واندفعوا نحو آخر البنين الذين كانوا يسرعون إلى الأسفل، وقتلوهم. باستخدام سهام سامة وشوريكين، ضغط النينجا في هجومهم. سُحق البنيون بسرعة واندفع المهاجمون فوق الجثث للوصول إلى الممر الرئيسي في الطابق السفلي. تصدى النينجا لهجوم عنيف من التعزيزات البنية، حيث قاموا بتدوير سلاسلهم المثقلة وألقوها على الساموراي، إما لخنقهم وإما لتشابك سيوفهم لتجعل من السهل عليهم طعنهم بالسكين ذا الحدين. كانت الشوريكين تومض في الهواء، وقُضي على البنين هنا بسرعة. قُتل بعض النينجا، لكنهم زحفوا كالحوانات المسعورة وتوقفوا عن الهجوم فقط عندما ماتوا.

في الحديقة، أُحبط أول هجوم من التعزيزات المدافعة بسهولة بينما تدفق البنيون من المدخل الرئيسي. ولكن شنت دفعة أخرى من البنين هجوماً ثانياً بشجاعة، مما دفع المهاجمين إلى التراجع فقط بسبب القوة العددية. وبأمر صارم، تراجع المهاجمون وكانت ملابسهم السوداء تجعلهم أهدافاً صعبة. اندفع البنيون خلفهم بسعادة إلى كمين، وذبحوا.

كان المهاجمون ذوو البقع الحمراء لا يزالون مختبئين خارج غرفة الاستقبال، وعين قائدهم ملتصقة بثقب المراقبة. يمكنه رؤية البنين والرماديين التابعين لبلاكثورن القلقين، الذين يحرسون الباب المنيع للممر، ويستمعون بقلق إلى الإبادة المتزايدة في الأسفل. فُتح الباب وتكدس الحراس البنين والرماديين عند المدخل، ثم بعدما عجزوا عن تحمل الانتظار، أمر الضباط من كلتا المجموعتين جميع رجالهم بالخروج من غرفة الاستقبال ليتخذوا مواقع دفاعية في الطرف البعيد من الممر. الآن أصبح الطريق خاليًا، والباب المؤدي إلى الممر الداخلي مفتوحًا، وبجانبه فقط قائد الرماديين الذي كان أيضًا على وشك الرحيل. رأى قائد المهاجمين امرأة تسرع نحو العتبة، والهجمي الطويل معها، فتعرف على فريسته، وكانت نساء أخريات يتجمعن خلفهن.

غير قادر على الانتظار لإتمام مهمته وتخفيف الضغط عن رجال عشيرته في الأسفل، ومدفوعًا بشهوة القتل، أعطى قائد المهاجمين الإشارة واندفع عبر بابه قبل لحظة من أوانه.

رآه بلاكثورن قادمًا فسحب مسدسه تلقائيًا من تحت الكيمونو وأطلق النار. اختفى الجزء الخلفي من رأس القائد، مما أوقف الهجوم للحظات. وفي الوقت ذاته، هرع قائد الرماديين إلى الوراء وهاجم بشراسة عمياء وقتل نينجا واحدًا. ثم هاجمته المجموعة فلقِي حتفه، ولكن هذه الثواني القليلة منحت بلاكثورن الوقت الكافي لجري ماريكو إلى الأمان وإغلاق الباب. أمسك بالقضيب الحديدي وأزاحه في مكانه باهتياج في الوقت الذي كان فيه النينجا يهجمون على الباب، بينما خرج آخرون ليحاصروا المدخل الرئيسي.

- يا إلهي، ماذا يحد...

صرخت ماريكو: «نينجا!!!!».

كانت كيري والسيدة سازوكو والسيدة إيتسو وتشيموكو وأتشيكو وبقية الخادmates يهرعن بفرع من غرفهن، بينما الأيدي تضرب الباب.

صرخت كيري فوق الضجيج وركضت إلى الداخل: «بسرعة، من هنا».

تبعها النساء بعشوائية، اثنتان منهن تساعدان السيدة إيتسو العجوز. رأى بلاكثورن الباب يهتز تحت وقع الضربات العنيفة لمهاجمي الباب. الآن بدأ الخشب يتشقق. ركض بلاكثورن إلى غرفته ليأخذ قرن البارود وسيفيه.

في غرفة الاستقبال، كان النينجا قد تخلصوا بالفعل من الستة البنين والرماديين عند الباب الخارجي، وتغلبوا على البقية في الممر الذي يليه. لكنهم فقدوا اثنين قتلى، وأصيب اثنان آخرا قبل أن ينتهي القتال، وأغلقوا الأبواب الخارجية بإحكام وأمنوا هذا الجزء بأكمله.

زمجر قائد المهاجمين الجديد: «أسرعوا».

لم تكن هناك حاجة لتشجيع الرجال الذين كانوا يحملون العتلات الحديدية، حيث بدؤوا يمزقون الباب. لبضع لحظات، وقف القائد فوق جثة شقيقه ثم ركلها بغضب، مدرِّكًا أن تسرع شقيقه قد دمر مفاجأة الهجوم. انضم إلى رجاله الذين كانوا يحيطون بالباب.

كان بلاكثورن في الممر يعيد تحميل مسدسه بسرعة، والباب يئن تحت الضربات. أولاً البارود واضغطه بعناية... تكسر أحد ألواح الباب... ثم السدادة الورقية لتثبيت الشحنة بإحكام، ثم كرة الرصاص، ثم سدادة أخرى... انكسرت إحدى المفصلات وظهر طرف أداة الهدم... التالي، انفخ الغبار بعناية بعيدًا عن الفتيلة...

صاحت ماريكو من مكان ما في الغرفة الداخلية: «أنجين سان! أسرع». لكن بلاكثورن لم يلقِ بالآ. سار نحو الباب ووضع فوهة المسدس على الشق المتشق في الباب، والذي كان على مستوى بطنه، وضغط على الزناد. من الجهة الأخرى للباب، سمع أصوات صراخ ولكن هدأت الهجمات على الباب. تراجع وبدأ يعيد تحميل المسدس. أولاً البارود واضغطه بعناية... اهتز الباب مجددًا مع محاولات الرجال تمزيقه بأكتافهم وأيديهم وأقدامهم وأسلحتهم... ثم السدادة الورقية، ثم الكرة، ثم ورقة أخرى... دوى صوت واهتز، وكُسِر أحد البراغي وسقط على الأرض...

كانت كيري تسرع في الممر الداخلي وهي تلهث، بينما الأخريات يجرون السيدة إيتسو معهن، وسازوكو تبكي: «ما الفائدة، لا يوجد مكان للذهاب...». ولكن كيري تابعت الركض، وتعثرت في غرفة أخرى وعبرتها وسحبت جزءًا من جدار الشوجي جانبًا. كان يوجد باب حديدي محصن مخفي في الجدار الحجري خلفه. فتحته وكانت المفصلات مُشحمة جيدًا.

قالت وهي تلهث واستعدت بالدخول: «هذا... هذا هو الملاذ السر... السري لسيدي». لكنها توقفت فجأة. «أين ماريكو؟».

التفتت تشيموكو وركضت للخلف.

في الممر الأول، نفخ بلاكثورن الغبار بعناية من الفتيلة وتقدم مجددًا. كان الباب على وشك الانهيار لكنه لا يزال يوفر بعض الحماية. ضغط على الزناد مجددًا. وسمع الصراخ مجددًا من الجهة الأخرى للباب، وتوقف الهجوم للحظة، ثم استؤنفت الضربات، وطار أحد البراغي وتمايل الباب بأكمله. بدأ يعيد تحميل مسدسه.

- أنجين سان.

كانت ماريكو هناك في الطرف البعيد تشير إليه بفزع، فركض نحوها مسرعًا وهو يمسك بأسلحته. التفتت وهربت، موجهة إياه. تحطم الباب وانقض النينجا خلفهما.

كانت ماريكو تركض بسرعة وبلاكثورن خلفها. عبرا غرفة ثم تعثرت بتنورتها وسقطت. أمسك بها بلاكثورن وسحبها معها، ثم ركضا عبر غرفة أخرى. هرعت تشيموكو إليهما. صرخت منتظرة أن يعبرا: «بسرعة».

تبعتهما للحظة، ثم من دون أن يلاحظها أحد، توقفت في الطريق وأخرجت خنجرها.

اندفع النينجا إلى الغرفة. انقضت تشيموكو نحو أول رجل وخنجرها مرفوع. صد الرجل الضربة ورماها جانبًا كدمية، ثم اندفع خلف بلاكثورن وماريكو. بينما كان الرجل الأخير يكسر عنق تشيموكو بقدمه، وواصل الركض خلفهما.

كانت ماريكو تركض بسرعة، لكنها لم تكن سريعة بما يكفي، حيث كانت تنورتها تعيقها، وبلاكثورن يحاول مساعدتها. عبرا غرفة ثم اتجها يمينًا إلى أخرى، ورأى الباب أمامه، حيث كانت كيري وسازوكو تنتظران في حالة من الرعب، وأتشيكو والخادومات يساعدن السيدة العجوز في الغرفة خلفهن. دفع ماريكو إلى الأمان، ثم استدار ليووجه المهاجمين، مسدسه غير المحمل في يد وسيفه في الأخرى، متوقعًا تشيموكو. وعندما لم تظهر على الفور، هم بالعودة، لكنه سمع اقتراب النينجا. توقف وقفز للخلف داخل الغرفة مع ظهور أول نينجا. أغلق الباب بقوة، وكانت الرماح والشوريكين تصطدم بالحديد. كان بالكاد لديه الوقت لدفع المزاليج في مكانها قبل أن يندفع المهاجمون نحو الباب.

شكر الرب على نجاتهما بلا شعور، وعندما رأى قوة الباب وأدرك أن أدوات الهجوم لا يمكنها كسره بسهولة وأدرك أنهما أمانان للحظة، شكر الرب مجدداً. نظر حوله وهو يحاول التقاط أنفاسه. كانت ماريكو على ركبتها تلهث بشدة. كانت هناك ست خادמות وأتشيكو وكيري وسازوكو والسيدة العجوز التي كانت ممددة بوجه شاحب وتكاد تفقد الوعي. كانت الغرفة صغيرة ذات جدران حجرية وباب جانبي آخر يفتح على شرفة صغيرة محصنة. جال في الغرفة باحثاً عن نافذة، ثم نظر إلى الخارج. كانت هذه الزاوية تطل على الشارع والساحة، ويمكنه سماع أصوات المعركة تتصاعد من الأسفل، من صرخات وهتافات وبعض صيحات المعركة الهستيرية. بعض الرماة والساموراي الآخرين قد بدؤوا يتجمعون في الشارع وعلى الأبراج المقابلة. الأبواب في الأسفل مغلقة عليهم، وسيطر عليها النينجا.

قال بلاكثورن وهو يشعر بألم في صدره: «ماذا يحدث بحق الجحيم؟». لم يرد عليه أحد، وعاد ليجثو بجانب ماريكو ويهزها بلطف: «ماذا يحدث؟».

لكنها لم تتمكن من الإجابة بعد.

كان يابو يركض عبر ممر واسع في الجناح الغربي نحو جناح نومه، وحينما انعطف حول إحدى الزوايا وتوقف فجأة. أمامه مجموعة من الساموراي ينسحبون تحت ضغط هجوم مضاد عنيف من مهاجمين اندفعوا من الطابق العلوي.

صرخ يابو فوق ضجيج المعركة: «ما الذي يجري؟».

إذ لم يكن من المفترض أن يوجد مهاجمون هنا، بل في الأسفل فقط. أجابه ساموراي لاهتاً: «إنهم يحيطون بنا من كل اتجاه... هؤلاء جاؤوا من الأعلى....».

لعن يابو مدرگاً أنه قد خُذع ولم يُكشف له عن تفاصيل خطة الهجوم بالكامل. سأل: «أين سوميوري؟».

- لا بد أنه مات، لقد اجتاحوا تلك المنطقة يا سيدي. لقد كنت محظوظاً بالنجاة بنفسك. لا بد أن الهجوم وقع مباشرة بعد مغادرتك. لماذا يهاجمنا النينجا؟

شنت انتباههم سيل من الصيحات. في الجهة البعيدة، قادت مجموعة من البنيين هجومًا آخر حول زاوية، يدعمهم ساموراي يقاتلون بالرماح، دفعوا النينجا للتراجع قليلًا. لكن أحاطت بهم غيمة من الشوريكين، وسرعان ما بدؤوا بالصراخ والموت ويسدون الممر بسبب التشنجات الناتجة عن السم، للحظات تراجع بقية البنيين إلى خارج النطاق لإعادة تجميع صفوفهم.

صاح يابو الذي كان بعيدًا عن الخطر: «أحضروا الرماة».

وسرعان ما انطلق الرجال لتنفيذ الأمر.

سأل الساموراي مجددًا والدماء تلتطخ وجهه من جرح في وجنته: «ما سبب هذا الهجوم؟ لماذا يهاجمون بهذه القوة؟».

إذ إن النينجا كانوا يهاجمون فرديًا أو في مجموعات صغيرة ليختفوا بسرعة حالما ينجزون مهمتهم.

قال يابو: «لا أعلم».

كانت هذه المنطقة بأكملها من القلعة في حالة من الفوضى، ولا يزال البنيون غير منسقين وغير متوازنين بسبب السرعة المربعة للهجوم.

قال الساموراي: «إذا... إذا كان توراناجا ساما هنا لتمكنت من فهم سبب الهجوم المفاجئ من إيشيدو، لكن... لكن لماذا الآن؟ لا يوجد شيء أو أحد...». توقف فجأة وقد أدرك الأمر. «السيدة تودا».

حاول يابو أن يتجاهل كلامه، لكن الساموراي صاح بصوت عالٍ: «إنهم يسعون خلفها يا يابو سان. لا بد أنهم يطاردون الزعيم تودا».

ثم انطلق مندفعًا نحو الجناح الشرقي. تردد يابو للحظة ثم تبعهم.

للوصول إلى الجناح الشرقي، عليهم عبور الساحة المركزية التي كان النينجا يسيطرون عليها بقوة. كانت جثث الساموراي متناثرة في كل مكان. دفعتهم معرفتهم بالخطر المصدق الذي يحيط بقائدهم إلى شن هجوم عنيف في محاولة اختراق الحصار. لكن هؤلاء الرجال قُتلوا بسرعة. كان المزيد من رفاقهم قد علموا بالأمر الآن وانتشرت الأخبار بسرعة، مما دفع رجال البنيين إلى مضاعفة جهودهم. اندفع يابو إلى المقدمة لقيادة الهجوم، محاولًا البقاء في مأمن بقدر استطاعته. فتح أحد النينجا حقيبته وأشعل قرعًا منصهرًا من شعلة على الجدار وألقاها فوق البنيين. ارتطمت القنبلة بالحائط وانفجرت، ناشرة اللهب والدخان، وعلى الفور قاد هذا النينجا هجومًا مضادًا أوقع

صفوف البنين في حالة من الفوضى النارية. وتدفقت تعزيزات من النينجا من الطابق السفلي تحت غطاء الدخان.

صاح يابو في أحد الممرات المؤدية إلى الساحة المركزية، راغبًا في كسب الوقت بقدر ما يستطيع: «تراجعوا وأعيدوا جميع صفوفكم».

كان يتوقع أن تكون ماريكو قد أُسرت بالفعل وتُنقل إلى المخرج السفلي، وينتظر في أي لحظة صدور الإشارة المدوية التي تعلن عن نجاح المهمة وتطلب من جميع النينجا إنهاء الهجوم والتراجع. ثم اندفع عدد من البنين من الطابق العلوي في هجوم انتحاري من درج وخرقوا الحصار. قُتلوا لكن آخرين عصوا يابو وشنوا هجومًا جديدًا. أُلقيت المزيد من القنابل مما أدى اشتعال النيران في المعلقة الجدرانية، وأشعلت شرارات النيران التاتامي. حاصر تدفق مفاجئ من النيران أحد النينجا، محولًا إياه إلى شعلة بشرية تصرخ. ثم اشتعل كيمنو أحد الساموراي، فألقى بنفسه على نينجا آخر واحترقا معًا. كان ساموراي مشتعل يستخدم سيفه كفأس معركة ليشق طريقه عبر المتربصين. وتبعه عشرة من الساموراي، ورغم أن اثنين منهم ماتا في طريقهما وثلاثة آخرين أُصيبوا بجروح قاتلة، فإن البقية هربوا واندفعوا نحو الجناح الشرقي. وسرعان ما تبعهم عشرة آخرين. قاد يابو الهجوم التالي بأمان بينما تراجع النينجا المتبقون بنظام إلى الطابق الأرضي ومخرجهم السفلي. وبدأت معركة السيطرة على الممر المسدود في الجناح الشرقي.

كانوا يحدقون إلى الباب في الغرفة الصغيرة، وقد سمعوا المهاجمين وهم يحاولون اقتلاع المفصلات وجرش الأرضية. ثم سمعوا ضربًا مفاجئًا وصوتًا غليظًا مكتومًا من الخارج.

بدأت اثنتان من الخادمت في النحيب.

سأل بلاكثورن: «ماذا قال؟».

بللت ماريكو شفيتها الجافتين وقالت: «قال... قال إنه يريد منا فتح الباب والاستسلام، وإلا ف... فسيفجرة».

- هل يستطيعون فعل ذلك يا ماريكو سان؟

- لا أعلم. يمكنهم... بالطبع يمكنهم استخدام البارود و...

اتجهت يد ماريكو إلى حزامها لكنها لم تجد شيئاً: «أين خنجري؟».

ذهبت جميع النساء للبحث عن خناجرهن، لكن كيري وسازوكو وأتشيكو والسيدة إيتسو لم يكن لديهن أي سلاح. كان بلاكتورن قد جهز مسدسه وبحوزته سيفه الطويل، أما السيف القصير فقد سقط منه في أثناء ركضه الهائج بحثاً عن الأمان.

تعالى صوت الرجل المكتوم وازداد غضباً، وأصبحت مطالبه أشد حدة، وتوجهت كل الأنظار في الغرفة نحو بلاكتورن. لكن ماريكو كانت تعلم أنها تعرضت للخيانة وأن وقتها قد حان.

أبعدت ماريكو خصلة شعر عن عينيها: «قال إنه إذا فتحنا الباب واستسلمنا، فسيُطلق سراح الجميع إلا أنت. قال إنهم يريدونك كرهينة يا أنجين سان. هذا كل ما يريدونه...».

تقدم بلاكتورن لفتح الباب، لكن ماريكو وقفت أمامه بتوسل.

قالت: «لا يا أنجين سان، إنه فخ. أعتذر، إنهم لا يريدونك، بل يريدونني أنا. لا تصدقهم، أنا لا أصدقهم».

ابتسم لها ولمسها بخفة، وامتدت يده نحو أحد الأقفال.

قالت وأمسكت بسيفه. لم يكد السيف يخرج من غمده حتى أدرك ما كانت تفعله، فأمسك بيدها بقوة: «إنه ليس أنت، بل أنا... إنه خداع. أقسم بذلك. لا تصدقهم، رجاء».

أمرها: «لا، توقفي».

- لا تسلمني إليهم. ليس معي خنجر. رجاء يا أنجين سان.

حاولت الإفلات من قبضته، لكنه رفعها بعيداً عن الطريق ووضع يده على القفل العلوي. قال للبقية بينما حاولت ماريكو منعه بقلق شديد: «رجاء».

تقدمت أتشيكو متوسلةً لماريكو التي دفعتها جانباً وهي تصرخ: «رجاء يا أنجين سان، إنه خداع... حباً بالرب».

حركت يده المزلاج العلوي.

صرخت ماريكو بجنون: «إنهم يريدونني حية. ألا ترى؟ ليأسروني حية، ألا ترى؟ إنهم يريدونني حية وحينها سيكون كل شيء بلا جدوى... غداً يجب على تورانا أن يعبر الحدود... أتوسل إليك، إنه خداع، أقسم بالرب...».

كانت أتشيكو تحيط ذراعيها حول ماريكو، تتوسل إليها وتهدها، وتشير إليه ليفتح الباب: «أسرع، أسرع يا أنجين سان...».

فتح بلاكتورن المزلاج الأوسط.

- حباً بالرب، لا تجعل كل تلك التضحيات بلا قيمة. ساعدني! تذكر وعدك. الآن بدأ يدرك حقيقة ما كانت تقوله، وفي لحظة هلع وأعاد غلق المزلاج. سأل: «لماذا قد...».

قاطع صوت دق عنيف على الباب، الحديد يضرب الحديد، ثم بدأ صوت الرجل يتصاعد في نوبة غضب قصيرة ومفاجئة. توقفت الأصوات في الخارج. هرعت النساء إلى الجدار البعيد واختبأن بجواره.

صرخت ماريكو واندفعت مسرعة نحوه: «ابتعدن عن الباب، سيفجر الباب».

قال بلاكتورن: «أخبريه يا ماريكو سان». ثم قفز نحو الباب الجانبي المؤدي إلى الأبراج. «رجالنا سيصلون قريباً. جربي المزالج، قولي إنها عالقة... أي شيء».

شد بلاكتورن المزلاج العلوي للباب الجانبي لكنه كان محكماً بالصدأ. هرعت ماريكو نحو الباب وبدأت تحاول فتح المزلاج الأوسط متظاهرة بالعجز، متوسلة إلى النينجا في الخارج، ثم بدأت تهز المزلاج السفلي. عاد الصوت بإلحاح أكبر، فزادت ماريكو من توسلاتها وبكائها.

أخذ بلاكتورن يضرب على القفل العلوي بقبضة يده مرة تلو الأخرى دون جدوى. النساء ينظرن إليه في عجز، حتى انفتح المزلاج أخيراً بصوت عالٍ. حاولت ماريكو تغطية الصوت فيما كان بلاكتورن يهاجم المزلاج الأخير. أصبحت يدها متآكلتين دامتيتين الآن. جدد قائد النينجا في الخارج تهديداته الغاضبة. أمسك بلاكتورن سيفه بيأس واستخدم مقبضه كعصا، غير مبالٍ بالوضوء. حاولت ماريكو إخفاء الأصوات بقدر استطاعتها. بدا المزلاج وكأنه ملحوم في مكانه.

خارج الباب، قائد النينجا على وشك الجنون من الغضب، فهذا الملجأ السري لم يكن متوقعاً قط. أوامره من قائد العشيرة كانت إلقاء القبض على تودا ماريكو حية، والتأكد أنها بلا سلاح، وتسليمها إلى الرماديين الذين كانوا ينتظرون في نهاية النفق من القبو. كان يعلم أن الوقت بدأ ينفد. كان بإمكانه

سماع المعركة المستعرة في الممر خارج غرفة الاستقبال، ويدرك بأسف أنهم لكانوا بأمان في الأسفل وقد أنجزوا مهمتهم لولا هذا المخبأ السري وأخوه المتسرع الذي بدأ الهجوم قبل الأوان. إنها الكارما أن يكون لي أخٌ مثله.

كان يمسك بشمعة مشتعلة في يده، وقد وضع خطأً من البارود نحو البراميل الصغيرة التي أحضروها في حقائبهم لتفجير المدخل السري المؤدي إلى القبو لتأمين انسحابهم. لكنه كان في معضلة؛ فإن نسف الباب هو السبيل الوحيد للوصول إلى الداخل، لكن تودا ماريكو كانت خلف الباب مباشرةً، والانفجار سيقتل الجميع في الداخل ويفسد مهمته، مما يجعل كل خسائريهم بلا جدوى.

ركضت خطوات أقدام نحو. كان أحد رجاله. همس الرجل: «أسرع. لا يمكننا صدهم لفترة أطول».

ثم ابتعد مسرعاً.

قرر قائد النينجا أخيراً، وأشار إلى رجاله بالابتعاد عن الباب، ثم صرخ محذراً عبر الباب: «ابتعدوا. سأفجر الباب».

وضع الشمعة على خط البارود وقفز إلى مكان آمن. اشتعل البارود، وبدأ يتجه نحو البراميل.

فتح بلاكتورن الباب الجانبي، فاندفع هواء الليل العليل إلى الداخل. هرعت النساء إلى الشرفة. تعثرت السيدة إيتسو العجوز، لكن بلاكتورن أمسك بها ودفعها لتخرج، ثم استدار نحو ماريكو، لكنها كانت قد استندت إلى الباب الحديدي وصرخت بحزم: «أنا، تودا ماريكو، أحتج على هذا الهجوم الشائن وأقسم بموتي...».

اندفع بلاكتورن نحوها لكن الانفجار أطاح به إلى الورا، إذ انفصل الباب عن مفصلاته واندفع إلى الغرفة ثم ارتطم بالجدار البعيد. أطاح الانفجار بكيري والبقية في الخارج على البرج، لكنهم لم يُصابوا في الغالب. تدفق الدخان إلى الغرفة، ودخل النينجا على الفور. استقر الباب الحديدي المحذب في إحدى الزوايا.

جثا قائد النينجا بجانب ماريكو، بينما بدأ الآخرون في الانتشار للحماية. أدرك على الفور أنها مصابة وتحتضر بسرعة. فكر ونهض على أقدامه: إنها

الكارما. كان بلاكتورن ملقى على الأرض مصدومًا، والدماء تسيل من أذنيه وأنفه، يحاول أن يستعيد وعيه. كان مسدسه المحطم وغير صالح للاستخدام في إحدى الزوايا.

تقدم قائد النينجا خطوة ثم توقف. تحركت أتشيكو نحو المدخل.

نظر إليها النينجا، وقد تعرف عليها. ثم نظر إلى بلاكتورن بازدرأه لاستخدامه السلاح وإطلاق النار بعشوائية عبر الباب، مما أدى إلى مقتل أحد رجاله وإصابة آخر. عاد ببصره إلى أتشيكو وأخرج خنجره. اندفعت نحوه بعمى، فطعنها في صدرها الأيسر. كانت قد ماتت لحظة سقوطها، ثم تقدم دون غضب وسحب خنجره من جسدها المرتعش، متممًا الجزء الأخير من أوامره من القيادة العليا -والتي يفترض أنها من إيشيدو، رغم أنه لم يكن بإمكانه إثبات ذلك- أنه إذا فشلت المهمة ونجحت السيدة تودا في قتل نفسها، فعليه أن يترك جسدها دون المساس برأسها. وأن يحمي الهمجي ويبقي باقي النساء سالمات، باستثناء كياما أتشيكو. لم يعلم سبب أمره بقتلها، لكنه كان أمرًا قد أُصدر ودُفع ثمنه، لذا كان عليها أن تموت.

أشار إلى التراجع. وضع أحد رجاله قرنًا منحنياً على شفثيه ونفخ نداءً حادًا تردد صداه عبر القلعة وفي الليل. تفقد القائد ماريكو للمرة الأخيرة، ثم الفتاة، وأخيرًا للهمجي الذي أراد موته بشدة. ثم استدار على عقبيه وقاد التراجع عبر الغرف والممرات إلى غرفة الاستقبال. النينجا الذين يحرسون المدخل الرئيسي ينتظرون حتى عبر جميع المهاجمين ذوي النقطة الحمراء إلى طريق الهروب، ثم ألقوا المزيد من القنابل الدخانية والناارية في الممر وانطلقوا نحو الأمان. كان قائدهم يغطي انسحابهم. انتظر حتى أصبح الجميع في مأمن، ثم نثر حفنات من أشواك معدنية مسمومة صغيرة على الأرض، وهي كرات معدنية صغيرة ذات مسامير حادة مغطاة بالسم. ثم هرب في اللحظة التي اقتحم فيها البنيون الغرفة عبر الدخان إلى غرفة الاستقبال. انطلق بعضهم خلفه، بينما هرعت كتيبة أخرى إلى الممر. صرخ مطاردهو بينما كانت إبر الأشواك تخترق باطن أقدامهم، وبدأت أرواحهم تزهق.

في الغرفة الصغيرة، كان الصوت الوحيد المسموع هو أنفاس بلاكتورن المتقطعة وهو يحاول التقاط أنفاسه. أما على البرج، نهضت كيري بصعوبة، وكان الكيمونو ممزقًا ويدها وذراعاها مشوهة بالكدمات والخدوش. تراجعت إلى الخلف فرأت أتشيكو وصرخت، ثم توجهت نحو ماريكو وجثت بجانبها.

دوي انفجار آخر في مكان ما من القلعة، مما جعل الغبار يتصاعد قليلاً، وسمعت صرخات بعيدة وأصوات تصيح «حريق». واندفع الدخان إلى الغرفة. نهضت سازوكو وبعض الخادومات على أقدامهن. كانت سازوكو مصابة بكدمات في وجهها وكتفيتها، وكُسر رسغها. رأت أتشيكو وعينيها وفمها مفتوحين في رعب الموت، فأجهشت بالبكاء.

نظرت كيري نحوها بخدر وأشارت إلى بلاكثورن. تعثرت الفتاة الصغيرة باتجاه كيري، ثم رأت ماريكو وبدأت تبكي. بعد لحظة استعادت هدوءها وتوجهت نحو بلاكثورن لمساعدته على النهوض. هرعت الخادومات لمساعدتها. تشبث بهن وأجبر نفسه على الوقوف، ثم ترنح وسقط وهو يسعل ويتقيأ، والدم لا يزال يسيل من أذنيه. اقتحم البنيون الغرفة، ونظروا حولهم بذهول.

بقيت كيري على ركبتيها بجانب ماريكو. رفعها أحد الساموراي. وتجمع آخرون حولها. تفرقوا عندما دخل يابو إلى الغرفة بوجه شاحب. ولكن تلاشى الكثير من غضبه عندما رأى أن بلاكثورن لا يزال حيًا. أمر وجثا بجانب ماريكو: «أحضروا طبيبًا. بسرعة».

كانت لا تزال حية، لكن حالتها تتدهور سريعًا. كان وجهها بالكاد متأثرًا، لكن جسدها كان مشوهًا بشدة. مزق يابو الكيمونو الخاص به وغطاها حتى رقبته.

قال بصوت قاسٍ: «أسرعوا بإحضار الطبيب».

ثم اتجه نحو بلاكثورن وساعده على الجلوس مستندًا إلى الجدار.
- أنجين سان، أنجين سان.

كان بلاكثورن لا يزال في حالة صدمة، أذنه ترن وعينه بالكاد ترى ووجهه مغطى بالكدمات وحروق البارود. بدأت رؤيته تتضح تدريجيًا ورأى يابو، لكن صورته مشوشة كأنها مشهد مخمور، ورائحة دخان البارود تخنقه، ولم يكن يعلم أين هو أو من هو، يعلم فقط أنه على متن سفينة في معركة، وأن سفينته جريحة وتحتاجه. ثم رأى ماريكو وتذكر.

وقف بمساعدة يابو، وذهب مترنحًا نحوها.

بدت كأنها نائمة في سلام. جثا على ركبتيه بثقل وأزاح الكيمونو جانبًا، ثم أعاده مكانه. كان نبضها بالكاد محسوسًا. ثم توقف.

ظل ينظر إليها وهو مترنحًا يكاد يسقط، ثم حضر طبيب وهز برأسه وقال شيئًا لكن بلاكتورن لم يستطع سماعه أو فهمه. لم يعرف سوى أن الموت قد أتاه، وأنه أيضًا قد مات.

رسم علامة الصليب فوقها وقال الكلمات اللاتينية المقدسة التي كانت ضرورية لتُبارك روحها، وصلى من أجلها رغم أن صوته لم يخرج من فمه. كان الآخرون يراقبونه. عندما أنهى ما كان يجب عليه فعله، كافح ليقف على قدميه مجددًا وظل مستقيمًا. ثم شعر وكأن رأسه ينفجر بأضواء حمراء وبنفسجية، وسقط. أمسكت به أيادٍ حانية وساعدته على الاستلقاء برفق.

سأل يابو: «هل مات؟».

قال الطبيب: «يكاد يموت. لا أعرف عن أذنيه يا يابو ساما. قد يكون ينزف داخليًا».

قال أحد الساموراي بقلق: «من الأفضل أن نسرع، لنخرجهما من هنا. قد ينتشر الحريق ونُحاصر».

قال يابو: «نعم».

ناداه ساموراي آخر بإلحاح من على البرج، فخرج يابو.

كانت السيدة العجوز إيتسو مستلقية على البرج، مسنودة من قبل خادماتها، ووجهها رمادي وعيناها دامعتان. نظرت إلى يابو محاولة التركيز بصعوبة وقالت: «كاسيجي يابو سان؟».

مكتبة

t.me/soramnqraa

- نعم يا سيدتي.

- هل أنت الضابط الأعلى هنا؟

- نعم يا سيدتي.

قالت المرأة العجوز لخادماتها: «رجاءً ساعديني على الوقوف».

- لكن عليك الانتظار، الطبيب...

- ساعديني على الوقوف.

راقب الساموراي على شرفة البرج وقوفها بمساعدة الخادمة. قالت بصوت مبجوح وضعيف وسط الصمت: «استمع. أنا مايدا إيتسو، زوجة مايدا أرينوسي، زعيم ناجاتو وإيوامي وأكي، أشهد أن السيدة تودا ماريكو ساما تخلت عن حياتها لتجنب الأسر المخزي على يد هؤلاء الرجال القبيحين

والشائنين. أشهد أن... أن كياما أتشيكو اختارت مهاجمة النينجا، وضحت بحياتها لتجنب العار الناتج عن الأسر... وأنه لولا شجاعة الساموراي الهمجي، لكانت السيدة تودا قد أُسرت وذُلَّت، ونحن جميعاً، وكل من بقي منا على قيد الحياة يدين له بالشكر، وكذلك سادتنا عليهم أن يكونوا شاكرين له لأنه حمانا من هذا العار... أنا أتهم القائد الزعيم إيشيدو بشن هذا الهجوم غير المشرف... وبخيانة الوريث والسيدة أوتشييا...». ترنحت المرأة العجوز وكادت تسقط، بينما انفجرت الخادمة بالبكاء وأمسكت بها بقوة أكبر. «وأيضاً... أن الزعيم إيشيدو قد خانهم وخان مجلس الوصاية. أطلب منكم جميعاً أن تكونوا شهوداً على أنني لم أعد أستطيع العيش مع هذا العار...».

بكت الخادمة: «لا... لا يا سيدتي، لن أسمح لك...».

- ابتعدي! رجاءً ساعدني يا كاسيجي يابو سان. ابتعدي يا امرأة.

حمل يابو وزن السيدة إيتسو، الذي كان بالكاد يُذكر، وأمر الخادمة بالابتعاد، فامتثلت.

كانت السيدة إيتسو تتألم بشدة وتتنفس بصعوبة. قالت بصوت ضعيف ونظرت إلى يابو: «أشهد على صدق هذا بموتي. سأتشرف إذا... إذا أصبحت مساعدي. أرجوك ساعدني على الوصول إلى البرج».

- لا يا سيدتي. لا حاجة إلى الموت.

أدارت وجهها بعيداً عن الآخرين وهمست له: «أنا أموت بالفعل يا يابو ساما. أنزف من الداخل... شيء ما تأذى في داخلي... من الانفجار... ساعدني على أداء واجبي... أنا عجوز وعديمة الفائدة، والألم كان رفيقي لعشرين عاماً. دُع موتي يساعد سيدنا أيضاً، أليس كذلك؟» كانت هناك لمعة في عينيها العجوزتين. «أليس كذلك؟».

رفعها برفق ووقف بفخر بجانبها على السور، بينما كانت الساحة في الأسفل. ساعدها على الوقوف. انحنى الجميع احتراماً لها.

قالت وهي تقف وحدها بصوت مرتجف: «لقد قلت الحقيقة. وأشهد على ذلك بموتي».

ثم أغضمت عينيها شاكرة، وتركت نفسها تسقط إلى الأمام، مرحبة بالموت.

الفصل الثامن والخمسون

كان الأوصياء مجتمعين في الغرفة الكبرى بالطابق الثاني من برج القلعة. إيشيدو وكياما وزاتاكي وإيتو وأونوشي. ألقت شمس الفجر بظلال طويلة، ولا تزال رائحة الدخان تملأ المكان. كانت السيدة أوتشيبا حاضرة، ويبدو عليها القلق الشديد.

قال كياما بصوته الجاف والحاد: «عذراً يا قائد، لكنني أختلف معك. لا يمكننا تجاهل سيبيوكو السيدة تودا، وشجاعة حفيدتي، وشهادة السيدة مايدا ووفاتها الرسمية، إلى جانب مقتل مئة وسبعة وأربعين من رجال توراناغا وتدمير ذلك الجزء من القلعة. لا يمكن تجاهل ذلك».

قال زاتاكي: «صحيح، إذا سُمح لها بالمغادرة بالأمس كما نصحت، لما وقعنا في هذا المأزق الآن».

كان قد وصل مساء أمس من تاكاتو، وعندما سمع تفاصيل مواجهة ماريكو مع إيشيدو شعر بالسعادة سراً.

كانت شفاه إيشيدو محكمة كخط مستقيم: «الأمر ليس خطراً كما تعتقدون. النينجا يسعون فقط إلى الغنائم».

كانت أوتشيبا تمقته في تلك اللحظة بسبب فشله وتسببه في وقوعهم جميعاً في هذه الأزمة.

سخر كياما: «هل الهمجي غنيمة؟ هل يشنون مثل هذا الهجوم الكبير من أجل همجي واحد؟».

حدق إيشيدو إلى الدايميو الذي كان محاطاً بإيتو تيروزومي وزاتاكي وقال: «ولم لا؟ يمكن أن يُطلب فيه فدية، أليس كذلك؟ المسيحيون في ناجازاكي سيدفعون مبلغاً كبيراً من أجله، سواء كان حياً أم ميتاً، أليس كذلك؟».

وافقه زاتاكي الرأي: «هذا محتمل. هكذا يقاتل الهمج».

قال كياما بحدة: «هل تقترح رسمياً أن المسيحيين خططوا ودفعوا ثمن هذا الهجوم البغيض؟».

- قلت إنه احتمال. وهو احتمال قائم.

تدخل إيشيدو، محاولاً تجنب نزاع مفتوح قد يزعزع التوازن الهش بين الأوصياء: «نعم، لكنه غير مرجح. أقترح أن النينجا كانوا يسعون للغنائم». كان لا يزال غاضباً من أن الجواسيس لم يحذروه سابقاً من مخبأ توراناغا السري، ولا يزال لا يفهم كيف يمكن أن يكون بُني بهذه السرية ولم تنتشر شائعة واحدة عنه.

ابتسم إيتو بنظرة خبيثة في عينيه، وقال: «هذا منطقي وصحيح تماماً. نعم يا قائد. لكن ربما لم يقصد النينجا طلب فدية في ناجازاكي، بل في إيدو للزعيم توراناغا. ألا يزال خادمه؟».

كان رجلاً صغيراً في منتصف العمر، متوسط القامة، يرتدي ملابس فاخرة، وسيوفاً مزخرفة، ورغم أنه قد أُجبر على النهوض مبكراً مثلهم جميعاً. فقد كان متجملًا كالنساء وأسنانه سوداء.

تجههم وجه إيشيدو عند ذكر الاسم: «أوافق على أننا يجب أن نناقش الزعيم توراناغا بدلاً من النينجا. ربما هو من أمر بالهجوم، أليس كذلك؟ فهو خائن بما يكفي لفعل ذلك».

قال زاتاكي: «نعم، لن يستخدم النينجا أبداً. الخيانة بلى، لكن ليس هؤلاء القذرين. قد يفعل التجار ذلك... أو الهمج. لكن ليس الزعيم توراناغا».

راقب كياما زاتاكي، شاعراً بالكراهية تجاهه: «لا يمكن لأصدقائنا البرتغاليين أن يحرضوا على مثل هذا التدخل في شؤوننا. ولن يفعلوا أبداً».

- هل تعتقد أنهم أو كهنتهم قد يتآمرون مع أحد دايميو كيوشو المسيحيين لشن حرب على غير المسيحيين... حرب تدعمها غزوة أجنبية؟

- مَنْ؟ أخبرني. هل لديك دليل؟

- ليس بعد يا زعيم كياما. لكن الشائعات لا تزال موجودة، ويوماً ما سأحصل على الدليل. (ثم التفت زاتاكي إلى إيشيدو وسأل): ما الذي يمكننا فعله بشأن هذا الهجوم؟ ما الحل للخروج من هذا المأزق؟

ثم ألقى نظرة على أوتشيبا التي كانت تراقب كياما، ثم اتجهت أنظارها إلى إيشيدو، ثم عادت إلى كياما مجدداً، ولم يرها يوماً أكثر جاذبية مما كانت عليه الآن.

قال كياما: «نحن جميعاً متفقون على أنه من الواضح أن الزعيم توراناغا قد خطط لأن نقع في فخ تودا ماريكو ساما، بغض النظر عن شجاعتها، وعن التزامها بالواجب والشرف، رحمها الرب».

عدل إيتو طية في الكيمونو المثالي وقال: «لكن ألا تتفقون أن هذه ستكون حيلة مثالية من الزعيم توراناغا، أن يهاجم أتباعه بهذه الطريقة؟ يا زعيم زاتاكي، أعلم أنه لم يكن يستخدم النينجا، لكنه بارع جداً في جعل الآخرين يتبنون أفكاره ويؤمنون بها كأنها أفكارهم الخاصة، أليس كذلك؟».

- كل شيء ممكن. لكن النينجا ليسوا على شاكلته، فهو أذكى من أن يستخدمهم، أو يدفع أحداً إلى القيام بذلك. هم غير موثوق بهم. ولماذا يجبر ماريكو ساما؟ من الأفضل أن ينتظر ويدعنا نرتكب الخطأ. لقد وقعنا في الفخ، أليس كذلك؟

نظر كياما إلى إيشيدو: «بلى، وما زلنا في الفخ. ومن أمر بالهجوم كان أحمق ولم يقدم لنا أي خدمة».

قال إيتو: «ربما يكون القائد محقاً، وأن الأمر ليس خطراً كما نعتقد. لكن للأسف، لم تكن نهاية أنيقة لها، سيدة مسكينة».

بادل إيشيدو تحديق كياما: «تلك كانت الكارما الخاصة بها، ونحن لسنا محاصرين. كان من حسن حظها أن يكون لديها ذلك الملجأ للهرب إليه، وإلا لكان هؤلاء الحثالة قد أسروها».

قال كياما: «لكنهم لم يأسروها، وقد نفذت شكلاً من أشكال السيوكو، وكذلك الآخرون. والآن إذا لم نسمح للجميع بالمغادرة، فستحدث المزيد من حالات الانتحار الاحتجاجية، ولا يمكننا نتحمل ذلك».

- لا أوافقك الرأي. يجب أن يبقى الجميع هنا... على الأقل حتى يعبر الزعيم توراناغا إلى أراضيها.

ابتسم إيتو: «سيكون يوماً لا يُنسى».

سأل زاتاكي: «ألا تعتقد أنه سيغير؟».

- ما أعتقد له قيمة يا زعيم زاتاكى. سنعرف قريبًا ما الذى ينوي فعله. مهما كان، فهو لن يحدث فرقًا. يجب أن يموت توراناڭا إذا كان الوريث سيحكم. (نظر إيتو إلى إيشيدو): هل مات الهمجى بعد يا قائد؟ هز إيشيدو رأسه وراقب كياما: «سيكون من سوء الحظ له أن يموت الآن، أو يُصاب بعاهة دائمة... رجل شجاع مثله، أليس كذلك؟».

- أعتقد إنه كالوباء، وكلما مات أسرع كان أفضل. هل نسيت؟

- يمكن أن يكون مفيدًا لنا. أتفق مع زعيم زاتاكى -ومعك- إن توراناڭا ليس أحمق. لا بد أنه يوجد سبب وجيه لاهتمام توراناڭا به، أليس كذلك؟

قال إيتو: «بلى، أنت محق مجددًا. لقد أحسن أنجين سان التصرف بالنسبة لهمجى، أليس كذلك؟ كان توراناڭا محققًا فى منحه لقب الساموراي». نظر إلى أوتشيبيا: «عندما قدم لك الزهرة يا سيدتى، اعتقدت أنها كانت لفئة شاعرية تليق برجل فى البلاط».

أبدى الحاضرون موافقتهم على ذلك.

سأل إيتو: «ماذا عن مسابقة الشعر الآن يا سيدتى؟».

قالت أوتشيبيا: «يجب أن تلغى، أعذر».

أيدها كياما: «نعم».

سألته: «هل كنت قد قررت مشاركتك يا سيدى؟».

أجابها: «لا، لكن يمكننى الآن قول:

«على غصن ذابل

هبت العاصفة...

دموع الصيف المظلمة».

همس إيتو بهدوء: «ليكن هذا شاهد قبرها. لقد كانت ساموراي بحق. وأنا أشارك فى دموع هذا الصيف».

قالت أوتشيبيا: «بالنسبة لى، كنت سأفضل نهاية مختلفة:

«على غصن ذابل

استمع الثلج...

لصمت الشتاء.

لكنني أتفق معك يا زعيم إيتو. أعتقد أيضًا أننا جميعًا في دموع الصيف المظلمة».

قال إيشيدو: «لا، أعذر يا سيدتي، لكنك مخطئة. ستسيل الدموع بالفعل، لكن توراناها وحلفاءه هم من سيذرفونها». ثم بدأ في إنهاء الاجتماع: «سأبدأ فورًا بالتحقيق في هجوم النينجا. أشك في أننا سنكتشف الحقيقة. وفي غضون ذلك، ولأسباب أمنية وحماية شخصية، ستُلغى جميع التصاريح للأسف، وسيُمنع الجميع من المغادرة حتى اليوم الثاني والعشرين».

قال أونوشي المصاب بالجذام، آخر أعضاء مجلس الوصاية، من مكانه المنعزل عبر الغرفة حيث كان ممددًا، مخفيًا خلف ستائر محفته المعتمة: «لا، أعذر، لكن هذا بالضبط ما لا يمكنك فعله. الآن عليك أن تدع الجميع يغادرون. الجميع».

- لماذا؟

كان صوت أونوشي خبيثًا ولا يخشى شيئًا: «إذا لم تفعل، فأنت تُهين أشجع سيدة في المملكة، وتُهين السيدة كياما أتشيكو والسيدة مايدا، رحمهن الرب. عندما يُصبح هذا العمل القذر معروفًا للجميع، وحده الرب يعلم الضرر الذي سيلحقه بالوريث... وبنا جميعًا، إذا لم نكن حذرين».

شعرت أوتشيبا بقشعريرة تسري في جسدها. قبل عام، عندما جاء أونوشي لتقديم احترامه للتايكو الراحل، أصرَّ الحراس على فتح ستائر المحفة للتأكد من عدم وجود أسلحة مخفية، وقد رأت نصف وجهه المشوه -بلا أنف وبلا أذن وجلد متقشر- وعينين متقدتين بالشغف، ويدًا يسرى مقطوعة، ويده اليمنى الجيدة ممسكة بسيف الطعن القصير.

تمنَّت السيدة أوتشيبا ألا تُصاب هي أو يايمون بالجذام أبدًا. كانت ترغب أيضًا في إنهاء هذا الاجتماع، لأنها قررت الآن ما ستفعله... ما ستفعله بشأن توراناها، وما ستفعله بشأن إيشيدو.

كان أونوشي يقول: «ثانيًا، إذا استخدمت هذا الهجوم القذر كذريعة لإبقاء أي شخص هنا، فهذا يعني أنك لم تكن تنوي إطلاق سراحهم قط، رغم أنك قدمت تعهدًا كتابيًا مقدسًا. ثالثًا: أنت...».

قاطع إيشيدو حديثه: «لقد وافق المجلس بالكامل على إصدار التصاريح الأمنية».

- أعتذر، وافق المجلس بالكامل على اقتراح السيدة أوتشيبا الحكيم بمنح التصاريح الأمنية، مفترضين معها أن قلة من الناس سينتهزون فرصة المغادرة، وحتى لو فعلوا، فستحدث تأخيرات.

- هل تقترح أن نساء تورانا وودا ماريكو لم يكن سيغادرن وأن الآخرين لم يكن ليتبعوهن؟

- ما حدث لتلك النساء لن يغير شيئًا في هدف الزعيم تورانا. علينا أن نقلق بشأن حلفائنا، لولا هجوم النينجا والثلاث سيبوكو، لكانت هذه المهزلة لم تولد بعد.

- لا أوافقك الرأي.

- ثالثًا وأخيرًا: إذا لم تسمح للجميع بالمغادرة الآن، بعد ما قالته السيدة إيتسو علنًا، ستُدان من قبل معظم الدايميو بأنك أمرت بالهجوم - وإن لم يكن علنًا - وسنواجه جميعًا المصير ذاته، وستُذرف الدموع حينها.

- لست بحاجة إلى الاعتماد على النينجا.

وافقه أونوشي الرأي بصوت مسموم: «بالطبع، ولا أنا، ولا أي أحد هنا. لكن أشعر أنه واجبي أن أذكرك بوجود مائتين وأربعة وستين دايميو، وأن قوة الوريث تعتمد على تحالف من نحو مائتي دايميو، وأن الوريث لا يمكنه تحمل أن يُفترض أنك - حامل رايته الأكثر ولاءً وقائد جيشه - مذنب باستخدام مثل هذه الأساليب القذرة وبفشل وحشي كهذا الهجوم».

- هل تقول إنني أمرت بهذا الهجوم؟

- بالطبع لا، أعتذر. قلت فقط إنك ستُدان افتراضياً إن لم تسمح للجميع بالمغادرة.

- هل يوجد أحد هنا يظن أنني أمرت بذلك؟

لم يتحدّهُ أحدٌ علناً. ليس هناك دليل. لم يستشرهم بالطريقة الصحيحة ولم يتحدث إلا بتلميحات غامضة، حتى مع كياما وأوتشيبا. لكنهم جميعاً كانوا يعرفون، وكانوا جميعاً غاضبين من كونه ارتكب مثل هذه الحماقة وفشل... باستثناء زاتاكي. ورغم ذلك، كان إيشيدو لا يزال سيد أوساكا وحاكم كنوز التايكو، ولذلك لا يمكن المساس به أو إزالته.

قال إيشيدو بلهجة حاسمة: «حسناً. كان النينجا يبحثون عن غنائم. سنصوت على التصاريح الأمنية. أصوَّت لإلغائها».

قال زاتاكي: «أنا أعارض».

قال أونوشي: «أعتذر، أعارض أيضاً».

احمر وجه إيتو تحت أنظارهم وقال: «عليَّ أن أتفق مع الزعيم أونوشي، وفي الوقت ذاته، حسناً... الأمر صعب جدًّا، أليس كذلك؟».

قال إيشيدو بتجهم: «صوّتوا».

- أتفق معك يا قائد.

قال كياما: «أعتذر، لكنني لا أتفق معك».

قال أونوشي: «حسناً، حُسم الأمر، لكنني أتفق معك يا زعيم، لدينا مشكلات أخرى ملحة. علينا أن نعرف ما الذي سيفعله الزعيم توراناغا الآن. ما رأيك؟».

كان إيشيدو يحدّق إلى كياما بوجه متجهم. ثم قال: «ما ردُّك على ذلك؟».

كان كياما يحاول تصفية ذهنه من كل الكراهية والمخاوف والقلق، ليتخذ قراراً نهائياً... إيشيدو أم توراناغا. هذا هو وقت اتخاذ القرار. تذكر بوضوح حديث ماريكو عن خيانة أونوشي المزعومة، وخيانة إيشيدو المزعومة والدليل المزعوم لدى توراناغا عن تلك الخيانة، وعن الهمجي وسفينته... وعن ما قد يحدث للوريث والكنيسة إذا سيطر توراناغا على البلاد وما قد يحدث لقوانينهم إذا سيطر عليها الآباء القديسين. وفوق كل ذلك كان يوجد قلق الأب الزائر بشأن الهرطوقي وسفينته، وما قد يحدث إذا فقدت السفينة السوداء، وقناعة قائد الأسطول الدينية بأن أنجين سان من نسل الشيطان، وأن ماريكو مسحورة كما كان رودريجز مسحوراً. فكر بحزن: ماريكو المسكينة، كيف ماتت بتلك الطريقة بعد كل هذا العذاب، بلا غفران وبلا طقوس أخيرة وبلا كاهن، لتقضي الأبدية بعيدة عن نعمة الرب السماوية. ارحمها يا مريم. كم من الدموع سالت في الصيف.

وماذا عن أتشيكو؟ هل اختارها قائد النينجا بعينها أم أنها كانت مجرد ضحية أخرى؟ كم كانت شجاعة في اندفاعها دون خوف، المسكينة. لماذا لا يزال ذلك الهمجي حيًّا؟ لماذا لم يقتله النينجا؟ كان ينبغي أن يُؤمروا بقتله، إذا كان هذا الهجوم القذر من تدبير إيشيدو، كما لا شك في ذلك. كم كان فشل إيشيدو مخزياً... فشلاً مقزراً. لكن يا لشجاعة ماريكو وذكائها في أن توقعنا في شباك شجاعتهما! وكذلك الهمجي.

لو كنتُ مكانه، لما استطعت الصمود أمام النينجا بتلك الشجاعة، أو حماية ماريكو من عار الأسر الفظيع... وكيريتسوبو وسازوكو والسيدة إيتسو، نعم، وحتى أتشيكو. لولاه هو والملاذ السري، لكانت السيدة ماريكو قد أُسرت. وكلهن معها. من واجبي كساموراي أن أحترم أنجين سان على كونه ساموراي، أليس كذلك؟

اغفر لي يا إلهي، لم أذهب إلى ماريكو تشان لأكون مساعدتها، وهو واجبي كمسيحي. لقد ساعدها ذلك الهرطوقي ورفعها كما رفع المسيح يسوع الآخرين وساعدهم، أما أنا، فقد خذلتها. من المسيحي هنا؟

لا أعلم. ومع ذلك، يجب أن يموت.

قال إيشيدو مجدداً: «ماذا عن تورانايا يا زعيم كياما؟ ماذا عن العدو؟».

سأل كياما وهو يراقبه: «وماذا عن الكانتو؟».

- عندما يُدمر تورانايا، أقترح أن تُعطى الكانتو لأحد الأوصياء.

- أي وصي؟

أجاب إيشيدو بلهجة هادئة: «أنت». ثم أضاف: «أو ربما زاتاكي، زعيم شينانو».

وجد كياما هذا حكيماً، حيث كان زاتاكي مطلوباً بشدة ما دام تورانايا حيًّا، وكان إيشيدو قد أخبره منذ شهر أن زاتاكي طلب الكانتو كمكافأة لمعارضته لتورانايا. واتفقا على أن يعده بذلك، وكلاهما يعلم أن هذا الوعد فارغ. فقد اتفق كلاهما أيضاً على أن يفقد زاتاكي حياته وإقطاعيته لهذه الوقاحة، في الوقت المناسب.

قال كياما بحذر وهو يقيّم من في الغرفة يقف معه ومن يقف ضده: «بالطبع لستُ الخيار الأمثل لهذا الشرف».

حاول أونوشي إخفاء استيائه: «هذا الاقتراح بالتأكيد ذو قيمة. إنه اقتراح يستحق النقاش، أليس كذلك؟ لكن تلك مسألة للمستقبل. ما الذي سيفعله زعيم الكانتو الحالي الآن؟».

كان إيشيدو لا يزال ينظر إلى كياما: «حسنًا؟».

شعر كياما بعداء زاتاكي رغم أن وجه عدوه لم يظهر شيئًا. فكر: اثنان ضدي، وأوتشيبا، لكنها لا تملك صوتًا. إيتو سيصوّت دائمًا مع إيشيدو، إذن أنا الرابع... إذا كان إيشيدو يعني ما يقول. سأل نفسه محددًا إلى الوجه القاسي أمامه، محاولًا اكتشاف الحقيقة: هل يعنيه؟ ثم قرر وقال علنًا ما توصل إليه: «لن يأتي الزعيم توراناجا إلى أوساكا أبدًا».

قال إيشيدو: «جيد. إذن هو معزول، خارج عن القانون، والدعوة الإمبراطورية لتنفيذ السيوكو معدة بالفعل لتوقيع صاحب الجلالة. وهذا هي نهاية توراناجا وكل سلالته. إلى الأبد».

- نعم، إذا جاء ابن السماء إلى أوساكا.

- ماذا؟

تابع كياما، مفضلًا إيتو كحليف لا عدو: «أتفق مع الزعيم إيتو. إن الزعيم توراناجا من أدهى الرجال. أعتقد أنه يمتلك ما يكفي من الدهاء لإيقاف قدوم جلالته».

- مستحيل.

سأل كياما، مستمتعًا فجأة بانزعاج إيشيدو وناقمًا عليه لفشله: «ماذا لو تأجلت الزيارة؟».

- سيأتي ابن السماء هنا كما هو مخطط له.

- وإذا لم يأت ابن السماء؟

- أخبرك إنه سيأتي.

- وإذا لم يأت؟

سألت السيدة أوتشيبا: «كيف يمكن للزعيم توراناجا فعل ذلك؟».

- لا أعلم. ولكن إذا أراد جلالته تأجيل زيارته لشهر... فلن نستطيع فعل شيء. أليس الزعيم توراناجا خبيرًا في التآمر؟ لن أستبعد منه شيئًا... حتى التآمر ضد ابن السماء.

ساد الصمت في الغرفة. وتجلت لهم جسامة هذه الفكرة وتبعاتها. قالت أوتشيبا نيابة عنهم جميعاً: «أرجو المَعذرة، ولكن... ما الحل إذن؟». قال كياما: «الحرب. سنحشد قواتنا اليوم... بسرية. ننتظر حتى تؤجل الزيارة، وهذا سيحدث. عندها سيكون ذلك إشارة على أن تورانا جا قد تأمر ضد الأعظم. وفي اليوم ذاته، نتقدم نحو الكانتو خلال موسم الأمطار». وفجأة بدأت الأرض تهتز.

كانت الهزة الأولى خفيفة ولم تستمر سوى لحظات، لكنها جعلت الأخشاب تنئن بألم.

ثم جاءت هزة أخرى، أقوى. انشق صدع في جدار حجري ثم توقف، تناثر الغبار من العوارض. أصدرت العوارض والأعمدة والقرميد أصواتاً، وتدحرج بعض البلاط من السقف وسقط في الساحة الأمامية في الأسفل.

شعرت أوتشيبا بدوار وغثيان، وتساءلت إن كان قدرها اليوم أن تُدفن تحت الانقراض اليوم. تمسكت بالأرض المهتزة وانتظرت مع الجميع في القلعة، ومع كل المدينة والسفن في المرفأ، حتى تأتي الصدمة الحقيقية.

لكنها لم تأت. فقد انتهى الزلزال. وعادت الحياة مجدداً. اندفعت فرحة الحياة إلى نفوسهم، وترددت ضحكاتهم عبر القلعة. بدا وكأن الجميع يدرك أن هذه المرة - في هذه الساعة وفي هذا اليوم - ستتجاوزهم الإبادة.

قال إيشيدو وهو لا يزال متشنجاً: «لا يوجد ما يمكننا فعله، أليس كذلك؟». قالت أوتشيبا بفخر: «بلى».

قال إيشيدو مستمتعاً بوجوده: «فلنصوت. أنا أصوت للحرب».

- وأنا.

- وأنا.

- وأنا.

- وأنا.

عندما استعاد بلاكثورن وعيه، كان يعرف أن ماريكو قد ماتت، وكان يعرف كيف ماتت ولماذا ماتت. كان مستلقياً على الفوتون، والحراس الرماديون

يحمونه، وسقف خشبي فوق رأسه، وأشعة الشمس الساطعة تؤذيه، والصمت غريب. يوجد طبيب يفحصه. وتلاشت أول مخاوفه. أستطيع الرؤية.

ابتسم الطبيب وقال شيئاً، لكن بلاكثرون لم يتمكن من سماعه. حاول النهوض لكن ألماً شديداً أدى إلى طنين عنيف في أذنيه. لا يزال طعم البارود المر عالقاً في فمه وجسده بأكمله يؤلمه.

فقد وعيه مجدداً لبضع لحظات، ثم شعر بأيدي لطيفة ترفع رأسه وتضع كوباً على شفتيه، ونكهة الشاي العشبي المعطر بالياسمين أزلت مذاق البارود. أجبر عينيه على الفتح. تحدث الطبيب مجدداً، ولم يتمكن من سماعه مجدداً، وبدأ الخوف يتصاعد داخله، لكنه أوقفه متذكراً الانفجار ورؤيته لها ميتة، وقبل موتها منحها غفراناً لم يكن مؤهلاً لمنحه. دفع هذه الذكرى بعيداً عمداً وأجبر نفسه على تذكر الانفجار الآخر... ذلك الوقت الذي قُذف فيه إلى البحر بعد أن فقد ألبان كارادوك ساقيه. في ذلك الوقت أيضاً، كان يعاني الطنين نفسه في أذنيه والألم والصمم، لكن سَمَعَهُ عاد بعد بضعة أيام. قال لنفسه: لا داعي للقلق، ليس بعد.

رأى طول ظلال الشمس ولون الضوء. كان الوقت بعد الفجر بقليل، فشكر الرب مجدداً أن بصره لم يُصب بأذى.

رأى شفتي الطبيب تتحركان، لكن لم يصل أي صوت عبر دوي الطنين. تحسس وجهه وفمه وفكه ببطء. لا ألم هناك ولا جروح. ثم حلقه وذراعيه وصدره. لا جروح حتى الآن. واصل تحريك يديه للأسفل بحذر، متجهاً نحو خصره وموضع رجولته. لكنه لم يكن مشوهاً هناك كما كان ألبان كارادوك، فحمد الرب على أنه لم يُصب هناك ويترك ليعيش مدرّكاً ذلك، كما أدرك كارادوك المسكين.

استراح للحظة، كان رأسه يؤلمه بشدة. ثم شعر بساقيه وقدميه. بدا كل شيء سليماً. لذا وضع يديه بحذر على أذنيه وضغط، ثم فتح فمه قليلاً وابتلع ريقه وتثائب محاولاً تنظيف أذنيه. لكن هذا زاد الألم.

أمر نفسه: ستنتظر يوماً ونصف يوم، وعشرة أضعاف ذلك إن لزم الأمر، وحتى ذلك الحين، لن تخف.

لمسه الطبيب وتحركت شفتيه.

قال بلاكتورن بهدوء وهو يسمع كلماته في ذهنه فقط: «لا أستطيع السمع، أعتذر».

أوما الطبيب وتحدث مجدداً. الآن قرأ بلاكتورن على شفتيه: «فهمت، أرجو أن تنام الآن».

علم أنه لن ينام. عليه أن يخطط. عليه النهوض ومغادرة أوساكا والتوجه إلى ناجازاكي لجمع المدفعية والبحارة للسيطرة على السفينة السوداء. لا يوجد شيء يفكر فيه، أو يتذكره. لم يعد سبب للاستمرار في لعب دور الساموراي أو التظاهر بأنه ياباني. لقد تحرر الآن، وتلاشت كل الديون والصدقة، لأنها رحلت.

رفع رأسه مجدداً، وعاد ألمه مجدداً. تمالك نفسه وجلس. بدأت الغرفة تدور من حوله، وتذكر بإبهام أنه في أحلامه كان في أنجيرو في أثناء الزلزال، عندما التوت الأرض وقفز فيها لينقذ توراناغا وماريكو من أن تبتلعهما الأرض. لا يزال يشعر ببرودة الرطوبة ورائحة الموت القادمة من التصدع، وكان توراناغا ضخماً ومرعباً ويضحك في حلمه.

أجبر عينيه على الرؤية. توقفت الغرفة عن الدوران ومرت حالة الغثيان. قال: «شاي، رجاء».

عاد طعم البارود إلى فمه. ساعدته الأيدي على الشرب، ثم مدَّ ذراعيه وساعده على الوقوف. لولاهم، لكان سقط. جسده كله يتألم بشدة، لكنه متأكداً الآن أنه لا يوجد أي إصابات بداخله أو خارجه، باستثناء أذنيه، وأن الراحة والتدليك والوقت سيعالجون الأمر. شكر الرب مجدداً على أنه لم يُصب بالعمى أو التشويه ويُترك على قيد الحياة.

ساعده الرماديون على الجلوس مرة أخرى، واستلقى لوهلة. لم يلاحظ أن الشمس قد تحركت ربع دائرة منذ أن استلقى إلى أن فتح عينيه.

فكر وهو يقيس ظل الشمس: غريب، فلم يدرك أنه قد نام. كنت على يقين أن الوقت قُربَ الفجر. عيناى تخدعانني. الوقت أقرب لنهاية الظهيرة الآن. تذكر ألبان كارادوك، وبدأ يتحسس جسده مرة أخرى للتأكد من أنه لم يحلم بأنه معافى.

لمسه أحد، فنظر إلى الأعلى. كان يابو ينظر إليه ويتحدث.

- قال بلاكتورن ببطء: «أعتذر، لا أستطيع السمع بعد يا يابو سان. قريباً سأكون بخير. أذنأي تؤلمانني، هل تفهم؟».
- رأى يابو يومئ ويعبس. تحدث يابو والطبيب معاً، ثم بإشارات، جعل يابو بلاكتورن يفهم أنه سيعود قريباً وعليه أن يرتاح حتى يعود. ثم غادر.
- قال بلاكتورن: «أريد حماماً، وتدليگًا، رجاءً».
- رفعت الأيدي جسده وأخذته إلى هناك. غفا تحت تأثير الأصابع المهدئة، بينما كان جسده يستمتع بالدفاء والحنان والزيوت العطرية التي كانت تُدلك في جلده. وخلال كل ذلك، كان عقله يخطط.
- جاء الرماديون بينما كان نائماً ورفعوا السرير وحملوه إلى داخل برج القلعة، لكنه لم يستيقظ، وقد غلبه التعب وجرعة النوم الشافية.
- قال إيشيدو: «سيكون آمناً الآن يا سيدتي».
- سألت أوتشيبيا: «من كياما؟».
- من جميع المسيحيين.
- أشار إيشيدو للحراس بأن يكونوا منتبهين للغاية، وقادهم خارج الغرفة إلى الممر، ومن هناك إلى حديقة تغمرها أشعة الشمس.
- هل قُتلت السيدة أتشيكو لهذا السبب؟ لأنها كانت مسيحية؟
- كان إيشيدو قد أمر بقتلها في حال كانت قاتلة أرسلها جدها كياما لقتل بلاكتورن. قال: «ليست لدي فكرة».
- إنهم يتكاتفون مثل النحل في سرب. كيف يمكن لأحد أن يصدق هراءهم الديني؟
- لا أعلم. لكنهم سيُسحقون جميعاً قريباً.
- كيف يا قائد؟ كيف تفعل ذلك في حين يعتمد الكثير على حسن نياتهم؟
- وعود... حتى موت توراناجا. ثم سيسقطون على بعضهم بعضاً. نقسم ونحكم. أليس هذا ما يفعله توراناجا، وما فعله الزعيم تايكو؟ كياما يريد الكانتو، أليس كذلك؟ وهو سيطيعنا من أجل الكانتو. لذا وُعد به، في زمن مستقبلبي. أما أونوشي؟ من يدري ما يريده هذا المجنون... سوى أن يبصق على رأس توراناجا وكياما قبل أن يموت.

- وماذا لو اكتشف كياما وعدك لأونوشي - بأن جميع أراضي كياما ستكون له- أو أنك تنوي الوفاء بوعدك لزاتاكي وليس له؟
- نظر إيشيدو إليها: «أكاذيب يا سيدتي، ينشرها الأعداء. أونوشي يريد رأس كياما. كياما يريد الكانتو. وزاتاكي كذلك».
- وأنت يا قائد؟ ما الذي تريده؟
- أولاً، أن يبلغ الوريث الخامسة عشرة بآمان، ثم يصبح حاكم المملكة بآمان. وأن تصبحا في آمان ومحبيين حتى ذلك الوقت. لا شيء أكثر.
- لا شيء؟
- لا يا سيدتي.
- فكرت أوتشيبا: كاذب. قطفت زهرة عطرة وشمّت عبيرها، وبسرور قدمتها له وقالت: «جميلة، أليس كذلك؟».
- قال إيشيدو وهو يأخذها: «بلى، جميلة. شكرًا لك».
- كانت جنازة يودوكو ساما جميلة. أنت تستحق التهنئة يا قائد.
- قال إيشيدو بأدب: «أشعر بالأسف لأنها ماتت. كانت نصائحها دائمًا ذات قيمة».
- سارا لبعض الوقت. ثم سألت أوتشيبا: «هل غادروا بعد؟ كيريتسوبو سان والسيدة سازوكو وابنها؟».
- لا. سيغادرون غدًا، بعد جنازة السيدة تودا. سيغادر الكثيرون غدًا، وهذا سيئ.
- أعتذر، ولكن هل يهم الأمر؟ الآن وقد اتفقنا جميعًا على أن توراناغا ساما لن يأتي إلى هنا؟
- أعتقد ذلك. لكن الأمر ليس مهمًا ما دمنّا نسيطر على قلعة أوساكا.
- لا يا سيدتي، علينا أن نتحلّى بالصبر كما اقترح كياما. ننتظر اليوم المناسب. ثم نتحرك.
- لماذا ننتظر؟ ألا يمكنك التحرك الآن؟
- سيستغرق جمع جيوشنا وقتًا.
- كم عدد الذين سيعارضون توراناغا؟
- ثلاثمائة ألف رجل. على الأقل ثلاثة أضعاف عدد جيشه.

- وماذا عن حاميتي؟
- سأترك ثمانين ألفاً من النخبة داخل الأسوار، وخمسين ألفاً آخرين عند الممرات.
- وزاتاكي؟
- سيخون توراناغا. سيخونه في النهاية.
- ألا تجد الأمر غريباً أن الزعيم سودارا وأختي وجميع أطفالها يزورون تاكاتو؟
- لا. بالطبع يتظاهر زاتاكي بعقد بعض الترتيبات السرية مع أخيه غير الشقيق. لكنها مجرد خدعة، لا أكثر. سيخونه.
- قالت بتقزز: «يجب أن يخونه... فهو يمتلك النسب الفاسد نفسه. لكنني سأكون مستاءة جداً إذا حدث شيء لأختي وأطفالها».
- لن يحدث شيء يا سيدتي. أنا متأكد.
- إذا كان زاتاكي مستعداً لاغتيال والدته... أليس كذلك؟ هل أنت واثق بأنه لن يخونك؟
- لا. ليس في النهاية. لأنه يكره توراناغا أكثر مما يكرهني يا سيدتي، وهو يحترمك ويرغب في الكانتو أكثر من أي شيء آخر. (ابتسم إيشيدو متأملاً الطوابق التي تعلوهم): ما دامت القلعة لنا والكانتو موجودة لنقدمها، لا يوجد ما نخافه.
- قالت وهي تحمل زهرة إلى أنفها، تستمتع برائحتها وتريدها أن تمحو أثر الخوف الذي لا يزال عالقاً: «كنت خائفة هذا الصباح. أردت الهروب، لكنني تذكرت العراف».
- قال إيشيدو بتجهم: «ماذا؟ هو. لقد نسيت أمره».
- كان هذا العراف هو المبعوث الصيني الذي تنبأ بأن التايكو سيموت في سريره تاركاً من بعده ابناً سالمًا، وأن توراناغا سيموت بالسيف في منتصف عمره، وأن إيشيدو سيموت في شيخوخته كأشهر قائد في المملكة، وقدماه راسختان على الأرض. وأن السيدة أوتشيبا ستنتهي أيامها في قلعة أوساكا، محاطة بأعظم نبلاء الإمبراطورية.

قال إيشيدو مجددًا: «نعم، لقد نسيت أمره. تورانا جا في منتصف عمره، أليس كذلك؟».

- بلى.

شعرت أوتشيبا مجددًا بعمق نظرتة، وذابت مشاعرها عند تخيلها لرجل حقيقي يكون معها، يحيط بها ويغمرها ويهبها حياة جديدة بداخلها. حياة تنبثق عن ولادة شريفة هذه المرة، ليست كالولادة الأخيرة، حين كانت تتساءل برعب عما سيكون عليه شكل الطفل ومظهره.

قالت لنفسها وهي تسير معه بين الممرات المعطرة والمظلمة: كم أنتِ حمقاء يا أوتشيبا. تخلصي من تلك الكوابيس السخيفة... فهذا كل ما كنت عليه. كنتِ تفكرين في رجل.

تمنت أوتشيبا فجأة لو كان تورانا جا هو الذي يقف بجانبها وليس إيشيدو، أن يكون تورانا جا سيد قلعة أوساكا وسيد كنز التايكو، وحامي الوريث والقائد العام لجيوش الغرب، وليس إيشيدو. حينها، لن تكون هناك أي مشكلات. كانا سيمتلكان المملكة بأكملها معًا، والآن، في هذه اللحظة، كانت ستدعوه إلى الفراش أو إلى مكان، وغدًا أو بعد الغد سيتزوجان، ومهما حدث في المستقبل، فإنها اليوم ستملك وتُمتلك وتعيش في سلام.

مدّت يدها وسحبت غصنًا نحوها، مستنشقة رائحة الجاردينيا الغنية والعطرة.

قالت لنفسها: تخلصي من الأحلام يا أوتشيبا. كوني واقعية مثل التايكو... أو تورانا جا.

سألت أوتشيبا: «ماذا ستفعل مع أنجين سان؟».

ضحك إيشيدو وقال: «سأحافظ عليه بأمان... ربما أسمح له بأخذ السفينة السوداء، أو أستخدمه كوسيلة للضغط على كياما وأونوشي إذا لزم الأمر. كلاهما يكرهه، أليس كذلك؟ بلى، إنه سيف مسلط على رقابهم... وعلى كنيستهم القذرة».

- في لعبة الشطرنج بين الوريث وتورانا جا، كيف تقيّم قيمة أنجين سان يا قائد؟ بيدق؟ أم ربما فارس؟

قال إيشيدو على الفور: «يا سيدتي، في اللعبة الكبرى بالكاد يُعد بيدقًا. لكن في لعبة الوريث ضد المسيحيين، يُعد قلعة، وربما قلعتين».

- ألا تعتقد أن اللعبتين مترابطتان؟

- بلى، مترابطتان، لكن اللعبة الكبرى ستُحسم بين الدايميو أمام الدايميو، والساموراي أمام الساموراي، والسيف أمام السيف. وبالطبع، في كلتا اللعبتين، أنتِ الملكة.

قالت بسرور لأنه يدرك ذلك: «لا يا قائد، أرجوك اعذرني، لستُ ملكة». ثم غيرت الموضوع لتكون في مأمن: «يُشاع أن أنجين سان وماريكو سان كانا معًا».

- نعم، نعم، سمعت ذلك أيضًا. هل ترغبين في معرفة الحقيقة حول هذا الأمر؟

هزت أوتشيبا رأسها. «لا يمكن تصور حدوث ذلك».

كان إيشيدو يراقبها بتمعن: «هل ترين فائدة في تدمير شرفها؟ الآن؟ ومعها بونتارو سان أيضًا؟».

- لم أقصد شيئاً من هذا القبيل يا قائد. كنت فقط أتساءل... مجرد تفاهة امرأة. لكنه كما قال الزعيم كياما هذا الصباح... دموع الصيف المظلمة، حزينة، حزينة جداً، أليس كذلك؟

- لقد فضلت قصيدتك يا سيدتي. أعدك بأن جانب تورانا جا هو من سيذرف الدموع.

- أما بونتارو سان، فربما لا هو ولا الزعيم هيرو ماتسو سيقا تلان من أجل الزعيم تورانا جا في المعركة.

- هل هذا مؤكد؟

- لا يا قائد، ليس مؤكداً، لكنه محتمل.

- ولكن هل يوجد شيء يمكنك القيام به ربما؟

- لا شيء، سوى طلب دعمهم للوريث... وجميع قادة تورانا جا، بمجرد بدء المعركة.

- لقد بدأت المعركة بالفعل، مع هجوم حركة الكماشة من الشمال والجنوب والهجوم الأخير عند أوداوارا.

- نعم، لكن ليس فعلياً. ليس حتى يقف الجيش أمام الجيش في ساحة المعركة. (ثم سألت): أعذر، لكن هل أنت واثق من أنه من الحكمة أن يقود الوريث الجيوش؟

- أنا من سيقود الجيوش، ولكن يجب أن يكون الوريث حاضراً. عندها لن يستطيع توراناغا الانتصار. لأنه حتى توراناغا لن يهاجم راية الوريث أبداً.

- أأن يكون بقاء الوريث هنا أكثر أماناً... بسبب الاغتيالات، والأُمُيدا... لا يمكننا المخاطرة بحياته. إن ذراع توراناغا طويلة، أليس كذلك؟

- نعم. لكنها ليست طويلة لهذا الحد، ووجود راية الوريث تجعل جانبنا شرعياً وجانب توراناغا غير قانوني. أنا أعرف توراناغا. في النهاية سيحترم القانون. وهذا وحده سيؤدي إلى وضع رأسه على رمح. لقد انتهى يا سيدتي. وبمجرد موته، سأقضي على الكنيسة المسيحية... جميعها. عندها ستصبحين أنتِ والوريث آمنين.

نظرت إليه أوتشيبا وفي عينيها وعد غير منطوق: «سأصلي من أجل نجاحك... وعودتك سالمًا».

شعر بانقباض في صدره، فقد انتظر هذه اللحظة طويلاً. قال مدرّكاً نيّتها: «شكراً لك يا سيدتي، شكراً لك. لن أخذلك».

انحنّت له وابتعدت. كانت تفكر: يا له من تطاول. وكأنني قد أفكر في الزواج بفلاح. الآن، هل ينبغي حقاً أن أستبعد توراناغا؟

كان ديل أكوا راکعاً للصلاة أمام المذبح في أنقاض الكنيسة الصغيرة. كان معظم السقف منهارةً وجزءاً من أحد الجدران، لكن الزلزال لم يمس منطقة المذبح، ولم يلحق أي ضرر بالنافذة الجميلة ذات الزجاج الملون أو تمثال السيدة مريم المنحوت الذي كان مصدر فخره.

شمس الظهيرة تتسلل عبر العوارض الخشبية المكسورة. العمال في الخارج ينقلون الأنقاض من الحديقة ويصلحون ويتحدثون، وبين أصواتهم المختلطة كان بإمكان ديل أكوا سماع صرخات طيور النورس وهي تأتي من البحر، ويشم رائحة الهواء الممزوجة بالملح والدخان وأعشاب البحر والطين. ذكرته هذه الرائحة بمنزله في ضواحي نابولي، حيث يمتزج عبق البحر

بعطّر الليمون والبرتقال ورائحة الخبز الطازج الذي يُخبز، والمكرونة والثوم وطبق لحم الضأن المشوي على الفحم، وفي المنزل الكبير تتردد أصوات أمه وإخوته وأخواته وأطفالهم، جميعهم سعداء ويضحكون ويستمتعون بأشعة الشمس الذهبية.

صلى: يا مريم، دَعيني أُعد إلى منزلي قريبًا. لقد طالت غيبتني. عن الوطن وعن الفاتيكان. يا مريم، أزيلني هذا العبء عني. اغفري لي، فأنا سئمت اليابانيين وإيشيدو والقتل والأسماك النيئة وتوراناجا وكياما ومسيحيي الأرز اليابانيين ومحاولاتي للإبقاء على كنيسة حيّة. امنحيني قوتك.

واحميننا من الأساقفة الإسبان. الإسبان لا يفهمون اليابان ولا اليابانيين. سيدمرون ما بدأناه لمجدك. واغفري لخادمك السيدة ماريّا، وتوليها برعايتك. واحفظي...

سمع شخصًا يدخل إلى صحن الكنيسة. وعندما انتهى من صلاته، نهض واستدار.

قال الأب سولدي: «أعتذر على مقاطعتك يا صاحب النيافة، لكنك أردت أن تعلم على الفور. توجد رسالة مشفرة عاجلة من الأب ألفيتو. من ميشيما. لقد وصلت الحمامة للتو».

- و؟

- يقول فقط إنه سيلتقي توراناجا اليوم. كان ذلك مستحيلًا الليلة الماضية لأن توراناجا كان بعيدًا عن ميشيما، لكن من المفترض أن يعود ظهيرة اليوم. الرسالة مؤرخة عند فجر هذا اليوم.

حاول ديل أكوّا كتم خيبة أمله، ثم نظر إلى الغيوم والطقس بحثًا عن الطمأنينة. فقد أرسل خبر هجوم النينجا وموت ماريكو إلى ألفيتو عند الفجر، عبر رسالتين بحمامتين لضمان الأمان.

قال سولدي: «لا بد أن الخبر قد وصله الآن».

- نعم. نعم، أمل ذلك.

قاد ديل أكوّا الطريق خارج الكنيسة، عبر الأروقة نحو مكتبه. وكان سولدي الصغير والهزيل يسارع لمواكبة خطوات الأب الزائر الواسعة. قال سولدي: «يوجد أمر آخر ذو أهمية بالغة يا صاحب النيافة. تقول مصادرنّا إنه بعد الفجر، قرر الأوصياء الحرب».

توقف ديل أكوا وقال: «الحرب؟».

- يبدو أنهم باتوا مقتنعين بأن تورانا جا لن يأتي أبدًا إلى أوساكا، ولا الإمبراطور. لذا قرروا بالاتفاق مهاجمة الكانتو.

- هل أنت متأكد؟

- نعم يا صاحب النيافة. إنها الحرب. أرسل كياما الخبر عبر الأخ مايكل، مما يؤكد مصدرنا الآخر. لقد عاد مايكل للتو من القلعة. كان التصويت بالإجماع.

- متى ستبدأ؟

- في اللحظة التي يتأكدون فيها أن الإمبراطور لن يأتي إلى هنا.

- لن تتوقف الحرب أبدًا. ليكن الرب رحيماً بنا، وليبارك ماريكو... على الأقل حُذراً كياما وأونوشي من خيانة تورانا جا.

- وماذا عن أونوشي يا صاحب النيافة؟ ماذا عن خيانتته لكياما؟

- ليس لدي دليل على ذلك يا سولدي. يبدو الأمر مستبعدًا. لا أستطيع تصديق أن أونوشي قد يفعل ذلك.

- لكن إذا فعل يا صاحب النيافة؟

- هذا غير ممكن في الوقت الراهن، حتى لو كان مُخطئاً له. الآن يحتاج كل منهما للآخر.

- حتى وفاة الزعيم تورانا جا...

- لست بحاجة لتذكيري بعداوة هذين الاثنين، ولا المدى الذي سيصلان إليه... غفر الرب لهما.

واستأنف سيره.

سارع سولدي للحاق به: «هل ينبغي أن أرسل هذه المعلومات إلى الأب ألفيتو؟».

- لا. ليس بعد. يجب عليّ أولاً أن أقرر ما ينبغي فعله. سيعلم تورانا جا قريباً من مصادره الخاصة. ليتولى الرب هذه الأرض في رعايته وليكن رحيماً بنا جميعاً.

فتح سولدي الباب للأب الزائر وقال: «الأمر الآخر المهم هو أن المجلس رفض رسمياً تسليمنا جثمان السيدة ماريا. سيُقام لها جنازة رسمية غداً، ولم نتلق دعوة».

- هذا متوقع، لكن من الرائع أنهم يرغبون في تكريمها بهذه الطريقة. أرسل أحد أفرادنا ليجلب جزءاً من رمادها... سيُسمح بذلك. سيُدفن الرماد في أرض مقدسة في ناجازاكي. (عدل صورة تلقائياً وجلس خلف مكتبه): سأقيم قداساً على روحها هنا... سيكون القداس الكامل هناك بكل الفخامة والطقوس التي يمكننا تقديمها عندما تُدفن رفاتنا رسمياً. سنُدفن في أراضي الكاتدرائية كابنة مباركة للكنيسة. جهّز لوحة، واستعن أفضل الفنانين والخطاطين... يجب أن يكون كل شيء مثالياً.

- حسناً يا صاحب النيافة.

- شجاعته وتضحيتها المباركة ستكون مصدر إلهام كبيراً لرعبتنا. هذا مهم جداً يا سولدي.

- وماذا عن حفيدة كياما يا سيدي؟ ستسمح لنا السلطات باستلام جثمانها. هو أصرّ على ذلك.

- جيد. إذاً يجب أن تُرسل رفاتنا إلى ناجازاكي فوراً. سأتشاور مع كياما حول مدى أهمية جنازتها بالنسبة له.

- هل ستتولى أنت إقامة الخدمة يا صاحب النيافة؟

- نعم، إذا كان بإمكانني مغادرة هذا المكان.

- سيسعد الزعيم كياما بشدة بهذا الشرف.

- نعم... لكن يجب أن نتأكد من أن خدمتها لا تقلل من قيمة خدمة السيدة ماريا. فإن جنازة ماريا لها أهمية سياسية كبيرة جداً.

- بالطبع يا صاحب النيافة. أفهم تماماً.

- درس ديل أكوا مساعده: «لماذا لا تثق بأونوشي؟».

- أعتذر يا صاحب النيافة... ربما لأنه مُصاب بالجذام ويثير فيّ الرعب. أعتذر.

قال ديل أكوا: «اعتذر له يا سولدي، فهو ليس مسؤولاً عن مرضه. ليس لدينا دليل على المؤامرة».

- الأمور الأخرى التي قالتها السيدة كانت صحيحة. لماذا لا يكون هذا صحيحاً أيضاً؟

- ليس لدينا دليل. كلها افتراضات.

- نعم، افتراضات.

حرّك ديل أكوا المصفق الزجاجي، مراقباً انعكاس الضوء: «في صلاتي شممت رائحة زهر البرتقال والخبز الطازج، وكم أردت العودة إلى الوطن».

تنهد سولدي: «أحلم بطبق لحم الضأن المشوي يا صاحب النيافة، وبالبيتزاويلا وزجاجة من نبيذ لكريما كريستي (دموع المسيح) و... ليغفر الرب لي شهوة الجوع. قريباً سنتمكن من العودة إلى الوطن يا صاحب النيافة. في العام القادم. بحلول العام القادم سيُحل كل شيء هنا».

- لن يُحل شيء بحلول العام القادم. هذه الحرب ستؤذينا. ستؤذي الكنيسة والمؤمنين بشدة.

قال سولدي بثقة راغباً في رفع معنويات رئيسه: «كلا يا صاحب النيافة. ستكون كيوشو مسيحية بغض النظر عن المنتصر. يمكن لهذه الجزيرة أن تنتظر توقيت الرب. يوجد الكثير لفعله في كيوشو، أليس كذلك يا صاحب النيافة؟ ثلاثة ملايين روح لتهديتها، ونصف مليون مؤمن لرعايتهم. ثم هناك أيضاً ناجازاكي والتجارة. لا يمكنهم الاستغناء عن التجارة. إيشيدو وتوراناجا سيمزقان بعضهما بعضاً. ما الذي يهمنا؟ فكلهما أعداء للمسيح، وثنويون وقتلة».

- نعم، لكن للأسف، ما يحدث في أوساكا وإيدو يسيطر على كيوشو. ماذا نفعل، ماذا نفعل؟ (دفع ديل أكوا أحزانه بعيداً): ماذا عن الإنجليزي؟ أين هو الآن؟

- ما زال تحت الحراسة في برج القلعة.

- اتركني لبعض الوقت يا صديقي القديم، يجب أن أفكر. يجب أن أقرر ماذا سأفعل. أخيراً. الكنيسة في خطر عظيم.

نظر ديل أكوا من النافذة إلى الساحة. ثم رأى الراهب بيريز يقترب.

ذهب سولدي إلى الباب ليعترض الراهب. قال الأب الزائر: «لا، سأقابله الآن».

قال الراهب بيريز وهو يحك نفسه لا إرادياً: «يا صاحب النيافة، مساء الخير. هل أردت رؤيتي؟».

- نعم. رجاءً أحضر الرسالة يا سولدي.

قال الراهب: «سمعت أن كنيسةكم الصغيرة قد دُمرت».

- تضررت فقط. رجاءً اجلس.

جلس ديل أكوا على كرسيه العالي خلف المكتب وجلس الراهب أمامه. تابع: «لم يصب أحد بأذى، الحمد للرب. وفي غضون أيام قليلة ستعود كأنها جديدة. وماذا عن بعثتك؟».

قال الراهب بارتياح واضح. «لم تُمس. كانت هناك حرائق من حولنا بعد الهزات ومات الكثيرون، لكن لم يمسن شيئاً. عين الرب تحميننا». ثم أضاف بلهجة غامضة: «سمعت أن الوثنيين كانوا يقتلون الوثنيين في القلعة الليلة الماضية».

- نعم. واحدة من أهم معتنقي ديننا، السيدة ماريا، قُتلت في تلك الفوضى.

- نعم، تلقيت تقارير أيضاً. قالت السيدة ماريا «اقتله يا يوشيناكا»، وبدأت المذبحة. سمعت أنها حتى حاولت قتل البعض بنفسها قبل أن تنتحر.

احمر وجه ديل أكوا: «أنت لا تفهم شيئاً عن اليابانيين بعد كل هذا الوقت، ومع أنك تتحدث قليلاً من لغتهم».

- أنا أفهم الهرطقة والغباء والقتل والتدخل السياسي، وأتكم لغة الوثنيين جيداً. أنا أفهم الكثير عن هؤلاء الوثنيين.

- ولكن ليس عن الأدب.

- كلمة الرب لا تتطلب أدب. إنها الكلمة. نعم. وأفهم أيضاً الزنا. ما رأيك في الزنا... والبغايا يا صاحب النيافة؟

فُتح الباب. قَدَّمَ سولدي رسالة البابا إلى ديل أكوا، ثم تركهما.

قدم الأب الزائر الورقة إلى الراهب مستمتعاً بانتصاره: «هذه من قداسة البابا. وصلت أمس عبر رسول خاص من ماكاو».

أخذ الراهب الأمر البابوي وقرأه. كان الأمر ينص على أنه بموافقة رسمية من ملك إسبانيا، يجب أن يسافر جميع الكهنة من جميع الطوائف إلى اليابان عبر لشبونة وجوا وماكاو فقط، وأنه يُمنع الجميع تحت طائلة الحرمان الكنسي الفوري من السفر من مانيلا مباشرة إلى اليابان، وأخيرًا، يجب على جميع الكهنة باستثناء اليسوعيين مغادرة اليابان فورًا إلى مانيلا حيث يمكنهم العودة إلى اليابان إذا أراد رؤسائهم، ولكن عبر لشبونة وجوا وماكاو. فحص الراهب بيريز ختم الرسالة وتوقيعها وتاريخها، ثم أعاد قراءة الأمر بعناية قبل أن يضحك بسخرية ويدفع الرسالة على المكتب: «لا أصدق ذلك».

- هذا أمر من قداسته...

- إنها هرطقة أخرى ضد إخوة الرب، ضدنا أو أي من الرهبان المستجدين الذين يحملون الكلمة إلى الوثنيين. بهذه الوسيلة نمنع من اليابان إلى الأبد، لأن البرتغاليين، بمساعدة بعض الأشخاص، سيتلاعبون ويماطلون إلى الأبد ولن يمنحونا تصريح المرور أو التأشيرات. إذا كان هذا حقيقياً، فإنه فقط يثبت ما كنا نقوله لسنوات: يستطيع اليسوعيون أن يفسدوا حتى نائب المسيح في روما.

تحكم ديل أكوا في غضبه: «أنت مأمور بالمغادرة. وإلا ستعرض للحرمان الكنسي».

- تهديدات اليسوعيين لا معنى لها يا صاحب النيافة. أنتم لا تتحدثون بلسان الرب، لم تفعلوا ولن تفعلوا أبداً. أنتم لستم جنود المسيح. أنتم تخدمون البابا يا صاحب النيافة، رجلاً. أنتم سياسيون، رجال الأرض، رجال أماكن المتعة بحريركم الوثني وأراضيكم وسلطتكم وثروتكم ونفوذكم. الرب يسوع المسيح جاء إلى الأرض في هيئة رجل بسيط يحك جلده ويسير حافياً. لن أرحل أبداً... ولا إخوتي.

لم يشعر ديل أكوا بهذا القدر من الغضب في حياته من قبل: «أنت- ستغادر-اليابان».

- أمام الرب، لن أغادر. ولكن هذه ستكون المرة الأخيرة التي آتي فيها إلى هنا. إذا أردت رؤيتي مستقبلاً، تعال إلى مقر بعثتنا المقدسة، تعال واخدم الفقراء والمرضى والمنبوذين كما فعل المسيح. اغسل أقدامهم كما فعل المسيح، وخلّص روحك قبل فوات الأوان.

- أنت مأمور تحت طائلة الحرمان الكنسي بمغادرة اليابان فوراً.
- هُوْن عليك يا صاحب النيافة، لست محروماً ولن أكون. أنا بالطبع أقبل الوثيقة، إلا إذا كانت قديمة. هذه مؤرخة في السادس عشر من سبتمبر عام 1598، أي قبل عامين تقريباً. يجب التحقق منها، فهذا أمر بالغ الأهمية ولا يمكن قبوله في الحال... وسيستغرق ذلك أربع سنوات على الأقل.
- بالطبع ليست قديمة.
- أنت مخطئ. والرب شاهد عليّ، أعتقد أنها كذلك. في غضون أسابيع قليلة، وربما بضعة أشهر، سنحظى أخيراً برئيس أساقفة لليابان. أسقف إسباني. الرسائل التي وصلتني من مانيلا تشير إلى أن التفويض الملكي منتظر مع كل بريد.
- مستحيل. هذه أرض برتغالية وإقليم تابع لنا.
- كانت برتغالية، وكانت يسوعية. لكن كل ذلك تغير الآن. بمساعدة إخوتنا وإرشاد الرب، تمكن ملك إسبانيا من الإطاحة بقائدكم في روما.
- هذا هراء. أكاذيب وشائعات. على روحك الخالدة، أطع أوامر نائب المسيح.
- سأطيع. سأكتب له اليوم، أعدك. وفي غضون ذلك، توقع أسقفًا إسبانيًا ونائب ملك إسباني وقبطاناً جديداً للسفينة السوداء... إسبانيًا أيضاً. هذا أيضاً سيكون جزءاً من التفويض الملكي. لدينا أصدقاء في مناصب عليا، وأخيراً تغلبوا على اليسوعيين، مرة واحدة وإلى الأبد. في حفظ الرب يا صاحب النيافة.
- نهض الراهب بيريز وفتح الباب وغادر.
- في المكتب الخارجي، شاهد سولدي رحيله ثم عاد بسرعة إلى الغرفة. أسرع إلى القارورة وصب بعض البراندي مرعوباً من لون وجهه ديل أكوا: «صاحب النيافة؟».
- هز ديل أكوا رأسه واستمر في التحديق أمامه دون وعي. على مدار العام الماضي، كانت تصل أنباء مقلقة من مندوبيهم لدى بلاط فيليب ملك إسبانيا في مدريد بشأن التأثير المتزايد لأعداء الجمعية.

- هذا ليس صحيحًا يا صاحب النيافة. لا يمكن للإسبان أن يأتوا إلى هنا. لا يمكن أن يكون صحيحًا.
- يمكن أن يكون صحيحًا، بسهولة. بسهولة شديدة. (لمس ديل أكوا الوثيقة البابوية): قد يكون هذا البابا ميتًا، وقد يكون قائدنا ميتًا... بل وربما ملك إسبانيا أيضًا. وفي هذه الأثناء... (نهض واقفًا بكامل قامته): وفي هذه الأثناء سنستعد للأسوأ، ونصلي طالبي العون، ونفعل ما بوسعنا. أرسل الأخ مايكل ليحضر كيما إلى هنا على الفور.
- حسنًا يا صاحب النيافة. لكن كيما لم يأتِ إلى هنا من قبل. من غير المحتمل أن يأتي الآن، أليس كذلك؟
- أخبر مايكل أن يستخدم أي كلمات ضرورية، لكنه يجب أن يُحضر كيما إلى هنا قبل غروب الشمس. بعد ذلك، أرسل الأخبار الحربية إلى مارتن فورًا ليرسلها إلى تورانا. اكتب التفاصيل بنفسك، لكنني أريد أن أرسل رسالة مشفرة معها. ثم أرسل شخصًا لإحضار فيريرا إلى هنا.
- حسنًا يا صاحب النيافة. لكن بشأن كيما، بالتأكيد لن يتمكن مايكل...
- أخبر مايكل أن يأمره بالمجيء، باسم الرب إن لزم الأمر. نحن جنود المسيح، سنخوض الحرب... حرب الرب. أسرع.

الفصل التاسع والخمسون

- أنجين سان؟

سمع بلاكثورن اسمه في حلمه. قادمًا من مكان بعيد جدًا، يتردد إلى الأبد. أجاب: «نعم؟».

ثم سمع اسمه مجددًا وشعر بيد تلمسه، ففتح عينيه وركز بصره في ضوء الفجر الخافت، واستعاد وعيه فجأة وجلس مستقيمًا. كان الطبيب جاثيًا بجوار سريره مجددًا، وكلُّ من كيريتسوبو والسيدة أوتشيبا تقفان بجواره، تنظران إليه. كان الرماديون منتشرين في الغرفة الكبيرة، ومصابيح الزيت تومض بدفء.

تحدث إليه الطبيب مجددًا. كان الطنين لا يزال يدوي في أذنيه والصوت خافتًا، لكنه لم يعد هناك شك. لقد استعاد سمعه. مدَّ يديه إلى أذنيه لا إرادياً وضغط عليهما ليزيل التشوش. وعلى الفور انفجر الألم في رأسه وأطلق شرارات وأضواء ملونة ونبضًا عنيفًا.

تمتم منتظرًا أن يخف عذابه: «أعتذر، أذناي تؤلمانني، حسنًا؟ لكنني أسمع الآن... هل تفهم يا طبيب سان؟ أسمع الآن... قليلًا. أعتذر، ماذا تقول؟». ركز على حركة شفثيه ليساعد نفسه على السمع.

- السيدة أوتشيبا وكيريتسوبو ساما تريدان معرفة كيف تشعر.

نظر بلاكثورن إليهما. ولاحظ أنهما ترتديان ملابس رسمية. كانت كيريتسوبو ترتدي ملابس بيضاء بالكامل باستثناء وشاح رأس أخضر. وارتدت أوتشيبا كيمونو أخضر داكن دون نقشة أو تطريز، وشالها الطويل كان من نسيج أبيض خفيف. قال وروحه مضطربة بسبب اللون الأبيض: «أفضل، شكرًا لكما. نعم، أفضل». ثم لاحظ الضوء الخارج وأدرك أن الوقت كان الفجر وليس الشفق. «طبيب سان، عذرًا، هل نمتُ ليوم وليلة؟».

- نعم يا أنجين سان. يوم وليلة. استلقِ رجاءً.

أمسك الطبيب بمعصم بلاكثورن بأصابعه الطويلة وضغطها على النبض، مصغيًا بأصابعه إلى تسع نبضات، ثلاث على السطح، وثلاث في الوسط، وثلاث في الأعماق، كما تعلم من الطب الصيني منذ الأزل.

انتظر جميع من في الغرفة التشخيص. ثم أوماً الطبيب برضا: «كل شيء يبدو جيدًا يا أنجين سان. لا إصابة سيئة، هل تفهم؟ لكن ألم الرأس شديد، أليس كذلك؟».

ثم التفت ليشرح التفاصيل للسيدة أوتشيبا وكيريتسوبو.

قالت أوتشيبا: «أنجين سان، اليوم جنازة ماريكو ساما. هل تفهم كلمة «جنازة»؟».

- بلى يا سيدتي.

- جيد. ستكون جنازتها بعد الفجر مباشرة. لك الشرف أن تحضر إذا أردت. هل تفهم؟

- نعم. أعتقد ذلك. نعم، رجاءً، أود الذهاب أيضًا.

- حسنًا.

تحدثت أوتشيبا إلى الطبيب، طالبةً منه أن يعتني بمرريضه بعناية فائقة. ثم انحنت بأدب لكيريتسوبو وابتسمت لبلاكثورن قبل أن تغادر.

انتظرت كيري حتى غادرت أوتشيبا، ثم قالت: «هل أنت بخير يا أنجين سان؟».

- رأسي يؤلمني يا سيدتي. أعذر.

- أرجو المَعذرة، أردت أن أشكرك. هل تفهم؟

- واجب. فقط واجب. فشلت. ماريكو ساما ماتت، أليس كذلك؟

انحنت كيري له احترامًا: «لم تفشل. أوه، لا، لم تفشل. شكرًا لك يا أنجين سان. من أجلها ومن أجلي ومن أجل الآخرين. سأحدث أكثر لاحقًا. شكرًا لك».

ثم غادرت هي الأخرى.

تماسك بلاكثورن ونهض على قدميه. كان الألم في رأسه فظيعةً، يجعله يرغب في الصراخ. أجبر شفتيه على التماسك، وأحس بالألم شديد في صدره وبمعدته تتلوى. بعد لحظات، زال الغثيان لكنه ترك طعمًا كريهًا في فمه. حرك قدميه ببطء وتقدم نحو النافذة، متشبثًا بالإطار ليمنع نفسه من النقيء.

انتظر قليلاً ثم بدأ في المشي جيئةً وذهاباً، لكن ذلك لم يخفف الألم في رأسه أو الغثيان.

قال ثم جلس مجدداً بامتنان: «أنا بخير، شكرًا لك».

ابتسم الطبيب بود: «تفضل، اشرب هذا. سيجعلك تشعر بتحسن. سيهدئ الهارا (معدتك)».

شرب بلاكتورن واختنق من طعمه الذي يشبه رائحة فضلات الطيور القديمة وأعشاب البحر المتعفنة المخلوطة بأوراق متخمرة في يوم صيفي حار. كان الطعم أسوأ من الرائحة.

- اشرب. ستشعر بتحسن قريباً، أعتذر.

اختنق بلاكتورن مجدداً لكنه أجبر نفسه على بلعه.

- قريباً ستشعر بتحسن، أعتذر.

جاءت خادومات وقمن بتمشيط شعره وتهيئته. وحلق له الحلاق، وأحضروا له مناشف ساخنة ليديه ووجهه، فشعر بتحسن كبير، لكن الألم في رأسه بقي. ثم ساعده خدم آخرون على ارتداء الكيمونو الرسمي والرداء ذي الأكتاف المجنحة. كان يوجد سيف قصير جديد. قالت خادمة: «هدية يا سيدي. هدية من كيريتسوبو ساما».

قبل بلاكتورن الهدية ووضعها في حزامه بجانب سيف القتل الخاص به الذي منحه إياه توراناغا، وقد كان مقبضه متشقّقاً ويكاد ينكسر حيث ضرب به المزلاج. تذكر ماريكو وهي تقف وظهرها إلى الباب، ثم لا شيء حتى وجد نفسه جاثياً بجانبها يشاهدها وهي تموت. ثم لا شيء حتى الآن.

قال مخاطباً قائد الرمايين: «أعتذر، هذا هو برج القلعة، أليس كذلك؟».

- بلى يا أنجين سان.

انحنى القائد باحترام، وكان قصيراً كالقرد وخطراً بالقدر ذاته.

- لماذا أنا هنا، رجاء؟

ابتسم الساموراي وسحب أنفاسه بأدب: «لقد أمر القائد الزعيم بذلك».

- لكن لماذا هنا؟

قال الساموراي: «كانت تلك أوامر القائد الزعيم. أرجو المعذرة، هل تفهم؟».

قال بلاكتورن بإنهاك: «نعم، شكرًا لك».

عندما أصبح مستعدًا أخيرًا، شعر بحالة مزرية. ساعده الشاي لبعض الوقت، لكن الغثيان اجتاحه وتقيأ في الوعاء الذي حمله له أحد الخدم، وقد اخترق الألم صدره ورأسه كإبر حمراء ساخنة عند كل تشنج.

قال الطبيب بصبر: «أعتذر. تفضل، اشرب هذا».

شرب المزيد من الشراب، لكنه لم يساعده.

بحلول ذلك الوقت، كان الفجر قد انتشر في السماء. أشار إليه الخدم وساعدوه على الخروج من الغرفة الكبيرة، وحراسه يسرون أمامه، والبقية يتبعون. نزلوا الدرج وخرجوا إلى الساحة الأمامية. يوجد هودج في انتظاره مع المزيد من الحراس. دخل فيه بامتنان. وعند أمر من قائد الرمايين، رفع الحمالون العوارض، والحراس يحومون حوله بحماية، وانضموا إلى الموكب الذي يتكون من حمالين وساموراي وسيدات مشاة، متجهين عبر المتاهة إلى خارج القلعة. كان الجميع يرتدون أفضل ما لديهم. بعض النساء كن يرتدين كيمونو بلون داكن مع أوشحة رأس بيضاء، وأخريات كن يرتدين الأبيض بالكامل عدا وشاح ملون.

كان بلاكتورن يدرك أنه مُراقب. تظاهر بعدم الملاحظة وحاول أن يبقي ظهره مستقيمًا ووجهه خاليًا من التعابير، وصلى ألا يعود الغثيان ليخجله. لكنه شعر بالمزيد من الألم.

شق الموكب طريقه عبر نقاط التحصين في القلعة، متجاوزًا آلاف الساموراي المصطفين بصمت. لم يتعرض أحد للمساءلة، ولم تُطلب منهم أي أوراق. مرَّ المشيعون عبر نقطة تفتيش تلو الأخرى، تحت البوابات الحديدية وعبر الخنادق الخمسة دون توقف. فور خروجهم من البوابة الرئيسية خارج التحصينات الرئيسية، لاحظ أن الرمايين أصبحوا أكثر حذرًا، أعينهم تراقب الجميع من حوله، يبقون قريبين منه ويحرسونه بعناية. خفف هذا من قلقه. لم ينس أنه كان رجلاً مستهدفًا. تابع الموكب طريقه عبر مساحة فارغة، مرورًا فوق جسر، ثم اتخذوا موقعًا في الساحة بجانب ضفة النهر.

كانت هذه المساحة مائتين وثمانية وعشرين مترًا في ثلاثمائة وثمانين مترًا. وفي منتصفها حفرة مساحتها أحد عشر مترًا مربعًا وعمقها أربعة أمتار، ومملوءة بالخشب. فوق الحفرة سقف مرتفع مغطى بالحبر الأبيض،

ومحاط بجدران من قماش الكتان الأبيض المعلق على أعواد الخيزران، تشير بدقة نحو الشرق والشمال والغرب والجنوب، مع بوابة خشبية صغيرة في وسط كل جدار.

كانت قد أخبرته ماريكو في هاكوني: «البوابات هي لتمرُّ الروح من خلالها يا أنجين سان، في رحلتها إلى السماء».

- لنذهب للسباحة أو لنتحدث عن أمور أخرى، أمور سعيدة.
- نعم، بالطبع، لكن رجاءً دعني أنه كلامي أولاً لأن هذا أمر سعيد جداً. إن جنازتنا أمر بالغ الأهمية لنا، لذا يجب أن تتعلم عنها يا أنجين سان، أليس كذلك؟ أرجوك؟

- حسناً. ولكن لماذا أربع بوابات؟ لماذا لا تكون واحدة فقط؟
قالت: «يجب أن يكون للروح خيار. هذا حكيم... نحن حكماء جداً، أليس كذلك؟ هل أخبرتك اليوم أنني أحبك؟ نحن أمة حكيمة جداً لأننا نسمح للروح باختيار طريقها. أغلب الأرواح تختار البوابة الجنوبية يا أنجين سان. تلك هي البوابة المهمة، حيث توجد الطاولات المليئة بالتين المجفف والرمان الطازج والفواكه الأخرى، والفجل والخضراوات الأخرى، وشتلات الأرز إذا كان الموسم ملائماً. ودائماً وعاء من الأرز المطهو الطازج يا أنجين سان، وهذا أهم شيء. كما ترى، قد ترغب الروح في تناول الطعام قبل الرحيل».

- إذا كنت أنا، ضعوا لي طائرًا مشويًا أو...
- أعتذر، لا لحم... ولا حتى سمك. نحن جادون بشأن هذا الأمر يا أنجين سان. وأيضًا سيكون على الطاولة مبخرة صغيرة مع جمرات تحترق مع أخشاب نفيسة وزيت لجعل كل شيء ذا رائحة عطرية...
امتلات عينا بلاكتورن بالدموع.

كانت دائماً تقول بهدوء: «أريد جنازتي أن تكون قرب الفجر. أحب الفجر أكثر من أي وقت آخر. وإذا أمكن أن يكون في الخريف أيضًا».
فكر بلاكتورن: حبيبتي المسكينة، كنتِ تعلمين طوال الوقت أنه لن يكون هناك خريف.

توقفت محفته في مكان شرفي في الصف الأمامي بالقرب من المركز، وكان قريبًا بما يكفي ليرى الدموع على الفواكه المرشوشة بالماء. كان كل شيء هناك كما قالت. يوجد حوله مئات من الهواذج، والساحة مكتظة بألف

ساموراي وسيداتهم الواقفين بصمت وسكون. تعرّف على إيشيدو وإلى جانبه أوتشيبا. لم ينظر أيُّ منهما إليه. جلسا على محفاتها الفخمة يحدقان إلى جدران الكتان الأبيض التي كانت ترفرف في النسيم الرقيق. كان كياما على الجانب الآخر من أوتشيبا، وزاتاكي بالقرب منه ومعه إيتو. وكانت محفة أونوشي المغلقة هناك أيضًا. وكلهم محاطون بصقوف من الحراس. كان ساموراي كياما يرتدون صلبانًا، وكذلك ساموراي أونوشي.

نظر بلاكثورن حوله باحثًا عن يابو، لكنه لم يجده في أي مكان، ولا يوجد أيُّ من الجنود البنين أو أي وجه مألوف. الآن كياما يحدق إليه بنظرة جامدة، وعندما رأى النظرة في عينيه، شعر بالامتنان لوجود حراسه. ومع ذلك انحنى قليلًا، لكن نظرة كياما لم تتغير، ولم يُظهر أي احترام. بعد لحظات، أشاح كياما بنظره بعيدًا، وتنفس بلاكثورن براحة أكبر.

شق صوت الطبول والأجراس وارتطم المعدن بالمعدن الهواء، كان الصوت غير متناغم وحادًا. توجهت كل العيون نحو البوابة الرئيسية للقلعة. ثم ظهرت محفة مزخرفة ذات سقف من بين الظلام، يحملها ثمانية كهنة شنتو، ويجلس عليها كاهن كبير كتمثال بوذا. كان الكهنة الآخرون يضربون الطبول المعدنية أمام وخلف هذه المحفة، وتبعهم مائتا كاهن بوذي يرتدون ثيابًا برتقالية، والمزيد من كهنة الشنتو بملابس بيضاء، ثم جاء نعشها.

كان النعش فاخرًا وسقفه أبيض، وهي مرتدية الأبيض، جالسة برأس مائل قليلًا للأمام، ووجهها مزين وشعرها منمق بعناية. عشرة من البنين يحملون نعشها. أمام النعش كان اثنان من الكهنة الصغار ينثران بتلات ورد صغيرة من الورق، تأخذها الرياح وتبعثرها، رمزًا إلى أن الحياة عابرة كزهرة. وبعدهما جر كاهنان رمحين إلى الخلف، إشارة إلى أنها كانت ساموراي، وواجبها قوي كقوة نصل الفولاذ. تبعهم أربعة كهنة يحملون مشاعل غير مضاءة. تلاهم ساروجي ابنها بوجهه أبيض كالكيمنو الذي يرتديه. ثم جاءت كيريتسوبو والسيدة سازوكو، كلاهما يرتدي الأبيض، وشعرهما منسدل لكن مغطى بحرير أخضر خفيف. شعر الفتاة يصل إلى ما تحت خصرها، أما شعر كيري فكان أطول. ثم هناك فراغ، وأخيرًا بقية حامية توراناغا. كان بعض البنين جرحى وكثير منهم يعرج.

لم يرَ بلاكتورن أحدًا سواها. بدت وكأنها تصلي، ولم يوجد أي أثر عليها. حافظ على صموده، مدرِّكًا كم كان هذا الحفل العلني شرفًا عظيمًا لها، بوجود إيشيدو وأوتشيبا كشاهدين رئيسيين. لكن ذلك لم يخفف من حزنه.

لأكثر من ساعة، تلا الكاهن الأكبر تعويذة وترددت أصوات الطبول. ثم في لحظة من الصمت المفاجئ، تقدم ساروجي وأخذ مشعلًا غير مشتعل، وذهب إلى كل بوابة من البوابات الأربع، الشرق والشمال والغرب والجنوب، ليتأكد من أنها غير مغلقة.

رأى بلاكتورن أن الفتى يرتجف، وعيناه مصوبتان نحو الأرض حين عاد إلى النعش. ثم رفع الحبل الأبيض المتصل به وقاد حاملي النعش عبر البوابة الجنوبية. وُضع النعش برفق على الخشب. تلا الكاهن تعويذة رسمية أخرى، ثم لمس ساروجي المشعل المشبع بالزيت بالجمر في المبخرة. اشتعل على الفور. تردد هنيهة، ثم عاد وحده عبر البوابة الجنوبية وألقى المشعل في المحرقة. اشتعل الخشب المشبع بالزيت بسرعة وتحول المكان إلى فرن ملتهب. سرعان ما ارتفعت ألسنة اللهب لتصل إلى ارتفاع ثلاثمائة متر. تراجع ساروجي بسبب الحرارة، ثم جلب قطعَ خشبٍ معطرة وزيوتًا وألقاها في النار. انفجر السقف شديد الجفاف. واشتعلت جدران الكتان. أصبحت منطقة الحفرة بأكملها كتلة نارية ملتهبة، تدور وتتصاعد ولا يمكن إخمادها.

انهارت أعمدة السقف. وتنهَّد الحاضرون. تقدم الكهنة وألقوا المزيد من الحطب في المحرقة، فارتفعت ألسنة اللهب أكثر، والدخان يتصاعد. لم يتبقَّ الآن سوى البوابات الصغيرة الأربع. رأى بلاكتورن الحرارة وهي تلتهم البوابات. ثم اشتعلت هي أيضًا بالنار.

ثم خرج إيشيدو الشاهد الرئيسي من محفته وتقدم للأمام، وقدم قربانًا من الخشب النفيث. انحنى رسميًا ثم جلس مجددًا في محفته. وبأمره، رفعه الحمالون وعاد إلى القلعة. ثم تبعته أوتشيبا. وبدأ الآخرون بالمغادرة.

انحنى ساروجي للنيران للمرة الأخيرة. ثم استدار واتجه نحو بلاكتورن. وقف أمامه وانحنى. قال: «شكرًا لك يا أنجين سان».

ثم رحل مع كيري والسيدة سازوكو.

قال قائد الرماديين بابتسامة: «انتهى كل شيء يا أنجين سان. الكامي آمن الآن. سنذهب إلى القلعة».

- انتظر. رجاء.

قال القائد بتوتر بينما كان الآخرون يحرسونه من كثب: «أعتذر، إنها أوامر، أليس كذلك؟».

- رجاء انتظر.

غير مبالٍ بقلقهم، خرج بلاكثورن من المحفة والألم يكاد يعميه. انتشر الساموراي من حوله ليحيطوا به. سار نحو الطاولة وأخذ بعض قطع خشب الكافور الصغيرة وألقاها في المحرقة. لم يستطع رؤية أي شيء من خلال ستار اللهب.

تمتم مباركًا إياها ورسم إشارة صليب صغيرة: «باسم الأب والابن والروح القدس».

ثم استدار وغادر النار.

عندما استيقظ، كان رأسه بحال أفضل بكثير، لكنه شعر بالإرهاق، ولا يزال الألم الخفيف ينبض خلف صدغيه وعبر مقدمة رأسه.

قال الطبيب بابتسامة عريضة، وكان صوته لا يزال خافتًا: «كيف حالك يا أنجين سان؟ هل نمت لوقت طويل».

رفع بلاكثورن نفسه على مرفقه ونظر بنعاس إلى ظلال الشمس. فكر: لا بد أن الساعة تقترب من الخامسة مساءً الآن. لقد نمت لأكثر من ست ساعات. قال: «نمت طوال اليوم، أليس كذلك؟».

ابتسم الطبيب: «طوال البارحة والليل ومعظم اليوم. هل تفهم؟».

- أفهم. نعم.

استلقى بلاكثورن مجددًا، وقطرات العرق تغطي بشرته. فكر: جيد. أفضل شيء يمكنني فعله، لا عجب أنني أشعر بتحسن.

كان فراشه المصنوع من الألحفة الناعمة محاطًا الآن من ثلاث جهات بحواجز متحركة، تزينها مناظر طبيعية وبحرية، ومطعمة بالعاج. تسلت أشعة الشمس عبر النوافذ المقابلة، والذباب يحوم، والغرفة واسعة ومريحة وهادئة. تصدر أصوات من القلعة في الخارج، ممزوجة الآن بأصوات خيول تسير بخفة، وأجراس لجامها ترن، وحوافرها بلا حدود. النسيم الخفيف

يحمل رائحة الدخان. فكر: لا أعلم إذا كنت أود أن تُحرق جثتي. ولكن لحظة، أليس ذلك أفضل من وضعك في صندوق ودفنك ثم الديدان... أمر نفسه شاعرًا أنه ينحدر إلى دوامة من الأفكار السلبية: توقف. لا شيء يدعو للقلق، الكارما هي الكارما، وعندما تموت، تصبح ميتًا، ولن تشعر بأي شيء حينها... وأي شيء أفضل من الغرق، والماء يملؤك ويصبح جسدك كريهاً ومنتفخاً، ثم السرطانات... توقف.

أعطاه الطبيب المزيد من الشراب الكريه: «اشرب، رجاءً».

كان على وشك التقيؤ ولكنه تمكن من ابتلاعه.

- شاي، رجاءً.

سكبت له الخادمة بعض الشاي، فشكرها. كانت امرأة ذات وجه مستدير كالقمر في منتصف عمرها، وعينين ضيقتين وابتسامة فارغة ثابتة. بعد ثلاثة أكواب أصبح فمه مقبولاً.

- عذراً يا أنجين سان، كيف حال أذنك؟

- كما هما. لا أزال أشعر بالبُعد... البُعد، هل تفهم؟ بعيد جداً.

- أفهم. هل تريد أن تأكل يا أنجين سان؟

وضعت أمامه صينية صغيرة تحتوي على الأرز والحساء وسمك مشوي. شعر بالغثيان قليلاً لكنه تذكر أنه لم يأكل فعلياً منذ يومين، لذا جلس وأجبر نفسه على تناول بعض الأرز وشرب حساء السمك. هداً هذا معدته فأكل المزيد حتى انتهى من كل شيء، مستخدماً عيدان الطعام كامتداد لأصابعه دون جهد وإع. قال: «شكراً لك. كنت جائعاً».

قال الطبيب: «نعم».

وضع كيساً من الكتان يحتوي على أعشاب على الطاولة المنخفضة بجانب الفراش: «اصنع شاياً من هذا يا أنجين سان. مرة كل يوم حتى ينتهي. هل تفهم؟».

- نعم. شكراً لك.

- لقد كان شرفاً لي أن أخدمك.

أشار الطبيب إلى الخادمة التي أخذت الصينية الفارغة، وبعد انحناء أخرى غادر هو أيضًا من الباب الداخلي. كان بلاكتورن وحيدًا الآن. استلقى على الفتون وهو يشعر بتحسّن كبير.

قال بصوت عالٍ: «كنت فقط جائعًا».

كان يرتدي ملابس داخلية فقط. ملابسه الرسمية مرمية بإهمال حيث تركها، وهذا أثار دهشته، رغم أنه يوجد كيمونو بني نظيف بجانب سيوفه. سمح لنفسه بالاسترخاء، لكنه فجأة شعر بوجود غريب. فجلس بقلق ونظر حوله. ثم نهض على ركبتيه ونظر خلف النوافذ، وقبل أن يدرك، وجد نفسه واقفًا ورأسه ينبض بالألم نتيجة الحركة المفاجئة المزعورة، إذ رأى اليسوعي الياباني حليق الرأس ينظر إليه، جاثيًا بلا حراك قرب المدخل الرئيسي، وفي يده صليب ومسبحة.

سأل بلاكتورن متحملاً الألم: «من أنت؟».

لم تتزعزع عيناه الداكنتان: «أنا الأخ مايكل يا سيدي».

تحرك بلاكتورن مبتعدًا عن النوافذ ووقف بجانب سيوفه: «ما الذي تريده مني؟».

قال مايكل بهدوء بلهجة برتغالية واضحة ولكن بلكنة واضحة: «أرسلت لأطمئن على حالك».

- مَنْ أرسلك؟

- الزعيم كياما.

فجأة أدرك بلاكتورن أنهما بمفردهما تمامًا: «أين حراسي؟».

- ليس لديك حراس يا سيدي.

- بالطبع لدي حراس. لدي عشرون من الرماديين. أين هم؟

- لم يوجد أحد عندما وصلت يا سيدي. آسف. كنت لا تزال نائمًا آنذاك. (أشار مايكل بجديّة خارج الباب): ربما عليك أن تسأل أولئك الساموراي.

أمسك بلاكتورن سيفه: «ابتعد عن الباب».

- أنا غير مسلح يا أنجين سان.

- حتى وإن كنت كذلك، لا تقترب مني. الكهنة يجعلونني أشعر بالتوتر.

أطاعه مايكل ناهضًا على قدميه وابتعد بالهدوء المقلق نفسه. في الخارج، كان اثنان من الرمايين يستندان إلى الحاجز عند المدخل. قال بلاكثورن بأدب وهو لا يتعرف على أي منهما: «مساء الخير».

لم ينحن أي منهما.

أجاب أحدهما: «مساء الخير يا أنجين سان».

- رجاء أين بقية حراسي؟

- سُحب جميع الحراس في ساعة الأرنب هذا الصباح. هل تفهم ساعة الأرنب؟ لسنا حراسك يا أنجين سان. هذا موقعنا العادي.

شعر بلاكثورن بقطرات العرق البارد تتسلل على ظهره: «سُحب الحراس... بأمر من؟».

ضحك كلا الساموراي. وقال الطويل: «هنا، داخل القلعة، يا أنجين سان، فقط القائد الزعيم أو السيدة أوتشيبا يعطيان الأوامر. كيف تشعر الآن؟».

- أفضل، شكرًا.

نادى الساموراي الأطول أحدهم من الممر. خرج بعد لحظات ضابط برفقة أربعة ساموراي. شابًا مفتولًا. لمعت عيناه عندما رأى بلاكثورن وقال: «أنجين سان، كيف حالك؟».

- أفضل، شكرًا. عذرًا، أين حراسي؟

- أُمّرت بإبلاغك عندما تستيقظ، بأنك ستعود إلى سفينتك. هذا تصريحك.

أخرج القائد ورقة من كمه وأعطاهها له، ثم أشار بازدراء إلى مايكل وقال: «هذا الرجل سيكون دليلك».

حاول بلاكثورن تشغيل رأسه، وعقله يصرخ بالخطر: «نعم. شكرًا. لكن أولًا رجاء يجب أن أرى الزعيم إيشيدو. الأمر مهم جدًا».

- أعتذر. أوامرك هي العودة إلى السفينة فور استيقاظك. هل تفهم؟

- نعم. أرجو المعذرة، لكن من المهم جدًا أن أرى الزعيم إيشيدو. أرجوك، أخبر قائدك الآن. يجب أن أرى الزعيم إيشيدو قبل أن أغادر. أمر مهم، آسف.

حك الساموراي بقايا ندوب على ذقنه وقال: «سأطلب ذلك. رجاء ارتد ملابسك».

انطلق بخطوات واثقة مما أثار ارتياح بلاكتورن. بقي الأربعة الساموراي. عاد بلاكتورن إلى الداخل وارتدى ثيابه بسرعة وهم يراقبونه. وكان الكاهن ينتظر في الممر.

قال لنفسه: اصبر. لا تفكر ولا تقلق. إنه مجرد خطأ. لم يتغير شيء. لا تزال تمتلك القوة التي لطالما امتلكتها.

وضع السيفين في حزامه وشرب ما تبقى من الشاي. ثم لاحظ التصريح. كان مختومًا وملينًا بالرموز. فكر وقد بدأ الكيمونو النظيف يلتصق بجسده: لا مجال للخطأ في هذه.

قال أحد الساموراي: «أنجين سان، سمعنا أنك قتلت خمسة من النينجا. هذا جيد جدًا، أليس كذلك؟».

- أعتذر، فقط اثنين. ربما ثلاثة.

أدار بلاكتورن رأسه يمينًا ويسارًا لتخفيف الألم والدوار.

- سمعت أنه قُتل سبعة وخمسين نينجا... ومائة وستة عشر من البنيين. هل هذا صحيح؟

- لا أعلم، آسف.

عاد القائد إلى الغرفة وقال: «أوامرك هي الذهاب إلى سفينتك يا أنجين سان. هذا الكاهن سيكون دليكَ».

- نعم، شكرًا. لكن أولًا، أعتذر، يجب أن أرى السيدة أوتشيبا. الأمر مهم جدًا جدًا. رجاءً اطلب من...

استدار القائد نحو مايكل وتحدث بلهجة قاسية وسريعة: «حسنًا؟».

انحنى مايكل بلا تأثر، ثم التفت إلى بلاكتورن وقال: «أعتذر يا سيدي. يقول إن قائده سيسأل قائده الأعلى، لكن في هذه الأثناء عليك أن تغادر حاليًا وتتبعني... إلى القادس».

قال القائد مؤكّدًا: «الآن».

أدرك بلاكتورن أنه ميت لا محالة. سمع نفسه يقول: «شكرًا يا قائد. أين حراسي رجاءً؟».

- ليس لديك حراس.

- رجاءً أرسل سفينتي. استدع أتباعي من...

كانت الكلمات غير مهذبة وحاسمة: «الأمر هو أن تذهب إلى السفينة الآن. هل تفهم، حسنًا؟». أضاف القائد بابتسامة ملتوية منتظرًا أن ينحني بلاكتورن أولًا: «اذهب إلى السفينة».

لاحظ بلاكتورن ذلك، وكل شيء تحول إلى كابوس، تباطأ كل شيء وأصبح ضبابيًا، أراد بشدة أن يتخلص من الخوف ويمسح العرق عن وجهه وينحني، لكنه كان متأكدًا أن القائد بالكاد سينحني له بالمثل، وربما لن ينحني بأدب، ولن يكون أبدًا على قدم المساواة، مما سيتسبب له في إذلاله أمام الجميع. كان واضحًا أنه قد خُذِعَ وأنه قد بيع للعدو المسيحي، وأن كياما وإيشيدو والكهنة كانوا جزءًا من الخيانة، وبغض النظر عن السبب والثن، ليس أمامه فعل شيء سوى مسح العرق والانحناء والمغادرة وهم سيكونون بانتظاره.

ثم تذكر ماريكو، تذكر خوفها وكل ما كانت تعنيه وكل ما فعلته له وكل ما علمته إياه. أجبر يده على الإمساك بمقبض سيفه المكسور وثبت قدميه بتحدٍ، مدرِّكًا أن مصيره قد حُسم، الكارما خاصته قد حُسمت. وأنه إن كان عليه أن يموت، فقد كان يفضل أنه يكون الآن وبعزة بدلًا من الموت لاحقًا.

قال ذلك بإصرار مطلق منحه قوة غريبة ووقاحة تامة: «أنا جون بلاكتورن، أنجين سان. قائد سفينة الزعيم توراناغا. كل السفن. أنا ساموراي وهاتاموتو. من أنت؟».

احمرَّ وجه القائد وقال: «أنا سايجو ماساكاتسو من كاجا، قائد حامية الزعيم إيشيدو».

سأل بلاكتورن بوقاحة أكبر دون حتى الاعتراف باسم خصمه، فقد يراه بوضوح تام... يرى كل مسام، وكل شعرة غير حليقة، وكل ذرة لون في عينيه البنيتين المعاديتين، وكل شعرة على ظهر يد الرجل التي كانت تقبض على مقبض السيف: «أنا هاتاموتو... هل أنت هاتاموتو؟».

- لا، لست هاتاموتو.

- هل أنت ساموراي... أم رونين؟

خرجت الكلمة الأخيرة بحدة، وشعر بلاكتورن بوجود رجال خلفه، لكنه لم يهتم. كان يراقب القائد فقط، منتظرًا الضربة القاتلة التي تستجمع كل الهاراجي وكل مصدر القوة الداخلي، ويستعد لردّها بقوة مكافئة في موت مشرف، ليهزم عدوه.

لدهشته، رأى عينيَّ القائد تتغيران، وتراجع الرجل وانحنى بتواضع وخجل، وظل في انحنائه تاركًا نفسه بلا دفاع. كان صوته يطغى عليه الخزي وهو يقول: «رجاء... رجاء اعذر سوء أخلاقي. كنت... كنت رونيًا لكن... لكن القائد الزعيم أعطاني فرصة ثانية. رجاء اعذر سوء أخلاقي يا أنجين سان». كان كل ذلك غير واقعي، وبلاكثورن لا يزال مستعدًا للضربة، منتظرًا الموت وليس النصر. نظر إلى الساموراي الآخرين، فانحنوا جميعهم مع قائدهم، مانحين إياه النصر.

انحنى بلاكثورن بجمود بعد لحظة، لكنه لم ينحن كند. وبقوا مُنحنيين حتى استدار وسار في الممر، يتبعه مايكل، وخرجوا إلى الدرج الرئيسي، ثم نزلوا إلى الساحة الأمامية. لم يعد يشعر بأي ألم الآن. كان يشعر فقط بتوهج هائل. كان الرماذيون يراقبونه، والمجموعة من الساموراي التي كانت ترافقه ومايكل إلى أول نقطة تفتيش كانت تبقى بعيدًا عن مدى سيفه. وأرسل أحدهم مسرعًا إلى الأمام.

عند نقطة التفتيش التالية، انحنى الضابط الجديد بأدب كند، فانحنى بلاكثورن بالمثل. وفُحصت التصاريح بدقة ولكن باحترام. واصطحبتهم مرافقة أخرى إلى النقطة التالية وهناك تكرر الأمر، ومن ثم عبروا الخندق الداخلي، ثم التالي. لم يعترضهم أحد، ولم يعرفهم العديد من الساموراي انتباهًا.

لاحظ تدريجيًا أن رأسه بالكاد كان يؤلمه. وجف عرقه. لذا فكَّ إحكام أصابعه من مقبض سيفه وحركها قليلًا. توقف عند نافورة مثبتة في جدار، شرب منها ورش الماء على رأسه.

توقف المرافقون الرماذيون وانتظروا بأدب، وطوال الوقت كان يحاول جاهدًا أن يفهم لماذا فقد حظوته وحماية إيشيدو والسيدة أوتشيبا. فكر بذعر: لم يتغير شيء. نظر إلى أعلى ورأى مايكل يحدق إليه: «ماذا تريد؟».

أجاب مايكل بأدب: «لا شيء يا سيدي». ثم ارتسمت ابتسامة دافئة على وجهه. «يا سيدي، لقد أسديت لي خدمة عظيمة هناك عندما جعلت ذلك الوقح اللعين يشرب بوله. كان مشهدًا رائعًا». أضاف باللاتينية: «أنت، شكرًا لك».

قال بلاكثورن بالبرتغالية محاولًا تجنب التحدث باللاتينية: «لم أفعل ذلك من أجلك».

- نعم، السلام عليك يا سيدي. اعلم أن الرب يتحرك بطرق غامضة. لقد كانت خدمة لجميع الرجال. ذاك الرونين أهين ونال ما يستحقه، إن إساءة استخدام بوشيدو أمرٌ قذر.

- هل أنت ساموراي أيضًا؟

قال مايكل: «نعم يا سيدي، لي شرف ذلك. أبي هو ابن عم الزعيم كياما وعشيرتي من مقاطعة هيزن في كيوشو. كيف عرفت أنه كان رونيًا؟».

حاول بلاكثورن التذكر: «لست متأكدًا. ربما لأنه قال إنه من كاجا، وهي بعيدة جدًا، وماريكو... السيدة تودا قالت إن كاجا في أقصى الشمال. لا أعلم... لا أذكر حقًا ما قلته».

عاد ضابط المرافقة إليهم وقال: «أرجو المعذرة يا أنجين سان، لكن هل يزعجك هذا الرجل؟».

- لا. لا، شكرًا لك.

استأنف بلاكثورن السير. فُحِصَت التصاريح مجددًا بأدب، وواصلوا السير.

كانت الشمس تتجه نحو الغرب الآن، ولا يزال أمامهم بضع ساعات حتى الغروب، ودوامات من الغبار تدور في دوامات صغيرة تحت تأثير تيارات الهواء الساخن. مروا بالعديد من الإسطبلات، حيث كانت جميع الخيول متجهة للخارج، والرماح والسروج جاهزة للانطلاق الفوري، والساموراي ينظفون الخيول والمعدات. كان بلاكثورن مدهوشًا من عددهم.

سأل: «كم عدد الخيول يا قائد؟».

- آلاف يا أنجين سان. عشرة، عشرون، ثلاثون ألفًا هنا وأماكن أخرى في القلعة.

عندما كانوا يعبرون الخندق قبل الأخير، أشار بلاكثورن إلى مايكل ليقترُب منه وسأل: «هل تقودني إلى القادس؟».

- نعم. هذا ما طُلب فعله يا سيدي.

- ليس إلى أي مكان آخر؟

- لا يا سيدي.

- من طلب ذلك؟

- الزعيم كياما. والأب الزائر يا سيدي.
- ذاك! أفضل أنجين سان، وليس سيدي يا... أبت
- أرجو المَعذرة يا أنجين سان، لكنني لست أبًا. لم أرسم بعد.
- متى يحدث ذلك؟
- قال مايكل بثقة: «في وقت الرب».
- أين يابو سان؟
- لا أعلم، أعتذر.
- أنت تأخذني إلى سفينتي فقط، لا غير؟
- نعم يا أنجين سان.
- حينها أصبح حرًا؟ حرًا لأذهب أينما شئت؟
- أُمِرت بأن أسأل عن حالك، ثم أن أوجّهك إلى السفينة، لا أكثر. أنا مجرد رسول، ومرشد.
- أمام الرب؟
- أنا مجرد مرشد يا أنجين سان.
- أين تعلمت التحدث بالبرتغالية جيدًا؟ واللاتينية؟
- كنت واحدًا من الأربعة... الأربعة المساعدين الذين أرسلهم الأب الزائر إلى روما. كنت في الثالثة عشرة، وكان أوراجا نو تاداماسا في الثانية عشرة.
- الآن أتذكر. قال لي أوراجا سان إنك كنت أحدهم. كنت صديقه. هل تعلم أنه مات؟
- نعم. صُدمت عندما سمعت الخبر.
- المسيحيون من فعلوا ذلك.
- القتل فعلوا ذلك يا أنجين سان. القتل. سيُحاسِبون، لا تقلق.
- قال بلاكتورن بعد لحظة: «كيف وجدت روما؟».
- كرهتها. كرهناها جميعًا. كل شيء فيها... الطعام والقذارة والقبح. الجميع هناك أشبه بالإيتا... أمر لا يُصدق! استغرقت رحلتنا ثمانين سنوات للوصول إليها والعودة، وكم باركت مريم عندما عدت أخيرًا.

- وماذا عن الكنيسة؟ الآباء؟

قال مايكل بهدوء: «كان كثير منهم بغيضين. صُدمت من أخلاقهم وعشيقاتهم وجشعهم وبذخهم ونفاقهم وسوء أخلاقهم... ومعاييرهم المزدوجة، واحدة للرعية وأخرى للرعاة. كان كل شيء كريهاً... ومع ذلك، وجدت الرب بين بعضهم يا أنجين سان. غريب. وجدت الحقيقة في الكاتدرائيات والأديرة وبين الآباء». نظر إليه مايكل نظرة صادقة، تتخللها عاطفة رقيقة. «كان ذلك نادرًا يا أنجين سان، نادرًا جدًا أن أجد لمحة من الحقيقة... لكنني وجدتها. وجدت الحقيقة والرب وأدركت أن المسيحية هي الطريق الوحيد للحياة الأبدية... أرجو المعذرة، المسيحية الكاثوليكية».

- هل رأيت الإحراق الجماعي للهراطقة أو محاكم التفتيش أو السجون أو محاكمات السحر؟

- رأيت الكثير من الأشياء المروعة. قلة هم الرجال الحكماء... معظمهم خُطاة، وشر كبير يحدث على الأرض باسم الرب. ولكن ليس من الرب. هذا العالم هو وادٍ من الدموع وليس إلا إعدادًا للسلام الأبدي. (صلّى بصمت للحظة، ثم رفع رأسه شاعرًا بالراحة): حتى بعض الهراطقة يمكن أن يكونوا صالحين، أليس كذلك؟
أجاب بلاكتورن معجبًا به: «ربما».

عبروا الخندق الأخير والبوابة الأخيرة، البوابة الجنوبية الرئيسية. آخر نقطة تفتيش، حيث أخذوا أوراقه. تقدم مايكل تحت آخر بوابة. وتبعه بلاكتورن. خارج القلعة كان مائة من الساموراي ينتظرون، رجال كياما. رأى صلبانهم وعداءهم وتوقف. لم يتوقف مايكل. أشار الضابط لبلاكتورن بالمضي قدمًا. فأطاعه. أحاطه الساموراي من خلفه وحوله، يحاصرونه وسطهم. تفرق العمال والتجار على الطريق الرئيسي وانحنوا أرضًا حتى مرّوا. بعضهم رفع صلبانًا بائسة وباركهم مايكل، وهو يقود الطريق نزولًا من المنحدر، مرورًا بمقبرة حيث لم يعد الدخان يتصاعد من الحفرة، ثم عبروا جسرًا ودخلوا المدينة متجهين نحو البحر. كان بعض الرماديون والساموراي الآخريين قادمين من المدينة بين المشاة، وعندما رأوا مايكل عبسوا وكادوا يدفعونه إلى الجانب لولا حشود الساموراي من رجال كياما.

تبع بلاكتورن مايكل. كان قد تجاوز مرحلة الخوف، لكن ليس رغبة الهرب. ولكن لا يوجد مكان للفرار أو للاختباء. على اليابسة. أمله الوحيد في

الأمان كان على متن إيراسموس، متجهاً إلى عرض البحر، مع طاقم كامل، مجهزين ومسلحين.

- ماذا سيحدث على متن القادس يا أخي؟
- لا أعلم يا أنجين سان.

الآن كانوا في شوارع المدينة بالقرب من البحر. انعطف مايكل عند زاوية ودخل سوق سمك مفتوح. خادمت جميلات وأخريات سمينات وعجائز وشباب ورجال ومشترون وبائعون وأطفال، جميعهم يحدقون إليهم، ثم بدؤوا بالانحناء على عجل. تبع بلاكتورن الساموراي بين الأكشاك والسلال وصواني الخزيران المليئة بأنواع مختلفة من السمك الطازج اللامع، مرتبة بنظافة تامة... بعضها يسبح في أحواض، روبان وجمبري وسرطان البحر وكركند. فكر بذهول: لم أرَ مثل هذه النظافة في لندن، لا السمك ولا من يبيعه. ثم لمح صفًا من أكشاك الطعام إلى جانب الطريق، كلُّ منها يحتوي على موقد فحم صغير، وشمّ رائحة الكركند المشوي العطرة.

- يا يسوع.

غير اتجاهه دون تفكير. وعلى الفور وقف الساموراي في طريقه. قال أحدهم: «أرجو المعذرة، ممنوع».

أجاب بلاكتورن بالقسوة نفسها: «لا. أنا جائع، حسنًا؟ أنا أنجين سان، أليس كذلك؟».

بدأ بلاكتورن يدفع طريقه بينهم. سارع الضابط لاعتراضه. تقدم مايكل بسرعة وتحدث بلهجة مهدئة لكن مع نبرة متحكمة، وطلب الإذن، فمنحه إياه على مضض.

قال: «تفضل يا أنجين سان، يقول الضابط إنه يمكنك أن تأكل إن شئت. ماذا تود أن تأكل؟».

- بعضًا من هذا، رجاءً.

أشار بلاكتورن إلى الروبيان الكبير منزوع الرأس والمفتوح بالطول، بلونه الوردى واللحم الأبيض، وأصدافه المقرمشة بمثالية. لم يستطع أن يبعد عينيه عنه: «بعضًا من هذا. أخبر الضابط أنني لم أتناول الطعام منذ يومين تقريبًا، وفجأة أشعر بالجوع الشديد. أعذر».

كان بائع السمك رجلاً مسنّاً بثلاث أسنان وبشرة مجمدة، ويرتدي لباساً داخلياً فقط. كان شاعراً بالفخر بأن كشكه قد أختير، واختار أفضل خمس قطع من الروبيان باستخدام عيدان الطعام الخفيفة، ووضعها بعناية على صينية خيزران، ثم بدأ في شوي المزيد.

- تفضل يا أنجين ساما.

- شكرًا.

شعر بلاكتورن بمعدته تفرقر. أراد أن يأكل بشراته، لكنه تناول واحدة بهدوء باستخدام عيدان الطعام النظيفة وغمسها في الصلصة وأكلها بشهية. كانت لذيذة.

عرض عليه الطبق وسأل: «أخ مايكل؟».

فأخذ مايكل واحدة من باب الأدب، بينما رفض الضابط وشكره.

أنهى بلاكتورن ذلك الطبق وتناول اثنين آخرين. كان بإمكانه تناول اثنين آخرين أيضًا، لكنه قرر ألا يفعل من باب الأدب، وأيضًا لأنه لا يريد أن يرهق معدته.

قال واضعًا الطبق مع تجشؤ خفيف من قبيل الأدب: «شكرًا. إنه لذيذ».

ابتسم الرجل وانحنى، وانحنى الباعة المجاورون أيضًا، ثم أدرك بلاكتورن بذهول أنه لا يملك أي نقود. فاحمر وجهه.

سأل مايكل: «ما الأمر؟».

- أنا، أأ.. ليس معي أي نقود... أو أي شيء لأدفعه للرجل. هل يمكنك إقراضي بعض المال رجاءً؟

- ليس معي نقود يا أنجين سان. نحن لا نحمل النقود.

سادت لحظة من الصمت المخرج. ابتسم البائع منتظرًا بصبر، ثم استدار مايكل بإحراج مماثل إلى الضابط وطلب منه بهدوء بعض المال. كان الضابط غاضبًا من بلاكتورن، وتحدث بحدة إلى أحد رجاله الذي تقدم للأمام ودفع للبائع بسخاء، والذي شكرهم بحرارة. بينما مايكل المخرج استدار ليقود الطريق مجددًا، ولحق به بلاكتورن: «أسف على ذلك لكن لم... لم يخطر ببالي! هذه أول مرة أشتري شيئًا هنا. لم أحمل نقودًا من قبل، مهما بدا ذلك غريبًا، ولم أفكر... لم أستخدم المال من قبل...».

- رجاء انس الأمر يا أنجين سان. ليس شيئاً مهماً.

- رجاء أخبر الضابط أنني سأدفع له عندما أصل إلى السفينة.

فعل مايكل ما طُلب منه. ساروا في صمت لبعض الوقت، بينما كان بلاكتورن يحاول أن يستعيد توازنه. كان الشاطئ في نهاية هذا الشارع، البحر هادئ وباهت تحت ضوء غروب الشمس. ثم لاحظ المكان الذي وصلوا إليه وأشار إلى اليسار، إلى شارع واسع يمتد من الشرق إلى الغرب: «لنذهب من هذا الاتجاه».

- هذا الطريق أسرع يا أنجين سان.

- نعم، لكن في طريقك سنضطر إلى المرور أمام بعثة اليسوعيين وسفينة البرتغاليين. أفضل أن نتجنب ذلك ونسلك الطريق الأطول.

- لقد طُلب مني أن أسلك هذا الطريق.

توقف بلاكتورن وقال: «دعنا نذهب في الاتجاه الآخر».

سأل الضابط عن المشكلة، فشرح مايكل الأمر. فأشار الضابط لهم بالاستمرار في طريق مايكل.

فكر بلاكتورن في نتائج رفضه. كانوا سيجبرونه أو يقيدونه ويحملونه أو يجرونه. لم تناسبه أي من هذه الخيارات، فhez كتفيه وسار.

وصلوا إلى الطريق الواسع الذي يمر بمحاذاة الشاطئ. كانت أرصفة ومستودعات اليسوعيين على بعد نصف ري، وعلى بعد ستة وسبعين مترًا آخر رأى السفينة البرتغالية. وبعدها على بعد مائة وخمسين مترًا، كانت توجد القادس الخاصة به. كانت بعيدة لذا لم يكن بالإمكان رؤية الرجال على متنها بعد.

التقط بلاكتورن حذرًا وألقاه في البحر: «دعنا نسر على الشاطئ لبعض الوقت».

- بالتأكيد يا أنجين سان.

نزل مايكل إلى الرمال، وسار بلاكتورن في المياه الضحلة مستمتعًا ببرودة البحر وصوت الأمواج الخفيفة.

- إنه وقت جميل من اليوم، أليس كذلك؟

قال مايكل فجأة بحميمية واضحة: «يا أنجين سان، هناك أوقات كثيرة، لتغفر لي مريم، أتمنى لو لم أكن كاهنًا، بل مجرد ابن والدي، وهذه واحدة من تلك الأوقات».

- لماذا؟

- أود أن آخذك أنت وسفينتك الغريبة في يوكوهاما إلى هيزن، إلى مينائنا العظيم في ساسيبو. ثم كنت سأطلب منك المقايضة... سأطلب منك أن تعلمني أنا وقباطنة سفننا طرق سفينتك وأسرار البحر. وفي المقابل، سأقدم لك أفضل المعلمين في المملكة، معلمي البوشيدو، وطقوس الشاي، وفن الهارا جي، والكي والزازين التأملية، وترتيب الزهور، وكل المعارف الفريدة والخاصة التي نملكها.

- أود ذلك. لماذا لا نفعلها الآن؟

- هذا ليس ممكنًا اليوم. لكنك تعلمت الكثير بالفعل وفي وقت قصير، أليس كذلك؟ كانت ماريكو ساما معلمة عظيمة. أنت ساموراي جدير بالاحترام. ولديك صفة نادرة هنا: عدم إمكانية التنبؤ بك. كان التايكو يملكها، وتوراناجا ساما يملكها أيضًا. أترى، نحن عادةً شعب يمكن التنبؤ به.

- هل أنت كذلك؟

- نعم.

- إذًا تنبأ بطريقة تمكيني من الهروب من الفخ الذي أنا فيه.

قال مايكل: «أعتذر، لا توجد يا أنجين سان».

- لا أصدق ذلك. كيف عرفت أن سفينتي في يوكوهاما؟

- هذا معروف للجميع.

- حقًا؟

- كل شيء عنك تقريبًا - دفاعك عن الزعيم توراناجا والسيدة ماريو والسيدة تودا - معروف ويحظى بالاحترام.

- لا أصدق ذلك أيضًا.

التقط بلاكتورن حجرًا مسطحًا آخر وألقاه فوق الأمواج. استمروا بالسير، وبلاكتورن يهتمهم بأغنية بحرية مستمتعًا برفقة مايكل. سرعان ما اعترض

طريقهم حاجر مائي. تجاوزوه وصعدوا مجددًا إلى الطريق. بدت مستودعات ومقر بعثة اليسوعيين ضخمة الآن تحت السماء الحمراء. رأى الإخوة العلمانيين في زيهم البرتقالي يحرسون البوابة الحجرية المقوسة وشعر بعدائهم. لكنه لم يكثرث. بدأ رأسه يؤلمه مجددًا.

كما كان يتوقع، اتجه مايكل نحو بوابة مقر البعثة. استعد بلاكثورن عازمًا على أنهم سيتعين عليهم ضربه حتى يفقد الوعي قبل أن يدخل ويجبروه على التخلي عن أسلحته.

- أنت ترشدني فقط إلى القادس، أليس كذلك؟

لدهشته، أشار له مايكل بالتوقف خارج البوابة: «بلى يا أنجين سان. لم يتغير شيء. طُلب مني أن أخبر الأب الزائر الكاهن عندما نمر. أعذر، لكن عليك الانتظار للحظة».

تفاجأ بلاكثورن وهو يراقب مايكل يدخل البوابة وحده. كان يتوقع أن تكون البعثة هي نهاية رحلته. أولاً محاكمة محاكم التفتيش مع التعذيب، ثم تسليمه إلى قائد الأسطول. نظر إلى السفينة البرتغالية على بعد ستة وسبعين مترًا. كان فيريرا ورودريجز على ظهر السفينة، وكان البحارة المسلحون يملؤون سطح السفينة. ووراء السفينة، طريق الرصيف ينحني قليلًا، وتمكن من رؤية سفينته. يوجد رجال يراقبون من شفير السفينة، وظن أنه قد تعرف على يابو وفينك بينهم لكنه لم يكن متأكدًا. بدا أنه توجد بعض النساء على متنها أيضًا، لكنه لم يعرف من هن. كانت السفينة محاطة بالعديد من الرماديين. الكثير منهم.

توجهت أنظاره نحو فيريرا ورودريجز. كان كلاهما مدججًا بالسلاح، وكذلك البحارة. كانت فرق المدفعية تتظاهر بالاسترخاء قرب المدفعين الصغيرين عند الشاطئ، لكن في الواقع كانوا جاهزين لتشغيلهما. تعرف على جسد بيسارو رئيس البحارة الضخم وهو ينزل على الدرج مع مجموعة من الرجال. تبعهم بنظره، ثم تجمد دمه. كان يوجد رمح طويل مثبت في الأرض عند رصيف المرفأ البعيد، وحول قاعدته كومة من الحطب.

- يا ربان، كيف حالك؟

كان ديل أكوا قادمًا من البوابة، بجوار مايكل الذي بدا ضئيلاً إلى جانبه. اليوم كان الأب الزائر يرتدي لباس اليسوعيين، وقد أضفت قامته الشامخة

ولحيته الرمادية الفخمة عليه مظهرًا مهيبًا كبطريك للكتاب المقدس، وكل جزء منه يوحي بكونه محققًا متسامحًا ظاهرًا، كما فكر بلاكتورن. تطلع في عينيه البنيتين وشعر بغرابة النظر لأعلى إلى رجل، وأكثر غرابة أن يرى فيهما شيئًا من التعاطف. لكنه كان يعلم أنه لن يجد أي شفقة خلف تلك النظرة، ولم يكن يتوقع ذلك. أجابه، وأصبح يشعر بثقل الروبيان في معدته، مما جعله يشعر بالغثيان: «الأب الزائر، كيف حالك؟».

- هل نمضي قدمًا؟

- لم لا؟

فكر بلاكتورن بخوف شديد: إذن يبدو أن التحقيق سيتم على متن السفينة. كان يتمنى لو أن يحمل مسدسات في حزامه. ستكون أول من يموت يا صاحب النيافة.

قال ديل أكو: «ابق هنا يا مايكل».

ثم ألقى نظرة نحو الفرقاطة البرتغالية، تجهم وجهه وتقدم في السير. تردد بلاكتورن. كان مايكل والساموراي المحيطون به ينظرون إليه بغرابة.

قال مايكل: «الوداع يا أنجين سان. في حفظ الرب».

أوماً بلاكتورن برأسه سريعاً وبدأ يسير بين الساموراي، منتظرًا منهم أن يهجموا عليه ليأخذوا سيفيه. لكنهم تركوه يمر دون أن يعترضوه. توقف ونظر خلفه، وقلبه يخفق بشدة.

في لحظة كان مغرياً له أن يستل سيفه ويهجم، لكنه أدرك أن هذا الطريق لا مفر فيه. لن يقاتلوه. يحمل الكثير منهم رماحاً وسيتمكنون من الإمساك به وتجريده من سيفه وتقييده وتسليمه. وعد نفسه: لن أذهب مقيداً. كان طريقه الوحيد هو التقدم، حيث سيفيه عاجزين أمام البنادق. كان سيهجم على البنادق لكنهم سيكتفون بإصابته في ركبتيه ثم تقييده...

صاح ديل أكو: «قبطان بلاكتورن، تقدم».

- نعم، لحظة رجاءً. (أشار بلاكتورن لمايكل): اسمع يا أخي، عند الشاطئ قلت إنني ساموراي جدير بالاحترام. هل كنت تعني ذلك؟

- نعم يا أنجين سان. كل ذلك وأكثر.

قال بهدوء ولكن بلهفة: «إذن، أطلب منك معروفًا، بصفتي ساموراي».

- أي معروف؟

- أن أموت كساموراي.

- موتك ليس في يدي. إنه في يد الرب يا أنجين سان.

- نعم، لكنني أطلب منك هذا المعروف. (أشار بلاكتورن إلى الرمح البعيد): هذه ليست طريقة مشرفة. إنه قدر.

نظر مايكل بدهشة نحو السفينة، ثم لمح الرمح لأول مرة: «يا أم الرب المباركة...».

نادى ديل أكوا مجددًا: «قبطان بلاكتورن، تقدم رجاءً».

قال بلاكتورن بلهجة أكثر إلحاحًا: «اشرح للضابط. لديه عدد كافٍ من الساموراي هنا ليصر على ذلك، أليس كذلك؟ اشرح له. لقد ذهبت إلى أوروبا، وتعرف كيف هي الأمور هناك. هذا ليس بالكثير لأطلبه، أليس كذلك؟ رجاءً، أنا ساموراي. يمكن لأحدهم أن يكون مساعدي».

- سأ... سأطلب.

عاد مايكل إلى الضابط وبدأ يتحدث بهدوء وإلحاح.

استدار بلاكتورن ووجه انتباهه نحو السفينة. تقدم إلى الأمام. انتظر ديل أكوا حتى أصبح بجانبه ثم واصل السير.

أمامهم، رأى بلاكتورن فيريرا يهبط من ظهر السفينة، متجهًا على طول سطح السفينة الرئيسي، بمسدسات في حزامه وسيف عند جانبه. كان رودريجز يراقبه، يده اليمنى على مقبض مسدس طويل. وكان بيسارو وعشرة من البحارة ينتظرون بالفعل على الرصيف، مستندين على بنادقهم المزودة بالحرب. وكان ظل الرمح الطويل يمتد تجاهه.

فكر بلاكتورن بينما كانت الفجوة تضيق بلا هوادة: يا إلهي، لو فقط كان لدي مسدسان وعشرة بحارة شجعان ومدفع واحد. يا إلهي، لا تدعني أتعرض للذل.

قال فيريرا، وعيناه تركزان على بلاكتورن فقط: «مساء الخير يا صاحب النيافة. إذن يا إنج...».

أشار ديل أكوا بغضب إلى الرمح: «مساء الخير يا قائد الأسطول. هل هذا فكرتك؟».

- نعم يا صاحب النيافة.

- عد إلى سفينتك.

- هذا قرار عسكري.

- عد إلى سفينتك.

- لا. بیسارو!

وفي الحال اصطف رئيس البحارة والبحارة المسلحون بالبنادق وبدؤوا بالتقدم نحو بلاكتورن. أخرج فيريرا مسدسه وقال: «إن يا إنجليزي، نلتقي مجددًا».

استل بلاكتورن سيفه من غمده، ممسكًا إياه بصعوبة بكلتا يديه بسبب المقبض المكسور الذي يؤلمه وقال: «هذا شيء لا يسرني على الإطلاق».

قال فيريرا بصوت ثقيل: «الليلة ستسرُّ وأنت في الجحيم».

- لو كنت تملك الشجاعة، لكنت قاتلت... رجلًا لرجل. لكنك لست برجل، بل جبانًا، جبانًا إسبانيًا بلا شرف.

أمر فيريرا: «جردوه من سلاحه».

تقدم الرجال العشرة على الفور وحاربهم موجهة نحوه. تراجع بلاكتورن لكن وجد نفسه محاطًا. طعنته إحدى الحراب في ساقه، فردَّ بقطع يد مهاجم، لكن بينما تراجع ذاك الرجل، انقض عليه آخر من الخلف. فجأة استعاد ديل أكوا وعيه وصاح: «أخفضوا أسلحتكم، أمركم أن تتوقفوا».

كان البحارة مرتبكين، وكل البنادق موجهة نحو بلاكتورن الذي كان يقف عاجزًا وسيفه مرفوع.

هتف ديل أكوا: «تراجعوا، جميعكم. تراجعوا، تراجعوا. هل أنتم حيوانات؟».

قال فيريرا: «أريد هذا الرجل».

- أعلم، وسبق أن أخبرتك أنه لا يمكنك الحصول عليه، بالأمس واليوم. هل أنت أصم؟ يا إلهي ألهمني الصبر. أصدر أمرًا لرجالك بالعودة إلى السفينة.

- أمركم أن تستدير وتغادر.

- أأأمرني أنا؟

- نعم، أأمرك. أنا قائد الأسطول، حاكم ماكاو، الضابط المسؤؤل عن البرتغال في آسيا، وهذا الرجل يشكل خطرًا على الدولة والكنيسة والسفينة السوداء وماكاو.

- أقسم بالرب إنني سأأحرأك كنسيًا أنت وكل طاقمك إذا تعرض هذا الرجل للأذى، هل تسمع؟

استدار ديل أكوا نحو المسلحين الذين تراجعوا بخوف، باستثناء بيسارو الذي وقف متحديًا، يمسك بمسدسه منتظرًا أمر فيريرا. قال: «اصعد إلى السفينة وابتعد عن الطريق».

صرخ فيريرا: «أنت ترتكب خطأ. إنه تهديد. أنا القائد العسكري في آسيا وأقول....».

- هذه مسألة خاصة بالكنيسة، ليست قرارًا عسك....

شعر بلاكثورن بالدوار، بالكاد يستطيع التفكير أو الرؤية، رأسه ينفجر بالألم مجددًا. كل شيء حدث بسرعة. كان في لحظة تحت الحراسة، وفي التالية لا. في لحظة تعرض للخيانة لصالح محاكم التفتيش، وفي التالية نجا، ثم ليتعرض للخيانة مجددًا والآن يدافع عنه رئيس محكمة التفتيش نفسه. لا شيء يبدو منطقيًا.

كان فيريرا يصرخ: «أأذكرك مجددًا. والرب هو حكمي، أنت ترتكب خطأ وسأبلغ لشبونة».

- في هذه الأثناء، أصدر أمرًا لرجالك بالعودة وإلا سأعزلك من منصبك كقائد أسطول السفينة السوداء.

- أنت لا تملك هذه السلطة.

- ما لم تأمر رجالك بالصعود إلى متن السفينة وتأمر بعدم إيذاء الإنجليزي في الحال، وإلا فسأأحرماك كنسيًا، وأي رجل يخدم تحت إمرتك في أي منصب محرومًا أيضًا، وسأأعذك أنت ومن يخدمك، باسم الرب.

- أقسم بمريم...

توقف فيريرا. لم يكن خائفًا على نفسه، لكنه أدرك الآن أن السفينة السوداء قد تتعرض للخطر، ويعلم أن معظم طاقمه سيهرب ما لم ينصع للأمر.

للحظة، فكر في إطلاق النار على الكاهن، لكن ذلك لن يرفع اللعنة. لذلك تنازل أخيرًا قائلًا: «حسنًا... عودوا جميعًا إلى السفينة. تراجعوا».

أطاع الرجال وتفرقوا، سعداء بالابتعاد عن غضب الكاهن. ظل بلاكثورن مشوشًا، يتساءل بتعجب إذا كان رأسه يخدعه. وفي خضم الفوضى، انفجر كُره بيسارو فجأة، ووجه مسدسه. لاحظ ديل أكوا الحركة الخفية وقفز ليحمي بلاكثورن بجسده. ضغط بيسارو على الزناد، لكن في تلك اللحظة أصابته السهام، فاندفع الطلق في الهواء دون أن يصيب هدفه، وسقط بيسارو يصرخ متألمًا.

استدار بلاكثورن ورأى ستة من رماة كياما، وقد شُدت أسهمهم الجديدة إلى الأقواس. وكان يقف بجوارهم مايكل. تحدث الضابط بلهجة صارمة. أطلق بيسارو صرخة أخيرة وأطرافه تتشنج، ثم مات. ارتجف مايكل بينما كسر الصمت قائلًا: «يقول الضابط إنه آسف، لكنه خاف على حياة الأب الزائر».

كان مايكل يتوسل إلى الرب أن يغفر له لأنه أعطى الإشارة بإطلاق السهام، لكنه تذرع بأن بيسارو كان قد تلقى تحذيرًا، وأنه من واجبه ضمان تنفيذ أوامر الأب الزائر وحماية حياته، والتصدي لمحاولات الاغتيال، ومنع أي شخص من التعرض للحرمان الكنسي.

جثا ديل أكوا بجوار جثة بيسارو، ورسم إشارة الصليب قائلًا كلمات الصلاة المقدسة. كان البرتغاليون حوله يراقبون الساموراي، يترقبون أمرًا بالانتقام من القتلة. أما بقية رجال كياما فكانوا يسرعون من بوابة مقر البعثة حيث كانوا ينتظرون، بينما بدأت مجموعة من الرمادين بالعودة من منطقة القادس للتحقق مما يجري. ورغم غضبه العارم، أدرك فيريرا أنه لا يستطيع تحمل مواجهة هنا والآن. لذا قال: «عودوا جميعًا إلى السفينة. أحضروا جثة بيسارو».

بدأ الفريق الموجود على الشاطئ بالطاعة على مضض. خفض بلاكثورن سيفه لكنه لم يُعده إلى غمده. وقف مذهولًا، متوقعًا خدعة، متوقعًا أن يُؤسر ويُسحب إلى السفينة.

قال رودريجز بهدوء على سطح السفينة: «استعدوا لصد المهاجمين، لكن بحذر». انطلق الرجال إلى مواقعهم في الحال: «احموا قائد الأسطول. وجهزوا القارب الطويل...».

نهض ديل أكوا والتفت نحو فيريرا الذي كان يقف بتحدٍّ عند مدخل السلم، مستعداً للدفاع عن سفينته. قال الأب الزائر بحدة: «أنت المسؤول عن مقتل هذا الرجل. شغفك المتعصب للانتقام وت...».

قاطعه فيريرا: «قبل أن تقول شيئاً علانيةً قد تندم عليه يا صاحب النيافة، من الأفضل أن تفكر جيداً. لقد أطعت أمرك رغم أنني أعلم أمام الرب، أنك ترتكب خطأً فادحاً. لقد سمعني أمر رجالي بالعودة. بيسارو عصاك أنت، وليس أنا، والحقيقة أنك أنت المسؤول إذا كان يوجد شخص مسؤول. أنت من منعته ومنعته من أداء واجبنا. هذا الإنجليزي عدو لنا، كان قراراً عسكرياً وسأبلغ لشبونة».

كانت عيناه تراقبان جاهزية السفينة للمعركة والساموراي المتقدمين. توجه رودريجز إلى السلم الرئيسي على سطح السفينة وقال: «يا قائد الأسطول، لا أستطيع الإبحار في هذا الريح وهذا المد».

- جهزوا قارباً لسحبنا إذا استدعى الأمر.

- يُجهز الآن.

صرخ فيريرا على البحارة الذين كانوا يحملون جثة بيسارو، يأمرهم بالإسراع. وسرعان ما عاد الجميع على متن السفينة. كانت المدافع على أهبة الاستعداد، وإن كان خفيةً، وكان لدى كل واحد منهم بندقيتان بالقرب منه. كان الساموراي يحتشدون على الرصيف لكنهم لم يظهروا أي نية للتدخل.

قال فيريرا لمايكل بلهجة أمرة وهو لا يزال على الرصيف: «أخبرهم أن يتفرقوا. لا توجد مشكلة هنا... لا يوجد شيء لهم ليفعلوه. لقد كان خطأً، خطأً فادحاً، لكنهم كانوا محقين في قتل رئيس البحارة. أخبرهم أن يتفرقوا». كان يكره أن يقول ذلك ويرغب بقتلهم جميعاً، لكنه كان يشعر بالخطر يقترب منه على الرصيف، ولم يكن لديه خيار الآن سوى التراجع.

فعل مايكل بما أمر به. لكن لم يتحرك الضباط.

قال فيريرا بمرارة: «من الأفضل أن تذهب يا صاحب النيافة. لكن هذا لن يكون النهاية... ستندم على إنقاذه».

شعر ديل أكوا هو الآخر بالتوتر الذي يحيط بهم، لكنه لم يمسه. رسم إشارة الصليب وقال بركة صغيرة، ثم استدار مبتعدًا. قال: «تعالَ معي يا ربان».

سأل بلاكثورن والألم يعتصر رأسه، غير قادر على تصديق ما يحدث: «لماذا تتركني أذهب؟».

- تعالَ معي يا ربان.

- لكن لماذا تتركني أذهب؟ لا أفهم.

قال فيريرا: «ولا أنا. أود أن أعرف السبب الحقيقي أيضًا يا صاحب النيافة. أليس لا يزال يشكل تهديدًا لنا وللكنيسة؟».

حذق ديل أكوا إلى وجهه. أراد أن يقول نعم، ليزيل تلك النظرة المتعجرفة عن وجه المتكبر الذي يقف أمامه. لكن التهديد الأكبر الآن هو خطر الحرب الوشيك وكيفية كسب الوقت لك ولخمسين عامًا من السفن السوداء، ومن يجب أن نختار: تورانا جا أم إيشيدو. أنت لا تفهم شيئًا عن مشكلاتنا يا فيريرا، ولا الأخطار المرتبطة بها، ولا حساسية موقفنا هنا أو الأخطار المحدقة.

كان قد قال للدايميو بالأمس من خلال مايكل كمترجم، حيث لم يثق بقدرته المحدودة في اليابانية: «أرجوك يا زعيم كياما، أعد النظر. أقترح أن تختار الزعيم تورانا جا».

- هذا تدخل غير مبرر في الشؤون اليابانية ويقع خارج نطاق سلطتك. وأيضًا، يجب أن يموت هذا الهمجي.

استخدم ديل أكوا كل مهاراته الدبلوماسية، لكن كياما كان عنيدًا ورفض الالتزام أو التراجع عن موقفه. ثم هذا الصباح، عندما ذهب إلى كياما ليخبره أنه بفضل مشيئة الرب استطاع تحييد الإنجليزي، ظهر بصيص من الأمل.

أخبره كياما: «لقد فكرت فيما قلته. لن أتحالف مع تورانا جا. من الآن وحتى وقت المعركة سأراقب كلا الطرفين بعناية. وسأختار في الوقت المناسب. والآن أوافق على إطلاق سراح هذا الهمجي... ليس بسبب ما قلته لي، بل بسبب السيدة ماريكو، تكريماً لها... ولأن أنجين سان ساموراي...».

ما زال فيريرا يحدق إلى وجهه: «ألم يعد الإنجليزي يشكل تهديدًا؟».

- أتمنى لك رحلة آمنة وموفقة يا قائد الأسطول. يا ربان، سأصطحبك إلى سفينتك... هل أنت بخير؟

- إنه... رأسي... أعتقد أنه الانفجار... هل حقًا ستطلقون سراحي؟ لماذا؟
- لأن السيدة ماريا، السيدة ماريكو طلبت منا حمايتك.
- بدأ ديل أكوا في السير مجددًا.
- لكن هذا ليس سببًا كافيًا. لن تفعلوا ذلك لمجرد أنها طلبت.
- قال فيريرا: «أوافقك الرأي». ثم صاح: «يا صاحب النيافة، لماذا لا تخبره الحقيقة كاملة؟».
- لم يتوقف ديل أكوا. بدأ بلاكثورن يتبعه لكنه لم يدير ظهره للسفينة، ما زال يتوقع خيانة. قال: «لا معنى لهذا. أنتم تعلمون أنني سأدمركم. سأستولي على سفينتكم السوداء».
- ضحك فيريرا بازدرء: «بماذا يا إنجليزي؟ لا تملك سفينة».
- ماذا تعني؟
- ليس لديك سفينة. لقد دُمرت. لو لم تكن كذلك، لما أطلقت سراحك، مهما هددني صاحب النيافة.
- هذا غير صحيح...
- من خلال الضباب في رأسه، سمع بلاكثورن فيريرا يعيد كلامه ويضحك بصوت أعلى، ويضيف شيئًا عن حادثة و«يد الرب» وأن سفينتك قد احترقت حتى نخاعها، لذا لن تتمكن من إلحاق الأذى بسفينتي الآن، رغم أنك لا تزال هرطوقيًا وعدوًا وتهديدًا للإيمان. ثم رأى رودريجز بوضوح، وعلى وجهه ملامح الشفقة، وشفته تنطقان: نعم، هذا صحيح يا إنجليزي.
- هذا غير صحيح، لا يمكن أن يكون صحيحًا.
- ثم سمع الكاهن المحقق يقول من مسافة بعيدة بملايين الفراسخ: «تلقيت رسالة هذا الصباح من الأب ألفيتو. يبدو أن زلزالًا تسبب في موجة مد عملاقة، والموجة...».
- لكن بلاكثورن لم يكن يستمع. كان عقله يصرخ: سفينتك ماتت، لقد خذلتها، سفينتك ماتت، ليست لديك سفينة، لا سفينة، لا سفينة...
- هذا غير صحيح. أنتم تكذبون، سفينتي في مرفأ آمن ويحرسها أربعة آلاف رجل. إنها آمنة.

قال أحدهم: «لكنها ليست آمنة من الرب». ثم واصل المحقق حديثه: «موجة المد أمالت سفينتك. ويقال إن المصابيح الزيتية انقلبت على السطح وانتشرت النيران. سفينتك دُمرت....».

صاح: «أكاذيب! ماذا عن الحراسة على السطح؟ هناك دائماً حراسة على السطح. هذا مستحيل».

لكنه أدرك بطريقة ما أن الثمن لحياته كان سفينته.

كان فيريرا يستفزّه ويقول: «لقد علقت هنا يا إنجليزي. لقد تُركت وحدك. أنت هنا إلى الأبد، لن تحصل على مكان على إحدى سفننا. أنت عالق هنا إلى الأبد....».

استمر الحديث حتى شعر بلاكثورن بالاختناق. ثم وضحت رؤيته. سمع صرخات النوارس وشم رائحة الشاطئ الكريهة ورأى فيريرا، رأى عدوه وعرف أنها كلها أكاذيب لإفقاده عقله. كان متأكداً تماماً من ذلك ومن أن الكهنة جزء من المؤامرة. صرخ واندفع نحو فيريرا وسيفه مرفوع: «ليأخذكم الرب إلى الجحيم».

لكن في حلمه فقط كانت تلك اندفاعة قوية. أمسكتُ أيدٍ به بسهولة وأخذوا منه سيفه، وجعلوه يسير بين اثنين من الرماديين، عبر كل الآخرين حتى وصل إلى سلم القادس وأعادوا له سيفه وأطلقوا سراحه.

كان من الصعب عليه أن يرى أو يسمع، وعقله بالكاد يعمل الآن من شدة الألم، لكنه كان متأكداً أن كل ما يحدث هو خدعة لإفقاده صوابه، وأنها ستنجح إذا لم يبذل جهداً كبيراً. دعا في صمت: ساعدني، ليساعدني أحد. ثم وجد يابو بجانبه، وفينك وأتباعه، ولم يعد يستطيع تمييز اللغات. قادوه إلى السفينة، وكانت كيري هناك في مكان ما وسازوكو وطفل يبكي بين ذراعي خادمة، وبقايا حامية البنيين تملأ سطح السفينة، وأيضاً المجذفون والبحارة. رائحة العرق، عرق الخوف. كان يابو يتحدث إليه. وكذلك فينك. استغرق وقتاً طويلاً ليتمكن من التركيز.

- يا ربان، لماذا أطلقوا سراحك؟

- أنا... هم...

لم يستطع أن ينطق الكلمات.

ثم بطريقة ما، وجد نفسه على سطح السفينة ويابو يأمر القبطان سان بالإبحار قبل أن يغيّر إيشيدو رأيه بشأن السماح لهم جميعًا بالرحيل، وقبل أن يغيّر الرماديون على الرصيف رأيهم بخصوص السماح للقادس بالمغادرة، وأمر القبطان بالإبحار بأقصى سرعة نحو ناجازاكي... وقالت كيري: «أعتذر يا يابو ساما، رجاءً أولاً إيدو... يجب أن نذهب إلى إيدو...».

انطلقت مجاذيف السفينة ذات الغاطس الضحل مبتعدة عن الرصيف، عكس اتجاه المد والرياح، وخرجت إلى مجرى الماء، وصرخات النوارس تملأ الأجواء، واستجمع بلاكتورن بعضًا من وعيه بما يكفي ليقول بوضوح: «لا. أعتذر. يجب أن نذهب إلى يوكوهاما. يجب يوكوهاما».

قال يابو: «أولاً نحضر الرجال في ناجازاكي يا أنجين سان، هل تفهم؟ مهم. أولاً الرجال. لدي خطة».

- لا. اذهب إلى يوكوهاما. سفينتي... سفينتي في خطر.

سأل يابو: «أي خطر؟».

- المسيحيون يقولون... يقولون حريقًا.

- ماذا!!

صاح فينك: «يا إلهي، ما الأمر يا ريان؟».

أشار بلاكتورن بيده المرتجفة نحو السفينة البرتغالية. وقال: «قالوا لي... قالوا لي إن إيراسموس ضاعت يا يوهان. سفينتنا ضاعت... احترقت». ثم انفجر قائلاً: «يا إلهي، أتمنى أن يكون كل هذا كذبًا».

مكتبة

t.me/soramnqraa

الكتاب السادس



الفصل الستون

وقف في المياه الضحلة ونظر إلى هيكل سفينته المتفحم، وقد مالت على جانبها وأصبحت مغمورة في الأمواج الصغيرة، على بُعد ستين مترًا في اتجاه البحر، لم يتبقَّ منها سوى العارضة وضلوع صدرها التي تنتصب نحو السماء، وقد تلاشت الصواري والأسطح وكل شيء آخر.

قال فينك بامتعاض: «حاول القردة أن يرسوها إلى الشاطئ».

- لا، المد أخذها إلى هناك.

- بحق المسيح، لماذا تقول ذلك يا ربان؟ إذا نشب حريق لعين وكنت قريبًا من الشاطئ اللعين، فإنك ترسوها لتكافح النار هناك. حتى هؤلاء الحمقى يعرفون ذلك. (بصق فينك على الرمال): قردة! ما كان يجب أن تتركها لهم. ماذا سنفعل الآن؟ كيف سنعود إلى الوطن؟ كان يجب أن تتركها في إيدو آمنة، ونبقى نحن معها بأمان مع الإيتا.

أزعجت نبرة التذمر في صوت فينك بلاكتورن، فقد كان كل شيء يتعلق بفينك يثير استياءه في تلك اللحظة. ثلاث مرات خلال الأسبوع الماضي، كان على وشك أن يأمر أتباعه بطعن فينك بهدوء والتخلص منه بإلقائه في البحر لينتهي معاناته من النحيب والنواح والالتهامات التي لا تنتهي، لكنه كان يكبح جماح غضبه ويصعد إلى السطح العلوي أو ينزل لبحث عن يابو. كان فينك يلتزم الصمت تمامًا بالقرب من يابو، مرعوبًا منه كما ينبغي. كان احتواء نفسه سهلًا على متن السفينة، لكن هنا، وقد خجل أمام عري سفينته، لم يكن الأمر بهذه السهولة.

قال بهدوء منهك حتى الموت: «ربما هم من أرسوها يا يوهان».

- بالطبع القردة الأوغاد هم من أرسوها. لكنهم لم يخدموا الحريق، لعنهم الرب جميعًا. ما كان يجب أن تسمح لليابانيين القردة بالصعود إلى متنها، قردة قذرة.

أغلق بلاكثورن أذنيه وركز على القادس التي كانت ترسو بمحاذاة الرصيف، على بُعد بضعة مئات من الأمتار بالقرب من قرية يوكوهاما. كانت الأكواخ المؤقتة لكتيبة البنادق منتشرة على طول الساحل والتلال المحيطة، وكان الرجال يتدربون ويتحركون، وأجواء من القلق تخيم عليهم جميعاً. كان اليوم دافئاً ومشمساً مع نسيم لطيف. التقطت أنفه رائحة عطر الميموزا، ونظر إلى كيري والسيدة سازوكو وهما يتحدثان تحت مظلات برتقالية على ظهر السفينة، متسائلاً إن كان العطر يأتي منهما. ثم رأى يابو وناجا يسيران جيئةً وزهاباً على الرصيف، ناجا يتحدث ويابو يستمع، وكلاهما يبدو عليه التوتر. ثم لاحظ أنهما التفتا تجاهه، وكان يشعر بقلقهما.

عندما كانت القادس قد دارت حول النقطة قبل ساعتين، قال يابو: «لماذا تريد أن تنظر من كُتب يا أنجين سان؟ السفينة ميتة، أليس كذلك؟ كل شيء انتهى. لنذهب إلى إيدو. استعد للحرب. لا وقت الآن».

- أعتذر... توقف هنا. يجب أن أراها من كُتب. أرجوك.

- لنذهب إلى إيدو. السفينة ميتة... منتهية، أليس كذلك؟

- إذا أردت، اذهب أنت. أنا سأصبح. مكتبة سر من قرأ

- انتظر. السفينة ميتة، أليس كذلك؟

- أعتذر، توقف رجاءً. لبعض الوقت ثم نذهب إلى إيدو.

ثم وافق يابو في النهاية، فرسوا عند الرصيف حيث استقبلهم ناجا قائلاً وقد بدت عيناه محمرتين من قلة النوم: «أعتذر يا أنجين سان، حسناً؟».

- نعم، أعتذر. أخبرني، ماذا حدث؟

- عذراً، لا أعلم. لا أعلم الحقيقة. لم أكن هنا، هل تفهم؟ كنت مكلفاً بمهمة

في ميشيما منذ أيام. عندما عدت، قال الرجال إن زلزالاً وقع ليلاً... كل

شيء حدث ليلاً، هل تفهم؟ هل تفهم معنى «زلزال» يا أنجين سان؟

- نعم، أفهم. تابع رجاءً.

- كان زلزالاً صغيراً. ليلاً. قال بعض الرجال إن موجة مد أنت، والبعض

يقول إنها ليست موجة مد، بل مجرد موجة كبيرة، موجة عاصفة. كان

هناك عاصفة تلك الليلة، حسناً؟ تيفون صغير. هل تفهم «تيفون»؟

- نعم.

- أعتذر، كان الليل حالك الظلام. قالوا إن موجة كبيرة أتت. قالوا إن مصابيح الزيت على السطح تحطمت. اشتعلت النيران في السفينة، حسنًا؟ النار انتشرت سريعًا جدًا...
- وماذا عن الحراس يا ناجا سان؟ أين كانوا رجال السطح؟
- كانت الليلة مظلمة جدًا. وكان الحريق سريعًا، هل تفهم؟ أعتذر. (أضاف بأمل): لا يوجد شيء يمكننا فعله، أليس كذلك؟
- أين رجال السطح يا ناجا سان؟ لقد تركت حراسًا، أليس كذلك؟
- عندما عدت في اليوم التالي، أعتذر، حسنًا؟ كانت السفينة قد انتهت، ولا تزال تحترق في المياه الضحلة... بالقرب من الشاطئ. لقد انتهت السفينة. جمعت جميع الرجال من السفينة وكل الحراس الذين كانوا يراقبون تلك الليلة. طلبت منهم تقديم تقرير، ولكن لا أحد متأكد مما حدث. (أظلم وجه ناجا): أمرتهم بإنقاذ... أن يحضروا كل شيء ممكن، هل تفهم؟ كل شيء. كل شيء موجود الآن في المخيم هناك. (أشار إلى الهضبة): تحت حراسة رجالي. ثم نفذت فيهم حكم الإعدام وعدت مسرعًا إلى ميشيما لإبلاغ الزعيم توراناغا.
- جميعهم؟ كلهم أعدموا؟
- نعم، لقد فشلوا في واجبهم.
- ماذا قال الزعيم توراناغا؟
- كان غاضبًا جدًا. له الحق أن يغضب، أليس كذلك؟ عرضت عليه أن أنفذ السيوكو، لكن الزعيم توراناغا رفض. الزعيم توراناغا غاضب جدًا يا أنجين سان. (لوح بيده بتوتر نحو الشاطئ): الفوج بأكمله يشعر بالعار يا أنجين سان. الجميع. كل الضباط الرئيسيين هنا يشعرون بالعار، وقد أرسلوا إلى ميشيما. ثمانية وخمسون سيوكو حتى الآن.
- فكر بلاكثورن في هذا العدد، وكان يريد أن يصرخ: حتى لو كانوا خمسة آلاف أو خمسين ألفًا، فإنهم لن يعوضوا خسارة سفينتي. لكن فمه اكتفى بقول: «سيئ... نعم، سيئ جدًا».
- نعم. من الأفضل أن تذهب إلى إيدو. اليوم. الحرب اليوم أو غدًا، أو في اليوم التالي. أعتذر.

ثم تحدث ناجا بجدية مع يابو للحظات، وبلاكتورن الذي كان بالكاد يملك القدرة على الفهم بسبب كرهه لكلماتهم المقززة وكرهه لناجا ويابو والجميع، بالكاد استطاع متابعة الحوار رغم أنه رأى تزايد اضطراب يابو. التفت ناجا إليه وقال بلهجة حاسمة مُخرجة: «أعتذر يا أنجين سان. لم يكن بوسعي فعل شيء آخر. إنها الحقيقة، حسناً؟».

أجبر بلاكتورن نفسه على الإيمان: «إنها الحقيقة. شكراً يا ناجا سان. لا يوجد شيء يمكننا فعله».

اعتذر وابتعد عنهم ليذهب إلى سفينته ليكون وحده، بعدما أصبح لا يثق بقدرته على كبح جماح غضبه، مدرّكاً أنه لم يوجد شيء يمكنه فعله، وأنه لن يتمكن من معرفة المزيد من الحقيقة، وأنه مهما كانت، فقد خسر سفينته، وأن الكهنة قد تمكنوا بطريقة ما من رشوة الرجال أو تملقهم أو تهديدهم للقيام بهذا التدنيس الحقيق. كان قد ابتعد عن يابو وناجا ببطء وثبات، لكن قبل أن يغادر الرصيف، هرع فينك خلفه متوسلاً إليه ألا يتركه خلفه. رأى الخوف الذليل في وجه الرجل، ووافق على أن يرافقه، لكنه أغلق عقله عن الاستماع إليه.

ثم فجأة بالقرب من الشاطئ، وصلوا إلى بقايا الرؤوس المشوهة، أكثر من مائة رأس مخفية عن الرصيف بالكتبان الرملية ومثبتة على الرماح. انطلقت الطيور البحرية في سحابة بيضاء صاخبة عند اقترابهم، ثم عادت لتواصل نهش الجثث والشجار فيما بينها فور ابتعادهم.

الآن كان يتأمل بقايا سفينته المحترقة، وكانت فكرة واحدة تسيطر على عقله: لقد أدركت ماريكو الحقيقة وهمست بها إلى كياما أو الكهنة: «دون سفينته، سيكون أنجين سان عاجزاً أمام الكنيسة. رجاءً اتركوه حياً، فقط دمروا السفينة...».

كان يستطيع سماعها تقول ذلك. كانت محقة. لقد كانت حلاً بسيطاً لمشكلة الكاثوليك. نعم. لكن أيّاً منهم كان بإمكانه التفكير في الشيء نفسه. وكيف تمكنوا من خرق الحراسة التي يبلغ عددها أربعة آلاف رجل؟ من الذي رشوه؟ كيف؟

لا يهم من أو كيف. لقد انتصروا.

يا إلهي ساعدني، أنا ميت دون سفينتي. لا أستطيع مساعدة تورانا جا وحر به ستلتهمنا جميعًا.

قال: «سفينة مسكينة، سامحيني... كم من المحزن أن تموتي بهذه الطريقة البائسة. بعد كل هذه الفراسخ.

قال فينك: «ماذا؟».

قال: «لا شيء».

سفينة مسكينة، سامحيني. لم تكن تلك صفقتي معها أو مع أي أحد. ماريكو المسكينة. سامحيتها أيضًا.

- ماذا قلت يا ربان؟

- لا شيء. فقط كنت أفكر بصوت عالٍ.

- لكنك قلت شيئًا. أقسم إنني سمعتك تقول شيئًا.

- بربك! اصمت.

- ماذا؟ تريدني أن أصمت؟ نحن عالقون مع هؤلاء الوثنيين الحقيرين لبقية حياتنا، أليس كذلك؟

- نعم.

- سنضطر إلى التذلل لهؤلاء الوثنيين الملعونين لبقية حياتنا الملعونة، وكم ستستمر تلك الحياة وهم لا يتحدثون إلا عن الحرب، الحرب، الحرب! أليس كذلك؟

- بلى.

كان جسد فينك يرتجف بالكامل، واستعد بلاكثورن: «نعم؟ إنه خطؤك؟ أنت من قال أن نأتي إلى اليابان، فأتينا، وكم واحدًا منا مات في الطريق؟ أنت الملام».

- نعم، آسف، لكنك محق.

- هل أنت آسف يا ربان؟ كيف سنعود إلى الوطن؟ هذه وظيفتك الملعونة، أن تُعيدنا إلى الوطن. كيف ستفعل ذلك؟

- لا أعلم. ستصل إحدى سفننا إلى هنا يا يوهان. علينا أن ننتظر...

- ننتظر؟ إلى متى سننتظر؟ خمس سنوات ملعونة، عشرين؟ يا يسوع المسيح، لقد قلت بنفسك إنهم جميعًا في حالة حرب الآن. (فقد فينك

صوابه): سيقطعون رؤوسنا ويضعونها مثل تلك الرؤوس هناك، وستلتهمنا الطيور...

وانفجر في ضحك جنوني واندفعت يده نحو قميصه المهترئ. رأى بلاكتورن مقبض المسدس، وكان بإمكانه بسهولة أن يطيح بفينك أرضاً وينتزع المسدس، لكنه لم يفعل شيئاً للدفاع عن نفسه. لوح فينك بالمسدس في وجهه وهو يرقص حوله بسعادة مجنونة. انتظر بلاكتورن بغير خوف، آملاً أن تخترقه تلك الرصاصة، ثم اندفع فينك يركض نحو الشاطئ، وأسراب طيور البحر ترتفع في الهواء بصخب مبتعدة عن طريقه. ركض فينك مسافة سبعين متراً أو أكثر بجنون، ثم انهار مستلقياً على ظهره، ساقاه تتحركان وذراعاها تلوحان، ويهمهم بكلمات نابية. بعد لحظات انقلب على بطنه وأطلق صرخة أخيرة، مواجهاً بلاكتورن، ثم تجمد. خيم الصمت.

عندما اقترب بلاكتورن من فينك، كان المسدس مصوباً نحوه، عيناه تنظران إليه بعداء جنوني، وشفتيه كاشفتين عن أسنانه. كان فينك ميتاً. أغلق بلاكتورن عينيه وحمله على كتفه وسار عائداً. كان الساموراي يركضون نحوه، وعلى رأسهم ناجا ويابو.

- ماذا حدث يا أنجين سان؟

- لقد جن جنونه.

- حقاً؟ هل مات؟

- نعم. أولاً الدفن، ثم إلى إيدو. حسناً؟

- حسناً.

طلب بلاكتورن مجرفة وطلب منهم أن يتركوه بمفرده لبعض الوقت، ودفن فينك فوق خط الماء على قمة تطل على حطام السفينة. تلا صلاة على القبر وثبت صليباً صنعه من قطعتين من الخشب الطافي. كان من السهل عليه قول تلك الصلاة. لقد نطق بها مرات عديدة من قبل. في هذه الرحلة وحدها، تلاها أكثر من مائة مرة لأفراد طاقمه منذ مغادرتهم هولندا. لم يتبق منهم الآن سوى باكوس وفان نيك والصبي كروك، أما الآخرون، فقد جاؤوا من سفن أخرى... سلامون الأبكم ويان روبر وسونك الطباخ وجينسيل صانع الأشرطة. خمس سفن وأربعمائة وستة وتسعون رجلاً. والآن فينك. جميعهم ذهبوا باستثناء سبعة منا. وكل ذلك لماذا؟

للإبحار حول العالم؟ لأكون الأول؟

قال للقبر: «لا أعلم. لكن هذا لن يحدث الآن».

جعل كل شيء مرتبًا. وقال باليابانية: «الوداع يا يوهان».

ثم نزل إلى البحر وسبح عاريًا نحو الحطام لتطهير نفسه. أخبر ناجا ويابو أن هذا جزء من عاداتهم بعد دفن أحد رجالهم على اليابسة. على القبطان أن يفعل ذلك بمفرده إذا لم يوجد أحد آخر، والبحر هو المطهر أمام إلههم، الذي هو الإله المسيحي، لكن ليس بالضبط نفس إله المسيحيين اليسوعيين.

تعلق بأحد أضلاع السفينة، ولاحظ أن البرنقيل بدأ يتجمع، والرمال بدأت تغطي صفيحة العارضة، على عمق ثلاث قامات تحت الماء. قريبًا سيستولي البحر عليها وستختفي. نظر حوله بلا هدف. قال لنفسه وهو لا يتوقع شيئًا: لا شيء يستحق الإنقاذ.

سبح عائدًا إلى الشاطئ، حيث كان ينتظره بعض أتباعه بملابس نظيفة. ارتدى ملابسه ووضع سيفه في حزامه وسار عائدًا. أشار أحد رجاله قرب الرصيف وقال: «أنجين سان».

كانت هناك حمامة زاجلة تحلق مذعورة بحثًا عن الأمان في قفصها في القرية، ويطاردها صقر. كان القفص في علية أطول مبنى، بعيدًا عن الشاطئ على ارتفاع بسيط. وعلى بُعد تسعين مترًا، كان الصقر يراقب فريسته من الأعلى، ثم ضم جناحيه واندفع نحوها. أصاب الهجوم الحمامة فتناثر ريشها، لكنها لم تكن ضربة مماتة. سقطت الحمامة تصرخ كأنها مصابة بجراح قاتلة، ثم استجمعت قوتها بالقرب من الأرض، وانطلقت مجددًا نحو منزلها. زحفت عبر فتحة في القفص إلى بر الأمان، بينما كان الصقر يصدر صرخات غاضبة على بعد خطوات منها، وهتف الجميع فرحًا، باستثناء بلاكثورن. حتى شجاعة الحمامة لم تؤثر فيه. لم يعد أي شيء يؤثر فيه.

قال أحد أتباعه محرّجًا من عبوس سيده: «جيد، أليس كذلك؟».

- بلى.

عاد بلاكثورن إلى القادس. كان يابو هناك برفقة السيدة سازوكو وكيري وقبطان السفينة. كان كل شيء جاهزًا. سأل: «يابو سان، هل نذهب إلى إيدو الآن؟».

لكن يابو لم يرد، ولم يلاحظ أحد وجوده. كانت أنظار الجميع مسلطة على ناجا الذي كان يسرع نحو القرية. خرج مُربي الحمام من المبنى لمقابلته. كسر ناجا الختم وقرأ الورقة الصغيرة: «تظل القادس وكل من على متنها في يوكوهاما حتى وصولي».

وكان التوقيع توراناغا.

كان الفرسان يتقدمون بسرعة عبر حافة التل تحت ضوء الشمس الصباحي. أولاً كان مرافقو الموكب وحراس الطليعة بقيادة بونتارو. وبعدهم ظهرت الأعلام، ثم ظهر توراناغا. ثم تبعهم غالبية جيش الحرب بقيادة أومي. وبعدهم كان الأب ألفيتو تسوكو سان وعشرة من تلاميذه في مجموعة متماسكة، وبعدهم حرس خلفي صغير، بينهم صيادون يضعون صقوراً على أيديهم، جميعهم مقنعين باستثناء أحد الصقور ذات العينين الكبيرتين باللون الأصفر. جميع الساموراي مدججين بالسلاح ويرتدون دروعاً حديدية ودروعاً قتالية للفرسان.

امتطى توراناغا جواده بارتياح، وقد بدأ يشعر أن روحه انتعشت، وبأنه رجل أجدد وأقوى. وكان سعيداً بقرب انتهاء رحلته. مرَّ يومان ونصف منذ أن أرسل الأمر إلى ناجا بأن تبقى السفينة في يوكوهاما، ومنذ مغادرته لميشيما في هذه المسيرة القسرية. كانوا يسيرون بسرعة شديدة، يغيرون الخيول كل عشرين ري تقريباً. في إحدى المحطات حيث لم تتوفر خيول، أُستبدل الساموراي المسؤول، وصُرف راتبه لآخر، ودُعي إلى اختيار السيوكو أو حلق رأسه ليصبح راهباً. اختار الساموراي الموت.

فكر توراناغا: «لقد حُذِر هذا الأحمق، إن قوات الكانتو بأكملها في حالة استعدادٍ للحرب. أخبر نفسه: رغم ذلك، لم يكن ذلك الشخص عديم الفائدة كلياً، فعلى الأقل سيتدرد صدى هذه الحادثة عبر أراضِي، ولن تكون هناك تأخيرات غير ضرورية بعد الآن.

فكر: لا يزال يوجد الكثير لفعله. كان ذهنه منشغلاً بكم هائل من الحقائق والخطط والتدابير المضادة. بعد أربعة أيام سيحل اليوم، اليوم الثاني والعشرون من الشهر الثامن، شهر رؤية القمر. اليوم في أوساكا، سيذهب رجل الحاشية أوجاكي تاكاماتو إلى إيشيدو ويبلغه بكل أسف بأن زيارة ابن السماء إلى أوساكا قد تأجلت لبضعة أيام بسبب تدهور حالته الصحية.

كان من السهل ترتيب هذا التأجيل. رغم أن أوجاكي كان أميرًا من الرتبة السابعة ومن نسل الإمبراطور جو شوكو، وهو الخامس والتسعون من السلالة، إلا أنه كان فقيرًا كجميع أفراد البلاط الإمبراطوري، إذ لم يكن البلاط يمتلك أي دخل خاص به، فقط الساموراي كانوا يمتلكون الإيرادات، وعلى مدار مئات السنين كان على البلاط أن يعيش على إعانة -كانت دائمًا محكومة وقليلة- يمنحها الشōجَن أو الكوامباكو أو المجلس العسكري الحاكم في ذلك الوقت. لذا خصص توراناغا بتواضع ويحذر شديد عبر وسطاء مبلغ وقدره عشرة آلاف كوكو سنويًا لأوجاكي، ليتبرع بها إلى أقاربه المحتاجين كما يرغب أوجاكي نفسه، قائلًا بتواضع أن كونه من مينووارا وبالتالي أيضًا من نسل جو شوكو، فإنه سعيد بتقديم تلك الخدمة ويأمل أن يعتني جلالته بصحته الثمينة في هذه الأجواء الغادرة في أوساكا، وخاصة في اليوم الثاني والعشرين.

بالطبع لا يوجد ضمان بأن أوجاكي سيقنع جلالته أو يثنيه عن قراره، لكن توراناغا كان يظن أن مستشاري ابن السماء -أو ابن السماء نفسه- سيرحبون بأي عذر للتأجيل، وربما حتى للإلغاء، فلم يغادر الإمبراطور الحاكم ملأه في كيوتو إلا مرة واحدة خلال ثلاثة قرون. كان ذلك منذ أربع سنوات حين دعاه التايكو لرؤية أزهار الكرز قرب قلعة أوساكا، بالتزامن مع تنازله عن منصب الكوامباكو لصالح يايمون، مما أقرَّ ضمنيًا بخلافة الأخير.

عادةً ما كان أي داييمو -حتى توراناغا- ليجرؤ على عرض كهذا على أحد من البلاط لأنه يعتبر إهانة وتعدّيًا على صلاحيات أعلى منه -وتحديدًا المجلس- وسيفسره الجميع على أنه خيانة عظمى. لكن توراناغا أدرك أنه متهم بالخيانة بالفعل.

غداً سيتحرك إيشيدو وحلفاؤه ضدي. كم من الوقت تبقى لي؟ وأين يجب أن تكون المعركة؟ أوداوارا؟ النصر يعتمد فقط على التوقيت والمكان، وليس على عدد الرجال. فهم سيتفوقون عليّ من حيث العدد بثلاثة إلى واحد على الأقل. فكر: لا يهم. سيخرج إيشيدو من قلعة أوساكا. ماريكو هي مَنْ أخرجته. في لعبة الشطرنج من أجل السلطة ضحيت بملكتي لكن إيشيدو خسر قلعتين.

نعم، لكنك خسرت أكثر من ملكة في اللعبة الأخيرة، بل خسرت أيضًا سفينة. البيدق يمكن أن يصبح ملكة... لكن ليس سفينة.

كانوا يهبطون المنحدر بخطوات سريعة ومرهقة للعظام. في الأسفل كان البحر. انعطفوا حول زاوية الطريق، فظهرت أمامهم قرية يوكوهاما، وحطام السفينة بالقرب من الشاطئ. كان بالإمكان رؤية الهضبة حيث اصطفت كتبية البنادق في عرض عسكري مع خيولهم ومعداتهم وبنادقهم في حواملها، كما اصطف ساموراي آخرون مسلحون في طريقه كحرس شرف بالقرب من الساحل. وعلى أطراف القرية كان القرويون جاثين في صفوف منظمة ينتظرون تكريمه. وخلفهم كانت القادس، حيث ينتظر البحارة مع قبطانهم. وعلى جانبي الرصيف، كانت قوارب الصيد مرتبة بعناية فائقة، وسجل في ذهنه ملاحظة لتوبيخ ناجا، لأنه أمر الفوج بالاستعداد للرحيل فورًا، لكن إيقاف الصيادين أو الفلاحين عن الصيد أو العمل كان تصرفًا غير مسؤول.

التفت في سرج حصانه ونادى أحد الساموراي، أمرًا إياه بإبلاغ بونتارو بالتوجه إلى الأمام والتأكد من أن كل شيء آمن وجاهز: «ثم اذهب إلى القرية وأفرج عن جميع الفلاحين للعمل، باستثناء رئيسهم».

- حسنًا يا سيدي.

ضرب الرجل في سرجه وسارع بعيدًا.

الآن وقد أصبح توراناغا قريبًا بما يكفي من الهضبة للتعرف على الوجوه، أنجين سان ويابو، ثم كيري والسيدة سازوكو. ازداد حماسه.

كان بونتارو يندفع بسرعة على المسار، يحمل قوسه العظيم وجعبتين ممتلئتين على ظهره، وخلفة ستة من الساموراي. انحرفوا عن الطريق وخرجوا إلى الهضبة. رأى بلاكتورن في الحال وازدادت ملامحه صرامة. ثم أمسك بزمام حصانه ونظر حوله بحذر. توجد منصة عرض مسقوفة بها وسادة واحدة موجهة نحو الكتبية. هناك منصة أخرى بجانبها، أصغر وأقرب إلى الأرض، تجلس تحتها كيري والسيدة سازوكو. وكان يابو يقف في مقدمة الكتبية بصفته الضابط الأعلى. بينما يقف ناجا عن يمينه، وأنجين سان عن يساره. بدا كل شيء آمنًا، فأشار بونتارو للحرس الأساسي بالتقدم. تقدم الحرس الأمامي بسرعة، وترجلوا وانتشروا لحماية منصة العرض. ثم دخل توراناغا إلى الساحة. رفع ناجا راية المعركة عاليًا، وفي الحال صاح الرجال الأربعة الآلاف: «توراناغا!!!!!!» وانحنوا.

لم يرد تورانا جا على تحيتهم. اكتفى بمراقبة الموقف في صمت تام. لاحظ أن بونتارو كان يراقب أنجين سان بتمعن، وأن يابو يرتدي السيف الذي منحه إياه ولكنه بدا متوترًا جدًا. انحناء أنجين سان كانت صحيحة وثابتة، ومقبض سيفه مكسور. كيري وزوجته الصغرى جاثيتان وأيديهما مسطحة على التاتامي، ورأساهما مُطأطئان بخجل. رقت عيناه للحظة، ثم نظر بامتنعاض إلى الكتيبة، إذ كان كل رجل لا يزال منحنياً. لم يرد التحية واكتفى بإيماءة مقتضبة، وشعر بالارتجاف الذي اجتاح الساموراي وهم يستقيمون من جديد. فكر وهو يترجل عن حصانه بخفة سعيداً أنهم يخشون انتقامه: جيد. أخذ أحد الساموراي زمام حصانه وقاده بعيداً بينما أدار ظهره للكتيبة، وقد كان متعرقاً ككل الحاضرين تحت الرطوبة، ثم سار نحو سيداته.

- إذن يا كيري سان، أهلاً بك في المنزل.

انحنى له مجدداً بفرحة: «شكراً لك يا سيدي. لم أعتقد قط أنني سأحظى بفرصة رؤيتك مجدداً».

سمح تورانا جا ببصيص من سعادته بالظهور: «وأنا أيضاً يا سيدتي». ثم نظر إلى الفتاة الشابة. «حسناً يا ساروكو سان؟ أين ابني؟».

أجابت لاهثة وهي تستمتع بمحبته الظاهرة: «مع مرضعته يا سيدي».

- رجاء أرسلني أحداً ليحضر طفلنا فوراً.

- رجاء يا سيدي، هل أستطيع أن أحضره لك بنفسني بعد إذنك؟

- نعم، نعم، كما تشائين.

ابتسم تورانا جا وشاهدها تذهب للحظة، معجباً بها بشدة. ثم عاد بنظره إلى كيري وقال بصوت مسموع لها وحدها: «هل كل شيء على ما يرام معك؟».

- نعم يا زعيم. نعم... ورؤيتك بهذه القوة تملؤني بالسعادة.

- لقد فقدت بعض الوزن يا كيري تشان، وتبدين أصغر من أي وقت مضى.

- عذراً يا سيدي، هذا ليس صحيحاً. لكن شكراً لك، شكراً لك.

ابتسم لها: «مهما يكن، فهو يليق بك. الحزن... الوحدة... الشعور بالتخلي... يسعدني رؤيتك يا كيري تشان».

- شكرًا لك يا سيدي. أنا سعيدة للغاية بأن طاعتها وتضحيتها فتحت أوساكا. كانت ستشعر بسعادة كبيرة يا سيدي، لو علمت أنها نجحت.
- أولاً عليّ أن أتعامل مع هذا الحشد، ثم سنتحدث لاحقاً. يوجد الكثير لننتحدث عنه، أليس كذلك؟
- كانت عيناها تلمعان: «بلى، بلى. سيتأخر قدوم ابن السماء، أليس كذلك؟».
- ذلك سيكون حكيماً. أليس كذلك؟
- لديّ رسالة خاصة من السيدة أوتشيبا.
- حقاً؟ جيد. لكنها ستنتظر. (توقف قليلاً) السيدة ماريكو، هل ماتت بشرف؟ بقرار منها وليس نتيجة حادث أو خطأ؟
- ماريكو ساما اختارت الموت. لقد كان سيوكو. لو لم تفعل ما فعلته، لكانوا أسروها. يا سيدي، كانت رائعة في تلك الأيام الشريرة. شجاعة للغاية. وأنجين سان... لو لم يكن هو موجوداً، لكانوا أسروها وأذلوها. كنا جميعاً سنؤسر ونذل.
- زفر توراناغا واسودت عيناها مما جعلها ترتجف رغماً عنها: «نعم، النينجا. إيشيدو لديه الكثير ليجيب عنه يا كيري تشان. أرجو المَعذرة».
- توجه إلى منصة العرض وجلس بتجهم ورعب من جديد. أحاطه حراسه.
- أومي سان.
- نعم يا سيدي؟
- تقدم أومي وانحنى، بدا وكأنه أكبر سناً وأكثر نحافة.
- رافق السيدة كيريتسوبو إلى جناحها، وتأكد أن جناحيّ مناسبين. سأبيت هنا الليلة.
- أدى أومي التحية ومضى، وسرّ توراناغا لرؤية أن التغيير المفاجئ في الخطة لم يُظهر أي رد فعل في عيني أومي. فكر: جيد، إن أومي يتعلم، أو ربما أبلغه الجواسيس بأنني أمرت سرّاً بإحضار سودارا وهيرو ماتسو إلى هنا، وبالتالي لا يمكنني المغادرة قبل الغد.
- ثم وجه انتباهه كاملاً إلى الكتيبة. تقدم يابو وأدى التحية عند إشارته. رد توراناغا التحية بأدب: «إذن يا يابو سان، مرحباً بعودتك».
- شكرًا لك يا سيدي. هل لي أن أعبر عن سعادتي بتجنبك غدر إيشيدو.

- شكراً لك. وأنت أيضاً. لم تسر الأمور على ما يرام في أوساكا، أليس كذلك؟

- نعم. لقد تدمر انسجامي يا سيدي. كنت أمل أن أقود الانسحاب من أوساكا وأجلب لك كلتا سيدتيك بأمان، وكذلك ابنك والسيدة تودا وأنجين سان، والبحارة من أجل سفينته. للأسف، معذرة، لقد تعرضنا للخيانة... هناك وهنا.

- نعم.

نظر توراناغا إلى حطام السفينة في الأسفل حيث كانت تغمرها الأمواج. لمعت نيران الغضب في عينيه، وتهيأ الجميع لانفجاره. لكنه لم ينفجر. قال: «إنها الكارما. نعم، كارما يا يابو سان. ماذا يمكن للمرء أن يفعل أمام هذه العوامل؟ لا شيء. الإهمال مسألة أخرى. الآن عن أوساكا، أريد سماع كل ما حدث بالتفصيل... فورَ تسريح الكتيبة واغتسالي».

- لديّ تقرير مكتوب لك يا سيدي.

- جيد. شكراً لك، لكنني أفضل أولاً أن تروي لي التفاصيل بنفسك.

- هل صحيح أن الإمبراطور لن يذهب إلى أوساكا؟

- ما يقرره الإمبراطور يعود له.

سأل يابو رسمياً: «هل تود أن تتفقد الكتيبة قبل أن أصرفهم؟».

- لماذا أمنحهم هذا الشرف؟ (أضاف بحدة): ألا تعلم أنهم في حالة من العار. بغض النظر عن العوامل.

كان يابو يحاول قراءة عقل توراناغا دون جدوى: «نعم يا سيدي. أعتذر. أمر مروع. لقد صُدمت عندما سمعت بما حدث. يبدو أنه شيء مستحيل».

كان وجه توراناغا يزداد تجهماً، ونظر إلى ناجا ثم إلى صفوف الجنود: «وأنا كذلك. ما زلت لا أفهم كيف يمكن أن يكون هناك هذا القدر من العجز. كنت بحاجة لتلك السفينة».

كان ناجا متوترًا: «أرجو المعذرة يا سيدي، هل ترغب بأن أجري تحقيقًا آخر؟».

- ماذا يمكنك أن تفعل الآن ولم تفعله من قبل؟

- لا أعلم يا سيدي، لا شيء يا سيدي، أرجو المعذرة.

- كان تحقيقك شاملاً، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي. أرجوك سامحني على غبائي.

- لم يكن ذلك خطأك. لم تكن هنا. ولم تكن في القيادة. (التفت توراناغا إلى يابو بنفاد صبر): إنه لأمر غريب، بل ومشؤوم، أن تكون دوريات الشاطئ ودوريات المعسكر ودوريات السفينة والقائد جميعهم من رجال إيزو في تلك الليلة... باستثناء قلة من الرونين التابعين لأنجين سان.

- نعم يا سيدي. غريب، ولكنه ليس مشؤوماً، أعتذر. لقد كنت محقاً تماماً في محاسبة الضباط، كما كان ناجا سان محقاً في معاقبة الآخرين. أعتذر، لقد أجريت تحقيقاتي الخاصة فور وصولي، لكن ليس لدي المزيد من المعلومات، ولا شيء لأضيفه. أوافق أنها كارما... كارما ساهم فيها قليلاً بعض المسيحيين الأوغاد. ومع ذلك، أنا أعتذر.

- هل تقول إنها عملية تخريب؟

- لا يوجد دليل يا سيدي، لكن موجة مد وحريق بسيط تبدوان تفسيراً سهلاً جداً. بالتأكيد كان من المفترض إخماد أي حريق. أكرر اعتذاري. أقبل اعتذارك، لكن الآن أخبرني كيف سأعوّض تلك السفينة. أحتاج إلى تلك السفينة.

شعر يابو بمرارة في معدته: «نعم يا سيدي. أعلم. أعتذر، لا يمكن تعويضها، لكن أنجين سان أخبرنا خلال الرحلة أن سفناً حربية أخرى من بلاده ستأتي إلى هنا قريباً».

- متى؟

- هو لا يعلم يا سيدي.

- عام؟ عشرة أعوام؟ بالكاد لديّ عشرة أيام.

- أعتذر، أتمنى لو كنت أعلم. ربما يجب أن تسأله يا سيدي.

نظر توراناغا مباشرة إلى بلاكثورن للمرة الأولى. كان الرجل الطويل يقف وحده وقد اختفى الضوء من وجهه: «أنجين سان».

- نعم يا سيدي؟

أشار توراناغا إلى الحطام في الأسفل: «سيئ، أليس كذلك؟ سيئ جدًا، أليس كذلك؟».

- بلى، سيئ جدًا يا سيدي.
- كم من الوقت حتى تصل السفن الأخرى؟
- سفني يا سيدي؟
- نعم.
- عندما... عندما يشاء بوذا.
- سنتحدث الليلة. اذهب الآن. شكرًا لك على أوساكا. نعم. اذهب إلى القادس... أو إلى القرية. سنتحدث الليلة. مفهوم؟
- نعم. سنتحدث الليلة، نعم، مفهوم يا سيدي. شكرًا لك. متى الليلة؟
- سأرسل رسولًا. شكرًا لك على أوساكا.
- إنه واجبي، أليس كذلك؟ لكنني فعلت القليل. تودا ماريكو ساما قدمت كل شيء. كل شيء من أجل توراناغا ساما.
- نعم.

بادل توراناغا الانحناء بجدية. بدأ أنجين سان بالمغادرة، لكنه توقف. نظر توراناغا إلى نهاية الهضبة. تسوكو سان وتلاميذه وصلوا لتوهم وكانوا يترجلون من أحصنتهم هناك. لم يمنح الكاهن مقابلة في ميشيما - رغم أنه بعث له رسالة فورية عن تدمير السفينة- وأبقاه منتظرًا عمداً حتى تتضح نتيجة أوساكا ووصول القادس بسلام إلى أنجيرو. فقط عندها قرر إحضار الكاهن إلى هنا ليحدث اللقاء في الوقت المناسب.

- بدأ بلاكثورن في التوجه نحو الكاهن.
- أمره: «لا يا أنجين سان. لاحقًا، ليس الآن. الآن اذهب إلى القرية».
- لكن يا سيدي. ذلك الرجل دمر سفينتي. إنه العدو!
- أشار توراناغا إلى القرية أدناه: «ستذهب إلى هناك. وستنتظر هناك رجاءً. سنتحدث الليلة».

- رجاءً يا سيدي، ذلك الرجل...
- قال توراناغا: «لا. ستذهب إلى القادس، ستذهب الآن. رجاءً».

فكر بحماس مشتتًا للحظة: هذا أفضل من ترويض أي صقر على القبضة، إذ كان يفرض إرادته على بلاكتورن. إنه أفضل لأن أنجين سان بنفس التوحش والخطر وعدم التوقع، فهو دائمًا مجهول وفريد من نوعه، لا يشبه أي رجل عرفته من قبل.

من طرف عينه لاحظ أن بونتارو تحرك ليعترض طريق أنجين سان، مستعدًا ومتشوقًا لفرض الطاعة. فكر توراناغا بصورة عابرة: كم هذا سخي، وغير ضروري تمامًا. أبقى عينيه على بلاكتورن. وهيمن عليه.

- نعم. سأذهب الآن يا زعيم توراناغا. أعذر. سأذهب الآن.

مسح العرق عن وجهه وبدأ بالمغادرة.

قال توراناغا: «شكرًا لك يا أنجين سان».

لم يسمح لانتصاره بالظهور. شاهد بلاكتورن وهو يمشي مبتعدًا بطاعة، عنيفًا وقويًا وقاتلًا، لكنه الآن تحت سيطرة إرادة توراناغا.

ثم غيّر رأيه. مقررًا أنه حان الوقت لفتح الحبال وإطلاق الطائر القاتل ليطير بحرية. الاختبار النهائي. نادى: «أنجين سان. أنصت، اذهب إلى هناك إن أردت. أظن أنه من الأفضل ألا تقتل تسوكو سان. لكن إن أردت قتله... فاقتل. من الأفضل ألا تقتل». قال ذلك ببطء وبحذر، وكرره. «هل فهمت؟».

- نعم.

نظر توراناغا إلى تلك العينين الزرقاوين المذهلتين اللتين امتلأتا بعداوة غريزية، وتساءل إذا أطلق هذا الطائر الجامح على فريسته، سيقتل أم لا بناءً على رغبته فقط ويعود إلى القبضة دون أن يأكل.

- هل تفهم؟

- نعم.

أشار توراناغا بيده كإشارة للانصراف. استدار بلاكتورن وتابع سيره شمالًا نحو تسوكو سان. تحرك بونتارو بعيدًا عن طريقه. بدا أن بلاكتورن لم يلاحظ أحدًا سوى الكاهن. كان اليوم يبدو شديد الحرارة.

سأل توراناغا: «إذن يا يابو سان. ماذا سيفعل؟».

- سيقتل. بالطبع سيقتل إن استطاع الإمساك به. الكاهن يستحق الموت، أليس كذلك؟ كل الكهنة المسيحيين يستحقون الموت، أليس كذلك؟ كل

المسيحيين. أنا متأكد أنهم وراء التخريب... الكهنة وكياما، رغم أنني لا أستطيع إثبات ذلك.

- هل تراهن بحياتك أنه سيقتل تسوكو سان؟

قال يابو بسرعة: «لا يا سيدي، لا. لن أراهن. أعذر. إنه همجي... كلاهما همجي».

- ناجا سان؟

- لو كنت مكانه، لقتلت الكاهن وكلهم، الآن بعدما حصلت على إذنك. لم أعرف أحدًا يكره بهذه الدرجة في العلن. في اليومين الماضيين كان أنجين سان كالرجل المجنون، يمشي ذهابًا وإيابًا ويتمتم، يحدق إلى الحطام، وينام هناك ملتفًا حول نفسه على الرمال، بالكاد يأكل... (نظر ناجا مرة أخرى إلى بلاكتورن): أوافق أنه لم يكن الطقس وحده من دمر السفينة. أعرف أن الكهنة كانوا وراء ذلك بطريقة ما... لا أستطيع إثباته أيضًا، لكن بطريقة ما... لا أعتقد أنه حدث بسبب العاصفة.

- اختر.

- سينفجر. انظر إلى طريقة مشيه... أعتقد أنه سيقتل... أتمنى أن يقتل.

- بونتارو سان؟

استدار بونتارو، ذقنه القاسي غير المحلوق، وساقيه العضليتين ثابتتين، وأصابعه على قوسه. قال: «أنت نصحتك بعدم قتل تسوكو سان، إذن لا تريد أن يموت الكاهن. إذا قتل أنجين سان أو لم يقتل، فهذا لا يهمني يا سيدي. أنا أهتم فقط بما يهمك. هل يمكنني إيقافه إذا بدأ في عصيانك؟ أستطيع فعل ذلك بسهولة من هذا المدى».

- هل تستطيع ضمان إصابته فقط؟

- لا يا سيدي.

ضحك توراناغا بهدوء وكسر السحر: «لن يقتله أنجين سان. سيصرخ ويغضب أو يهسهس كالأفعى ويحرك سيفه، بينما سيمتلئ تسوكو سان بالحماس «المقدس» دون أن يظهر عليه خوف، وسيبادل الهسهسة قائلاً: «كان ذلك عمل الرب. لم ألمس سفينتك قط» عندها سيصفه أنجين سان بالكاذب، وسيزداد تسوكو سان حماسة ويكرر الادعاء ويقسم بالحقيقة باسم

إلهه، وربما يلعبه في المقابل، وسيتبادلان الكراهية لعشرين حياة. لا أحد سيموت. على الأقل، ليس الآن».

صاح ناجا: «كيف تعرف كل ذلك يا أبي؟».

- لست متأكدًا منه يا بني. لكن هذا ما أعتقد أنه سيحدث. من المهم دائمًا أن تأخذ وقتك لدراسة الرجال... الرجال المهمين. الأصدقاء والأعداء. لفهمهم. لقد راقبت كلاً منهما. كلاهما مهم جدًا بالنسبة لي. أليس كذلك يا يابو سان؟

قال يابو شاعرًا بالاضطراب فجأة: «نعم يا سيدي».

ألقي ناجا نظرة سريعة على بلاكتورن. كان أنجين سان لا يزال يمشي بالخطوات غير العجلة نفسها، الآن على بُعد خمسين مترًا من تسوكو سان، الذي كان ينتظر مع تلاميذه في مقدمة الصف، والريح تحرك أردبتهم البرتقالية.

- لكن يا أبي، كلاهما ليس جبانًا، أليس كذلك؟ لماذا لا... كيف يمكنهما التراجع الآن بشرف؟

- هو لن يقتل لثلاثة أسباب. أولاً: لأن تسوكو سان غير مسلح ولن يقاوم، حتى ولو بيديه. إنه ضد شريعتهم قتل رجل غير مسلح... هذا عار، خطيئة ضد إلههم المسيحي. ثانيًا: لأنه مسيحي. ثالثًا: لأنني قررت أنه ليس الوقت المناسب.

قال بونتارو: «أرجو المَعذرة، ولكن أستطيع فهم السبب الثالث، حتى الأول، لكن أليس السبب الحقيقي وراء كراهيتهم أن كلاً منهما يعتقد أن الآخر ليس مسيحيًا بل شريكًا... عبدًا للشيطان؟ أليس هذا ما يسمونه؟».

- نعم، لكن هذا الإله يسوع الذي يعبدونه علمهم أو كان من المفترض أنه علمهم أن يسامحوا العدو. هذا ما يعنيه أن تكون مسيحيًا.

قال ناجا: «هذا غبي، أليس كذلك؟ من الغباء أن تسامح عدوك».

نظر توراناغا إلى يابو: «أوافقك الرأي. من الغباء أن تسامح عدوًا. أليس كذلك يا يابو سان؟».

وافقه يابو الرأي: «بلى».

نظر تورانا جا شمالاً. كانت الهيئتان قريبتين جدًّا والآن، وكان تورانا جا يلعن اندفاعه داخليًّا. فقد كان لا يزال بحاجة إلى كلا الرجلين، ولم يكن هناك داعٍ للمخاطرة بكليهما. لقد أطلق أنجين سان من أجل الإثارة الشخصية، لا للقتل، وكان يندم على غيائه. الآن كان ينتظر بترقب مثلهم. لكن حدث ما تنبأ به، وكانت المواجهة قصيرة وحادة وملينة بالعداوة، حتى من هذه المسافة، أخذ يحرك مروحته براحة كبيرة. كان يرغب بشدة في فهم ما قيل بالضبط، ليتأكد إذا كان قد أصاب في توقعه. وسرعان ما رأوا أنجين سان يبتعد. وخلفه كان تسوكو سان يمسح جبينه بمناديل ورقية ملونة.

عبر ناجا عن إعجابه: «كيف يمكننا أن نخسر وأنت تقودنا؟».

- بسهولة شديدة يا بني، إن كانت هذه هي الكراما خاصتي. (ثم تغير مزاجه): ناجا سان، أبلغ جميع الساموراي الذين عادوا مع القادس من أوساكا بأن يجتمعوا في مقصورتى.

أسرع ناجا مبتعدًا.

- يابو سان. يسرني أن أرحب بك سالمًا. سرح الكتيبة... بعد العشاء سنتحدث. هل يمكنني أن أستدعيك؟

- بالطبع. شكرًا لك يا سيدي.

حياه يابو وابتعد.

بعدما أصبح الآن وحيدًا باستثناء الحراس الذين أشار لهم ليباعدوا عن نطاق السمع، بدأ تورانا جا يدرس بونتارو. كان بونتارو مضطربًا، مثل كلب يشعر بالقلق عندما يُحذق إليه. وعندما لم يستطع تحمل ذلك أكثر، قال: «سيدي؟».

- لقد طلبت رأسه من قبل، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

- بلى... بلى يا سيدي.

- حسنًا؟

- هو... هو أهانني في أنجيرو. أنا... ما زلت أشعر بالخزي.

- أمر بإلغاء هذا الخزي.

- إذًا فهو مُلغى يا سيدي. ولكنها خانتني معه، وهذا لا يمكن إلغاؤه، ليس ما دام على قيد الحياة. لدي دليل. أريده ميتًا. الآن. هو... رجاء، إن سفينته اختفت، ما فائدته لك الآن يا سيدي؟ أطلبها كمعروف للحياة.
- ما الدليل؟
- قال بكآبة: «الجميع يعلم. في الطريق من يوكوسي. تحدثت إلى يوشيناكا. الجميع يعلم».
- يوشيناكا رآها معه؟ اتهمها؟
- لا. لكن ما قاله... (رفع بونتارو رأسه بألم): أنا أعلم، وهذا كافٍ. رجاء، أتوسل إليك، أطلبها كمعروف للحياة. لم أطلب منك شيئًا قط، أليس كذلك؟
- أحجازه حيًا. لولاه، لأسروها النينجا وألحقوا بها العار، وبالتالي بك أيضًا.
- قال بونتارو: «أمنية الحياة، أطلبها. سفينته اختفت... لقد، لقد فعل ما أردت. رجاء».
- لدي دليل أنه لم يلحق بك العار معها.
- أعتذر، ما الدليل؟
- أنصت. هذا فقط لآذانك... كما اتفقت معها. أمرتها بأن تصبح صديقتها. (نظر توراناغا إليه): كانا أصدقاء، نعم. أنجين سان كان يعشقها، لكنه لم يلحق بك العار معها، ولا هي معه. في أنجيرو قبيل الزلزال، عندما اقترحت لأول مرة الذهاب إلى أوساكا لتحرير جميع الرهائن... عن طريق تحدي إيشيدو علنًا ثم خلق أزمة السيوكو، مهما حاول أن يفعل... في ذلك اليوم أنا...
- أكان ذلك مخططًا إذن؟
- بالطبع. ألن تتعلم أبدًا؟ في ذلك اليوم أمرت بطلاقها منك.
- عذرًا؟
- طلاق. أليست الكلمة واضحة؟
- نعم، لكن...

- طلاق. لقد جعلتك مجنونًا لسنوات، وكنت تعاملها بقسوة لسنوات. ماذا عن معاملتك لمربيته ونسائها؟ ألم أخبرك أنني كنت بحاجة إليها لترجمة أنجين سان، ومع ذلك فقد فقدت أعصابك وضربتها... الحقيقة هي أنك كدت تقتلها في ذلك الوقت، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟
- بلى... أرجو أن تعذرني.
- لقد حان الوقت لإنهاء ذلك الزواج. أمرت بإنهائه. حينها.
- هل طلبت الطلاق؟
- لا. قررتُ وأمرتُ بذلك. لكن زوجتك طلبت مني أن ألغي الأمر. رفضتُ. ثم قالت زوجتك إنها ستقوم بالسيوكو في الحال دون إذني قبل أن تلحق بك العار بهذه الطريقة. أمرتها بالطاعة. لكنها رفضت. (واصل تورانا جا بغضب): زوجتك أجبرتني -زعيمها الإقطاعي- على سحب أمر قانوني مني، وجعلتني أوافق على أن يكون أمر طلاقي نهائيًا فقط بعد أوساكا... ونحن نعلم جميعًا أن أوساكا بالنسبة لها تعني الموت. هل تفهم؟
- نعم... نعم، أفهم ذلك.
- في أوساكا، أنقذ أنجين سان شرفها وشرف سيداتي وابني الصغير. لولاه، لكانوا جميعًا، وكذلك جميع الرهائن في أوساكا، ما زالوا في أوساكا، ولكنك ميتًا أو في قبضة إيكافا جيكيو، ربما في الأغلال كأبي لص عادي.
- أرجو المعذرة... لكن لماذا فعلت ذلك؟ كانت تكرهني... لماذا طلبت تأجيل الطلاق؟ من أجل ساروجي؟
- من أجل شرفك. كانت تفهم الواجب. كانت زوجتك مهتمة جدًا بشرفك -حتى بعد وفاتها- كان جزء من اتفاقي هو أن تبقى هذه القضية خاصة بينك وبينها وبينني. لن يعرفها أحد، لا أنجين سان، ولا ابنها، ولا أحد... حتى كاهنها المسيحي المسؤول عن اعترافها.
- ماذا؟

شرح تورانا جا مجددًا. وبعد فترة فهم بونتارو بوضوح، وأمره تورانا جا بالمغادرة، ثم عندما أصبح وحده أخيرًا للحظة، نهض وتمدد، مرهقًا من كل ما مر به منذ وصوله. الشمس لا تزال مرتفعة رغم أن الوقت كان بعد الظهيرة

الآن. كان يشعر بالعطش الشديد. قبل شايًا باردًا من حارسه الشخصي، ثم سار إلى الشاطئ. نزع الكيمونو المبلل وسبح، وكان البحر يجعله يشعر بالعظمة والانتعاش. سبح تحت الماء لكنه لم يبقَ مغمورًا لفترة طويلة، مدركًا أن حراسه سيكونون قلقين. ظهر على السطح وطفأ على ظهره ناظرًا إلى السماء، مستجمعًا قوته لليلة الطويلة المقبلة.

فكر: يا ماريكو، كم أنتِ سيدة رائعة. نعم، أنتِ كذلك، لأنكِ ستعيشين إلى الأبد بالتأكيد. هل أنتِ مع إلهك المسيحي في جنتك المسيحية؟ أمل ألا تكوني هناك. سيكون ذلك مضیعة فظیعة. أرجو أن تكون روحكِ تنتظر أيام بوزا الأربعين من أجل ولادتك من جديد في مكان ما هنا. أدعو أن تأتي روحكِ إلى عائلتي. رجاءً. ولكن مجددًا كسيدة... لا كرجل. لا يمكننا أن نتحمل وجودك رجلًا. أنتِ مميزة جدًا على أن تهدري كرجل.

ابتسم. لقد حدث كما قال لبونتارو في أنجيرو، رغم أنها لم تجبره قط على إلغاء أمره. قال مخاطبًا السماء: «كيف يمكنها أن تجبرني على فعل أي شيء لا أريده؟». لقد طلبت منه بأدب وبطريقة صحيحة ألا يجعل الطلاق علنيًا حتى بعد أوساكا. لكنه طمأن نفسه بأنها كانت بالتأكيد ستنفذ السيوكو إذا رفضت طلبها. كانت ستصر، أليس كذلك؟ بالطبع كانت ستصر وهذا كان من شأنه أن يفسد كل شيء. أما من خلال الموافقة مسبقًا، فقد وفرتُ عليها عارًا وجدالًا لا داعي لهما، ووفرتُ على نفسي عناءً لا داعي له... وبالحفاظ على سرية الأمر الآن، كما أنا متأكد أنها كانت ستتمنى، سيحقق الجميع مكاسب أكثر. فكر بمودة: أنا سعيد لأنني تنازلت. ثم ضحك بصوت عالٍ. اندفعت موجة خفيفة فوقه فابتلع ماء البحر واختنق.

نادى أحد الحراس القلقين الذي كان يسبح بالقرب منه: «هل أنت بخير يا سيدي؟».

- نعم. بالطبع نعم.

تقيًا توراناغا مجددًا ثم بصق البلغم، وهو يسبح بوضع قائم، وفكر: هذا سيعلمك ألا تكون متفاخرًا. هذا هو خطوك الثاني اليوم. ثم رأى الحطام. فنادى حارسه: «هيا، سأتسابق معك».

كان السباق مع توراناغا يعني سباقًا. ذات مرة سمح أحد قادته له بالفوز عمدًا على أمل كسب وده. لكن هذا الخطأ كلفه كل شيء.

فاز الحارس. هنأه تورانا جا وأمسك أحد أضلاع السفينة وانتظر حتى أصبح تنفسه طبيعياً، ثم نظر حوله، بفضول كبير. سبح إلى الأسفل وتفقد قاع إيراسموس. وعندما شعر بالرضا، عاد إلى الشاطئ ومنه إلى المعسكر، وهو منتعش ومستعد.

أنشئ منزل مؤقت له في موقع جيد تحت سقف واسع من القش مدعوم بأعمدة قوية من الخيزران. كانت الجدران والفواصل من الشوجي موضوعة على أرضية مرتفعة من الخشب والتاتامي. كان هناك حراس متمركزين بالفعل، وتوفرت غرف أيضاً لكيري وسازوكو والخدم والطهارة، متصلة بمجمع من الطرق البسيطة، مرتفعة على ركائز مؤقتة.

رأى ابنه لأول مرة. من الواضح أن السيدة سازوكو لم تكن لتتصرف بفضاظة وتجلب ابنها إلى الهضبة على الفور، خشية أن تتطفل على أمور مهمة - كما كانت لتفعل - رغم أنه قد أعطاها تلك الفرصة بسرور.

أعجبه الطفل كثيراً. تباهى وهو يحمل الرضيع بثقة متمرس: «إنه فتى رائع. ويا سازوكو، أنتِ تبدين أصغر وأكثر جاذبية من أي وقت مضى. يجب أن نحظى بالمزيد من الأطفال في الحال. الأمومة تناسبكِ».

قالت: «يا سيدي، كنت أخشى أنني لن أراك مجدداً، ولن أتمكن من أن أريك ابنك الجديد. كيف سنهرب من الفخ... جيوش إيشيدو...».

- انظري كم هو فتى رائع! الأسبوع المقبل سأبني ضريحاً تكريماً له وأهب له...

توقف وقسم المبلغ الذي كان قد فكر فيه أولاً، ثم قسمه مجدداً: «... عشرين كوكو سنوياً».

- كم أنت كريم يا سيدي.

كانت ابتسامتها ساذجة. قال: «نعم، هذا يكفي لكاهن طفيلي بائس ليقول بعض «بسم أميدا بوذا»، أليس كذلك؟».

- بلى يا سيدي. هل سيكون الضريح بالقرب من القلعة في إيدو؟ ألن من الرائع إذا كان على نهر أو مجرى مائي؟

وافق على مضض رغم أن مثل هذا المكان المميز سيكلف أكثر مما أراد إنفاقه على مثل هذه البهجة. فكر: ولكن الفتى رائع، يمكنني أن أكون كريماً هذا العام.

- شكرًا لك يا سيدي...

توقفت السيدة سازوكو. كان ناجا يسرع نحوهم حيث كانوا يجلسون في الشرفة المظلمة.

- أرجو المَعذرة يا أبي، ولكن ساموراي أوساكا؟ كيف ترغب في رؤيتهم، كل على حدة أم جميعهم معًا؟

- كل على حدة.

- حسنًا يا سيدي. يود الكاهن تسوكو سان أن يراك عندما يكون ذلك مناسبًا.

- أخبره أنني سأستدعيه في أقرب وقت ممكن.

بدأ توراناغا يتحدث مع خليلته مجددًا، لكنها طلبت بكل أدب الإذن بالانصراف، مدركة أنه يريد التعامل مع الساموراي على الفور. طلب منها أن تبقى، لكنها توسلت أن يسمح لها بالذهاب فوافق.

أجرى مقابلات دقيقة مع الرجال، يمحس رواياتهم، يستدعي ساموراي بين الحين والآخر ويتحقق منه. بحلول غروب الشمس، كان يعرف بوضوح ما حدث، أو ما كانوا جميعًا يعتقدون أنه حدث. ثم تناول طعامه بخفة وسرعة، كانت وجبته الأولى في ذلك اليوم، واستدعى كيري، وأخرج جميع الحراس من نطاق السمع.

- أخبريني أولاً عما فعلته ورأيتَه وشهدته يا كيري تشان.

حل الليل قبل أن يشعر بالرضا، رغم أنها كانت مستعدة تمامًا.

قال: «كان ذلك وشيكًا جدًا يا كيري تشان. وشيكًا جدًا».

أجابت كيري: «نعم». كانت يداها مطويتين في حضنها الواسع. ثم أضافت بحنان بالغ: «جميع الآلهة، الكبيرة والصغيرة، كانوا يحمونك يا سيدي، وتحميننا. أرجو أن تعذرني لأنني شككت في النتيجة، شككت فيك. كانت الآلهة تراقبنا».

- يبدو أن الأمر كذلك، نعم، كثيرًا.

نظر توراناغا إلى الليل. كان لهيب المشاعل يتمايل مع نسيم البحر الخفيف الذي طرد الحشرات الليلية وجعل المساء أكثر راحة. كان هناك قمر جميل يزين السماء، وبإمكانه رؤية البقع المظلمة على وجهه وتساءل بذهن

- شارد إن كانت الظلمة هي الأرض والبقية جليد وثلج، ولماذا كان القمر هناك، ومن يعيش هناك. فكر: يوجد الكثير من الأشياء التي أود أن أعرفها.
- هل يمكنني أن أسأل سؤالاً يا تورا تشان؟
- أي سؤال يا سيدتي؟
- لماذا سمح لنا إيشيدو بالذهاب؟ حقاً؟ لم يكن مضطراً لذلك، أليس كذلك؟ لو كنت مكانه لما فعلت ذلك... أبداً. لماذا؟
- أخبريني أولاً برسالة السيدة أوتشيبا.
- قالت السيدة أوتشيبا: «رجاءً أخبري الزعيم توراناغا أنني أتمنى باحترام أن تكون هناك طريقة لحل خلافاته مع الوريث. كرمز لمحبة الوريث، أود أن أخبر توراناغا ساما أن الوريث قال مراراً إنه لا يريد قيادة أي جيوش ضد عمه، زعيم الكان...».
- قالت ذلك!
- نعم. نعم.
- لا بد أنها تعرف - وإيشيدو - أنه إذا رفع يايمون الراية ضدي يجب أن أخسر.
- هذا ما قالته يا سيدي.
- ضم توراناغا قبضته العظيمة القاسية وضرب بها على التاتامي: «إذا كان هذا عرضاً حقيقياً وليس خدعة، فأنا في منتصف الطريق إلى كيوتو، وبعدها بخطوة واحدة».
- قالت كيري: «نعم».
- ما الثمن؟
- لا أعلم. لم تقل شيئاً آخر يا سيدي. كانت هذه هي الرسالة فقط... بجانب تمنياتها الطيبة لأختها.
- ماذا يمكنني أن أعطي أوتشيبا ولا تملكه بالفعل؟ أوساكا لها، والكنز لها، ولطالما كان يايمون وريث العرش بالنسبة لي. هذه الحرب غير ضرورية. مهما حدث، في غضون ثمانية أعوام يصبح يايمون كوامباكو ويريث الأرض، هذه الأرض. لا يوجد شيء آخر يمكنني أن أقدمه لها.
- ربما تريد الزواج؟

هز توراناڭا رأسه بإصرار: «لا، ليست هي. تلك المرأة لن تتزوجني أبدًا».

- إنه الحل المثالي يا سيدي، بالنسبة لها.
- لن تفكر في ذلك أبدًا. أوتشيبا زوجتي؟ لقد توسلت للتايكو أربع مرات لكي يدعوني إلى مهام خطيرة.
- نعم. لكن ذلك عندما كان حيًّا.
- سأفعل أي شيء من شأنه أن يوحد المملكة، ويحفظ السلام، ويجعل يايمون كوامباكو. هل هذا ما تريده؟
- سيؤكد ذلك الخلافة. هذا هو هدفها.

أعاد توراناڭا نظره إلى القمر، لكن الآن كان تركيزه منصبًا على اللغز، متذكرًا مرة أخرى ما قالته السيدة يودوكو في أوساكا. وعندما لم يتوصل إلى إجابة فورية، وضع الأمر جانبًا ليوصل التركيز على الأمور الأكثر أهمية حاليًّا. قال: «أعتقد أنها تعود إلى حيلها مجددًا. هل أخبرك كيما أن السفينة الهمجية قد خُربت؟».

- لا يا سيدي.

عبس توراناڭا: «هذا مفاجئ، لأنه لا بد أن يكون قد علم بذلك حينها. أخبرت تسوكو سان فور سماعي... فأرسل حمامة زاجلة على الفور، رغم أن ذلك كان سيؤكد فقط ما قد عرفوه بالفعل».

- يجب أن يُعاقبوا على خيانتهم، أليس كذلك؟ على المحرضين وكذلك الحمقى الذين سمحوا بحدوث ذلك.

- بالصبر سيحصلون على جزائهم يا كيري سان. سمعت أن الكهنة المسيحيين يدعون أنه كان «عمل الرب».

- يا للنفاق! سخي، أليس كذلك؟

- بلى.

فكر توراناڭا: سخي للغاية من جهة، ولكن ليس من الجهة أخرى. تابع: «حسنًا، شكرًا لك يا كيري سان. أنا سعيد لأنك بأمان. سنبقى هنا الليلة. الآن، أرجو المَعذرة. أرسلني لاستدعاء يابو سان وعندما يصل، أحضري الشاي والساكي ثم اتركينا وحدنا».

- نعم يا سيدي. هل يمكنني أن أطرح سؤالًا الآن؟

- السؤال نفسه؟

- نعم يا سيدي. لماذا سمح لنا إيشيدو بالذهاب؟

- الإجابة هي أنني لا أعلم يا كيري تشان. لقد ارتكب خطأ.

انحنت وغادرت برضا.

كان الوقت قد اقترب من منتصف الليل تقريباً عندما غادر يابو بعد أن انحنى له توراناغا باحترام وشكره مجدداً على كل شيء. كان قد دعاه إلى مجلس الحرب السري المقرر لليوم التالي، وعيّنه قائداً على كتيبة البنادق، وأكد له في وثيقة مكتوبة سيادته المطلقة على توتومي وسوروجا... بعد ما يُغزوان ويؤمنان.

- الآن أصبحت الكتيبة ضرورية للغاية يا يابو سان. ستكون مسؤولاً وحدك عن خططها وتدريبها. يمكن لأومي سان أن يكون حلقة الوصل بيننا. استغل معرفة أنجين سان... أي شيء، هل فهمت؟

- نعم، سيكون ذلك مثالياً يا سيدي. اسمح لي أن أشكرك بتواضع.

- لقد قدمت لي خدمة عظيمة بجلبك لنسائي وابني وأنجين سان بأمان. إنه لأمر فظيع ما حدث للسفينة... كارما. ربما تصل واحدة أخرى قريباً. ليلة سعيدة يا صديقي.

ارتشف توراناغا الشاي، وهو يشعر بتعب شديد.

- ناجا سان؟

- نعم يا سيدي؟

- أين أنجين سان؟

- بالقرب من الحطام مع بعض من أتباعه.

- ماذا يفعل هناك؟

- فقط يحدق إليها.

شعر ناجا بالتوتر تحت نظرات والده الثاقبة: «أعتذر، ألا ينبغي أن يكون هناك يا سيدي؟».

- ماذا؟ لا، لا يهم. أين تسوكو سان؟

- في أحد بيوت الضيافة يا سيدي.

- هل أخبرته أنك ترغب في أن تصبح مسيحياً العام القادم؟

- نعم يا سيدي.

- جيد. أحضره.

بعد لحظات، شاهد توراناكا الكاهن الطويل النحيف يقترب تحت أضواء المشاعل -وجهه المتوتر تملؤه التجاعيد، وشعره الأسود المقصوص خالٍ من الشيب- فذكره ذلك فجأة بيوكوسي.

- الصبر مهم للغاية يا تسوكو سان، أليس كذلك؟

- بلى، دائماً. لكن لماذا قلت ذلك يا سيدي؟

- كنت أفكر في يوكوسي. كيف كانت الأمور مختلفة جداً حينها، قبل وقت قصير فقط.

- نعم. إن الرب يتحرك بطرق غامضة، نعم يا سيدي. أنا سعيد جداً لأنك لا تزال في أراضيك.

سأل توراناكا وهو يهوي نفسه: «أردت رؤيتي؟».

كان يشعر في قرارة نفسه بالغيرة من معدة الكاهن المسطحة وهبته للغات.

- فقط لأعتذر عما حدث.

- ماذا قال أنجين سان؟

- كلمات غاضبة كثيرة... واتهامات بأني أحرقت سفينته.

- هل أحرقتها؟

- لا يا سيدي.

- من فعل ذلك إذن؟

- كانت مشيئة الرب. جاءت العاصفة وأحرقت السفينة.

- لم تكن مشيئة الرب. هل تقول إنك لم تساعد في ذلك، لا أنت ولا أي كاهن، أو أي مسيحي؟

- لقد ساعدت يا سيدي. صليت. جميعنا صلينا. أمام الرب، أو من أن تلك السفينة كانت أداة للشيطان... وقد أخبرتك بذلك مراراً. أعلم أنك لا

- تعتقد ذلك، وأطلب منك مجددًا مسامحتي لمعارضتك في هذا. لكن ربما ساعدت مشيئة الرب هذا ولم تضر.
- حَقًّا؟ كيف؟
- لم يعد الأب الزائر مشتتًا يا سيدي. الآن يمكنه التركيز على الزعيمين كياما وأونوشي.
- قال توراناغا بصراحة: «لقد سمعت كل هذا من قبل يا تسوكو سان. ما المساعدة العملية التي يمكن أن يقدمها الكاهن المسيحي الرئيسي لي؟».
- سيدي، ضع ثقتك في... (تدارك ألفيتو نفسه ثم قال بصدق): أرجو المَعذرة يا سيدي، أشعر من كل قلبي أنه إذا وضعت ثقتك بالرب، فسيساعدك.
- أنا أضع ثقتي به، لكن في توراناغا أكثر. في الوقت نفسه سمعت أن إيشيدو وكياما وأونوشي وزاتاكي جمعوا جيوشهم. سيكون لدى إيشيدو ثلاثمائة أو أربعمائة ألف رجل في الميدان ضدي.
- الأب الزائر ينفذ اتفاقه معك يا سيدي. لقد أبلغت عن الفشل في يوكوسي، لكن الآن أعتقد أنه يوجد أمل.
- لا يمكنني استخدام الأمل في مواجهة السيوف.
- نعم، لكن الرب يستطيع أن ينتصر على أي احتمالات.
- نعم. إذا كان الرب موجودًا، فإنه يستطيع أن ينتصر على أي احتمالات. (ثم احتد صوت توراناغا): عن أي أمل تتحدث؟
- في الحقيقة، لا أعلم يا سيدي. لكن أليس إيشيدو قادمًا ضدك؟ خارج قلعة أوساكا؟ ألا تعد هذه بمنزلة مشيئة الرب أيضًا؟
- لا. لكنك تفهم أهمية ذلك القرار؟
- نعم، بوضوح شديد. وأنا واثق أن الأب الزائر يفهم ذلك أيضًا.
- هل تعتقد أن هذا من عمله؟
- لا يا سيدي. لكنه يحدث.
- ربما يغير إيشيدو رأيه ويجعل الزعيم كياما القائد الأعلى، ويختبئ في أوساكا، ويترك كياما والوريث ليواجهوني؟

- لا أستطيع الإجابة عن ذلك يا سيدي. لكن إذا غادر إيشيدو أوساكا، فسيكون ذلك معجزة. أليس كذلك؟
- هل تدعي بجدية أن هذه هي مشيئة إلهكم المسيحي؟
- لا. لكن ربما تكون كذلك. أو من أنه لا يحدث شيء دون علمه.
- حتى بعد موتنا، قد نظل لا نعلم شيئاً عن الرب. (ثم أضاف توراناكا فجأة): سمعت أن الأب الزائر غادر أوساكا.
- كان سعيداً لرؤية ظل يعبر وجه تسوكو سان. لقد جاء هذا الخبر في اليوم الذي غادروا فيه ميشيما.
- كان الكاهن يقول وقد ازداد ذعره: «نعم، لقد ذهب إلى ناجازاكي يا سيدي».
- لإجراء مراسم دفن خاصة لتودا ماريكو ساما؟
- نعم. أنت تعرف الكثير يا سيدي. نحن جميعاً طينٌ على عجلة الفخار التي تديرها.
- هذا ليس صحيحاً. ولا أحب المديح الفارغ. هل نسيت؟
- أصبح ألفيتو أكثر حذراً وكاد يذبل: «لا يا سيدي، أرجوك اعذرني. لم يكن هذا مقصدي هكذا. هل أنت معارض لهذه الخدمة يا سيدي؟».
- لا تهمني. كانت شخصاً مميزاً جداً، ومثالها يستحق التكريم.
- نعم يا سيدي. شكرًا. سيكون الأب الزائر سعيداً جداً. لكنه يعتقد أن الأمر مهم جداً.
- بالطبع. لأنها كانت تابعتي ومسيحية، مثالها لن يمر دون أن يلاحظه... الآخرون من المسيحيين. أو من يفكرون في اعتناق المسيحية. أليس كذلك؟
- أقول إنه لن يمر دون أن يلاحظه أحد. لماذا يجب أن يمر؟ على العكس، هي تستحق الثناء العظيم على تضحياتها بنفسها.
- سأل توراناكا بغموض، دون ذكر السيوكو أو الانتحار: «في التضحية بحياتها ليعيش الآخرون؟».
- نعم.

ابتسم تورانا جا لنفسه وهو يلاحظ أن تسوكو سان لم يذكر قط الفتاة الأخرى، كياما أتشيكو، وشجاعته أو موتها أو دفنها، أيضًا بكل الفخامة والمراسم العظيمة. احتد صوته: «وأنت لا تعرف أحدًا أمر أو ساعد في تخريب سفينتي؟».

- لا يا سيدي. سوى بالصلاة.
- سمعت أن بناء كنيستكم في إيدو يسير جيدًا.
- نعم يا سيدي. شكرًا مجددًا.
- حسنًا يا تسوكو سان، آمل أن تؤتي أعمال الكاهن الأعلى للمسيحيين ثمارها قريبًا. أنا بحاجة إلى أكثر من الأمل، ولدي ذاكرة طويلة جدًا. الآن، أحتاج إلى خدماتك كمترجم. (شعر بتوتر الكاهن على الفور): ليس لديك ما تخاف منه.
- أنا لست خائفًا منه يا سيدي، أرجوك اعذرني، فقط لا أريد أن أكون بالقرب منه.
- نهض تورانا جا: «أطلب منك احترام أنجين سان. شجاعته لا شك فيها، وقد أنقذ حياة ماريكو ساما عدة مرات. أيضًا هو في حالة جنونية تقريبًا في هذه اللحظة... فقدان سفينته، أليس كذلك؟».
- بلى، بلى، أعتذر.
- قاد تورانا جا الطريق نحو الشاطئ، حيث أضاء الحراس طريقهم بالمشاعل.
- متى سأحصل على تقرير كاهنك الأعلى عن حادثة تهريب الأسلحة؟
- حالما يحصل على جميع المعلومات من ماكاو.
- رجاء اطلب منه تسريع تحقيقاته.
- حسنًا يا سيدي.
- من هم الدايميو المسيحيون المعنيون؟
- لا أعلم، أعتذر، أو حتى إذا كان أي منهم متورطًا.
- من المؤسف أنك لا تعلم يا تسوكو سان. هذا كان سيوفر عليّ الكثير من الوقت. يوجد العديد من الدايميو الذين سيكونون مهتمين بمعرفة حقيقة ذلك.

فكر توراناجا: ولكنك تعلم يا تسوكو سان، وبإمكانني أن أضغط عليك الآن إلى زاوية، وبينما ستتلوى وتكافح كما تفعل الأفعى المحاصرة، وفي النهاية سأمرك أن تقسم بالرب المسيحي، وعندما إذا فعلت، ستقول: «كياما وأونوشي وربما هاريمان». لكن الوقت لم يحن. ليس بعد. ولا هو الوقت المناسب لتعرف أنني أعتقد أنكم المسيحيين لم يكن لكم علاقة بالتخريب. ولا كياما أو هاريمان أو حتى أونوشي. في الواقع، أنا متأكد. لكنه لم يكن أيضًا عمل الرب. كان عمل توراناجا.

نعم.

ولكن لماذا؟ قد تسأل.

لقد رفض كياما بحكمة العرض الذي في رسالتي التي سلمتها له ماريكو. كان يجب أن يُمنح دليلًا على صدقي. ماذا يمكنني أن أقدم سوى السفينة -والهمجي- الذي يرهبكم أنتم المسيحيين؟ كنت أتوقع أن أفقد كليهما، رغم أنني قدمت واحدًا فقط. اليوم في أوساكا، سيخبر الوسطاء كياما ورئيس كهنتكم أن هذه هدية مجانية مني إليهم، دليل على صدقي: أنني لا أعادي الكنيسة، بل أعادي إيشيدو. إنها دليل، أليس كذلك؟

بلى، ولكن هل يمكنك أن تثق بكياما؟ قد تسأل بحق.

لا. لكن كياما يظل يابانيًا أولًا، ومسيحيًا ثانيًا. أنتم دائمًا تنسون ذلك. كياما سيفهم صدقي. كانت هدية السفينة مطلقة، مثل مثال ماريكو وشجاعة أنجين سان.

وكيف خربت السفينة؟ قد تريد أن تعرف. لماذا يهكم الأمر يا تسوكو سان؟ يكفي أنني فعلت. ولم يعلم أحد بذلك سوى أنا وبعض الرجال الموثوق بهم ومرتكب الحريق. هو؟ لقد استخدم إيشيدو النينجا، فلماذا لا أستخدمهم أنا أيضًا؟ لكنني استأجرت رجلًا واحدًا ونجحت. بينما فشل إيشيدو.

قال بصوت عالٍ: «من الغباء أن تفشل».

سأل ألفيتو: «عذرًا؟».

قال بقسوة: «من الغباء أن تفشل في إخفاء سر مثير للفتنة مثل البنادق المهربة. وتحريض الدايميو المسيحيين على التمرد ضد زعيمهم الإقطاعي، التايكو. أليس كذلك؟».

- بلى يا سيدي. إذا كان ذلك صحيحًا.

- أنا متأكد أنه صحيح يا تسوكو سان.

ترك توراناغا الحديث يتوقف الآن بعد أن أصبح تسوكو سان متوترًا بوضوح وجاهرًا ليكون مترجمًا مثاليًا.

كانا الآن بالقرب من الشاطئ، وتقدم توراناغا بثقة في الظلام، متجاهلاً إرهاقه. وعندما مروا بالرؤوس على الشاطئ، رأى تسوكو سان يرسم شارة الصليب على نفسه بخوف، وفكر: كم من الغباء أن يؤمن بهذه الخرافات... ويخاف من لا شيء.

كان أتباع أنجين سان قد نهضوا بالفعل، منحنيين قبل وقت طويل من وصوله. أما أنجين سان، فكان لا يزال جالسًا ينظر بكآبة بحزن إلى البحر. ناداه توراناغا بلطف: «أنجين سان».

أفاق بلاكتورن من تأملاته ونهض: «نعم يا سيدي؟ أعذر، هل تريد الحديث الآن؟».

- نعم. رجاءً. لقد جلبت تسوكو سان لأنني أريد أن نتحدث بوضوح. هل تفهم؟ بسرعة وبوضوح؟
- نعم.

لاحظ توراناغا ثبات عيني الرجل تحت ضوء المشاعل وإرهاقه التام. نظر إلى تسوكو سان وقال: «هل يفهم ما قلته؟».

راقب الكاهن وهو يتحدث، واستمع إلى اللغة التي بدت شريرة. أوما أنجين سان، ولم تتزعزع نظراته الاتهامية.

قال الكاهن: «نعم يا سيدي».

- الآن ترجم لي رجاءً يا تسوكو سان، كما فعلت سابقًا. كل شيء بالضبط: استمع يا أنجين سان، لقد جلبت تسوكو سان حتى نتمكن من التحدث مباشرة وسرعة دون أن يفوتنا معنى أي كلمة. الأمر مهم جدًا بالنسبة لي، لذا أطلب منك الصبر. أعتقد أن هذه أفضل طريقة.
- حسنًا يا سيدي.

- تسوكو سان، أقسم أولاً أمام إلهك المسيحي إن ما يقوله لن يخرج من شفطيك لأحد آخر. مثل الاعتراف. حسنًا؟ كما لو كان مقدسًا، لي وله.

- لكن يا سيدي، هذا ليس...

- هذا ما ستفعله. الآن. أو سأسحب دعمي كله عنك وعن كنيسة، إلى الأبد.

- حسنًا يا سيدي. أوافق. أمام الرب.

- جيد. شكرًا. اشرح له اتفاقك.

امتثل ألفيتو، ثم جلس تورانا على الكثبان الرملية ولوح بمروحة ليبعد الحشرات الليلية.

- الآن، رجاء أخبرني يا أنجين سان، ماذا حدث في أوساكا؟

بدأ بلاكتورن بتردد، ولكن تدريجيًا بدأ عقله يسترجع كل شيء، وسرعان ما تدفقت الكلمات، وكان الأب ألفيتو يجد صعوبة في مواكبة السرعة. استمع تورانا في صمت دون أن يقاطع التدفق، مضيفًا تشجيعًا حذرًا عند الحاجة، مستمعًا مثاليًا.

أنهى بلاكتورن حديثه عند الفجر. بحلول ذلك الوقت كان تورانا قد عرف كل شيء يمكن قوله... صحح لنفسه: كل شيء كان أنجين سان مستعدًا للكشف عنه. كان الكاهن يعلم ذلك أيضًا، لكن تورانا كان متأكدًا أنه لا يوجد في الأمر ما يمكن أن يستخدمه الكاثوليك أو كيما ضده أو ضد ماريكو أو ضد أنجين سان، الذي كان بالكاد يلاحظ الكاهن في هذه اللحظة.

سأل مجددًا: «أنت متأكد أن قائد الأسطول كان سيحرقك يا أنجين سان؟».

- نعم. لولا وجود اليسوعي. أنا هرطوقي في نظره... النار من المفترض أن «تنقي» روحك بطريقة ما.

- لماذا أنقذك الأب الزائر؟

- لا أعلم. شيء يتعلق بماريكو ساما. لا أستطيع أن أؤذيهم من دون سفينتي. لكنوا قد فكروا في ذلك بأنفسهم، ولكن ربما هي من أعطتهم فكرة عن كيفية القيام بذلك.

- أي فكرة؟ ما الذي قد تعرفه عن حرق السفن؟

- لا أعلم. النينجا دخلوا القلعة. ربما النينجا مروا عبر الرجال هنا. لقد تدمرت سفينتي. لقد رأت الأب الزائر في القلعة في اليوم الذي ماتت فيه. أعتقد أنها أخبرته كيف يحرق إيراسموس... مقابل حياتي. لكنني لا أملك حياة دون سفينتي يا سيدي. إطلاقًا.

قال تورانا جا في إشارة منه لينصرفا: «أنت مخطئ يا أنجين سان. شكرًا يا تسوكو سان. نعم، أقدر تعبك. رجاءً احصل على بعض الراحة الآن».

تردد ألفيتو: «نعم يا سيدي. شكرًا. أعتذر نيابة عن قائد الأسطول. يولد الإنسان في الخطية، ومعظمهم يبقى في الخطية رغم أنهم مسيحيون».

- المسيحيون يولدون في الخطية، أما نحن فلا. نحن قوم متحضرون نفهم ما الخطية حقًا، ولسنا فلاحين أميين لا يعرفون شيئًا. ومع ذلك يا تسوكو سان، لو كنت مكان قائد أسطولك لما تركت أنجين سان يذهب بينما هو في قبضتي. كان قرارًا عسكريًا، قرارًا جيدًا. أعتقد أنه سيعيش ليأسف لأنه لم يُصر... وكذلك سيفعل الأب الزائر.

- هل تريد مني أن أترجم ذلك يا سيدي؟

- كان ذلك لأذنيك. شكرًا لمساعدتك.

رد تورانا جا تحية الكاهن وأرسل رجالًا لمرافقته إلى منزله، ثم التفت إلى بلاكثورن وقال: «أنجين سان. لنسبح أولًا».

- عذرًا؟

- السباحة.

نزع تورانا جا ملابسه ونزل إلى الماء في ضوء الصباح المتزايد. تبعه بلاكثورن والحراس. سبح تورانا جا بقوة نحو البحر، ثم استدار ودار حول الحطام. جاء بلاكثورن بعده منتعشًا من البرودة. عاد تورانا جا بعد قليل إلى الشاطئ. كان الخدم قد أعدوا المناشف الآن وكيمنونو نظيفًا والشاي والساكي والطعام.

- كُل يا أنجين سان.

- أعتذر، لست جائعًا.

- كُل.

تناول بلاكثورن بعض اللقمات، ثم تقيأ.

- أعتذر.

- غبي. وضعيف. ضعيف مثل آكلي الثوم. ليس مثل هاتاموتو. أليس كذلك؟

- عذرًا؟

كرر تورانا جا كلامه بقسوة. ثم أشار إلى الحطام، وهو يعلم أنه الآن قد حصل على انتباه بلاكثورن بالكامل: «ذلك لا شيء. لا يوجد شيء يمكننا فعله. غير مهم. استمع: إن أنجين سان هاتاموتو، أليس كذلك؟ ليس أكل ثوم. هل فهمت؟».

- بلى، أعتذر.

أشار تورانا جا إلى حارسه الشخصي الذي سلمه اللقافة المختومة. قال: «استمع يا أنجين سان، قبل أن تغادر ماريكو ساما إيدو، أعطتني هذه. ماريكو ساما قالت إذا عشتَ بعد أوساكا -إذا عشت، هل فهمت- طلبت مني أن أعطيك هذه».

أخذ بلاكثورن اللقافة المقدمة له، وبعد لحظة، كسر الختم.

سأل تورانا جا: «ماذا تقول الرسالة يا أنجين سان؟».

كتبت ماريكو باللاتينية: «أنت. أنا أحبك. إذا كنت تقرأ هذه، فهذا يعني أنني قد مت في أوساكا، وربما بسببي سفينتك مية أيضاً. قد أضحي بأثمن جزء من حياتك من أجل إيماني، لحماية كنيستي، ولكن أكثر من ذلك لإنقاذ حياتك التي هي أغلى عندي من كل شيء... حتى من مصلحة زعمي تورانا جا. قد يأتي وقت الاختيار يا حبيبي: أنت أو سفينتك. أعتذر، ولكني أختار الحياة لك. هذه السفينة هالكة على أي حال... سواء معك أو دونك. سأعطي سفينتك لعدوك حتى تعيش. هذه السفينة لا شيء. ابن أخرى. هذا يمكنك فعله... ألم تُدرّب على بناء سفن كما تدرّبت على أن تكون ملاحاً؟ أعتقد أن الزعيم تورانا جا سيعطيك كل الحرفيين والنجارين وصانعي المعادن اللازمين -هو يحتاجك أنت وسفنتك- ومن ممتلكاتي الخاصة قد وصيت لك بكل المال اللازم. ابن سفينة أخرى وابن حياة أخرى يا حبيبي. خذ السفينة السوداء للعام القادم، وعش إلى الأبد. استمع يا حبيبي، روعي المسيحية تصلي لرؤيتك مجدداً في الجنة المسيحية... والهارا اليابانية الخاصة بي تصلي أن أصبح في الحياة المقبلة أي شيء يمنحك السعادة وأن أكون معك أينما كنت. سامحني... لكن حياتك هي الأهم. أحبك».

- ماذا تقول الرسالة يا أنجين سان؟

- أعتذر يا سيدي. ماريكو ساما تقول إن هذه السفينة غير ضرورية. تقول ابن سفينة جديدة. تقول...
- هل هذا ممكن؟ هل هذا ممكن يا أنجين سان؟
- رأى بلاكتورن الاهتمام في عيني الدايميو وقال: «نعم. إذا حصلت على...». لم يستطع تذكر كلمة نجار.
- إذا أعطاني تورانا ساما رجالاً، رجال بناء السفن، حسنًا؟ نعم. أستطيع.
- بدأت السفينة الجديدة تتشكل في ذهنه. أصغر، أصغر بكثير من إيراسموس. نحو تسعين إلى مائة طن سيكون كل ما يمكنه تدبيره، لأنه لم يشرف أو يصمم سفينة كاملة بنفسه من قبل، رغم أن ألبان كارادوك قد دربه بالتأكيد كنجار سفن كما دربه كربان. ابتهج: بارك الرب يا ألبان. نعم، يمكننا البدء بتسعين طنًا. كانت سفينة جولدن هيند التابعة لدريك بمثل هذا الحجم، وتذكر ما استطاعت تحمله. يمكنني وضع عشرين مدفعًا على متنها، وهذا سيكون كافيًا لـ... قال: «يا يسوع المسيح، المدافع».
- استدار ونظر إلى الحطام، ثم رأى تورانا وكلهم ينظرون إليه وأدرك أنه كان يتحدث بالإنجليزية معهم. قال: «أعتذر يا سيدي. أفكر بسرعة كبيرة. أسلحة كبيرة... هناك، في البحر، أليس كذلك؟ يجب أن نحصل عليها بسرعة».
- تحدث تورانا إلى رجاله، ثم التفت إلى بلاكتورن مجددًا وقال: «الساموراي يقولون إن كل شيء من السفينة موجود في المعسكر. بعض الأشياء أخرجت من البحر، المياه الضحل، هنا عند المد المنخفض، حسنًا؟ الآن في المعسكر. لماذا؟».
- شعر بلاكتورن بالدوار: «يمكننا صنع السفينة. إذا كان لدينا أسلحة كبيرة، يمكننا قتال العدو. هل يمكن لتورانا ساما الحصول على البارود؟».
- نعم. كم من النجارين؟ كم تحتاج؟
- أربعون نجارًا وحدادين، وخشب البلوط للأعمدة، هل لديكم خشب بلوط هنا؟ ثم سأحتاج إلى الحديد، الفولاذ، سأقيم ورشة حدادة وأحتاج إلى معلم... (أدرك بلاكتورن أنه كان يتحدث بالإنجليزية مجددًا): أعتذر. سأكتب على الورق. بحذر. وأفكر بحذر. رجاء، هل يمكنك إعطائي رجالًا للمساعدة؟

- جميع الرجال، جميع المال. في الحال. أحتاج إلى السفينة. في الحال. كم من الوقت ستحتاج لبنائها؟
- ستة أشهر من اليوم الذي نضع فيه العارضة.
- ليس أسرع؟
- لا، أعذر.
- لننتحدث أكثر لاحقًا يا أنجين سان. ماذا قالت ماريكو ساما أيضًا؟
- قليلًا يا سيدي. قالت إنها ستعطيني المال لمساعدة السفينة، مالها. قالت أيضًا أسفة إذا... إذا ساعدت عدوي في تدمير السفينة.
- أي عدو؟ بأي طريقة تدمر السفينة؟
- لم تذكر من... أو كيف يا سيدي. لم يكن شيء واضحًا. فقط أسفة إذا. ماريكو ساما قالت: الوداع. أمل أن يخدم السيوكو الزعيم توراناغا.
- نعم، يخدم كثيرًا، أليس كذلك؟
- بلى.
- ابتسم توراناغا له: «سعيد أن كل شيء على ما يرام الآن يا أنجين سان. ماريكو ساما كانت على حق. لا تقلق بشأن ذلك. (أشار توراناغا إلى الحطام): ابن السفينة الجديدة في الحال. سفينة قتال، حسنًا؟ هل فهمت؟».
- فهمت تمامًا.
- هذه السفينة الجديدة... هل يمكن لهذه السفينة الجديدة أن تقاتل السفينة السوداء؟
- نعم.
- السفينة السوداء للعام القادم؟
- ممكن.
- ماذا عن الطاقم؟
- عذرًا؟
- أفراد الطاقم... المدفعية؟
- بحلول العام المقبل، يمكنني تدريب أتباعي كمدفعية. ليس كبجارة.
- يمكنك أن تختار من أفضل البجارة في الكانتو.

ابتسم بلاكتورن: «إذن العام المقبل ممكن. هل العام المقبل ممكن؟ الحرب؟ ماذا عن الحرب؟».

هز تورانا جا كتفيه: «حرب أو لا حرب... سنحاول، أليس كذلك؟ هذه هي فريستك... هل تفهم كلمة «فريسة»؟ وسرُّنا. بينك وبينني فقط، حسنًا؟ السفينة السوداء».

- سيكشف الكهنة السرَّ قريبًا.

- ربما. لكن هذه المرة لا موجة مد أو تيفون يا صديقي. ستراقب وأنا سأراقب.

- نعم.

- أولًا السفينة السوداء، ثم عد إلى الوطن. أحضر لي أسطولًا. هل فهمت؟

- نعم.

- إذا خسرتُ... كارما. وإذا لا، فكل شيء يا أنجين سان. كل شيء كما قلت. كل شيء... السفينة السوداء، السفير، المعاهدة، السفن. هل فهمت؟

- نعم. نعم. شكرًا لك.

- اشكر ماريكو ساما. دونها...

حيَّاه تورانا جا بحرارة، للمرة الأولى كندُّ له، ثم ذهب مع حراسه. انحنى أتباع بلاكتورن، متأثرين تمامًا بالشرف الذي أُعطي لسيدهم.

راقب بلاكتورن تورانا جا وهو يغادر بابتهاج، ثم رأى الطعام. بدأ الخدم في جمع بقايا الطعام.

- انتظروا. الآن الطعام، رجاء.

أكل بحذر، ببطء وبأدب، ورجاله يتشاجرون على شرف خدمته، وزهنه يستعرض كل الإمكانات الهائلة التي فتحها له تورانا جا. قال لنفسه: لقد فزت. كان يرغب في رقص رقصة البحارة بفرح. لكنه لم يفعل. قرأ رسالتها مجددًا. وباركها مجددًا.

أمر: «اتبعني».

وقاد الطريق نحو المعسكر، وعقله يصمم السفينة بالفعل وفتحات المدافع الخاصة بها. يا يسوع المسيح في السماء، ساعد تورانا جا على إبقاء إيشيدو

بعيدًا عن الكانتو وإيزو، وبارك ماريكو أينما كانت، وأرجو ألا تكون المدافع قد صدئت كثيرًا. كانت ماريكو على حق: إيراسموس هالكة، سواء معي أو دوني. لقد أعادت لي حياتي. أستطيع بناء حياة جديدة وسفينة جديدة. تسعون طنًا. ستكون سفينتي منصة قتال عائمة حادة الأنف، مصقولة ككلب صيد، أفضل من فئة إيراسموس، والدقل المائل يبرز بتحدٍّ وتمثال جميل في مقدمة السفينة أسفله، ووجهها سيبدو مثلها، بعينيها المائلتين الجميلتين وعظام وجنتيها المرتفعة. سفينتي... يا إلهي، يوجد طن من الأشياء التي يمكنني إنقاذها من الحطام. يمكنني استخدام جزء من العارضة وبعض الأضلاع... وسيكون هناك آلاف المسامير حولها، وبقية العارضة ستصنع الروابط والدعامات وكل ما أحтаجه... إذا كان لدي الوقت.

وعد نفسه: نعم. ستكون سفينتي مثلها، ستكون متقنة وصغيرة ومثالية مثل سيف يوشيتومو، وهذا هو الأفضل في العالم، وستكون خطرة مثلها. العام القادم ستنال جائزة يفوق وزنها عشرين مرة، كما فعلت ماريكو في أوساكا، وستقتلع العدو من آسيا. ثم في العام التالي أو الذي يليه، سأبحر بها إلى نهر التايمز في لندن، وجيوبها مليئة بالذهب والبحار السبعة في أعقابها. قال بصوت عالٍ: «سيكون اسمها «السيدة»».

الفصل الحادي والستون

بعد فجرين، كان توراناغا يتفحص أربطة سرجه. ضغط بركبته على بطن الحصان بحركة ماهرة، فاسترخت عضلاته، مما أتاح له شد الحزام لثقبين إضافيين. فكر: يا لهذا الحيوان الفاسد، كان يحتقر الخيول لخداعها الدائم وغدرها وعصبيتها وتقلب مزاجها وخطورتها. هذا أنا، يوشي توراناغا نو تشيكيتادا نو مينووارا، ولستُ طفلاً ساذجاً. انتظر لحظة ثم ضغط بركبته بقوة مجدداً، فتذمر الحصان وحرك لجامه، فشد توراناغا الحزام بالكامل.

قال سيد الصيد بإعجاب: «أحسننت يا سيدي. جيد جداً. كان الكثيرون سيكتفون بالمرّة الأولى».

كان رجلاً مسنّاً، وقوياً وقاسياً كوعاء مخلل عتيق.

- إذن لكان سرج الفارس قد انزلق ولسقط الأحمق وربما انكسر ظهره قبل الظهيرة، أليس كذلك؟

ضحك الساموراي: «بلى، وسيستحقون ذلك يا سيدي».

حولهم في منطقة الإسطبل، كان الحراس والصقارون يحملون صقورهم وشواهينهم المقنعة. كان تيتسو كو -الشاهين- تحتل مكان الشرف، وكانت كوجو الباز التي تتضاءل أمامها وهي وحدها غير مقنعة، عيناها الذهبيتان القاسيتان تتفحصان كل شيء.

تقدم ناجا بحصانه: «صباح الخير يا أبي».

- صباح الخير يا بني. أين أخوك؟

- الزعيم سودارا ينتظر في المعسكر يا سيدي.

- جيد.

ابتسم توراناغا للشاب، ولأنه كان يحبه، جذبه جانباً وقال: «اسمع يا بني، بدلاً من الذهاب إلى الصيد، اكتب أوامر المعركة لأوقعها عند عودتي هذا المساء».

قال ناجا وهو يغمره الفخر لشرف استلامه رسمياً القفاز الذي ألقاه إيشيدو بخط يده. تنفيذاً لقرار مجلس الحرب بالأمس بإرسال الجيوش نحو المعابر: «يا أبي، شكرًا، شكرًا جزيلاً».

- التالي: تُؤمّر كتيبة البنادق بالتوجه إلى هاكوني عند فجر الغد. التالي: قطار الأمتعة القادم من إيدو سيصل بعد الظهر. تأكد أن كل شيء جاهز.

- نعم، بالتأكيد. متى سنبدا القتال؟

- قريبًا جدًا. تلقيت الليلة الماضية خبرًا بأن إيشيدو والوريث غادرا أوساكا لمراجعة الجيوش. لذا المسألة محسومة الآن.

- أرجو أن تسامحني لأنني لا أستطيع الطيران إلى أوساكا مثل تيتسو كو لأقتله هو وكياما وأونوشي، وأنهى هذا الأمر دون أن أشغلك به.

- شكرًا لك يا بني.

لم يزعج توراناغا نفسه بإخباره عن المشكلات الهائلة التي يجب حلها قبل أن تصبح تلك الاغتيالات واقعًا. ألقى نظرة حوله. كان جميع الصقارين جاهزين، وكذلك الحراس. نادى سيد الصيد: «أولًا، سأذهب إلى المعسكر، ثم سنسلك طريق الساحل لمسافة أربعة ري شمالًا».

- لكن قد جهزنا الصيادين بالفعل في التلال...

ابتلع سيد الصيد بقية شكواه وحاول التراجع: «أرجو المعذرة، ربما... ربما أكلت شيئًا فاسدًا يا سيدي».

قال توراناغا: «هذا واضح. ربما يجب أن تسلم مهامك لشخص آخر. ربما بواسيرك أثرت على حكمك، أعذر».

ولم يكن يستخدم الصيد كغطاء، لكن قد استبدله فورًا: «أليس كذلك؟».

قال الساموراي المسن: «بلى، أعذر يا سيدي. هل لي أن أسأل... هل ترغب بالصيد في المناطق التي اخترتها البارحة أم أنك... تفضل الصيد على الساحل؟».

- الساحل.

- بالتأكيد يا سيدي. أرجو المعذرة لأجري التغيير.

أسرع الرجل مبتعدًا، وظل تورانا جا يراقبه. فكر دون حقد: حان وقت تقاعده. ثم لاحظ قدوم أومي إلى مجمع الإسطبل برفقة ساموراي شاب يعرج بوضوح، وجرح سكين قاسٍ ما زال واضحًا على وجهه من معركة أوساكا. رد التحية وقال: «يا أومي سان، أهذا هو الرجل؟».

- نعم يا سيدي.

أخذ تورانا جا الاثنين جانبًا واستجوب الساموراي بمهارة. فعل ذلك بدافع المجاملة لأومي، رغم أنه قد توصل بالفعل إلى النتيجة نفسها عندما تحدث إلى الرجل في الليلة الأولى، تمامًا كما كان لبقًا مع أنجين سان حينما سأله عما ورد في رسالة ماريكو، رغم معرفته مسبقًا بما كتبتة.

كان قد قال قبل أن تغادر إيدو إلى أوساكا: «لكن رجاءً عبري عن ذلك بكلماتك الخاصة يا ماريكو سان».

- أنني سأعطي سفينته لعدوه يا سيدي؟

قال بينما عيناها تمتلئان بالدموع: «لا يا سيدتي. لا. أكرر: عليك أن تهتمي بالأسرار التي أخبرتني إياها لتسوكو سان في الحال هنا في إيدو، ثم للكاهن الأعلى وكياما في أوساكا، وأخبريهم جميعًا أن أنجين سان لا يشكل تهديدًا لهم من دون سفينته. واكتبي الرسالة لأنجين سان كما اقترحتُ عليك الآن».

- إذن سيدمرون السفينة.

- سيحاولون بالطبع. بالتأكيد سيصلون إلى نفس النتيجة بأنفسهم، لذلك أنتِ لا تفشين شيئًا فعلًا، أليس كذلك؟

- هل تستطيع حماية سفينته يا سيدي؟

- سيحرسها أربعة آلاف ساموراي.

- ولكن إذا نجحوا... فإن أنجين سان لن يساوي شيئًا دون سفينته. أرجوك، أتوسل من أجل حياته.

- لست بحاجة إلى ذلك يا ماريكو سان. أؤكد لك أنه ذو قيمة بالنسبة لي، سواء كان لديه سفينة أم لا. أعدك بذلك. وأيضًا في رسالتك إليه، أخبريه إنه في حال فقدت سفينته، رجاءً ابن واحدة أخرى.

- ماذا؟

- أخبرتني أنه يستطيع ذلك، أليس كذلك؟ أنت متأكدة؟ إذا زودته بكل النجارين وعمال المعادن؟
- نعم، بالطبع. كم أنت ذكي! نعم، لقد قال لي مرارًا إنه كان بناءً سفنٍ مُدربًا...
- هل أنت متأكدة تمامًا يا ماريكو سان؟
- نعم يا سيدي.
- جيد.
- إذن تعتقد أن الآباء المسيحيين سينجحون، حتى أمام أربعة آلاف رجل؟
- نعم. أعتذر، لكن المسيحيين لن يتركوا السفينة على حالها أو هو حيًا، ما دامت عائمة وقادرة على الإبحار. إنها تشكل تهديدًا كبيرًا لهم. هذه السفينة هالكة، لذا لا بأس من منحها لهم. لكن فقط أنت وأنا نعلم أن أمله الوحيد هو بناء أخرى. أنا الوحيد الذي يمكنه مساعدته في ذلك. جلي لي مشكلة أوساكا وسأتأكد من أنه سيبنى سفينته.
- فكر توراناغا: لقد أخبرتها الحقيقة، هنا عند الفجر في يوكوهاما، بين روائح الخيول والروث والعرق، وأذناه بالكاد تستمعان الآن إلى الساموراي الجريح وأومي، بينما كيانه كله يشعر بالحزن على ماريكو. قال لنفسه: الحياة حزينه جدًا، لقد أنهكه الرجال وأوساكا والألعاب التي تجلب كل هذا العناية للأحياء، مهما عظمت المكاسب.
- قال بينما أنهى الساموراي كلامه: «شكرًا لك على إخباري يا كوسامي، لقد قمت بعمل جيد. تفضلًا بالمجيء معي، كلاكما».
- عاد توراناغا إلى حصانه وضغط عليها بركبته للمرة الأخيرة. هذه المرة سهلت لكنه لم يستطع شد الحزام أكثر. قال دون أن يوجه كلامه لأحد: «الخيول أسوأ من البشر بكثير في الخيانة».
- امتطى السرج وانطلق، يتبعه حراسه وأومي وكوسامي.
- توقف عند المخيم على الهضبة. كان بونتارو هناك بجانب يابو وهيرو ماتسو وسودارا، وعلى قبضته صقر باز. حيّوه. قال بمرح، مشيرًا إلى أومي للانضمام إلى حديثهم، بينما أمر الآخرين بالابتعاد: «صباح الخير، هل أنت مستعد يا بني؟».

قال سودارا: «نعم يا أبي. لقد أرسلت بعض رجالي إلى الجبال للتأكد من أن الصيادين جاهزون لك تمامًا».

- شكرًا لك، لكنني قررت الصيد على الساحل.

على الفور، نادى سودارا على أحد الحراس وأرسله مسرعًا لاستدعاء الرجال من التلال ونقلهم إلى الساحل. قال: «أعذر يا سيدي، كان يجب أن أفكر في ذلك وأكون مستعدًا. أرجو المعذرة».

- نعم. إذن يا هירו ماتسو سان، كيف حال التدريبات؟

قطب هירו ماتسو جبينه، وسيفه المرتخي بين يديه، قال: «ما زلت أعتقد أن كل هذا غير مشرف وغير ضروري. قريبًا سنتمكن من نسيانه. سنهزم إيشيدو دون الحاجة إلى هذا النوع من الخيانة».

قال يابو: «أرجو المعذرة، لكن من دون هذه البنادق وهذه الاستراتيجية يا هירו ماتسو سان، سنخسر. هذه حرب حديثة، وبهذه الطريقة لدينا فرصة للانتصار». ثم نظر إلى توراناغا الذي لم يترجل بعد من حصانه. «سمعت في الليل أن جيكيو مات».

تظاهر توراناغا بالدهشة: «هل أنت متأكد؟».

كان قد حصل على المعلومة السرية في اليوم الذي غادر فيه ميشيما. قال يابو بشماتة واضحة: «نعم يا سيدي. يبدو أنه كان مريضًا لبعض الوقت. أفاد مخبري بأنه مات منذ يومين. وريثه ابنه، هيكوجو».

قال بونتارو بازدرء: «ذلك الجرو؟».

بدا يابو أطول من المعتاد: «نعم... أوافق أنه لا يعدو كونه جروًا. يا سيدي، ألا يفتح هذا الطريق الجنوبي؟ لماذا لا نهاجم على طول طريق توكايدو في الحال؟ مع وفاة ذلك الثعلب العجوز، أصبحت إيزو آمنة الآن، وسوروجا وتوتومي ضعيفتان كسَمكِ التونة الجاف. أليس كذلك؟».

ترجل توراناغا بتفكير وسأل هירו ماتسو بهدوء: «حسنًا؟».

أجاب القائد المسن على الفور: «إذا تمكنا من السيطرة على الطريق وصولًا إلى ممر أوتسونيا وجميع الجسور ونعبر نهر تينريو بسرعة -مع تأمين جميع اتصالاتنا- فسنتمكن من اختراق إيشيدو. يمكننا احتواء زاتاكي

في الجبال وتعزيز الهجوم عبر توكايدو والانطلاق نحو أوساكا. سنصبح لا نُهزم».

قال سودارا: «ما دام الوريث يقود جيوش إيشيدو، فنحن معرضون للهزيمة».

قال هيرو ماتسو: «لا أوافقك الرأي».

قال يابو: «ولا أنا، أعذر».

قال توراناغا بجدية تامة كتلك التي أبدأها سودارو: «لكني أوافق».

لم يكن قد أخبرهم بعد عن الاتفاق المحتمل مع زاتاكي لخيانة إيشيدو في الوقت المناسب. فكر: لماذا يجب أن أخبرهم؟ الأمر لم يصبح حقيقة. بعد.

لكن كيف تنوي تنفيذ اتفاقك الرسمي مع أخيك غير الشقيق على الزواج بأوتشيبا إذا دعمك، وفي الوقت نفسه الزواج بأوتشيبا بنفسك، قال لنفسه: إذا كان هذا ثمنها؟ إنه سؤال عادل. لكن من غير المرجح أن تخون أوتشيبا إيشيدو. وإن فعلت وكان هذا هو الثمن، فالجواب بسيط: سيضطر أخي إلى الرضوخ للأمر الواقع.

رأهم جميعًا ينظرون إليه.

- ماذا؟

ساد الصمت، ثم قال بونتارو: «ماذا سيحدث يا سيدي، إذا واجهنا راية الوريث؟».

لم يسبق لأحد منهم أن طرح هذا السؤال رسميًا ومباشرةً وعلانيةً. قال توراناغا: «إذا حدث ذلك، فسأخسر. سأنفذ السيوكو، ومن يحترم وصية التايكو والإرث الشرعي للوريث يجب أن يقدم نفسه بتواضع لطلب عفوه على الفور. ومن لا يفعل، لن يكون له شرف. أليس كذلك؟».

أومأوا جميعًا. ثم التفت إلى يابو لإتمام الأمر، وعاد إلى طبيعته المرحية: «على أي حال، لم نصل إلى الميدان بعد، لذا نستمر وفق الخطة. نعم يا يابو ساما، الطريق الجنوبي ممكن الآن. مم مات جيكيو؟».

- مرض يا سيدي.

- مرض بقيمة خمسمائة كوكو؟

ضحك يابو، لكنه في داخله كان غاضباً لأن تورانا جا قد اخترق شبكته الأمنية. قال: «نعم، أفترض ذلك يا سيدي. هل أخبرك أخي؟».

أوماً تورانا جا وطلب منه أن يشرح للآخرين. امتثل يابو بسرور، فقد كانت حيلة بارعة وماكرة، وأخبرهم كيف قام ميزونو شقيقه بتسليم المال الذي حصل عليه من أنجين سان إلى مساعد طاهٍ زرع في المطبخ الخاص بجيكيو.

قال يابو بسعادة: «رخيص، أليس كذلك؟ خمسمائة كوكو للطريق الجنوبي؟».

قال هيرو ماتسو لتورانا جا بصرامة: «أرجو المعذرة، لكنني أرى أن هذه قصة مقفزة».

ابتسم تورانا جا وقال: «الخيانة سلاح من أسلحة الحرب، أليس كذلك؟».

- بلى، لكنها ليست من شيم الساموراي.

شعر يابو بالسخط وقال: «عذراً يا زعيم هيرو ماتسو، لكنني أفترض أنك لا تقصد الإساءة؟».

قال تورانا جا: «لم يقصد الإساءة، أليس كذلك يا هيرو ماتسو سان؟».

أجاب القائد العجوز: «نعم يا سيدي. أرجو المعذرة».

قال تورانا جا: «لطالما كان السم والخيانة والغدر والاغتيال أسلحة في الحروب يا صديقي القديم. كان جيكيو عدواً وأحمق. خمسمائة كوكو للطريق الجنوبي لا تعني شيئاً. لقد خدمني يابو ساما جيداً. هنا وفي أوساكا، أليس كذلك يا يابو سان؟».

- أحاول دائماً أن أخدمك بولاء يا سيدي.

قال تورانا جا: «نعم، لذا أرجو أن تشرح لي لماذا قتلت القائد سوميوري قبل هجوم النينجا».

لم تتغير ملامح يابو. كان يحمل سيف يوشيتومو ويده مرخية على المقبض كالمعتاد. قال: «من يقول ذلك؟ من يتهمني بذلك يا سيدي؟».

أشار تورانا جا إلى مجموعة من الساموراي البنين على بعد ثلاثين متراً. وقال: «ذلك الرجل. رجاءً تعال إلى هنا يا كوسامي سان».

ترجل الساموراي الشاب الذي كان يعرج، وتقدم بانحناءة.

حدق يابو إليه وقال: «من أنت يا فتى؟».

قال الشاب: «سوكورا كوسامي من الفيلق العاشر، مُلحق بحراسة السيدة كيريتسوبو في أوساكا يا سيدي. لقد وضعتني للحراسة خارج غرفتك -وغرفة سوميوري سان- في ليلة هجوم النينجا».

- لا أذكرك. هل تجرؤ على القول إنني قتلت سوميوري؟
تردد الشاب. قال توراناغا: «أخبره».

قال كوسامي بسرعة: «لقد كان لدي الوقت قبل أن يهجم النينجا يا سيدي، لأفتح الباب وأصرخ لتحذير سوميوري سان، لكنه لم يتحرك. أعذر يا سيدي». ثم التفت إلى توراناغا متوترًا تحت وقع نظراتهم الجماعية. «لقد... كان نومه خفيفًا يا سيدي، وكان ذلك بعد لحظة فقط... هذا كل شيء يا سيدي». ضغط يابو عليه: «هل دخلت الغرفة؟ هل أيقظته؟».

- لا يا سيدي، لم أفعل يا سيدي، جاء النينجا بسرعة، فتراجعنا فورًا وهاجمناهم بأسرع ما يمكن، كان كما قلت...
نظر يابو إلى توراناغا: «لقد كان سوميوري سان في الخدمة لمدة يومين. كان منهكًا... جميعنا كنا كذلك» سألهم جميعًا: «ماذا يثبت ذلك؟».
وافق توراناغا، وظل ودودًا: «لا شيء. ولكنك عدت إلى الغرفة لاحقًا، أليس كذلك يا كوسامي سان؟».

- بلى يا سيدي، كان سوميوري سان لا يزال مستلقيًا على الفوتون كما رأيته آخر مرة... ولم تكن الغرفة مضطربة، على الإطلاق يا سيدي، وكان قد طُعن في ظهره مرة واحدة. كنت أظن أنه نينجا في ذلك الوقت ولم أفكر في الأمر حتى سألني أومي ساما.
التفت يابو إلى ابن أخيه، مركزًا كل انتباهه على خائنه لقياس المسافة بينهما: «إذن استجوبته؟».

أجاب أومي: «نعم يا سيدي، طلب مني الزعيم توراناغا إعادة التحقق من جميع القصص. وهذا أمر غريب شعرت أنه ينبغي إطلاع سيدنا عليه».
- أمر غريب؟ هل يوجد آخر؟

- اتبعت أوامر الزعيم توراناغا واستجوبت الخدم الذين نجوا من الهجوم يا سيدي. وكان هناك اثنان فقط. عذرًا، لكن قال كلاهما إنك دخلت

غرفهم مع ساموراي واحد وُعِدَت بعد ذلك بوقت قصير وحدك، وأنت تصرخ «نينجا» وبعد ذلك...

- لقد هاجمونا وقتلوا الرجل المسكين برمح وسيف وكادوا يسيطرون عليّ. كان عليّ التراجع لإعطاء الإنذار.

ثم التفت إلى توراناغا محاولاً بعناية وضع قدميه في وضعية أفضل للهجوم: «لقد أخبرتك بالفعل هذا يا سيدي، شخصياً وفي تقريرتي المكتوب. ما علاقة الخدم بي؟».

قال توراناغا: «حسنًا يا أومي سان؟».

قال أومي: «عذرًا يا يابو ساما، لكن رآك كليهما وأنت تفتح مزاليج باب سري في القبو وسمعوك تقول للنينجا: «أنا كاسيجي يابو». وهذا وحده أعطاهم الوقت للاختباء من المجزرة».

تحركت يد يابو قليلاً. وعلى الفور قفز سودارا أمام توراناغا لحمايته، وفي اللحظة نفسها كان سيف هيرو ماتسو يومض باتجاه رقبة يابو. أمر توراناغا: «توقف».

توقف سيف هيرو ماتسو بسيطرة مذهلة. لم يقم يابو بأي حركة واضحة. نظر إليهم جميعاً ثم ضحك بسخرية. وقال: «هل أنا رونين قدر يهاجم زعيمه الإقطاعي؟ هذا كاسيجي يابو، زعيم إيزو وسوروجا وتوتومي. أليس كذلك؟». نظر مباشرة إلى توراناغا. «ما التهمة التي توجه إليّ يا سيدي؟ مساعدة النينجا؟ هذا سخيف. ما علاقة خيالات الخدم بي؟ إنهم كاذبون. أو هذا الفتى... الذي يلمح إلى شيء لا يمكن إثباته ولا أستطيع الدفاع عنه؟».

قال توراناغا: «لا يوجد دليل يا يابو ساما. أتفق معك تمامًا. لا يوجد أي دليل على الإطلاق».

سأل هيرو ماتسو: «يابو ساما، هل فعلت تلك الأشياء؟».

- بالطبع لا.

قال توراناغا: «لكنني أعتقد أنك فعلت، لذا فإن جميع أراضيكم مُصادرة. رجاءً شق بطنك اليوم، قبل الظهر».

كان الحكم نهائياً. كانت هذه هي اللحظة العظمى التي كان يابو قد استعد لها طوال حياته.

كان يفكر وعقله يعمل بسرعة جنونية: إنها الكارما. لا يوجد شيء يمكنني فعله، الأمر قانوني، تورانا جا هو زعيم الإقطاعي، يمكنهم قطع رأسي أو يمكنني الموت بكرامة. أنا ميت في كل الأحوال. أومي خانني ولكن هذه هي الكارما الخاصة بي. كان يجب قتل الخدم جميعهم كجزء من الخطة، لكن اثنين منهم نجوا، وهذه هي الكارما الخاصة بي. قال لنفسه ملتصمًا الشجاعة: كن جليلاً. فكر بوضوح وكن مسؤولاً.

بدأ بإظهار الجرأة: «سيدي، أولاً: أنا بريء من تلك الجرائم، كوسامي مخطئ، والخدم كاذبون. ثانياً: أنا أفضل قائد معارك لديك. أطلب شرف قيادة الهجوم على طريق توكايدو - أو أول مكان في المعركة الأولى - حتى يكون موتي ذا فائدة مباشرة».

قال تورانا جا بلهجة ودية: «هذا اقتراح جيد يا يابو سان، وأتفق تمامًا على أنك أفضل قائد لكتيبة البنادق، لكنني آسف، لا أثق بك. رجاءً شق بطنك قبل الظهر».

سيطر يابو على غضبه القوي وأوفى بشرفه كساموراي وكقائد لعشيرته بتضحيته الكاملة. قال: «أنا أعفي رسمياً ابن أخي كاسيجي أومي سان من أي مسؤولية في خيانتني، وأعينه رسمياً وريثاً لي».

فوجئ تورانا جا مثل الجميع.

قال تورانا جا: «حسنًا، أعتقد أن هذا حكيم جدًا. أوافق».

- إيزو هي الإقطاعية الوريثة لعشيرة كاسيجي. سأورثها له.
- إيزو لم تعد ملكًا لك لتورثها. أنت تابعي، أليس كذلك؟ إيزو هي إحدى مقاطعاتي، وأنا أمنحها لمن أشاء، حسنًا؟
هز يابو كتفيه: «سأورثها له، حتى وإن...». ضحك. «إنه معروف الحياة. أليس كذلك؟».

- الطلب عادل. ولكن طلبك مرفوض. ويا يابو سان، جميع أوامرك النهائية تخضع لموافقتي. بونتارو سان، ستكون الشاهد الرسمي. الآن يا يابو سان، من تريد أن يكون مساعدك؟

- كاسيجي أومي سان.

ألقي تورانا جا نظرة على أومي الذي انحنى بوجه شاحب وقال: «سيكون شرفاً لي».

- جيد. إذن كل شيء مرتب.

قال هيرو ماتسو: «وماذا عن الهجوم على طريق توكايدو؟».

- نحن أكثر أمانًا خلف جبالنا.

رد توراناغا التحية بكل بساطة، ثم امتطى حصانه وانطلق.

أوماً سودارا بانحناءة مهذبة وتبعهم. حالما ابتعد توراناغا وسودارا، استرخى بونتارو وهيرو ماتسو، ولكن أومي لم يسترخ، ولم يبعد أحد نظره عن ذراع يابو التي تحمل السيف.

قال بونتارو: «أين تريد أن تفعلها يا يابو ساما؟».

- هنا، أو هناك، أو على الشاطئ، أو فوق كوم من الروث... كلها سواء لي. لا أحتاج إلى ملابس احتفالية. ولكن يا أومي سان، لن تضرب حتى أجري الشقين.

- حسنًا يا سيدي.

قال هيرو ماتسو: «بعد إذنك يا يابو سان، سأكون شاهدًا أيضًا».

- هل حالتك الصحية تسمح بذلك؟

استشاط القائد غضبًا وقال لبونتارو: «رجاءً استدعيني عندما يصبح جاهزًا».

بصق يابو وقال: «أنا جاهز بالفعل. هل أنت مستعد؟».

استدار هيرو ماتسو على عقبيه.

فكر يابو للحظة ثم سحب سيفه يوشيتومو من حزامه: «بونتارو سان، ربما تقدم لي معروفًا. أعط هذا لأنجين سان». قدم له السيف، ثم عبس. «في الواقع، إذا لم يكن هناك إزعاج، هل يمكنك أن تستدعيه، حتى أتمكن من منحه إياه بنفسه؟».

- بالطبع.

- وأرجو أن تستدعي ذلك الكاهن النتن أيضًا حتى أتمكن من التحدث مباشرة مع أنجين سان.

- حسنًا. ما الترتيبات التي تريد القيام بها؟

قال يابو بتبجح: «فقط بعض الورق والحبر وفرشاة لكتابة وصيتي وقصيدة موتي، واثنان من القاتامي... لا يوجد سبب لإيذاء ركبتني أو أن أجثو في التراب مثل فلاح قذر. أليس كذلك؟».

توجه بونتارو نحو الساموراي الآخرين الذين كانوا يتنقلون من قدم إلى أخرى محاولين إخفاء حماسهم. جلس يابو بغير اكتراث متربعا وبدأ في تنظيف أسنانه مستخدماً ساق عُشب. جلس أومي القرفصاء بالقرب منه، بعيداً عن نطاق السيف بحذر.

قال يابو: «كنت قريباً جداً من النجاح». ثم مد ساقيه وضربهما بالأرض في اندفاع مفاجئ من الغضب. «قريب جداً. إنها الكارما، أليس كذلك؟ الكارما». ثم ضحك ضحكاً هستيرياً وبصق، فخوراً بأنه لا يزال يملك اللعاب في فمه. «هذا لكل الآلهة، الحية أو الميتة أو التي لم تولد بعد. ولكن يا أومي سان، أنا أموت سعيداً. جيكيو مات، وعندما أعبّر النهر الأخير وأراه هناك ينتظرني غاضباً، سأتمكن من البصق في عينه إلى الأبد».

قال أومي وهو يعني ما يقوله، رغم أنه كان يراقبه كالصقر: «لقد قدمت خدمة عظيمة للزعيم توراناغا يا سيدي. الطريق الساحلي أصبح الآن مفتوحاً. أنت محق يا سيدي، والقبضة الحديدية مخطئ وسودارا مخطئ. يجب أن نهاجم في الحال... الأسلحة ستساعدنا في المرور».

ضحك يابو مجدداً: «ذلك العجوز المتعفن، أحمق. هل رأيتَه يتحول إلى اللون الأرجواني عندما ذكرت صحته؟ كنت أظن أنه سينهار هناك في الحال. ساموراي؟ أنا ساموراي أكثر منه. سأريه. لن تضرب حتى أعطيك الأمر».

- هل لي أن أشكرك بتواضع على منحي هذا الشرف، وأيضاً على جعلني وريثاً لك؟ أتعهد رسمياً أن شرف كاسيجي آمن في يدي.

- لو ما اعتقدت ذلك لما اقترحته. (خفض يابو صوته): كنت محقاً في خيانتني إلى توراناغا. لو كنت مكانك لفعلت الشيء نفسه، رغم أنها كلها أكاذيب. إنها ذريعة من توراناغا. لقد كان دائماً يغار من براعتي في المعركة، وفهمي للأسلحة وقيمة السفن. كل هذا كان فكرتي.

- نعم يا سيدي، أتذكر.

- ستحفظ العائلة. أنت ماكر كجرز عجوز أجرب. ستستعيد إيزو وأكثر... هذا كل ما يهم الآن، وستحتفظ بها لابنك. أنت تفهم الأسلحة. وتوراناجا أيضًا. أليس كذلك؟

- أتعهد بأنني سأحاول يا سيدي.

نظر يابو إلى يد أومي التي تمسك بالسيف، ولاحظ وضعية جلوسه المدافعة الحذرة: «هل تعتقد أنني سأهاجمك؟».

- أعتذر، بالطبع لا يا سيدي.

- أنا سعيد لأنك على أهبة الاستعداد. كان والدي مثلك. نعم، أنت تشبهه كثيرًا.

وضع سيفه على الأرض بعيدين عن متناول يده دون أن يقوم بحركة مفاجئة، وتابع: «انظر! أنا أعزل الآن. كنت أريد رأسك منذ لحظات... لكن الآن لا يوجد داعٍ لأن تخاف مني».

- يوجد دائمًا داعٍ للخوف منك يا سيدي.

ضحك يابو بخفة وامتص ساقًا أخرى من العشب. ثم رماها بعيدًا. قال: «استمع يا أومي سان، هذه أوامري الأخيرة كزعيم عشيرة كاسيجي. ستأخذ ابني إلى منزلك وتستفيد منه إذا كان يستحق. التالي: ابحث عن أزواج جيدين لزوجتي وخليفتي، واشكرهما جدًّا على خدمتهما لي بإخلاص. أما عن والدك ميزونو: فهو مأمور بتنفيذ السيوكو على الفور».

- هل لي أن أطلب أن يُعطى خيار حلاقة رأسه ليصبح كاهنًا؟

- لا. إنه أحق للغاية، لن تستطيع أبدًا الوثوق به... كيف تجرباً على تمرير أسراري لتوراناجا... وسيظل عائقًا في طريقك. أما عن والدتك... (أظهر أسنانه) هي مأمورة بحلاقة رأسها لتصبح راهبة وتنضم إلى دير خارج إيزو وتقضي بقية حياتها في الصلاة من أجل مستقبل عائلة كاسيجي. بوذية أو شنتوية... أفضل الشنتوية. هل توافق، شنتوية؟

- نعم يا سيدي.

قال يابو بسعادة خبيثة: «جيد. بهذه الطريقة، ستتوقف عن إلهائك عن شؤون كاسيجي بشكواها المستمرة».

- سيتم الأمر.

- جيد. أنت مأمور بالانتقام من الأكاذيب التي قالها كوسامي والخدم الخونة. سواء كان ذلك عاجلاً أم آجلاً، لا يهمني، ما دمت تقوم به قبل أن تموت.
- سأطيع.
- هل نسيت شيئاً؟
- تحقق أومي بحذر من عدم وجود من يسمعهما ثم سأل: «ماذا عن الوريث؟ عندما يكون الوريث في الميدان ضدنا، نحن سنخسر، أليس كذلك؟».
- خذ كتيبة البنادق وافتح طريقاً واقتله، مهما قال توراناغا. إن يامون هو هدفك الرئيسي.
- كان هذا استنتاجي أيضاً. شكراً لك.
- جيد. ولكن بدلاً من الانتظار كل هذا الوقت، ضع مكافأة سرية على رأسه الآن، مع النينجا... أو عصابة الأميدا.
- سأل أومي بصوت مرتجف: «كيف أجدهم؟».
- العجوز جيوكو، الماما سان، هي واحدة من الذين يعرفون طريقهم.
- هي؟
- نعم. لكن احذر منها، ومن الأميدا. لا تستخدمهم باستخفاف يا أومي سان. لا تلمسها أبداً، واحمها دائماً. هي تعرف الكثير من الأسرار والقلم يمتد بعيداً من الجانب الآخر للموت. كانت خلية غير رسمية لوالدي لمدة عام... قد يكون ابنها حتى أخي غير الشقيق. احذر منها، هي تعرف الكثير من الأسرار.
- لكن من أين لي بالمال؟
- هذه مشكلتك. ولكن احصل عليه. في أي مكان، وبأي طريقة.
- نعم. شكراً لك. سأطيع.
- اقترب يابو منه. في الحال استعد أومي بحذر وسيفه يكاد يخرج من غمده. شعر يابو بالرضا لأن حتى وهو أعزل، لا يزال رجلاً يجب الحذر منه. قال: «ادفن ذلك السر عميقاً جداً. واسمع يا ابن أخي، حافظ على صداقتك الجيدة مع أنجين سان. حاول السيطرة على الأسطول الذي سيحضره يوماً ما. توراناغا لا يفهم القيمة الحقيقية لأنجين سان، لكنه محق في البقاء خلف

الجبـال. ذلك يمنحه وقتاً ومنحك أنت وقتاً. يجب أن نغادر البر ونذهب إلى البحر -بطاقمنا في سفنهم- بقيادة الكاسيجي. يجب على الكاسيجي أن يذهبوا إلى البحر، لقيادة البحر. أنا أمرك بذلك».

قال أومي: «نعم... نعم. ثـق بي. هذا سيحدث».

- جيد. وأخيراً، لا تثق بتوراناجا.

قال أومي بكامل كيانه: «لا أثق به يا سيدي. لم أثق به قط، ولن أثق به أبداً».

- جيد. وتلك الأكاذيب القذرة، لا تنس، تعامل معها. وكذلك كوسامي.

زفر يابو وهو في سلام مع نفسه وتابع: «الآن رجاءً دعني أفكر في قصيدة موتي».

نهض أومي وتراجع للخلف، ثم انحنى بعد أن أصبح بعيداً بما يكفي، وتقدم خمسة عشر متراً. وعندما أصبح في أمان حراسه، جلس مجدداً وبدأ في الانتظار.

كان توراناجا وموكبه يسرون بخطى سريعة على الطريق الساحلي الذي يدور حول الخليج الواسع، حيث كان البحر يصل تقريباً إلى حافة الطريق على يمينه. كانت الأرض هنا منخفضة ومستنقعية، بها الكثير من المسطحات الطينية. على بُعد بضـع ري شمالاً، يتصل هذا الطريق بالطريق الرئيسي توكايدو. وعلى بُعد عشرين ري إلى الشمال كانت إيدو.

كان برفقته مائة ساموراي، وعشرة من الصقارين يحملون عشرة صقور على قبضاتهم المغطاة بالقفازات. سودارا برفقة عشرين حارساً وثلاثة طيور، يقود الطريق كطليعة.

ناداه توراناجا وكأنه خطرت له فكرة مفاجئة: «سودارا، توقف عند النزل التالي. أريد تناول الفطور».

أشار سودارا بالموافقة وانطلق مسرعاً إلى الأمام. وعندما وصل توراناجا، كانت الخادـمات ينحنين ويبتسمن، وصاحب النزل ينحني بأدب مع كل العاملين. كان الحراس يغطون الاتجاهين الشمالي والجنوبي، وأعلامه منصوبة بفخر.

سأل صاحب النُّزل: «صباح الخير يا سيدي. ماذا يمكنني أن أقدم لك لتأكله؟ شكرًا لك على تشريفك لنُزلي المتواضع».

- شاي... وبعض النودلز مع قليل من صلصة الصويا، رجاءً.
- حسنًا يا سيدي.

قُدِّم الطعام في وعاء جميل تقريبًا على الفور، كان مطهوءًا تمامًا بالطريقة التي يحبها، فقد أبلغ صاحب النزل مسبقًا من قبل سودارا. جلس توراناغا دون أي تكلف على الشرفة وأكل هذا الطبق البسيط من طعام الفلاحين بشهية، بينما كان يراقب الطريق أمامه. أما الضيوف الآخرون، فقد انحنوا وعادوا إلى أعمالهم بهدوء وفخر لأنهم يقيمون في النُّزل نفسه مع الدايميو العظيم. تفقد سودارا نقاط الحراسة، ليتأكد من أن كلَّ شيء في أفضل حال. سأل سيد الصيد: «أين الضاربون الآن؟».

أشار الساموراي العجوز نحو الداخل باتجاه يوكوهاما، متعرقًا وبائسًا: «البعض شمالًا، والبعض جنوبًا، ولديَّ رجال إضافيون في التلال هناك. أرجو المعذرة، لكن هل لديك أي فكرة إلى أين سيذهب سيدنا؟».

- لا فكرة على الإطلاق. لكن لا ترتكب المزيد من الأخطاء اليوم.
- حسنًا يا سيدي.

أنهى سودارا جولته ثم قُدِّم تقريره لتوراناغا: «هل كل شيء على ما يرام يا سيدي؟ هل هناك شيء يمكنني فعله من أجلك؟».

- لا، شكرًا لك.

أنهى توراناغا الوعاء وشرب آخر قطرات الحساء. ثم قال بنبرة جامدة: «كنت محققًا بشأن ما قلته عن الوريث».

- أرجو المعذرة، خشيت أن أكون قد أسأت إليك دون قصد.

- كنت محققًا... فلماذا أكون غاضبًا؟ عندما يقف الوريث ضدي... ماذا ستفعل حينها؟

- سأطيع أوامرك.

- استدع مساعدتي إلى هنا وعُد معه.

امتثل سودارا. كاوناابي، المساعد -الساموراي السابق والكاهن- الذي يسافر دائمًا مع توراناغا، حضر حاملًا صندوقه المخصص للسفر والذي

يحتوي على الأوراق والأحبار والأختام وأقلام الفرشاة التي تتناسب مع الحقائق المتصلة بسرجه.

- سيدي؟

- اكتب هذا: «أنا يوشي توراناغا نو مينووارا، أعيد ابني يوشي سودارا نو مينووارا كوريثي مع إعادة جميع إيراداته وألقابه إليه».

انحنى سودارا وقال بصوت حازم، لكنه يتساءل في داخله عن السبب: «شكرًا لك يا أبي».

- أقسم رسميًا على الالتزام بكل أوامري ووصاياي... وإرثي.

أطاع سودارا. انتظر توراناغا بصمت حتى أنهى كاوانابي كتابة الأمر، ثم وقع عليه وجعله قانونيًا باستخدام ختمه. كان هذا الختم قطعة صغيرة مربعة من العاج محفورًا عليها اسمه على أحد جوانبها. ضغط الختم على الحبر الأحمر الكثيف، ثم على أسفل ورقة الأرز. كانت الطبعة مثالية. قال: «شكرًا يا كاوانابي سان، أرّخها بالأمس. هذا كل ما في الأمر حاليًا».

- أرجو المَعذرة، لكنك بحاجة إلى خمس نسخ إضافية يا سيدي، لضمان صحة الخلافة: واحدة للزعيم سودارا، واحدة لمجلس الوصاية، واحدة لدار السجلات، واحدة لملفاتك الشخصية، وواحدة للأرشفة.

- قم بذلك على الفور. وأعطني نسخة إضافية.

- حسنًا يا سيدي.

غادرهم المساعد. الآن نظر توراناغا إلى سودارا وتمعن في وجهه المتجهّم الذي لم يظهر عليه أي تعبير. عندما أعلن توراناغا القرار المفاجئ عمدًا، لم يظهر على سودارا أي انفعال، لا على وجهه ولا في يديه. لا فرح ولا شكر ولا فخر... ولا حتى دهشة، وهذا أحرّضه. لكن حينها فكر توراناغا، لماذا الحزن؟ لديك أبناء آخرون يبتسمون ويضحكون ويخطئون ويصرخون ويمرحون ولهم الكثير من النساء. أبناء عاديون. أما هذا الابن فهو ليقود بعد وفاتك، ليحافظ على سلالة مينووارا، وليحكم الكانتو وينقل القوة لأحفاد مينووارا. ليكون باردًا ودقيقًا، مثلك. قال لنفسه بصدق: لا، ليس مثلي. فأنا أضحك أحيانًا وأشعر بالرحمة أحيانًا، وأحب إطلاق الريح والجماع والعاصفة والرقص ولعب الشطرنج وعروض النوه، وبعض الناس يبهجونني، مثل ناجا وكيري وتشانو وأنجين سان، وأستمتع بالصيد والانتصار والانتصار والانتصار.

أما أنت فلا شيء يبهك يا سودارا، أعذر. لا شيء. سوى زوجتك السيدة جينجيكو. السيدة جينجيكو هي الحلقة الضعيفة الوحيدة في سلسلتك.
قال سودارا: «سيدي؟».

- كنت أحاول تذكر آخر مرة رأيتك تضحك فيها.

- هل تريدني أن أضحك يا سيدي؟

هز توراناجا رأسه، مدرِّكًا أنه درب سودارا ليكون الابن المثالي لما يجب فعله. سأله: «كم من الوقت تحتاج لتتأكد إذا كان جيكيو قد مات حقًا؟».

- قبل أن أغادر المعسكر أرسلت رسالة سرية مشفرة عاجلة إلى ميشيما تحسبًا إذا لم تكن تعرف بالفعل إن كان الأمر صحيحًا أم لا يا أبي. سأحصل على الرد خلال ثلاثة أيام.

بارك توراناجا الآلهة أنه كانت لديه معرفة مسبقة بمؤامرة جيكيو من كاسيجي ميزونو، وإشعار مسبق بوفاته قبل بضعة أيام. أعاد فحص خطته للحظة ولم يجد فيها عيبًا. ثم اتخذ القرار بعدما شعر بشيء من الغثيان: «أصدر أمرًا للكاتب الحادية عشر والسادسة عشر والرابعة والتسعين والخامسة والتسعين في ميشيما بالاستعداد الفوري. وفي غضون أربعة أيام، أرسلهم عبر طريق توكايدو».

سأل سودارا بدهشة: «السماء القرمزية؟ هل أنت تهاجم؟».

- نعم. لن أنتظر حتى يأتوا لمهاجمتي.

- إذن جيكيو مات؟

- نعم.

قال سودارا: «جيد، هل يمكنني أن أقترح إضافة الكتيبة العشرين والثالثة والعشرين؟».

- لا. عشرة آلاف رجل ينبغي أن يكونوا كافين... مع عنصر المفاجأة. ما زلت مضطرًا للحفاظ على حدودي في حال الفشل أو الوقوع في فخ. وزاتاكى يجب مراقبته أيضًا.

قال سودارا: «نعم».

- من يجب أن يقود الهجوم؟

- الزعيم هيرو ماتسو. إنها حملة مثالية له.

- لماذا؟
- لأنها مباشرة وبسيطة وتقليدية، والأوامر واضحة يا أبي. سيكون مثاليًا لهذه الحملة.
- لكنه لم يعد مناسبًا كقائد عام؟
- أعتذر يا سيدي. كان يابو سان محققًا... الأسلحة غيرت العالم. لم يعد القبضة الحديدية مناسبًا.
- إذن من؟
- أنت فقط يا سيدي. أنصحك ألا يكون هناك أحد بينك وبين المعركة حتى انتهائها.
- قال توراناغا: «سأفكر في ذلك. الآن اذهب إلى ميشيما. ستجهز كل شيء. ستحصل قوة هجوم هيرو ماتسو على عشرين يومًا لعبور نهر تينريو وتأمين طريق توكايدو».
- أرجو المعذرة، هل يمكنني اقتراح أن يكون هدفهم النهائي أبعد قليلًا، عند قمة منحدر شيومي؟ اسمح لهم بثلاثين يومًا.
- كلا. إذا أصدرت أمرًا بذلك، سيتمكن بعض الرجال من الوصول إلى القمة، لكن الأغلبية ستكون قد ماتت ولن تتمكن من صد الهجوم المضاد، أو مضايقة العدو في أثناء تراجع قواتنا.
- لكن بالتأكيد سترسل تعزيزات فورًا لدعمهم؟
- الهجوم الرئيسي سيعبر جبال زاتاكى. هذا مجرد تمويه.
- كان توراناغا يقيم ابنه بعناية فائقة، لكن سودارا لم يظهر أي رد فعل، لا دهشة ولا موافقة ولا اعتراض.
- أعتذر. أرجو المعذرة يا سيدي.
- مع رحيل يابو، من سيقود المدافع؟
- كاسيجي أومي.
- لماذا؟
- لأنه يفهمها. وأكثر من ذلك، فهو عصري، وشجاع وذكي وصبور جدًا... وأيضًا خطر جدًا، أكثر خطورة من عمه. أنصحك بأنه إذا انتصرت، وإذا نجا، فعليك أن تجد عذرًا لدعوته إلى الموت.

- إذا انتصرت؟
- لطالما كانت السماء القرمزية خطة أخيرة. لقد قُلتها مائة مرة. إذا تعرضنا لهزيمة على طريق توكايدو، سيحتاج زاتاكي السهول. لن تساعدنا المدافع حينها. إنها خطة أخيرة. لطالما كرهت الخطط الأخيرة.
- وماذا عن أنجين سان؟ ما نصيحتك بشأنه؟
- أتفق مع أومي سان وناجا سان. يجب أن يُحجز. رجاله الآخرون لا شيء... هم مجرد إيتا وسيلتهمون بعضهم قريباً، لذا فهم لا شيء. أنصح بأن يُحجز جميع الأجانب أو طردهم. إنهم كالوباء... ويجب التعامل معهم على هذا الأساس.
- حينها لن تكون هناك تجارة حرير، أليس كذلك؟
- إذا كان هذا هو الثمن فسأدفعه. إنهم كالوباء.
- لكننا بحاجة إلى الحرير، ولحماية أنفسنا يجب أن نتعلم عنهم، أن نتعلم ما يعرفونه، أليس كذلك؟
- يجب حصرهم في ناجازاكي تحت حراسة مشددة، وتحديد أعدادهم بصرامة. يمكنهم أن يتاجروا مرة واحدة في السنة. أليس المال هو دافعهم الأساسي؟ أليس هذا ما يقوله أنجين سان؟
- إذن هو مفيد؟
- نعم. مفيد جداً. لقد علّمنا حكمة مراسيم الطرد. أنجين سان حكيم جداً وشجاع جداً. لكنه مجرد لعبة. هو يسليك يا سيدي، مثل تيتسو كو، لذا فهو ذو قيمة، كلعبة.
- قال توراناغا بنبرة حازمة ومتعمدة: «شكراً على آرائك. فور إطلاق الهجوم، ستعود إلى إيدو وتنتظر المزيد من الأوامر».
- كان زاتاكي لا يزال يحتجز السيدة جينجيكو وابنه و ثلاث بنات كرهائن في عاصمته تاكاتو. بناءً على طلب توراناغا، منح زاتاكي سودارا إجازة لغيابه، لكن لمدة عشرة أيام فقط، وقد وافق سودارا على هذا الشرط رسمياً وتعهد بالعودة في الموعد. كان زاتاكي معروفاً بتعصبه لمفهوم الشرف، وكان سيبيد جميع الرهائن على أساس هذا الشرف بغض النظر عن أي معاهدة أو

- اتفاق علني أو سري. كان كل من تورانا جا وسودارا يعرفان دون أدنى شك أن زاتاكي سيفعل ذلك إذا لم يعد سودارا كما وعد.
- ستنتظر في إيدو لتلقّي المزيد من الأوامر.
- حسنًا يا سيدي.
- ستغادر إلى ميشيما في الحال.
- أشار سودارا إلى التقاطع أمامهم وقال: «إذن سيوفر عليّ الوقت إذا اتجهت من هذا الطريق».
- نعم. سأرسل إليك رسالة غدًا.
- انحنى سودارا وتوجه نحو حصانه، وغادر مع حراسه العشرين.
- أمسك تورانا جا بالوعاء وتناول ما تبقى من النودلز الباردة. ركضت إليه الخادمة الشابة قائلة بلهث: «أعتذر يا سيدي، هل تريد المزيد؟».
- كانت ذات وجه مستدير وغير جميلة، لكنها كانت ذكية وقوية الملاحظة... تمامًا كما يحب خادماته ونساءه.
- قال: «لا، شكرًا لك. ما اسمكِ؟».
- يوكي يا سيدي.
- أخبرني سيدك أن النودلز جيدة يا يوكي.
- حسنًا يا سيدي، شكرًا لك. شكرًا لك يا سيدي، على تكريمك منزلنا. فقط ارفع إصبعك لأي طلب وستحصل عليه في الحال.
- غمز لها وضحكت، ثم جمعت صينيته وانطلقت بسرعة. بينما كان يحاول التصبر، نظر إلى المنعطف البعيد في الطريق، ثم فحص محيطه. كان النزل في حالة جيدة، والبلاط المحيط بالبئر نظيفًا والأرضية ممسوحة. في ساحة الفناء وفي كل مكان حوله، كان رجاله ينتظرون بصبر، لكنه استطاع أن يلاحظ بعض التوتر في سيد الصيد، وقرر أن هذا اليوم هو آخر يوم له في الخدمة الفعلية. لو كان تورانا جا مهتمًا حقًا بالصيد بحد ذاته، لأمره بالعودة إلى إيدو الآن، ومنحه معاشًا كريمًا، وعيّن آخر مكانه.
- فكر دون أي حقد: هذا هو الفرق بيني وسودارا. سودارا لن يتردد. كان سيأمر سودارا الرجل بأن ينفذ السيوكو الآن، مما سيوفر المعاش التقاعدي

وكل المتاعب المستقبلية، ويزيد من كفاءة البديل. نعم يا بني، أنا أعرفك جيدًا. أنت الأهم بالنسبة لي.

سأل نفسه وهو يعيد هذا السؤال الضروري إلى ذهنه: ماذا عن السيدة جينجيكو وأطفالهم؟ وإذا لم تكن السيدة جينجيكو أخت أوتشيبا -أختها المحبوبة والمفضلة- لكنتُ سمحت بكل أسف لزاتاكي بالقضاء عليهم جميعًا الآن، مما يوفر على سودارا خطرًا هائلًا في المستقبل، إذا متُ قريبًا، لأنهم نقطة ضعفه الوحيدة. ولكن لحسن الحظ أن جينجيكو هي أخت أوتشيبا، وبالتالي هي قطعة مهمة في اللعبة الكبرى، ولا أحتاج إلى السماح بحدوث ذلك. يجب عليّ أن أسمح بذلك لكنني لن أفعل. هذه المرة يجب عليّ أن أخاطر. لذا سأذكر نفسي أن جينجيكو ثمينة بطرق أخرى... هي حادة كالعمود الفقري لسمكة القرش، تلد أطفالًا رائعين، وتدافع عن عشها بجنون وقسوة مثل أوتشيبا، مع فارق واحد ضخم: جينجيكو مخلصة لي أولًا، أما أوتشيبا فهي مخلصة للوريث أولًا.

إذن هذا قد تقرر. يجب أن يكون سودارا في يد زاتاكي قبل اليوم العاشر. هل سيكون هناك تمديد؟ لا، ذلك قد يجعل زاتاكي أكثر رغبة مما هو عليه الآن، وهو آخر رجل أريده أن يشك بي في الوقت الحالي. أي طريق سيسلكه زاتاكي؟

لقد كنت حكيماً عندما قررت تسوية أمر سودارا. إذا كان هناك مستقبل، فالمستقبل سيكون آمناً في يديه وفي يد جينجيكو، بشرط أن يتبعوا الإرث بدقة. وقرار إعادته الآن كان صائبًا وسيرضي أوتشيبا.

كان قد كتب الرسالة في الصباح وسيرسلها لها الليلة مع نسخة من الأمر. نعم، سيزيل ذلك شوكة من حلقتها كانت تجعلها تختنق، لقد وضعها هناك عمدًا منذ وقت طويل لهذا الغرض. من الجيد أن أعلم أن جينجيكو هي واحدة من نقاط ضعف أوتشيبا، ربما هي الوحيدة. أما نقطة ضعف جينجيكو؟ لا شيء. على الأقل لم أجد شيئاً بعد، لكن إذا وُجد شيء، فسأكتشفه.

كان يراقب صقوره. كان بعضها يصدر أصواتًا، والبعض الآخر ينظف ريشه، جميعها في صحة جيدة، وكلها مقنعة ما عدا كوجو، التي كانت عيناها الصفراوان الواسعتان تراقبان كل شيء بتركيز، وكأنها تشاركه اهتمامه.

سألها بصمت: ماذا ستقولين يا جميلتي؟ ماذا ستقولين إذا أخبرتك أنني يجب أن أكون متعجلًا وأن أخرج من مكاني، وأن هجومنا الرئيسي سيكون

عبر التوكايدو، وليس عبر جبال زاتاكي كما أخبرت سودارا؟ ربما ستسألين: لماذا؟ عندها سأجيب، لأنني لا أثق بزاتاكي بقدر ما يمكنني الطيران. وأنا لا أستطيع الطيران على الإطلاق. أليس كذلك؟».

ثم رأى عيني كوجو تلتفتان إلى الطريق. حذق إلى المسافة وابتسم عندما رأى الهودج والخيول المحملة بالأمتعة تقترب من المنعطف.

- إذن يا فوجيكو سان؟ كيف حالك؟

- بخير، شكرًا يا سيدي، بخير جدًا.

انحنى مجددًا ولاحظ أنها لم تكن تشعر بالألم من ندوب حروقها. أصبحت أطرافها مرنة كما كانت من قبل، وكان يوجد تورد جميل على وجنتيها. قالت: «هل يمكنني أن أسأل عن حال أنجين سان؟ سمعت أن الرحلة من أوساكا كانت سيئة جدًا يا سيدي».

- هو بصحة جيدة الآن، جيدة جدًا.

- يا سيدي، هذه أفضل الأخبار التي يمكن أن تمنحني إياها.

- جيد.

ثم انتقل إلى الهودج التالي لتحية كيكو، فابتسمت بفرح وألقت التحية عليه بمودة كبيرة، معبرة عن مدى سعادتها لرؤيته ومدى افتقادها له. قالت: «لقد مر وقت طويل يا سيدي».

قال متأثرًا بجمالها المدهش وفرحتها الداخلية رغم قلقه الشديد: «نعم، أرجو أن تعذريني، أعذر. أنا سعيد جدًا لرؤيتك». ثم انتقلت عيناه إلى الهودج الأخير وأضاف بصوت جاف: «يا جيوكو سان، لقد مر وقت طويل».

- شكرًا لك يا سيدي، نعم، وأنا ولدت من جديد الآن بعد أن منحني عيناى الشرف لرؤيتك مجددًا.

كانت انحناءة جيوكو لا تشوبها شائبة، وكانت متألفة بعناية، ولاحظ لمحة من طرف كيمونو داخلي قرمزي مصنوع من الحرير الفاخر. تغنت بمديحها: «كم أنت قوي يا سيدي، عملاق بين الرجال».

- شكرًا. أنتِ تبدين بخير أيضًا.

صفقت كيكو بيديها على المزحة وضحك الجميع معها.

قال وهو سعيد بسببها: «أنصتوا، لقد رتبت لإقامتكم هنا لفترة. الآن رجاء تعالي معي يا فوجيكو سان».

أخذ فوجيكو جانبًا وبعد أن قدم لها الشاي والمقبلات وتحدثا عن أمور غير مهمة، وصل إلى النقطة الأساسية وقال: «أنت وافقتِ على نصف عام وأنا وافقت على نصف عام. أعتذر، ولكن يجب أن أعرف اليوم إذا كنتِ ستغيرين هذا الاتفاق».

أصبح وجهها المربع الصغير غير جذاب مع اختفاء الفرحة منه. لامست أسنانها الحادة بطرف لسانها للحظة: «كيف يمكنني تغيير هذا الاتفاق يا سيدي؟».

- بكل سهولة. انتهى الأمر. أنا أمر بذلك.
قالت فوجيكو بنبرة خالية من العاطفة: «أرجو المَعذرة يا سيدي، لم أقصد ذلك. لقد أبرمتُ هذا الاتفاق طواعية وتحت قسم أمام بوذا، بروح زوجي وابني المتوفيين. لا يمكن تغييره».

- سآمر بتغييره.

- أعتذر يا سيدي. أرجو المَعذرة، لكن حينها يحررني البوشيديو من طاعتي لك. كان عقدك أيضًا جادًا وملزمًا، وأي تغيير يجب أن يوافق عليه الطرفان دون إكراه.

- هل يرضيك أنجين سان؟

- أنا خليلته. من الضروري لي أن أرضيه.

- هل يمكنك الاستمرار في العيش معه إذا لم يوجد الاتفاق الآخر؟

- الحياة معه صعبة جدًا يا سيدي. كل الرسميات ومعظم المجاملات وكل أنواع العادات التي تجعل الحياة آمنة وذات قيمة ومستديمة وقابلة للتحمل يجب أن تُرمى بعيدًا، أو تُحاط بطريقة ما، بحيث يصبح منزله غير آمن، لا يوجد فيه الوا... لا يوجد انسجام بالنسبة لي. من شبه المستحيل أن يفهم الخدم ذلك، أو أن أفهم... لكن نعم، يمكنني الاستمرار في أداء واجبي نحوه.

- أطلب منك إنهاء الاتفاق.

- واجبي الأول هو لك، والواجب الثاني هو لزوجي.

- كانت فكرتي يا فوجيكو سان، أن يتزوجك أنجين سان. وعندها لن تكوني مجرد خلية.
- لا يستطيع الساموراي أن يخدم زعيمين، ولا الزوجة أن تخدم زوجين. واجبي هو لزوجي المتوفى. أرجو المَعذرة، لا أستطيع التغيير.
- بالصبر يتغير كل شيء. قريبًا سيتعلم أنجين سان المزيد عن طرقتنا، وسيصبح منزله أيضًا به وا. لقد تعلم الكثير منذ أن أصبح...
- أرجو منك يا سيدي أن لا تُسيء فهمي، إن أنجين سان هو أكثر رجل استثنائي عرفته على الإطلاق، وبالتأكيد هو الألف. لقد منحني شرفًا عظيمًا، ونعم، أعلم أن منزله سيصبح بيتًا حقيقيًا قريبًا، ولكن... ولكن أرجو المَعذرة، يجب عليّ أداء واجبي. واجبي هو لزوجي، زوجي الوحيد... (حاولت الحفاظ على تماسكها): يجب أن يكون كذلك، أليس كذلك؟ يجب أن يكون يا سيدي، وإلا فإن كل شيء... كل العار والمعاناة والذل تصبح بلا معنى، أليس كذلك؟ موته وموت طفلي، وسيوفه التي تحطمت ودُفنت في قرية الإيتا... دون الوفاء لواجبي تجاهه، أليس يصبح كل البوشيدو مجرد نكتة خالدة؟
- عليك أن تجيبي عن سؤال واحد الآن يا فوجيكو سان: أليس من واجبك أن تحققي طلبًا مني، زعيمك الإقطاعي، تجاه رجل شجاع مدهش أصبح واحدًا منا وهو سيدك، و...
- أضاف معتقدًا أنه لاحظ توردًا في وجهها: «واجبك تجاه طفله الذي لم يولد بعد، أليس كل ذلك أولى من واجب سابق؟».

- أنا... أنا لست حاملًا بطفله يا سيدي.

- هل أنت متأكدة؟

- لا، لست متأكدة.

- هل تأخرت؟

- نعم... ولكن فقط قليلًا، وقد يكون ذلك...

راقبها توراناغا وانتظر. بصبر. كان لا يزال يوجد الكثير ليفعله قبل أن يتمكن من الرحيل وإطلاق تيتسو كو أو كوجو في الهواء وكان يشاق لتلك المتعة، لكن ذلك كان سيكون له وحده ولذلك غير مهم. كانت فوجيكو مهمة، وقد وعد نفسه أن يتظاهر على الأقل لهذا اليوم بأنه قد انتصر وأنه يملك

مكتبة
t.me/soramnqraa

الوقت ويمكنه التحلّي بالصبر وترتيب الأمور التي كان من واجبه ترتيبها. سأل: «إذن؟».

- أعذر يا سيدي، لا.

- إذن لا يا فوجيكو سان. أرجو المعذرة على سؤالي لكنه كان ضروريًا. لم يكن توراناغا غاضبًا ولا مسرورًا. كانت الفتاة فقط تفعل ما هو شرفي وقد علم عندما وافق على الاتفاق معها أنه لن يحدث تغيير. فكر برضا: هذا ما يجعلنا فريدين على الأرض. إن الاتفاق مع الموت هو اتفاق مقدس. انحنى لها برسمية. وقال مستخدمًا الاسم الذي لم يعد موجودًا: «أُثني على شرفك وإحساسك بالواجب تجاه زوجك يا أوساجي فوجيكو».

قالت مشيرة إلى الشرف الذي منحه إياها: «أوه، شكرًا لك يا سيدي». انهمرت دموعها من السعادة التامة التي غمرتها، وهي تعلم أن هذه الإيماءة البسيطة قد نظفت الوصمة من الزوج الوحيد الذي سيكون لها في هذه الحياة.

- أنصتي يا فوجيكو، قبل عشرين يومًا من آخر يوم يجب أن تغادري إلى إيدو... مهما حدث لي. قد يحدث موتك في أثناء الرحلة ويجب أن يظهر على أنه حادث. أليس كذلك؟

- بلى، بلى يا سيدي.

- سيكون هذا سرنا. بيني وبينك فقط

- حسنًا يا سيدي.

- حتى ذلك الوقت ستظلين رئيسة منزله.

- حسنًا يا سيدي.

- الآن، رجاء أخبري جيوكو أن تأتي إلى هنا. سأستدعيك مجددًا قبل أن أذهب. لدي بعض الأمور الأخرى لمناقشتها معك.

- حسنًا يا سيدي.

انحنى فوجيكو باحترام وقالت: «أبارك لك لتحريرك لي من الحياة». ثم غادرت.

فكر تورانا: كيف يمكن للنساء أن يتغيرن مثل الحرباء... يكن في لحظة قبيحات، وفي لحظة أخرى جذابات، وأحياناً حتى جميلات، رغم أنهن في الواقع لسن كذلك.

- هل استدعيتني يا سيدي؟

- نعم يا جيوكو سان. ما الأخبار التي لديك لي؟

قالت جيوكو: «الكثير من الأمور يا سيدي».

كان وجهها المتأنق غير خائف، وعيناها تلمعان، رغم أن أمعاءها كانت في حالة اضطراب. كانت تعلم أن هذه المقابلة ليست مصادفة وحدها أخبرها أن تورانا كان أكثر خطراً من المعتاد. تابعت: «الترتيبات الخاصة بنقابة المحظيات تتقدم بشكل مرضٍ، والقوانين واللوائح تُعد للموافقة عليها. توجد منطقة رائعة شمال المدينة يمكن...».

- المنطقة التي اخترتها بالفعل أقرب إلى الساحل. اليوشيوارا.

أثنت عليه لاختياره، بينما كانت تتذمر في داخلها. اليوشيوارا -مستنقع القصب- هي حالياً مستنقع وملتئة بالبعوض، وسيجب تصريفها واستصلاحها قبل أن يكون بالإمكان تحصينها والبناء عليها: «ممتاز يا سيدي. التالي: القواعد واللوائح الخاصة بالجيش أيضاً تُعد للمراجعة».

- جيد. اجعليها قصيرة وواضحة. ماذا ستضعين على بوابة اليوشيوارا؟

- «الشهوة لا تدوم... يجب فعل شيء حيالها».

ضحك، وابتسمت هي لكنها لم تسترخ في حذرها، رغم أنها أضافت بجدية: «أود أن أشرك مجدداً نيابة عن الأجيال القادمة يا سيدي».

أخبرها تورانا: «لم أوافق من أجلهم أو من أجلك. (اقتبس أحد تعليقاته في الإرث): «الرجال الفاضلون على مر التاريخ دائماً ما يرفضون بيوت الدعارة وأماكن الجماع، لكن الرجال ليسوا فاضلين وإذا حظر القائد بيوت الدعارة والجماع فهو أحمق لأن شرواً أكبر ستظهر قريباً كطاعون من الدمامل».

- كم أنت حكيم.

- أما بالنسبة لوضع جميع هذه الأماكن في منطقة واحدة، فهذا يعني أن كل غير الفاضلين يمكن مراقبتهم وفرض الضرائب عليهم وخدمتهم،

- كل ذلك في وقت واحد. أنت محقة مجدداً يا جيوكو سان، «الشهوة لا تدوم». سرعان ما تصبح فوضى. التالي؟
- لقد استعادت كيكو سان صحتها يا سيدي. كلياً.
 - نعم، رأيت. كم هي رائعة! أعذر... إن إيدو بالتأكيد حارة وغير رحيمة في الصيف. هل أنت متأكدة أنها بخير الآن؟
 - نعم، نعم، لكنها قد افتقدتك يا سيدي. هل سترافقك إلى ميشيما؟
 - ما الشائعات الأخرى التي سمعتها؟
 - فقط أن إيشيدو قد غادر قلعة أوساكا. وقد أعلن الأوصياء رسمياً أنك خارج عن القانون... يا لها من وقاحة يا سيدي.
 - من أي جهة يخطط للهجوم عليّ؟
- قالت بحذر: «لا أعلم يا سيدي، لكنني أتخيل هجوماً مزدوجاً، عبر طريق توكايدو مع إيكافا هيكوجو الآن بعد وفاة والده الزعيم جيكيو، وعبر كوشوكايدو من شينانو، حيث ساند الزعيم زاتاكي بغباء الزعيم إيشيدو ضدك. لكن خلف جبالك أنت بأمان. نعم، أنا متأكدة أنك ستعيش حتى الشيخوخة. بعد إذنك سأنقل كل شؤوني إلى إيدو».
- بالطبع. في هذه الأثناء، حاولي معرفة أين سيكون الهجوم الرئيسي.
 - سأحاول، نعم يا سيدي. هذه أوقات مروعة يا سيدي، عندما يقاتل الأخ ضد أخيه، والابن ضد والده.
- كانت عينا توراناغا محجوبتين، وقد دون ملاحظة ذهنية ليزيد من يقظته تجاه نوبورو ابنه الأكبر الذي كانت ولاؤه النهائي مع التايكو. وافقه الرأي: «نعم، أوقات مروعة. أوقات التغيير الكبير. بعضها سيئ، وبعضها جيد. أنت على سبيل المثال، الآن غنية، وابنتك على سبيل المثال. أليس هو المسؤول عن مصنع الساكي في أوداوارا؟».
- شحب وجه جيوكو أسفل مساحيق التجميل: «بلى يا سيدي».
 - لقد حقق أرباحاً كبيرة، أليس كذلك؟
 - إنه بالتأكيد أفضل مدير في أوداوارا يا سيدي.

- كما سمعت. لدي عمل له. أنجين سان سيبيني سفينة جديدة. سأوفر جميع الحرفيين والمواد، لذا أريد التعامل مع الجوانب التجارية بعناية كبيرة.

كادت جيوكو أن تنهار من الارتياح. كانت قد افترضت أن توراناها سيقضي عليهم جميعاً قبل مغادرته للحرب، أو يفرض عليها ضرائب تمحوها من الوجود، لأنه اكتشف أنها كذبت عليه بشأن أنجين سان والسيدة تودا، أو بشأن الإجهاض المؤسف لكيكو، الذي لم يكن عرضياً كما روت بحرقه قبل شهر، بل كان بتعمد، بناءً على طلبها وبموافقة كيكو المخلصة. قالت: «يا سيدي، متى تريد أن يكون ابني في يوكوهاما؟ سيضمن أن تكون السفينة هي الأرخص على الإطلاق».

- لا أريدها رخيصة. أريدها الأفضل... بأكثر سعر معقول. هو سيكون المشرف والمسؤول تحت أنجين سان.

- يا سيدي، لديك ضمانني ومستقبلي وآمالي في المستقبل بأن تكون كما تريد.

- إذا بُنيت السفينة بمثالية، تمامًا كما يريد أنجين سان، خلال ستة أشهر من أول يوم، فسأجعل ابنك ساموراي.

انحنى باحترام ولم تستطع الحديث للحظة: «أرجوك سامح هذه الحمقاء المسكينة يا سيدي، شكرًا لك، شكرًا لك».

- عليه أن يتعلم كل شيء يعرفه أنجين سان عن بناء السفينة حتى يتمكن الآخرون من التعلم عندما يغادر. حسنًا؟

- سيتم ذلك.

- التالي: كيكو سان. مواهبها تستحق مستقبلًا أفضل من أن تكون وحدها في صندوق، واحدة من الكثير من النساء.

نظرت جيوكو إلى الأعلى متوقعة الأسوأ مجددًا: «هل ستبيع عقدها؟».

- لا، يجب ألا تكون محظية مجددًا أو حتى واحدة من الجيشا الخاصين بك. يجب أن تكون في منزل، واحدة من عدد قليل جدًا من النساء.

- لكن يا سيدي، برؤيتك حتى من حين لآخر، كيف يمكن أن تحصل على حياة أفضل؟

سمح لها بإطرائه، ثم بادلها الإطراء لها ولكيكو، ثم قال: «بصراحة يا جيوكو سان، أنا أصبحت أحبها كثيرًا، ولا يمكنني أن أتحمل الانشغال بها. بصراحة هي جميلة جدًا بالنسبة لي... جمالها كاملٌ للغاية... أرجوكم سامحيني، لكن يجب أن يكون هذا سرًا آخر بيننا».

قالت جيوكو بحماس، متجاهلة كل شيء باعتبارها أكاذيب، وهي تحاول إيجاد السبب الحقيقي: «أوافق يا سيدي، بالطبع، مهما كان ما تقوله. إذا كان الشخص يمكن أن يكون شخصًا تعجب به كيكو، سأموت راضية».

قال بنبرة جافة: «لكن فقط بعد أن ترى سفينة أنجين سان وهي تبحر في غضون ستة أشهر».

- نعم... نعم.

حركت جيوكو مروحتها لأن الشمس أصبحت حارة الآن، والهواء رطب وخانق، كانت تحاول فهم سبب سخاء توراناغا مع كليهما، وهي تعلم أن الثمن سيكون باهظًا جدًا. قالت: «كيكو سان ستشعر بالحزن لترك منزلك».

- نعم، بالطبع. أعتقد أنه يجب أن يكون هناك تعويض لها على ولائها لي، زعيمها الإقطاعي. اتركي هذا الأمر لي... ولا تذكر ذلك لها في الوقت الحالي.

- حسنًا يا سيدي. ومتى تريد أن يكون ابني في يوكوهاما؟

- سأعلمك بذلك قبل مغادرتي.

انحنّت وسارت مبتعدة. ذهب توراناغا للسباحة. إلى الشمال كانت السماء مظلمة جدًا وكان يعلم أنها ستمطر بغزارة هناك. ثم عاد عندما رأى مجموعة صغيرة من الفرسان قادمة من اتجاه يوكوهاما.

ترجل أومي من على حصانه وفك الغطاء عن الرأس. قال: «الزعيم كاسيجي يابو أطاع يا سيدي، قبيل الظهر».

كان الرأس مغسولًا حديثًا، وشعره ممشطًا، وكان مثبتًا على رمح قاعدة صغيرة عادة ما تستخدم للعرض.

فحص توراناغا العدو كما فعل عشرة آلاف مرة من قبل في حياته، متسائلًا كالعادة عن كيف سيبدو رأسه بعد موته، عندما يعرضه المنتصر، وما إذا كانت ستظهر عليه علامات الرعب أو الألم أو الغضب أو الفزع أو جميعها أو لا شيء منها. أو ربما كرامة. كان وجه يابو الميت يظهر فقط

غضبًا هائجًا، والشفاه مشدودة إلى الورا في تحدٍّ وحشي. سأل: «هل مات جيدًا؟».

قال أومي: «أفضل ما رأيته على الإطلاق يا سيدي. قال الزعيم هيرو ماتسو الشيء نفسه. الشقان، ثم ثالث عند الحلق. من دون مساعدة ودون صوت. إليك وصيته».

- هل قطعت الرأس بضربة واحدة؟

- نعم يا سيدي. طلبت إذن أنجين سان لاستخدام سيف الزعيم يابو.

- اليوشيتومو؟ السيف الذي أعطيته ليابو؟ هل أعطاه لأنجين سان؟

- نعم يا سيدي. تحدث معه من خلال تسوكو سان. قال: «أنجين سان، أقدم لك هذا تخليدًا لوصولك إلى أنجيرو وكتعبير عن شكري للمتعة التي منحني إياها ذلك الهمجي الصغير». في البداية رفض أنجين سان أخذه، لكن يابو طلب منه ذلك وقال: «لا أحد من هؤلاء الأوغاد يستحقون مثل هذا السيف». وفي النهاية وافق.

فكر توراناغا: غريب. توقعت أن يعطي يابو السيف لأومي.

سأل: «ما تعليماته الأخيرة؟».

أخبره أومي. بالضبط. لو لم تكن جميعها مكتوبة في الوصية التي قُدمت علنيًا للشاهد الرسمي بونتارو، لما كان قد نقلها جميعها، وفي الحقيقة كان ليخترع غيرها. فكر بغضب: كان يابو على حق. ذكر نفسه أن عليه التذكر إلى الأبد أن للقلم ذراعًا طويلة تمتد من القبر.

قال توراناغا وهو يختبره: «لتكريم شجاعة موت عمك، يجب أن أكرم رغباته الأخيرة. جميعها، دون تغيير، أليس كذلك؟».

- بلى يا سيدي.

- يوكي.

قالت الخادمة: «نعم يا سيدي».

- أحضري الشاي رجاءً.

ركضت بعيدًا وترك توراناغا عقله يزن رغبات يابو الأخيرة. كانت كلها حكيمة. ميزونو كان أحرق وكان عائقًا تمامًا في طريق أومي. أما الأم فكانت عجوزًا مزعجة شمطاء، وكانت أيضًا عائقًا في طريق أومي. قال: «حسنًا، بما

أنتك توافق، فهي مؤكدة. جميعها. وأريد أيضًا أن أوافق على رغبات موت والدك قبل أن تصبح نهائية. وكمكافأة لإخلاصك، سأعينك قائدًا لكتيبة البنادق».

قال أومي بسعادة: «شكرًا يا سيدي، ولكنني لا أستحق هذا الشرف».

- ناجا سيكون القائد الثاني. التالي: عُيِّنَت رئيسًا لعشيرة كاسيجي، وإقطاعيتك الجديدة سيكون أراضي الحدود في إيزو، من أتامى في الشرق إلى نومازو في الغرب، بما في ذلك العاصمة ميشيما، مع دخل سنوي قدره ثلاثون ألف كوكو.

- حسنًا يا سيدي، شكرًا لك. رجاء... لا أعلم كيف أشكر. أنا لا أستحق هذا الشرف.

قال توراناغا بلطف: «تأكد من أنك تستحقه يا أومي سان. استلم القلعة في ميشيما في الحال. وغادر يوكوهاما اليوم. أبلغ الزعيم سودارا في ميشيما. سترسل كتيبة البنادق إلى هاكوني وستكون هناك في غضون أربعة أيام. التالي أمر خاص لك فقط: سأرسل أنجين سان إلى أنجيرو. سيبنى سفينة جديدة هناك. ستسلمه إقطاعيتك الحالية. في الحال».

- حسنًا يا سيدي. هل يمكنني أن أعطيه منزلي؟

قال توراناغا: «نعم، يمكنك».

رغم أن الإقطاعية كانت تشمل كل شيء داخلها، منازل وممتلكات وفلاحين وصيادين وقوارب. نظر كلا الرجلين بعيدًا عندما سمعا ضحكة كيكو العذبة التي ترددت في الأجواء، ورأياها تلعب لعبة رمي المروحة في الفناء البعيد مع خادمتها سويسين، التي اشترى توراناغا عقدها أيضًا كهدية تعويضية لكيكو بعد الإجهاض المؤسف لطفله.

كان إعجاب أومي واضحًا للعالم كله ليراه، رغم محاولته إخفاءه، فقد كان ظهورها مفاجئًا وغير متوقع. ثم رأياها تنظر إليهما. ارتسمت ابتسامة جميلة على وجهها ولوحت بفرح، وبادلها توراناغا التلويح، ثم عادت إلى لعبتها.

- إنها جميلة، أليس كذلك؟

شعر أومي بأذنه تحترق: «بلى».

كان توراناغا قد اشترى عقدها في البداية ليمنع أومي من امتلاكها، لأنها كانت إحدى نقاط ضعفه وكان واضحًا أنها جائزة، يمكن منحها أو حرمانها، حتى يعلن أومي ولاءه الحقيقي ويثبت ذلك، سواء في مساعدته أو

عدم مساعدته في إزالة يابو. وقد ساعد بالفعل بمعجزة، وأثبت نفسه مرات عديدة. كان التحقيق في أمر الخدم اقتراحاً من أومي. معظم إن لم يكن كل الأفكار الجيدة التي كانت ليابو قد جاءت من أومي. قبل شهر، اكتشف أومي تفاصيل مؤامرة يابو السرية مع بعض ضباط إيزو في كتيبة البنادق لاغتيال ناجا وبقية الضباط البنين في أثناء المعركة.

سأل حينما أبلغه أومي سرّاً في ميشيما، بينما كان في انتظار نتيجة تحدي ماريكو: «لا يوجد شك يا أومي سان؟».

- لا يا سيدي. كيوامي ماتانو من كتيبة إيزو الثالثة في الخارج.

كان ضابط إيزو، رجلاً بديناً ومتوسط العمر، قد عرض له كامل المؤامرة، وقدم كلمات السر، وشرح كيفية تنفيذها: «لم أستطع العيش مع عار هذه المعرفة بعد الآن يا سيدي. أنت زعيمنا الإقطاعي. بالطبع، من الإنصاف أن أقول إن الخطة كانت فقط إذا لزم الأمر. كنت أعتقد أن ذلك يعني إذا قرر يابو ساما تغيير جانبه فجأة في أثناء المعركة. عذراً، كان من المفترض أن تكون الهدف الرئيسي، ثم ناجا سان. ثم الزعيم سودارا».

- متى أمرت هذه الخطة لأول مرة، ومن يعرف عنها؟

- بعد تشكيل الكتيبة بوقت قصير. يعرف عنها أربعة وخمسون منا... وقد قدمت جميع الأسماء مكتوبة إلى أومي سان. كانت الخطة التي تحمل الاسم الرمزي «شجرة البرقوق»، قد أكدت شخصياً من قبل كاسيجي يابو ساما قبل مغادرته إلى أوساكا آخر مرة.

- شكراً لك. أشيد بولائك. يجب عليك الحفاظ على هذا السر حتى أخبرك. بعدها ستُمنح إقطاعية قيمتها خمسة آلاف كوكو.

- أرجو المعذرة، أنا لا أستحق شيئاً يا سيدي. أطلب إذنًا بالسيوكو بسبب احتفاظي بهذا السر المخزي لفترة طويلة.

- طلبك مرفوض. سيحدث كما أمرت.

- أرجو المعذرة يا سيدي، لا أستحق مثل هذه المكافأة. على الأقل اسمح لي بالبقاء كما أنا. هذا واجبي ولا يستحق مكافأة. في الحقيقة يجب أن أعاقب.

- ما دخلك الآن؟

- أربعمائة كوكو يا سيدي. إنه كافٍ.

- سأفكر فيما قلته يا كيوامي سان.

بعد مغادرة الضابط، قال توراناغا: «ماذا وعدته يا أومي سان؟».

لا شيء يا سيدي. جاء إليّ من تلقاء نفسه بالأمس.

- رجل صادق؟ هل تقول لي إنه رجل صادق

- لا أعلم بشأن ذلك يا سيدي. لكنه جاء إليّ بالأمس، فأسرعت هنا لأخبرك.

- إذن سيكافأ حقًا. مثل هذا الولاء أهم من أي شيء، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي.

- لا تخبر أحدًا هذا.

غادر أومي وبدأ توراناغا يتساءل ما إذا كان ميزونو وأومي قد اختلعا المؤامرة لتشيويه سمعة يابو. أرسل جواسيسه في الحال للتحقق من الأمر. لكن المؤامرة كانت صحيحة، وكان إحراق السفينة سببًا مثاليًا للتخلص من الخائنين الثلاثة والخمسين، الذين وُضعوا بين حراس إيزو تلك الليلة. أما كيوامي ماتانو، فقد أرسله إلى الشمال البعيد مع إقطاعية جيدة، وإن كانت متواضعة.

قال سودارا وكان هو الوحيد الذي أبلغ عن المؤامرة: «بالتأكيد هذا كيوامي هو أخطرهم».

- نعم. وسيُراقب طوال حياته ولن يُوثق به. لكن غالبًا يوجد خير في الأشرار وشر في الأخيار. يجب عليك أن تختار الخير وتتخلص من الشر دون التضحية بالخير. لا يوجد شيء يُهدر بلا طائل في أراضٍ.

فكر توراناغا برضا: نعم، أنت تستحق جائزة يا أومي.

- أنصت يا أومي سان، المعركة ستبدأ في غضون أيام. لقد خدمتني بولاء. في ساحة المعركة الأخيرة، بعد انتصاري، سأعينك زعيمًا على إيزو، وسأجعل سلالتك من عائلة كاسيجي دايميو مجددًا.

قال أومي: «أعتذر يا سيدي، أرجو المعذرة، لكنني لا أستحق مثل هذا الشرف».

- أنت شاب ولكنك تظهر إمكانيات عظيمة تتجاوز عمرك. كان جدك مشابهاً لك تمامًا، ذكيًا جدًا، لكنه لم يكن صبورًا.

تعالت ضحكات السيدات مجددًا، وكان توراناغا يراقب كيكو محاولًا اتخاذ قرار بشأنها، حيث تخلص من خطته الأصلية الآن.

قال أومي مدفوعًا بإحساسه أن توراناغا يرغب أن يُطرح السؤال: «هل يمكنني أن أسأل ماذا تعني بالصبر يا سيدي؟».

ما زال توراناغا ينظر إلى الفتاة، شاعرًا بالدفء تجاهها. قال: «الصبر يعني أن تتحكم في نفسك. توجد سبع مشاعر، أليس كذلك؟ الفرح والغضب والقلق والإعجاب والحزن والخوف والكراهية. إذا لم يسمح الرجل لهذه المشاعر بالسيطرة عليه، فهو صبور. أنا لست قويًا بقدر ما ينبغي، لكني صبور. هل تفهم؟».

- نعم يا سيدي. بوضوح تام.

- الصبر صفة ضرورية جدًا في القائد.

- نعم.

- تلك السيدة على سبيل المثال. إنها تشتت انتباهي، جميلة جدًا، ومثالية جدًا بالنسبة لي. أنا بسيط جدًا على مثل هذه الكائنات النادرة. لذلك قررت أن يكون مكانها في مكان آخر.

قال أومي، مطبقًا عبارات الأدب التي يعرف كلا الرجلين أنها مجرد شكلية إلزامية، رغم أن أومي كان يصلي في داخله كما لم يفعل من قبل، مدرِّكًا ما هو ممكن لكنه غير قادر على طلبه: «لكن يا سيدي، حتى كواحدة من سيداتك الأقل شأنًا....».

قال توراناغا: «أتفق معك تمامًا، لكن الموهبة العظيمة تستحق التضحية».

كان لا يزال يراقبها وهي ترمي مروحتها، وتلتقط مروحة خادماتها في المقابل، وفرحتها معدية. ثم اختفت السيدتان وراء الخيول. فكر توراناغا: أعذر يا كيكو سان، لكن يجب أن أمرك، لأبعدك عن تناول يدي بسرعة. الحقيقة هي أنني حقًا بدأت أعجب بك كثيرًا، رغم أن جيوكو لن تصدق أنني أخبرتها بالحقيقة، ولن يصدقني أومي، ولا حتى أنت نفسك. قال: «كيكو سان تستحق منزلًا خاصًا بها. مع زوج خاص بها».

- من الأفضل لها أن تكون خلية لساموراي من أدنى رتبة على أن تكون زوجة لمزارع أو تاجر، مهما كان ثريًا.

- لا أوافقك الرأي.

بالنسبة لأومي، كانت تلك الكلمات هي نهاية الأمر. قال لنفسه وقد غمره الأسى: إنها الكارما، أخفِ حزنك يا أحمق. لقد قرر زعيمك الإقطاعي. وهذا هو نهاية الأمر. إن ميدوري زوجة مثالية. ستصبح والدتك راهبة، لذا الآن سيسود الانسجام بيتك.

الكثير من الحزن اليوم. والسعادة أيضًا: دايميو إيزو المستقبلي، وقائد الكتيبة، وسيبقى أنجين سان في أنجيرو، وبالتالي ستُبنى السفينة الأولى داخل إيزو... **في إقطاعيتي**. ضع الحزن جانبًا. الحياة كلها حزن. كيكو سان لها الكارما الخاصة بها، وأنا لدي خاصتي، وتوراناجا لديه خاصته، وزعيم يابو يظهر كم من السخيف القلق بشأن هذا أو ذاك أو أي شيء. رفع أومي نظره إلى توراناجا، وقد أصبح ذهنه صافيًا وكل شيء في مكانه.

- أرجو المعذرة يا سيدي، أطلب العفو. لم أكن أفكر بوضوح.
- يمكنك أن تلقي عليها التحية إذا أردت، قبل أن تغادر.
لف أومي رأس يابو وقال: «شكرًا يا سيدي. هل ترغب في دفنه... أم عرضه؟».

- ضعه على رمح مواجهًا الحطام.
- ما كانت قصيدة موته؟
قال أومي:

«ما السحب
سوى حجة للسماء؟
وما الحياة
سوى هروب من الموت؟».

ابتسم توراناجا وقال: «مثير للاهتمام».
انحنى أومي وسلم الرأس الملفوف لأحد رجاله، ثم مر بين الخيول والساموراي نحو الفناء البعيد.
قال برسمية لطيفة: «يا سيدتي، يسعدني أن أراك بخير وسعيدة».

- أنا مع زعيمى يا أومى سان، وهو قوى وراض. كيف لى أن أكون، سوى سعيدة.

- وداعاً يا سيدتى.

- وداعاً يا أومى ساما.

انحنى، مدركةً عمق النهاية الآن، ولم تكن قد أدركت ذلك تمامًا من قبل. تراكت دمة فى عينا ومسحتها، ثم انحنى مجددًا بينما كان يمشى بعيدًا. راقبت خطواته الطويلة والقوية، وكادت أن تنتحب، وقلبها يكاد ينكسر من الحزن، لكنها، كما يحدث دائمًا، سمعت الكلمات التى تكررت كثيرًا فى ذاكرتها، التى قلت بلطف وحكمة: «لماذا تبكين يا صغيرتى؟ نحن من العالم العائم نعيش فقط للحظة، نكرس وقتنا لملذات أزهار الكرز والثلج وأوراق القيقب وصوت الصرصار وجمال القمر فى هلاله وكماله ومولده من جديد، نغنى أغانيها ونشرب الشاي والساكي، نتعرف على العطور ولمسات الحرير، نلمس من أجل المتعة وننجرف، دائمًا ننجرف. أنصتى يا صغيرتى: لا تحزنى أبدًا، دائمًا ننجرف كزهرة زنبق على تيار مجرى الحياة. كم أنت محظوظة يا كيكو تشان، أنت أميرة أوكيو، العالم العائم، انجرفى، عيشى للحظة...».

مسحت كيكو دمة ثانية، دمة أخيرة. أمرت نفسها: كم من السخيف أن تبكى. لا تبكى بعد الآن. أنت محظوظة للغاية. أنت خليفة لأعظم دايميو، حتى وإن كنت أدنى شأنًا وغير رسمية، ولكن ما أهمية ذلك... سيولد أبناؤك ساموراي. أليست هذه أعظم هدية فى العالم؟ ألم يتنبأ العراف بهذا الحظ العظيم الذى لا يُصدق؟ لكن الآن أصبح الأمر حقيقة، أليس كذلك؟ إذا كان عليك البكاء، فتوجد أشياء أهم للبكاء عليها. على البذرة التى كانت تنمو فى بطنك، والتى أخرجها الشاي ذو الطعم الغريب. لكن لماذا تبكين على ذلك؟ كان مجرد «شيء» وليس طفلًا، ومن كان الأب؟ حقًا؟

قالت فى النهاية: «لا أعلم، ليس على وجه اليقين يا جيوكو سان، أعتر، لكننى أعتقد أنه لزعيمى».

كانت تريد أن تحظى بطفله لتربطه بوعده أن يصبح الساموراي.

- ولكن ماذا لو وُلد الطفل بعينين زرقاوين وبشرة فاتحة؟ قد يحدث ذلك، أليس كذلك؟ احسبى الأيام.

- لقد حسبت وحسبت، أوه، كم حسبت.

- إذن كوني صادقة مع نفسك. أعتذر، لكن مستقبلاً يعتمد عليك الآن. أمامك العديد من سنوات الولادة. أنت فقط في الثامنة عشرة من عمرك، طفلة، أليس كذلك؟ من الأفضل أن تكوني متأكدة، أليس كذلك؟

فكرت مجدداً: بلى، كم أنت حكيمة يا جيوكو سان، وكم كنت ساذجة، مسحورة. كان مجرد «شيء» وكم نحن اليابانيين حكماء لمعرفة أن الطفل لا يصبح طفلاً حقيقياً إلا بعد ثلاثين يوماً من ولادته عندما تثبت روحه في جسده وتصبح الكارما غير قابلة للتغيير. كم أنا محظوظة، وأريد ابناً وآخر وآخر، ولا أريد طفلة أبداً. البنات المسكينات. يا آلهة، باركوا العراف، وشكراً شكراً شكراً على الكارما الخاصة بي التي تجعلني مفضلة لدى الدايميو العظيم، وأن أبنائي سيصبحون ساموراي، ورجاءً اجعلي جديرة بمثل هذه العظمة... سألت سويسن الصغيرة، مدهوشة من الفرح الذي بدا وكأنه ينبعث من كيكو: «ما الأمر يا سيدتي؟».

تنهدت كيكو برضا: «كنت أفكر في العراف، وفي زعمي، وفي الكارما، فقط أنجرف وأنجرف...».

تقدمت نحو الفناء، متظلة بمظلتها الحمراء، لتبحث عن تورانا. كان يكاد يختفي بين الخيول والساموراي والصقور في الفناء، لكنها استطاعت رؤية أنه ما زال على الشرفة يشرب الشاي الآن، وفوجيكو تنحني أمامه مجدداً. فكرت: سيحين دوري قريباً. ربما الليلة يمكننا أن نبدأ «شيئاً» جديداً. رجاء... ثم عادت لعبتها وهي غاية في السعادة.

خارج البوابة، كان أومي يمتطي حصانه واندفع به سريعاً مع حراسه، أسرع وأسرع، وكانت السرعة تجدد نشاطه وتنقيه، ورائحة عرق حصانه اللاذعة كانت تسعده. لم ينظر إلى الورا نحوها لأنه لم يكن هناك داع. كان يعلم أنه قد ترك كل شغفه في الحياة وكل ما كان يعشقه عند قدميها. كان متأكداً أنه لن يعرف الشغف مرة أخرى، تلك النشوة التي تجمع الرجل والمرأة. لكن هذا لم يزعجه. فكر بوضوح جليدي جديد: على العكس، أنا أبارك تورانا. لأنه حررتني من العبودية. الآن لا شيء يربطني. لا الأب ولا الأم ولا كيكو. الآن يمكنني أن أكون صبوراً أيضاً. أنا في الحادي والعشرين من عمري، وأنا على وشك أن أصبح دايميو إيزو، ولديّ عالم لأغزوه.

قالت فوجيكو: «نعم يا سيدي؟».

- عليك أن تذهبي مباشرة من هنا إلى أنجيرو. لقد قررت تغيير إقطاعية أنجين سان من حول يوكوهاما إلى أنجيرو. عشرون ري في كل اتجاه من القرية، مع دخل سنوي قدره أربعة آلاف كوكو. ستنتقلون إلى منزل أومي سان.

- هل يمكنني أن أشكرك بالنيابة عنه يا سيدي؟ أعتذر، هل أفهم أنه لا يعلم بشأن هذا بعد؟

- لا. سأخبره اليوم. لقد أمرته ببناء سفينة أخرى يا فوجيكو سان، لتحل محل السفينة المدمرة، وأنجيرو ستكون مكاناً مثالياً لبناء السفن، أفضل بكثير من يوكوهاما. لقد اتفقت مع المرأة جيوكو ليكون ابنها الأكبر كمشرف على أعمال أنجين سان، وستغطي تكاليف المواد والحرفيين من خزائني. ستحتاجين إلى مساعدته في تأسيس نوع من الإدارة.

قالت وقد بدا عليها القلق: «يا سيدي، إن الوقت المتبقي لي مع أنجين سان قصيراً للغاية».

- نعم. سيتعين عليّ العثور له على خلية أخرى... أو زوجة. أليس كذلك؟ نظرت فوجيكو إليه بعينين ثاقبتين وقالت: «رجاء، كيف يمكنني المساعدة؟».

قال توراناغا: «من تقترحين؟ أريد لأنجين سان أن يكون سعيداً. الرجال السعداء يعملون بشكل أفضل، أليس كذلك؟».

استعرضت فوجيكو أفكارها، من يمكن أن تقارن بماريكو؟ ثم ابتسمت وقالت: «نعم. يا سيدي، زوجة أومي سان الحالية، ميدوري سان. أمه تكرهها كما تعلم، وتريد أن يطلقها أومي... أعتذر، ولكنها بدت فضة بغرابة لدرجة أنها قالت ذلك أمامي. إن ميدوري سان سيدة جميلة جداً، وذكية للغاية».

- أعتقد أن أومي يرغب في الطلاق؟

لقد بدأت قطع الأحجية تتضح أمامه.

- لا يا سيدي، أنا متأكدة أنه لا يريد ذلك. أي رجل يرغب حقاً في طاعة والدته؟ ولكن هذا هو قانوننا، لذا كان عليه أن يطلقها منذ أن ذكر والداه ذلك، أليس كذلك؟ حتى وإن كانت أمه سيئة الطباع، فهي بلا

شك تعرف ما هو الأفضل له، بالطبع. أعتذر، يجب أن أكون صادقة، فهذا أمر غاية في الأهمية. بالطبع، لا أقصد أي إساءة يا سيدي، ولكن بر الوالدين هو الأساس في قانوننا؟

قال تورانا جا متأملًا هذا الاقتراح الجديد الموفق: «أتعتقدين أن أنجين سان سيرى أن ميدوري سان اقتراحًا جيدًا؟».

- لا يا سيدي، ليس إذا أمرته بالزواج... ولكن، أعتذر، لا حاجة لأن تأمره بذلك.

- حقًا؟

- ربما يمكنك إيجاد وسيلة لجعله يفكر في الأمر بنفسه. سيكون هذا أفضل بكثير. أما بالنسبة لأومي سان، فبالطبع، يمكنك أن تأمره فقط.

- بالطبع. وأنتِ توافقين على ميدوري سان؟

- نعم. إنها في السابعة عشرة من عمرها، وابنها الحالي بصحة جيدة، وهي من عائلة ساموراي جيدة، لذا ستهب أنجين سان أبناء رائعين. أفترض أن والدي أومي سيصران على أن تتنازل ميدوري عن ابنها لصالح أومي سان، ولكن إن لم يفعلوا، فيمكن لأنجين سان تبنيه. أعلم أن سيدي يحبها لأن ماريكو ساما أخبرتني أنها كانت تمازحه عنها. إنها من نسب ساموراي رفيع، حذرة وذكية للغاية. نعم، سيكون معها بأمان. أيضًا والداها متوفيان الآن، لذا لن يكون هناك أي شعور سيئ منهما بشأن زواجهما من أنجين سان.

فكر تورانا جا في الأمر. قال لنفسه: بالتأكيد عليّ أن أبقى أومي في حالة من عدم التوازن. الشاب أومي يمكن أن يتحول إلى شوكة في خاصرتي بسهولة. حسنًا، لن أضطر إلى فعل أي شيء لإجبار ميدوري على الطلاق. والد أومي سيتخذ قراره النهائي قبل أن يرتكب السيوكو، وزوجته ستصبر على أن يكون آخر شيء مهم يفعله في هذه الحياة هو أن يزوج ابنه بالطريقة الصحيحة. لذا ستطلق ميدوري خلال أيام على أية حال. نعم، ستكون زوجة جيدة للغاية.

- إن لم تكن هي يا فوجيكو سان، ماذا عن كيكو؟ كيكو سان؟

حدقت فوجيكو به مذهولة: «أوه، أعتذر يا سيدي، هل ستتنازل عنها؟».

- ربما. ما رأيك؟

- كنت سأظن أن كيكو سان ستكون خلية غير رسمية مثالية يا سيدي. إنها بديعة ورائعة للغاية. ومع ذلك، أرى أنها ستكون تشتيًا هائلًا لرجل عادي، وأعتذر، سيحتاج أنجين سان إلى سنوات قبل أن يتمكن من تقدير الجودة النادرة في غنائها أو رقصها أو ذكائها. كزوجة؟

سألت مع بعض التحفظ لإظهار عدم الموافقة التام: «سيدات عالم الصفصاف لا يتلقين التدريب نفسه الذي... الذي يتلقاه غيره يا سيدي. مواهبهن تكمن في أماكن أخرى. مسؤولية الشؤون المالية وأمور منزل ساموراي تختلف عن العالم العائم».

- هل يمكنها أن تتعلم؟

ترددت فوجيكو لفترة ثم قالت: «الشيء المثالي لأنجين سان هو ميدوري سان كزوجة وكيكو سان كخليلة».

- هل يمكن أن يتعلموا التعايش مع كل هذه... أممم... سلوكياته المختلفة؟

- إنها ساموراي يا سيدي، وذلك واجبها. تستطيع أن تأمرها بذلك، وكذلك كيكو سان.

- لكن ليس أنجين سان؟

- أنت تعرفه أفضل مني يا سيدي. لكن فيما يخص أمور الفراش و... سيكون من الأفضل أن يفكر في الأمر بنفسه.

- تودا ماريكو ساما كانت لتكون زوجة مثالية له، أليس كذلك؟

أجابت فوجيكو دون أن يرمش لها جفن: «هذه فكرة استثنائية يا سيدي. بالتأكيد كان كلاهما يكن احترامًا عميقًا لبعضهما بعضًا».

قال بجفاف: «نعم، حسنًا، شكرًا لك يا فوجيكو سان. سأفكر فيما قلته. سيكون في أنجيرو خلال عشرة أيام تقريبًا».

- شكرًا لك يا سيدي. إن سمحت لي، أقترح أن يضم ميناء إيتو ومنتجع يوكوسي إلى إقطاعية أنجين سان.

- لماذا؟

- إيتو في حال لم تكن أنجيرو كافية. قد يكون من الضروري وجود مراس أكبر لسفينة ضخمة كهذه. ربما تتوفر هناك. ويوكوسي لـ...

- هل هما كذلك؟

- نعم يا سيدي. وأيضًا...

- هل سبق لك أن زرتها؟

- لا يا سيدي. لكن أنجين سان مهتم بالبحر، وأنت كذلك. كان من واجبي أن أتعلم عن السفن والملاحة، وعندما سمعنا أن سفينة أنجين سان قد احترقت، تساءلتُ إذا كان بالإمكان بناء واحدة أخرى، وإن كان ذلك ممكنًا، فأين وكيف. إيزو خيار مثالي يا سيدي. سيكون من السهل إبقاء جيوش إيشيدو بعيدة.

- ولماذا يوكوسي؟

- لأن الهاتاموتو يحتاج إلى مكان في الجبال حيث يمكن الاستمتاع بالطريقة التي يحق له أن يتوقعها يا سيدي.

كان توراناغا يراقبها من كثب. كانت فوجيكو تبدو خاضعة ووديدة، لكنه يعرف أنها عنيدة مثله، ولن تتراجع عن وجهة نظرها ما لم يأمرها بذلك. قال: «أوافقك الرأي. وسأفكر فيما قلته عن ميدوري سان وكيكو سان».

قالت بتواضع: «شكرًا لك يا سيدي».

كانت سعيدة لأنها أدت واجبها تجاه سيدها وسدّت دينها لماريكو. إيتو من أجل المراسي، ويوكوسي حيث قالت ماريكو أن «حبهما» قد بدأ حقًا. كانت قد أخبرتها ماريكو في إيدو: «أنا محظوظة للغاية يا فوجيكو تشان. رحلتنا هنا جلبت لي من السعادة ما لا أستحقه في عشرين حياة».

- أتوسل إليك أن تحميه في أوساكا يا ماريكو سان. أعذر لكنه ليس مثلنا، ليس متحضرًا مثلنا، رجل مسكين. نيرفانا بالنسبة له هي الحياة وليست الموت.

فكرت فوجيكو مجددًا وهي تبارك ذكرى ماريكو: لا يزال ذلك صحيحًا. ماريكو أنقذت أنجين سان، لم ينقذه أحد غيرها، -لا الإله المسيحي ولا أي آلهة أخرى، ولا أنجين سان نفسه، ولا حتى توراناغا، لا أحد- وحدها ماريكو نو أكييتشي جينساي.

قبل أن أموت، سأبني ضريحًا في يوكوسي وأترك وصية ببناء آخر في أوساكا وآخر في إيدو. سيكون ذلك إحدى أمنياتي الأخيرة يا توراناغا ساما،

وعدت نفسها وهي تنظر إليه بصبر، تشعر بالدفء لتذكرها الأشياء الجميلة الأخرى التي ستُنجز لأجل أنجين سان. ميدوري زوجة له بالتأكيد، وكيكو ليست كزوجة وإنما خليلته، وليست بالضرورة الخليفة الرئيسية، وأن تُمد الإقطاعية لتشمل شيمودا في أقصى جنوب إيزو.

- هل ترغب في أن أغادر في الحال يا سيدي؟

- ابقِ هنا الليلة، ثم اذهبي مباشرةً غدًا. ليس عبر يوكوهاما.

- نعم. فهمت. عذرًا، هل يمكنني أن أستلم إقطاعية سيدي الجديدة بالنيابة عنه - وكل ما تحتويه - حالما أصل؟

- كاوانابي سان سيعطيك الوثائق اللازمة قبل مغادرتك. الآن استدعي كيكو سان رجاءً.

انحنى فوجيكو وغادرت.

تنهد توراناغا. يا للخسارة، ستُنهي تلك المرأة حياتها. إنها قيمة جدًا، وذكىة للغاية. إيتو ويوكوسي؟ إيتو مفهوم، لكن لماذا يوكوسي؟ وما الذي دار بخلدها أيضًا؟

رأى كيكو تتقدم عبر الفناء المحروق بالشمس، قدمها الصغيرتان ترتديان جوارب تابي بيضاء، تكاد ترقص، حلوة وأنيقة بثيابها الحريرية ومظلتها الحمراء، حسد كل رجل في المكان. فكر: يا كيكو، لا أستطيع تحمل ذلك الحقد، معذرةً. لا أستطيع تحملك في هذه الحياة، أعذر. كان ينبغي لك البقاء حيث كنت في العالم العائم، كمحظية من الدرجة الأولى. أو الأفضل، كجيشا. يا له من اقتراح رائع قدمته تلك العجوز. حينها كنتِ ستكونين بأمان، ملكًا للجميع، ومعشوقة الجميع، محور انتحارات مأسوية، وخصومات عنيفة، ولقاءات رائعة، يتملكك الجميع ويخشاك، وتُغدقين بالأموال التي كنتِ ستتعاملين معها بازدراء، أسطورة... ما دام جمالك موجودًا. لكن الآن؟ الآن لا أستطيع الاحتفاظ بك، أعذر. أي ساموراي أهديك له كخليفة يأخذ إلى فراشه سكينًا ذا حدين: إلهاء تائمًا وحسد كل رجل آخر. أليس كذلك؟ قلة من الرجال سيرضون بالزواج منك، عذرًا، لكن هذه هي الحقيقة، وهذا يوم للحقائق. كانت فوجيكو محقة. لم تُدربي على إدارة بيت ساموراي، معذرةً. وحين يزول جمالك... سيدوم صوتك يا طفلة، وذاكاؤك، لكن سرعان ما ستجدين نفسك ملقاةً على كومة نفايات العالم. عذرًا، لكن هذه أيضًا الحقيقة. حقيقة أخرى

هي أن أعلى سيدات العالم العائم يُفضل أن يُتركن في عالمهن ليُدرن بيوتاً أخرى عندما تدركنهن الشيخوخة، حتى الأشهر منهن، ليبكين على العشاق الضائعين والشباب المفقود في براميل من الساكي، مخلوطة بدموعهن. أما الأقل شأنًا، فيُفضل أن يكن زوجات لمزارع أو صياد أو تاجر، أو بائع أرز أو حرفي، من الحياة التي أتين منها... الزهرة النادرة المفاجئة التي تظهر في البرية دون سبب سوى الكارما، لتزهر بسرعة وتختفي بسرعة.

يا له من أمر حزين، حزين جدًا. كيف أعطيك أبناء ساموراي؟

قال له قلبه السري: احتفظ بها لبقية حياتك. إنها تستحق ذلك. لا تخدع نفسك كما تخدع الآخرين. الحقيقة هي أنك تستطيع الاحتفاظ بها بسهولة، تأخذها قليلًا وتتركها كثيرًا، كما تفعل مع تيتسو كو المفضلة لديك، أو كوجو. أليست كيكو مجرد صقر بالنسبة لك؟ ثمينة نعم، فريدة نعم، لكنه مجرد صقر تطعمه من قبضتك، ليطير على فريسة وتعيده بإشارة، لتتركه يحلق بعيدًا بعد موسم أو اثنين، ليختفي إلى الأبد؟ لا تكذب على نفسك، فهذا قاتل. لماذا لا تحتفظ بها؟ إنها فقط صقر آخر، وإن كان مميزًا، يحلق عاليًا، من الجميل مشاهدته، لكنه لا شيء أكثر، نادر بالتأكيد، فريد بالتأكيد، وآه... جيدة في الفراش...

- لماذا تضحك؟ لماذا أنت سعيد جدًا يا سيدي؟

- لأن من المبهج رؤيتك يا سيدتي.

اتكأ بلاكتورن بوزنه على أحد الحبال الثلاثة المتصلة بلوح هيك الحطام. صاح باليابانية: «اسحبوا!!!!».

كان يوجد مائة من الساموراي، جميعهم عراة ما عدا ملابسهم الداخلية، يجرون الحبال بحماس وقوة. كان الوقت بعد الظهيرة والبحر في المد المنخفض، وكان بلاكتورن يأمل أن يتمكن من تحريك الحطام وسحبه إلى الشاطئ لاسترجاع كل ما يمكن إنقاذه. كان قد عدّل خطته الأولية بعد أن اكتشف بسرور أن جميع المدافع قد استخرجوها من البحر في اليوم التالي للإبادة، وكانت في حالة شبه مثالية، كما كانت عندما تركت مصنعها قرب تشاتهام في مسقط رأسه بمقاطعة كينت. بالإضافة إلى ذلك، استرجعوا ما يقارب ألف كرة مدفع، وبعض الذخائر العنقودية والسلاسل والعديد من

القطع المعدنية. كان معظمها مشوهًا ومشروخًا، لكن بلاكتورن كان يملك الأساس لبناء سفينة أفضل مما كان يتوقع.

- رائع يا ناجا سان، رائع.

كان قد هنأه عندما اكتشف مدى حجم استعادة الغنائم.

- شكرًا لك يا أنجين سان، لقد حاولنا جاهدين، أعذر.

- لا بأس، كل شيء على ما يرام الآن.

شعر بالفرح: نعم، الآن يمكن لسفينة السيدة أن تكون أطول قليلًا وأعرض قليلًا، لكنها ستظل تحتفظ بمظهرها كصقر متميز، وسيكون تصميمها رائعًا لا مثيل له.

فكر دون حقد: رودريجز. أنا سعيد لأنك بأمان وبعيد هذا العام، وسيوجد رجل آخر سينقض عليه في العام المقبل. إذا كان فيريرا قائد الأسطول مجددًا، سيكون ذلك هدية من السماء، لكنني لن أعتد على ذلك. ويسعدني أنك بعيد. أنا مدين لك بحياتي، فقد كنت ربانًا عظيمًا.

صاح مجددًا: «اسحبوا!!!!!!».

اهتزت الحبال والبحر يتساقط منها مثل العرق، لكن الحطام لم يتحرك. منذ ذلك الفجر على الشاطئ مع تورانا، وهو يحمل رسالة ماريكو في يديه، واكتشاف المدافع بعد ذلك بفترة قصيرة، لا توجد ساعات كافية في اليوم. رسم مخططات أولية وأعد قوائم وغير الخطط وأعد قوائم أخرى للأشخاص والمواد التي يحتاجها، حريصًا على تجنب الأخطاء. وبعد انتهائه من العمل في النهار، كان يواصل العمل على قاموسه لساعات طويلة في الليل، ليتعلم الكلمات الجديدة التي يحتاجها لشرح ما يريده للحرفيين، ولاكتشاف ما لديهم وما يمكنهم فعله. كثيرًا ما شعر باليأس وقرر أن يطلب مساعدة الكاهن، لكنه كان يعلم أن لا فائدة من ذلك، فقد أصبحت العداوة بينهما ثابتة ولا رجعة فيها.

قال لنفسه دون ألم: الكارما، أشفق على هذا الكاهن لمعتقداته المتعصبة.

- اسحبوا!!!!!!.

أجهد الساموراي أنفسهم مجددًا في مواجهة الرمال والبحر، ثم انطلقت هتافات، وجروا الحبال معًا. تحرك الحطام قليلًا، فزادوا من قوتهم، ثم تحرك

الحطام بالكامل، وسقطوا جميعاً في الرمال. نهضوا وهم يضحكون ويهنتون بعضهم بعضاً، ثم استعدوا لسحب الحبال مرة أخرى، لكن الحطام ظل ثابتاً، وكأنه قد غُرز في الرمال.

أوضح بلاكتورن لهم كيفية سحب الحبال جهة اليمين ثم جهة اليسار، محاولاً تحريك الحطام إلى الجنبين، ولكنها كانت ثابتة كما لو كانت مربوطة بأحد المراسي.

قال بصوت عالٍ بالإنجليزي: «سأضطر إلى استخدام عوامات، وعندها سيرتفع الحطام بفعل المد».

قال ناجا مستغرباً: «عذراً؟».

- أرجو أن تعذرني يا ناجا سان.

أجاب بلاكتورن بلغة الجسد والإشارات في الرمل، لاعتناً عجزه عن فهم الكلمات. شرح لهم كيف يصنعون طوقاً ويربطونه بالأطراف عند المد المنخفض، ليطفو الحطام عند المد العالي، ثم يُسحب إلى الشاطئ. وأوضح أنه بعد المد المنخفض التالي سيكون الأمر أسهل لأنهم سيكونون قد وضعوا بكرات لترسو عليها.

قال ناجا معجباً: «آه، حسناً».

وعندما شرح الأمر لبقية الضباط، امتلؤوا بالإعجاب أيضاً، فيما كانت حاشية بلاكتورن متفاخرين بنوع من الأهمية المعنوية.

لاحظ بلاكتورن ذلك وأشار بإصبعه إلى أحدهم قائلاً: «أين آدابك؟».

- ماذا؟ أوه، أعتذر يا سيدي، رجاءً اعذرني إذا أهنتك.

- اليوم سأعفيك، لكن غداً لا. اسبح في الماء وحرر هذا الحبل.

شعر الساموراي الرونين بالخوف، وأدار عينيه في توتر: «أعتذر يا سيدي، لا أستطيع السباحة».

كان الشاطئ هادئاً تماماً، وعرف بلاكتورن أن الجميع كانوا في انتظار ما سيحدث. كان غاضباً من نفسه، لأن الأمر كان أمراً، ولا إرادياً قد أصدر حكماً بالقتل كان غير مبرر في هذه المرة. فكر قليلاً، ثم قال: «أوامر تورانا ناجا ساما، يجب على كل الرجال أن يتعلموا السباحة. أليس كذلك؟ كل أتباعي يسبحون

في غضون ثلاثين يومًا. يجب أن تتعلم السباحة في ثلاثين يومًا. وأنت، في الماء... ستبدأ درسك الأول الآن».

بدأ الساموراي يسير نحو البحر بخوف، وهو يعلم أنه قد حكم عليه بالموت. انضم إليه بلاكتورن، وعندما غاص رأس الرجل تحت الماء، سحبه بلا رحمة، وأجبره على السباحة، تاركًا إياه يغرق قليلًا لكنه لم يتركه في خطر، حتى وصلا إلى الحطام. كان الرجل يسعل ويتقيأ وهو يتعلق به. ثم سحبه بلاكتورن إلى الشاطئ مجددًا، وقبل أن يصل إلى المياه الضحلة دفعه بعيدًا وقال: «اسبح».

كانت السباحة صعبة بالنسبة للرجل الذي كان يشبه قطعًا نصف غارق. لن يتصرف بتفاخر أمام سيده مرة أخرى. تهللت وجوه رفاقه، وكان الرجال على الشاطئ يتدحرجون في الرمال من شدة الضحك، أولئك الذين يعرفون السباحة.

قال ناجا: «جيد جدًا يا أنجين سان. حكيم جدًا». ضحك مجددًا ثم أضاف: «من فضلك، سأرسل رجالًا لجلب الخيزران. للطوف، أليس كذلك؟ غدًا حاول أن تأتي بجميع الرجال هنا».

- شكرًا لك.

- هل سنسحب الحطام اليوم أيضًا؟

- لا، لا شكرًا...

توقف بلاكتورن وغطى عينيه بيده. كان الأب ألفيتو يقف على تل يراقبهم. قال بلاكتورن: «لا، شكرًا يا ناجا سان. كل شيء انتهى هنا اليوم. رجاء، أعذرني لحظة».

ذهب ليأخذ ملابسه وسيفيه، لكن رجاله جلبوها له بسرعة. ارتدى ملابسه على مهل ووضع سيفيه في حزامه.

قال بلاكتورن: «مساء الخير».

وهو يقترب من الأب ألفيتو. كان الكاهن يبدو مرهقًا، لكن على وجهه ودا كما كان من قبل مشاجرتهم العنيفة خارج ميشيما. ازداد حذر بلاكتورن.

- ومساء الخير لك أيضًا يا ربان. سأغادر هذا الصباح. أردت فقط أن أتحدث معك لحظة. هل تمانع؟

- لا، على الإطلاق.
- ماذا ستفعل؟ هل ستجرب سحب الحطام؟
- نعم.
- أخشى أنه لن يفيدك.
- لا بأس. سأحاول.
- هل تؤمن حقاً أنه يمكنك بناء سفينة أخرى؟
- أجاب بلاكثورن بصبر: «نعم». كان يتساءل في نفسه عما يفكر فيه الأب ألفيتو.
- هل ستجلب بقية طاقمك للمساعدة؟
- قال بلاكثورن بعد لحظة: «لا. يفضلون أن يكونوا في إيدو. عندما تقترب السفينة من الاكتمال... يوجد وقت كافٍ لإحضارهم هنا».
- هم يعيشون مع الإيتا، أليس كذلك؟
- بلى.
- هل هذا هو السبب الذي يجعلك لا تريدهم هنا؟
- أحد الأسباب.
- لا ألومك. سمعت أنهم أصبحوا مشاكسين جداً الآن، وأغلب الوقت في حالة سُكر. هل كنت تعلم أنه منذ قرابة أسبوع، حدث شغب صغير بينهم وأُحرق منزلهم، كما يقال؟
- لا. هل أصيب أحد؟
- لا. لكن ذلك كان فقط بفضل نعمة الرب. في المرة القادمة... يبدو أن أحدهم قد صنع معصرة. شيء فظيع ما يفعله الشراب بالإنسان.
- نعم. مؤسف بشأن منزلهم. لكنهم سيبنونه من جديد.
- أوما الأب ألفيتو برأسه، ثم نظر إلى الحطام الذي يغسلها الأمواج. قال: «أردت أن أخبرك قبل مغادرتي، أنني أعلم ما تعنيه خسارة ماريكو سان بالنسبة لك. لقد تأثرت جداً بقصتك عن أوساكا، لكن بطريقة ما شعرت بالرفع. أفهم الآن ما تعنيه تضحية ماريكو... هل أخبرتك عن والدها، عن تلك المأساة الأخرى؟».

- نعم. بعض منها.
- إذن أنت تفهم. كنت أعرف جو سان كوبو جيداً.
- ماذا؟ تعني أكييتشي جينساي؟
- أعتذر، نعم. هذا هو الاسم الذي يُعرف به الآن. ألم تخبرك ماريكو ساما؟
- لا.
- أطلق عليه التايكو بسخرية لقب جو كوبو، شُوجِن الأيام الثلاثة عشر. استمرت تمرداته... من جميع رجاله إلى السيوكو الكبير... ثلاثة عشر يوماً فقط. كان رجلاً عظيماً لكنه كان يكرهنا، ليس لأننا كنا مسيحيين ولكن لأننا كنا أجنب. كثيراً ما تساءلت إذا كانت ماريكو قد أصبحت مسيحية فقط لتتعلم طرقنا، لتدميرنا. كان يقول في كثير من الأحيان إنني سممت جورودا ضده.
- هل فعلت ذلك؟
- لا.
- ماذا كان عليه؟
- كان رجلاً قصيراً أصلع، فخوراً جداً، قائداً عظيماً وشاعراً ذا مكانة كبيرة. من المؤسف أن ينتهي به الأمر بهذه الطريقة، كل عائلة أكييتشي. والآن آخرهم. ماريكو المسكينة... لكن ما فعلته أنقذ توراناغا، بمشيئة الرب.
- لمس الأب ألفيتو مسبحته بأصابعه. وقال بعد لحظة: «أيضاً يا ربان، قبل مغادرتي أريد أن أعتذر عن... حسناً، أنا سعيد أن الأب الزائر كان هناك لينقذك».
- هل تعتذر عن سفينتي أيضاً؟
- ليس عن إيراسموس، رغم أنني لم أكن متورطاً في ذلك. أعتذر فقط عن أولئك الرجال، بيسارو وقائد الأسطول. أنا سعيد بأن سفينتك قد اختفت.
- لا يمكننا فعل شيء حيال الأمر يا أبت. قريباً ستكون لدي سفينة أخرى.
- ما نوع السفينة التي ستحاول بناءها؟
- واحدة كبيرة وقوية بما فيه الكفاية.

- لتهاجم السفينة السوداء؟
- لأبحر إلى إنجلترا... وأدافع عن نفسي أمام أي شخص.
- سيكون ذلك عبثًا، كل هذا العمل.
- هل ستكون هناك «مشيئة الرب» أخرى؟
- نعم. أو تخريب.
- إذا حدث ذلك وفشلت سفينتي الجديدة، سأبني واحدة أخرى، وإذا فشلت تلك أيضًا، سأبني واحدة أخرى. سأبني سفينة أو أحصل على مكان في سفينة، وعندما أعود إلى إنجلترا، سأطلب أو أستعير أو أشتري أو أسرق سفينة خاصة، ثم سأعود.
- نعم. أعلم. لهذا السبب لن تغادر أبدًا. أنت تعلم الكثير يا أنجين سان. أخبرتك بذلك من قبل وأقولها مجددًا، لكن دون سوء نية. حقًا. أنت رجل شجاع، وخصم عظيم، وشخص يستحق الاحترام، وأنا أحترمك، ويجب أن يكون هناك سلام بيننا. سترى الكثير من بعضنا بعضًا على مر السنين... إن نجا أحدنا من الحرب.
- هل سننجو؟
- نعم. أنت جيد جدًا في اللغة اليابانية. قريبًا ستكون المترجم الشخصي لتوراناجا. لا ينبغي أن نتجادل، أنا وأنت. أخشى أن مصايرنا متشابكة. ألم تخبرك ماريكو سان ذلك أيضًا؟ هي أخبرتني.
- نعم. لم تقل لي ذلك قط. ماذا قالت لك أيضًا؟
- توسلت إليّ أن أكون صديقًا لك، وأن أحملك إن استطعت. يا أنجين سان، لم آت إلى هنا لأستفذك أو لنتجادل، بل لأطلب سلامًا قبل مغادرتي.
- إلى أين ستذهب؟
- أولاً إلى ناجازاكي، عبر السفينة من ميشيما. توجد مفاوضات تجارية يجب إتمامها. ثم إلى حيث يوجد توراناجا، حيث تكون المعركة.
- هل سيسمحون لك بالسفر بحرية، رغم الحرب؟
- نعم. إنهم بحاجة إلينا... مهما كان المنتصر. بلا شك يمكننا أن نكون رجالاً عقاء، ونصنع السلام... أنت وأنا. أطلب ذلك من أجل ماريكو ساما.

ظل بلاكتورن صامتاً لحظة. ثم قال: «لقد كانت لدينا هدنة من قبل، لأنها أرادت ذلك. سأعرض عليك ذلك. هدنة، لا سلام... بشرط أن توافق على ألا تقترب من مسافة ثمانين متراً من حيث توجد ورش بناء سفينتي».

- أوافق يا ربان، بالطبع أوافق... لكن ليس عليك أن تخشاني. هدنة، إذن، تخليداً لذكرى ماريكو. (مدّ يده): شكراً لك.

صافح بلاكتورن يده بقوة. ثم قال ألفيتو: «قريباً ستقام جنازتها في ناجازاكي. ستقام في الكاتدرائية. سيؤدي الأب الزائر الخدمة بنفسه يا أنجين سان. سيُدفن بعض من رمادها هناك».

قال: «ذلك سيسرها». نظر بلاكتورن إلى الحطام للحظة، ثم نظر مجدداً إلى ألفيتو. «يوجد شيء... لم أخبر تورانايا إياه: قبل أن تموت، أعطيتها بركة كما يفعل الكهنة، وأديت لها الطقوس الأخيرة قدر استطاعتي. لم يكن هناك أحد آخر وكانت كاثوليكية. لا أظن أنها سمعتني، لا أدري إذا كانت واعية. وقد فعلت ذلك مرة أخرى عند حرق جثتها. هل... هل كان ذلك هو نفسه؟ هل سيكون ذلك مقبولاً؟ حاولت أن أفعل ذلك أمام الرب، ليس ربي ولا ربك، بل الرب».

- لا يا أنجين سان. نحن نعلم أن ذلك لن يكون مقبولاً. لكن قبل يومين من وفاتها، طلبت الغفران من الأب الزائر ونالته، وقد طُهرت.

- إذن... إذن كانت تعرف طوال الوقت أنها كانت مضطرة إلى الموت... مهما حدث، كانت تضحية.

- نعم، بارك الرب فيها وحفظها.

قال بلاكتورن: «شكراً لإخباري. كنت دائماً قلقاً من أن صلاتي لن تنجح، رغم أنني... شكراً لإخباري».

قال ألفيتو ومد يده مجدداً: «وداعاً يا أنجين سان».

- وداعاً يا تسوكو سان. رجاء أشعل شمعة مني... لأجلها.

- حسناً.

صافح بلاكتورن يده وشاهد الكاهن وهو يبتعد، طويلاً وقوياً، خصماً جديراً بالاحترام. فكر: سنظل أعداء دائماً، كلانا يعلم ذلك، سواء كانت هناك هدنة أم لا. ماذا ستقول لو كنت تعلم خطة تورانايا وخطتي؟ لا شيء أكثر مما هددت به من قبل، أليس كذلك؟ جيد. نحن نفهم بعضنا بعضاً. الهدنة

لن تضر. لكننا لن نلتقي كثيرًا يا تسوكو سان. بينما تُبنى سفينتي، سأحل مكانك كمترجم مع توراناغا والمجالس، وسرعان ما ستخرج من مفاوضات التجارة، حتى وإن كانت السفن البرتغالية تحمل الحرير. وكل ذلك سيتغير أيضًا. أسطولي سيكون البداية فقط. بعد عشر سنوات، سيحكم أسد إنجلترا هذه البحار. لكن أولًا سفينة السيدة، ثم البقية...

سار بلاكثورن بسعادة عائداً إلى ناغا حيث رتب خطط اليوم التالي، ثم صعد التل إلى منزله المؤقت، بالقرب من توراناغا. هناك تناول الأرز والسمك النيء الذي أعده له أحد الطُهاة، فاستمتع به كثيرًا. أخذ طبقًا آخر وبدأ يضحك.

- سيدي؟

- لا شيء.

لكن في ذهنه كان يرى ماريكو ويسمعها تقول: «يا أنجين سان، ربما في يوم ما سنجعلك تحب السمك النيء، وحينها ستكون على طريق النيرفانا... مكان السلام الكامل».

فكر: يا ماريكو، أنا سعيد جدًا لأجل التوبة الحقيقية. وأشكر.

كان يمكنه سماعها تقول: على ماذا يا أنجين سان؟

على الحياة يا عزيزتي ماريكو. أنت...

في مرات عديدة خلال الأيام والليالي، كان يتحدث إليها في ذهنه، يسترجع أجزاء من حياتهما معًا ويحدثها عن يومه، شاعرًا بوجودها بالقرب منه، دائمًا بالقرب لدرجة أنه في مرة أو مرتين نظر خلفه متوقعًا رؤيتها واقفة هناك.

فعلت ذلك هذا الصباح يا ماريكو، لكن بدلًا منك كان بونتارو وبجانبه تسوكو سان، وكلاهما يحدق إليّ. كان لدي سيفي، لكنه كان يحمل قوسه الكبير في يديه. يا حبيبتي، استغرق الأمر كل شجاعتني كي أذهب وأحييهما رسميًا. هل كنتِ تراقبين؟ كنتِ ستكونين فخورة بي، هادئًا كالساموراي، رغم خوفي الشديد. قال بصرامة، متحدثًا عبر تسوكو سان: «أخبرتني السيدة كيريتسوبو والسيدة سازوكو كيف أنك حفظت شرف زوجتي وشرفهن. كيف أنقذتهن من العار. وأشكر يا أنجين سان. أرجو أن تعذر غضبي السابق. أعذر وأشكر». ثم انحنى لي وابتعد، وكنت أرغب في أن تكوني هناك... لتعلمي أن كل شيء محمي ولن يعلم أحد.

كثيرًا ما كان بلاكثورن ينظر خلفه متوقعًا رؤيتها هناك، لكنها لم تكن هناك قط ولن تكون أبدًا، وهذا لم يزعجه. فقد كانت معه إلى الأبد، وكان يعلم أنه سيحبها في الأوقات السعيدة والأوقات المأسوية، حتى في شتاء حياته. كانت دائمًا على حافة أحلامه. والآن كانت تلك الأحلام جميلة، جميلة جدًا، ممتزجة معها رسومات وخطط وتمثال مقدمة السفينة والأشعة وكيفية تركيب العارضة وكيفية بناء السفينة، ثم، فرحة عارمة، الشكل النهائي لسفينة السيدة تحت كامل أشرعتها، تدفعها الرياح الجنوبية الغربية الحادة، مسرعة نحو القناة، تمضي بقوة، والحبال تصرخ، والصواري مشدودة إلى الجهة اليسرى، ثم يأتي النداء: «كل الأشعة جاهزة، العلوية والرئيسية والملكية والقمة العلوي». وتبدأ الحبال في الانفراج، مانحة إياها كل شيء، ليتردد دوي الأشعة وهي تتجه نحو الجهة الأخرى، والنداء يتكرر: «ثابتة كما هي». حيث تستجيب كل قطعة من القماش لصرخته. ثم أخيرًا، بكامل هيبتها، سيدة ذات جمال لا يُقدر بثمن، تتعطف بقوة نحو اليسار قرب بيتشي هيد نحو لندن...

اقترب توراناغا من المرتفع القريب من المعسكر، وحاشيته تحيط به. كانت كوجو على قفازه بعد أن اصطاد على طول الساحل، والآن يتوجه إلى التلال فوق القرية. كان لا يزال أمامه ساعتان من ضوء الشمس، ولم يكن يرغب في إهدار ضوء الشمس، غير متيقن من متى سيتاح له وقتٌ للصيد مجددًا.

فكر: اليوم كان لي. غدا سأذهب إلى الحرب، لكن اليوم كان لترتيب شؤوني، متظاهرًا أن الكانتو آمنة وإيزو آمنة، وأن مسألة خلافتي محسومة... وأنني سأعيش لأرى شتاءً آخر، وفي الربيع سأصطاد بترؤ. كان اليوم رائعًا للغاية.

لقد قتل مرتين مع تيتسو كو التي حلقت كالحم، لم تطلق قط بهذه البراعة، حتى عندما اصطادت مع ناجا بالقرب من أنجيرو... ذلك الانقضاض البديع الذي لا يُنسى القابل للنسيان للإمساك بتلك الحمامة المسنة المخادعة. اليوم اصطادت طائر الكركي الذي يفوقها حجمًا بعدة مرات وعادت إلى الطُعم بإتقان. وقد اكتشفت الكلاب طائرًا من الحجل، فأطلق الصقر ليأخذ مكانه في الأعلى. عندما انطلق الطائر، بدأ الصقر بالصعود والانقضاض في

مطاردة دامت طويلًا، حتى جاءت الضربة الحاسمة. وعادت تيتسو كو مجددًا إلى الطَّعم وتغذت من يده بفخر.

والآن كان يصطاد الأرانب. خطر بباله أن أنجين سان قد يستمتع بلحم الأرانب. لذا بدلًا من إنهاء اليوم راضيًا، قرر توراناها الذهاب لاصطياد طعام للطبخ. أسرع في وتيرته، غير راغبًا في الفشل.

قاده فرسانه في الطليعة عبر المعسكر صعودًا على الطريق المتعرج نحو القمة، وكان راضيًا للغاية عن يومه.

نظر بعين فاحصة على المعسكر بحثًا عن أي أخطار، ولكن لم يجد شيئًا. رأى الرجال يتدربون على السلاح - كل التدريبات وإطلاق النار كانت متنوعة ما دام تسوكو سان بالقرب - وكان ذلك يرضيه. وعلى جانب واحد، كانت المدافع العشرون التي أنقذوها بعناية تلمع تحت ضوع الشمس، ولاحظ أن بلاكتورن يجلس متربِّعًا على الأرض بالقرب منها، مركزًا على طاولة منخفضة، كان الآن جالسًا كما يجلس أي إنسان عادي. في الأسفل كان حطام السفينة، وأدرك أنها لم تتحرك بعد، وتساءل كيف سيحضرها أنجين سان إلى الشاطئ إذا لم يتمكنوا من سحبها.

قال توراناها لنفسه بثقة: لأنك ستجلبها إلى الشاطئ يا أنجين سان.

نعم. وستبني سفينتك وسأدمرها كما دمرت الأخرى، أو أتنازل عنها كتنازل آخر للمسيحيين الذين هم أكثر أهمية لي من سفنك يا صديقي، أعذر، وأيضًا السفن الأخرى التي تنتظر في وطنك. سيجلب رفاقك تلك السفن لي، مع المعاهدة مع ملكتكم. ليس أنت. أنا أحتاج إليك هنا.

عندما يحين الوقت المناسب يا أنجين سان، سأخبرك لماذا كان عليَّ أن أحرق سفينتك، وبحلول ذلك الوقت لن تكثرث لأن أمورًا أخرى ستشغلك، وستفهم حينها أن ما قلته لك كان الحقيقة: كان الخيار بين سفينتك وحياتك. وقد اخترت حياتك. أليس هذا صحيحًا؟ عندها سنضحك بشأن «مشيئة الرب»، أنت وأنا. كان من السهل أن أضع حراسة خاصة من رجال موثوقين على متن السفينة، مع تعليمات سرية لنثر البارود بحرية في الليلة المحددة، بعد أن أخبرت ناها - حالما همس لي أومي بمخطط يابو - بتعديل الجدول بحيث تكون الحراسة القادمة من رجال إيزو فقط، وخاصة الخائنين الثلاثة والخمسين. ثم يأتي نينجا واحد من الظلام بقداحة، وتتحول سفينتك إلى شعلة. بالطبع لم يكن أومي ولا ناها جزءًا من هذه المؤامرة.

أعتذر، لكنه كان أمرًا ضروريًا يا أنجين سان. لقد أنقذت حياتك، التي كنت تريدها أكثر من سفينتك. لقد فكرت خمسون مرة أو أكثر في التنازل عن حياتك، لكن حتى الآن تمكنت دائمًا من تجنب ذلك. أمل أن أستمّر في ذلك. لماذا؟ إنه يوم للحقيقة، أليس كذلك؟ الإجابة هي لأنك تجعلني أضحك وأنا أحتاج إلى صديق. لا أجرؤ على تكوين صداقات بين شعبي، ولا بين البرتغاليين. نعم، سأهمس بذلك في بئر عند الظهر، ولكن فقط حين أكون متأكدًا من أنني وحيد، أنني أحتاج إلى صديق واحد. وأيضًا بسبب معرفتك. كانت ماريكو ساما محقة مجددًا. أريد أن أعرف كل شيء تعرفه قبل أن ترحل. أخبرتك أنه لدينا الكثير من الوقت، أنت وأنا.

أريد أن أعرف كيف تقود سفينة حول العالم وأفهم كيف تستطيع أمة صغيرة أن تهزم إمبراطورية ضخمة. ربما تنطبق الإجابة علينا في مواجهة الصين، أليس كذلك؟ لقد كان التايكو محققًا في بعض الأمور.

عندما رأيته لأول مرة، قلت: «لا يوجد عذر للتمرد»، وقلت: «يوجد عذر واحد... إذا انتصرت». لقد قيدتك بي منذ ذلك الحين يا أنجين سان. أنا وأفاقك الرأي. كل شيء جائز إن كنت المنتصر.

من الغباء أن تخفق. لا يُغتفر.

لن تخفق، وستكون آمنًا وسعيدًا في إقطاعيتك الكبيرة في أنجيرو، حيث سيحكمك الصياد مورا من المسيحيين وسيستمر في تزويدهم بمعلومات مضللة وفق توجيهاتي. يا لها من سذاجة من تسوكو سان أن يعتقد أن أحد رجالي -حتى لو كان مسيحيًا- سيسرق دلائك البحرية ويعطيها سرًا للكهنة دون علمي أو توجيهي. يا مورا، لقد كنت مخلصًا لأكثر من ثلاثين عامًا، وقريبًا ستحصل على مكافأتك. ماذا سيقول الكهنة لو علموا أن اسمك الحقيقي هو أكيرا تونوموتو، الساموراي الجاسوس بتوجيهي، وأيضًا صياد ورئيس قرية ومسيحي؟ سيصابون بالصدمة، أليس كذلك؟

لذا لا تقلق يا أنجين سان، فأنا أفكر في مستقبلك. أنت في أيدي قوية وآمنة، ويا له من مستقبل قد خططت لك.

صاحت كيكو: «سأكون خلية للهمجي، أوه أوه أوه؟».

كان قد أخبر كيكو وجيوكو بالحقيقة مجدداً محاولاً تهدئة الفتاة المذعورة ومنحها الاحترام: «نعم، في غضون شهر. لقد وافقت فوجيكو سان رسمياً. وألف كوكو سنوياً بعد ولادة الابن الأول لأنجين سان».

- ماذا، ألس... ماذا قلت؟

كرر الوعد وأضاف بلطف: «بعد كل شيء، الساموراي هو ساموراي، والسيفان هما سيفان، وأبناؤه سيكونون ساموراي. إنه هاتاموتو، أحد أهم أتباعي، وأدميرال جميع سفني، ومستشار شخصي مقرب... حتى صديق، حسنًا؟».

- أعذر، ولكن يا سيدي...

- أولاً ستكونين خليلته.

- عذراً، أولاً يا سيدي؟

- ربما يجب أن تكوني زوجته. فوجيكو سان أخبرتني أنها لا ترغب في الزواج مجدداً، لكن أعتقد أنه يجب أن يتزوج. لماذا لا تكونين أنت؟ إذا أسعدته بما يكفي، وأظن أنك تستطيعين ذلك، ومع الحفاظ على واجب في إبقائه يعمل على بناء سفينته... أليس كذلك؟ بلى، أعتقد أنك يجب أن تكوني زوجته.

- أوه نعم، أوه نعم، أوه نعم.

ألقت ذراعيها حوله وباركته واعتذرت عن اندفاعها وسوء أدبها لقطع حديثه وعدم الإنصات بانتباه، ثم تركته، تمشي وكأنها تطفو فوق الأرض، بعد أن كانت قبل لحظات على وشك أن تلقي بنفسها من أقرب جرف.

فكر توراناغا وهو مبتسم وراضٍ للغاية: يا لهن من نساء. الآن حصلت على كل ما تريد، وكذلك جيوكو... إذا بُيّت السفينة في الوقت المحدد، وذلك سيحدث... والكهنة أيضاً، وكذلك...

- سيدي!

أشار أحد الصيادين إلى مجموعة من الشجيرات بجانب الطريق. شد لجام حصانه وأعد كوجو، وهو يفك الأربطة التي تثبتها على قبضته. أمر بهدوء: «الآن».

فأرسل الكلب.

انطلق الأرنب من بين الشجيرات، مسرعاً نحو الملجأ، وفي تلك اللحظة أطلق توراناغا كوجو. بقوة هائلة، ضربت جناحيها وتوجهت في مطاردة مستقيمة كالسهم، تلحق بالحيوان المذعور. أمامها على بعد سبعين متراً عبر الأرض المتموجة، كانت توجد غابة كثيفة، والأرنب ينعطف بسرعة في محاولته للوصول إلى الأمان، بينما كانت كوجو تقلص المسافة، تقطع المسارات، تقترب أكثر فأكثر على بعد بضعة أمتار من الأرض. وفجأة كانت فوق فريستها، فانقضت عليها، والأرنب يصرخ ويتراجع، ليحاول الهروب مجدداً، بينما كوجو تلاحقه مجدداً، تصرخ بغضب لأنها أخطأت. انطلق الأرنب في محاولة أخيرة للوصول إلى الملجأ، لكنه صرخ عندما ضربته كوجو مجدداً، وأحكمت قبضتها بمخالبها على عنقه ورأسه، متمسكة بشجاعة، ضاغطة بجناحيها، غير مبالية بتشنجات الحيوان ونضاله، وبكل سلاسة كسرت عنقه. أطلق الأرنب صرخة أخيرة. تركت كوجو الفريسة للحظة، قفزت في الهواء، ثم هزت ريشها في حركة عنيفة لتعيد ترتيبه، ثم عادت واستقرت على الجسد الدافئ الذي كان ما يزال يرتجف، وغرزت مخالبها في قبضتها المميتة. بعدها أطلقت صرخة انتصارها وهسهست بسرور بسبب القتل. وكانت عيناها تتابعان توراناغا.

تقدم توراناغا واقترب، وترجل عن حصانه مقدماً الطعم. تركت كوجو فريستها بطاعة، ثم، بينما أخفى الطعم بحذر، استقرت على قفاز توراناغا الممدود. أمسك بأربطة قدميها، وكان يشعر بقوة قبضتها من خلال الجلد المدعم بالصلب في الإصبع التي كانت تثبت عليه.

قال مكافئاً إياها بقطعة صغيرة، جزء من أذن الأرنب الذي قطعه أحد الصيادين له: «لقد أحسنتِ يا جميلتي. تفضلي استمتعي بها، ولكن ليس كثيراً... ما زال لديك عمل للقيام به».

ابتسم الصياد وهو يرفع الأرنب قائلاً: «سيدي، لا بد أنه ثلاثة أو أربعة أضعاف وزنها. هذا أفضل صيد رأيناه منذ أسابيع، أليس كذلك؟».

- بلى. أرسل الأرنب إلى المعسكر من أجل أنجين سان.

صعد توراناغا على السرج مجدداً، مشيراً إلى الآخرين بالتقدم لمواصلة الصيد.

نعم، كان القتل جيداً، لكنه لم يحمل أيّاً من الإثارة التي يشعر بها في صيد الشاهين. صقر الباز ليس سوى ما هو عليه، طائر للطهارة، قاتل، وُلد ليقتل أي شيء وكل شيء يتحرك. مثلك يا أنجين سان، أليس كذلك؟
نعم، أنت صقر قصير الجناح. ولكن ماريكو كانت شاهيناً.

تذكرها بوضوح، وتمنى من كل قلبه لو لم يكن من الضروري أن تذهب إلى أوساكا، ومن ثم إلى العدم. أقنع نفسه بصبر: ولكنه كان ضرورياً. كان لا بد من تحرير الرهائن. ليس من أهلي، بل كل الآخرين. الآن لدي خمسون حليفاً آخرين ملتزمين سرّاً. شجاعتك وشجاعة السيدة إيتسو وتضحيتكما قد جمعتهم كلهم، وكل عائلة مايدا إلى جانبي، ومن خلالهم، الساحل الغربي بأكمله. كان لا بد من إخراج إيشيدو من مخبئه الذي لا يُخترق، وتفكيك الأوصياء، وإخضاع أوتشيبيا وكياما. فعلت كل هذا وأكثر: منحني الوقت. وحده الوقت يصنع الفخاخ ويقدم الطعوم.

يا ماريكو تشان، من كان يظن أن فتاة صغيرة مثلك، ابنة جوسان كوبو، خصمي القديم، الخائن الأكبر أكييتشي جينساي، قد تفعل كل هذا وتحقق هذا القدر من الانتقام بكل هذا الجمال والكرامة تجاه التايكو، عدو والدك وقاتله. هجوم واحد مهيب مثل تيتسو كو، وقضيت على كل فرائسك التي هي فرائسي.

كم هو محزن أنك لم تعودي هنا. مثل هذا الولاء يستحق مكافأة خاصة.
كان توراناغا الآن على القمة، فتوقف ونادى على تيتسو كو. أخذ الصقار كوجو منه، وداعب توراناغا الشاهين الملتزمة على قبضته للمرة الأخيرة، ثم رفع الغطاء عن عينيها وأطلقها في السماء. راقبها وهي ترتفع في دوائر، تتسلق للأعلى، تبحث عن فريسة لن يطلقها أبداً. قال لروحها: حرية تيتسو كو هي هديتي لك يا ماريكو سان، شاهد الصقر وهي تعلو أعلى وأعلى. لتكريم ولائك لي وتفانيك في أهم قواعدينا: ألا يستريح الابن البار أو الابنة البارّة تحت السماء نفسها بينما قاتل والدها لا يزال حياً.

قال الصقار: «كم أنت حكيم يا سيدي».

- ماذا؟

- لإطلاق تيتسو كو، لتحريرها. ظننتُ في آخر مرة أطلقتها فيها أنها لن تعود أبداً، لكن لم أكن متأكداً. يا سيدي، أنت أعظم صقار في المملكة، الأفضل، لتعرف، ولتكون واثقاً جداً متى تُعيدها إلى السماء.

سمح توراناغا لنفسه بأن يتجههم، مما جعل الصقار يشحب غير مدرك السبب، فسارع بإعادة كوجو وتراجع على عجل.

فكر توراناغا بضيق: نعم، كانت تيتسو كو تستحق هذا، لكن مع ذلك، كانت هدية رمزية لروح ماريكو ولجودة انتقامها.

نعم. لكن ماذا عن جميع أبناء الرجال الذين قتلتهم؟

أجاب نفسه: هذا مختلف، كل أولئك الرجال استحقوا الموت. ومع ذلك، تظل دائماً حذراً ممن يقترب منك على مسافة السهم... هذا احتراز طبيعي. سرته هذه الملاحظة وقرر أن يضيفها إلى الإرث.

نظر بعينين ضيقتين إلى السماء مجدداً وراقب الصقر، التي لم تعد صقره الآن. كانت مخلوقة ذات جمال هائل هناك، حرة، بعيداً عن كل الدموع، تحلق بلا عناء. ثم أخذتها قوة غامضة ودارت بها نحو الشمال حتى اختفت.

قال ثم وجه انتباهه إلى الأرض أدناه: «تيتسو كو، شكراً لك. ليكن لك العديد من البنات».

كانت القرية مرتبة تحت ضوء الشمس الغارب، وأنجين سان لا يزال جالساً بجوار طاولته، الساموراي يتدربون، والدخان يتصاعد من نيران الطهي. على الجانب الآخر من الخليج، على بعد عشرين ري تقريباً، تقع إيدو. أربعون ري جنوب شرقها تقع أنجيرو. وعلى بُعد مائتين وتسعين ري غرباً تقع أوساكا، وشمالاً من هناك بالكاد ثلاثين ري، تقع كيوتو.

فكر: هناك حيث ينبغي أن تكون المعركة الرئيسية. بالقرب من العاصمة. شمالاً حول جيفو أو أوجاكي أو هاشيما، على طول طريق ناكاسيندو؟ الطريق الشمالي العظيم. ربما حيث ينحني الطريق جنوباً نحو العاصمة بالقرب من القرية الصغيرة سيكيجاهارا في الجبال. في مكان ما هناك. سأكون آمناً لسنوات خلف جبالي، لكن هذه هي الفرصة التي انتظرتها: شريان إيشيدو غير محمي.

سيكون هجوم الرئيسي على طول الطريق الشمالي وليس طريق توكايدو الساحلي، رغم أنني بين الحين والآخر سأدعي التغيير خمسين مرة.

أخي سيركب معي. نعم، أعتقد أن زاتاكي سيقنع نفسه أن إيشيدو قد خانه لصالح كياما. أخي ليس أحمق. وسأوفي بوعدى المقدس بالسعي إلى أوتشيبا من أجله. خلال المعركة، أظن أن كياما سيغير موقفه، أعتقد أنه سيغير موقفه، وعندما يفعل، إذا فعل، سيسقط على عدوه المكروه أونوشي. تلك ستكون إشارةً للأسلحة للهجوم، سأقلب جوانب جيوشهم وسأنتصر. نعم، سأنتصر... لأن أوتشيبا بحكمتها لن تسمح للوريث بأن يقود الجيش ضدي. هي تعلم أنه إذا فعلت ذلك، سأكون مجبراً على قتله، أعذر.

بدأ توراناغا يبتسم بخفية. حالما أنتصر، سأمنح كياما جميع أراضي أونوشي، وأدعوه لتعيين ساروجي وريثاً له. وحالما أصبح رئيساً لمجلس الوصاية الجديد، سنعرض اقتراح زاتاكي على السيدة أوتشيبا، التي ستشعر بإهانة شديدة بسبب وقاحته لدرجة أن الأوصياء -لإرضاء السيدة الأولى والوريث- سيتعين عليهم بكل أسف إلى دعوة أخي للموت. ومن يجب أن يحل محله كوصي؟ كاسيجي أومي. سيصبح كياما فريسة لأومي... نعم، هذا حكيم، وسهل جداً لأنه بحلول ذلك الوقت، لا شك أن كياما زعيم المسيحيين جميعاً سيكون قد تجرأ على إظهار دينه، الذي لا يزال مخالفاً لقوانيننا. مراسيم الطرد التي أصدرها التايكو ما زالت سارية، أليس كذلك؟ وبكل تأكيد سيقول أومي والباقون: «أصوت لتنفيذ المراسيم». وفورَ رحيل كياما، لن يكون هناك وصي مسيحي مجدداً، وسنحكم قبضتنا بصبر على هذه العقيدة الأجنبية الغبية ولكن الخطرة، التي تهدد أرض الآلهة، والتي لطالما كانت تهدد الوا... لذا يجب محوها. نحن الأوصياء سنشجع أبناء وطن أنجين سان على السيطرة على تجارة البرتغاليين. في أقرب وقت ممكن، سيأمر الأوصياء بتقييد جميع التجارة وجميع الأجانب في ناجازاكي، في جزء صغير منها، تحت حراسة مشددة. وسنغلق البلاد أمامهم إلى الأبد... أمامهم وأمام بنادقهم وسومومهم. الكثير من الأشياء الرائعة التي سأقوم بها حالما أنتصر، إذا انتصرت، عندما أنتصر. نحن شعب يمكن التنبؤ به بسهولة.

ستكون هذه حقبة ذهبية. ستقيم أوتشيبا والوريث محكمتها المهيبة في أوساكا، ومن وقت لآخر سننحني أمامهما ونواصل الحكم باسمه خارج قلعة أوساكا. وفي غضون ثلاث سنوات تقريباً، سيدعونني ابن السماء لحل المجلس وتولي منصب الشوجن حتى يبلغ ابن أخي سن الرشد. سيُحل الأوصياء عليّ لقبول ذلك، وبكل تردد، سأقبل. وبعد عام أو عامين، ودون أي

مراسم، سأتنحى لصالح سودارا، وأحتفظ بالسلطة كالمعتاد، وأبقي عيني موجهتين نحو قلعة أوساكا. سأواصل الانتظار بصبر، وفي يوم ما سيرتكب هذان المغتصبان خطأً، وحينها سيخفتان وستصبح قلعة أوساكا مجرد حلم آخر داخل حلم، والجائزة الحقيقية للعبة الكبرى التي بدأت منذ أن كنت قادرًا على التفكير، والتي أصبحت ممكنة في اللحظة التي مات فيها التايكو، الجائزة الحقيقية ستكون: الشوجنية.

هذا ما حاربت من أجله وخططت له طوال حياتي. أنا وحدي وريث المملكة. سأصبح الشوجن. وقد بدأت سلالة حاكمة.

كل هذا أصبح ممكنًا الآن بفضل ماريكو سان والغريب الهمجي الذي جاء من بحر الشرق.

يا ماريكو سان، لقد كانت الكارما الخاصة بك أن تموتي بمجد وتعيشي للأبد. أنجين سان يا صديقي، إن الكارما الخاصة بك هي ألا تغادر هذه الأرض أبدًا. والكارما الخاصة بي هي أن أصبح الشوجن.

رفرفت كوجو، صقر الباز، على معصمه واستقرت تراقبه. ابتسم توراناغا لها. لم أختَر أن أكون ما أنا عليه. إنها الكارما.

مكتبة

t.me/soramnqraa

في ذلك العام، عند فجر اليوم الحادي والعشرين من الشهر العاشر، شهر الآلهة الغائية، اصطدمت الجيوش الرئيسية. كان ذلك في الجبال قرب سيكيهاهارا، على امتداد الطريق الشمالي، وكان الطقس قاسيًا، ضباب ثم صقيع. وبحلول وقت متأخر من بعد الظهر، كان توراناغا قد حسم المعركة وبدأت المذبحة. قُطع أربعون ألف رأس.

وبعد ثلاثة أيام، قُبض على إيشيدو حيًّا، فذكره توراناغا بالنبوءة بلطف، وأرسله مقيّدًا إلى أوساكا ليُشاهده العامة. وأمر الإيتا بدفن القائد الزعيم إيشيدو في الأرض من قدمه، بحيث تبقى رأسه فقط في الخارج، ودعا المارة ليحاولوا قطع عنقه الشهير بمنشار من الخيزران. صمد إيشيدو لثلاثة أيام قبل أن يموت وقد بلغ من العمر عتيًا.

شوجن

ثقافتان

نمطان مختلفان للحياة.

تتصادم العوالم عندما يجد الربان الإنجليزي جون بلاكثورن نفسه ضائعاً على شواطئ اليابان في القرن السابع عشر.

بعد أن ضلَّ الإنجليزي بلاكثورن طريقه في عرض البحر، يستيقظ ليجد نفسه في مكان قلما يعرفه الأوروبيون ولم يره سوى عدد أقل - اليابان. دُفِعَ إلى المجتمع المنغلق لليابان، حيث الخط الفاصل بين الحياة والموت رفيع كحد السيف. يجب على بلاكثورن التعامل ليس فقط مع شعب أجنبي بعادات ولغة مجهولة، بل مع مفاهيمه الخاصة عن الأخلاق والحقيقة والحرية. وبينما يؤدي الصراع السياسي الداخلي وصدام الثقافات إلى صراع حتمي لا مفر منه، يتعرض ولاء بلاكثورن وقوة شخصيته لاختبارات العاطفة والخسارة، ليجد نفسه ممزقاً بين عالمين سيتغير كل منهما إلى الأبد.

تتناول شوجن ببراعة الفخامة والواقعية القاسية للحياة في اليابان الإقطاعية. لقد أسرت هذه الملحمة العالم لتصبح واحدة من أكثر الروايات مبيعاً على الإطلاق، وكذلك أحد أعلى المسلسلات التلفزيونية تقييماً. شوجن كما وصفتها صحيفة نيويورك تايمز: "ليست مجرد رواية تقرأها.. بل تعيشها".



telegram @soramnqraa

غلاف: محمود هشام

مكتبة
t.me/soramnqraa



www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb